الكامل

لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد

عارضه بأصوله وعلق عليه

محمد أبو الفضل إبراهيم   السيد شحاتة

الجزء الثالث

دار نهضة مصر
للطبع والنشر

مطبعة نهضة مصر بالفجالة

باب[1]

قال أبو العباس : وهذا باب اشترطنا أن نَخرُجَ فيه من حزْن إلى سَهْلٍ ، ومن جِدٍّ إلى هزْلٍ ، ليستريحَ إليه القارئ ، ويدْفعَ عن مُسْتَمِعِهِ المَلالَ ، ونحنُ ذاكرونَ ذلكَ إن شاء الله .

[لبكر بن النطاح يمدح مالك بن على الخزاعى]

قال بَكْرُ بن النَّطّاح فى كَلِمةٍ يمدحُ فيها[2] مالكَ بن عليٍّ الخُزَاعِيَّ :

عَرَضْتُ عليها ما أرادتْ من المُنَى ... لترْضَى ، فقالتْ قُمْ فجئْنا بكوْكَبِ

فقلتُ لها هذا التعَنُّتُ كلّهُ ... كمن يَتَشَهَّى لحم عَنقاء مُغْرِبِ[3]

فلو أنني أصْبحْتُ فى جُودِ مالكٍ ... وعِزّتِهِ ما نالَ ذلكِ مَطْلبى[4]

فَتًى شَقِيَتْ أموالُه بسَماحِهِ ... كما شَقِيَتْ قَيْسٌ بأَسيافِ تَغْلبِ

[للخليع يمدح عاصما الغسانى]

وقال الخَليعُ[5] فى كلمةٍ له[6] يمدح بها عاصما الغسّانىّ :

أقولُ ونفسِى بين شوْقٍ وحَسْرَةٍ ... وقد شَخَصَتْ عينِى ودَمْعِى على خَدِّى[7]

---

(١) هذا العنوان ثابت فى الأصل ، س ؛ وهو ساقط من ر .

(٢) ر : « مدح بها » ، وما أثبته عن الأصل ، س .

(٣) قال فى اللسان : « العنقاء : طائر ضخم ليس بالعقاب ، وقيل : العنقاء المغرب ، كلمة لا أصل لها ؛ يقال إنها طائر عظيم لا ترى إلا فى الدهور ، ثم كثر ذلك حتى سموا الداهية عنقاء مغربا ومغربة » . مادة — عنق .

(٤) فى س ، هذا البيت قبل سابقه .

(٥) الخليع لقب الحسين بن الضحاك ، أحد شعراء الدولة العباسية

(٦) كلمة « له » ساقطة من ر .

(٧) شخصت عينى : ارتفع جفناها من كثرة السهاد .



وقال فى كلمةٍ أخرى له [١] :

وإذا جُدِدتَ فكلُّ شىء نافعٌ وإذا حُدِدتَ فكلُّ شىءٍ ضائرُ [٢]
وإذا أتاكَ مُهَلَّبِىٌّ فى الوغى والسيفُ فى يدِه فنِعْمَ النّاصِرُ

[فى مقتل مصعب بن الزبير]

وقال عبدُ الله بن الزُّبَيْرِ لما أتاه قتلُ مُصْعَبِ بن الزبيرِ : أَشَهِدَه المهلّبُ ابن أبى صُفْرَةَ ؟ قالوا : لا ، كان المهلَّب فى وجُوهِ الخوارج . قال : أفَشَهِدَه عَبَّادُ بن الحُصيْن الحَبَطِىُّ ؟ قالوا : لا . قال : أفَشَهِدَهُ عبد الله بن خازِمٍ السُّلَمِىّ ؟ قالوا : لا ، فتمثَّلَ عبدُ الله بن الزُّبَيْرِ :

فقلتُ لها عِيثِى جَعَارِ وجَرِّرِى بِلَحْمِ امرِئٍ لم يَشْهَدِ اليومَ ناصِرُه [٣]

جَعَارِ : اسمٌ من أسماء الضَّبُعِ ، وهى صفةٌ غالبةٌ ، لأنه يقال لها : جاعِرَة ، فهذا فى بابه كفَسَاقِ ، ولَكَاعِ ، وحَلَاقِ ، للمَنِيَّةِ . وقد فسَّرنا هذا الباب مُستقْصًى على وجوهه الأربعة .

[ابنة جارية همام بن مرة]

ويُرْوَى أن ابنةَ جاريةٍ لِهَمَّامِ بن مُرَّةَ بن ذُهْلِ بن شَيْبَانَ قالتْ له يوماً :

أَهَمَّامُ بن مُرَّةَ حَنَّ قَلْبِى إلى اللّاتى يَكُنَّ مَعَ الرِّجالِ

---

(١) كلمة « له » ساقطة من ر ، س .

(٢) حددت : منعت ؛ يقال : حده عن الأمر يحده حداً ، منعه عنه خيراً كان أم شراً . وجددت ، أى رزقت الجد ، وهو الحظ .

(٣) من أبيات الكتاب ٢ : ٣٨ ؛ وينسب إلى النابغة الجعدى .

أتريحى بقتلٍ مَنْ تَرَكتِ فؤادَهُ … بلحظتِه بينَ التأسُّفِ والجَهدِ

فقالتْ : عذابٌ بالهوى[1] قبلَ ميتةٍ … وموتٌ إذا أقرحتَ قلبكَ من بَعْدى[2]

لقد فطنَتْ للجوْرِ فِطنةَ عاصمٍ … لِصُنْعِ الأيادى الغرِّ فى طَلَبِ الحمدِ

سأشكوكِ فى الأشعارِ غيرَ مُقصِّرٍ … إلى عاصمٍ ذى المكرُماتِ وذى المَجدِ

لعلَّ فتى غسَّانَ يجمعُ بيننا … فتأمَنَ نفسى منكُم لَوعَةَ الصَّدِّ

[لأبى العتاهية فى العتاب]

وقال إسماعيل بن القاسم[3] :

إنَّ السَّلامَ وإنَّ البِشْرَ من رَجُلٍ … فى مِثلِ ما أنتَ فيه ليس يكفينى

هذا زمانٌ ألحَّ الناسُ فيه على … زَهْوِ الملوكِ وأخلاقِ المساكينِ

أمَا علمتَ جزاكَ اللهُ صالحةً … عَنِّى وزادكَ خيراً يا بْنَ يقطينِ

أنّى أريدكَ للدنيا وعاجلِها … ولا أريدكَ يومَ الدِّينِ للدِّينِ

[ليزيد بن محمد يمدح إسحاق بن إبراهيم]

وقال يزيدُ بن محمد [بن المُهلَّبِ][4] المَهلَّبىُّ فى كلمةٍ يمدحُ بها إسحاق بن إبراهيمَ :

إنْ أكنْ مُهدِيًا لكَ الشعرَ[5] إنّى … لَابْنُ بيتٍ تُهدَى له الأشعارُ

غيرَ أنى أراكَ من أهلِ بيتٍ … ما على الحُرِّ - أنْ يسودوهُ - عارُ

* * *

---

(١) ر : « فى الهوى » ، وما أثبته عن الأصل ، س .

(٢) يقال : قرح قلب الرجل من الحزن وأقرحه غيره .

(٣) هو المكنى أبا العتاهية .

(٤) من س

(٥) كذا فى الأصل ، س ، وفى ر : « المدح » .

فَارْتَحَلْنا مِن عِنْدِ هذا بحَمْدٍ وارْتَحَلْنا من عِنْدِ هذا بِذَمّ

* * *

وقال عبدُ الصمد بنُ المعَذَّلِ يرثى سَعِيدَ بن سَلْمٍ :

كَمْ يتيمٍ جَبَرْتَهُ بعدَ يُتمٍ وفقيرٍ نَعَشْتَهُ بعدَ عُدْمٍ [1]

كُلّما عَضّتِ الحوادثُ نادَى رَضِيَ اللهُ عن سَعِيدِ بنِ سَلْمِ

* * *

وقال سعيدُ بن سَلْمٍ : عَرَضَ لى أعرابىٌّ فمدَحَنِى فَبلَغَ [2] ، فقال :

ألاَ قلْ لسارِى الليلِ لا تَخْشَ ضَلّةً سعيدُ بن سَلْمٍ ضَوْءُ كلِّ بلادِ

لنا سَيِّدٌ أرْبَى على كلِّ سَيِّدٍ جَوَادٌ حَثَا فِى وَجهِ كلِّ جَوَادِ [3]

قال : فتأخّرْتُ عن برِّهِ قليلًا ، فهجانِى فَبلَغَ [4] ، فقال :

لِكلِّ أخِى مَدْحٍ ثوابٌ يُعِدُّهُ وليس لِمَدْحِ الباهِلىِّ ثَوَابُ

مَدَحْتُ ابنَ سَلْمٍ والمَدِيحُ مَهَزَّةٌ فكانَ كَصَفْوانٍ عليه تُرابُ [5]

* * *

وقال أبو الشَّمَقْمَقِ :

قالَ لِى الناسُ زُرْ سَعِيدَ بن سَلْمٍ قلتُ للناسِ لا أزورُ سَعِيدَا

وأمِيرِى فَتَى خُزَاعَةَ بالبَصْرَةِ قد عَمَّها سَماحًا وجُودَا

وَلَنِعْمَ الفتَى سَعيدٌ ولكنْ مالكٌ أكْرَمُ البَرِيّةِ عُودَا

---

(١) ر : « كم صغير » . (٢) س : « أبلغ » .

(٣) أى حثا التراب فى وجوه الأجواد ؛ وذلك كناية عن تقصيرهم .

(٤) س : « أبلغ » . (٥) الصفوان : الحجر الأملس .

فقال : يا فَسَاق ! أردتِ صَفيحةً[1] ماضية ، فقالتْ :

أَهَمَّامُ بن مُرَّةَ حَنَّ قلبي ... إلى صلعاءَ مُشْرِفَةِ القَذَالِ[2]

فقال : يا فجار ! أردتِ بَيْضَةً حصينة[3] ، فقالتْ :

أَهَمَّامُ بن مُرَّةَ حَنَّ قلبي ... إلى أَيْرٍ أَسُدُّ به مَبالي

قال : فقتلها .

[من أخبار سعيد بن سلم الباهليّ وما قيل فيه من الشعر]

قال أبو العباس : قال أبو الشَّمَقْمَقِ – وهو مَرْوَانُ بن محمد ، وزَعَم التَّوَّزِيُّ عن أبي عُبَيدةَ قال : أبو الشَّمَقْمَقِ ومنصورُ بن زياد ويَحْيى بن سُلَيْمٍ الكاتِبُ ، مِن أهل خراسانَ ، مِن بُخَارِيَّةِ عُبَيْدِ الله بن زِيَادٍ ، وكان أبو الشمقمقِ رُبَّما لَحَنَ ، ويَهْزِلُ كثيراً ويُجِدُّ ، فيَكْثُرُ صوابُه – قال يمدحُ مالكَ بنَ عليّ الخُزاعيَّ ويَذُمُّ سَعيدَ بن سَلْمٍ الباهليَّ :

قد مَرَرْنا بمالكٍ فوجَدْنا ... هُ جواداً إلى المكارمِ يَنْمِي[4]

ما يُبَالِي أتاهُ ضَيْفٌ مُخِفٌّ ... أم أتاهُ يأجوجُ مِنْ خَلْفِ رَدْمِ[5]

فارتحلنا إلى سَعيدِ بن سَلْمٍ ... فإذا ضَيْفُهُ من الجوعِ يَرْمِي[6]

وإذا خبزُهُ عليه « سَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ » ما بَدَا ضَوْءُ نَجْمِ

وإذا خاتَمُ النبيِّ سُلَيْمَا ... نَ بن داوُدَ قد عَلَاهُ بخَتْمِ

(١) الصفيحة : واحدة الصفائح ؛ وهى السيوف العريضة .
(٢) القذال فى الأصل : جماع مؤخر الرأس من الإنسان والفرس .
(٣) البيضة من الحديد ، تلبس على الرأس تقيه السلاح .
(٤) ر : « كريماً » ، وما أثبته عن الأصل ، س .
(٥) ر : «أم اتقد» ، وما أثبته عن الأصل ، س .
(٦) ر : « فانتهينا » .

خزَيمَةَ لا بَأسٌ بهِ غيرَ أنهُ · لمطبخهِ قُفْلٌ وبابُ حديدِ

* * *

وقال عبدُ الصمد بن المعذَّلِ ، يرثِى عمرو بن سعيدٍ ، وكان عمرو هلَكَ بُعَيْد (١) سعيدٍ بيسير :

رُزِينا أبا عَمْرٍو فقلنا : لنا عَمْرٌو · سَيَكْفِيكَ ضَوْءُ البَدْرِ غَيْبُوبَةَ البَدْرِ
وكانَ أبو عمرو مُعَاراً حياتَهُ (٢) · بعمرو فلمَّا ماتَ ماتَ أبو عَمْرو

* * *

وقال أميرُ المؤمنين الرشيدُ يوماً لسعيدِ بن سَلْمٍ : يا سعيدُ مَنْ بَيْتُ قَيْسٍ فى الجاهليةِ ؟ قال : يا أميرَ المؤمنين ، بنو فَزارةَ ، قال : فَمَنْ بيتُهم فى الإسلام ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، الشَّريفُ (٣) مَنْ شرَّفْتُمُوه ، قال : صدقتَ أنتَ وقومُكَ .

* * *

وحدثنى علىُّ بن القاسم بن علىّ بن سليمان الهاشمىُّ ، قال : حدثنى رجلٌ من أهل مكةَ ، قال : رأيت فى منامى سعيدَ بن سَلْمٍ فى (٤) ، فى حياته و [فى] (٥) نِعْمَتِهِ ، وكثرة عَدَدِ ولَدِه ، وحُسْنِ مذهبه ، وكمالِ مُرُوءَتِهِ ، فقلتُ فى نفسى : ما أَجَلَّ ما أُعْطِيَهُ سعيدُ بن سَلْمٍ ! فقال لى قائلٌ : وما ذَخَره الله له فى الآخرةِ أكثرُ .

* * *

---

(١) ر : « وهلك عمرو بعد » ، وما أثبته عن الأصل ، س .
(٢) ر : « حياته » ، بفتح التاء . (٣) كلمة الشريف ساقطة من ر .
(٤) ر : « أريت سعيد بن سلم فى النوم » . (٥) تكملة من ر ، س .

فقال سعيد: لَوَدِدتُ أنه لم يكنْ ذَكَرَنِي مع مالك، و [أنه] (١) أَخَذَ مِنِّي أُمْنِيَّتَه

* * *

وقال أبو الشمقمق أيضا:

إن كنتَ تطمعُ فى نوالِ سعيدِ ... هيهاتَ تضربُ فى حديدٍ باردِ

والله لو ملكَ البحار بأسْرها (٣) ... وأتاهُ سلمٌ فى زمانٍ مُدُودِ

يَبْغيهِ منها شَرْبَةً لِطُهُورِهِ ... لأَبَى وقال: تَيَمَّمْ بِصَعيدِ

* * *

ومثلُه قولُ الآخرِ:

لو أنَّ قصرَكَ يا بْنَ يوسفَ كلَّهُ ... إبرٌ يَضيق بها فضاءُ المنزلِ

وأتاكَ يوسفُ يستعيرُكَ إبرةً ... ليخيطَ قدَّ قميصِه لم تفعلِ

* * *

وقال مُسْلمُ بن الوَليدِ:

دُيونُكَ لا يُقْضَى الزَّمانَ غَريمُها ... وبُخْلُكَ بُخْلُ الباهِلِيِّ سَعيد

سَعيدُ بن سَلْمٍ أَلأَمُ الناسِ كُلِّهِمْ ... وما قومُهُ من لؤمه بِبَعيدِ (٢)

يزيدَ له فضلٌ ولكنَّ مَزْيداً ... تداركَ منا مَحْتِدَهُ بيزيدِ

---

(١) تكملة من س.

(٣) س: «لو ملك البحور».

(٢) ر: «من بخله»، وما اثبته عن الأصل، س.

وأنشدني رجل[1] من عبد القَيسِ :

أباهِلَ يَنْبحُنِي كلبُكمْ وأُسدُكُمُ كِلابُ العَرَبْ
ولو قيلَ للكلب يا باهِلِيُّ عوَى الكلبُ من لُؤمِ هذا النَّسَبْ

* * *

وحدثني عليُّ بن القاسمِ قال : حدثني أبو قِلَابَةَ الجُرميُّ قال : حججنا مرّةً مع أبي جَزْءِ بن عَمرِو بن سعيد ، قال : وكُنَّا في ذَرَاهُ[2] ، وهو إذ ذاكَ بَهِيٌّ وَضِيٌّ ، فجلسنا في المسجدِ الحرامِ إلى أقوامٍ[3] من بني الحارث بن كَعْبٍ ، لم نَرَ أفْصَحَ منهم ، فرأَوْا هيئةَ أبي جَزْءٍ وإعظَامَنَا إيَّاه مع جمالِهِ ، فقال قائلٌ منهم له : أمِنْ أهل بيتِ الخليفةِ أنتَ ؟ قال : لا ، ولكن رجلٌ من العربِ . قال : ممن الرجلُ ؟ قال : رَجلٌ[4] من مُضَرَ ، قال : أعْرِضْ ثوبَ المُلبِسِ ! مِنْ أيِّها عافاكَ اللهُ ؟ قال : رجلٌ من قيسٍ . قال : أيْنَ يُرادُ بكَ ، صِرْ إلى فصِيلتكَ التي تُؤْوِيكَ ! قال : رجلٌ من بني سعدِ بن قيسٍ ، قال : اللهم غَفْراً ! مِن أيِّها عافاكَ الله ؟ قال : رجل من بني يَعْصُرَ ، قال : مِنْ أيها ؟ قال : رجلٌ من باهِلَةَ . قال : قُمْ عَنَّا ! قال أبو قِلابةَ : فأقبلتُ على الحارثيِّ فقلتُ : أتعرفُ هذا ؟ قال هذا : ذكَرَ أنه باهليٌّ ، قال[5] : قلتَ : هذا أميرُ ابنُ أميرِ ابن أميرِ . . . قال : حتى عَدَدتُ خمسةً ،

---

(١) ر : « وأنشد أبو العباس لرجل » ، وما أثبته عن الأصل ، س .

(٢) ذراه : كنفه .

(٣) ر : « قوم » .

(٤) ساقطة من ر .

(٥) ساقطة من ر .

وكان سعيدٌ إذا استَقْبلَ السَّنةَ التى يستقبل (١) فيها عددَ سِنيهِ أعتقَ نَسَمةً وتصدَّقَ بعشَرَةِ آلافِ درهمٍ ، فقيل للديني : إنَّ سعيدَ بن سَلْم اشترى نفسَه من ربه (٢) بعشرة آلاف درهمٍ ، فقال : إذاً لا يَبيعه .

[مما قالته العرب فى ذم باهلة]

وقال أحمدُ بن يوسفَ الكاتبُ لولدِ سعيدٍ :

أبنِى سعيدٍ إنّكمْ من مَعْشَرٍ   لا يَعْرِفونَ كرامةَ الأضيافِ
قَومٌ لباهِلَةَ بنِ يَعْصُرَ إنْ هُمُ   نَسبوا حَسِبْتَهمُ لعبدِ منافِ
قرَنُوا الغَدَاءَ إلى العَشاءِ وقَرَّبوا   زَاداً لعَمْرُ أبيكَ ليس بكافِ
وكَأَنَّنى لمَّا حطَطْتُ إليهمُ   رَحْلى نزَلْتُ بأبْرَقِ العَزَّافِ (٣)
بَيْنَا كذاكَ أتاهمُ كُبَرَاؤُهمْ   يَلْحَوْنَ فى التبذيرِ والإسْرافِ

وأنشدنى المازِنىُّ :

سَلِ اللهَ ذَا المَنِّ مِن فَضْلِهِ   ولا تسألنَّ أبا وائِـله
فما سألَ اللهَ عبدٌ له   فخابَ ولوْ كان من باهِلَهْ

* * *

[قال أبو الحسن : وزادنى بعضُ أصحابنا :

تَرى الباهِلىَّ على خُبْزِهِ   إذا رَامَهُ آكلٌ آكِلَهْ]

(١) ر : « يستأنف » ، وما أثبته عن الأصل ، س .
(٢) كذا فى الأصل ، س وفى ر : « إن سعيدا يشترى نفسه ... » .
(٣) العزاف ، بتشديد الزاى : جبل من جبال الدهناء .

[فى مجلس قتيبة بن مسلم الباهلى]

وَيَزعمُ الرواة(١) : أن قُتَيْبَةَ بن مُسْلِمٍ لما فتحَ سَمَرْقَنْدَ أَفْضَى(٢) إلى أثاثٍ لم يُرَ مثلُهُ ، وإلى آلات لم يُرَ مثلها(٣) ، فأرادَ أن يُرِيَ الناسَ عظيمَ ما فتحَ الله عليه ، ويُعرِّفهم أقدارَ القومِ الذين ظَهرَ عليهم ، فأمرَ بدارٍ ففرِشَتْ ، وفى صَحْنِها قُدورٌ تُرْتَقَى بالسَّلالِمِ ، فإذا بالحُضَيْنِ بن المنذرِ بن الحارثِ بن وَعْلَةَ الرَّقَاشِيّ قد أقبلَ ، والناسُ جُلوسٌ على مراتِبِهم ، والحُضَيْنُ شيخٌ كبيرٌ ، فلما رآه عبدُ الله بن مسلمٍ قال لقُتيبةَ : ائذنْ لى فى معاتبته ، قال : لا تُرِدْهُ فإنه خبيثُ الجوابِ ، فأبى عبدُ الله إلَّا أن يأذنَ له — وكان عبدُ الله يُضَعَّفُ ، وكان قد تَسَوَّرَ حائطاً إلى امرأةٍ قبلَ ذاك — فأقبلَ على الحُضَيْنِ [بن المنذرِ](٤) فقال : أَمِنَ الباب دخلتَ يا أبا ساسانَ ؟ قال : أَجلْ أَسَنَّ عمُّكَ عن تَسَوُّرِ الحيطانِ ، قال : أرأَيتَ هذه القدورَ ؟ قال : هى أعظمُ من ألَّا تُرَى ، قال : ما أَحْسِبُ بكرَ بن وائلٍ رَأَى مثلَها ! قال : أجلْ ، ولا عَيْلانَ ، لو كان رآها سُمِّيَ شَبْعانَ ، ولم يُسَمَّ عَيْلانَ ، قال له عبدُ الله : يا أبا ساسان ، أتعرِفُ الذى يقولُ :

عَزَلْنا وأَمَّرْنَا وبَكْرُ بن وائلٍ ... تَجرُّ خُصَاها تَبْتَغِى من تُحَالِفُ

قال : أعرِفُه ، وأعرفُ الذى يقولُ :

وخَيْبَةَ مَنْ يَخِيبُ على غَنِيٍّ ... وباهِلَةَ بن يَعْصُرَ والرِّكابِ

---

(١) ر : « الرقاشى » .
(٢) يريد اتسع وصار عريضاً .
(٣) ر : « لم يسمع بمثلها » .
(٤) من س .

هذا أبو جَزْء أميرٌ ، بنُ عمرو ـ وكان أميرا ـ بنُ سعيدٍ ـ وكان أميرا ـ بن سَلْمٍ ـ وكان أميرا ـ بن قتيبةَ ـ وكان أميرا .

فقال الحارثىُّ : الأميرُ أَعْظَمُ أَم الخليفةَ ؟ فقلتُ : بَلِ[1] الخليفةَ ، قال : أفا الخليفةُ أعظم أَم النَّبىُّ ؟ قلتُ : بَلِ النبىُّ ، قال : والله لو عَدَدتَ له فى النبوّةِ أضعافَ ما عددتَ له فى الإمْرة[2] ثم كان باهليًّا ما عَبأَ اللهُ به شيئا . قال : فكادَتْ نفسُ أَبى جَزْء تفيض[3] ، فقلتُ له :[4] انْهَضْ بنا ، فإنّ هؤلاء أسوأُ الناسِ أدبا[5]

* * *

[قال أبو الحسن : يقالُ للرجلِ إذا سُئِلَ عن شىء فأجابَ عن غيره « أعْرَضَ ثوبُ المُلْبِسِ » أى أبْدَى غيرَ ما يُرادُ منه] .

* * *

وحَدَّثتُ أَنْ أعرابيًّا لقِى رجلاً من الحاجِّ ، فقال له : ممن الرجلُ ؟ قال : باهلىٌّ ، قال : أُعيذك بالله من ذلك . قال : إى والله ، وأَنا مع ذلك مولى لهم .

فأقبل الأعرابىُّ يقبّلُ يديه ويتمسّحُ به ، قال له الرجلُ : ولِمَ تفعلُ ذاك ؟ قال : لأنى أَثِقُ بأنّ اللهَ عزّ وجلّ لم يَبْتَلِكَ بهذا فى الدنيا إلّا وأَنتَ من أهلِ الجنة

---

(١) ساقطة من ر .

(٢) ر : « الإمارة » .

(٣) ر : « تخرج » .

(٤) ساقطة من ر .

(٥) ر : « آدابا » .

[للأعشى يمدح هوذة بن على]

وللحارثِ بن وَعْلةَ يقولُ الأعشَى – وكان قَصَدَهُ فلم يَحْمَدْه.. فعرّج[1] عنه إلى هَوْذَةَ بن عليّ ذِى التَّاجِ . وهوذةَ من بنى حَنِيفَهَ بن لُجَيمٍ بن صَعْبِ ابن عَلِيّ بن بَكْرِ بن وَائلٍ ، والحارثُ بن وَعْلَةَ من بنى رَقَاشٍ ، وهى امرأةٌ ، وأبوهم مالكُ بن شَيبانَ بن ذُهْل بن ثَعْلَبةَ بن عُكابَةَ بن صَعْبٍ بن عَلِىّ ابن بكرِ بن وَائِلِ ، فقال الأعشى يَذْكر الحارثَ بن وَعْلة وهَوْذَةَ بن عليّ :

أَتَيْتُ حُرَيْثاً زائراً عن جَنابَةٍ ... فكانَ حرَيْثٌ عن عَطائى جامِدَا
إذَا ما رَأَىْ ذا حاجَةٍ فكأَنما ... يرَى أَسَدًا فى بيتِه وأَساوِدَا
لَعَمْرُكَ ما أَشْبَهْتَ وَعْلَةَ فى النَّدَى ... شَمائِلَه ولا أَبَاهُ مُجَالِدَا
وَإِنَّ امْرَأً قد زُرْتُه قبلَ هذه ... بِجَوٍّ لَخَيْرٌ منك نفسًا ووالِدَا
تَضَيَّفْتُه يوماً فقَرَّبَ مَجْلِسِى ... وَأَصْفَدَنِى على الزَّمانِ قائِدَا
وأَمْتَعَنِى على العَشَا بوَليدةٍ ... فأُبْتَ بخير منك يَاهَوْذَ حامِدَا
فتًى لو يُبارِى الشَّمسَ أَلْقَتْ قِناعَها ... أو القمَرَ السَّارِى لأَلْقَى المَقالِدَا
يرَى جَمْعَ مادُونَ الثلاثين قُصْرَةً ... ويَعْدُو على جمعِ الثلاثينَ واحدَا

وهى كلمةٌ .

قوله : « أَتيتُ حُرَيْثاً » يريدُ الحارثَ ، تصغيرُه على لفظِه[2] : حُوَيْرِثٌ

وهذا التصغيرُ الآخرُ يقال له تصغيرُ التَّرْخِيمِ ، وهو أن تَحْذِفَ

(١) ر: « وهرج » .

(٢) س: « على اللفظ » .

يريدَ : يا خَيْبَةَ مَن يَخِيب . قال : أفتعرفُ الذى يقولُ :

كَأَنَّ فِقاحَ الأزْدِ حَوْلَ ابن مِسْمَعٍ إذا عَرِقَتْ أفواهُ بَكْرِ بن وائِلِ [١]

قال : نعم [٢] ، وأعرفُ الذى يقولُ :

قوم قُتَيْبَةُ أُمُّهُمْ وأبوهُمُ لولا قُتَيْبَةُ أصبحوا فى مَجْهَلِ

قال : أما الشعرُ فأراكَ ترْوِيه ، فهل [٣] تقرأُ من القرآنِ شيئًا ؟ قال : أقرأُ منه الأكثرَ الأطْيبَ : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً ﴾ [٤] قال [٥] : فأَغْضَبه ، فقال : واللهِ لقد بلغنى أنَّ امرأةَ الحُضَيْنِ حُمِلَتْ إليه وهى حُبْلَى من غيره ، قال : فما تَحَرَّكَ الشَّيخُ عن هَيْئَتِه الأُولَى ، ثم قال على رِسْلِهِ : وما يكونُ ! تَلِدُ غلاماً على فِرَاشِى فيقالُ : فلانُ بن الحُضَيْنِ ، كما يقالُ : عبدُ الله بنُ مسلمٍ . فأقبلَ قتيبة على عبد الله فقال : لا يُبْعِدِ اللهُ غيرَكَ .

[قال أبو العباس [٦]] : الحُضَيْنُ [٧] بن المنذر بن الحارث بن وَعْلَةَ . وكان الحضينُ بيده لواء علىّ بن أبى طالب رحمه الله على ربيعة ، وله يقولُ القائلُ :

لِمَنْ رايةٌ سَوْداءُ يَخْفِقُ ظِلُّهَا إذَا قيلَ قَدِّمْهَا حُضَيْنُ تَقَدَّمَا

---

(١) ر : « وقد عرقت » .
(٢) كذا فى الأصل ، س ، وفى ر : « أعرف هذا » .
(٣) ر : « ولكن هل تقرأ من القرآن شيئاً » .
(٤) سورة الإنسان ١ (٥) كلمة « قال » ساقطة من الأصل .
(٦) من س . (٧) ر : « هذا الحضين » .

ورجلانِ جُنُبٌ وكذلك المرأةَ والجميعُ . وقد يجوزُ — وليس بالوَجْهِ — رجلان جُنُبان ، وامرأةٌ جُنُبَةٌ ، وقومٌ أجْنابٌ .

وقوله :

* يَرَى أسداً فى بيته وأساوِدا *

يريد جَمْع أسْوَدَ سالخٍ ، وأسوَدُ هاهنا نعتٌ . ولكنّه غالبٌ ، فلذلك جَرَى هاهنا مَجْرَى الأسماء ، لأنه يَدُلُّ على الحَيّةِ ، و« أفعل » ، إذا كان نعتاً بنفسه فجمعُه : « فُعْلٌ » ، نحو : أحْمَر وحُمْرٍ ، وأسْودَ وسُودٍ ، وإذا كان نعتاً فأُجْرِيَ مُجْرَى الأسماء فجمعُه : « أفاعِل » نحو أساوِدَ ، وأجادِلَ ، وأداهِمَ ، إذا أردتَ القَيْد ، لأنه نعتٌ غالبٌ يَجْرِى مَجرَى الأسماء ، وإن أردت أدْهَمَ — الذى هو نعتٌ محضٌ — قلتَ : دُهْمٌ ، قال الأشهَبُ بن رُمَيْلَة :

أسُودُ شَرَى لاقَتْ أسُودَ خَفِيَّةٍ   تَساقَوْا على حَرْدٍ دِمَاءَ الأساوِدِ

فأجراه مجرى الأسماء ، نحو : الأصاغِرِ ، والأكابِرِ ، والأحامِدِ .

وقوله :

لعَمْرُكَ ما أشبهتَ وَعْلَةَ فى النَّدى * شمائِلَه . . . .

فإنه جعل : « شمائِله » ، بدلا من : « وَعْلَةَ » ، والتقديرُ : ما أشْبَهْتَ شمائلَ وَعْلَةَ

والبدلُ على أربعةِ أضْرُبٍ :

فواحدٌ منها أن يُبْدَلَ أحدُ الاسْمَيْنِ من الآخرِ إذا رجعا إلى واحدٍ ،

الزوائدَ من الاسم ثم تصغِّرَ حروفَه الأصلية ، فتقولَ فى تصغيرِ أحمدَ : حُمَيْدٌ لأنه من الحمد ، وفى الحارث : حُرَيْثٌ ، لأنه من الحَرْثِ ، وفى غَضْبَانَ : غُضَيْبٌ ، لأنه من الغضب ، لأن الألف والنونَ زائدتانِ . وكذلك ذواتُ الأربعةِ ، تقول فى تصغيرِ « قِنْدِيلٍ » على لفظه « قُنَيْدِيل » ، فإن صغَّرتَه مُرَخَّماً حذفتَ الياءَ فقلتَ : « قُنَيْدِل » ، فعلى هذا مَجْرَى البابِ .

وقوله : « عن جَنَابَةٍ » ، يقولُ : عن غُرْبَةٍ وبُعْدٍ . يقالُ : هُمْ نِعْم الحىُّ لجارِهم جارِ الجَنَابَة ، أى الغُرْبَة . يقال : رجلٌ جُنُبٌ ، ورجلٌ جانِبٌ ، أى غريبٌ ، قال اللهُ جلَّ وعزّ : ﴿ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ والصَّاحِبِ بالْجَنْبِ ﴾[1] . وقال الحُطَيْئَةُ :

واللهِ ما مَعْشَرٌ لامُوا امْرَأً جُنُباً ... فى آلِ لأْىِ بن شَمَّاسٍ بأَكْيَاسِ

وقال عَلْقَمَةُ بنُ عَبَدَةَ :

فَلا تَحْرِمَنِّى نَائِلا عن جَنَابَةٍ ... فإِنِّى امْرُؤٌ وَسْطَ القِبَابِ غَرِيبُ

فمن قال للواحِد : جُنُبٌ قال للجميع : أَجْنَابٌ ، كقولك : عُنُقٌ وأَعناقٌ ، وطُنُبٌ وأطنابٌ . ومن قال للواحد : جَانِبٌ ، قال للجميع : جُنَّابٌ ، كقولك : راكبٌ ورُكَّابٌ ، وضاربٌ وضرَّاب . قالت الخَنْساءُ :

اِبْكِى أَخَاكِ لِأَيتامٍ وأَرْمَلَةٍ ... وأَبْكِى أَخَاكِ إذا جَاوَرْتِ أَجْنَابا

وإن كان من الجَنَابَةِ التى تصيب الرجلَ قلتَ : رجلٌ جُنُبٌ ،

(١) سورة النساء ، آية ٣٦ .

لأنَّ السؤالَ عن الأمْر وتقولُ على هذا : سُلِبَ زيدٌ ثوبُه ، فالثوبُ غيرُه ، ولكن به وقعَ السَّلْبُ ، كما وقعتِ المسألةَ عن خبرِ زيدٍ ، ونظيرُ ذلكَ من القرآن : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾[١]، لأنَّ المسأَلَةَ إنما كانت عن القتال : هل يكون فى الشهرِ الحرام ؟ وقال الشاعر [وهو الأخْطَلُ[٢]] :

إنَّ السُّيوفَ غُدُوَّها ورَوَاحَها تَرَكَتْ هَوَازِنَ مِثْلَ قَرْنِ الأعْضَبِ[٣]

وبدَلٌ رابعٌ ، لا يكونُ مثْلُه فى القرآنِ ولا فى الشِّعْر ، وهو أَنْ يَغْلَطَ المتكلِّمُ فيستدرك[٤] غَلَطَهُ ، أو يَنْسَى فيذْكُرَ فيرجعَ إلى حقيقة ما يَقْصِدُ له ، وذلكَ قولكَ : مررتُ بالمسجدِ دارِ زيدٍ ، أرادَ أن يقولَ : مررتُ بدار زيدٍ ، فإمّا نسِيَ ، وإمّا غلِطَ ، فاستدْرَكَ فوضعَ الذى قصَدَ له فى موضع الذى غَلِطَ فيه

وقوله : « بَجوٌّ » فهى قصبةُ اليمامةِ .

وقوله : « تَضَيَّفْتُه يومًا » : إنما هو « تَفَعَّلْتُه » ، من الضِّيافةِ ، يقال : ضِفْتُ الرجلَ ، أىْ نزلتُ به ، وأَضافنِى ، أى أَنْزَلنى .

وقوله : « وأَصْفَدَنِى » : يقولُ : أعطانى ، وهو الإصْفادُ ، والصَّفَدُ الاسمُ ، والاصْفادُ المصدرُ ، قال النابغة :

* فلم أعرِّضْ أَبَيْتَ اللَّعْنَ بالصَّفَدِ *

---

(١) سورة البقرة ٢١٧ (٢) من س .
(٣) الأعضب : الكبش المكسور القرن . (٤) ر : « فيدرك » .

ولا تُبالى أمَعْرِفتَيْن كانا أم معرفةً ونكرة ، وتقــولُ : مررت بأخيك زيدٍ ، لأنَّ « زيدًا » هو الأخُ ، وكذلك : مررتُ برجل عبدِ الله ، فهذا واحدٌ .

وآخرُ أن يُبْدَلَ بعضَ الشيء منه ، نحو : ضربتُ زيدًا رأسَهُ ، لَمَّا قلتَ : ضربتُ زيدًا ، أردتَ أن تُبَيِّنَ موضعَ الضربِ منه .

فمِثْلُ الأوّل قولُ الله تبارك وتعالى : ﴿ اُهْدِنا الصِّراطَ المُستقيمَ * صِراطَ الذينَ أنْعمْتَ عَليهمْ ﴾ [1] ، وَقولُه : ﴿ وإنكَ لتَهْدى إلى صِراطٍ مستقيمٍ * صِراطِ الله ﴾ [2] . و ﴿ لَنَسْفَعًا بالنّاصِيَةِ * ناصِيةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ ﴾ [3]

ومِثْلُ البدَل الثانى قوله : ﴿ ولله عَلى الناسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اُسْتطاعَ إليهِ سَبِيلًا ﴾ [4] .

مَنْ ، فى موضع خفضٍ ، لأنها بدلٌ من « الناس » ، ومِثْلُه ، إلا أنه أُعيدَ حرفُ الخفضِ : ﴿ قالَ المَلأُ الّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قوْمِهِ لِلّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنهُمْ ﴾ [5] .

والبدَلُ الثالث مِثْلُ ما ذكرنا فى البيتِ ، أبْدَل : « شمائِله » منه ، وهى غيرُه ، لاشتمال المعنى عليها . ونظيرُ ذلك : أسْألُكَ عن زيدٍ أمْرِه .

---

(١) سورة الفاتحة ٦ ، ٧
(٢) سورة الشورى ٥٢ ، ٥٣
(٣) سورة العلق ١٥ ، ١٦
(٤) سورة آل عمران ٩٧
(٥) سورة الأعراف ٧٥

يا خاتَمَ النُّبَآءِ إنكَ مُرْسَلٌ بالحقِّ كلُّ هُدَى السَّبيلِ هُدَاكَا[1]

وقوله :

* أو القمرَ السَّارى لألْقَى المَقالِدَا *

إنما سكّن[2] الياءَ ضرورةً ، وإنما جازَ ذلك لأنَّ هذه الياءَ تَسْكُنُ فى الرفع والخفضِ ، فإذا احتاجَ الشاعرُ إلى إسكانِها فى النصب قاسَ هذه الحركةَ على الحركتين : الضَّمَّةِ والكَسرةِ الساقطتين ، فشَبَّهها بهما ، فجعَلَها كالألفِ التى فى : « مثنى » التى هى على هيئةٍ واحدةٍ فى جميع الإعراب ، قال النابغة :

رَدَّتْ عليه أقاصِيهِ ولبَّدَهُ ضَرْبُ الوَليدَةِ بالمِسحاة فى الثَّأَدِ[3]

فأسْكَنَ الياء فى : « أقاصيه » . وقال رُؤْبَةُ :ـ

كأنَّ أيدِيهنَّ بالقاعِ القَرِقْ[4] أيْدِى جَوَارٍ يَتعاطَيْنَ الوَرِقْ[5]

وقال :

* سَوَّى مَساحِيهنَّ تقْطيطَ الحُقَقْ[6] *

[ويُرْوَى : « تقطيطَ » ، بالنصب ، وهو أجودَ ، لان بعدَه :

---

(١) س : « كل هدى السماء » .

(٢) ر : « فأسكن » . (٣) الثأد : الثرى .

(٤) القاع والقاعة ما انبسط من الأرض . والقرق : القاع لا حجارة فيه .

(٥) من زيادات ر : « والورق هو ورق الشجر ، يضرب بالعصا فيتناثر فتلتقطه الجوارى بسرعة لعلف الإبل وغيرها » .

(٦) المساحى هنا : الحوافر ، على التشبيه .

ويقال : صَفَدت الرجلَ فهو مَصْفُودٌ ، من القَيْدِ ، ولا يقال فى القيدِ : أَصفدت ، ولكنْ صَفدْته صَفْدًا ، واسمُ القَيْدِ الصفَدُ . قال الله جلّ وعزّ : ﴿ مُقَرَّنِينَ فى الأَصفادِ ﴾[1] ، كقولك : جَمَلٌ وَأَجْمَالٌ ، وصَنَمٌ وَأَصْنَامٌ .

وقوله : « فتى لو يُبارى الشمسَ » ، يقول : يُعارض ، يقالُ : انْبَرَى لى فلانٌ ، أى اعترضَ [لِى[2]] فى هذا المعنى ، وفلانٌ يُبَارى الرِّيحَ ، مِن هذا ، أى يعارضُ الريح بجُوده ، فهذا غيرُ مهموز . فأمَّا : بَارَأْتُ الكَرِىَّ فهو مهموز ، لأنه مِن أَبْرَأَنِى وأبرأته . ويقال : بَرَأَ فلانٌ من مَرَضِه ، وبَرِئَ يا فتَى ؛ والمصدرُ منهما البُرْءُ فاعلمْ ، وبَرَيْتُ القلمَ غيرُ مهموزِ . واللهُ البارئُ المصوِّرُ . ويقال : ما بَرَأَ اللهُ مثلَ فلانٍ ، مهموز ، وقولَك : « البَرِيَّة » ، أَصلُه من الهمزِ ، ويُخْتارُ فيه تخفيفُ الهمزِ ، ولفظ التخفيف والبدل واحد . وكذلك يُخْتارُ فى « النَّبىِّ » التخفيفُ ، وَمن جعلَ التخفيفَ لازمًا قال فى جمعِه : أنبياء ، كما يُفعَلُ بذوات الياء والواو ، وتقول : وَصِىٌّ وأوصياء ، وتقِىٌّ وأتقياء ، وشقىٌّ وأشقياء . وَمَن همَزَ الواحدَ قال فى الجميع : نُبَآء ، لأنه غيرُ مُعْتَلٍّ ، كما تقول : حكيمٌ وحكماء ، وعليمٌ وعلماء . وأنبياء لغة القرآنِ والرسولِ صلى الله عليه وسلم .

وقال العباسُ بن مِرداس السُّلَمىُّ :

---

(١) سورة ص ٣٨   (٢) تكملة من س .

وقال الآخر :

فِدًى لكَ والدى وسَرَاةُ قومِى ومالى إنه منـــــهُ أتانِى

وهذا كثيرٌ جدًّا .

وقوله :

* يَرَى جَمْعَ ما دون الثلاثين قَصْرَةً *

أي قليلًا ، من الاقتصار . ويُرْوَى: « ويَغدو » ، و« يَغْدُو » جميعاً

[من أخبار هوذة بن على]

وكان هَوْذَةَ بن علىٍّ ذا قدرٍ عالٍ ، وكان[١] له خرَزاتٌ تنظَمُ فتُجعَلُ على رأسِه ، تَشَبُّهاً بالملوك .

وحدثنى التَّوَّزِىُّ عن أبى عُبَيْدَةَ ، قال : ما تتوَّجَ مَعَدّىٌّ قطّ ، إنما كانتِ التيجانُ لليمَن ، قال : فسألتُه عن قول الأعشى لهوْذَة[٢] :

مَنْ يَرَ هَوذَةَ يَسْجُدْ غيرَ مُتَّئِبٍ إذا تَعَمَّمَ فوقَ التاجِ أو وَضَعا

قال : إنما كانت خَرَزَاتٌ تُنْظَمُ له[٣]

* * *

وكتبَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، إلى هوذةَ ، كما كَتَبَ إلى الملوكِ .

---

(١) ر : « وكانت » . (٢) ساقطة من ر

(٣) ذكر ابن الأثير أن كسرى أنوشروان لما دخل عليه هوذة بن على أعجب به ، فدعا بعقد من در ، فعقد على رأسه ؛ ومن ثم سمى هوذه ذا التاج ـ نقله المرصفى .

* تَفْلِيلُ مَا قَارَعْنَ مِنْ سُمْرِ الطِّرَقِ *

والطُّرَقُ : جمع طُرْقَةٍ][1]

وقال آخرُ :

كَفَى بالنَّأْى من أسماءَ كافٍ ... وليس لِحُبِّها ما عِشْتُ شافِ

وأما قوله :

وأَمْتَعِي على العَشَا بوليـدةٍ ... فأُبْتُ بخيرٍ منك يا هَوْذَ حامِدا

فإنه كان يتحدّث عنه ، ثم أقبل عليه يخاطبه ، وترك تلك المُخاطبة .

والعرب تترُكُ مخاطبةَ الغائبِ إلى مخاطبةِ الشاهد ، ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبةِ الغائبِ . قال الله جلَّ وعزَّ : ﴿ حتّى إذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾[2] ، كانت المخاطبةُ للأُمَّةِ ، ثم صُرفت[3] إلى النبى صلى الله عليه وسلم إخْبَاراً عنهم . وقال عَنْتَرَةَ :

شَطَّتْ مَزَارُ العاشِقِينَ فأصبحت ... عَسِرًا عَلَيَّ طِلابُكِ ابنةَ مَخْرَمِ

فـكان يحدِّث[4] عنها ثم خاطبها . ومثلُ ذلك قول جرير :

وتَرَى العَواذلَ يَبْتَدِرْنَ مَلامَتِي ... فإذا أَرَدْنَ سِوى هَواكِ عُصِينا

---

(١) ما بين العلامتين من زيادات ر . وتفليل : تكسير . ماقارعن ، ما ضربن بها . والطرق : حجارة مطارقة بعضها فوق بعض .

(٢) سورة يونس ٢٢

(٣) كذا فى الأصل ، س ، وفى ر : « انصرفت » .

(٤) ر : « يتحدث » .

لى رجلٌ من أهل القريتين : أَصَبْتُ هاهنا دراهمَ ، وَزْنُ الدرهم ستة دراهمَ وأربعة دَوانيقَ ، من بقايا طَسْمٍ وجَدِيسٍ ، فخفتَ السلطانَ فأخفيتُها .

وقد ذكر ذلك زهيرٌ فى قوله :

عَهدِى بهم يومَ باب القريتين وقد زالَ الهمَالِيجُ بالفُرْسانِ واللُّجُمِ (١)

فاستبدلتْ بعدَنا دارًا يمانِيَةً تَرْعَى الخريفَ فأدنَى دارِهَا ظَلِمُ (٢)

[لجرير يهجو بنى حنيفة]

وقال جريرٌ يهجُو بنى حنيفة :

هَجَانِى الناسُ ثم الأحْياءَ كلهم حتى حَنيفةُ تَفْسُو فى مَنَاحِيهَا (٣)

أصحابُ نخلٍ وحيطانٍ ومَزْرَعَةٍ سُيوفهمْ خُشُبٌ فيها مَساحِيهَا

ذلَّتْ وأعطتْ يداً للسِّلْمِ صاغرةً مِن بعدِ ما كاد سيفُ الله يُفْنِيهَا

صارتْ حنيفةُ أثلاثاً فثُلْثُهُمُ أَضْحَوْا عَبِيداً وثُلْثٌ من مَوالِيهَا

قوله : « مَنَاحِيهَا » ، المَنْحَاةَ : مَقَامُ السَّانيةِ على الحوض ، والحائط : البستان .

وقوله :

* مِن بعد ما كاد سيفُ اللهِ يُفنيها *

---

(١) ر : «عهد بها» ؛ وما أثبته رواية الديوان ١٥٠ ، والأصل ، س . وباب القريتين : التى فى طريق مكة ؛ وهى قرية كانت لطسم وجديس . والهماليج : جمع الهملاج ؛ وهى الدابة فى سيرها سرعة وبخترة ؛ يريد بها هنا الإبل .

(٢) يمانية : ناحية اليمن ، وظلم : اسم جبل .

(٣) زيادات ر : « تعير بنو حنيفة بالفسو ؛ لأن بلادهم بلاد نخل ، فيأكلونه ويحدث فى أجوافهم الرياح والقراقير » .

وكانت بنو حَنيفةَ بن لُجَيْم أصحابَ اليمامَةِ ، ويقولُ بعض النَّسَّابين : إنَّ عُبَيْدَ بن حنيفةَ كان أَتَى اليمامةَ وهى صَحْراء ، فاختَطَّها ، فجعل يَرْكُضُ حوالَيْهَا ويَخطُّ برمحه فى الأرض على ما أصاب من النخلِ ، وأنهم أكلوا ما أصابوا تحته من التَّمر ، فلما طَلَعَ لهم التمرُ بَعْدُ لم يهتَدُوا لِصُعودِ النَّخْل ، فأقبلوا يَجُدُّونَه ، حتى فَكَّرُوا فأَعَدُّوا له السَّلالم . فلما عَمِرَتِ اليمامةَ جعلتِ العربُ تَنْتَجِعُهُمْ لموضع التمر فيُجاوِرُونَ العزيزَ منهم ، وكان يقالُ لمن دخلها من هؤلاء : السَّوَاقِط ، ممن كانوا .

* * *

ويقالُ إن اليمامة والبَحْرَيْن وَالقَرْيَتَيْنِ ومواضعَ هناك كانت لِطَسْمٍ وجَدِيسَ ، والخبرُ فى ذلك مشهورٌ بِزَرْقاء اليمامة ، وقد ذكر ذلك الأعشى فى قوله :

[ما نظَرَتْ ذاتُ أشْفَارٍ كنَظْرَتِها ... حقًّا كما نطَقَ الذِّئْبِىّ إذ سَجَعَا] [1]

قالَتْ أرى رَجُلاً فى كَفِّه كَتِفٌ ... أو يَخْصِفُ النعلَ لَهفِى أَيَّةَ صَنَعَا

وكذَّبوها بما قالت فَصَبَّحَهُمْ ... ذوآلِ غسّانَ يُزْجِى الموتَ والشَّرَعَا [2]

* * *

وحدثنى التَّوَّزِىُّ عن أبى عُبيدةَ والأصْمَعِى عن أبى عَمْرو قال : قال

---

(١) ما بين العلامتين من زيادات ر . والذئبى هو سطيح الكاهن ؛ وهو ربيع بن ربيعة ابن مسعود بن عدى ؛ وكان ضعيفا منبسطا لا يقدر أن يقعد (من شرح ديوان الأعشى ٢٤) .

(٢) الشرع : الأوتار ، واحده شرعة .

وغيرُ الأصمعىّ زعم[1] أن هذا كان يقال للوليد بن عُقْبَةَ بن أبى مُعَيْطِ ابن أبى عَمْرِو بن أُمَيَّةَ .

[من أخبار الوليد بن عقبة وشعره]

وذكروا أن عَدِىَّ بن حاتم بن عبد الله الطائىّ قال يومًا : ألاَ تعجبُونَ لهذا ، أشْعَرُ بَرْكاً ! يُوَلَّى مثلَ هذا المصرَ ! والله ما يُحسنُ أنْ يَقْضِىَ فى تمرتين . فبلغ ذلك الوليد فقال على المِنْبَر : أنشد اللهَ رجلا سمّانى أشعر بركا إلا قام ! فقامَ عَدِىُّ بن حاتمٍ فقال : أيها الأميرُ ، إن الذى يقومُ فيقولُ : أنا سميتُك أَشْعَرَ بَرْكاً لَجرِىء . فقال : اجلسْ يا أبا طَرِيفٍ ؟ فقد بَرَّأَكَ اللهُ منها . فجلسَ وهو يقولُ : واللهِ ما بَرَّأنى اللهُ منها .

* * *

وكانت أُمُّ الوليد بن عُقْبَةَ أمَّ عثمان بن عَفَّانَ رحمهما الله ، وهى أَرْوَى بنتُ كُرَيْزِ بن حبيب بن رَبيعة بن عبد شمسِ بن عبد مَنافٍ . وأُمُّها البَيْضَاء بنت عبد المُطَّلِب بن هاشم . ومن ثَمَّ قال الوليدُ لعلىّ بن أبى طالب رحمه الله : أنا ألْقَى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بأُمِّى من حيثُ تَلْقَاه بأبيك

وكان يقال للبَيْضَاء بنتِ عبد المطلب : قُبَّةُ الديبَاجِ . واسمها أُمُّ حَكِيمٍ ، ولذلك قيل لعثمانَ وللوليد[2] : يابْنَ أرْوَى ، وَيابنَ أُمِّ حَكِيم .

* * *

(١) كذا فى الأصل ، س ؛ وفى ر : « يزعم » .
(٢) كذا فى الأصل ، س . وفى ر : « أو للوليد » .

يعنى خالدَ بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم فى وقعته بمُسَيْلِمَةَ الكذَّابِ . ولِلنَّسَّابِينَ بعدَ هذا قولٌ مُنْكَرٌ .

* * *

وقال جرير :

أَبَنِى حَنِيفَةَ نَهْنِهُوا سُفَهَاءَكُمْ إِنِّى أَخَافُ عليكُمُ أَنْ أَغْضَبَا[1]

أَبَنِى حنيفةَ إِنَّنِى إِنْ أَهْجُكُمْ أَدَعِ اليَمَامَةَ لا تُوَارِى أَرْنَبَا

[لعمارة بن عقيل يهجو بنى حنيفة]

وقال عُمَارَةُ بنُ عقيل :

يَا أَيُّهَا الراكبُ المَاضِى لِطِيَّتِهِ بَلِّغْ حنيفةَ وانْشُرْ فيهمُ الخبرا

أَكَانَ مَسْلَمَةُ الكَذَّابُ قال لكم لن تُدْرِكُوا المَجْدَ حتى تَغْضَبُوا مُضَرا

مَهْلًا حَنِيفَةُ إِنَّ الحربَ إِنْ طَرَحَتْ عليكُمُ بَرْكَهَا أَسْرَعْتُمُ الضَّجَرَا

البَرْكُ : الصَّدْرُ ، إذا فتحتَ الباءَ ذَكَّرْتَ ، وإن أردتَ التأنيثَ كسرتَ الباءَ ، قلتَ : بِرْكَة . قال الجَعْدِىُّ :

ولوْحَا ذِرَاعَيْنِ فى بِرْكَةٍ إلى جُؤْجُؤٍ رَهِلِ المَنْكِبِ[2]

* * *

وزَعَم الاصمعىُّ أن زيادًا كان يُقالَ له : « أَشْرُ بَرْكًا » لأنه كان أشعرَ الصَّدْرِ

---

(١) نهنهوا سفهاءكم : كفوهم وازجروهم .

(٢) الجؤجؤ : الصدر ؛ أو مجتمع رءوس عظام الصدر والمنكب : مجتمع العضد والكتف . ورهله : استرخاؤه من السمن .

[لآخر يرثيه أيضاً]

وقال آخرُ :

أَلاَ قُلْ لقومٍ شارِبى كأسِ عَلْقَمٍ ... بقتلِ إمامٍ بالمدينةِ مُحْرِمِ

قَتَلتُمْ أمينَ اللهِ فى غيرِ رِدَّةٍ ... ولا حَدِّ إحصانٍ ولا قَتْلِ مُسْلِمِ

تَعالَوْا فَفاتونا فإنْ كان قَتْلُه ... لواحدةٍ منها يَحِلُّ لكم دَمِى (١)

وإلاَّ فأَعْظِمْ بالذى قد أتيتُمُ ... ومَنْ يأتِ مالم يَرْضَهُ اللهُ يَظْلِمِ

فلا يَهْنِئَنَّ الشامِتِينَ مُصابُهُ ... تَحَفُّظُهُمْ من قتله حَرْبُ جُرْهُمِ (٢)

* * *

وأنشدنى الرِّياشِىُّ عن الأصمعىّ :

[قال أبو الحسن : هذا الشعرُ لابن الغَرِيزة الضّبّىّ :]

لَعَمْرُ أبيكَ فلا تَذْهَلَنْ ... لقد ذَهَبَ الخيرُ إلا قليلا

وقد فُتِنَ الناسُ فى دِينهمْ ... وخَلَّى ابنُ عَفّانَ شرًّا طويلا

ومثلُه قولُ الراعى :

قتلوا ابنَ عَفَّانَ الخليفةَ مُحْرِمًا ... وَدَعَا فلم أرَ مثلَهُ مَخْذولا

فتفرَّقَتْ مِنْ بَعْدِ ذاكَ عَصَاهُمُ ... شِقَقًا وأصبح سَيْفُهُمْ مَسلولا (٣)

قولُه : « مُحْرِمًا » يريد فى الشهرِ الحرامِ ، وكان قُتِلَ فى أيَّام التشريق رحمه الله

---

(١) ففاتونا : لحا كمونا ؛ وفى ر : «فخل» ؛ على الفعل الماضى ؛ وما أثبته عن الأصل .

(٢) نقل المرصفى عن الطبرى أن الشعر لحتات بن يزيد المجاشعى عم الفرزدق .

(٣) شققا : جمع شقة ؛ بالكسر ؛ وهى الشظية .

وقال الوليدُ لبنى هاشمٍ لهذا النَّسب [1] حين قُتِلَ عثمان رحمه الله :

بنى هاشمٍ رُدُّوا سِلاحَ ابنِ أُختكمْ ولا تَنْهَبُوهُ لا تَحِلُّ مَنَاهِبُهْ

بنى هاشمٍ كيف الهَوَادَةُ بيننا وعندَ علىٍّ دِرْعُـهُ ونَجَائِبُهْ

هُمُ قتلوه كَىْ يكونوا مكانَه كما غَدَرَتْ يوماً بكِسْرَى مَرازِبُهْ

وهذا القول باطلٌ . وكان عُرْوة بن الزبير إذا ذَكر مقْتَلَ عثمان يقولُ :
كان علىٌّ أَتْقَى لِلّٰه مِن أن يقتل عثمان" [2] وكان عثمانُ أَتْقَى لِلّٰه مِن أن
يقتله علىّ" [3]

وقال الوليدُ بن عقْبَةَ :

أَلَا إنَّ خَيْرَ النَّاسِ بعد ثلاثةٍ قَتِيلُ التَّجِيبىِّ الذى جاء من مِصرِ [4]

ومالىَ لا أَبْـكِى وَتَبْـكِى أقاربى وقد حُجِبَتْ عنا فُضولُ أَبى عَمْرِو !

[لليلى الأخيلية ترثى عثمان بن عفان]

وقالت لَيْلَى الأَخْيَلِيَّةُ ، أنشدنيه الرِّيَاشىُّ عن الأصْمعىِّ :

أَبَعدَ عثمانَ تَرْجُو الخيرَ أُمَّتُه وكان آمَنَ مَنْ يمشى على ساقِ

خَليفة اللهِ أَعطاهُمْ وخَوَّلهمْ ما كان من ذَهَبٍ جَمٍّ وأَوراقِ

فلا تُـكَذِّبْ بوعدِ الله وارضَ به ولا تَوَكَّلْ على شىءٍ بإشْفاقِ

ولا تقولَنْ لشىءٍ : سوف أَفعلُه قد قدَّرَ اللهُ ما كلُّ امرئٍ لاقِ

---

(١) كذا فى الأصل س ؛ وفى ر : « السب » .
(٢) ر : « من أن يعين فى قتل عثمان » . (٣) ر : « من أن يعين فى قتل » .
(٤) ر : « التجوبى » صوابه فى الأصل ؛ س . منسوب إلى تجيب ، قبيلة .

وقوله :

* من سَفْح ذاكَ الدمِ الزاكى الذى سَفَحُوا *

أى فى صَبِّ ذاك الدم ، يقال : سَفَحْتُ دَمَهُ وسَفَكْتُ دمه ، قال اللهُ تعالى : ﴿ إلاَّ أَنْ يَكونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا[1] ﴾

وقوله : « على تمامِ ظِمْءٍ » فهذا مَثَلٌ ، وأَصلُ الظِّمْءِ : أن تشربَ الإبل يومًا ثم تَغبَّ يومًا لا تَرِدُ الماء ، فما بين الشَّرْبتين ظِمْءٌ ، فيكون الظِّمْءُ يومين ، فيقال له : الرِّبْعُ ، كما يقال فى الحُمَّى ، لأنهم يَعْتَدُّون بيومَىْ شرْبها . والخِمْسُ : أن تظمأَ ثلاثةَ أيامٍ ، والنَّضَحُ : الحوْضُ .

والأثام : الهلاكَ . قال الله عزَّ ذِكرُه : ﴿ وَمَن يفْعَلْ ذلكَ يَلْقَ أثامًا ﴾ ، ثم فَسَّرَ فقال : ﴿ يضاعَفْ له العَذابُ يومَ القِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهانًا ﴾[2] . فجزم « يُضاعَفْ » لأنه بدلٌ من قوله : « يلْقَ أثامًا » إذْ كان إيَّاه فى المعنى .

وأنشدنى أبو عُبيدة :

جزَى اللهُ ابنَ عُرْوَةَ إذ لَحِقْنَا عُقُوقًا والعُقُوقُ من الأثام

وقوله : « على مطْمَحِ الكَفِّ » يقول : على رَفْعها وإبعادِها ، يقال : طَمَحَ بَصَرُه ، إذا ارتفع فأَبْعَدَ النَّظَرَ ، قال امرؤ القيس :

لقد طَمَحَ الطَّمَّاحُ من بُعْدِ أرضِهِ لِيُلْبِسَنِى من دائه ما تَلَبَّسا

---

(١) سورة الأنعام ١٤٥

(٢) سورة الفرقان ٦٨ ، ٦٩

[لأيمن بن خريم يرثيه أيضاً]

وقال أيمن بن خُرَيْم بن فَاتِكٍ الأسَدِىُّ ، وكانت له صحبة :

تفاقدَ الذابحو عثمان ضاحِيَةً(١) أىَّ قتيلٍ حرامٍ ذُبِّحوا ذَبَحوا

ضَحَّوْا بعثمانَ فى الشهر الحرام ولم يخشَوْا على مطمحِ الكفِّ الذى طَمَحوا

فأىَّ سُنَّةِ جوْرٍ سَنَّ أوَّلُهمْ وبابِ جَوْرٍ على سُلْطانهم فتحوا

ماذا أرادوا أضَلَّ اللهُ سَعْيَهمُ من سفحِ ذاك الدمِ الزاكى الذى سفحوا

فاستوْرَدَتْهمْ سُيوفُ المسلمينَ على تمامِ ظِمْءٍ كما يُستَورَدُ النَّضَحُ(٢)

إنَّ الذين تولَّوْا قتلَه سَفَهاً لَقُوا(٣) أثامًا وخُسْرانًا فما رَبِحوا

الظِّمْءُ : ما بين الشرْبَتَيْن وقولُه : « ضَحَّوا بعثمان » : إنما أصله فِعلَ فى الضُّحَى . قال زهيرٌ :

ضَحَّوْا قليلًا على كُثْبانِ أسْنُمَةٍ ومنهمَ بالقَسُومِيَّاتِ مُعْتَرَكُ(٤)

أى نزلوه ضُحًى ، ويقال : بَيَّتوا ذاك ، أى فعلوه ليلا ، قال الله جل وعز : ﴿ إذْ يُبَيِّتونَ مَالاَ يَرْضَى مِنَ القَوْلِ ﴾(٥) . وأنشد أبو عبيدة :

أتَوْنِى فلم أرضَ ما بَيَّتوا وكانوا أتَوْنِى بأمرٍ نُكُرْ

لِأُنْكِحَ أيِّمَهمْ مُنْذِرًا وهل يُنْكِحُ العبدَ حُرٌّ لِحُرّ !

(١) ضاحية : علانية

(٢) استوردتهم : من استورد الماء ؛ أى ورده ؛ يريد درات سيوفهم دم عثمان على عطشها.

(٣) كذا فى الأصل ؛ وفى ر : « لاقوا » .

(٤) رواية الديوان ١٦٥ :

* وعَرَّسُوا ساعةً فى كُثْبِ أسْنُمَةٍ *

وما أورد المبرد ، هى رواية الأصمعى . أسنمة : موضع بعينه ، وكذلك القسوميات ؛ مواضع والمعترك : المزدحم

(٥) سورة النساء ١٠٨

ومنْ تمثيلِ امرئ القيس العجيبِ قوله :

كأنَّ عُيونَ الوَحْشِ حَوْلَ خِبائِنَا وأَرْحُلِنَا الجَزْعُ الذى لم يُثقَّبِ[1]

ومن ذلك قوله :

إذا ما الثّرَيَّا فى السماءِ تعَرَّضَتْ تَعَرُّضَ أثناءِ الوِشَاحِ المفصَّلِ[2]

وقد أَكْثَرُوا فى الثُّرَيَّا[3] فلم يأتوا بمن يقاربُ هذا المعنى ، ولا بما يقاربُ سُهولةَ هذه الألفاظ

* * *

ومن أعجب التشبيه قولُ النابغة :

فإنّكَ كالليلِ الذى هو مُدْرِكى وإنْ خِلْتُ أنَّ المُنْتَأَى عنك واسِعُ

وقوله :

خَطاطيفُ حُجْنٌ فى حِبالٍ مَتينةٍ تُمَدُّ بها أيدٍ إليك نَوازِعُ[4]

وقوله :

فإنكَ شمسٌ والملوكُ كواكبٌ إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ منهنَّ كوكبُ

* * *

---

(١) الجزع : خرز فيه بياض وسواد ؛ شبه عيون الوحش لما فيهن من السواد والبياض بالخرز ، وجعله غير مثقب ؛ لأن ذلك أصفى له وأتمّ لحسنه .

(٢) تعرضت ، أى أرتك عرضها ، أى ناحيتها . والوشاح المفصل : الذى جعل بين كل خرزتين فيه لؤلؤة . والأثناء : جمع ثنى .

(٣) ر : «وقد أكثر الناس فى الثريا» .

(٤) الخطاطيف : جمع خطاف ؛ وهو حديدة معقوفة الرأس . ونوازع : جواذب ؛ يقول : لك خطاطيف أجرّ بها إليك ، فليس عنك مهرب .

بابٌ

في التشبيه

قال أبو العباس: وهذا بابٌ طريفٌ نَصِلُ به هذا البابَ الجامعَ الذى ذكرناه وهو بعضُ ما مرَّ للعرب من التشبيه المُصيبِ، وللمحدثين[1] بعدهم

* * *

فأَحْسَنُ ذلك ما جاء بإجماع الرُّواةِ — : ما مَرَّ لامرئ القيس فى كلامٍ مختصر، أى بيتٍ واحدٍ، من تشبيه شىء فى حالتين مختلفتين[2] بشيئين مختلفين، وهو قوله:

كأنَّ قلوبَ الطيْرِ رَطْباً ويابساً ... لَدَى وَكْرِهَا العُنَّابُ والحَشَفُ البَالِى[3]

فهذا مفهومُ المعنَى، فإن اعترضَ معترضٌ فقال: فهلَّا فَصَلَ فقال: كأنه رَطْبًا العُنَّابُ وكأنه يابساً الحَشَفُ! قيل له: العربىُّ الفصيحُ الفَطِنُ اللَّقِنُ يَرْمِى بالقولِ مفهومًا، ويَرَى ما بعد ذلك من التكرير عِيًّا. قال الله جل وعزَّ، ولله المثلُ الأعلى: ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ[4] ﴾، علماً بأن المخاطَبِين يعلمون[5] وقتَ السُّكون ووقتَ الاكتساب.

* * *

(١) ر: «والمحدثين»، وما أثبته عن الأصل، س.

(٢) ساقطة من ر.

(٣) الحشف البالى: ردىء التمر؛ قال شارح الديوان ٣٨: «وإنما خص قلوب الطير لأنه... جاءت بقلوبها إلى أفراخها».

(٤) سورة القصص ٧٣ (٥) ر: «يعرفون».

والدرُوع[1] . والْمشَبْرَق : الْمُمزّق . وأنشد أبو زيد :

لَهَوْنا بسِرْبالِ الشَّبابِ مُلاوَةً[2] فأَصبحَ سِرْبالُ الشَّبابِ شَبارقا

* * *

ومن التشبيه العجيبِ قولُ ذى الرُّمَّة فى صفةِ الظليمِ :

شَخْتُ الْجزارةِ مِثْلُ البيتِ سائرُهُ مِن المسُوحِ خِدَبٌّ شَوْقَبٌ خَشِبَ

الشَّخْتُ : الضَّئيلُ اليابسُ الضَّعيفُ . الْجزَارَةُ القوائم . وقوله : « مِثْل البيتِ سائرُه مِن الْمسوحِ » ، يعنى إذا مَدَّ جَناحَيه ، وَإنما أخَذه من قول علقمة بن عَبَدَةَ :

صَعْلٌ كأنَّ جَناحَيْهِ وجُؤْجُؤَهُ بيتٌ أَطافتْ به خَرْقاءُ مَهْجُومُ

الصَّعْلُ : الصغيرُ الرأسِ . والخَرْقاءُ التى لا تحسِنُ شيئاً ، فهى تُفْسِدُ ما عرَضتْ له ، قال الْحطَيْئة :

همُ صَنعُوا لِجارِهمُ وليستْ يَدُ الخرقاءِ مِثلَ يَدِ الصَّناع

والمهجومُ : المهدُوم وفى الخبرَ أنه لما قُتِلَ بِسْطامُ بن قَيْسٍ لم يَبْقَ بيتٌ فى بكر بن وَائلٍ إلاّ هُجِمَ ، أى هُدِمَ والخِدَبُّ : الضّخمُ . والشَّوْقَبُ الطويلُ . والخشِبُ : الذى ليس يلينُ على مَنْ نزل به .

* * *

---

(١) قال صاحب اللسان : «الدروع السابرية منسوبة الى سابور» ، واستشهد ببيت ذى الرمة .

(٢) الملاوة : الحين من الدهر .

ومن عجيب التشبيه قولُ ذى الرُّمَّةِ :

وَرَدْتُ اعْتِسافاً والثُّرَيَّا كأنها على قِمَّةِ الرأسِ ابنُ ماءٍ مُحَلِّقِ[1]

وقوله :

فجاءت بنَسْجِ العَنكبوتِ كأنَّه على عصوَيْها سابِرِىٌّ مُشَبْرَقُ[2]

وتأويله[3] أنه يَصِفُ ماءً قديماً لا عَهْدَ له بالورّاد[4] ، فقد اصفرَّ واسْوَدَّ ، فقال :

وماءٍ قَديمِ العهْدِ بالناس[5] آجِنٍ كأنَّ الدَّبا ماءَ الغَضَا فيه تَبْصُقُ[6]

وقد أجاد عَلْقَمَةُ بن عَبَدَةَ الفَحْلُ فى وصفِ الماءِ الآجِنِ ، حيث يقول :

إذا وَرَدَتْ ماءً كأنَّ جِمَامَهُ من الأجْنِ حِنَّاءٌ مَعًا وصَبِيبُ

فقال ذو الرُّمَّةِ فى وصفِ هذا الماء ، فقَرَنَ بتغيُّره بُعْدَ مَطْلَبِهِ ، فقال :

فأَدْلَى غُلامِى دَلْوَهُ يَبْتَغِى بها شفاءَ الصَّدَى والليلُ أَدْهَمُ أَبْلَقُ

يريدُ أنّ الفجرَ قد نَجَمَ فيه ، فجاءتْ ـ يعنى الدَّلْوَ ـ بنَسْجِ العنكبوتِ ، كأنه عَلَى عَصوَيْها سابِرِىٌّ مُشَبْرَقٌ . والسَّابِرِىُّ : الرَّقيقُ من الثياب

---

(١) الاعتساف : السير على غير هدى . وابن الماء : طير من الطيور محلّق على مرتفع (من شرح ديوانه ٤٠١) .

(٢) العصوان : عرقوبا الدلو ، والعرقوبان : خشبتان .

(٣) ر : «وتأويل هذا» . (٤) ر : «بالواردة» .

(٥) ر : «قديم العهد بالإنس» ؛ وما أثبته هو رواية الديوان والأصل ، س .

(٦) آجن . متغير الطعم واللون ، والدبا . الجراد . والغضا : شجر له هدب ، إذا أكلته الإبل اشتكت بطونها .

فأَبى أن يفسرَ « فى عِنانِ الشِّعْرَيَيْنِ » .

وقوله(١) : « الذِّهَابُ(٢) » فهى الأمْطَارُ اللّينةُ الدائمة ، ويقالُ : إنها أنجعُ المطرِ فى النّبْتِ ، وكذلك العِهادُ ، وأَنْشَدَ الأصمعىُّ :

أميرٌ عمَّ بالنَّعْماء حــتى كَأَنَّ الأرضَ جَلَّلَها العِهادُ(٣)

والبَرَاعِيمُ : واحدها(٤) ، بُرْعُومَةٌ ، وهى أَكِمَّةُ الرَّوْض قبلَ أن تتفتَّق ، يقال لوحداها : كِمٌّ(٥) ، وكِمامٌ ، فمن قال : كِمَامٌ ، فجمعُ أَكِمَّةٌ ، مثلُ صِمامٍ وأَصِمَّةٍ ، ورِمامٍ وأَزِمَّةٍ . ومن قال : كِمٌّ ، فالجماع أَكمامٌ ، قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ(٦) ﴾

* * *

ومن ذلك قولُ الآخَر ، أَحسِبُه تَوْبَةُ بن الحُمَيِّر

[قال أبو الحسن : يقالُ إنه لمجنونِ بنى عامرٍ ، وهو الصواب] :

كَأَنَّ القلبَ ليلةَ قِيلَ يُغدَى بِلَيْــلَى العامِرِيَّةِ أو يُرَاحُ

قَطاةٌ عَزَّها شَرَكٌ فباتَتْ تجاذبه وقــد عَلِقَ الجَنَاحُ(٧)

[لها فَرْخَانِ قد غَلِقا بِوَكْرٍ فَعُشُّهما تُصَــفِّقُهُ الرِّيَاحُ(٨)

فلا بالليــلِ نالتْ ما تُرَجِّى ولا بالصبحِ كان لها بَرَاحُ](٩)

---

(١) ر : « وأما قوله » . (٢) الذهاب : جمع ذهبة .

(٣) جمع عهدة . (٤) ر : « واحدتها » .

(٥) الكم : وعاء الطلع وغطاء النور . (٦) سورة الرحمن ١١

(٧) ر : « تعالجه » ؛ وفى نهاية الأبيات : « ويروى : « تجاذبه » ، فهذا غاية الاضطراب » .

(٨) غلقا ، من الغلق ، وهو الحبس .

(٩) البيتان الواقعان بين العلامتين ، من زيادات ر .

ومن التشبيه المصيبِ قوله فى صفةِ روضةٍ :

قَرْحاءُ حوّاءُ أَشْراطِيَّةٌ وَكَفَتْ ... فيها الذِّهابُ وَحَفَّتْها البَراعيمُ

قَرْحاءُ ، يريدُ الأنوارَ . وقوله : « حوّاءُ » يقول : تضرِبُ إلى السّوادِ لشدةِ رِيِّها وخُضْرتِها ، وكذلك قال المفسرون[1] فى قول الله جلَّ وعزَّ : ﴿ مُدْهامَّتانِ ﴾[2] : تَضْرِبان إلى الدُّهْمةِ ، لشدةِ خُضْرتِهما ورِيِّهما .

وقوله : « أشْراطِيَّةٌ » ليسَ مما قصَدْنا له ، ولكنه ممَّا يجْرِى فنفسّره ، ومعناه أنّها مُطِرَتْ بنوْءِ الشّرَطَيْنِ[3]

وحدثنى الزِّيادىُّ قال : سمعتَ الأصمعىَّ — وسُئِلَ بحضرتِى ، أو سألتُه عن قوله : « أشراطيةٌ » — فقال : باسْتِه وأُسْتِ عِرْسِهِ ! وذاك أنَّ الأصمعىَّ كان لا يُنْشِدُ ولا يُفسِّرُ ما كان فيه ذِكْرُ الأنْواءِ ، لقولِ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا ذُكِرَتِ النجُومُ فأَمْسِكُوا » . لأنَّ الخبرَ فى هذا بعينِه : « مُطِرْنا بنَوْءِ كذا وكذا » ، وكان لا يُفسِّرُ ولا يُنْشِدُ شعراً فيه هجاءٌ ، وكان لا يفسِّرُ شعراً يوافقُ تفسيرُه شيئًا من القرآنِ ، هكذا يقولُ أصحابه . وسُئِلَ عن قول الشَّماخِ :

طَوَى ظِمْأَها فى بَيْضَةِ القيظِ[4] بعدَما ... جرَى فى عِنانِ الشِّعْرَيَيْنِ الأَماعِزِ[5]

---

(١) ر : « وكذا المفسرون يقولون » .

(٢) سورة الرحمن ٦٤

(٣) الشرطان : مثنى شرط — بالتحريك — وهى من الحمل قرناه .

(٤) ر : « بيضة الصيف » .

(٥) طوى ظمأها : قطع بها مقدار ظمئها فى السير ، والظمء : مابين الشربتين ؛ يريد أنه سار بها فلم يوردها الماء وبيضة القيظ : شدته ، وقوله : « جرى فى عنان الشعريين الأماعز » جعل للشعريين العبور والغميصاء — وهما كوكبان يطلعان فى القيظ — عنانا ؛ طرفاه محيطان برأس الأماعز ، وهى الأمكنة الغليظة . (من رغبة الآمل) .

من غيرهم فعلى قُبْحٍ ، كالضرورةِ ، والقرآنُ إنما يحمل على أشرفِ المذاهب .
وقرأ حمزة : ﴿ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامِ ﴾ (١) ، وهذا مما لا يجوزُ
عندنا ، إلَّا أن يُضْطَرَّ إليه شاعرٌ ، كما قال :

فاليومَ قَرَّبْتَ تَهْجُونا وتشتِمُنَا فاذْهَبْ فما بِكَ والأيَّامِ مِن عَجَبِ

وقرأ عيسى بن عُمر : ﴿ وامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ (٢) أرادَ : وامرأتُهُ
فى جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ، فنصبَ « حَمَّالَةَ » على الذمِّ . ومن قالَ إنَّ « امرأتُهُ »
مرتفعةٌ بقوله : ﴿ سَيَصْلَى نارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ : فهو يجوزُ . وليس بالوجه أن
يُعْطَفَ المظْهَرُ المرفوعُ على المضمرِ حتى يُؤَكَّدَ ، نحو : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ
وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا ﴾ (٣) و : ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ (٤) ، فأمَّا قولُه :
﴿ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا ﴾ (٥) فإنه لمَّا طالَ الكلامُ وزيدت (٦)
فيه « لا » احتملَ الحذفَ وهذا على قبحه جائزٌ فى الكلام (٧) ، أعنِى :
ذهبتُ وزيدٌ ، وأذهبُ وعمرٌو ، قال جَرِير :

وَرَجَا الأخَيْطِلُ من سَفاهَةِ رَأْيِهِ ما لم يَكُنْ وأبٌ له لِيَنَالا

وقال ابنُ أبى ربيعة :

قلت إذْ أَقْبَلَتْ وَزُهْرٌ تَهَادَى كَنِعَاجِ المَلَا تَعَسَّفْنَ رَمْلا (٨)

---

(١) سورة النساء ١ (٢) سورة المسد ٤ (٣) سورة المائدة ٢٤
(٤) سورة البقرة ٣٥ (٥) سورة الأنعام ١٤٨
(٦) ر : «وزادت» ، وما أثبته عن الأصل ، س .
(٧) لفظ « فى الكلام » ساقط من ر . (٨) الملا : الفلاة .

وقد قال الشعراء قبله وبعده فلم يبلغوا هذا المقدار .

وقال الشَّيْبانيُّ (١) للحَجَّاجِ :

هَلاَّ بَرَزْتَ إلى غَزَالةَ فى الوَغَى بل كان قَلْبُكَ فى جَناحَىْ طائر

فهذا يجوز أن يكونَ فى الخفقانِ وفى الذهابِ البتة .

* * *

ومن التشبيه المحمودِ قول الشاعرِ :

طَليقُ اللهِ لم يَمْنُنْ عليه أبو داوُدَ وابنُ أبى كَثِيرِ
ولا الحجَّاجُ عَيْنَىْ بِنْتِ ماءٍ (٢) تُقَلِّبُ طَرْفَها حَذَرَ الصُّقورِ

وهذا غايةٌ فى صفة الجبانِ .

ونَصَبَ « عَيْنَىْ بنتِ ماءٍ » على الذمِّ ، وتأويله : أنه إذا قال : جاءنى عبدُ الله الفاسقَ الخبيثَ » فليس يقوله (٣) : إلَّا وقد عرَفهُ بالفسق والخبث (٤) فنَصَبَه بـ «أعنى» وما أشبهه من الأفعالِ ، نحو « أَذْكُرُ » . وهذا أبلغ فى الذمِّ ، أن يُقيمَ الصفةَ مقامَ الاسم ، وكذلك المدحُ ، وقولُ الله تبارك وتعالى : ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ﴾ بعدَ قوله : ﴿ لَـٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ مِنْهُمْ ﴾ (٥) إنما هو على هذا . ومَنْ زعم أنه أرادَ : « ومِنَ المقيمين الصَّلاةَ » فمخطئٌ فى قول البصريين ، لأنهم لا يَعطِفون الظاهرَ على المضمرِ المخفوضِ ، ومَن أجازه

---

(١) هو عمران بن حطان .
(٢) بنت الماء : مايصاد من طير الماء إذا نظرت إلى صقر قلبت عينها حذراً منه .
(٣) ر : « يقول » . (٤) ر : « بالخبث والفسق » .
(٥) سورة النساء ١٦٢ .

وأكثرُ ما تُنشِد العربُ بيتَ ذى الرُّمَّةِ نصباً ، لأنه لمَّا ذكر ما يَحِنُّ إليه ويَصْبو إلى قُربه أشادَ بذِكرِ ما قد كان يَبْغِى ، فقال :

دِيارَ مَيَّةَ إذ مَىٌّ تُساعِفُنا ... ولا يرَى مِثْلَها عُجمٌ ولاَ عَرَبُ

وفى هذه القصيدة من التّشبيهِ المُصيبِ قولُه :

بَيْضَاءُ فى دَعَجٍ ، صَفْرَاءُ فى نَعَجٍ ... كأنها فِضَّةٌ قد مَسَّها ذَهَبُ[1]

وفيها من التشبيهِ المصيبِ قولُه[2] :

تَشْكُو الخِشَاشَ ومَجْرَى النِّسْعَتَيْن كما ... أَنّ المرِيضُ إلى عُوَّادِهِ الوَصِبُ[3]

والخِشَاشُ[4] : ما كان فى عَظْمِ الأَنْف ، وما كَانَ فى المَارِنِ فهو بُرَةٌ ، يقالُ : أبْرَيْتُ الناقةَ ، فهى مُبْرَاةٌ ، قال الشَّماخُ — وهذا من التشبيهِ العجيبِ :

هَرَبْتُ مُبْرَاةً تخَالُ ضُلُوعَها ... من الماسِخيَّاتِ القِسيَّ المُوَطّرا[5]

ومَاسِخَةَ ، من نصرِ[6] بن الأَزْدِ ، وإليهم تنسب[7] القِسِيُّ الماسِخيَّة .

وأحسنُ ما قيل فى صفة الضلوع واشتبا كها قولُ الراعى :

وكأنما انتَطَحَتْ على أثْبَاجِهَا ... فُدُرٌ بِشَابَةَ قد يَمَّمْنَ وُعُولا[8]

---

(١) الدعج : سواد العين . والنعج : البياض الخالص . ورواية الديوان : « كحلاء فى برج » ؛ والبرج : سعة فى بياض العين . (٢) ساقطة من ر .

(٣) النسعة والنسع : سير مضفور يجعل زماما للبعير وغيره ؛ وأنّ ، من الأنين .

(٤) ر : « الخشاش » بحذف الواو .

(٥) أصل الإطر : عطف الشىء تقبض على أحد طرفيه فتعوجه . وفى ر : « الموترا » ؛ والموتر : المشدود .

(٦) ر : « نصر من الأزد » . (٧) ر : « نسبت » .

(٨) الأثباج : جمع ثبج ؛ وهو معظم الظهر ، وفيه محاني الضلوع . وشابة : جبل بعينه . ويممن : قصدن ، وخفف فى البيت للشعر .

ومما يُنصبُ على الذمّ قولُ النابغةِ الذُّبْيَانِىّ[١] :

لَعَمْرِى وما عَمْرِى علىَّ بِهَيِّنٍ   لقد نَطَقَتْ بُطْلاً علىَّ الأَقَارِعُ[٢]

أَقَارِعُ عَوْفٍ لا أُحَاوِلُ غيرَها   وُجُوهَ قُرودٍ تَبْتَغِى مَنْ تُجادِعُ[٣]

وقال عُرْوَةَ بن الوَرْدِ العَبْسِىُّ :

سَقَوْنِى الخمرَ ثم تَكَنَّفُونِى   عُدَاةَ اللهِ مِن كَذِبٍ وزورِ

والعربُ تُنْشِدُ قولَ حاتمٍ الطائىِّ رفعاً ونصبا :

إنْ كنتِ كارِهةً مَعِيشَتَنا   هَاتَا فَحُلِّى فى بَنِى بَدْرِ

الضَّارِبِينَ لَدَى أَعِنَّتِهِمْ   والطَّاعِنِينَ وخَيْلُهُمْ تَجْرِى

وإنما خَفَضُوها على النعتِ ، وربّما رفَعُوها على القطْعِ والابتداءِ .

وكذلك قولُ الخِرْنِقِ بنتِ هَفّانَ القَيْسِيَّةِ ، من بنى قَيْسِ بن ثَعْلَبَةَ :

لا يَبْعَدَنْ قَوْمِى الذين هُمُ   سُمُّ العُدَاةِ وآفَةُ الجُزْرِ

النَّازِلِينَ بكلِّ مُعْتَرَكٍ   والطَّيِّبِينَ معاقدَ الأُزْرِ

وكلّ ما كان مِن هذا فعلى هذا الوجْه[٤] .

وإن لم يُرِدْ مَدْحًا ولا ذَمًّا قد استَقَرَّ له فَوَجْهُهُ النعتُ . وقرأ بعضُ القُرَّاءِ : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنَ الخَالِقين ﴾[٥] .

---

(١) ساقطه من ر .
(٢) البطل : ضد الحق . والأقارع : هم بنو قريع بن عوف بن كعب .
(٣) تجادع : تشاتم ، وفى ر : « تخادع » .
(٤) كذا فى الأصل ، س ؛ وفى ر : « فعلى هذا أكثر إنشاده » .
(٥) سورة المؤمنين ١٤

خاصّةً . فأقبلَ يُعرِّضُ لأبى الهِنْدِيِّ بالشرابِ ، فلما أكْثَرَ عليه قال أبو الهندىّ : أحدهم يرى القَذاةَ فى عين أخيه ولا يرى الجِذْعَ فى فى اُسْتِ أبيه .

وفى الخِرَابةِ يقول الراجزُ :

والخاربُ اللصُّ يُحِبُّ الخارِبا وتلك قربى مثلَ أن تُناسِبا

أن تَشْبِهَ الضرائبُ الضَّرائبا[1]

وقال الآخر :

إيتِ الطريقَ واجْتَنِبْ أرْمَامَا إنّ بها أكْتَلَ أو رِزَامَا[2]

خُوَيْرِ بَيْنِ يَنْقُفَانِ الهَامَا[3]

[زاد أبو الحسن : * لم يَتْرُكا لِمُسْلِمٍ طَعَامَا *]

نَصَبَ « خُوَيْرِ بَيْنِ » على « أعْنِى » لا يكون غيرُ ذلك ، لأنهْ إنما أثْبَتَ أحدَهما بقوله : « أو » .

ومَرَّ نصرُ بن سَيَّارٍ الليثىُّ بأبى الهندىِّ وهو يَميلُ سُكْرًا ، فقال له : أفْسَدْتَ شرفَك ! فقال أبو الهندىِّ : لو لم أفْسِدْ شرفى لم تكنْ أنتَ والىَ خراسانَ .

وحَجَّ به نصرُ بن سَيَّارٍ مرةً ، فلما ورد الحَرَمَ قال له نصرٌ : إنك بفناء بيتِ الله ومَحَلِّ حرمه[4] ، فَدَعْ لى الشرابَ حتى يَنْفِرَ الناسُ ، واحْتَكِمْ

---

(١) الضرائب : جمع ضريبة ، وهى السجية والطبيعة .

(٢) أرمام جبل بعينه ، وأكتل ورزام : لصان من لصوص البادية .

(٣) نقف الهامة : شجها حتى يخرج الدماغ .

(٤) ر : « ومحل وفوده » .

الفَادِرُ : المسِنُّ من الوُعولِ .

وذو الرُّمَّةِ أخذ ذلك المعنى من المُثَقِّبِ العبدىَ ، قال المثقب[1] :

إذا ما قُمتُ أَرحَلُها بِلَيلٍ   تَأوَّهُ آهَةَ الرجلِ الحزينِ

* * *

ومن التشبيه المستحسَنِ قولُ عَلقمةَ بن عَبَدَةَ :

كأنَّ إبريقَهم ظَبْىٌ على شَرَفٍ   مُفَدَّمٌ بِسَبَا الكَتَّانِ مَلثُومُ[2]

فهذا حسن جدا .

* * *

وقال أبو الهِنْدِى ، وهو عبدُ المؤمنِ بن عبد القُدّوسِ بن شَبَثِ ابن رِبْعِىٍّ الرِّيَاحِىُّ ، مِن بنى رِيَاحِ بن يَرْبُوعٍ ، وكان شَبَثٌ سَيِّدَ بنى يرْبُوعٍ بالكوفة :

مُفَدَّمةٌ قَزًّا كأنَّ رِقابَها   رِقابُ بَنَاتِ الماء أفزَعها الرَّعْدُ

[من أخبار أبي الهندى]

وكان أبو الهندىّ قد غَلَبَ عليه الشرابُ ، على كرم مَنصِبِه ، وشرفِ أُسرَتِه ، حتى كاد يُبْطِلُه .

وكان عَجيبَ الجوابِ ، فجلس إليه رجلٌ مَرَّةً يُعْرَفُ ببِرزِينِ المناقِيرِ ، وكان أَبوه صُلِبَ فى خِرَابَةٍ ، والخِرابةَ عندهم : سَرَقُ الإبل

(١) ر : «أخذ ذلك المعنى من قول المثقب العبدى» .

(٢) الشرف : ما ارتفع من الأرض وأشرف على ماحوله . مفدم : مغطى بالفدام ، وهو من وصف الإبريق . وسبا الكتان ، يريد سبائب الكتان ؛ والسبائب : جمع سبيبة ؛ وهى شقة بيضاء . ملثوم ؛ من اللثام ؛ وهو مايوضع على الفم ؛ واستعاره للإبريق .

إلى شخصه حتى يَزُولَ عنها ، فقال رجلٌ : أردتُ أن أعلمَ كيف حالى عند امرأتى ، فالتفتُّ وقد نهضَت من بين يديها فإذا هى تُكَلِّحُ[١] فى قفاىَ .

وقال الفرَزْدَق فى هذا المعنى ، والنَّوارُ تخاصمُهُ عند عبد الله بن الزُّبَيْر ابن العوام :

فَدُونَكَها يابنَ الزُّبَيْرِ فإنّها مُوَلَّعةٌ يُوهِى الحجارةَ قِيلُها
إذا جلستْ عند الإمامِ كأنّما[٢] تَرَى رُفْقَةً مِنْ خَلْفِها تَستَحِيلُها

قوله : « مُوَلَّعَة » ، يقول : كأنها[٣] مُوَلَّعَةٌ بالنظر مرةً هاهنا ومرّةً هاهنا وقوله : « تَرَى رُفقةً » يقال : رِفْقَةٌ ورُفْقَةٌ . ومعنى « تَستَحِيلُها » تَتَبَيَّنُ حالاتِها ، قال حُمَيْد بن ثَوْر :

إذا خرجت تَستَحِيلَ الشُّخُوصَ[٤] من الخوفِ تَسمَعُ مالا تَرَى[٥]

* * *

ومن عجيب التشبيهِ قولُ جريرٍ فيما يُحْكَى عن ذكرِه :

تَرَى الصِّبْيَانَ عاكِفةً عليها كَعَنْفَقَةِ الفرَزْدقِ حينَ شابا[٦]

ويقالُ : إن الفرزدقَ حين أُنشِدَ النصفَ الأولَ ضرب بيده إلى عنفقته تَوَقِّيًا لِعَجُزِ البيتِ .

* * *

(١) التكليح : التكشر فى عبوس .
(٢) ر : « كأنها » ؛ وما أثبته عن الاصل ؛ س .
(٣) ساقطه من ر .
(٤) كذا فى الأصل س ؛ وفى ر : « مروعة تستحيل الشخوص » وهى رواية الديوان ٤٧
(٥) وفى زيادات طبعة المرصفى : قوله : « مروعة » ، يقول : كل شىء يدنينى من الظفر بها يروعها وينفرها .
(٦) العنفقة : مابين الذقن وطرف الشفة السفلى من الشعر .

عليَّ، فَفعَلَ . فلما كان يومُ النَفرِ أخذ الشرابَ فوضَعه بين يديه ، وأقبلَ يشرب ويبكى ، ويقول :

رَضِيعُ مدامٍ فارَقَ الرَّاحَ رُوحُهُ فظَلَّ عليها مُسْتَهِلَّ المَدامِعِ
أَدِيرَا علىَّ الكأسَ إنى فقَدْتُها كما فَقَدَ المَفطُومُ دَرَّ المَراضِعِ

وكان يَشْرَبُ مع قيس بن أبى الوَليد الكِنانىِّ ، وكان أبو الوليد ناسكاً ، فاستَعْدَى عليه وعلى ابنه ، فهرَبا منه ، وقال أبو الهندىّ :

قلْ لِلسَّرِىِّ أبى قيسٍ: أتُوعِدُنا ودارُنا أصبحتْ من دارِكم صَدَدَا[1]
أبا الوليد أمَا واللهِ لو عَمِلَتْ فيكَ الشمولُ لما حَرَّمْتَها أبدا
ولا نَسِيتَ حُمَيَّاها ولذَّتها ولا عَدَلْتَ بها مالا ولا وَلدا

* * *

ثم نرجعُ إلى التشبيه ، وربما عَرَضَ الشىء والمقصودُ غيره ، فيذكَر للفائدةِ تَقعُ فيه ، ثم يُعادُ إلى أصلِ الباب .

قال أبو العباس : وقال عُرْوَةُ بن حِزَامٍ العُذْرِىُّ :

كأنَّ قطاةً عُلِّقَتْ بجناحِها على كَبِدِى من شِدَّةِ الخفقانِ

ويقال : إن المرأةَ إذا كانت مُبْغضَةً لزوجها ، فآيةُ ذلك أن تكونَ عند قُرْبِه منها مُرْتَدَّةَ النَّظر عنه كأنما تنظر إلى إنسان وراء[2] ، وإذا كانت محِبَّةً له لا تُقْلِعُ عن النظر إليه ، وإذا نَهضَ نظرت من وَرائه

---

(١) داركم صددا ؛ منصوب على الظرفية ؛ اى قريبة .
(٢) ر : « من ورائه » ؛ وما أثبته عن الأصل .

وقال الله جلّ ثناؤه : ﴿ وله الجوارِ المنشآتُ فى البحرِ كالأعلامِ ﴾[1]

ومن هذا الضربِ من التشبيه قولُ العجَّاج :

* تقضِّىَ البازِى إذا البازِى كَسَرْ *

والتقضِّى : الانقِضاضُ ، وإنما أراد سرعتَها ، والعربُ تُبدِلُ كثيراً الياءَ مِن أحدِ التَّضعيفَيْن ، فيقولون : تظنَّيْتُ والأصلُ : « تظنَّنْتُ » ، لأنه « تفعَّلتُ » من الظَّنِّ . وكذلك : تقضَّيتُ ، من الانقضاض ، أى تقضَّضتُ ، وكذلك تسرَّيتُ ، ومثل هذا كثيرٌ .

[من تشبيهات المحدثين]

ومن تشبيه المحدَثين المستطرَفِ قولُ بشّار :

كأنَّ فؤادَهُ كُرَةٌ تنزَّى حِذارَ البَيْنِ إنْ نفعَ الحِذارُ
[يُرَوِّعُهُ السِّرارُ بكلِّ أمرٍ مخافةَ أن يكونَ به السِّرارُ][2]

وفى هذه القصيدةِ :

جَفَتْ عينِى عن التَّغميضِ حتى كأنَّ جُفونَها عنها قِصارُ
أقولُ وليلتى تزدادُ طولًا : أما لِلَّيـــلِ بعدَهُمُ نهارُ

* * *

وقال الحسن بن هانئ فى صفة الخمر :

فإذا ما لَمَسْتَها فهبـــاءٌ تمنعُ اللَّمسَ ما تُبيحُ العيونَا

---

(1) سورة الرحمن ٢٤ .

(2) مابين العلامتين من زيادات ر . والسرار : آخر ليـلة من الشهر ؛ وهى التى يستتر فيها القمر ويختفى

ومن التشبيه الحسَنِ قولُ جرير فى صفة(١) الخيل :

يَشْتَفِنَ لِلنَّظرِ البعيد كأنما إرْنانُها ببوائِنِ الأشْطانِ

قوله : « يشتفِنَ » و « يتشوّفن » فى معنى واحد . وقوله : « كأنما إرْنانُها ببوائِنِ الأشْطانِ » ، أراد شدة صَهيلها . يقول : كأنما يَصهَلْنَ فى آبارٍ واسعةٍ تَبِينُ أشطانُها عن نواحيها .

ونظيرُ ذلك قولُ النابغة الجَعْدىّ :

ويَصْهَلُ فى مثلِ جَوْفِ الطَّوِىِّ صَهيلًا يُبَيِّنُ للمُعْرِبِ

المُعْرِبُ : العالِمُ بالخيلِ العِرابِ .

* * *

ومن حَسَنِ التشبيه قولُ عَنْتَرة :

غادَرْنَ نَضْلَةَ فى مَعْرَكٍ يَجُرُّ الأسِنَّةَ كالمُحْتَطِبْ(٢)

يقول: طُعِنَ وغُودِرَتِ الرِّماحُ فيه ، فَظَلَّ يَجُرُّها ، كأنه حامِلُ حطبٍ .

* * *

ومن التشبيه المتجاوِزِ المُفْرِطِ قولُ الخنساء :

وإنَّ صَخْرًا لتأْتَمُّ الهُداةُ به كأنه عَلَمٌ فى رأسِه نارُ

فجَعَلَتِ المهتدِىَ يأتَمُّ به ، وجعلته كنار فى رأْسِ عَلَمٍ ، والعلم : الجبلُ ، قال جرير :

* إذا قَطَعْنَ عَلَمًا بَدا عَلَمْ *

(١) قال المرصفى : « هذا خطأ ؛ صوابه قول الفرزدق يهجو جريرا ويمدح بنى تغلب » وهو فى ديوانه ٨٨٢

(٢) الضمير فى « غادرن » ، يعود إلى الخيل ولم يجر لها ذكر ؛ ونضلة بن الأشتر قتله ورد بن حابس العبسى ؛ قاله المرصفى .

وقال يَزيدُ المُهَلّبىُّ فى مثله[1]

قامَ ولمَّا يَسْتَعِنْ بِساقِهِ   آلَفَ مَثْواهُ على فِرَاقِه

* كأنما يَضْحَكُ فى أَشْدَاقِهِ *

أراد بياضَ الشَّبريطِ فى فيه .

* * *

وقال أعرابىٌّ فى صفةِ مصلوبٍ . وهو الأخْطَلَ :

[قال أبو الحسن : الأخطلُ الذى يعنى رجلٌ مُحْدَثٌ من أهل البصرة ، ويعرفُ بالأخَيْطِلِ ، ويُلَقَّبُ بِبَرْقُوقا ، وذكر أبو الحسن أن أبا العباس كان يُدَلّسُ به] .

كأنَّه عاشقٌ قد مَدَّ صفْحَتَه   يومَ الفِراقِ إلى توديعِ مُرْتَحِلِ

أو قائمٌ من نُعاسٍ فيه لُوثَتُه   مُواصِلٌ لِتَمَطّيهِ من الكَسَلِ[2]

[وقال مسلمُ بن الوَليدِ :

وَضَعْتَه حيثُ تَرْتابُ الرِّياحُ به   وتَحْسُدُ الطيْرَ فيه أَضْبُعُ البَلَدِ][3]

وقال حَبيبُ بن أَوْس [قال أبو الحسن : يعنى به إسحاق بن إبراهيمَ الطاهِرِىَّ] :

---

(١) فى زيادات ر : « وقال آخر فى صفة مصلوب ؛ وهو يزيد المهلبى » ، وما أثبته من الأصل .

(٢) اللوثة : الاسترخاء والبطء .   (٣) مابين العلامتين من زيادات ر .

درسَ الدّهرُ ما تجسّمَ منها ... وتبقّى لُبابُها المكنونا
فهىَ بِكرٌ كأنها كلُّ شىء ... يتمنّى مُخيَّرٌ أن يكونا
فى كُؤوسٍ كأنهنّ نجومٌ ... جارياتٌ بُروجُها أيدينا
طالعاتٍ مع السُّقاةِ علينا ... فإذا ما غَرَبْنَ يَغرُبْنَ فينا

فهذه قطعة من التشبيه غايةٌ ، على سُخفِ كلامِ المُحْدَثينَ .

* * *

وقال الخنفىُّ : وهو إسحاق بن خَلَف — فى صفةِ السيف :

أَلْقَى بجانبِ خَصْرِهِ ... أَمْضَى من الأجَلِ المتاحِ[1]
وكأنما دَرَّ الهبَا ... ءَ عليه أنفاسُ الرّياحِ

* * *

وقال مُسْلم بن الوليدِ الأنصارىُّ فى مدحِهِ يَزيد بنَ مزْيَد :

يَمضِى المَنايَا كما تمضى أَسِنَّتُه ... كأَنَّ فى سَرْجِهِ بَدراً وضِرْغاما[2]

* * *

وقال دِعْبِلُ بن علِىٍّ فى صفةِ المصلوبِ[3] :

لم أَرَ صَفًّا مثلَ صَفِّ الزُّطِّ ... تِسْعِين منهمْ صُلِبوا فى خَطِّ[4]
من كلِّ عالٍ جِذْعُه بالشطِّ ... كأنه فى جِذْعِه المشتطِّ[5]
أخو نُعاسٍ جَدَّ فى التَّمطِّى ... قد خامَرَ النَّوْمَ ولمْ يَغِطِّ[6]

* * *

(١) ر : « فكأنما » وما أثبته عن الأصل .
(٢) ر : « تمضى » ، وما أثبته عن الأصل .
(٣) ر : « مصلوب » .
(٤) الزط : جيل أسود من السند أو الهند .
(٥) كذا فى الأصل ، ويريد بالمشتط الطويل ، وفى ر : « المشتط » .
(٦) الغطيط : صوت نفس النائم .

وفى هذا الشِّعْرِ :

فما يَدْنُو إلى فيه ذُبابٌ ولو طَلِيَتْ مشافِرُهُ بقنْدِ[1]

يَرَيْنَ حلاوةً ويخفْنَ موتاً وَشِيكاً إنْ هَمَمْنَ له بِورْدِ

الذُّبابُ : الواحد من الذِّبّان ، وأدنى العَدَد فيه أَذِبَّةٌ ، والكثيرُ الذِّبّان ؛ ولكنه ذكرَ واحداً ثم خَبَّرَ عن سائر الجنس ، والأسدُ أنتنُ السباعِ فماً ، كما أن الصَّقْرَ أنتنُ الطير فماً .

قال بعضُ المحدَثين فى رجل يهجوه ، والمَهْجُوّ داود بن بكر ، وكان وَلِىَ الأهوازَ وفارسَ ، والشعرُ لأبى الشَّمَقْمَق :

وله لِحْيَةُ تَيْسٍ وله مِنْقارُ نَسْرِ

وله نَكْهَةُ لَيْثٍ خالطَتْ نكْهَةَ صَقْرِ

وقال عبد الرحمن بن أبى عبد الرحمن بن عائشة :

من يكُنْ إبطُه كآباطِ ذا الخلْقِ فإبْطاىَ فى عِدادِ الفِقاحِ[2]

لِىَ إبْطانِ يَرْمِيانِ جَلِيسى بشبيهِ السُّلاحِ[3] أو بالسّلاحِ

فكأنّى من نَتْنِ هذا وهذا جالسٌ بين مُصْعَبٍ وصُباحِ

يعنى مصعبَ بن عبد الله الزُّبَيْرِىَّ ، وصَباحَ بن خاقانَ المِنْقَرِىَّ — وكانا جليسين — لا يكادانِ يفترقان ، وصديقَيْنِ مُتَواصِلَيْنِ ، لا يكادان يتصارَمانِ .

---

(١) القند : عسل قصب السكر .

(٢) الفقاح : جمع فقحة ؛ وهى حلقة الدبر . (٣) السلاح : العذرة .

قد قَلَّصَتْ شَفَتاهُ من حَفِيظَتِهِ فَخِيلَ من شِدَّةِ التقليص مُبْتَسِما[١]

وقال أيضاً فى رجلٍ يَنْسُبُهُ إلى الدِّعْوَةِ[٢] :

وتَنَقُّلٌ من مَعْشَرٍ فى مَعْشَرٍ فكأنَّ أُمَّكَ أَوْ أَباكَ الزِّئْبَقُ

يقال : زِئْبَق ، وزِئْبِر ، مهموزانِ ، ودرهمٌ مُزَأْبَقٌ ، وثوبٌ مُزَأْبَرٌ[٣] .

* * *

ومن إفراطِ التشبيه قولُ أبى خِرَاشٍ الهُذَلِيِّ يصفُ سرعة ابنِه فى العَدْو :

كأنَّهُمْ يَسْعَوْنَ فى إِثْرِ طائرٍ خَفِيفِ المَشاشِ عَظْمُهُ غيرُ ذى نَحْضِ

يُبادِرُ جُنْحَ الليلِ فهو مهابِذٌ يَحُثُّ الجناحَ بالتبسُّطِ والقَبْضِ

وقال أوسُ بن حَجَر [قال أبو الحسن : أهلُ الكوفةِ يَرْوُنَها لعَبِيدِ ابن الأَبْرَصِ] :

كأنَّ رِيقَتَها بعدَ الكَرَى اغْتُبِقَتْ من ماءِ أَدْكَنَ فى الحانوتِ نَضَّاحِ

أو من مُعَتَّقَةٍ وَرْهَاءَ نَشْوَتُها أو من أنابيبِ رُمَّانٍ وتفَّاحِ[١]

وقال ابنُ عَبْدَلٍ يهجو رجلاً بالبَخَرِ :

نَكَهْتَ عَلَىَّ نَكْهَةَ أَخْدَرِيٍّ شَتِيمٍ شابِكِ الأنيابِ وَرْدِ[٢]

---

(١) التقليص : التقبض ، وفى ر : « من شدة التعبيس » .

(٢) فى زيادات ر : « وهو إسحاق بن ابراهيم الطاهرى » ودفعها المرصفى ، وقال : هو عتبة بن أبى عاصم ؛ وكان قد ضمهما مجلس لم يتكلم فيه حتى انصرف أبو تمام ؛ فأخذ يتشدق بهجائه ، فبلغ أبا تمام ؛ فقال كلمة منها هذا البيت .

(٣) الزئبر : ما يعلو الثوب الجديد مثل ما يعلو الخز .

(٤) الاغتباق : شرب العشى . والأدكن : ماتعلوه الدكنة ؛ وهى لون بين الحمرة والسواد أراد به الزق . والورهاء : الريح التى فى هبوبها خرق وعجرفة ، والنشوة : الرائحة الطيبة .

(٥) النكهة : ريح الفم ، والأخدرى ، من وصف الحمار الوحشى .

وقيلَ للأوسيَّةِ — وهى المرأةُ حكيمةٌ فى[1] العرب — بحضرةِ عمرَ ابن الخطاب رحمه الله : اىَّ مَنْظَرٍ أحسنُ ؟ فقالت : قُصُورٌ بيضٌ ، فى حَدائقَ خُضْرٍ . فأنشدَ عمرُ بن الخطاب لِعدِىِّ بن زيدٍ :

كَدُمَى العاجِ فى المَحاريب أو كالـــبَيْضِ فى الرَّوْضِ زَهْرُهُ مُسْتَنِيرُ

وقال آخر :

كالبَيْضِ فى الأُدْحىِّ يَلمعُ بالضُّحى[2] فالحُسْنُ حُسْنٌ والنَّعيمُ نعيم

وقال جريرٌ :

ماالسْتَوْصَفَ الناسُ من شىءٍ يَرُوقُهُمُ[3]
إلَّا رَأَوْا أُمَّ نُوحٍ فوقَ مَا وصَفُوا

كأنها مُزْنَةٌ غَرَّاءُ رائحـــةٌ أو دُرَّةٌ ما يُوارِى ضوءها الصدفُ[4]

المُزْنَةُ : السحابة البيضاء خاصّة ، وجمعُها مُزْنٌ ، قال الله جلّ وعزّ : ﴿ أأنتُمْ أنزَلْتُموهُ مِنَ المُزْنِ ﴾؛[5] فالمرأةَ تُشَبَّهُ بالسحابة لتهاديها وسُهولة مَرِّها ، قال الأعْشى :

كأنَّ مِشْيَتَها من بيتِ جارتِها مَرُّ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

الرَّيْثُ : الإبطاء ، فهذا ما تَلْحَقُه العَيْنُ منها ، فأما الخُنَّة فهى كاسرع

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى ر ، س : « من العرب » .
(٢) الأدحىّ : مبيض النعام تدحوه برجلها ، ثم يبيض فيه .
(٣) ر : « عن شىء يروقهم » ، وما أثبته عن الأصل ، س .
(٤) ر : « لا يوارى لونها » . (٥) سوره الواقعة ٦٩

فَحَدَّثتُ أنّ أحمدَ بن هشامٍ لقيهما يوماً ، فقال : أمَا سمعتما ما قال فيكما هذا ؟ يعنى إسحاق بن المَوْصِلِىّ ، فقالا : ما قال فينا إلا خيراً ، قال : قال :

لاَمَ فيها مُصْعَبٌ وصُبَاحٌ فعصينا مُصعَباً وصُباحَا
وأبينا غيرَ سَعْىٍ إليها فاستَرَحْنا منهما واستراحا

قالا : ما قال إلا خيرًا ، ولكنّ[1] المكروهَ ما قال فيك ، إذ يقول :

وصافيةٍ تَغشى العيُونَ رَقيقةٍ رَهينةَ عامٍ فى الدِّنَانِ وعامِ
أدرنَا بها الكأسَ الرَّوِيَّةَ مَوْهِناً من الليل حتى انجابَ كلُّ ظلامِ[2]
فما ذَرَّ قرنُ الشمس حتى كأنّنا من العِىِّ نَحْكِى أحْمَدَ بنَ هِشام

* * *

واعلمْ أن للتشبيه حدًا ، لأن الأشياء[3] تَشَابَه من وجوهٍ ، وتبايَنُ من وجوهٍ ؛ فإنما يُنظَرُ إلى التشبيه من أين وقع[4] ، فإذا شُبِّهَ الوجهُ بالشمس والقمر[5] فإنما يُرادُ به[5] الضياء والرَّونقُ ، ولا يُرادُ به[5] العِظَمُ والإحراقُ . قال اللهُ جل وعز : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾[6] ، والعربُ تَشَبِّهُ النساء ببيضِ النَّعام ، تريدُ نقاءه ورقّة لونه[7] ، قال الراعى :

كأنَّ بَيْضَ نَعامٍ فى مَلاحِفِها إذا اجتلاهُنَّ قَيْظٌ ليلُه وَمِدُ[8]

---

(١) ساقطة من ر . (٢) الوهن : نحو نصف الليل .
(٣) ر : « فالأشياء » ، وما أثبته عن الأصل .
(٤) ر : « من حيث وقع » . (٥) ساقطة من ر .
(٦) سورة الصافات ٤٩ . (٧) ر : « ونصعة لونه » .
(٨) الملاحف : الأغطية ، والومد : ندى يجىء فى صميم الحر ، من قبل البحر مع سكون الريح .

انكشافةً فكانت منه[1] فُرْجَةٌ يسيرةٌ بين السحابتين . تقول العرب : دامَ علينا الغَيْمُ ثم أَفتقْنا ، وإذا نُظِرَ إلى الشمس والقمر من فتقِ السحاب فهو أحسنُ ما يكونُ وأشدُّه استنارةً .

وقوله : « كلاً » ، يريدُ في سرعةِ ما بدا ثم غاب .

وقال الله عز وجل : ﴿ كأَنَّهُنَّ الياقوتُ والمَرْجانُ ﴾[2] ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ كأَمْثالِ اللُّؤلؤ المكْنُون ﴾[3] .

والمكنونُ : المَصُونُ ، يقال : كَنَنْتُ الشيء ، إذا صُنْتَه . وأَكْنَنْته ، إذا أخفيتَه ، فهذا المعروف ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ أَوْ أَكْنَنْتُمْ في أنفسِكمْ ﴾[4] وقد يقالُ : كَنَنْته ، أَخفيتُه .

وقد قال جريرٌ في يَزيدَ بن عبد الملِكِ ، وأُمُّه عاتكة بنتُ يزيد ابن معاويةَ بن أبي سُفْيان :

الحزْمُ والجودُ والإيمانُ قد نزَلوا على يَزيدَ أمينِ الله فاحتَلَفُوا[5]

ضَخمُ الدسيعَةِ والإيمانِ ، غُرَّتُه كالبَدْرِ ليلةَ كادَ الشهرُ يَنتصِفُ[6]

وقال ذو الرُّمَّة :

فياظَبْيَةَ الوَعْساءِ بَيْنَ جُلاجِلٍ وبَيْنَ النَّقا آأَنْتِ أَمْ أُمُّ سالمِ[7]

(١) ر : « صفه » ، وما أثبته عن الأصل ، س .

(٢) سورة الرحمن ٥٨ (٣) سورة الواقعة ٢٣

(٤) سورة البقرة ٢٣٥

(٥) احتلفوا ، بالحاء المهملة ، من الحلف ، أي تحالفوا ، وفي س : « اختلفوا » تصحيف .

(٦) الدسيعة : العطية ، سميت دسيعة لدفع المعطي إياها مرة واحدة كما يدفع البعير جرته دفعة واحدة .

(٧) الوعساء : الأرض اللينة ، وجلاجل : جبل بعينه .

مارٌّ ، وإنْ خَفِيَ ذلك على البصرِ ، قال الله جل وعز : ﴿ وتَرى الجبالَ تحْسَبُها جامِدَةً وهي تمرُّ مَرَّ السَّحاب ﴾[1]

* * *

والعرب تُشَبِّهُ المرأةَ بالشمس ، والقمرِ ، والغصنِ ، والـكَثِيبِ[2] ، والغزالِ ، والبقرةِ الوحشيَّةِ ، والسحابةِ البيضاء ، والدُّرَّةِ ، والبَيْضَةِ ؛ وإنما تَقْصد من كلِّ شيْءٍ إلى شيْءٍ .

قال ذو الرُّمَّة :

ومَيَّةُ أَحْسَنُ الثَّقَلَيْن جيدًا[3] وسـالفةً وأَحْسَنُهم قَذالاَ[4]

فلم أرَ مِثْلَهَا نظَرًا وعيناً ولا أُمَّ الغَزالِ ولا الغزالاَ

تريكَ بَياضَ غُرَّتِها ووَجْهاً[5] كَقَرْنِ الشَّمْسِ أَفتَقَ ثم زالاَ

أصابَ خَصاصَةً فبدَا كَلِيلا كلاَ وانْغَلَّ سـائرُهُ انْغِلالاَ[6]

الجيدُ : العُنُقُ ، والسالفة : ناحيةُ العُنُقِ ، والقَذالانِ : للمِيتَا القفَا من الرأس

وقوله : « أفتَقَ ثم زَالا » ، يقال : أَفتَقَ السحابُ ، إذا انـكشفَ

(١) سورة النمل ٨٨

(٢) كلمة « الـكثيب » . ساقطة من ر ، وهى فى الأصل ، س .

(٣) الديوان : « خدا » . (٤) الديوان : « وأحسنه » .

(٥) الديوان : « تريك بياض لبتها » .

(٦) أصاب قرن الشمس خصاصة ، أى تفتق السحاب فبدأ منها كليلا ، أى ضعيفاً ؛ ليس مبين الضوء ، وانغل : دخل ، والانغلال : الدخول ، يقول : دخل فى السحاب . (من شرح الديوان) .

وقالت ليلى الأخيليّة[1] :

كأنَّ فتى الفتيانِ توبةَ لم يُنِخْ بنجدٍ ولم يَطْلُعْ مع المتغوِّرِ
ولم يَقْدَعِ الخصمَ الألدَّ ويملأ الـ جفانَ سَدِيفاً يومَ نكباءَ صرصرِ[2]

السَّدِيفُ : شِقَقُ السنام .

[الرياح ومواقعها]

والنّكباء : الريحُ بين الرِّيحينِ ، لأن الرياحَ أربعٌ ، وما بين كلِّ رِيحين نكباء ، فهى ثمان فى المعنى

فما بين مَطلعِ سُهَيْل إلى مَطلعِ الفجرِ جَنوبٌ ، وإنما تأتى الجنوبُ من قِبَلِ اليَمَنِ ، قال جريرٌ :

وحَبَّذا نَفَحاتٌ من يَمانِيَةٍ تأتيك من جبلِ الرَّيَّانِ أحيانا[3]

وإذا هبَّتْ من تِلْقاء الفَجْرِ فهى الصَّبا تقابلُ القِبْلَةَ . فالعرب تسميها القَبُولَ . قال الشاعرُ[4] :

إذ قلتُ هذا حِينَ أسلُو يَهيجُنى نَسيمُ الصَّبا من حيثُ يطّلع الفجرُ

وإذ أتتْ من قِبَلِ الشَّأْمِ فهى شَمالٌ ، قال الفرزدقُ :

مُستَقْبِلِين شَمالَ الشَّأْمِ تَضرِبُنا بحاصِبٍ كنَدِيفِ القطنِ منثورِ

---

(١) من كلمة ترثى بها توبة بن الحمير . (٢) لم يقدع : لم يكف .
(٣) الريان : جبل من بلاد طيء ؛ وفى ر : « من قبل الريان » .
(٤) هو أبو صخر الهذلى .

وقال ابنُ أبى ربيعةَ :

أَبصَرْتها ليـــلة ونِسوَتَها يَمشِينَ بين المَقامِ والحجَرِ
يَرْفُلنَ فى الرَّبطِ والمُرُوطِ كما تَمشى الهُوَيْنَى سَوَاكِنُ البَقَرِ[١]

فهذه تشبيهاتٌ غَريبات مفهومةٌ .

وقال أبو عبد الرحمن العطوى[٢] :

قد رأينا الغزال والغُصْنَ والنَّجْـــمَيْنِ شمسَ الضُّحى وبدرَ الظلام
فوَحَقِّ البَيَانِ يَعْضُدُه البُرْ هانُ فى مأقِطٍ أَلدِّ الخِصام
ما رأَيْنا سِوَى الحبيبة شَيْئًا[٣] جَمَعَ الحُسنَ كلَّه فى نِظام
فهى تجرِى مَجرَى الأصالةِ فى الرَّأْ يِ ومجرَى الأرْواحِ فى الأجسام

البرهان : الحجة ، قال الله عز وجل : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُم إنْ كنتم صادِقين ﴾[٤] أى حجَجَكم . والمأقِطُ : موضعُ الحرب ، فضربه مَثَلًا لموضع المناظرة والمحاجَّة . والألدُّ : الشديدُ الخصومة ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وتُنْذِرَ به قومًا لُدًّا ﴾[٥] ، وقال : ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصام ﴾[٦] :

* * *

(١) الربط : جمع ريطة ؛ وهى الملاءة غير ذات لفقين كلها نسج واحد . والمروط : جمع مرط ، وهو كساء من صوف أو كتان .

(٢) س : وقال أحد الشعراء المتكلمين المحدثين :

(٣) ر : «سوى المليحة» .

(٤) سورة البقرة ١١١

(٥) سورة مريم ٩٧

(٦) سورة البقرة ٢٠٤

توضّأتُ وَضُوءاً حسناً ، وتطهرت طُهوراً ، وأُولِعتُ بالشيء وَلُوعًا ، وإنّ عليه لقبُولًا ، ووقدَتِ النارُ وُقوداً ، وأكثرُهم يجعلُ الوَقودَ الحطبَ ، والوُقودَ المصدرَ .

ويقال : الشَّمالُ ، على لغاتٍ ستٍّ ، يقال : شَمالٌ ، وشَأمَلٌ ، وشَمْأَلٌ ، وشَمَلٌ وشَمْلٌ ، وشَامَلٌ ، غير مهموزٍ .

ويقال للشَّمال : الجِرْبِياء ، قال ابن أحْمَرَ :

بَجَوٍّ مِن قَساً ذَفِرِ الخُزَامَى تداعَى الجِرْبِياءُ به الحَنِينَا [1]

ويقال للجَنُوبِ : الأزْيَبُ .

ويقال للصَّبَا : القَبُولُ ، وبعضهم يجعلُه للجَنوب ، وهو في الصَّبا أشهرُ ، بل هو القولُ الصحيحَ والإيرُ ، والهِيرُ ، والأيِّرُ ، والهَيِّرُ . قال الشاعرُ :

* مَطَاعيمُ أيْسَارٌ إذا الهِيرُ هَبَّتِ *

فهذا يدلُّ على أنه الصَّبا ، وذاك أنهم إنما يَتَمَدَّحُونَ بالإطْعامِ فى المشْتاة [2] وشِدَّةِ الزمانِ ، كما قال طَرَفَةُ :

نحنُ فى المَشْتاة نَدْعُو الجَفَلَى لا تَرَى الآدِبَ فينا يَنْتَقِرْ

الجَفَلَى : العامَّةُ ، والنَقَرَى : الخاصَّةُ والآدِبُ : صاحب المأْدُبة . يقال : مَأْدَبَةٌ ومَأْدُبَةٌ للدَّعْوَةِ وفى الحديث : « إنَّ القرآنَ مَأْدُبةُ الله »

---

(١) قسا : موضع بالعالية ، وذفر ، من ذفر الطيب ، وهو اشتداد رائحته والخزامى : نوع من العشب ، طويل العيدان ، صغير الورق .

(٢) ر : « المشتى » .

وهى تقابلُ الجنوب ، وكذلك قال امرؤ القيس :

فَتُوضِحَ فالمِقْرَاةِ لم يَعفُ رَسْمُهَا لِمَا نَسَجَتْها من جَنوبٍ وشَمْأَلِ

وإذا جاءت من دُبُرِ البيتِ الحرامِ فهى الدَّبُورُ ، وهى تَهُبُّ بشدةٍ ، والعربُ تسميها مَحْوَةَ . عن أبى زيدٍ ، لأنها تمحو السحابَ . ومَحْوَةُ معرفةٌ لا تنصرفُ ، فأما الأصمعىُّ فزَعمَ أن « مَحْوَةَ » من أسماءِ الشَّمالِ . وأنشدَا جميعاً :

قد بَكَرَتْ مَحْوَةُ بالعجَاجِ فَدَمَّرَتْ بَقِيَّةَ الرَّجَاجِ

الرَّجَاجُ : حاشيةُ الإبلِ وضِعافُها . وقال الأعشى :

لها زَجَلٌ كَحَفِيفِ الحَصا د صادَفَ بالليلِ رِيحاً دَبور

* * *

ولهذه الرياحِ أسماءٌ كثيرةٌ ، وأحكامٌ فى العربية ، لأن بعضَهم يجعلها نعوتاً ، وبعضَهم يجعلُها أسماءً ، وكذلك مَصادِرُها تحتاجُ إلى الشرح والتفسيرِ ، ونحن ذاكرون ذلك فى عَقِبِ هذا البابِ ، إن شاء اللهُ .

يقالُ : جَنَبَتِ الرِّيحُ جُنُوباً ، وشَمَلَتْ شُمُولاً ، ودَبَرَتْ دُبُوراً ، وصَبَتْ صُبُوًّا ، وسَمَّتْ سُمُوماً ، وحَرَّتْ حُرُوراً ، مضمومات الأوائل .

فإذا أردتَ الأسماءَ فتحتَ أوائلها ، فقلتَ : جَنُوبٌ ، وشَمولٌ ، وسَمومٌ ، ودَبُورٌ ، وحَرُورٌ .

ولم يأتِ من المصادر شىءٌ مفتوحُ الأول ، إلا أشياءُ يسيرةٌ ، قالوا :

فهذا يكونُ على النعت أجوَدَ ، لأنه أو ضحه بـ « يمانية » ، ولا تكون اليمانية إلا نعتاً ، لأنها منسوبة . فأما الخرِيقُ فهى الشديدةُ من كل ريحٍ .

قال حُمَيْدُ بن ثورٍ :

بمثوًى حَرَامٍ والمطِيُّ كأنَّه ۞ قناً مُسْنَدٌ هَبَّتْ لَهُنَّ خَرِيق

والبَلِيلُ : الباردةَ من كل ريح[1] ، وأصلُ ذلك الشمالُ .

[لجرير فى بنى مجاشع]

قال جريرٌ يُعَيِّرُ بَنى مجاشعٍ بخِذلانهم الزُّبَيْرَ بنَ العوّامِ فى كلمةٍ يقول فيها :

إنِّى تُذَكِّرُنِى الزُّبَيْرَ حَمامةٌ ۞ تَدْعُو بأَعْلَى الأَيْكَتَيْن هَدِيلاَ

يا لهْفَ نفسِى إذْ يَغرُّكَ حَبْلُهمْ ۞ هَلاَّ اتَّخَذْتَ على القُيُونِ كَفِيلاَ

قالت قريش ما أَذلَّ مُجَاشِعاً ۞ جاراً وأَكْرَمَ ذا القتيلَ قَتِيلاَ !

أَفبعْدَ مَتْرَكِكُمْ خليلَ مُحَمَّدٍ ۞ ترجو القُيُونُ مع الرسولِ سَبِيلاَ !

أَفتَى النَّدَى وفتَى الطعانِ غَرَرْتمُ ۞ وأَخَا الشَّمالِ إذا تَهُبُّ بَلِيلا

ويُروى أن أُحَيْحَةَ بن الجلاَحِ الأنصارىَ — وكان يُبَخَّلُ — كان[2] إذا هَبَّتِ الصَّبا طَلَعَ من أُطمِه[3] ، فنظرَ إلى ناحيةِ هُبُوبِها ، ثم يقولُ لها هُبِّى هُبُوبَكِ ، فقد أعددتُ لك ثلثمائةٍ وستينَ صاعاً من عَجْوَةٍ ، أَدْفَعُ

---

(١) ر : « الرياح » .

(٢) ساقطة من ر .

(٣) الأطم : الحصن يبنى بالحجارة .

قال أهلُ العلمِ : معناه مَدْعاةُ اللهِ ، وليس من الادَبِ . وأكثرُ المفسرين قالوا القولَ الأولَ ، وكلاهما فى العربيـــة جائزٌ ، ويدلُّ على القولِ الأولِ قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا الجَفْنَةُ الغرَّاء » ، أى التى يجتمعُ الناسُ عليها ويُدْعَوْنَ إليها ، ويقال فى الدَّعوة : أَدَبَهُ يأْدُبُه أَدْباً ، إذا دعاه ، قال الشاعرُ :

وما أَصْبَحَ الضَّحَّاكُ إلا كخالمٍ   عَصانا فأَرْسَلْنا المَنِيَّةَ تأْدُبُهْ

* * *

وقولُنا فى الرياح : إنها تكونُ أسماءً ونعوتاً نُفَسِّرهَ إن شاء اللهُ

يقولُ أكثرُ العرب : هذه ريحُ جَنُوبٌ ، وريحُ شَمالٌ ، وريحُ دَبُور ، فتجعلُ جَنُوباً ، وشَمالًا ، ودَبُوراً ، وسائرَ الرياحِ نُعُوتاً قال الأعشى :

لها زَجَلٌ كحفيف الحَصَا   دِ صادَفَ بالليلِ ريحاً دَبُورا

وقال زُهَيرٌ :

مكَلَّلٌ بأُصُولِ النَّبْتِ تَنْسِجُهُ   ريحٌ شَمالٌ لضاحِى مائِهِ حُبُكُ [1]

وقال جريرٌ :

* ريحٌ خَرِيقٌ شَمالٌ أو يَمانيَةٌ *

---

(١) مكلل : محاط ، وضاحى مائه : ظاهره ، وحبك : جمع حبيكة ؛ وهى الطريقة ، يصف ماء أحاط به النبت ، وقد ضربته الريح فأظهرت فيه تكسرا ه

إذا هَبَّتْ رِياحُ أبى عَقِيلٍ ‏ ‏ دَعَونا عِنْدَ هَبَّتِها الوَلِيدا[1]

* * *

ومَنْ جَعَلَ الشَّمالَ ، والجُنوبَ أسماءً لم يصْرِفْها إذا سُمِّىَ بشىء منها رجلٌ ، لأنك إذا سميتَ رجلًا مذكراً باسم مؤنَّث على أربعة أحرف فصاعداً لا علامةَ للتأنيث فيه لم تَصْرِفهُ فى المعرفة ، وصرفته فى النكرةِ ، نحوَ عَناقٍ ، وأتانٍ ، وعقربٍ ، وإن كان نعتاً انصرفَ ، لأنك إذا سميتَ رجلًا مذكراً بنعتٍ مؤنثٍ لا علامةَ فيه صرفتَه ، لأنه مذكَّرٌ نعتٌ به المؤنَّث ، نحو حائِضٍ ، وطالقٍ ، ومُتْئِمٍ ، ومُرْضِعٍ .

وإذا ذكرنا من البابِ شيئاً فما لم نذكره منه فعلى مَجْرَاه ومِنْهاجِهِ . قال الشاعر ، فجعلَ ما وَصَفْنا أسماءً :

حالتْ وحِيل بها وغَيَّرَ آيَهَا ‏ ‏ طولُ البِلَى تَجْرِى به الرَّيحانِ[2]

ريحُ الشَّمال مع الجنوب وتارةً ‏ ‏ رِهَمُ الرَّبيعِ وصائبُ التَّهتَانِ[3]

---

(١) بعده فى زيادات ر :

طويلَ الباعِ أبيض عَبْشِمِيًّا ‏ ‏ أعانَ على روءَتِه لبيدا

بأمثال الهِضابِ كأنّ ركباً ‏ ‏ عليها من بنى حامٍ قعودا

أبا وهبٍ جزاك الله خيراً ‏ ‏ نحرناها وأطعمنا الثريدا

فعِدْ انَّ الكريم له معادٌ ‏ ‏ وَظَنِّى بابن أروى أن يعودا

فقال لها لبيد . أحسبت يابنية ، لولا أنك سألت ، فقالت : إن الملوك لا يستحى من مسألتهم ، فقال لها : يابنية ، وأنت فى هذا أشعر »

(٢) حالت : أتى عليها حول . حيل بها ، أى أحيلت عما كانت عليه ، والآى : جمع آية .

(٣) الرِّهَم : جمع رهمة ، وهو المطر الضعيف .

إلى الوليد منها خمسَ تمرات ، فيَرُدُّ علىَّ منها ثلاثاً ، أى لصلابتها ، بعد جهدما بلوكُ منها اثنتين .

[من أخبار لبيد بن ربيعة]

وكان لَبيدُ بن رَبيعةَ بن مالك بن جعفر بن كِلابٍ شريفاً فى الجاهلية والإسلام ، قد نذرَ ألّا تهُبَّ الصَّبا إلّا نحرَ وأطعَم حتى تنقضىَ ، فهبت فى الإسلام [1] ، وهو بالكوفة مُقترٌ مُملِقٌ ، فعلم بذلك الوليدُ بن عقْبَة بن أبى مُعَيْط بن أبى عمرو بن أُمَيَّة بن عبد شمس بن عبد مناف ـ وكان وَالِيَها لعثمانَ بن عفَّان ، وكان أخاه لأمّه ، وأمُّهما أرْوَى بنت [2] كُرَيْز بن حبيب ابن ربيعةَ بن عبد شمس [3] ، وأمُّ أرْوَى البيضاء بنتُ عبد المطّلِب ـ فخطب الناسَ وقال : إنكم قد عرفتم نذْرَ أبى عَقيلٍ ، وما وَكّدَ على نفسِهِ ، فأعينوا أخاكم ، ثم نزلَ فبعث إليه بمائة ناقةٍ [4] وبعَثَ الناسُ ، فقضى نذْرَه ، ففى ذلك تقول ابنةُ لَبيدٍ :

---

(١) ر : « بالاسلام » . (٢) ر : « ابنة » .

(٣) حاشية الأصل : « غلط أبو العباس بتقديم حبيب وتأخير ربيعة »

(٤) زيادات ر : « وأبيات يقول فيها :

أرَى الجَزَّارَ تُشْحذُ مُدْيَتاهُ ... إذا هبَّتْ رياح أبى عَقيلِ

طويل الباع أبيض جعفرىّ ... كريم المجد كالسيف الصقيل

وفى ابنُ الجعفرىّ بما لَدَيْهِ ... على العِلّاتِ والمالِ القليل

فلما أتته قال : جزى الله الأمير خيرا ، قد عرف الأمير أني لا أقول شعراً ، ولكن اخرجى يابنية ، فخرجت خماسية ، فقال لها : أجيبى الأمير ، فأقبلت وأدبرت » .

فهذه جملةَ هذا البابِ ، فأمَّا قياسُه وشرحُه فقد أتينا عليه فى الكتابِ (المُقتضَب)

* * *

ويقال[1] فى أكثر الكلام : هَبَّتْ جنوباً ، وهبّتْ شمالًا ، فيُستغنَى[2] عن ذكر الريح ، وهذا مما يؤكد أنها نعوتٌ ، لأن الحالَ إنما بابُها أن تقعَ فيما يكون وصفاً[3] . قال جريرٌ :

هَبَّتْ شمالًا فذكرى ما ذكرتُكمُ عند الصَّفاةِ إلى شرقِيِّ حوْرانا

وقال الآخرُ :

فأَىُّ حَىٍّ إذا هَبَّتْ شآميَةً واستَدْفأَ الكلبُ بالمأْسُور ذِى الذّئب

المأْسورُ ، يعنى قَتَباً[4] . وإنما الأَسْرُ الشَّدُّ بالقِدِّ[5] حتى يُحكَمَ ، وإنما قيل الأَسيرُ مِنْ ذا ، لأنه كان يُشَدُّ بالقِدِّ ، ثم قالت العرب لكلِّ مُحكَمٍ شديدٍ أسير ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ نحنُ خلقْناهم وشدَدْنا أَسْرَهم ﴾[6]

وقولَه : « ذى الذَّأَب » يعني الفضولَ التى وسَّعَته وأَسْبَغَته ، يُقالُ : غَبيطٌ مُذأَّبٌ أى ذو ذِئَبٍ ، أى مُوَسَّعٌ ، والغَبيطُ : مَرْكَبٌ من مَراكبِ النساء .

---

(١) ر : « وتقول » . ( ) ر : « فتستغنى » .

(٣) ر : « نعتا » .

(٤) القتب : رحل على قدر السنام .

(٥) القد : سير يقد من جلد غير مدبوغ

(٦) ر : « شديد الأسر » . (٧) سورة الإنسان ٢٨

وقد أنشدوا بيتَ زُهَيْرٍ :

* رِيحُ الجَنوبِ لِضَاحِي مائةِ حُبُكُ *

وَقولُنا : لاَ عَلامَةَ فيه للتأنيث ، لتَعرِفَ كيف حُكم علاماتِ التأنيثِ ، لأنّ ذلك إنما يكونُ على ضربَيْن :

فما كانت فيه ألفُ التأنيثِ مقصورةً أو ممدودةً فغيرُ منصرفٍ فى معرفٍ ولا نكرةٍ ، لمذكّر كان أو مؤنّث . فالمقصور نحوُ حُبْلَى ، وسَكْرَى ، وما أشبه ذلك . والممدودُ نحوُ حمراءَ ، وصفراءَ ، وصحراءَ ، وما أشبه ذلك .

فإن كانت ممدودةً لغير التأنيثِ انصرف إذا كان لمذكرٍ فى المعرفة والنكرة ، زائداً كان أو أصلياً ، فالأصلىُّ نحوُ سِقَاء ، وغِذاء ، وحِذاء ، ورِدَاء — والزائدة نحوُ عِلْبَاء ، وحِرْباء ، وقوباء ، يافتى . ومَن قال : قُوباء — يا فتى — أنَّث ولم يصرِفْ ، لأن الأولى مُلْحَقَةٌ ، وهذه للتأنيثِ . فأمَّا الألفُ المقصورة التى لغير التأنيثِ ، فإن كانت أصليةً انصرفتْ فى المذكَّر ، نحوُ مَلْهًى ، ومَغْزًى ، ومُشْتَرًى .

وإن كانت زائدةً لغير التأنيثِ انصرفتْ فى النكرة ، ولم تنصرف فى المعرفةِ ، نحوُ أَرْطًى ، وعَلْقًى ، فيمن جعل الواحدةَ عَلْقاةً .

وأمّا ما كانت فيه هاء التأنيثِ فهو منصرفٌ فى النكرةِ ، وغيرُ منصرفٍ فى المعرفة ، لمذكَّر كان أو مؤنّثٍ ، عربيًّا كان أو أعجميًّا .

النهار لا تعريجَ فيه . قال أبو عُبيدة : هو سيرُ النهار ، والإسْآد : سيرُ الليل لا تعرِيسَ فيه ، وأنشدَ لسلامَة بن جَندَل :

يومان يومُ مَقامات وأندية ويومُ سَيْرٍ إلى الأعداء تأويب

وإنما يعنى ريحاً ، وقوله : نِسْعٌ : أى شَمالٌ . والعِضَاهُ : شجر ضخام[1] ، فبعض العرب يقول للواحدةِ : عِضاهَةٌ ، وللجميع : عِضاهٌ ، على وَزنِ دجاجةٍ ودَجاجٍ ، وبعضهم يقول للواحدة : عِضَةٌ ، فيقول فى الجمع عِضَوَاتٌ ، وعِضَهاتٌ ، فتكون من الواو ومن الهاء ، قال الشاعرُ :

هــــذا طريقٌ يأزِمُ المآزِما وعِضَوَاتٌ تَقْطَعُ اللَّهَازِما[2]

ونظيرُ عِضَةٍ ، سَنَةٌ ، على أن الساقطَ الهاء فى قول بعض العرب ، والواوُ فى قول بعضهم ، تقول فى جمعها سنوات ، وسانيتُ الرّجل . وبعضهم يقول : سنهات ، وأكريته مسانهة .

وهذا الحرفُ فى القرآن يُقرَأُ على ضروب ، فمن قرأ : ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ وانظُرْ﴾[4] فوصلَ بالهاء ـ فهو مأخوذٌ من : سانَهتُ ، التى هى سُنَيْهة ، ومَن جعله من الواو قال فى الوصلِ : ﴿لم يتَسَنَّ وانظُرْ﴾[4] فإذا وقفَ قال : ﴿لم يتَسَنَّهْ﴾ فكانت الهاء زائدةً لبيانِ الحركة ، بمنزلة الهاءِ فى قوله : ﴿فبِهُدَاهُم اُقْتَدِهْ﴾[5] . و﴿كِتَابِيَهْ﴾[6] و﴿حِسَابِيَهْ﴾[7] والمعنى واحدٌ ، وتأويلَه : لم تغيِّرْهُ

---

(١) ر : « شجرة ضخمة » .

(٢) المــآزم : جمع مأزم ؛ وهو الطريق بين جبلين ، واللهازم : جمع لهزمة وهى ما تحت الأذن من أعلى اللحيين .

(٣) ر : « فى قول بعضهم .

(٤) سورة البقرة ٢٥٩

(٥) سورة الأنعام ٩٠

(٦) سورة الحاقة ١٩

(٧) سورة الحاقة ٢٠

[لأوس بن حجر]

وقال أوسُ بن حَجَر، فى شــدة البردِ وغَلَبةِ الشمال، يرثى فَضَالةَ ابن كَلَدة الأَسَدِى :

وَالحافظ الناسَ فى قَحُوطَ إذا لم يُرسِلُوا تحتَ عائذٍ رُبعَا
وعَزَّتِ الشَّمْألُ الرِّياحَ وقد أَمْسَى كَمِيعُ الفتاة مُلْتَفِعَا[1]
وكانت الكاعبُ المُنَعَّمَة الحسناء فى زادِ أهلِها سَبُعَا

تحوط، وقَحُوطَ، وكَحْل، وحَجْرَة : أسماء للسَّنَة المُجْدِبَة. والعائذ : الحديثة النِّتاج، فتُنْحَرُ أولادُها فى السَّنَةِ المُجْدِبَة إبقاءً على ألبانِها وشحومِها. والرُّبَع الذى يُنتَجُ فى الربيع، والهُبَع : الذى يُنتَج فى الصيف، يقالُ : ما له هُبَعٌ ولا رُبَعٌ، وإنما سُمى : هُبَعاً، لأن الرُّبعَ أسنُّ منه فيمشى مع أمهاته[2] ولا يلحقهنَّ الهُبَعُ إلا باجتهادٍ فيستعينُ بعنقه فى المشى، يقالُ إذا فعل ذلك : هَبَعَ يَهْبَعُ.

* * *

ويقال للريح الشمال : نِسع، ومُسْع، قال الهُذَلِيُّ :

قد حال دونَ دَرِيسيْهِ مُؤَوِّبَةٌ نِسعٌ لها بعِضاهِ الأرض تَهْزِيزُ[3]

الدَّريسانِ : ثوبان خَلَقَان. ومُؤَوِّبَة، مُفَعِّلَة، من التأويب، وهو سيرٌ

(١) الكميع : الضجيع.
(٢) كذا فى الأصل، س، وفى ر : «أمهاتها».
(٣) للمتنخل، ديوان الهذليين : ١٦

[لرجل فى الهجاء]

وقال رجلٌ يهجو رجلًا :

لو كنتَ ريحًا كانت الدَّبُورَا   أو كنتَ غيمًا لم تكن مَطِيرا

أو كنتَ ماءً لم تكنْ طَهورَا   أو كنتَ مُخًّا كنتَ مُخًّا رِيرَا

* أو كنتَ بَرْدًا كنتَ زَمْهَرِيرا *

الرِّيرُ : المخّ الرقيق ، يقال : مُخٌّ رِيرٌ ورَارٌ ، فى معنًى واحدٍ .
وقال السُّلَيْكُ :

* يَصيدُكَ قافِلًا والمُخُّ رارُ *

وقال آخرُ :

لو كنتَ ماءً لم تكن بِعَذْبِ   أو كنتَ سَيْفًا كنتَ غيرَ عَضْبِ

أو كنتَ لحمًا كنت لحمَ كلْبِ   أوْ كُنْتَ عَيْرًا كنتَ غيرَ نَدْبِ[1]

[للسليك يرثي فرسه]

فأمَّا قولُ السُّلَيْك فإنه يرثى فرسَه ، وكان يقال له النَّحَّامُ ، فقال :

كأنَّ قوائِمَ النحّام لمّا   تحمَّلَ صُحْبتى أُصُلًا مَحارُ

على قَرْماءَ عاليةٌ شَوَاهُ   كأنَّ بياضَ غُرَّته خِمَارُ

وما يُدْريكَ ما فقْرى إليه   إذا ما القومُ وَلَّوْا أو أغارُوا

ويُحْضِرُ فوق جُهْدِ الحُضْرِ نصًّا   يَصِيدُكَ قافلًا والمخُّ رَارُ

(١) الندب : الخفيف السريع

السُّنُون ، ومن لم يقصِدْ إلى السَّنة ، قال : لم يتأَسَّنْ . والآسِنُ : المتغيِّر . قال الله جل وعزَّ : ﴿ فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسِنٍ ﴾[1] ، ويقال : أَسِنٌ فى هذا المعنى ، كما يقال : رجل حاذِرٌ وحَذِرٌ .

* * *

ويقال للرّيح الجَنوب : النُّعامَى ، قال أبو ذُؤَيْبٍ .

مَرَتْهُ النُّعامى فلم يَعْتَرِفْ   خِلافَ النُّعامَى من الشَّأْمِ رِيحا

ومعنى « مَرَتْه » استَدَرَّتْه . وفى الحديث : « ما هَبَّتْ الريحُ الجنوبُ إلا أسالَ اللهُ بها وادِياً » .

وقال رجلٌ يمدحُ رجلاً :

فتًى خَلِقَتْ أخلاقُه مُطْمَئِنَّةً   له نفحاتٌ رِيحُهُنَّ جَنـــوبُ

يريدُ أن الجنوبَ تأتى بالمطر والندى .

والعربُ تكرهُ الدَّبورَ ، وفى الحديث أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نُصِرْتُ بالصَّبا ، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُور »

وقلَّما يكون بالدَّبُور المطرُ ، لأنها تُجَفِل السحابَ ، ويكونُ فيها الرَّهَجُ والغَبَرَة ، ولا تَهُبُّ إلا أقلَّ ذاك إلا بشدة ، فتكادُ تَقْلَعُ البيوتَ وتأتى على الزُّروع

---

(١) سورة محمد ١٥

الهُبُوبِ : « اللهمَّ اجْعَلْها رياحاً وَلا تجعَلْها ريحاً » ، فإن العربَ تقولُ :
لا تَلْقحُ السحابُ إلا من رياحٍ . وتصديقُ ذلك قول الله عز وجل : ﴿ اللهُ
الذى يُرْسِلُ الرِّياحَ فتُثِيرُ سَحاباً ﴾[١] وقول النبى صلى الله عليه وسلم :
« إذا هَبَّتْ بَحْرِيَّةً ثم تذاءبَتْ » قال الشاعرُ :

* تَسُحُّ إذا تذاءبَتِ الرِّياحُ *

يقول : إذا تقابلت ، يقال : تذاءبَتِ الرياحُ ، وتَناوَحَتْ ، أى تقابلتْ .
وتَنَاوَحَ الشجرُ ، إذا قابلَ بعضه بعْضاً ، وإنما سميت النائحةُ نائحةً ، لأنها
تُقابلُ صاحبتَها .

فإذا خَلَصَتِ الريحُ عندهم دُبُوراً فهى من جنس البَوارِ ، وإذا خَلَصَت
شَمالا شَتَوِيَّةً فهى من آيات الجدْب ، ومِن ثَمَّ تقولُ العربُ : فلا يُطْعِمُ
فى الشَّمالِ ، كما تقولُ : يُطْعِمُ فى المَحْل . قال أَوْسُ بن حَجَرٍ : « وعَزَّت
الشَّمْألُ الرِّياحَ » أى غَلَبتْها ، فكانت أقوىَ منها ، فلم تَدَعْ لها موضعاً
وقوله : ﴿ وعَزَّنِى فِى الخِطَابِ ﴾[٢] أى غلبنى فى المُخاطبةِ والخصومة ، ومن
أمثالِ العربِ : « من عَزَّ بَزَّ » وتأويلُه : مَن غَلَبَ استلب[٣] ، قالت الخنساء :

كَـأَنْ لم يكونوا حِمًى يُتَّقَى إذِ الناسُ إذْ ذَاكَ مَنْ عَزَّ بَزّا

---

(١) سورة الروم ٤٨
(٢) سورة ص ٢٣
(٣) ر : « سلب » .

قوله :

* كأن قوائم النحام لمـا *

المحارة : الصَّدَفَة ، يريدُ المَلاَسَة ، وأنه قد ارتفعتْ قوائمُه للموت .
والأصلُ : جمع أَصِيل ، والأصيلُ العَشِيُّ ، يقال : أَصِيلٌ وأُصُلٌ ، مثل :
قضيب وقُضُب ، وجمع أُصُل آصالٌ ، وهو جمعُ الجمع ، وتقديرُه : عُنُق
وأَعْنَاق ، وطُنُبٌ وأطنابٌ ، ويقال فى جمع أَصِيلة أصائل ، مثلُ خَلِيفةٍ
وخَلاَئِفَ ، قال الأعْشَى :

* ولا بأَحْسَنَ منها إذْ دَنا الأصُلُ[1] *

وقال أبو ذُؤَيْب :

لعَمْرِى لأَنتَ البيتُ أُكْرِمُ أَهْلَه وأَقْعُدُ فى أَفْيائِه بالأصائل

وقَرْماء ، ممدودةٌ : اسم موضعٍ . وشَوَاهُ : قوائمُه . وقد فسرناه قبلَ
هذا . وقوله : « ولَّوْا أو أغارُوا » إذا طَلَبُوا أو هَرَبوا . وقوله : « يَصِيدُكَ »
أى يَصيدُ لك ، يقال : صِدْتُكَ ظَبْياً ، قال الله عز وجل : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ
أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾[2] أى كالوا لهم ، أو وَزَنوا لهم ، يقال :
كِلْتكَ ووَزَنْتُك ، لأنه قد قال تعالى أَوَّلاً : ﴿ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ
يَسْتَوْفُونَ ﴾[3] .

فأما ما جاء فى الحديث من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عند

---

(١) صـــدره :

* يومًا بأطيبَ منهَا نَشْرَ رائحةٍ *

(٢) سورة المطففين ٣ (٣) سورة المطففين ٢

وقال سَلامة بنُ جَنْدلٍ :

يقولُ مَحْبِسُها أَدنى لِمَرْتَعِها ولو تداعَى بِبُكْءٍ كلُّ مَحْلوب[1]

يقولُ : إنْ نَحْبِس الإبلَ على ضُرٍّ ونقاتلَ عنها فهو أدنى بأن تَعِزَّ فترْتَع فيما تستقبل ، وإن ذهبت ألبانُها . لأنّا إنْ أطرَدْناها[2] وهَرَبنا طَمِعَ فينا واستُذْلِلنا ، ويقال فى الكلام : رجلٌ عَيِيٌّ بَكِيٌّ .

وقال أبو العباس : وهذا الغنوىُّ : إذا قابل[3] بقبيلته آلَ بَدْرٍ فقد أعظمَ الفِرْيَةَ ، وبلغ فى البهْتِ ، وأشْمتَ العَدُوَّ بجُمْهُور قيْس ، وصارَ بهم إلى قول[4] الأخْطل :

وقد سَرَّنِى من قَيْسِ عَيْلانَ أننى رأيتُ بنى العَجلانِ سادوا بني بَدْرِ

* * *

وكان زيادٌ يقولُ — وهو الغايةُ فى السياسة — أوصيكم بثلاثةٍ : العالم[5] والشريفِ ، والشَّيْخِ ، فواللهِ لا أوتَى بوَضيعٍ سَبَّ شريفاً ، أو شابٍّ وَثَبَ بشيخٍ ، أو جاهلٍ امتهن[6] عالمًا إلّا عاقبتُ وبالغتَ .

[لعمارة بن عقيل يهجو بنى أسد]

وقال عُمارة لبَنِى أَسَدِ بن خُزَيْمَةَ :

يأيُّها السَّائلى عَمْداً لأُخْبِرَهُ بِذاتِ نفسى وأَيْدِى اللهِ فوقَ يَدِى

إنْ تَسْتَقِمْ أَسَدٌ تَرْشُدْ وَإن شَغَبتْ فلا يَلُمْ لائمٌ إلّا بَنِى أَسَدِ

(١) ر : « وإن تداعى » .
(٢) أطردناها : أمرنا بطردها ، وفى ر : « طردناها » .
(٣) ر : « حاول » .
(٤) ر : « إلى ما قال » .
(٥) ر : « بالعالم »
(٦) ر : « امتحن » .

[بين غنوىّ وفزارىّ]

قال أبو العباس : وحدثني عمرُو بن بحرٍ الجاحظُ قال : رأيتُ رجلاً من غَنِيٍّ يُفاخِرُ رجلا من بني فَزَارةَ ، ثمّ أحدَ بَنِي بَدْر بن عمرو ، وكان الغَنوىُّ متمكناً من لسانه ، وكان الفزارىُّ بكيئاً[1] فقال[2] الغنوىُّ : ماؤُنا من بين الرَّقَمِ إلى كذا ، وهم جيرانُنا فيه ، فنحن أقصرُ منهم رِشاءً ، وأعذبُ منهم ماءً ، لنا ريفُ السُّهُولِ ومعاقِلُ الجبال . وأرضُهم سَبِخةٌ ، ومياهُهم أملاحٌ ، وأرْشِيَتُهم طِوَال ، والعربُ[3] من عَزَّ بَزَّ ، فبعِزِّنا ما تخيَّرنا عليهم ، وبذلِّهمْ ما رَضُوا منّا[4] بالضَّيْمِ .

وقوله : « كان الفزّارِىُّ بكيئاً » يقول: غيرَ قادرٍ على الكلامِ ، وأصلُ ذلك فى الحلَبِ ، يقالَ : ناقةٌ غَزِيرةٌ وناقةٌ بكىء ، وهى ضِدُّ الغزيرةِ ، أى قليلةَ اللبن ، ودَهِينٌ وصِمْرِدَ ، فى معنًى ، يقالُ: بَكَأَتِ الشاةُ والناقة ، وبَكُؤَتْ ، قال الشاعرُ :

فإذا ما حارَدَتْ أو بَكُؤَتْ ... فُضَّ عن خاتَمِ أُخرَى طِينُها[5]

---

(١) ر : بكيا ، وما أثبته عن الأصل .

(٢) ر : « قال » وما أثبته عن الأصل .

(٣) ر : «والعرب عن عز بز» ، س : «والعرب إذ ذاك من عز بز» ، وما أثبته عن الأصل .

(٤) كذا فى الأصل ، س ، وفى ر : « عنا » .

(٥) هو عدى بن زيد ؛ وقبله

وَلَنَا باطِيَةٌ مملوءة ... جونَةٌ يتبعها بِرْزِينُها

البرزين : إناء يتخذ من قشر الطلع ، والحرد داء فى القوائم ؛ إذا مشى البعير نفض قوائمه ؛ فضرب بهن الأرض كثيراً ، وانظر اللسان ٤ : ١٢٣ ، ١٨ : ١٩٦ .

مُعْتَلٌّ برفعةِ نفسِه[1] عن خصمِه ، وبعضُهم كان يَسُبُّه الرجلُ الرَّكيكُ من العشيرة فيُعرِضُ عنه[2] ويَسُبُّ سيدَ قومه . وكانت الجاهليةُ ربما فعلته في الذُّحولِ[3] ، قال الراجزُ :

إنَّ بَجِيلا كلَّما هَجانى   مِلتُ على الأغطشِ أو أبانِ
أو طَلْحَةِ الخيرِ فتَى الفِتْيانِ   أُولاكَ قومٌ شأنُهُم كَشانِى
ما نِلتَ من أعراضِهم كفانِى   وإن سكتُّ عَرَفوا إحسانِى

وقال أحدُ المحدَثينَ :

إنّى إذا هَرَّ كَلبُ الحَىِّ قلتُ له   اِسْلَمْ، وربُّكَ مَخْنوقٌ على الجِرَرِ

قوله : « اِسْلَمْ » فاستأنَفَ بألف الوصل ، لأن النصفَ الأول موقوفٌ عليه .

قال الشاعرُ :

ولا يُبادِرُ فى الشّتاء وليدنا[4]   القِدْرَ يُنْزِلها بغير جِعالِ

الجِعالُ : الذى تنزَل[5] به البُرْمَة ، وربما تُوقِّيَتْ به حرارتُها .

قال الراجزُ :

لا نَسَبَ اليومَ ولا خُلَّةً   اتَّسَعَ الخرقُ على الراقِعِ

وهذا كثيرٌ غيرُ مَعيبٍ .

* * *

(١) ر ، س : « برفعة قدره » ؛ وهذه رواية الأصل .
(٢) كلمة « عنه » ساقطة من ر .   (٣) الذحول : جمع ذحل ؛ وهو الثأر .
(٤) ر : « وليدها » .
(٥) ر : « الذى يوضع فيه البرمة » ، وما أثبته عن الأصل ، س .

إنى رأيتكم يعصى كبيرُكم وتكنعون إلى ذى الفَجْرةِ النُّكِدِ[1]
فباعدَ الله كلَّ البُعْدِ دارَكم ولا شفاكمْ من الأضغان والحسدِ

فرأى عصيانهم الكبيرَ من أقبح العيبِ ، وأدآه على ضِغْن بعضِهم لبعض ، وحَسَدِ[2] بعضِهم بعضاً ، والوضيعُ ينقلبُ إلى الشريفِ ، لأنه يرى مُقاولته فخراً ، والاجتراء عليه رِبْحًا ، كما أن مُقاولة الشريف لِلّئيمِ ذلٌّ وضَعَة .
قال الشاعرُ :

إذا أنتَ قاوَلْتَ اللَّئيمَ فإنما يكونُ عليك الفضل حين تُقاوِلُهْ[3]
ولستَ كمن يرضَى بما غَيْرُهُ الرِّضَا ويمسح رأسَ الذئبِ والذئبُ آكِلُهْ

وسَنُشْبِعُ هذا المعنى إن شاء الله
وفى هذا الشعر بيتٌ يُقَدَّمُ فى بابِ الفَتْك ، وهو :

فلا تَقْرَبَنْ أمرَ الصَّرِيمةِ بامْرِىء إذا رام أمراً عوّقتْهُ عَواذِلُهْ
[وقل للفؤادِ إنْ تُرَى بك نَزْوَةٌ من الرَّوْعِ أفرِخْ أكثرُ الرَّوعِ باطِلُهْ][4]

الصَّرِيمة : العَزِيمة

* * *

وقد امتنعَ قوم من الجوابِ تَنَبُّلاً ، ومواضعُهم تُنْبِىء عن ذلك ، وامتنع قومٌ عِيًّا بلا اعتلالٍ ، وامتنع قومٌ عَجْزًا[5] ، واعتلّوا بكراهة السَّفَهِ ، وبعضُهمْ

---

(١) تكنعون : تخضعون ، والفجرة : الفجور ، والنكد : اللئيم .
(٢) ر : «وحسده» بسكون السين ؛ والصحيح ما أثبته عن الأصل .
(٣) ر : « يكون عليك المتب » .
(٤) مابين العلامتين من زيادات ر ، وأفرخ : أى أخرج روعك وفزعك .
(٥) ر : « عجزوا » ، وما أثبته عن الأصل ، س .

وقال رجل من المحدَثين [١] :

أمّا الهجاء فدَقّ عِرْضُكَ دونَه　　والمدْحُ عنك كما علِمتَ جليلُ

فاذهبْ فأنت طليق [٢] عِرْضِكَ إنّه　　عِرْضٌ عَزَزْتَ به وأنتَ ذليلُ

* * *

وقال آخرُ :

نُبِّئْتُ كلباً هاب رَمْيي له　　يَنْبِحُني من موضعٍ نائي

لَوْ كنتَ من شيءٍ هَجَوْناكَ أو　　لَوْ بِنْتَ للسّامع والرائي

فعدِّ عن شتمي فإني امرُؤٌ　　حلّني قِــلّةُ أكفائي

* * *

وقال آخرُ [٣]

فلو أنّي بُليتُ بهاشميٍّ　　خُؤُولَتُه بنو عَبْدِ المَدانِ

صَبَرْتُ على عداوتِه ولكنْ　　تعالَيْ فانظري بمن ابتلاني

* * *

---

(١) ر : « وقال أحد المحدثين » ؛ وفي الزيادات : « هو دعبل » .

(٢) ر : « عقيق عرضك » .

(٣) زيادات ر : « هو دعبل » .

وفى مثلِ اختيارِ النَّبيلِ لتكافؤ الأعْراضُ[1] قول الأخطلِ

شَفَى النَّفْسَ قَتْلَى من سُلَيْمٍ وعامرٍ ... ولم يَشْفِها قَتْلَى غَنِيٍّ ولا جَسْرِ

ولا جُشَمٍ شَرِّ القبائلِ إنها ... كَبَيْضِ القَطَا ليسوا بسودٍ ولا حُمْرِ

ولَوْ بِبَنِى ذُبْيَانَ بُلَّتْ رِمَاحُنا ... لَقَرَّتْ بهم عَيْنِى وباءَ بهمْ وِتْرِى

* * *

وقال رجلٌ من المحدَثين ، وهو حمْدانُ بن أبانَ اللّاحقىُّ :

أَلَيْسَ من الكبائرِ أنَّ وَغْدًا ... لِآل مُعَذَّلٍ يهجو سَدُوسَا

هجا عِرْضًا لهمْ غَضًّا جديداً ... وأَهْدَفَ عِرْضَ والدِهِ اللَّبيسَا

* * *

وقال آخر :

اللُّؤْمُ أَكْرَمُ من وَبْرٍ ووالدِهِ ... واللُّؤْمُ أَكرمُ من وَبرٍ وما وَلَدَا

قومٌ إذا جَرَّ جانٍ قومِهمْ أَمِنُوا ... من لُؤْمِ أحسابهمْ أنْ يُقتَلوا قَوَدَا

اللُّؤْم داءٌ لوَبْرٍ يُقْتَلونَ به ... لا يُقْتَلونَ بداءٍ غيرِهِ أبَدَا[2]

* * *

---

(١) ر : « لتكافأ » ، وما أثبته عن الأصل ، س .

(٢) ر : « اللؤم » .

الاحنفُ أنه من قِبَلِ عمرٍو ، فقال : ما كان مالُ أبيك ؟ قال : كانت له صِرْمَةٌ[1] يَمْنَحُ منها ويَقْرِى ، ولم يك أَهْتَمَ سَلَّاحًا[2]

* * *

وجُعِلَ لرجلٍ ألفُ درهم على أن يسألَ عمرَو بن العاص عن أُمِّهِ — ولم تكن فى موضعٍ مَرْضِىٍّ [إنما كانت من عَنَزَة ، ثم من بنى جِلَّانَ][3] — فأتاه الرجل ، وهو بمصرَ أميراً عليها ، فقال : أردتُ أن أعرفَ أُمَّ الأَمير ! فقال : نعم ، كانت [امرأة][3] ، من عَنَزَةَ ، ثم من بنى جِلَّان ، تُسَمَّى ليلى ، وتلقَّبُ النابغة ، اذْهَبْ فخذ[4] ما جُعِلَ لك .

* * *

وقال له مرةً المنذرُ بن الجارودِ : أىَّ رجل أنتَ لولا أُمُّك ! قال : فإنى أحمدُ اللهَ إليك ، إنى فكَّرْتُ فيها[5] البارحةَ ، فأقبلتُ أُنقِّلها فى قبائلِ العرب ، فما خطَرَتْ لى عبدُ القيسِ ببال[6]

* * *

ودخل عمرٌو مكةَ فرأى قومًا من قريش قد جلسوا حَلْقةً ، فلما رأوه رَمَوْهُ بأبصارهم ، فعدَل إليهم فقال : أَحْسِبُكم كنتم فى شىء من ذكرى ! قالوا :

---

(١) الصرمة : القطعة من الإبل لم تبلغ الستين .

(٢) السلاّح : كثير السلح ؛ يعرض بأبي عمرو .

(٣) تكملة من الأصل ، س . (٤) ر : « وخذ » .

(٥) ر : « فى هذا » . (٦) ر : « على بال » .

[من أخبار ذوى الحلم]

ووقف رجل عليه مُقطَّعاتٌ على الأحنف بن قيس يَسُبُّه - وكان عَمرُو ابن الأهتمِ جعلَ له ألفَ درهمٍ على أن يُسَفِّه الاحنفَ - فجعل لا يألو أن يسبّه سبًّا يُغضب ، والأحنفُ مُطرِقٌ صامتٌ لا يكلمه[1] ، فلما رآه لا يكلمه أقبلَ الرجلُ يعضُّ إبهامه[2] ، ويقولُ : يا سَوْأتاه ! والله ما منعه من جوابى إلا هَوَانى عليه !

* * *

وفعَل ذلك آخرُ ، فأمسكَ عنه الاحنفُ ، فأكثرَ الرجل . إلى أن أراد الأحنفُ القيامَ للغَداء ، فأقبل على الرجل ، فقال له : يا هـــذا ! إنّ غَدَاءنَا قد حضَر ، فانْهَضْ بنا إليه إن شئْتَ ، فإنك مُذ اليوم تحدُو بجملٍ ثفَال .

والثَّفَالُ من الإبل : البطىءُ الثقيلُ الذى لا يكادُ ينبَعث

* * *

وعُدَّتْ على الاحنفِ سَقْطةٌ فى هذا الباب ، وهو أنّ عمرَو بن الأهتم دَسَّ إليه رجُلًا ليُسفهه . فقال له : يا أبا بَحرٍ[3] . ما كان أبوك فى قومِه ؟ قال : كان من أوسطهم ، لم يسُدْهُم ، ولم يتخلّفْ عنهم ، فرجع إليه ثانية ، ففطن

---

(١) لفظ « لا يكلمه » ساقط من ر .

(٢) ر : « إبهاميه »

(٣) ر : « أبا بحر »

وقال رجلٌ لرجلٍ — وسَبَّه فلم يلتفتْ إليه : إياكَ أعنى ، فقال له الرجلُ : وعنكَ أُعْرِض .

* * *

فأما قولُ الشَّعْبِيّ للرجلِ ما قال فمِنْ غَيْرِ هذا البابِ ، وإنما تَخَرَّجه الدِّيانةُ ، وذاك أن رجلاً سبَّ الشعبيَّ بأمورٍ قبيحةٍ نسبه إليها ، فقال له[1] الشعبيُّ : إن كنتَ كاذباً فغفر اللهُ لكَ ، و إن كنتَ صادقاً فغفر اللهُ لى .

* * *

وقال أبو العباس : قال رجلٌ لأبى بكرٍ الصديقِ رحمه اللهُ : لَأَسُبَّنَّكَ سَبًّا يَدخلُ معك قبرَك ، فقال : معكَ واللهِ يدخلُ لا معى .

* * *

[ويُحَدِّثُ ابنُ عائشةَ عن أبيه : أن رجلاً من أهل الشأم دخل المدينةَ ، فقال : رأيتُ رجلاً على بغلةٍ لم أرَ أحسنَ وجهاً ولا أحسنَ لِباسًا ولا أفْرَهَ مَرْكباً منه ، فسألتُ عنه ، فقيلَ لى : الحسنُ بن على بن أبى طالبٍ ، فامتلأتُ له بُغضًا ، فَصِرْتُ إليه ، فقلتُ : أأنت ابنُ أبى طالبٍ ؟ فقال : أنا ابنُ ابنِه ، فقلتُ له : فيك وبك وبأبيك ، أَسُبُّهما . فقال : أَحْسِبُكَ غريباً ! قلتُ : أَجَلْ . فقال . إن لنا منزلاً واسعاً ومَعونَةً على الحاجة ومالاً نُوَاسِى منهُ . فانطلقتُ وما أَجِدُ على وجهِ الأرضِ أحبَّ إلىَّ منه][2]

* * *

(١) ساقطة من ر .

(٢) ما بين العلامتين من زيادات ر .

أَجَل . كنا نمثّل[1] بينك وبين أخيك هشامٍ أَيُّكما أفضل ؟ فقال عمرو : إنّ لهشام علىَّ أربعةً : أُمُّه ابنةُ هشامِ بن المغيرة ، وأُمّى مَنْ قد عَرَفتم ، وكان أحبَّ إلى أبيه منى ، وقد عرفتم معرفةَ الوالدِ بالولدِ ، وأسلمَ قبلى ، واستُشْهِدَ وَبَقيتُ .

* * *

قال أبو العباس : وقد أكثر الناس فى البابِ الذى ذكرناه ، وإنما نذكرُ من الشىء وجوهَهُ ونوادرَه .

قال رجلٌ لرجلٍ من آل الزبيرِ كلاماً أقْذَعَ له فيه ، فأعرضَ الزبيرىُّ عنه ، ثم دار كلامٌ فسبَّ الزبيرىُّ علىَّ بن الحسين . فأعرضَ عنه . فقال له الرجل الزبيرى : ما يمنعك من جوابى ؟ فقال على : ما منعكَ من جواب الرجلِ !

* * *

وقد رُوِىَ قولُ القائلِ : لو قلتَ واحدة لسمعتَ عشراً ، فقال له : ولكنك لو قلتَ عشرًا ما سمعتَ واحدة .

وقال الشاعرُ :

ولقد أَمُرُّ على اللئيم يَسُبُّنى ۞ فأجوزُ ثُمَّ أقولُ لا يَعْنِينِى

* * *

عُزِلَ ابنُ بِشرٍ وابنُ عمرٍو قبلَه   وأخـو هراةَ لمثلها يَتوقَّعُ

فلما وَلِيَ خالدُ بن عبد الله القَسْرِيُّ على عُمَرَ بن هُبَيْرَة ، قال رجلٌ[1] من بنى أسدٍ يُجيب الفرزدقَ :

عجِبَ الفرزدقُ من فَزارة أن رأى   عنها أُمَيَّة بالمشارقِ تُنْزَعُ

فلقدْ رأى عجبًا وأُحدِثَ بعدَه   أمرٌ تَضِجُّ له القلوبُ وتَفْزَعُ

بَـكَتِ المنابرُ من فَزارةَ شَجْوَهَا   فاليومَ من قَسْرٍ تذُوبُ وتجزَع

وملوكُ خِنْدِفَ أسْلَمونا للعِدَى[2]   لله دَرُّ ملوكِنا ما تَصْنَعُ !

كانوا كتاركةٍ بَنِيها جانبًا   سَفهًا وغيرَهُمُ تَصُونُ وتُرْضِعُ

[للفرزدق أيضاً فى هجاء عمرو بن هبيرة]

قال أبو العباس : وكان الفرزدقُ هَجَّاءً لعمرَ بن هُبَيْرَة عند ولايته العراقَ . وفى ذلك يقول ليزيدَ بن عبد الملك :

أمـــيرَ المؤمنينَ وأنت بَرٌّ   أمينٌ لستَ بالطَّبِـعِ الحرِيصِ

أأَطْعَمْتَ العراقَ ورافِدَيْهِ   فزاريًّا أحَـــذَّ يدِ القميصِ[3]

تَفَيْهَقَ بالعِرَاقِ أبو المُثَنَّى   وعَـلَّمَ قومَهُ أكْلَ الخبِيصِ

ولم يَكُ قبلَها راعِى مَخاضٍ   ليأمَنَهُ على وَرِكَىْ قلوص

(١) نسبها المرصفى إلى إسماعيل بن عمار الأسدى .

(٢) ر : « ذللتنا للعدى » .

(٣) ر : « أأطعمت » ، وما أثبته عن الأصل ، س .

قال أبو العباس : ويتصل بهذا الباب ذِكْرُ مَنْ رَغِبَ برجلٍ عن إرثِ رجلٍ لا يُشاكله ، وولايةِ رجلٍ لا يشابهه ، قال الشاعر[1] :

بكتْ دارُ بِشْرٍ شَجْوَها أنْ تبدَّلَتْ هلالَ بن قَعْقَاع ببِشْرِ بن غالبِ

وما هيَ إلاَّ كالعروس تنقّلتْ على رَغْمِها من هاشمٍ في مُحارب[2]

[للفرزدق حين ولى ابن هبيرة العراق]

وقال الفرزدقُ حين وَلِيَ العِراقَ عمرُ بن هُبَيْرَة الفزاريُّ بعَقِب مَسْلَمَة ابن عبد الملك[3] :

راحتْ بمَسْلَمَةَ البغالُ عَشِيَّةً[4] فارْعَيْ فزارةُ لا هَناكِ المَرْتَعُ !

ولقد علمتُ إذا فزارةُ أُمِّرتْ[5] أنْ سوفَ يطمَعُ في الإمارة أشْجَع[6]

فأرى الأمورَ تنكّرتْ أعلامُها[7] حتى أُمَيَّةُ عن فزارةَ تُنْزَعُ

(١) هو إسماعيل بن عمار بن عيينة الأسدى ؛ نسبه أبو تمام إليه في الحماسه ص١٥٤٣ — بشرح المرزوقي .

(٢) قال المرزوقي : شجوها ، انتصب على أنه مفعول له ، والشاعر يفضل بشرا على هلال ؛ يقول : إن الدار — التي كان يستوطنها بشر لما ارتحل عنها ، وصار فيها بدلا منه هلال — بكت وتحسرت ، وحق لها ذلك ؛ فما هي في استبدالها إلا كعروس زوجت في هاشم ، ثم انتقلت إلى محارب . ومحارب : قبيلة فيها ضعة وخمول .

(٣) ديوانه ٥٠٨ : «حين عزل عبد الملك بن بشر بن مروان عن البصرة وسعيد بن عمرو ابن الحارث بن الحكم بن أبي العاص عن الكوفة ، وسار مسلمة من العراق إلى الشام ، وولى العراق عمر بن هبيرة الفزارى » ، مع اختلاف في ترتيب الأبيات .

(٤) الديوان :

* وَمَضَتْ لِمَسْلَمَةَ الرِّكابُ مُوَدِّعاً *

(٥) الديوان : « لئن فزارة أمرت » .

(٦) ر : « يطمع » .

(٧) الديوان : * إنَّ القيامَةَ قدْ دَنَتْ أشراطُها *

وأينُ ، واستجازت الشعراء أن تجمعَ الميمَ والنونَ فى القوافِى ، لما ذكرتُ لك من اجتماعهما فى الغُنَّةِ ، قال الراجزُ :

بُنىّ إن البِرَّ شىء هَيِّنُ   المَنْطِقُ اللّيِّنُ والطُّعَيِّمُ

وقال آخر[1] :

ما تَنْقِمُ الحربُ العَوَانُ مِنِّى   بازِلُ عامَيْن حديثٌ سِنِّى[2]

* لِمِثْلِ هذا وَلَدَتنى أُمِّى *

والعِرَاقَانِ : البصرة والكوفة . والرَّافِدَانِ : دِجْلةُ والفراتُ .

وقوله : « أَحَذَّ يدِ القميصِ » ، الأَحَذُّ : الخفيفُ ، قال طَرَفَة :

* وَأَتْلَعُ نَهَّاضٌ أَحَذُّ مُلَمْلَمُ *[3]

وإنما نَسَبه بالخِفَّة فى يدِه إلى السرقة[4] .

وقوله : « تَفَهَّقَ » ، أى امتلأ مالا[5] ، يقال : بئر تَفْهَقُ ، وغدِيرٌ يَفْهَقُ إذا امتلأ ماء ، قال الراجزُ :

لا ذَنْبَ لِى قد قلتُ للقومِ استَقُوا   والقَوْمُ فى عُرْضِ غَدِيرٍ يَفْهَقُ

---

(١) نقل المرصفى عن ابن سيده أنه أبو جهل بن هشام .

(٢) البازل من الإبل : ما استكمل السنة الثامنة ، وطعن فى التاسعة ، فإذا جاوز البزول قيل بازل عام أو عامين ؛ وكذلك مازاد ؛ فإذا قيل ذلك للرجل فإنه يراد استكمال شبابه ، قاله المرصفى .

(٣) رواية البيت بتمامه ؛ كما فى ديوانه (٥٦ — مجموعة العقد الثمين) :

وَأَرْوَعُ نباضٌ أَحَذُّ مُلَمْلَمٌ   كَمِرْداةِ صَخْرٍ مِنْ صَفِيحٍ مُصَمَّدِ

(٤) ر : « السرق » .   (٥) ر : « ماء » .

قوله : « لستَ بالطَّبِعِ الحرِيصِ » . فالطَّبِع : الشديد الطمعِ الذى لا يفهمُ لشدةِ طمعِه ، وإنما أُخذ هذا من طَبَعِ السيفِ ، يقال : طَبِعَ السيفُ ، يافتى ! وهو سيفٌ طَبِع ، إذا ركبه الصَّدَأُ حتَّى يُغطِّىَ عليه . والمَثلُ من هذا فى الذى طبِع على قلبه إنما هو تغطيةٌ وحجابٌ ، يقال : طَبَع الله على قلب فلانٍ ، كما قال جلَّ وعزَّ : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ على قُلوبهم وَعَلَى سَمْعِهم ﴾ . هذا الوقف ، ثم قال : ﴿ وَعَلَى أبصارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾[1] وكذلك : رِينَ عَلَى قلبه ، وغِينَ على قلبه ، فالرَّيْنُ يكونُ من أشياءَ تألَّفُ عليه فتغطّيه ، قال الله جلَّ وعزَّ : ﴿ كلاَّ بل ران على قلوبهم مَا كانوا يكْسِبُون ﴾[2] ، وأما « غِينَ على قلبه » ، فهى غِشاوةٌ تعتَرِيه ، والغَيْنةُ : القطعة من الشجر الملتفّ تغطّى ما تحتَها ، قال الشاعر :

كأَنِّى بَيْنَ خَافِيَتَىْ عُقَابٍ أَصابَ حَمامةً فى يومِ غَيْنِ[3]

وقال بعضُهم : أرادَ فى التفافٍ من الظُّلْمةِ . وقال آخرونَ : أراد فى يوم غيمٍ ، فأبدل من الميم نوناً ، لاجتماع الميم والنون فى الغنَّةِ . كما يقالُ للحيَّةِ : أَيْمٌ ،

---

(١) سورة البقرة ٧ ، وفى ر : « طبع الله على قلوبهم » ، وهو مخالف للتلاوة .

(٢) سورة المطففين ١٤

(٣) نسبه المرصفى إلى رجل من تغلب يصف فرساً ، وذكر قبله :

فِدَاءٌ خالتِى وَفِداً صَدِيقِى وَأَهْلِى كُلُّهمْ لِبَنِى قُعَيْنِ

فأَنْتَ حَبَوْتَنِى بِعنانِ طِرْفٍ شَدِيد الشدِّ ذى بذلٍ وَصَوْنِ

وقوله : « فتًى لم تُرَبِّبهُ النصارَى » يُنَبِّهُ به على أُمِّ خالدٍ ، وكانت نصرانيةً روميّةً ، وكان أبوه استَلَبها فى يوم عيدٍ للرُّومِ ، فأولدها خالداً وأسَدًا ، ولذلك يقولُ الفرزدقُ :

ألاَ قطعَ الرحمنُ ظهرَ مَطِيَّةٍ أتتْنا تَهادى من دِمَشقَ بخالد

وكيفَ يَؤُمُّ الناسَ مَنْ كانت أمُّهُ تَدِينُ بأنَّ اللهَ ليس بواحِدِ !

بَنى بِيعَةً فيها النَّصارَى لِأُمِّهِ ويَهْدِمُ من كُفْرٍ مَنارَ المساجِدِ

وقال :

عليكَ أميرَ المؤمنينَ بخالدٍ وأصحابِهِ لا طَهَّرَ اللهَ خالدا

بَنَى بِيعةً فيها الصَّليبُ لأُمِّهِ ويَهْدِمُ من بُغْضِ الصلاةِ المساجدَا

وكان سببُ هَدْمِ خالدٍ مَنار المساجِدِ حتى حَطَها عن دُورِ الناس أنه بلغه شعرٌ لرجلٍ من الموالى ، موالِي الأنصارِ ، وهو :

ليتنى فى المُؤَذِّنِينَ حَيَاتِى إنهم يُبْصِرونَ مَنْ فى السُّطوحِ

فَيُشيرونَ أو تُشيرُ إليهم بالهوَى كلُّ ذاتِ دَلٍّ مَليحِ

فحطَها عن دُورِ الناسِ .

ويُرْوَى عنه فيما رُوِىَ من عُتُوِّهِ أنّهُ استُفْتِىَ من بيعةٍ بناها لأُمِّهِ ، فقال لملأٍ مِنَ المسلمين : قبحَ اللهُ دينَهم ، إن كان شرًّا من دينكم !

* * *

وقال الأعشَى فى مدحه المحَلّقَ بن حَنْتَم ، أحد بنى أبى بكر بن كِلاَب :

نَفَى الذَّمَّ عن رَهْطِ المَحلّقِ جَفْنَةٌ ... كجابيةِ الشيخِ العِرَاقِىّ تَفْهَقُ

هكذا فى راوية أبى عُبيدةَ .

وقوله :

ولم يكُ قبْلَها راعِى مَخاضٍ ... لِيَأْمَنَهُ على وَرِكَىْ قَلوصِ

كانت بنو فزارةَ تُرْمَى بغِشْيانِ الإبلِ ، ولذلك قال ابنُ دَارَةَ :

لا تأمَنَنَّ فَزَارِيًّا خلَوْتَ به ... على قلوصِكَ واكْتُبْها بأسْيَارِ

[للفرزدق أيضاً فى حبس عمر بن هبيرة]

فلما عُزِلَ ابنُ هُبَيْرَةَ وحبسَه خالد بن عبد الله القسرِىّ ، قال الفرزدق :

لعمرى لئن نابتْ فَزَارَةَ نَوْبَةٌ ... لِمَنْ حَدَثِ الأيامِ تَحْسِبُها قَسْرُ

لقد حبَسَ القَسْرِىُّ فى سجنِ واسِطٍ ... فتًى شَيْظَميًّا ما يُنَهْنِهُهُ الزَّجْرُ

فتًى لم تُرَبِّبْهُ النصارَى ولم يكنْ ... غِذَاءً له لحمُ الخنازيرِ والخمْرُ

قوله : (١ فتى شيظميا ١) ، الشَّيْظَمىُّ : الطويلُ ، قال ذو الرُّمَّة :

إذا ما رَمَيْنا رَمْيَةً فى مَفازَةٍ ... عَرَاقِيبَها بالشَّيْظَمِىِّ المواشِكِ (٢)

يريدُ حادياً يَسُوقُها .

وقوله : « ما يُنَهْنِهُهُ الزَّجْرُ » ، يقول : ما يُحَرِّكه

(١ـ١) ساقط من ر .

(٢) ديوانه ٤٢٦ . والمواشك : السريع .

والعربُ تَنْسُبُ الخَيْلَ الجِيادَ إلى أَعْوَجَ ، وإلى الوَجيهِ ، ولاحِقٍ ، والغُرابِ ، واليَحْمومِ ، وما أشبهَ هذه الخيلَ من المتقدماتِ ، قال زَيْدُ الخيْل :

جَلَبْنَا الخيل من أجإٍ وسَلْمى ... تَخُبُّ نزَائِعاً خَبَبَ الذِّئابِ[1]

جَلبْنَا كلَّ طِرْفٍ أَعْوَجِيٍّ ... وسَلْهَبَةٍ كخَافِيَةِ العُقَابِ[2]

* * *

ثم نرجعُ إلى التشبيه المصيبِ ، قال امرؤُ القيس فى طولِ الليل :

كأنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فى مَصَامِها ... بأمْرَاسِ كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدلِ

فهذا فى ثَبات الليل وإقامته . و المصَامُ : المقَامُ . وقيل للممسك عن الطعامِ : صائم ، لثباتِه على ذلك ، ويقال : صامَ النهارُ ، إذا قامت الشمسُ . قال امرؤُ القيس :

فَدَعْها وسَلِ الهمَّ عنك بِجَسْرَةٍ ... ذَمُولٍ إذا صامَ النهارُ وهَجَّرَا

وقال النابغة :

خَيْلٌ صِيامٌ وخَيْلٌ غيرُ صائمةٍ ... تحت العَجاجِ وخيلٌ تعْلُكُ اللُّجُما

(١) النزائع : جمع نزيعة ؛ وهى التى تنزع إلى وطنها وتحنّ إليه .

(٢) السلهبة ، والسلهب أيضاً : الفرس الطويل .

[للفرزدق عند هروبه من سجن ابن هبيرة]

وقال الفرزدقُ لابن هُبَيْرَةَ حين[1] نُقِبَ له السجنُ وهربَ ، فسار[2] تحت الأرض هو وابنُه حتى نَفَذَا[3] :

لَمَّا رأيتَ الأرضَ قد سُدَّ ظهرُها ... ولم يَبْقَ إلا بطنُها لك مَخْرَجَا
دَعَوْتَ الذى ناداه يونُسُ بعدَ ما ... ثوَى فى ثلاثٍ مُظْلماتٍ ففرَّجَا
فأصبحتَ تحتَ الأرضِ قد سِرْتَ سِيرةً ... وما سار سارٍ مثلَها حين أَدْلَجَا[4]
خرجتَ ولم يَمْنُنْ عليكَ طَلاَقَةً ... سوى رَبِذِ التَّقْرِيبِ من نَسْلِ أَعْوَجَا[5]

فقال ابنُ هُبَيرة : ما رأيتُ أشرفَ من الفرزدق ! هجانِى أميراً ، ومدحَنِى أسيراً .

قولُه : « حيثُ أَدْلَجَا » ، تقولُ : أَدْلَجْتُ ، إذا سرتَ فى[6] أول الليلِ ، وادَّلجْتُ ، إذا سرتَ من آخرِه فى السَّحَرِ ، قال زُهَيْرٌ :

بَكَرْنَ بُكورًا وادَّلَجْنَ بسُحْرَةٍ ... فهُنَّ لِوَادِى الرَّسِّ كاليَدِ لِلفَمِ

وأَعْوَجُ فرسٌ كان لغَنِىٍّ ، وقالوا : كان لبنى كلاَبٍ ، ولا يُنْكَرُ هذا ، لأن خبيبة[7] بنتُ رِيَاحٍ الغَنَوِيَّةَ ، ولدَتْ بنى جعفرِ بن كلابٍ ، فلعله أن يكونَ صارَ إلى بنى جعفرِ بن كلابٍ من غَنِىٍّ .

---

(١) ر : « حيث » . (٢) ر : « وسار » .
(٣) وانظر أيضاً خبر هذه الأبيات بتفصيل أوسع فى الديوان ١٤١ .
(٤) ر : « حيث أدلجا » ، وهذه رواية الأصل والديوان .
(٥) ر ، الديوان : « من آل أعوجا » . (٦) ر : « من » .
(٧) ر : « حبيبة » ، وما أثبته عن الأصل .

لو بِأَبانَيْنِ جاء يَخْطُبُها ضُرِّجَ ما أَنْفُ خاطبٍ بِدَمِ

وقولُه : « فى أفانِينِ وَدْقِهِ » يريد ضُرُوبًا من ودقه ، والوَدْق : المطرُ ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِن خِلالِهِ ﴾[(١)]

وقال عامر بن جُوَيْنٍ الطائىُّ :

فَلا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَها ولا أرضَ أَبْقَلَ إِبْقالَها

وقوله :

* كَبِيرُ أُناسٍ فى بِجادٍ مُزَمَّلِ *

يريدُ مُزَمَّلًا بثيابه ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ يٰأَيُّها المُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيلَ إِلَّا قليلًا ﴾[(٢)] ، وهو المُتَزَمِّلُ ، بثيابه[(٣)] ، والتاء مدغمةٌ فى الزاى . وإنما وَصَفَ امرؤُ القيسِ الغيثَ ، فقال قومٌ : أراد أنّ المطر قد حَنَقَ الجبلَ فصار له كاللباس على الشيخ المتزَمِّلِ .

وقال آخرون : إنما أراد ما كَساهُ المطرُ من خُضرة النبتِ ، وكلاهما حَسَنٌ . وذَكر الوَدْقَ لأن تلك الخضرةَ من عمله .

* * *

وقال الراجزُ يصفُ غيما :

أَقْبَلَ فى المستَنِّ من رَبابِهِ أَسْنِمَةَ الآبالِ فى سَحابِهِ

(١) سورة النور ٤٣
(٢) سورة المزمل ١، ٢
(٣) ساقطة من ز .

والأمراسُ : جمع مَرَسٍ ، وهو الحبلُ ، قال أبو زُبَيدٍ يرثى غلامَه ويذكر تعرضه للحروب[1]

إمَّا تُقارَنْ بكَ الرِّماحُ فلا أَبكيكَ إلّا لِلدَّلْوِ والمَرَسِ[2]

* * *

وقال فى ثَبَاتِ الليلِ :

فيالَكَ من ليلٍ كأنّ نُجومَهُ بكلّ مُغارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ

المُغارُ : الشديدُ الفَتْلِ ، يقالُ : أَغَرْتُ الحبلَ ، إذا شددتَ فتلَه . ويَذْبُلُ : جبلٌ بعينه .

* * *

وقال أيضاً :

كأنَّ أباناً فى أفانينِ وَدْقِهِ كبيرُ أُناسٍ فى بِجَادٍ مُزمَّلِ

أبانٌ جبلٌ ، وهما أبانانِ : أبانُ الأسْوَدِ ، وأبانُ الأبيضِ ، قال المُهَلْهِلُ[3] — وكان نزَلَ فى آخرِ حربِهم ، حربِ البَسوسِ ، فى جَنْب بن عَمرِو بن عُلَة ابن جَلْدِ بن مالكٍ ، وهو مَذْحِجٌ . وجَنْبٌ حَىٌّ من أحيائهم وَضيعٌ — فخُطِبَت ابنتُه ومُهِرَت أَدَمًا ، فلم يقدر على الامتناع ، فزوَّجها ، وقال :

أَنْكَحَها فَقْدُها الأراقِمَ فى جَنْبٍ وكان الحِباءُ من أَدَمِ[4]

---

(١) ر : « وتعرض للحرب فقتل » .

(٢) ر : « إما تعلق » ، وما أثبته رواية الأصل ، س .

(٣) ر : « مهلهل » .

(٤) الأراقم : قبائل من تغلب ؛ ويريد بالحباء هنا المهر . والأدم : أجمد .

وقال جرير :

مافى مَقامِ ديارِ تَغْلِبَ مَسْجدٌ وبها كنائِسُ حَنْتمٍ ودِنان

* * *

والتشبيهُ جارٍ كثيرٌ فى كلام العربِ ، حتى لو قالَ قائلٌ : هو أكثر كلامِهِمْ ، لم يُبْعِدْ

قال الله عز وجلَّ وله المَثَلُ الأعْلَى : ﴿ الزُّجاجَةُ كأنَّها كَوْكَبٌ درِّىٌّ ﴾[1] . وقال : ﴿ طَلْعُها كأنَّهُ رُءوسُ الشَّياطِينِ ﴾[2] . وقد اعترضَ معترضٌ من الجهلَةِ المُلْحِدِينَ ، فى هذه الآية ، فقال : إنما يُمَثَّلُ الغائبُ بالحاضِرِ ، ورءوس الشياطين لم نرَها ، فكيف يَقَعُ التمثيلُ بها !

وهؤلاء فى هذا القول كما قال الله جلَّ وعزَّ : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بمَا لم يُحيطُوا بعلمِهِ ولَمَّا يَأْتِهِمْ تأويلُهُ ﴾[3] . وهذه الآيةُ قد جاء تفسيرُها على ضربين[4] : أحدُها ؛ أنَّ شجراً يقال له الأَسْتَنُ[5] ، منكَرُ الصورةِ يقالُ لثمره : رءوس الشياطين ، وهو الذى ذكره النابغةُ فى قوله :

* تَحِيدُ مِن أَسْتَنٍ سُودٍ أسافِلُهُ *[6]

---

(١) سور النور ٣٥ (٢) سورة الصافات ٦٥ (٣) سورة يونس ٣٩

(٤) ر : « فى ضربين » ، وما أثبته عن الأصل ، س .

(٥) نقل المرصفى عن أبى حنيفه الدينورى أن الأستن شجر يفشو فى منابته ويكثر ، إذا نظر إليه الناظر من بعيد شبهه بشخوص الناس .

(٦) بقيته :

* مثلَ الإماءِ الغوادى تحمِلُ الحُزَمَا *

أراد أنّ ذلك السحابَ يُنبتُ ما تأكله الإبل ، فتصيرُ شحومُها في أسنمتها .

والرَّبابُ سحابٌ دُوَيْنَ المُعْظَم من السحاب ، قال المازِنيُّ [١] :

كأنَّ الرَّبابَ دُوَينَ السَّحابِ نَعامٌ يُعَلَّقُ بالأرْجُلِ

وقوله جل وعزَّ : ﴿ إنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ [٢] ، أى أعصرُ عِنباً فيصيرُ إلى هذه الحالِ .

* * *

وقال زُهَيرٌ :

كأنَّ فُتَاتَ العِهْنِ فى كل مَنزلٍ نَزَلْنَ به حَبُّ الفَنَا لم يُحَطَّمِ

الفَنَا : شجرٌ بعينه ، يُثْمِرُ ثمرًا أحمرَ ثم يتفرَّقُ فى هيئة النَّبِق الصِّغار ، فهذا من أحسن التشبيه . وإنما وصَفَ ما يسقُطُ من أنماطِهِنَّ إذا نزَلْنَ .

والعِهْنُ : الصُّوف المُلَوَّن فى قول أكثرِ أهل اللغة ، وأما الأصمعىُّ فقال : كلُّ صوفٍ عِهْنٌ ، وكذلك قال أهلُ اللغة : الحَنْتَمُ الخزَفُ الأخضرُ — وقال الأصمعىُّ : كلُّ خَزَفٍ حَنتمٌ ، قال القُرَشِىُّ [٣] :

مَنْ مُبْلِغ الحسْناءِ أنَّ حَلِيلَها بمَيْسَانَ يُسْقَى فى زُجاجٍ وحَنْتَمِ

---

(١) نقل المرصفى عن الأغاني أنه زهير بن عروة بن جلهمة .

(٢) سورة يوسف ٣٦

(٣) نسبه المرصفى إلى النعمان بن عدىّ بن نضلة .

قال : ابنتان ، قال : أَزَوَّجْتَهُما ؟ قال : زوَّجتُ إحداهما ، قال : فبم أوصَيتها ؟ قال : قلتُ لها ليلةَ أَهْدَيْتُها :

سُبِّي الحَماةَ وابْهَتِي عليهَا ... وإنْ أَبَتْ فازْدَلِفي إليهَا
ثم اقْرَعِي بالوَدِّ مِرْفَقيهَا[1] ... وجَدِّدِي الحَلْفَ به عليهَا

* لاَ تُخْبِرِي الدهرَ بذاكَ ابْنَيْهَا *

قال : أفأوصيتَها بغيرِ هذا ؟ قال : نعم ، قلت :

أَوْصَيْتُ مِن بَرَّةَ قلباً حُرًّا ... بالكَلْبِ خيراً والحماةِ شرًّا
لاَ تَسْأَمِي نَهْكاً لها وضَرًّا ... والحَيَّ عُمِّيهِمْ بِشَرٍّ طُرًّا
وإن كَسَوْكِ ذهباً ودُرًّا ... حتى يَرَوْا حُلْوَ الحياةِ مُرًّا

قال هشامٌ : ما هكذا أوصَى يعقوبُ ولدَه ، قال أبو النجم : ولا أنا كيعقوبَ ، ولا بنتِي كولدِه ، قال : فما حالُ الأُخرى ؟ قال : قد دَرَجَتْ بين بيوتِ الحيِّ ، وتنفعنا[2] في الرسالةِ والحاجةِ ، قال : فما قلتَ فيها ؟ قال : قلتُ :

كأَنَّ ظَلاَّمَةَ أختَ شَيبانْ ... يَتيمةٌ ووالِداهَا حَيَّانْ
الرأسُ قَمِلٌ كله وصِئْبَانْ ... وليس في الرِّجْلَيْنِ إلاَّ خَيْطَانْ

* فَهْيَ التي يُذْعَرُ منها الشيطانْ *

---

(١) الود : الوتد .   (٢) ر : « ونفعتنا » .

وزعم الأصمعيُّ أن هذا الشجرَ يسمى الصَّوْمَ .

والقولُ الآخرُ — وهو الذى يَسْبِقُ إلى القلب — أن الله جلَّ ذكرُه شَنَّعَ صورةَ الشياطينِ فى قلوب العبادِ ، فكان[1] ذلك أبلغَ من المعاينةِ ، ثم مَثَّلَ هذه الشجرةَ بما تَنفِرُ منه كلُّ نفسٍ .

[حديث أبى النجم العجلى مع هشام بن عبد الملك]

قال أبو العباس : وحُدِّثْتُ فى إسنادٍ متصل أن أبا النَّجْمِ العِجْلِيَّ أنشدَ هشامًا[2] :

* والشمسُ قد صارتْ كعَيْنِ الأحْوَلِ *

لما ذهبَ به الرَّوِيُّ عن الفِكر فى عين هِشامٍ ، فأغضبه ، فأَمَرَ بطردِه ، فطُرِد[3] ، فأَمَّلَ أبو النجم رَجْعَتَهُ ، فكان[4] يأوى المسجد[5] ، فأَرِقَ هشامٌ[6] ذات ليلةٍ ، فقال لحاجبه : ابْغِنِى رجلًا عربيًّا فصيحًا يحادثُنى ويُنْشِدُنى . فطَلَبَ له ما طَلَبَ ، فوَقَفَ على أبى النَّجم ، فأَتى ، فلما دُخِلَ به إليه قال : أينَ تكونُ منذُ أقصيناكَ ؟ قال : بحيثُ أَلْفَتْنِى رُسُلُكَ . قال : فمَنْ كانَ أبا مَثْوَاكَ ؟ قال : رَجُلين ، كَلْبِيًّا وتَغْلبيًّا ، أتغدَّى عندَ أحدِهما ، وأتعشَّى عند الآخرِ . فقال له : مالكَ مِنَ الوَلَدِ ؟

---

(١) ر : « وكان » .

(٢) ر : « هشام بن عبد الملك » ؛ من أرجوزته التى مطلعها .

* الْحَمْدُ لِلهِ الْعَلِيِّ الأَجْلَلِ *

(٣) ساقطة من ر .

(٤) ر : « وكان » .

(٥) ر : « المساجد » .

(٦) ر : « أرق هشام ليلة » .

إنما يريدُ : ابهتيها ، فوطَعَ « ابهتى » فى موضع « اكذبى » فمن ثمَّ وَصَلَهَا بـ « على »

والذى يُستعملُ فى صِلَةِ الفعل اللامُ ، لأنها لامُ الإضافة ، تقول : « لِزيدٍ ضربتُ » و « لعمرو أكرمتُ » والمعنى : عمراً أكرمتُ ، وإنما[1] تقديرُه : إكرامى لعمر ، وضربى لزيد ، فأجْرَى الفعلَ مُجْرَى المصدرِ ، وأحسنُ ما يكون ذلك إذا تقدَّمَ المفعولُ ، لأن الفعلَ إنما يجىء وقد عملَتِ اللامُ ، كما قال الله جلَّ وعزَّ : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾[2] ، وإن أُخِّرَ المفعول فهو عربى[3] حسنٌ ، والقرآنُ محيطٌ بجميع[4] اللغات الفصيحةِ ، قال الله جل وعزَّ : ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[5] والنحويون يقولون فى قوله ـ جل ثناؤه : ﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ ﴾[6] : إنما هو : رَدِفَكُمْ . وقال كُثَيِّرٌ :

أُريدُ لِأَنْسَى ذِكْرَها فكأنَّما تُمَثَّلُ لى لَيْلَى بكلِّ سَبيلِ

وحروفُ الخفضِ يُبْدَلُ بعضُها من بعضٍ ، إذا وقع الحرفانِ فى معنًى فى بعض المواضع ، قال الله جل ذكره : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾[7] ، أى « عَلَى » ولكنَّ الجذوعَ إذا أحاطت دخلتْ « فى » ، لأنها للوعاء ، يقال : « فلانٌ فى النَّخْل » ، أى قد أحاطَ به ، قال الشاعر[8] :

---

(١) ر . « فإنما » . (٢) سورة يوسف ٤٣ (٣) ر : « فعربى » .
(٤) ر : « بكل » . (٥) سورة الزمر ١٢
(٦) سورة النحل ٧٢ (٧) سورة طه ٧١
(٨) هو سويد بن أبي كاهل ، اللسان ٤ : ٢٦٧ ، وبأجدع ، أى بأنف أجدع

قال : فقال هشام : يا غلام[1] ، ما فعلتِ الدنانيرُ المختومةُ التى أمرتُك بقبضها ؟ قال : ها هى عندى ، ووزنُها خمسمائةٍ ، قال : فادفعْها إلى أبى النجم ليجعلَها فى رِجْلَىْ[2] ظَلاَّمةَ مكانَ الخيطَيْنِ ، أفلا تراهُ قال :

* فهْىَ التى يُذعَرُ منها الشيطانْ *

وإن لم يَرَه ، لما قرَّرَ فى القلوب من نكارتِهِ وشناعَتِه ! وقال آخرُ :

وفى البَقْلِ إنْ لم يَدْفَعِ اللهُ شرَّهُ   شياطينُ يَعْدُو بَعْضُهُنَّ على بعض

وزعَم أهلُ اللغة أنَّ كلَّ متمرِّدٍ من جنٍّ أو إنس أو سَبعٍ[3] أو حيةٍ[3] يقال له شيطانٌ ، وأن قولهم : « تَشَيْطَنَ » إنما معناه تخَبَّثَ وتنَكَّرَ ، وقد قال الله جل وعزَّ : ﴿ شَيَاطِينَ الإنسِ والجنِّ ﴾[4] قال الراجز :

أبْصَرْتُها تَلْتَهِمُ الثُّعبانَا   شيطانةٌ تزَوَّجتْ شيطانَا

وقال امرؤُ القيسِ :

أتوعِدُنِى والمشْرَفِىُّ مُضَاجِعِى   ومَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أغْوَالِ !

والغولُ : لم يُخبِرْ صادقٌ قطُّ أنه رآها

* * *

ثم نرجعُ إلى تفسيرِ شعر أبى النجم[5] :

قوله :

* سُبِّى الحماةَ وابْهَتِى عليها *

---

(١) ر : « لحاجبه »   (٢) ر : « رجل » .
(٣) ساقطة من ر   (٤) سورة الأنعام ١١٢
(٥) ر : « قول أبي النجم »

يقول : تقرَّبى ، ومن ذا سُمِّيت المزْدَلِفةُ . قال العجَّاج :

نَاجٍ طَواهُ الأَيْنُ مِمَّا وَجَفَا طَىَّ اللَّيالِى زُلَفاً فزُلَفا

* سَمَاوَةَ الهِلالِ حتى احْقَوْقَفَا *

يقال[1] : زُلْفةٌ وزُلَفٌ ، كقولك : غُرْفةٌ وغُرَفٌ

وقوله :

* بالـكلب خيراً والحماةِ شرًّا *

كلامٌ مَعِيبٌ عندَ النحويين ، وبعضُهم لا يُجيزه ، وذلك لأنه[2] عَطَفَ على عامِلَين : على الباء[3] وعلى الفعلِ . ومنْ قال هذا قال : ضربتُ زيدا فى الدار ، والحُجْرةِ عمرًا .

قال أبو العباس : وكان أبو الحسنِ الأخفشُ يراهُ ويقرأُ : ﴿ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِن رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٍ ﴾[4] فعَطَفَ على « إنّ » وعلى « فى »

وقال عَدِىُّ بن زيدٍ :

أَكُلَّ امْرِئٍ تَحْسِبِينَ امْرَأً ونارٍ تَوَقَّدُ باللَّيلِ نَارًا

فعطفَ على « كلّ » وعلى الفعل .

---

(١) ر : « تقول » .

(٢) ر : « وذاك أنه » (٣) ر : « بالباء »

(٤) سورة الجاثية ٥ ، بنصب « آيات » . وهى قراءة حمزة والكسائى ، والباقون بالرفع . وانظر الكشاف ٤ : ٢٢٥

هُمُ صَلَبُوا العَبْدِىَّ فى جِذْعِ نخلةٍ ، فلا عَطَسَت شَيْبانُ إلّا بأَجْدَعا

وقال الله جل وعز : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾[1] أى عليه . وقال تبارك وتعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾[2] أى بأمرِ الله . وقال ابنُ الطَّثْرِيَّة :

غَدَتْ مِنْ عليه تَنْفُضُ الطَّلَّ بعدَمَا رأَتْ حاجِبَ الشمسِ استوى فترفَّعا

وقال الآخرُ :

غَدَتْ مِن عليه بعدَما تَمَّ خِمْسُها تَصِلُّ وعن قَيْضٍ بِزِيزاءَ مَجْهَلِ[3]

أى من عنده .

وقال العامرى[4] :

إذا رضِيَتْ علىَّ بنو قُشَيْرٍ لَعَمْرُ اللهِ أعجبنى رضاها

وهذا كثيرٌ جدًّا .

وقوله :

* وَإِنْ أَبَتْ فازدَلِفِى إليها *

---

(١) سورة الطور ٣٨

(٢) سورة الرعد ١١

(٣) لمزاحم العقيلى فى وصف القطا ، اللسان ١٣ : ٤٠٦ ، وقال فى شرحه : « قال ابن السكيت فى قوله : « من عليه » : من فوقه ، يعنى من فوق الفرخ . ومعنى : « تصل » ، أى، هى يابسة من العطش » .

(٤) حاشية الأصل : « هو القحيف العقيلى » .

والقَيْض : قِشْرُ البيضة[١] الأعلى ، والذى يَلْبَسُ البيضةَ فيكونُ ما بينَها وبينَ قشرها الأعلى يقالُ له : الغِرْقِئ ، يقال : ثوبٌ كأنه غِرْقِئ البيض[٢] .

والزِّيزاء : ما ارتفعَ من الأرضِ ، وهو ممدودٌ منصرفٌ فى المعرفة والنكرةِ ، إذا كان لمذكر ، كالعِلْباء والحِرْباء ، وسنذكر هذا فى غير هذا الموضع مُفَسَّرًا ، على أنَّا قد استقصيناهُ فى الكتابِ (المُقْتَضَب) .

والمَجْهَلُ : الصحراء التى يُجْهَلُ فيها ، فلا يُهتَدَى لسَبيلِها

ويقال للشىء إذا غَبَّ وتغيرت رائحتُه . صَلَّ وأَصَلَّ ، فهو صالٌّ ومُصِلٌّ ويقال : نَتَنَ وأنتَنَ . ويقال : خَمَّ وأَخَمَّ ، وذاك إذا كان مستوراً حتى يَفْسُدَ . ويقال إذا عَتُقَ اللحمُ فتغير : خَنِزَ وخزِنَ . وبيت طَرَفَةَ أحسنُ ما يُنْشَدُ :

ثم لا يَخْنَزُ فينا لَحْمُها إنما يَخْنز لَحْمُ المدَّخِرْ

ويقال لربِّ البيتِ وربَّةِ البيت اللذَين ينزل بهما الضَّيفُ : هى أُمُّ مَثْواهُ ، وهو أبو مَثْواهُ ، وأنشد أبو عُبيدةَ :

مِنْ أُمِّ مَثْوًى كريمٍ قد نزَلْتُ بها إنَّ الكريمَ على عِلاَّتِهِ يَسَعُ

---

(١) ر : « للبيض » . (٢) ر : « بيض . »

وأما قوله :

* غَدَتْ مِنْ عليه بعدَ ما تمّ خِمْسُهَا *

فالخِمْسُ : ظِمءٌ من أظمائها ، وهو أن ترِدَ ثم تَغبَّ ثلاثًا ، ثم ترِدَ فيُعَدُّ بيومَىْ وِرْدِها مع ظِمْئِها ، فيقال : خِمْسٌ ، والرِّبع كحُمَّى الرِّبع .

وقوله : « تَصِلّ » أى تَسْمَعُ لأجوافِها صَليلاً من يُبْس العطَش ، يقال : المسمارُ يصِلُّ فى الباب ، إذا أُكْرِهَ فيه ، قال جريرٌ يخاطبُ الزُّبَيْرَ بمَرْثِيَتِه فى هِجَائِهِ الفرزدق :

لو كنتَ حين غُرِرْتَ بَيْنَ بُيُوتِنا   لَسَمِعْتَ من وَقْعِ الحديد صَليلا

ويقال للحمارِ : المُصَلْصِل ، إذا أخرج صوتَه من جوفه حادًّا خفيًّا .

قال الأعشى :

عَنْتَرِيسٌ تَعْدُو إذا حُرِّكَ السَّوْ   طُ كعَدْوِ المُصَلْصِلِ الجوَّالِ[١]

وقال المفسرون فى قوله عزوجل : ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾[٢] ، قالوا[٣] : هو الطينُ الذى قد جفَّ ، فإذا قرَعَهُ شىءٌ كان له صَليلٌ . وتفسيرُ ذلك عند العربِ التِّقْنُ[٤] الذى يَذهبُ عنه الماء فى الغُدرانِ فيَتَشَقَّقُ ثم يَيْبَسُ

(١) ديوانه ٨ . قال فى شرحه : « عنتريس : صلبة قوية ، آخذه بالعرندسة ؛ إذا أخذه بالجفاء والغلظ . والمصلصل : الصافى الصوت ؛ قال : وليس هذا بالوصف الجيد » .

(٢) سورة الحجر ٢٦   (٣) ر : « قال » .

(٤) التقن : اسم للطين الذى يذهب عنه الماء .

وقال الآخرُ:

كأنَّهَا نائحةٌ تفجَّعُ تبكي بشجوٍ وسِواهَا الموجعُ[1]

* * *

وقال الشّماخُ:

كأنَّ ذِراعَيْها ذِراعا مُدِلَّةٍ بُعَيْدَ السِّباب حاوَلَتْ أَنْ تَعَذَّرَا[2]

مِن البِيضِ أعطافًا إذَا اتَّصَلَتْ دَعَتْ فِرَاسَ بنَ غَنْمٍ أوْلَقِيطَ بنَ يَعمَرَا[3]

بها شَرَقٌ مِن زَعْفَرَانٍ وَعَنْبَرٍ أطارتْ من الحسْنِ الرِّداءَ المُحَبَّرَا[4]

تقولُ وَقد بَلَّ الدُّموعُ خِمارَها أَبَى عِفَّتِي ومَنْصِبي أن أُعَيَّرَا

كأَنَّ بِذِفْرَاها مَنَادِيلَ فارَقَتْ أَكُفَّ رجالٍ يَعْصِرُونَ الصَّنَوْبَرَا

كأنَّ ابنَ آوَى مُوثَقٌ تحتَ غَرْضِها إذا هو لم يَكْلِمْ بِنَابَيْهِ ظَفَّرَا

شَبَّه يديها بيدَىْ مُدِلَّةٍ بجمالٍ ومنصبٍ قد سابَّتْ وأقبلتْ تعتذرُ وتشيرُ بيديها . فوَصَفَ جمالَهَا الذى به تُدِلُّ ، وَمَنْصِبَها المتصلَ بمن ذَكَرَتْهُ .

---

(١) ر : « لشجو » .

(٢) ديوانه ٢٩ . قال فى شرح الديوان : شبه ذراعيها وهى تتذرع فى سيرها بذراعى امرأة مدلة على أهلها ببراءة ساحتها . وقوله : « بعيد السباب » ، أى فى عقب المسابة قامت تعتذر إلى الناس » .

(٣) قال فى شرح الديوان : « البيض : جمع بيضاء . وهى نقية العرض من الدنس . والأعطاف : الجوانب واتصلت : انتسبت ؛ وفراس : رجل عزيز . وغنم ، بالفتح ، وهو ابن تغلب . ولقيط بن يعمر رجل أيضا عزيز ، و « أو » بمعنى الواو ، أى أنها شريفة النسب ، فهى لا تقصر عن نق مارميت به » .

(٤) الديوان : « لها شرق » . والشرق : الضمخ . وأطارت : رمت ، والمحبر : المزين ؛ أى أنها مدلة بجمالها فلا تختمر فتستر شيئا عن الناظر ؛ لأنها تبتهج بكلِ مافى وجهها ورأسها . (من شرح الديوان) .

وفى كتاب الله جل وعزَّ : ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ ﴾ ؛ معناه عند العربِ إضافتُه .

* * *

ومن التشبيه المطّردِ على أَلْسِنَةِ العربِ ما ذكروا فى سَيرِ الناقةِ وحركة قوائمها ، قال الراجزُ :

كأَنَّها ليلةَ غِبِّ الأَزْرَقِ   وقد مَدَدْنَا بَاعَها للسُّوَّقِ

* خَرْقاءُ بين السُّلَّمَيْنِ تَرْتَقِى *

قوله : « ليلةَ غِبِّ الأَزْرَقِ » ، إنما يعنى موضعاً ، وأَحْسِبُه ماءً ، لأنهم يقولون : نُطْفةٌ زَرْقاءُ ، وهى الصافيةُ ، قال زهير :

فلمَّا وَرَدْنَا الماءَ زُرْقاً جِمامُهُ   وَضَعْنَ عِصِىَّ الحاضِرِ المُتَخَيِّمِ[1]

وقال آخرُ :

فأَلْقَتْ عصا التَّسْيَارِ عنها وخَيَّمَتْ   بأَرْجاءِ عَذْبِ الماءِ زُرْقٍ مَحافِرُه

وقوله :

* وقد مَدَدْنَا باعَها للسُّوَّقِ *

يقول : استفرغنا ما عندَها فى[2] السَّير ، يقال : تَبَوَّعَتْ وانْبَاعَتْ ، إذا مَدَّتْ باعَها .

وقوله :

* خَرْقاءُ بين السُّلَّمَيْنِ تَرْتَقِى *

يقول : لِكثرةِ حركةِ الخرقاءِ وقلةِ حِذْقِها بالصُّعود .

---

(١) ديوانه ١٣ : الجمام : ما اجتمع من الماء ، الواحدة جم وجمة : وضعن ، أى أقمن . والحاضر : الذين حضروا الماء . والمتخيم : المقيم . (من شرح الديوان) .

(٢) ر : « من السير » .

وقوله : « من الليت » كقولك : كموضع دِجْلة من بغداد ، إنما هو الحدّ بينهما ، لا أنه وَكَفَ من شيء على شيء .

وأما قوله :

كأنَّ ابنَ آوى مُوثَقٌ تحتَ غَرْضِها   إذا هو لم يَكلِمْ بنابيْهِ ظَفَرا[1]

يقول : ليست تَستقِرُّ ، فكأنَّ ابنَ آوى يَكلِمُها بنابيْهِ أو يَخلِبها بظُفْرِه ، فهي لا تستقرُّ . وقال أوس بن حَجَرٍ :

كأنَّ هِرًّا جَنيباً تحتَ غَرْضَتِها   والْتَفَّ دِيكٌ بِرجليها وخنزيرُ[2]

والغَرْضُ والغُرْضَةُ واحدٌ ، وهو حِزام الرَّحْلِ .

* * *

وقال آخرُ :

كأنَّ دِراعيها ذراعا بَذِيَّةٍ   مُفَجَّعَةٍ لاقتْ حَلائِلَ عن عُفْرِ[3]

سَمِعْنَ لها واستفرغتْ في حديثِها   فلا شيء يَفْرِي باليدَيْنِ كما تَفْري

[قال أبو العباس : أنشدنيهما عبدُ الصمد بن المُعذَّل ، وأنشدنيه سعيدُ ابن سَلْمٍ][4] . ولو قيل إن هذا مِن أبلغِ ما قيل في هذا الوصفِ ما كان

---

(١) موثق : مكتوف ، ويكلم : يجرح . وظفر : أصابها بأظافيره .

(٢) ر : « ديك بحقويها » .

(٣) الحلائل : جمع حليلة ؛ وهن اللائي أصفين الود .

(٤) مابين العلامتين من زيادات ر

وقوله :

* أطارتْ من الحسن الرداءَ المحبَّرا *

يقول : هي مُدِلَّةٌ بجمالها ، فلا تَختَمِرُ فتَستُرَ شيئاً عن الناظر ، لأنها تبتهجُ بكل ما في وجهها ورأسها .

وقد كشفَ هذا المعنى عمرُ بن أبي ربيعةَ المخزوميُّ حيثُ يقولُ :

فلما تَوَاقفْنا وسلَّمْتُ أقبلتْ وجُوهٌ زَهاها الحسْنُ أن تتقنَّعا

تبالَهْنَ بالعِرْفانِ لمَّا عَرَفْنَني وقلْنَ امرؤٌ باغٍ أكلَّ فأوْضَعا

وقرَّبْن أسبابَ الهوى لِمقَتَّلٍ يَقيسُ ذِراعاً كلما قِسْنَ إصْبَعا

[فقلتُ لِمُطْرِيهنَّ ويْحكَ إنما ضَرَرْتَ فهل تَسْطِيعُ نفعاً فتَنْفَعا][1]

قوله :

كأنَّ بِذِفْرَاها مناديلَ فارقتْ أكُفَّ رِجالٍ يَعْصِرُونَ الصَّنوْبَرا[2]

يقول : لسَوادِ الذِّفْرَى ، وهذا من كرمها ، قال أوْسُ بن حَجَرٍ :

كأنَّ كُحَيْلاً مُعْقَداً أو عَنِيَّةً على رَجْعِ ذِفْراها مِنَ اللِّيتِ واكِفُ[3]

وهذا معنًى يُسألُ عنه ، لأن اللِّيتَيْنِ صفحتا العُنُقِ ، والذِّفْرَى في أعلى القفا ، فكيف يَكفُ على الذفرى من اللِّيت ! والمعنى إنما هو كأنَّ كُحَيْلاً مُعْقَدًا أو عَنِيَّةً واكفٌ على رجْعِ ذفْراها .

---

(١) مابين العلامتين من زيادات ر

(٢) الذفرى : من نصف المقذ إلى أصول الأذنين . وفارقت : قاربت . ويعصرون الصنوبر : يستخرجون ما فيه . (من شرح الديوان) .

(٣) زيادات ر « الكحيل : القطران ، والعنية : ضرب منه » .

قوله : « خَذْفُ أعسَرَا » يريد أنه يذهبُ على غير قصدٍ . وقوله :
« صَلِيلُ زُيُوفِ » يقال : إن الزائف شَديدُ الصوتِ صافيه .

* * *

وقال آخر :

كأنَّ يدَيْها يدَا ماتِحٍ(٢) أتى يوم وِرْدٍ لِنَبِّ زَرُودَا
يخافُ العِقابَ وفى نفسِه إذا هو أنْهَلَ ألاَّ يَعُودا

يقول : هذا الساقى يخافُ العقابَ إن قَصَّرَ ، ولا عَوْدَةَ له إليه ثانيةً ،
فهو يستسقى(٣) سَقْيَةً فى مرةٍ واحدةٍ .

* * *

وقد أكثروا فى هذا ، فمن الإفراطِ فى السرعةِ قولُ ذِى الرُّمَّةِ :

كأنَّه كوكَبٌ فى إثْرِ عِفْرِيَةٍ مُسَوَّمٌ فى سوادِ الليل مُنْقَضِبُ

يقال : عِفْرِيتٌ وعِفْرِيَةٌ فى معنًى واحدٍ ، والتاء فى « عِفريتٌ » زائدةٌ ، وهو
ملحقٌ بـ «قنديل» ، يقال : فلانٌ [عِفْرِيَةٌ زِبْنِيَةٌ ، والزِّبْنِيَة : المُنْكرُ ، وجمعه
زَبَانِيَة ، وأصلُه من الحركة ، يقال : زَبنَه ، إذا دَفَعَهُ . ويقال](٤): عِفْرِيَة

(١) ر : « الزيف » .
(٢) الماتح : المستقى بالدلو من أعلى البئر . وزرود : اسم لرمال بطريق الحاج من الكوفة .
(٣) ر : « فهى تسق » .
(٤) ما بين العلامتين من زيادات نسخة ر

ذلك بعيداً . وَصَفَها بأنها بَذِيَّة وقد فُجِعَتْ بما أُسْمِعَتْ ونِيلَ منها ؛ ولقِيَتْ خلائلها بعدَ زمانٍ ، وتلك الشكوى كامنة فيها ، وأَصْغَيْنَ لها فتسمّعن(١) .

والفَرْىُ : الشَّقُّ . يقال : فَرَى أَوْدَاجَهُ ، أى قطعَ ، وفرَيْتُ الأديمَ . وإذا قلتَ : أفرَيْتُ ، فمعناه أصلحتُ . وقولُ الحجّاج : إنى والله ما أَهُمّ إلاّ مَضَيْتَ ولا أَخْلُق إلاّ فَرَيْتَ ، يقول : إذا قدَّرْتَ قطعتُ . يقال : فرَيْتُ القِرْبةَ والمَزادةَ ، فهما مفرِيَّتانِ . قال ذو الرمة(٢) :

* كأنه مِن كُلَى مَفرِيَّةٍ سَرَبُ *

* * *

وقال امرؤُ القيسِ :

كأنَّ الحصَى مِن خلفِها وأمامِها ... إذا نَجَلَتْهُ رِجْلُها خَذْفُ أعْسَرَا(٣)

كأنَّ صَليلَ المَرْوِ حِينَ تُشِذُّهُ ... صَليلُ زُيوفٍ يُنْتَقَدْنَ بِعَبْقَرَا(٤)

---

(١) ر : « إليها يتسمعن » .

(٢) ديوانه ١ ؛ وصدره :

* ما بالُ عينك مِنْها الماءُ يَنْسَكِبُ *

والكلى : جمع كلية ؛ وهى رقعة تكون فى أصل عروة المزادة . ومفرية : مقطوعة . وسرب : سائل . (من شرح الديوان) .

(٣) ديوانه ٦٤ ؛ قال فى شرحه : « يقول : إذا سارت فرقت الحصى الى كل جهة لشدة سيرها ، وشبه فعلها ذلك برمى الأعسر ؛ وهو الذى يرمى برجله اليسرى ، وخصه لأن رميه لايذهب مستقيما ، وكذلك الحصى إذا رمت الناقة به . ومعنى «نجلته» فرقته ورمت به . والخذف : بالحصى ونحوها ؛ فإن كان بالعصا وشبهها فهو الحذف ، بالحاء غير معجمة » .

(٤) قال فى شرح الديوان : « شبه صوت الحجارة إذا رمت بها ووقوع بعضها على بعض بصوت الدراهم الزيوف ؛ إذا انتقدها الصيرف وقلبها . والزيوف : الرديئة ، واحدها زائف وزيف ، وإنما خصها لأن صوتها أشد من صوت غيرها لكثرة نحاسها . والصليل : الصوت . والمرو : الحجارة ، ومعنى « تشذه » تفرقه . وعبقر : موضع باليمن ، وكانت دراهمه زيوفا » .

وأمْلَحُ ما قيل فى هذا المعنى وأجْوَدُهُ قولُ امرىءِ القيسِ :

وقدْ أغتَدِى والطيْرُ فى وُكُناتِها بمُنجَرِدٍ قيْدِ الأوابِدِ هَيْكَلِ

فجعله للوحش كالقيْدِ .

* * *

وحُدِّثْتُ أن رجلًا نظر إلى ظبيةٍ ترُودُ ، فقال له أعرابىٌّ : أتحبُّ أن تسكون لك ؟ قال : نعم ، قال : فأعطنى أربعَ دراهمَ حتى أردَّها إليك ، ففعل ، فخرجَ يمحص[1] فى إثرها ، فجَدَّتْ وجَدَّ ، حتى أخذ بقرْنيها ، فجاء بها ، وهو يقولُ :

وَهْىَ على البُعْدِ تَلَوِّى خدَّها تُرِيغُ شَدِّى وأُرِيغُ شَدَّها

* كيفَ ترَى عَدْوَ غلامٍ رَدَّها *

* * *

قال أبو العباس : ومن حُلْوِ التشبيه وقريبِه ، وصريحِ الكلامِ وبليغه[2] قولُ ذى الرُّمَّةِ .

ورَمْلٍ كأوراكِ العَذارَى قطعتُه وقد جلَّلَتْهُ المُظْلِماتُ الحنادِسُ[3]

---

(١) يقال : محص الظبى فى عدوه يمحص محصا : أسرع وعدا عدواً شديدا . وفى ر : « يفحص » .

(٢) ساقطة من ر

(٣) يقول : هذا الرمل حقف كأوراك العذارى. جللته : لبسته . الحنادس . الليالى المظلمة ، والحندس : الظلام . (من شرح الديوان) .

نِفْرِيَة ، على التوكيد ، [وعِفْرِيتٌ نِفْرِيتٌ ، ويقال : عُفَارِيَة ، ولم يُتْبَعْ بنُفَارِيَة](١)

* * *

ومن الإفراط قولُ الحُطَيئة :

وإن نَظَرَتْ يومًا بمُؤْخِرِ عينِها إلى عَلَمٍ بالغَوْرِ قالت له ابْعَدِ

ومن الإفراط قولُه :

بأرضٍ تَرَى فَرْخَ الُحبارَى كأنه بها راكبٌ مُوفٍ على ظهر قَرْدَدِ(٢)

ومن ذلك قوله :

وكادَتْ على الأطواء أطْواءِ ضَارِجٍ تساقِطني والرَّحْلَ مِن صوتِ هُدْهُدِ

وقال آخر :

مَرُوحٌ برجليها إذا هى هَجَّرَتْ ويمنعُها مِن أن تَطيرَ زِمامُها

وقال الشَّمَّاخُ :

مَرُوحٌ تَغْتَلى فى البِيدِ حَرْفٌ تَكاد تَطِيرُ مِن رَأْيِ القَطيعِ

وكذلك الأعرابىُّ الذى يقول :

* لو تُرْسَلُ الرِّيحُ لِجْئنَا قبلَها *

وقد مضى خبرُه .

---

(١) ما بين العلامتين من زيادات ر

(٢) القردد : ما غلظ من الأرض

الجبارُ : الأثَرَ][١] . ويُروى : « ولم يقلم[٢] » ، وتأويل ذلك : أن حوافرَها لا تتشعّثُ فيُقلّمها البَيْطارَ ، لأنها إذا كانت كذلك ذهبَ منها شيءٌ بعدَ شيء فمحقَها . وقال عَلقمَةَ بن عَبَدَة :

لا فى شظاهَا ولا أرساغِها عَنَتٌ ... ولا السَّنابِكُ أفناهنّ تقليمُ[٣]

وإنما يُحمَدُ الحافرُ المُقعَّبُ ، وهو الذى هَيْئَته كهيئة القَعْب ، وإن كان كذلك قيلَ : حافِرٌ وأبٌ[٤] . قال ابن الخَرِع[٥] :

لهـا حافرٌ مثلُ قَعْبِ الوَلِيـــدِ يَتّخِذَ الفَأرُ فيه مَغارًا

يريدُ : لو دخل الفأرُ فيه لَصَلَحَ ، كقول القائل : فأتى بجَفْنَةٍ يقعُدُ عليها عشَرةٌ ، أى لو قعَد عليها عشرةٌ لَصَلَحَ . وقال الراجزُ :

* وَأْبٌ حَمَتْ نُسُورُه الأوْقارَا *

[يقال : حافرٌ مَوْقورٌ ، وهو أن يُصيبه داءٌ يشبِهُ الرَّهْصة][٦] وفى كلِّ حافرٍ حاميَتان ، وهما حرفاهُ مِن[٧] عَنْ يمينٍ وشمالٍ ، ومُقدّمه السُّنْبُكُ ، ومُؤخّره الدّابرَةُ

---

(١) مابين العلامتين من زيادات ر .

(٢) ر : « ولم يقلب » .

(٣) رواية المفضليات ٤٠٣ : « ولا أرساغها عتب » ؛ والعتب : العيب . والشظى : عظم لاصق بالركبة ، والسنابك : مقاديم الحوافر ؛ يقول : هى وافية السنبك لم تأكله الأرض

(٤) حافر وأب : صلب قوى .

(٥) هو عوف بن عطية بن الخرع ، من بنى تيم من عبد مناة .

(٦) ما بين العلامتين تكملة من س وزيادات ر .

(٧) ساقطة من ر .

الحِنْدِسُ : اشتداد الظُّلْمة ، وهو توكيدٌ لها ، يقال : ليلٌ حِنْدِسٌ ، وليل أَلْيَلُ ، كما يقال : ليلٌ[١] مُظْلِمٌ

* * *

وقال الشمّاخُ في صفة الفرس :

مُفِجُّ الحَوامِي عن نُسورٍ كأنّها   نَوَى القَسْبِ تَرَّتْ عن جَرِيمٍ مُلَجْلَجِ

قوله : « مُفِجُّ الحَوامِي » يريد مُفَرِّقُ الحَوامِي ، فالحوامي : نواحي الحافر . والنُسورُ ، واحدُها نَسْرٌ ، وهي نُكْتَةٌ في داخل الحافرِ ، ويُحْمَدُ الفرسُ إذا صَلُبَ ذلك منه ، ولذلك شُبِّهَ بنَوَى القَسْبِ[٢] . وتَرَّتْ : سقطتْ . والجَرِيمُ : المَصْرُومُ . والمُلَجْلَجُ : الذي قد لُجْلِجَ مَضْغاً في الفمِ ثم قُذِفَ لصلابتِه .

وقوله : « مُفِجٌّ » ليس يريدُ الذي هو شديدُ التَّفرقة ، ولكن الانفصال عن النَّسْر ، فإنه إن اتّسَعَ واستوى أسفلُه فذلك الرَّحَحُ[٣] ، وهو مذمومٌ في الخيل ، وكذلك إن ضاق وصَغُرَ قيل له : مُصْطَرٌ ، وكان عيباً قبيحاً . قال حُمَيْدٌ الأَرْقَطُ :

لا رَحَحٌ فيها ولا اصْطِرارُ   ولم يُقلِّبْ أرضَها البَيْطارُ[٤]

[* ولا لِحَبْلَيْهِ بها حَبارُ *]

---

(١) ر : « وليل أليل مظلم » ، س : « وليل أليل ، وهو » بم ، كما يقال : ليل مظلم » ، وما أثبته عن الأصل .

(٢) القسب : التمر اليابس يتفتت في الفم ، ونواه أصلب النوى .

(٣) الرحح : انبساط الحافر في رقة .

(٤) ر : « ولم يقلم » .

ومثلُ البيت الأولِ قولُ عُقْبة بن سابقٍ الهَنْبَرىّ :

لهُ   بَيْنَ   حوَامِيهِ . نُسُورٌ كَنَوَى القَسْبِ

فهذا تشبيه مقاربٌ جدا .

* * *

ومن التشبيه الحسن قولُ الشاعرِ[1] :

كأنَّ المَتْنَ والشَّرْخَيْنِ منه   خلافَ النصْلِ سِيطَ به مَشِيجَ

يريدُ سهماً رُمِىَ به فأنفذَ الرَّمِيَّةَ وقد اتَّصلَ به دَمُها ، والمتن : متن السهم . وشَرْخُ كلِّ شىء : حَدُّه ، فأرادَ شَرْخَى الفوق ، وهما حرفاه . والمَشِيجُ : اختلاط الدَّم بالنُّطْفَة ، هذا أصلُه ، قال الشماخ :

طَوَتْ أَحْشَاء مُرْتِجَةٍ لوَقْتٍ   على مَشَجٍ سُلالتُه مَهِينُ

وقال الله جل وعز : ﴿ من نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نبتَلِيه ﴾[2] . وفى الحديث : « اقتلوا مَسَّانَّ للمشركين واستَبْقُوا شَرْخَهُمْ »[3] ، أى الشَّبابَ ، لأن الشَّرْخَ الحَدُّ ، قال حَسَّانُ بن ثابتٍ :

إنَّ شَرْخَ الشَّبابِ والشَّعَر الأَسْــــوَدَ مالم يُعاصَ كان جُنونَا

---

(١) فى زيادات ر : « هو الشماخ » ، والبيت ليس فى ديوانه ؛ وهو لعمر بن الداخل الهذلى ؛ ديوان الهذليين ٣ : ١٠٤ ؛ وروايته :

كأنَّ الرِّيشَ والفُوقَيْنِ مِنْهُ   خِلافَ النَّصْلِ سِيطَ بِهِ مَشِيجُ

وهو أيضا بهذه الرواية فى اللسان ١٢ : ١٩٥ من غير نسبة

(٢) سورة الإنسان ،

(٣) أورده ابن الأثير فى النهاية ٢ : ٢١٠ ، وقال فى شرحه : « أراد بالشيوخ الرجال المسان أهل الجلد والقوة على القتال ، ولم يرد الهرمى » والشرخ : الصغار الذين لم يدركوا »

ومثل قوله : « عن جَرِيم ملجج » قولُ عَلْقَمة بن عَبَدَة :

سُلَّاءَةٌ كَعصَا النَّهدِىِّ غُلَّ بها ‏ ‏ ذو فَيْئَةٍ مِنْ نَوَى قُرَّانَ مَعْجُومُ[1]

شَبَّهها بالشَّوكة من شوكِ النخل ؛ لأن الفرسَ الأنثى يُحمَدُ منها أن يدِقَّ صدرُها ثم ينخرط على امتلاء إلى مؤخَّرها ، والحِمَامُ يُحمَد منهنَّ أن يَعْرُضَ الصَّدْرُ ثم ينخرط إلى ذنبه ضُمورًا ، فيقال فى صفتِه : كأنه جَلَمٌ .

وقوله : « كعصَا النَّهدىّ » ، يريدُ فى الصلابة ، كما قال :

* وكلُّ كُمَيْتٍ كالهِرَاوةِ صِلدِمِ *

وقوله : « ذو فَيْئةٍ من نوى قُرَّان » يقول : ذو رَجْعةٍ ، يقول : مَضَغَتْه الإبلُ فلم تَكسِرْه ثم بعَرَتْه صِحاحاً . ومعجوم : مَمضُوغٌ ، يقال : عَجَمْته أَعْجُمه عَجْمًا[2] إذا مضغتَه ، فالعَجمُ : المَضْغُ ، ويقال للنَّوى من كلِّ شىء : العَجَمُ ، متحرِّكُ الجيم[3] ، قال الأعشى :

* وجُذعانُها كَلَقِيطِ العَجَمْ *

وقال النابغةُ :

وظلَّ يَعْجُمُ أعلى الرَّوْق مُنْقَبِضاً ‏ ‏ فى حَالِكِ اللَّوْن صَدْقٍ غيرِ ذى أَوَدِ

---

(١) السلاءة : شوكة النخل .

(٢) ساقطة من ر ، وهى فى الأصل ، س .

(٣) ر : « العين » وهما بمعنى .

إذا قامت لِسُبْحَتِهَا تَثَنَّتْ كَأَنَّ عِظامَها من خَيْزرانِ[١]

والخيزُرانة : كلُّ غُصْنٍ لينٍ يَتثنَّى ، ويقال للمُرْدِيّ : خيزرانة ، إذا كانْ يتثَنَّى إذا اعْتُمِدَ عليه ، قال النابغة :

يَظَلُّ من خوفِه المَلَّاحُ معتصما[٢] بالخَيْزُرانةِ بعد الأَيْنِ والنَّجدِ[٣]

الأَيْنُ : الإعياء . والنَّجَد : العَرَقُ[٤] .

* * *

وقد عاب بعض الناس قولَ كُثَيِّرٍ :

فما رَوْضَــةٌ بالحَزْنِ طيِّبةُ الثَّرى يَمجُّ النَّدَى جَثْجَاثُها وعَرَارُها[٥]

بِمُنْخَرَقٍ مِن بَطنِ وادٍ كأَنَّما تلاقَتْ به عطَّارَةٌ وتِجارُها

بأطْيَبَ من أَرْدَانِ عَزَّةَ مَوْهِناً وقدأُوقِدَتْ بالمَنْدَلِ الرَّطْبِ نارُها

وحكى الزُّبيريون أن امرأةً مدينية عَرَضَتْ لِـكُثَيِّرٍ فقالت : أأَنْتَ القائلُ هذين البيتين ؟ قال : نعم ، قالت : فَضَّ اللهُ فاكَ ! أرأيتَ لو أن زِنْجيَّةً بَخَّرَتْ أردانَها بمَنْدَلٍ رَطْبٍ أمَا كانت تطيبُ ! ألَّا قلتَ كما قال سَيِّدُكَ[٦] امرؤُ القيس :

---

(١) السبحة : صلاة النافلة .
(٢) ر : « معتمدا » ؛ وما أثبته رواية الأصل والديوان .
(٣) الملاح : صاحب السفينة ، والخيزرانة : السكان ؛ وهو ذنب السفينة .
(٤) النجد : العرق والـكرب .
(٥) الحزن : موضع لبني يربوع ، فيه رياض كثيرة .
(٦) ساقطة من ر

قال أبو العباس : وأنشدنا عمرو بن مرزوق ، قال : أنشدنا شعبة ، قال : أنشدنا سِماكُ بن حرْب فى هذا الحديثِ :

إنَّ شرْخَ الشبابِ تألَفُهُ الْـــبيضُ وشَيْبُ القذَالِ شىءٌ زهيد

فأما قولُ الشَّنْفَرَى :

كأنَّ لها فى الأرض نِسياً تَقُصُّهُ على أمِّها وإنْ تُحَدِّثْكَ تَبلَتِ.

فإنما أرادَ شدَّةَ استحيائها ، يقول : لا ترفعُ رأسَها ، كأنها تطلبُ شيئاً فى الأرض .

والنِّسْىُ على ضربين : أحدُهما ما تقادمَ عَهْدُهُ حتى يُنْسَى . والاخر ما أَضَلَّهُ أهلُهُ فيُطْلَبُ ويُطمَعُ فيه . وتَقصُّهُ : تَتَبعُهُ ، قالِ الله جل وعز : ﴿وقالتْ لأختِه قُصِّيهِ﴾[1] ، أى اتَّبِعِى أثَرَهُ ؛ والأمّ : القصد .

وقولُه : « وإن تُحَدِّثْكَ تَبلَتِ » ، تَقْطَعُ الحديث لاستحيائها

وأنشدَ بَشَّارُ بن بُرْدٍ الأعمى قولَ كُثَيِّرٍ :

ألَا إنما لَيْلَى عصَا خَيزُرَانَةٍ اذا غَمَزُوها بالأكفِّ تَلِينُ[2]

قال : فقال : للهِ أبو صَخْرٍ ! جعلها عصًا ، ثم يَعْتَذِرُ لها ! واللهِ لو جعلها عصًا من مُخٍّ أو زُبْدٍ لكان قد هَجَّنها بالعصَا ، ألَّا قال كما قلتُ[3] :

وبيضاءِ المحاجِرِ مِن مَعَدٍّ كأنَّ حديثَها قِطَعُ الجِنَانِ

---

(١) سورة القصص ١١

(٢) قبله :

وَقَدْ جعَل الأعداء ينتقصوننَا وتطمع فينا أَلْسَنٌ وعيون

(٣) ر : « من مخ »

هدىءٍ من الليلِ ، وبعد وَهْنٍ من الليل[1] ، أى بعدَ دخولنا فى الليل .

وأنشدَ أبو زيدٍ :

هَبَّتْ تلومُك بعد وَهْنٍ فى النَّدَى   بَسْلٌ عليكِ ملامَتى وعِتابى

والمَنْدَلُ : العُودُ ، يقال له : المَنْدَلُ والمَنْدَلِىُّ ، قال الشاعر[2] :

أَمِنْ زَينبَ ذِى النَّارُ   قُبَيْلَ الصبحِ ما تَخبُو

إذا ما خَمدَتْ يُلْقَى   عليها المَنْدَلُ الرَّطْبُ

قال أبو العباس : « ذِى » معناه « ذهْ » يقال : ذَا عبدُ الله ، وذِى أَمَةُ الله ، وذِهْ أَمَةُ الله ، وتِهْ أَمَةُ الله ، وتَا أَمةَ الله ؛ فإذا قلتَ : هذا عبد الله : فالاسمُ « ذا » و « ها » للتنبيه . وعلى هذا القول[3] : هٰذِى أَمَةُ الله [وهٰذه أَمَةُ الله][4] ، وإن شئتَ أسكنتَ فى الوصلِ فقلتَ : هٰذِهْ أَمَةُ الله ، وإذا قلت : هٰذِهِى أَمَةُ الله ، فالياء زائدةٌ ، لأن هذه الهاءَ لما كانت فى لفظِ المضمرِ شَبَّهوها به فى زيادةِ اليـاء ، نحوَ : مررتُ بهِى يا فتى ! ولا[5] يجوزُ أن تَضُمَّ الهاءَ فى « هٰذه » على قولِ مَنْ قال : مررتُ بهُو ، لأن هاءَ الإضمارِ أصلها الضَّمُّ ، تقولُ : رأيتُهو يا فتَى ، ورأيتُهُم يا فتى ! وهذه

---

(١) « من الليل » ، ساقط من ر

(٢) ينسب البيتان لعمر بن أبى ربيعة ، وهما فى ملحق ديوانه ٤٧٨

(٣) ر : « تقول »

(٤) تكملة من نسخة الأصل .

(٥) ر : « لا يجوز » بدون الواو .

أَلم تَرَ أنّى كلما جِئْتُ طارِقاً وَجَدْتُ بها طِيباً وإن لمْ تَطيَّب [(١)]

قوله : « جَنْجَاثُها وعَرَارُها » الجَنْجَاثُ : رَيْحانٌ طيبةُ الرِّيح بَرِّيَّةٌ ، من أحرارِ البَقْلِ ، قال جرير يهجو خالدَ عَيْنَيْنِ العَبْدِىَّ :

كم عَمَّةٍ لكَ يا خَليدُ وخالةٍ خُضْرٍ نَوَاجذها من الكُرَّاثِ

نَبَتَتْ بمَنْبِتِهِ فطابَ لِرِيحِهَا ونَأَتْ عن القَيْصُومِ والجَنْجَاثِ

وإنما هجاه بالكُرَّاثِ ، لأن عبدَ القيس يسكنون البَحْرَيْنِ ، والكُرَّاثُ من أطعمتهم ، والعامَّة يُسَمُّونَهُ الرَّكْلَ والرَّكَّالَ ، قال أحدُ العَبْدِيّينَ :

أَلاَ حَبَّذَا الأحْسَا وطِيبُ تُرابِها ورَكَّالها غادٍ علينا ورائحُ [(٢)]

وقولُ كُثَيِّرٍ : « وعَرَارُها » فالعَرَارُ البهارُ البَرِّىُّ ، وهو حَسَنُ الصُّفْرَةِ طيِّبُ الرِّيحِ ، قال الأعشى :

بَيضاء ضَحْوَتَها وصَفْـــراء العَشِيَّةَ كالعَرَارَه [(٣)]

وقولُه : « مَوْهِناً » يريد بعدَ هَدْءٍ من الليل [(٤)] ، يقالُ : أتانا بعد

---

(١) قبله :

خليلَىَّ مُرَّا بِى عَلَى أمِّ جُنْدَبِ لنَقْضِى لبانات الفؤاد المعذَّبِ

وانظر تفصيل الخبر فى الأغانى ١٤ : ٥٧ — طبعة الساسى ، والمرشح للمرزبانى ١٥١ — ١٥٣

(٢) الأحساء : مدينة بالبحرين .

(٣) العرار : شجر له نور أصفر قدر شبر ؟ وقبله :

يَا جَارَتِى مَا كنتِ جارَهْ بانت لِتَحْزُنَنَا عَفَارَهْ

تَرضِيكَ مِنْ دَلٍّ وَمِن حسَنٍ مخالِطُهُ غرارَهْ

وانظر ديوانه ١١١

(٤) من الليل ، ساقط من ر

قلت : « ذَيًّا » ، لالْتبَسَ المؤنَّثُ بالمُذَكرِ ، فصغَّروا ما يخالف فيه المؤنثُ المذكرَّ .

وهذه المبهمَ يخالفُ تصغيرُها تصغيرَ سائرِ الأسماء . وسنذكر ذلك في باب نُفْرِدُه له إن شاء الله .

* * *

عاد القولُ إلى التشبيه .

أنشدَتْنِي [1] أمُّ الهَيْثَمِ في صفة جَمَلٍ :

كأنَّ صوتَ نابِهِ بنابِهِ   صَرِيرُ خُطَّافٍ على كُلاَّبِهِ

أرادتِ الصريفَ ، وهو أن يَحُكَّ أحدَ نابَيْهِ بالآخرِ .

وقوله : « صريرُ خطافٍ على كَلاّبِهِ » فالخُطَّافُ ما تدُورُ عليه البَكْرَةُ ، والكُلَّابُ ما وَلِيَه .

وقد قال النابغةَ :

مقذوفةٍ بدَخِيسِ النَّحْضِ بازِلُها   له صَرِيفٌ صَرِيفَ القَعْوِ بالمَسَدِ

القعْوُ : ما تدورُ عليهِ البكْرةُ إذا كان من خَشَبٍ ، فإن كان من حديدٍ فهو خُطّاف ، وإن دارت على حبْلٍ فذلك الحبلُ يسمى الدَّرَكَ .

وقوله : « مقذوفة » يقول : مَرَمِيَّةٌ باللحم . والدَّخِيسُ : الذى قد رَكِبَ بعضُهُ بعضاً . والنَّحْضُ : اللَّحْم . وبازلُهَا : نابُها ، ومعنى بَزَلَ ، وفطَرَ ، واحدٌ ، وهو أن ينشقَّ الناب ؛ قال ذو الرُّمَّةِ :

---

(١) ر : « وأنشدتنى » .

الهاء ليستْ مِنْ هٰذِهِ ، إنما هى مشبَّهةٌ وتقولُ : هاتِهِ هندٌ ، وهاتِى هند ، وهاتا هندٌ ، على زيادة « ها » للتنبيه ، قال جريرٌ :

هٰذِى التى جدَعَتْ تَيْماً مَعَاطِسَهَا ثُمَّ اقعُدِى بعدَها يا تَيْمُ أو قُومى [1]

وقال عِمْرانُ بن حِطَّان :

وليس لعَيشِنَا هـذا مَهاهٌ وليستْ دارُنَا هاتا بِدَارِ

قال أبو العباس : النحويون يُثْبِتُون الهـاء فى الوصلِ فيقولون : مَهَاهٌ ، وتقديرُه : « فَعَالٌ » ، ومعناه اللَّمْعُ والصَّفَاء [2] ، يقال : وَجْهٌ له مَهَاهٌ يافتى ! والأصمعىُّ يقولُ : مَهاة . تقـديرُها « حَصَاة » ، يجعلُ الهاءَ زائدة ، وتقديرها فى قوله [3] « فَعَـلَة » والمَهَاةُ : البِلَّوْرَةُ ، والمَهَاةُ : البقرة الوحشيَّةُ ، وجمعُها « المَهَا » [4]

فإذا صغَّرتَ : « ذِهْ » ، قلتَ : تَيَّا ، كأنك صغَّرتَ « تَا » ، ولا تُصَغِّر « ذِهِ » على لفظِها ، لأنك إذا صغَّرتَ « ذَا » قلتَ : « ذَيَّا » ، فلو صغَّرت « ذى »

---

(١) يهجو التيم ، وقبله :

ما بين تَيْمٍ وإسْمَاعِيلَ مِنْ نسبٍ إلَّا القرابة بَيْنَ الزَّنْجِ والرومِ

إنَّ ابْنَ تَيْمٍ لَمنْسُوبٌ لوالدِهِ دَانِى القرابةِ من حامٍ وَيحمومِ

وانظر ديوانه ٤٨٩ — ٤٩٠

(٢) ر : « والبهاء »

(٣) « فى قوله » ساقط من ر

(٤) زيادات ر : « حكى يعقوب بن السكيت : « مهاة » ، من أسماء الشمس ، وأنشد :

ثُمَّ تَجْلُو الظَّلَامَ ... مهاةٍ ضياؤها مَنْشُورُ

ثم نعود إلى التشبيه .

قال الراجز[١] :

كأنّها حين بناها البَنّاسُ[٢] جِنّيّةٌ فى رأسِها أمراسُ

بها سُكونٌ وبها شِماسُ[٣] يَخْرُجُ منها الحَجَرُ الكُبَاسُ

يَمُرُّ لا يَحْبِسُهُ حَبّاسُ لا نافِذُ الطّعْنِ ولا تَرَّاسُ

يصفُ المَنْجَنِيقَ . والأمراسُ : الحِبالُ ، والواحدُ مَرَسٌ[٤] والكُبَاس : الضخم ، يقال : هامةٌ كبْساءُ يا فتى ، ورأسٌ أكبَسُ . والحبَّاسُ : الذى من شأنه أن يَحْبِسَ ، يقال : رجلٌ ضاربٌ للذى يضربُ ، كثيراً كان منه ذلك أو قليلًا ، فإذا قلتَ : ضَرَّابٌ وقَتَّالٌ ، فإنما يُكَثِّرُ الفعلَ ، ولا يكونُ للقليل .

قال الراجز :

أخْضَرُ مِن مَعْدِنِ ذى قَسَاسِ كأنه فى الحَيْدِ ذى الأضْراس

* يُرْمَى به فى البلدِ الدَّهّاس *

يصفُ مِعْولًا . وذو قُسَاسٍ : مَعدِنٌ للحديد الجيِّد ، وهو يقرُبُ من بلاد بنى أسَدٍ . والحَيْدُ : ما أشرفَ من الجبلِ أو غيرِ ذلك ، يقال للطَّنَفِ حَيْدٌ ، وهو الذى يسميه أهلُ الحَضَرِ الإفريزَ ؛ يقالُ : طَنِّفْ حائِطَك ، ويقال للناتِىء فى وسطِ الكَتِفِ : حَيْدٌ وعَيْرٌ ، وكذا الناتىء فى القَدَمِ . وقوله :

---

(١) زيادات ر : « هو أبوالنجم »

(٢) ر : « تناهى »

(٣) الشماس والشموس . شرود الدابة ونفارها .

(٤) ر : « مرسة » .

كأنَّ على أنيابها كلَّ سُدفةٍ صِياحَ البَوازِى من صَريفِ اللَّوائكِ [1]

يقولُ: مما تلوكُه. ويقال فى الغضبِ: تركتُ فلاناً يَصْرِفُ نابُه عليكَ، ويَحْرِقُ ويَحْرُقُ، ورأيتُه يَعَضُّ عليك الأُرَّم. قال زهيرٌ فى مدحِه حصْنَ بن حُذَيْفَةَ [2]:

أبَى الضَّيْمَ والنُّعمانُ يحرِق نابُهُ عليه فأَفْضَى والسُّيوفُ مَعاقِلُه [3]

وقال آخرُ:

نُبِّئْتُ أحْمَاءَ سُلَيْمَى أنَّما ظَلُّوا غِضَابًا يَعْلُكُونَ الأُرَّمَا

وقال بعضُ النحويين: يعني الشِّفاهَ، وقال بعضُهم: يعني الأصابعَ.

فأما قولُهم: «عَضَّ على ناجِذِه» وهو آخرُ الأسنانِ، فيكونُ على وجهين: أحدُهما أنه قدِ احتنَكَ وبَلَغ، والآخرُ: أن يكونَ للإطْراقِ والتَّشَدُّدِ.

ويُروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه كان يقولُ: إذا لقيتُم القومَ فاجمعُوا القلوبَ وعَضُّوا على النَّواجِذِ، فإن ذلك يُنْبِى [4] السيوفَ عن الهامِ.

* * *

(١) السدفة: بقية من سواد الليل؛ نشبه أنيابه بأصوات العزاة؛ يقال: لاك يلوك؛ إذا مضغ (من شرح ديوانه).

(٢) زيادات ر: «ابن بدر الفزارى».

(٣) أفضى: سار إلى الفضاء، وقبله:

مَنْ مِثْلُ حِصْنٍ فى الحروبِ ومِثْلُهُ لإنْكارِ ضَيْمٍ أوْ لأمرٍ يحاوِلُه

(٤) ر: «ينبى».

فإنما شبّهه بالزَّمير ، وأراد القَصَبَ الذى يُزْمَرُ به ، قال الأصمعىّ : هو الذى يقال له بالفارسية « نَاىْ » ، قال الراعى يصفُ الحادِىَ :

زجلُ الحُداء كأنَّ فى حَيْزومِهِ   قَصَباً ومُقْنِعَةَ الحنينِ عَجُولاَ

المُقْنِعُ : الرافعُ رأسَه فى هذا الموضع ، ويقال فى غيره : الذى يَحُطُّ رأسه استخذاء وندمًا ، قال الله جل وعز : ﴿ مُقْنِعِى رُءوسِهِمْ ﴾[1] . ومن قال : هو الرافعُ رأسه ، فتأويلُه عندنا أنه يتطاولُ فينظرُ ثم يُطَأطِئُ رأسه ، فهو بَعْدُ يرجعُ إلى الإغضاء والانكسارِ

* * *

والبعيرُ يَحِنُّ كأشد الحنينِ إلى أُلَّافِهِ إذا أُخذَ من القطيع ، قال : وأكثرُ ما يَحِنُّ عند العطشِ ، قال الشاعر[2] :

وتفرَّقُوا بعد الجميعِ لنِيَّة   لا بُدَّ أن يتفرَّقَ الجيرانُ

لاتصبرُ الإبلُ الجِلادُ تفرَّقَتْ   بعدَ الجميعِ ويَصْبرُ الإنسانُ

* * *

وقال آخرُ :

وهل رِيبةٌ فى أن تَحِنَّ نَجِيبةٌ   إلى إلْفها أو أن يَحِنَّ نَجِيبُ !

وإذا رَجَّعَتِ الحنينَ كان ذلك أحسنَ صوتٍ يهتاجَ له المُفارِقون ، كما يهتاجون لنَوْحِ الحمامِ ، ولالْتِياحِ البُرُوقِ

* * *

(١) سورة إبراهيم ٤٣

(٢) هو مالك بن الصمصامة الجعدى .

« ذى الأضراس » يريد الموضعَ الضَّرِسَ الخشِنَ ذا الحجارةِ ، فيقولُ : هذا المِعْوَلُ لحدَّتِهِ يَقعُ فى الخشونةِ فيَهْدِمُها كما يهدِمُ الدَّهَّاسَ ، والدَّهَّاسُ : ما لانَ من الرملِ ، قال دُرَيْدُ بنُ الصِّمَّةِ فى يوم حُنَيْنٍ : أينَ مُجْتَلَدُ القومِ ؟ فقالوا : بأَوْطاسٍ[1] ، فقال : نِعْمَ مَجَالُ الخيلِ ، لا حَزْنٌ ضَرِسٌ[2] ، ولا لَيِّنٌ دَهِسٌ !

وقال العجَّاجُ يصفُ حماراً :

كأنَّ فيــه إذا ما شَحَجا   عُودًا دُوَينَ اللَّهَوَاتِ مُولجا[3]

هذا يصف العَيْرَ[4] الوحشىَّ الذى قد أسنَّ[5] تَرَاهُ لا يشتدُّ نهيقُهُ ، وكأنه يعالجه عِلاجاً ، قال الشَّمَّاخ :

إذا رَجَّعَ التَّعشيرَ عَجًّا كأنه   بناجِذِهِ مِن خَلْفِ قَارِحِهِ شَجِى[6]

فأما قولُ عَنْتَرَة :

بَرَكَتْ على ماءِ الرِّدَاعِ كأنَّما   بَرَكَتْ على قَصَبٍ أجشَّ مُهَضَّمِ

فإنما يصفُ الناقةَ ويذكر حنينَها ، يقال : إنه يخرجُ منها كأشجَى صوت ،

---

(١) أوطاس : موضع فى ديار هوازن .

(٢) الحزن : ماغلظ من الأرض ، والضرس : الشديد الخشونة .

(٣) الشحيج : صوت البغل والحمار إذا أسن .

(٤) ر: «هذا يوصف به العير» ، وما أثبته عن الأصل س .

(٥) ر : « إذا أسن »

(٦) التعشير: نهيق الحمار

وقال ابن الرِّقاعِ — وذكرَ حمامةً :

[قال أبو الحسن الأخفش : الصحيح أنه لنصيب] :

[ومما شجانِى أننى كنتُ نائمًا أُعَلَّلُ من بَرْدِ الكَرَى بالتَّنسُّمِ
إلى أن بكَتْ ورقاءُ فى غُصنِ أيكةٍ تُرَدِّدُ مَبْكاها بحُسْنِ الترنُّمِ] [1]
فلو قَبلَ مَبْكاها بكيتُ صَبابَةً بليلى [2] شَفَيْتُ النفسَ قبلَ التَّندُّمِ
ولكنْ بكتْ قبلِى فهاجَ لِىَ البُكا بُكاها فقلتُ الفَضْلُ للمتقدِّمِ

أما قولُ حميدٍ « دَعَتْ ساقَ حُرٍّ » فإنما حَكَى صوتَها ، ويقال للواحدِ ذكراً كان أو أنثى : حمامةٌ والجمعُ الحمامُ ، والحماماتُ ، فإذا كان ذكراً قلتَ هذا حمامةٌ ، وإذا كانت أُنثى قلتَ هذه حمامةٌ . وكذلك هذا بَطَّةٌ وهذه بَطَّةٌ . ويقال بقرةٌ للذكر والأنثى ، ودجاجةٌ لهما ، فإذا قلتَ : ثورٌ ، أو ديكٌ بَيَّنْتَ الذَّكَرَ ، واستغنيتَ عن تقديم التذكير .

ويقال للحمامة : تغنَّتْ وناحتْ ، وذلك أنه صوتٌ حسنٌ غيرُ مفهومٍ ، فيُشَبَّهُ مرةً بهذا ومرةً بهذا ، قال قيسُ بن مُعاذٍ :

ولو لم يَشُقْنِى الظاعنونَ لَشاقَنِى حمامٌ وُرْقٌ فى الديارِ وُقوعُ
تَجاوَبْنَ فاستبْكَيْنَ من كانَ ذا هَوًى نَوائحَ ما تَجرِى لهنَّ دموعُ

وقوله : « وانجالَ الربيعُ » يقال : « انجالَ عنَّا » ، أى أقلعَ ، ومثلُ ذلك « أنجمَ عنَّا » . وإن قلتَ : « أنجمَ » ، فمعناه لَزِمَ ووقع ، فهو خلافُ « أنجمَ » .

(١) ما بين العلامتين من زيادات ر .
(٢) ر : « بسعدى » ، وما أثبته عن الأصل

وقال عَوْفُ(١) بن مُحلِمٍ وسمع نَوْحَ حمامةٍ :

أَلاَ يا حَمامَ الأَيْكِ إِلْفُكَ حاضِرٌ   وغُصْنُكَ مَيَّادٌ فَفِيمَ تَنُوحُ(٢)

أَفِقْ لا تَنُحْ مِن غيرِ شيء فإنني   بكيتُ زماناً والفؤادُ صحيح

وَلُوعًا فَشَطَّتْ غُرْبَةً دارُ زينبٍ   فها أنا أَبْكِي والفؤادُ قَرِيحٌ !

وكلُّ مُطَوَّقةٍ عندالعربِ حمامةٌ ، كالدُّبْسِيِّ والقُمْرِيِّ والوَرَشَانِ، وما أشبه ذلك ؛ قال حُمَيْد بن ثورٍ :

وما هاجَ هذا الشَّوْقَ إلا حمامةٌ   دَعَتْ سَاقَ حُرٍّ تَرْحَةً وتَرَنُّمَا(٣)

إذا شئتُ غَنَّتْنِي بأَجزاعِ بِيشَةٍ   أو النَّخْلِ من تَثْلِيثَ أو بيَلَمْلَمَا

مُطَوَّقةٌ خَطْباءُ تَسْجَعُ كلَّما(٤)   دَنَا الصيفُ وانجالَ الربيعُ فأَنجَمَا

مُحلَّاةُ طَوْقٍ لم يَكُن من تميمةٍ   ولا ضَرْبِ صَوَّاغٍ بكفَّيْهِ دِرْهَمَا

تَغَنَّتْ على غُصْنٍ عِشاءً فلم تَدَعْ   لنائحةٍ في شَجْوِها مُتَلَوَّمَا

إذا حَرَّكَتْهُ الرِّيحُ أو مال مَيْلَةً   تغنَّتْ عليـــه مائِلًا ومُقَوَّمَا

عجبتُ لها أَنَّى يكونُ غناؤُها   فَصِيحاً ولم تَفْغَرْ بمَنطِقِها فَمَا !

فلم أَرَ مثلِي شاقَهُ صوتُ مثلِها   ولا عَرَبِيًّا شاقَهُ صوتُ أعجَمَا

---

(١) قال المرصفي : الشعر لأبي كبير الهذلي ، لا لعوف ؛ وإنما ذكر لعبد الله بن طاهر العندليب ، فالتفت إلى ابن محلم وقال : هل سمعت بأشجى من هذا ؟ فقال : لا والله ؛ قاتل الله أبا كبير حيث يقول . وذكر الأبيات .

(٢) ر : « ميال » ، وما أثبته عن الأصل ، س .

(٣) من قصيدة طويلة في ديوانه ١ — ٣٠ ؛ مطلعها .

سَلِ الرَّبْعَ أَنَّى يَمَّمَتْ أُمُّ سالمٍ   وَهَلْ عَادَةٌ للرَّبْعِ أن يتكلَّما !

وترحة : حزنا ، وترنما : صوتا لا يفهم .

(٤) الديوان . « تصدح » .

سمعتُ بها غِناءً كان أولَى ... بأن يَقتادَ نفسِى من غِنَاهَا

— الغِناء الأولُ الممدودَ من الصوت ، والذى ذكره بعدُ فى القافية من المالِ مقصورٌ —

ومُسْمِعَةٍ يَحَارُ السَّمْعُ فيها ... ولا تَصْمِمْه لا يَصْمَمْ صَدَاها[1]

مَرتْ أوتارَها فشَفَتْ وشَاقَتْ ... فلو يَسْطِيعُ حاسِدُها فَدَاها

ولم أفهم معانِيهَا ولكِنْ ... وَرَتْ كَبِدِى فلم أجْهَلْ شَجَاهَا

فكنتُ كأنَّنِى أعمَى مُعَنًّى ... بحُبِّ الغَانِياتِ وما يَرَاها

[وقال عَبْدُ بنى الحَسْحاسِ :

وَرَاهُنَّ رَبِّى مثلَ ما قد وَرَيْنَنِى ... وأحْمَى على أكبادِهنَّ المكاوِيا][2]

قال أبو العباس : والشىء يُذْكر بالشىء وإن كان دونَه ، فنَجْرِى لاحتواء البابِ والمعنَى عليهما .

وفى شعرِ حُمَيْدٍ هذا ما هو أحْكم مما ذكرنا وأوعظ ، وأَحْرَى أن يُتمثَّل به الأشرافُ ، وتُسَوَّدَ به الصُّحُفُ ، وهو قولُه :

أرَى بَصرِى قد رَابنى بعدَ صِحَّةٍ ... وحَسْبُكَ داءً أن تَصِحَّ وتَسْلَمَا

ولا يَلْبثُ العَصْرَانِ يومٌ وليلةٌ ... إذا طَلَبَا أن يُدْرِكَا ما تَيمَّمَا

---

(١) قال المرصفى : يدعو لها بطول العمر ، والعرب تقول . أصم الله صداه ، تريد أهلكه ، وإذا ماتت قالت . صم صداه ، والصدى : ماتسمعه عقيب صياحك راجعا إليك من جبل أو مكان مرتفع .

(٢) ما بين العلامتين من زيادات ر

وإن قلتَ : « انجَابَ » فمعناه انشقَّ ، يقال : « المِجْوَبُ » للحديدة التى يُثقَبُ بها الصيفُ ، ويقال : « جُبْتُ البلادَ » أى دخلتها وطوَّفتُها . وفى القرآن : ﴿ وثمودَ الذينَ جابوا الصَّخْرَ بالوَادِ ﴾(١) أى شقُّوهُ .

وقوله : « لم يَكُن من تَميمةٍ » « التَّميمةُ » المعاذةُ ، وقد مضى هذا .

وقوله : « ولم تَفْغَرْ بمنطقِها فمَا » ، يقولُ : لم تَفتَحْ ، يقال : « فَغَرفاه » ، إذا فتحه(٢)

وقوله :

* ولا عَرَبِيًّا شاقَهُ صوتُ أعجَمَا *

يقولُ : لم أفهم ما قالتْ ، ولكنى استحسنتُ صوتَها واستَحْزَنته ، فحَنَنتُ له .

ويُرْوَى أنَّ بعضَ الصالحين كان يسمعُ الفارسيَّةَ تَنوحُ ولا يدرِى ما تقولُ ، فيُبكيه ذلك ويُرَقِّقه ، ويَذكُرُ به غيرَ ما قَصَدَتْ له .

***

قال أبو العباس : وحُدِّثتُ أن بعض المحْدَثين(٣) سمع غِناء بخُراسان بالفارسيَّة فلم يَدْرِ ما هو ، غيرَ أنه شوَّقَهُ لشَجاهُ وحُسْنِه ، فقال فى ذلك :

حَمِدْتُكِ ليلةً شَرُفَتْ وطابَتْ   أقام سُهادُها ومَضَى كَرَاهَا

---

(١) سورة الفجر ٩

(٢) زيادات ر : « حكى ثعلب : « فغرفاه » ، و « فغر فمه » ؛ وكذلك شحى فاه ، وشحى فمه » .

(٣) هو أبو تمام

ومن عجيب التشبيه فى إفراطٍ ، غيرَ أنه خَرَجَ فى كلامٍ جيّدٍ وعُنِىَ به رجلٌ جليلٌ ، فَخَرَجَ من باب الاحتمال إلى باب الاستحسانِ ، ثم جُعِلَ لجَوْدةِ ألفاظِه ، وحسنِ رَصْفِهِ ، واستواء نظمِه ، فى غاية ما يُسْتَحْسَنُ ـ قولُ النابغة يعنى حِصْن بن حُذَيْفَة بن بَدْرِ بن عمرٍو الفَزَارىّ :

يقولون حِصْنٌ ثم تأبى نفوسُهمْ وكيفَ بحصْنٍ والجبالُ جُنُوحُ [1]

ولم تَلْفِظِ الموْتى القُبورُ ولم تزُلْ نجومُ السماء والأدِيمُ صحيحُ

فعمَّا قليـــــلٍ ثمَّ جاء نعيُّهُ فظَلَّ نَدِىُّ الحىِّ وهْو يَنُوحُ

* * *

ومن تشبيهم المتجاوز الجيِّدِ النَّظْم ما قد [2] ذكرناه ، وهو قولُ أبى الطَّمَحَانِ القَيْنِى :

أضاءتْ لهم أحسابُهم ووُجُوهُهُمْ دُجَى الليل حتى نَظَّمَ الجزْع ثاقبُهْ [3]

* * *

ويروى عن الأصمعى أنه رأى رجلًا يختالُ فى أُزَيْرٍ [4] فى يوم قُرٍّ فى مِشْيَتِه ، فقال له : ممن أنتَ يا مَقْرُورُ ؟ فقال : أنا ابنُ الوَحيدِ ، أمشى الخيزَلَى [5] ، ويُدْفِئنى حَسَبى .

---

(١) جنوح : مصدر جنح إليه ، إذا مال وسكن .

(٢) ساقطة من ر

(٣) الجزع : ضرب من الخرز ؛ وقيل : هو الخرز اليماني ؛ الذى فيه بياض وسواد ؛ تشبه به الأعين .

(٤) الأزير ، تصغير إزار ؛ قال المرصفى : يريد أنه يختال فى إزار قصير .

(٥) الخيزلى : مشية فيها تبختر وتثاقل وتراجع وتفكك .

ويُروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كَفَى بالسَّلامَةِ داءً » .

* * *

ثم نرجعُ إلى التشبيه .

قال أبو العباس : والعربُ تُشَبِّهُ على أربعةِ أضرُب : فتشبيهٌ مُفْرِطٌ ، وتشبيهٌ مُصِيبٌ ، وتشبيهٌ مُقَارِبٌ ، وتشبيهٌ بعيدٌ يحتاجُ إلى التفسير ولا يقوم بنفسه ، وهو أخشنُ الكلام .

فمن التشبيه المفرطِ المتجاوِز قولهم للسَّخىّ : هو كالبَحْرِ ، وللشجاع : هو كالأسدِ ، وللشريفِ : سَما حتى بَلَغَ النجم ، ثم زادُوا فوقَ ذلك ، فمن ذاك قولُ بعضهم — وهو بَكْرُ بنُ النَّطّاحِ ، يقوله لأبى دُلَفَ القاسمِ ابن عيسى :

له هِمَمٌ لا مُنْتَهى لكِبارِها وهِمَّتُهُ الصُّغْرَى أجَلُّ من الدَّهْرِ

له راحةٌ لو أنَّ مِعْشارَ جودِها على البَرِّ صارَ البَرُّ أنْدَى من البحر

ولو أنَّ خَلْقَ الله فى مَسْكِ فارسٍ[1] وبارَزَهُ كان الخَلِيَّ من العُمْرِ

وقد قيل : أن امرأةَ عِمْرانَ بن حِطّانَ قالت له : أما زعمتَ أنك لم تكذب فى شعرٍ قَطُّ ! قال : أوَفعَلْتُ ؟ قالت : أنت القائلُ :

فهُناك مَجزأةُ بن ثو رٍ كان أشْجَعَ من أُسامَهْ

أفيكونُ رجلٌ أشجعَ من الأسدِ ! قال : فقال : أنا رأيتُ مجزأةَ بن ثور فتح مَدِينة ، والأسدَ لا يفتحُ مدينة

* * *

(١) المسك : الجلد

وذاك أن المنهوشَ إذا ألحَّ الوجعَ به تارة ، وأمْسَكَ عنه تارة ، فقد قارب أن يؤيَسَ من بُرْئِه .

وإنما ذكَرَ خوفَه من النعمانِ وما يَعْترِيه من لَوْعَةٍ فى إثرِ لوعةٍ ، والفَتْرَة بينهما ، والخائفُ لا ينـامُ إلّا غِرَارًا ، فلذلك شبَّهه بالملْدوغ المُسَهَّدِ .

وقوله :

* لِحَلْىِ النساء فى يديه قَعَاقِعُ *

لأنهم كانوا يعلِّقون حُلِيَّ النساء على الملدوغ ، يزعمون أن ذلك من أسبابِ البُرْء . لأنه يسمعُ تَقَعْقُعَهَا فيمنعُه النومَ فلا ينامُ ، فيدِبُّ السّمّ فيـه ، ويُسَهَّدُ لذلك .

* * *

وقال الآخرُ :

كأنَّ فجاجَ الأرض وهى عريضةٌ   على الخائفِ المطلوب كِفَّةُ حابِلِ
يُؤَتَّى إليـــه أنَّ كلَّ ثنيَّةٍ   تيَمَّمها ترْمى إليـــه بقاتِلِ[1]

يقال لكل مستطيل كُفَّةٌ ، يقال كُفَّةَ الثوبِ لحاشيته ، وكُفَّة الحابلِ ، إذا كانت مستطيلةً . ويقال لكل شىء مستديرٍ كِفَّةٌ ، ويقال :

(١) يؤتى إليه ، أى يجىء إليه فى وهمه .

وقيل لآخرَ فى هذه الحالِ : أَمَا يُوجِعُكَ البَرْدُ ؟ فقال : بَلى و الله ، ولكنى أذكرُ حَسَبِى فأَدفَأُ .

وأصوبُ منهما قولُ العُرْيانِ الذى سُئِلَ فى يوم قُرٍّ عمَّا يَجدُ ، فقال : ما علىَّ منه كبيرُ مؤونةٍ ، فقيل[1] : وكيف ذلك[2] ؟ فقال : دَامَ بى العُرْىُ ، فاعتَادَ بَدَنِى ما تعتادُه وجوهُكم !

* * *

ومن التشبيهِ القاصد[3] الصحيح قولُ النابغةِ :

وَعِيدُ أبى قابُوسَ فى غير كُنْهِهِ أتانى ودُونى رَاكِسٌ فالضَّواجِعُ[4]

فبِتُّ كأنى سَاوَرَتْنى ضَئِيلةٌ من الرُّقْشِ فى أنيابها السُّمُّ ناقِعُ[5]

يُسَهَّدُ من نوم العِشاءِ سَلِيمُها لحَلْى النساءِ فى يَدَيْهِ قعاقِعُ

تَنَاذَرَها الرَّاقُونَ من سُوءِ سُمِّها تُطَلِّقُه طَوْراً وطَوْراً تُرَاجِعُ[6]

فهذه صفةُ الخائف المهموم . ومثلُ ذلك قول الآخَر[7] :

تَبِيتُ الهمومُ الطارقاتُ يَعُدْنَنِى كما تعتَرِى الأوْصابُ رأسَ المطَلَّقِ

والمُطَلَّقُ هو الذى ذكره النابغة فى قوله :

* تُطَلِّقُهُ طوراً وطوراً تُرَاجِعُ *

---

(١) ر : « وقيل » . (٢) ساقطة من ر .

(٣) القاصد : المستقيم الواضح القريب .

(٤) راكس والضواجع : موضعان فى بلاد غطفان .

(٥) من المساورة ؛ وهى المواثبة . والضئيلة : الحية الدقيقة ، والرقش : جمع رقشاء ؛ وهى الحية التى فيها نقط سود وبيض .

(٦) تناذرها الراقون ، أى أنذر بعضهم بعضا ألا يتعرض لها .

(٧) هو شأس بن نهار العبدى

من التشبيه المستحسَن عندَهم ، وعن أصلٍ أخَذوه ـ أن يشبهوا[1] عين المرأة والرجل بعين الظبية[2] أو البقرةِ الوحشيَّةِ ، والأنفَ بحدِّ السيفِ ، والفمَ بالخاتمِ ، والشعرَ بالعَناقيد ، والعُنقَ بإبريق فضةٍ ، والساقَ بالجُمَّار[3] . فهذا كلامٌ جارٍ على الألسُنِ .

وقد قال سُرَاقة بن مالك بن جُعْشُم : فرأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وساقاهُ باديتان فى غَرْزِه كأنهما جُمَّارتان ، فأَرَدْتُه فوقفتُ فى مِقْنَب[4] مِن خَيْل الأنصار ، فقرَّعُونى بالرِّماح ، وقالوا : أين تريدُ ؟

وقال كعبُ بن مالكِ الأنصارىُّ : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرَّ تَبَلَّجَ وجْهُهُ فصارَ كأنه البَدْرُ .

وعينُ الإنسان مشبَّهةٌ بعين الظبى والبقرةِ فى كلامهم المنثور ، وشعرِهم المنظومِ ، مِنْ جارِى ما تكلمتْ به العربُ ، وكَثُرَ فى أشعارها ، قال الشاعر[5] :

فعَيْنَاكِ عَيْناها وجِيدُكِ جيدُها ولكنَّ عظمَ الساقِ منكِ رقيق[6]

---

(١) ر : «أن شبهوا» ، وما أثبته عن الأصل ، س .

(٢) ر : «الظبى»

(٣) الجمارة : شحمة بيضاء فى رأس النخلة وفى س «الجمار» .

(٤) المقنب : جماعة الخيل والفرسان .

(٥) هو مجنون بنى عامر ، وقبله :

وَيَا شِبْهَ لَيْلَى لوْ تَلَبَّثْت ساعةً لعلَّ فؤادِى مِنْ جواه يفيقُ

(٦) ر : «دقيق» ، وما أثبته عن الأصل ، س .

ضَعْهُ فى كِفَّةِ الميزن ، فهذه جملة هذا وكِفَّةُ الحابل ، يعنى صاحبَ الحبالة التى يَنْصِبُها للصَّيد .

* * *

وأما التشبيهُ البعيدُ الذى لا يقومُ بنفسه ، فكقوله :

بل لو رَأَتْنى أُختُ جيراننا   إذْ أنا فى الدار كأَنِّى حمارْ

فإنما أراد الصحة ، فهذا بعيدٌ ، لأن السامعَ إنما يستدلُّ عليه بغيره . وقال الله جل وعز — وهذ البَيِّنُ الواضحُ : ﴿ كَمَثَلِ الحمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً ﴾[1] . والسِّفْرُ الكتابُ ، وقال : ﴿ مثلُ الذينَ حُمِّلوا التَّوْرَاةَ ثمَّ لم يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ ﴾[2] فى أنهم قد تعامَوْا عنها ، وأَضْرَبُوا عن حدودها وأمْرِها ونهيها ، حتى صاروا كالحمار الذى يَحْمِلُ الكتب ولا يعلمُ ما فيها .

وهَجَا مروان بن سليمانَ بن يَحْيى بن أبى حَفْصةَ قوماً من رواةِ الشِّعرِ ، بأنهم لا يعلمون ما هو ، على كثرةِ استكثارِهم روايتَه ، فقال :

زَوامِلُ للأشعار لا عِلْمَ عندَهمْ   بجيِّدِها إلَّا كعِلْمِ الأباعِرِ[2]
لَعَمْرُكَ ما يدْرِى البَعِيرُ إذا غَدَا   بأوساقِهِ أو رَاحَ ما فى الغَرائِرِ

* * *

والتشبيهُ كما ذكرنا مِن أكثر كلام الناس . وقد وَقع على أَلْسُنِ الناس

---

(١) سورة الجمعة ٥

(٢) الزوامل : جمع زاملة ، وهى البعير يحمل المتاع والطعام . والغرائر : جمع الغرارة ؛ وهى الأوعية التى تسمى بالجوالق .

قال أبو العباس : ومِن أكثرهم تشبيهاً ، لاتّساعِه فى القولِ ، وكثرة تقلبه[١] ، واتّساعِ مذهبه[٢] الحسنُ بن هانئ ، قال فى مديحه الفَضْلَ بن يحيى ابن خالد بن بَرْمَك :

وكنّا إذا ما الحائنُ الجِدِّ غرَّه ... سَنَا بَرْقِ غاوٍ أو ضَجِيجُ رعادِ

تردّى له الفضلُ بنُ يحيى بن خالدٍ ... بماضِى الظُّبا أزهاهُ طُولُ نجادِ

أمامَ خميسٍ أرجُوانٍ كأنه ... قميصٌ مَحُوكٌ من قناً وجيادِ

فما هو إلّا الدَّهرُ يأتى بصَرْفِهِ ... على كل منْ يَشْقَى به ويُعَادِى

قوله : « الحائنُ الجدِّ » يقال : حانَ الرجلُ ، إذا دنا موته . ويقال : رجلٌ حائنٌ ، والمصدرُ الحَيْنُ . والجدُّ : الحظُّ ، والجَدُ والجَدّةُ ، مفتوحان ، فإذا أردتَ المصدرَ من جَدَدْتُ فى الأمرِ ، قلتَ : « أجِدُّ جِدًّا » مكسورَ الجيم ، ويقال : جَدَدْتُ النخلَ أجُدُّهُ جدًا [وجَدَاداً][٣] إذا صَرَمْتَهُ . ويقال : جَذَذْتُهُ جَذًّا ، وتركتُ الشىء جُذاذاً ، إذا قطعْتَه قِطعاً . ويُرْوَى هذا البيتُ لجريرٍ على وجهين :

آلُ المهلّبِ جَذَّ اللهُ دابرَهمْ ... أضحَوْا رَماداً فلا أصْلٌ ولا طَرَفُ

ويروى « جَدَّ » . وقرأ بعضُ القُرّاء : ﴿ عَطاءً غَيْرَ مَجْدودٍ ﴾[٤]

---

(١) كذا فى س والأصل ، وفى ر : « تفننه » .

(٢) ر : « مذاهبه » .

(٣) تكملة من س .

(٤) سورة هود ١٠٨ .

[وقال ذو الرُّمَّةِ :

أَرَى فيكِ مِن خَرْقاء يا ظَبْيَةَ اللِّوَى   مَشابهَ جُنِّبْتِ اعتِلاقَ الحبائلِ

فعيناكِ عيناها وجيدُكِ جيدها   ولونُكِ ، إلَّا أنها غيرُ عاطلِ][1]

وقال آخر[2] :

فلم تَرَ عيني مثلَ سِرْبٍ رأيتُهُ   خَرَجْنَ علينا من زقاق ابن واقفِ

طَلَعْنَ بأعناق الظِّباء، وأعيُنِ الـ   ـجآذرِ وامتدَّتْ بهنَّ الرَّوادِفُ[3]

ويقالُ للخطيب : كأنَّ لِسانه مِبْرَدٌ . فهذا الجارى فى الكلام ، كما يقال للطويل : كأنه رُمْح ، ويقال لِلْمُهتزِّ للكرَم : كأنه غصنٌ تحت بارحٍ .

ومن عجيب[4] التشبيه قولُ القائلِ :

لعَينُك يومَ البَيْنِ أَسْرَعُ واكفاً   من الفَنَنِ المَمْطُورِ وهْوَ مَرُوحُ[5]

وذلك أن الغُصْنَ يقعُ المطرُ فى وَرَقِهِ فيصير منها فى مِثْلِ المداهِنِ ، فإذا هَبَّتْ به الريحُ لم تُلَبِّثْهُ أنْ تقطُرَهُ .

[طرائف من تشبيهات المحدثين]

ثم نذكرُ بعدَ هذا طرائفَ من تشبيه المُحْدثين ، ومَلاَحاتِهم ، التى شرطناه فى أول الباب ، إن شاء الله .

---

(١) مابين العلامتين من زيادات ر .

(٢) ر : « الآخر » ، ونسبه المرصفى إلى هدبة بن خشرم العذرى .

(٣) فى البيت إقواء .   (٤) ر : « من مليح » .

(٥) نسبه القالى فى أماليه (١ : ٧٠) ، إلى أبي حية النميرى ورواه : « لعيناك » . والفنن : الغصن ، وجمعه أفنان .

[القَرَابَةُ والمَوَادة فى المعنى واحدٌ ، قال أبو الحسن : « السُّماة » هم الصَّادَةُ نصفَ النهارِ ، وَرُوِىَ عن بعض أصحابنا ، عن المازنىِّ قال : إنَّما سُمِّى « سامِياً » بالمِسماة ، وهو خُفٌّ يَلْبَسُهُ لئلاَّ يَسمعَ الوحشُ وَطْأَه ، وهو عندى مِن « سَمَا للصيد »] .

* * *

يُنْشَدُ هذا البيت :

أَبَى حُبُّ سُلَيْمَى أن يَبيدَا ... وَأَصْبَحَ حبْلُها خلَقاً جَديدَا

يقولُ : أصبحَ خلَقاً مَقْطوعاً ، لأن « جديداً » فى معنى « مَجْدودٍ » أى مقطوع ، كما تقولُ : « قتيلٌ ومقتولٌ » و « جَريحٌ ومَجْرُوحٌ » .

ويقال فى غير هذا المعنى : رجلٌ مَجْدودٌ ، إذا كان ذَا خَطَرٍ وحَظٍّ[1] ، وفى الدعاء « ولا يَنْفَعُ ذَا الجد منك الجدُّ » ، أى مَنْ كان له حظٌّ فى دنياه لم يَدْفَعْ ذلك عنه ما يريد اللهُ به . ولو قال قائلٌ : ولا ينفعُ ذا الجِدِّ منكَ الجِدُّ — يريدُ الاجتهاد — لكان وجهاً .

وقوله : « سَنَا بَرْقٍ غاوٍ » والسَّنَا ، من الضِّياء مقصورٌ ، قال الله جل وعز : ﴿ يَكاد سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَار ﴾[2] ، والسَّناء ، من المجدِ ممدودٌ . وقال الشاعرُ :

---

(١) ر : « أى حظ » .
(٢) سورة النور ٤٣

فأما قوله : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جذاذًا ﴾(١) فلم يُقرأْ بغيره . ويقالُ : كم جِذاذُ نخلك ، أى كم تصرَّم منها . ويروى فى قول الله جل وعز : ﴿ وَأَنَّه تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا ﴾(٢) عن أنس بن مالك : « غنى ربّنا » . وقرأ سعيدُ ابن جبيرٍ : « جَدًّا ربُّنا » . [ولو قرأ قارئ « جِدًّا ربُّنا » على معنى : جدَّ ربُّنا لم يُقرأْ به لتغيُّرِ الخطِّ ، وكذا قراءةَ سعيدٍ مخالفَ الخط](٣) .

وهذا الشعر يُنْشَدُ بالكسر :

أَجِدَّكَ لم تَغْتَمِضْ ليلةً فترْقُدَها مَعَ رُقَّادِهَا

ومثلُه(٤) :

أَجِدَّكَ لم تَسمعْ وَصَاةَ محمدٍ رسول الإلهِ حين أوْصَى وأَشْهَدَا

لأن معناه أَجِدًّا منك ، على التوقيف ، وتقديرُه فى النصبِ : « أتجِدُّ جِدًّا » ، ويقال : امرأةٌ جَدَّاء ، إذا كانت لا ثَدْىَ لها ، فكأنه قُطِعَ منها ، لأنَّ أصلَ الجدِّ القطعُ ، ويقال : بلدةٌ جدَّاء ، إذا لم تكن بها مياهٌ ، قال الشاعرُ :

وجَدَّاء ما يُرْجَى بها ذو هَوَادةٍ لِعُرْفٍ وَلاَ يَخْشَى السُّماةَ رَبِيبُها

* * *

(١) سورة الأنبياء ٥٨ .
(٢) سورة الجن ٣ .
(٣) ما بين العلامتين زيادة من ر .
(٤) زيادات ر : « قول الأعشى » ، والبيت فى ديوانه ١٠٣ ، وروايته : « نبى الإله » .
(٥) البيت فى الكتاب ١ : ٢٩٤ ، ٢ : ١٤٤ ، ونسبة إلى العنبرى ، وروايته .
وَجَدَّاءَ مَا يُرْجَى بها ذو قرابَةٍ لِعطفٍ وما يَخْشَى السماةَ ربيبها
ونسبه إلى العنبرى

وقال الآخر :

لَمَّا الْتقى الصَّفَّانِ وَاختَلَفَ القَنَا ... نِهَالاً وأسْبابُ المَنَايا نِهَالُها

تَبَيَّنَ لى أنَّ القَمَاءَةَ ذِلَّةٌ ... وأنَّ أشِدَّاءَ الرجالِ طُوَالُها

وقولُهُ : « أَمَامَ خَمِيسٍ » ، الخميسُ هاهنا : الجيشُ ، وكذلك قال رَبِيئةُ أهلِ خَيْبَرَ ، لَمَّا أطَلَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عليهم : محمدٌ والخميسُ ، أى والجيشُ . وقال الشاعرُ ، وهو طَرَفَةُ :

وأىَّ خَمِيسٍ لا أَفَأْنَا نِهَابَهُ ... وأسيافُنا يَقْطُرْنَ من كَبْشِهِ دَمَا

أَفَأْنَا : رَدَدْنَا ، يقال : أفاءَ يُفِيءُ إذا رَدَّ . والأُرْجُوَان : الأحمرُ[1] ، قال الشاعرُ :

عَشِيَّةَ غادَرَتْ خَيْلِي حُمَيْدًا ... كأنَّ عليه حُلَّةَ أُرْجُوَانِ

والجيادُ : الخيلُ ، وفى القرآن : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بالعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الجِيادُ ﴾[2]

* * *

ومن تشبيهه[3] الجيِّدِ فى هذا الشعر الذى ذكرنا قوله :

تَرَى الناسَ أفواجًا إلى باب دارِه ... كأنهمُ رِجْلاَ دَبًا وجَرَادِ[4]

---

(١) الأرجوان : صبغ أحمر شديد الحمرة .

(٢) سورة ص ٣١ (٣) أى الحسن بن هانئ

(٤) الدبا ، مقصور : الجراد قبل أن يطير

وهم قومٌ كرامُ الحيِّ طُرًّا   لهم خَوَلٌ إذا ذُكِرَ السَّناءُ

وضرب به الحسنَ(١) هاهنا مَثَلًا . وجَمعَ الرَّعْدَ فقال : رِعادٌ ، كقولك : كَلْبٌ وكِلَابٌ ، وكَعْبٌ وكِعابٌ .

وقوله : « بمَاضِي الظُّبَى » ، ظُبةُ كلِّ شيءٍ حَدُّهُ ، يقال : وخَزَهُ بظُبَةِ السيفِ ، يرادُ بذلك حَدُّ طَرَفِهِ .

وقوله : « أزهاهُ طولُ نِجادِ » ، النِّجادُ : حَمائلُ السيف ، وأزهاه : رفعَه وأعْلاهُ ، والرجلُ يُمْدَحُ بالطُّولِ ، فلذلك يُذْكَر طولُ حمائله ، قال مَرْوانُ بن أبي حَفْصةَ يمدحُ المَهْدِيَّ :

قَصُرَتْ حمائلُهُ عليه فقَلَصَتْ   ولقد تأنَّقَ قَيْنُها فأطالَها

* * *

وقال الحسنُ بن هانئٍ يمدحُ محمداً الأمينَ :

سَبْطُ البَنانِ إذا احْتَبَى بنِجَادِهِ   غَمَرَ الجماجمَ والسِّماطُ قِيامُ(٢)

* * *

وقال جريرٌ للفرزدقِ :

تَعالَوْا ففاتُونا ففي الحُكْمِ مَقْنَعٌ   إلى الغُرِّ من أهْلِ البطاحِ الأكارِمِ

فإنِّي لأرضَى عَبْدَ شمسٍ وما قضَتْ   وأرضَى الطِّوالَ البيضَ من آلِ هاشمِ

* * *

(١) يريد الحسن بن هانئ .

(٢) غمر الجماجم ، أي فرع القوم وعلاهم بطول قامته .

قال : وحُدِّثتُ أن العُمانِيَّ[1] الراجزَ أنشد الرشيدَ فى صفةِ فرسٍ :

كأنَّ أذْنَيْهِ إذا تَشَوَّفَا   قادمةً أو قَلَماً مُحَرَّفَا[2]

فعلِمَ القومُ كلُّهم أنه قد لَحَنَ ، ولم يهتدِ منهم أحدٌ لإصلاح البيتِ إلا الرشيدُ ، فإنه قال له : قُلْ : « تخالُ أُذْنَيْه إذا تَشَوَّفَا » . والراجزُ وإن كان لَحَنَ فقد أحسنَ التشبيه .

* * *

ويُروى أن جريراً دخلَ إلى الوليدِ وابنُ الرِّقاعِ[3] العاملىُّ عنده يُنشِدُهُ القصيدةَ التى يقولُ فيها :

غَلَبَ المَسامِيحَ الوليدُ سَماحَةً   وكَفَى قُرَيْشَ المُعْضِلاتِ وَسادَها

قال جرير : فحسدته على أبياتٍ منها ، حتى أنشد فى صفة الظَّبيةِ :

* تُزْجِى أَغَنَّ كَأَنَّ إبْرَةَ رَوْقِهِ *

قال : فقلتُ فى نفسى : وَقَعَ واللهِ ، ما يَقْدِرُ أن يقول أو يُشَبِّهَ به . قال : فقال :

* قَلَمٌ أصابَ مِنَ الدَّواةِ مِدادَهَا *

قال : فما قَدَرْتُ حَسَدًا له أن أُقيمَ حتى انصرفتُ

* * *

(١) العمانى ، هو محمد بن ذؤيب بن محجن البصرى .

(٢) قادمة ، واحدة القوادم ؛ وهو أربع ريشات فى مقدم الجناح ، واللواتي بعدهن المناكب إلى أسفل الجناح .

(٣) هو الوليد بن عبد الملك . وابن الرقاع هو عدى .

فيومٌ لإلحاقِ الفقيرِ بذى الغِنَى ويومُ رِقاب بُوكِرَتْ لِحَصَادِ

* * *

ومن التشبيهِ الجيدِ قوله[1]:

فكأنى بما أُزَيِّنَ منها قَعَدِيٌّ يِزَيِّن التَّحْكيما

وكان سبب هذا الشعرِ أن الخليفة تَشَدَّدَ عليه فى شربِ الخمر ، وحبَسه من أجل ذلك حبساً طويلًا ، فقال :

أيُّها الرائحانِ باللَّوْمِ لُومَا لا أذوقُ المُدامَ إلاّ شميما

نالَنِي بالمَلاَم فيها إمامٌ لا أرَى لى خِلاَفَهُ مُستقيما

فاصْرِفَاها إلى سِوَايَ فإنّى لستُ إلاَّ على الحديث نَدِيمَا

كُبْرَ حَظِّى منها إذا هى دارَتْ أنْ أراها وأن أشمَّ النَّسيما

فكأنى بما أُزَيِّنُ منها قَعَدِيٌّ يُزَيِّنُ التَّحكيما[2]

لَمْ يُطِقْ حَمْلَهُ السِّلاحَ إلى الحرْ بِ فَأَوْصَى المطيقَ ألاَّ يُقيما

فهذا المعنى لم يسبقه إليه أحد .

* * *

(١) زيادات ر : « أى الحسن بن هانىء » .

(٢) القعدي : من يرى رأى القعد؛ وهم الخوارج الذين يرون القعود والتحكيم ولايخرجون إلى القتال .

وله أيضاً :

سَأَرْحَلُ من قُودِ المَهَارَى شِمِلَّةً مُسَخَّرَةً مَا تَسْتَحِثُّ بِحَادِى [١]

مع الرِّيحِ ما راحت فإن هي أَعْصَفَتْ نَهُوزٌ بِرأسٍ كالعَلاَةِ وَهَادِى [٢]

العَلاَة : السَّنْدانُ ، قال جريرٌ :

أَيَفْخَرُ بالمُحَمَّمِ قَيْنُ لَيْلَى وَبالكِير المرَقَّعِ والعَلاَة

* * *

وقال الحسن بنُ هانئ في صفة السفينة :

بُنِيَتْ على قَدَرٍ وَلاءَمَ بَيْنَهَا طَبَقَانِ من قِيرٍ ومن أَلْوَاحِ

فكأَنَّها والماء يَنْطَحُ صَدْرَها والخيزُرانَةُ فى يدِ المَلاَّحِ

جَوْنٌ من العِقْبان يَبْتَدِرُ الدُّجى يَهْوِى بِصَوْتٍ واصْطِفاقِ جَنَاحِ

* * *

وقال فى شعرٍ آخرَ ، يصفُ الخمرَ ، ويذكرُ صفاءها ورِقَّتها ، وضياءها وإشراقها :

---

(١) قود المهارى ، القود : جمع قوداء ، وهى الطويلة الظهر والعنق . والمهارى : المنسوبة إلى مهرة بن حيدان ، أبي حى من العرب .

(٢) النهوز ، مبالغة من النهز ، وهو الدفع .

ومن التشبيه[1] الحسنِ الذى نَستطرِفُه قوله :

تَعَاطيـكَهَا كَفٌّ كأنَّ بَنَانَها إذا اعترَضَتها العَيْنُ صَفُّ مَدَارِى

* * *

ومن التشبيه المليح قوله :

وكأنَّ سلمى إذْ تُوَدِّعُنَا[2] وقد اشرأَبَّ الدَّمعُ أنْ يَكِفَا[3]

رَشَأٌ تَوَاصَيْنَ القِيَانُ به حتى عَقَدْنَ بأُذْنِه شُنُفَا[4]

* * *

وفى هذا الشعرِ من التشبيهِ [5] الجيِّدِ قوله [5] :

خَبِّرْ فؤادَكَ أو سَتُخبِرُهُ قَسَمًا لَيَنْتَهِيَنَّ أو حَلِفَا

الحبُّ ظَهْرٌ أنت رَاكِبُهُ فإذا صرَفْتَ عِنانَهُ انصرَفَا .

* * *

ومن التشبيهِ الجيدِ قوله :

إليكَ رَمَتْ بالقوْمِ خوصٌ كأنَّما جَمَاجِمُها فوقَ الحجاجِ قُبُورُ

* * *

---

(١) ر : « تشبيهه » (٢) ر : « كأن سعدى » وما أثبته عن الأصل ، س .

(٣) زيادات ر : « يقال : اشرأب لأن يكلمنى ، إذا تهيأ لكلامك . واشرأب الدمع ، إذا تهيأ للوكف » .

(٤) الرشأ : الظبى إذا قوى واشتد ، وتواصين ، أوصى بعضهم بعضا .

(٥ — ٥) ساقط من ر .

(٦) من كلمة يمدح بها الخصيب ، أمير مصر ، وقبله :

وما زلتَ توليهِ النَّصيحةَ يافعاً إلى أن بدا فى العارضَيْن قتيرُ

إذا غالهُ أمرٌ فإمَّا كَفَيْتَهُ وإمَّا عليه بالكَفَاة تشيرُ

أقمنا بها يومًا ويومًا وليـــلة   ويومًا له يومُ التّرحُّلِ خامسُ

تدارُ علينا الرّاحُ فى عَسْجَدِيّةٍ   حَبَتْها بأنواع التصاوير فارسُ

قرارتَها[1] كِسْرَى وفى جَنَباتها   مَهًا تَدَّرِيهَا بالقِسِى الفوارِسُ

فللخمرِ ما زرَّت عليه جُيُوبُها   وللماء ما دارتْ عليه القَلانِسُ

العسجديةُ : منسوبة إلى العَسْجَدِ ، وهو الذَّهب .

وقال المثقبُ العَبْدِىُّ :

قالت ألا لا تَشْتَرِى ذاكمُ   إلَّا بما شِئْنا ولم يُوجَدِ

إلّا بِبَدْرَىْ ذهب خالصٍ   كلَّ صباحٍ آخرَ المُسْنَدِ

مِنْ مالِ مَنْ يَجْبِه ويُجْبى له   سبعون قِنطاراً من العسجدِ

وقوله : « تَدَرِّيها » أى تَخْتِلها ، يقال : دَرَيْتُ الصَّيْدَ ، إذا ختلته .

قال الأخطلُ :

وإن كنت قد أقْصَدتني إذْ رَمَيْتِنِي

بسهمِكِ والرامى يصيدُ وما يَدْرِى

* * *

وقال الحسنُ بن هانئ :

مَا حَطَّكَ الواشونَ من رُتْبةٍ   عنـدى ولا ضَرَّكَ مغتابُ[2]

---

(١) قرارتها ، منصوب على الظرفية .

(٢) ر : « ما اغتابوا » ، وهذه رواية الأصل .

إذ عَبَّ فيها شاربُ القومِ خِلْتَهُ   يُقَبِّلُ في داجٍ من الليل

* * *

فأما قوله :

بَنينْا عَلَى كِسْرَى سماءَ مُدَامَةٍ   جَوَانبُهـا مَحفوفَةٌ بنُجومِ

فلو رُدَّ في كِسْرَى بن ساسانَ رُوحُهُ   إذاً لاصطَفانِي دونَ كلِّ نديمِ

فإنما كانت صورةُ كسرى في الإناء[1] وقوله :

* جوانبُها محفوفةٌ بنجوم *

فإنما يريد ما تَطوَّقَ به من الزَّبَدِ .

* * *

وقد قال في أخرى :

[أولُ الشعرِ من غير الأم[2][3]

وَدَارِ نَدَامَى خلَفوها وَأَدْلجوا   بها أثرٌ منهم جديد ودارِسُ

مَسَاحِبُ من جَرِّ الزِّقَاق على الثَّرَى   وأضغاثُ رَيْحَانٍ جَنِيٌّ ويابسُ

حَبَسْتُ بها صَحْبي فأَلَّفْتُ شملَهم   وإنِّى على أمثالِ تلك لحابسُ] [3]

(١) قبله :

وَقُلْتُ لِساقِيهَا أَجزْهَا فلَمْ يَكنْ   لِيَأبى أميرُ المؤمنين وأشربا

فجوّزها عَنِّ سُلافاً ترَى لهَا   إلى الأُفقِ الأعلى شعَاعًا مُطَنَّبا

(٢) الأم هنا : أصل الكتاب .   (٣) ما بين العلامتين من زيادات ر .

قال رُؤْبة :

لِلّهِ دَرُّ الغانيـــاتِ المُدَّهِ[١] سَبَّحْنَ واسْتَرْجَعْنَ من تأَلُّهِى[٢]

يريد « المُدَّح » ، وفى هذه الأرجُوزة :

* بَرّاقُ أصْلادِ الجبين الأجْلهِ[٣] *

يريد الأجْلَحِ ، والعربُ تقولُ : جَلحَ الرجُلُ يَجْلَحُ جَلَحًا ، وجَلِه يَجْلَهُ جَلَهًا ، وجَلِىَ يَجْلَى جَلًى ، والمعنى واحدٌ ، قال العجاجُ :

* مَعَ الجلاَ ولائحِ القتيرِ *

ومثلُ بيتِ الحسنِ وكلام النعمانِ قولُ عمرو بن مَعْدِ يكرِب :

كأَنَّ مُحَرَّشًا فى بيتِ سُعْدَى يُعَلُّ بِعَيْنِهَا عِنْدِى شَفِيعُ[٤]

وفى قصيدةِ الحسَن هذه :

إن جئتُ لم تأتِ وإن لمْ أَجِئ جئْتَ ، فهذا منكَ لِى دابُ !

كأنما أنتَ — وإنْ كنت لا تَكْذِبُ فى الميعادِ — كَذَّابُ

وهذا كلامٌ طَرِيفٌ .

* * *

(١) المده : اللاتى يتمدحن بالجمال .

(٢) استرجعن : قلن : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

(٣) أى لا شعر فوق جبينه ، تشبيها بالحجر الصلد .

(٤) يعل ، من العلل ؛ وهو السقية الثانية .

كأنّما أثنوا[1] ولم يَعلَمُوا[2] عليكَ عندى بالذى عابُوا

وهذا المعنى عندى مأخوذٌ من قول النُّعمانِ بن المُنذِرِ لجحْلِ بن نَضْلَة ، وقد ذكر معاويةَ بن شَكَلٍ ، فقال : أبيْتَ اللّعْنَ ! إنّهُ لقَعْوُ الأَلْيَتَيْنِ ، مُقْبَلُ النَّعلين ، فجُّ الفَخِذَيْن ، مَشّاءٌ بأقْراءٍ ، تبَّاعُ إماءٍ ، قتّالُ ظباءٍ . فقال النعمانُ : أردتَ أن تَذيمهُ فمَدَهْتَهُ .

قوله : « مُقْبَلُ النعلين » ، يقولُ : لنعله قِبالٌ ، يَنْسُبُهُ إلى التَّرَفُّهِ . وتبّاع إماءٍ ، وقتّالُ ظباءٍ ، من ذلك .

والقَعْوُ : ما تَدُورُ فيه البَكَرَةَ إذا كان من خشبٍ .

وقوله : « تَذيمهُ » معناه تذمّه . يقال : ذمّهُ يذُمُّهُ ذمًّا وذامَهُ يَذِيمُهُ ذَيْمًا ، وذأمَه يَذأمُهُ ذأْمًا ، والمعنى واحد ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ اخرُجْ منها مَذْءُومًا مَدْحُوراً ﴾[2] ، وقال الحارث بن خالدٍ المخزوميُّ لعبد الملكِ :

صَحِبْتُكَ إذ عَيْنِى عليها غِشاوَةٌ فلمّا انجلتْ قَطَّعتُ نفسى أذِيمُها

وقوله : « فمَدَهْتَهُ » يريدُ « مَدَحْتَهُ » . فأبدلَ من الحاءِ هاءً ، لِقُرْبِ المَخْرَجِ ، وبنو سَعْدِ بن زيدِ مَناةَ بن تميمٍ كذلك تقولُ ، ولخمٌ ومَن قارَبَها .

---

(١) ر : « كأنهم » .
(٢) سورة الأعراف ١٨ .

أمينَ اللهِ أَمْنُكَ خيْرُ أَمْنٍ عليك من التُّقَى فيه لِبَاسُ

تُسَاسُ من السَّماء بِكل فَضْلٍ وأنتَ به تَسُوسُ كما تُسَاسُ

كأنَّ الخلْقَ رُكِّبَ فيه رُوحٌ له جَسَدٌ وأنت عليه رَاسُ

وقد أَخذَ هذا المعني علىُّ بن جبَلَةَ ، فقال فى مدحه حُمَيْد بن عبدِ الحميدِ ، وزادَ فى الشَّرح والترتيب ، فقال :

يَرْتُقُ ما يَفْتُقُ أعداؤُهُ وَلَيْسَ يَأْسُو فَتْقَهُ آسى(١)

فالناس جسمٌ وإمامُ الهدَى رأسٌ وأنتَ العَيْنُ فى الرَّاسِ

والعربُ تَخْتَصِرُ فى التشبيه، وربَّما أومَأَتْ به إيماء ، قال أحدُ الرُّجَّازِ :

بِتْنا بِحَسَّانَ ومِعْزَاهُ تَئِطّ(٢) ما زِلْتُ أَسْعَى بينهمْ وأَلْتَبِطْ(٣)

حتى إذا كاد الظَّلامُ يختَلِطْ(٤) جاءوا بِمَذْقٍ هل رأيتَ الذئبَ قَطْ!

يقول فى لَوْنِ الذئب ، واللَّبَنُ إذا جُهِدَ(٥) وخُلِطَ بالماءِ ضَرَبَ إلى الغبْرة . وأنشدَ الأصمعىُّ :

وَتَشْرَبُهُ مَحْضًا وَتَسْقِي عِيالهـا سَجَاجًا كأقْرابِ الثَّعالبِ أَوْرَقَا

السَّجَاجُ : الرقيق المَمْذُوقُ . والقُرْبَانِ : الجنْبَانِ ، والواحدُ قربٌ ،

---

(١) الرتق : ضد الفتق ؛ وهو لأم الفتق وإصلاحه .

(٢) تئط ، من الأطيط ؛ وهو صوت الأمعاء من الجوع

(٣) الالتباط : العدو والوثوب

(٤) ر : « كان الظلام » ، وما أثبته من الأصل ، س

(٥) جهد اللبن : أخرج زبده كله .

ومن حَسَنِ تشبيه المحدَثِينَ قولُ بَشَّارِ بن بُرْدٍ العقيلي[١] :

وكأنَّ تحتَ لسانِهـــا هاروتَ يَنْفُثُ فيه سحْرَا[٢]

وتَخالُ ما جمَعَتْ عليـــه بَنَانُهَا ذَهَبًا وعِطرا[٢]

وهذا التشبيهُ الجامعُ .

ونظيرُه فى جمع شيئين لمعنيين ما ذكرتُ لكَ من قولِ مُسْلِمِ بن الوليد :

* كأنَّ فى سَرْجِهِ بَدْرًا وَصِرْغامَا *

* * *

ومن حَسَن التشبيه من قولِ المُحْدَثِين قولُ عباسِ بن الأَحْنَفِ :

أَحْرُمُ منــكم بما أَقولُ وَقَدْ نالَ به العاشقونَ مَنْ عَشِقُوا

صِرْتُ كأَنى ذُبالةٌ نُصِبَتْ تُضِىءُ للناسِ وَهْىَ تَحْتَرِقُ[٣]

فهذا حسنٌ فى هذا جِدًّا .

* * *

ومن حَسَنِ ما قالوا فى التشبيهِ قولُ إسمعيلَ بن القاسمِ ، أبى العَتاهيَة

الرَّشيد :

---

(١) ساقطة من ر . (٢) قبلهما :

حَوْراءُ إن نَظَرَتْ إلَيْـــكَ سَقَتْكَ بالعينين خمْرَا

وَكَأَنَّ رَجْعَ حَدِيثِها قِطَعُ الرياض كُسِينَ زَهْرَا

(٣) الذبالة : الفتيلة .

وفى هذه الأرجوزة أيضاً :

بَاتَ بِهَا حَيْنُ حُبَيْشٍ يَتْبَعُهْ وَبَاتَ جَذْلَانَ وثِيرًا مَضْجَعُهْ (١)

ذَا سِنَةٍ آمِنَ مَا يُرَوِّعُهْ حَتَّى دَنَتْ منه لحتف تزمعه

فاظَتْ تَمُجُّ سَمَّها وَتَجْمَعُهْ يا بُؤسَ لِمُودِعِهِ ما يُودِعُهْ (٢)

فَشَرَعَتْ أُمّ الحِمَامِ إِصْبَعُهْ أَنْحتْ عليه كالشّهابِ تَلْذَعُهْ (٣).

عَطّكَ سِرْبَالَ حَرِيرٍ تَخْلَعُهْ فكلّ خَلّ ظاهرٍ تَفَجُّعُهْ (٤)

يَزْدادُ من بَغْتِ الحِمَامِ جَزَعُه واليأسُ مِن تيسيره تَوَقُّعُهْ

وكذلك قال يزيدُ بن ضَبَّة [أو يزيد بن الصمة (٥)]

[قال أبو الحسن : شكّ العباس فى أنه لأحدهما . أعنى هذا البيت]

ولكنّهم بَانوا ولم أَدرِ بَغْتَةً وَأَفظَعُ شىءٍ حين يَفجَؤكَ البَغْتُ (٦)

* * *

ومن أحسن التشبيه ومَلِيحِهِ قولُ رجلٍ يَهْجُو رَجُلا برَثاثةِ الحالِ

يأتيك فى جُبَّةٍ مُحرَّقَةٍ أَطْوَلُ أعمارِ مِثْلِهَا يَوْمُ

وَطَيْلَسَانٍ كالآلِ يَلْبَسُهُ على قَمِيصٍ كأنّهُ غَيْمُ

* * *

(١) حبيش هنا : إسم اللديغ والحين : الهلاك ووثيرا ، من الوثارة . وهى لين الفراش.

(٢) فاظت : أخرجت سمها (٣) شرعت : دنت :

(٤) العط : شق الثوب وغيره من غير أن يبين

(٥) تكملة من س ، وفى ر : « أو للمرجم » ، ولعله : « أو للعرجى » .

(٦) حاشية الأصل : « فى غير هذا الموضع إنه لمحمد بن عبد الله بن نمير الثقفى » .

«١ والجميعُ أقرابٌ١» ، من ذلك قول عمر بن الخطابِ رحمه الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم - وقد شاورَ فى رجل جَنَى جِنايةً ، وجاء قومُه يَشْفَعونَ له ، فشَفع له قومٌ آخرون ، فقال له عمرُ : يا رسولَ الله ، أرَى أن تُوجِعَ قُرْبَيْهِ ، فقال القومُ : يا رسول الله ، إنَّك لن تَشْتَدَّ على أُمَّتِكَ بقولِ عمرَ . فنزل إليه جبريلُ صلى الله عليه وسلم فقال له ثلاثا : يا محمدُ ، القولُ قولُ عمرَ ، شُدَّ الإسلامَ بعمرَ ، فخرجَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فضَرَبَ الرَّجلَ .

والأَوْرَقُ : لونٌ بين الخضْرةِ والسَّوادِ ، يقال : جَمَلٌ أَوْرَقُ بَيِّنُ الوُرْقَةِ ، وهو الأَمُّ ألوان الإبل عندَ العربِ وأطيبُها لحماً .

* * *

ومن مَليح التشبيهِ لِلْمُحْدَثين[٢] قولُ عبد الصَّمد بن المعَذَّلِ فى صفة العقربِ :

تَبْرُزُ كالقَرْنَيْنِ حين تُطْلِعُهْ تُزْحِلُهُ مَرًّا وَمرًّا ترْجِعُهْ[٣]

فى مِثْلِ صَدْرِ السِّبْتِ خَلْقٌ تَفْظِعُهْ أَعْصَلُ خَطَّارٌ تلوح شُنُعُهْ[٤]

أَسْودُ كالسُّبْجَةِ فيه مِبْضَعُهْ لا تَصنَعُ الرَّقْشاءُ مالا يَصْنعُهْ[٥]

(١-١) ساقط من ر . (٢) ساقطة من ر .

(٣) تزحله : تنحيه .

(٤) السبت : الجلد المدبوغ . وخلق ، مخلوق ، يريد ذنبها . تفظعه: تراه فظيعا . أعصل ، من العصل ، وهو الالتواء فى الشىء . وخطار : كثير الحركة يميناً وشمالا . (من رغبة الآمل).

(٥) السبجة : بردة من صوف فيها سواد وبياض ، والرقشاء : الحية فيها نقط سود وبيض

وتَكْفِيهِ ذِراعُ الجَفْرَةِ » .[١] ومعناه أنه خَميص البطنِ ، وهذا تَمدَحُ به العربُ وتَستحسنه . فأما قولُ مُتَممِ بن نُوَيْرَةَ :

* فتًى غَيْرَ مِبْطان العَشِيَّاتِ أَرْوَعَا[٢] *

فإنما أرَاد أنه لا يَسْتعجلُ بالعَشاء لانتظارِ الضيفَ ، كما قال :

وضَيْفٍ إذا أرْغَى طُرُوقاً بَعيرُهُ ... وعانٍ ثَنَاهُ الغلّ حتى تكَنَّعا[٣]

وقالوا فى قول الخنساء :

يُذكّرُنى طُلوعُ الشمسِ صَخْراً ... وأذكُره لكلِّ غُروبِ شمسِ

قالوا : أرادتْ بطلوعِ الشمس وقتَ الغَارَةِ ، وبغروب الشمسِ وقتَ الأضيافِ .

* * *

— وقال رجلٌ لبعض أهله[٤] : واللهِ ما أنتَ بعَظيم الرأسِ فتكون سَيِّداً ، ولا بأَرْسَحَ[٥] فتكون فارساً .

وقال رجلٌ من بنى أَسَدٍ لرجل من قَيْسٍ : واللهِ ما فُتِقْت فَتْقَ السَّادَةِ ، ولا مُطِلْتَ مَطْلَ الفُرْسانِ .

فهذه كلُّها نعوت قد عُرِفَتْ لقومٍ حتى كأنّها سِماتٌ لهم ، وكانوا يقولون :

---

(١) الجفرة : ما بلغ أربعة أشهر من ولد الشاء .

(٢) المبطان : العظيم البطن من كثرة الأكل ، وصدره :

* لَقَدْ كَفَّنَ المِنهَالُ تَحْتَ ردائه *

(٣) قال الأصمعى : إذا ضل الرجل أرغى بعيره ، أى حمله على الرغاء لتجيبه الإبل برغائها ، أو تنبح لرغائه الكلاب فيقصد الحى . والعاني : الأسير . والطروق . الإتيان ليلا . وتكنع الأسير : تقبض واجتمع .

(٤) ر : « لابن له »

(٥) الأرسح : قليل لحم الفخذين والأليتين .

والتشبيه كثيرٌ ، وهو بابٌ كأنه لا آخِرَ له ، وإنما ذكرنا منه شيئاً لئلا يخلوَ هذا الكتابُ من شيء من المعانى .

ونضمُّ ما ذكرنا من أشعار المحدَثين ببيتين أو ثلاثةٍ من الشعر الجيِّد .

ثم نأخذُ فى غير هذا الباب إن شاء الله . قال طُفَيْلٌ :

تَقرِيبهُ المرَطَى والجونُ مُعْتَدِلٌ كأنه سُبَدٌ بالماء مَغْسُولُ

السُّبَد : طائرٌ بعينه . وقد قالوا : الخصفةُ التى توضعُ عند البئر ، وهو بالطائرِ أشبه ، وإنما أراد العرَقَ فى هذا الوقتِ ، وخيرُ الخيل مالم يُسْرِعْ رَقُهُ ولم يُبْطِئْ ، فإذا جاء فى وقته شَمِلَهُ .

قال الرَّاجزُ :

كأَنَّه والطَّرْفُ منه سَامِى مُشْتَمِلٌ جَاْء مِنَ الحَمَّامِ

وقال الأعشى :

يُعَادِى النَّحُوصَ ومِسْحَلَهَا وعِفْوَهُمَا قبلَ أَنْ يَسْتَحِمْ

النَّحُوصُ ، جماعُها نُحُصٌ ، وهى التى لم تَحْمِلْ فى عامها . والمِسْحَلُ : العَيْرُ . والعِفْوُ : الوَلَدُ وجمعُه عِفَاءٌ ، فاعلم ؛ وهو أسمى له إذا لم يكن لعامِهِ . ويَسْتَحِمُ : يَعْرَقُ . وفى حديث أُمِّ زَرْعٍ : « مَضْجَعُه كَمَسَلِّ الشَّطْبَةِ [١]

---

(١) الشطبة : السعفة التى تشطب من الجريد .

بابٌ

تجتمعُ فيه طَرائفُ من حَسَنِ الـكلام، وجيدِ الشعر، وسائرِ الأمثال، ومأثورِ الأخبار، إن شاء الله .

[الحجاج بن يوسف والوليد عبد الملك]

كان الحجَّاجُ بن يوسف يَسْتَثْقِلُ زِيادَ بن عمرٍو العَتَكِيَّ، فلما أَثْنَتِ الوُفودُ على الحجاجِ عندَ الوليد بن عبد الملِكِ، والحجاجُ حاضِرٌ، قال زيادُ بن عمرو : يا أمير المؤمنين، إنّ الحجاجَ سيفُكَ الذى لا يَنْبُو، وسَهْمُكَ الذى لا يَطيشُ، وخادِمُك الذى لا تأخذه فيك لَوْمَةُ لائمٍ ؛ فلم يكن أحدٌ بعدُ أخَفَّ على قلب الحجاج منه

[لابن قيس الرقيات فى معاتبة المهلب]

ولزيادٍ يقول ابنُ قَيْسِ الرُّقَيَّات فى معاتبةِ المهَلّبَ بن أبى صُفْرَة :

أَبْلِغا جَارِىَ المهَلَّبَ عَنّى   كلُّ جار مُفارقٌ لا مَحالَهْ

إنَّ جَارَاتِكَ اللَّوَاتِى بتكريـتَ لِتَنْبيذِ رَحْلِهِنَّ مقالَهْ (١)

لو تَعَلَّقْنَ مِن زيادِ بن عمرٍو   بِحِبَالٍ لَمَا ذَمَمْن حِبالَهْ

غَلَبَتْ أُمُّهُ أباهُ عليـه   فهُوَ كالكابُلِىّ أَشْبَهَ خالَهْ (٢)

---

(١) تكريت : بلد بين بغداد والموصل .

(٢) قال المرصفى : « يريد أن شهوة أمه سبقت شهوة أبيه ، فسرت أعراقها فيه ، فلم يشبه أباه فى صلابة عوده ونجابته . والكابلى : منسوب إلى كابل ؛ وهو من ثغور طخارستان ، نسبه إلى العجم » .

يَنْبَغى أن يكون الفارس[1] مُهَفْهَفَ الخصرَيْن[2]، مُتَوَقِّدَ العينين، حَمْشَ الذِّراعين[3]. وأنشد الأصمعىُّ:

* كأنما ساعِداه ساعِدَا ذِيبِ *

قالوا: ومن نعت السَّيِّدِ أن يكونَ لحيماً، ضَخْمَ الهامةِ، جهيرَ الصَّوْتِ، إذا خطا أبْعَدَ، وإذا تؤمِّلَ مَلأ العيْنَ؛ لأنَّ حقَّه أن يكونَ فى صدرِ مجلس، أو ذِرْوَةِ مِنبر، أو منفرداً فى مَوْكِبِ.

وكانوا يقولون فى نعت السيِّد: يملأُ العَينَ جمالا، والسَّمعَ مَقالًا.

* * *

وقال أبو علىٍّ دِعْبِل بن على فى رجلٍ نَسَبُهُ إلى السُّؤْدَدِ، يقوله لمعاذِ بن جَبَلِ بن سعيدٍ الجُمَيْرِىّ، وهو من ولد حُمَيْدِ بن عبد الرحمن الفقيهِ:

فإذا جالسْتَهُ صَدَّرْتَهُ ... وتَنَحَّيْتَ له فى الحاشيهْ[3]

وإذا سَايَرْتَهُ قَدَّمْتَهُ ... وتَأَخَّرْتَ معَ المُسْتَأْنِيَهْ[4]

وإذا ياسَرْتَهُ صَادَفْتَهُ ... سَلِسَ الخلقِ سَليمَ النَّاحِيَهْ[5]

وإذا عَاسَرْتَهُ صادفتَه ... شَرِسَ الرَّأْيِ أبيًّا دَاهِيَهْ[6]

فاحْمَدِ الله على صُحْبتِه ... واسْأَلِ الرَّحمنَ منه العافِيَهْ

وهذا المعنى قد أجمله جَرِيرٌ فى قوله:

بِشْرٌ أبو مَرْوانَ إن عاسَرْتَهُ ... عَسِرٌ وعندَ يَسَارِه مَيْسُورُ[7]

---

(١) ر: «ينبغى للفارس أن يكون». (٢) مهفهف الخصرين: ضامرهما.
(٣) حمش الذراعين، أى دقيقهما.
(٤) حاشية كل شىء: طرفه وجانبه. (٥) المستأنية: المتمهلة البطيئة.
(٦) يا سرته: لاينته وساهلته. (٧) شرس الرأى: سيء الخلق.
(٨) هو بشر بن مروان، أخو عبد الملك بن مروان.

[لدعبل يذم رجلا]

وقال دِعْبلُ بن عليّ الخزاعيّ يذمّ رجلاً

رأيتُ أبا عِمْرانَ يَبْذلُ عِرْضَهُ — وخُبْزُ أبي عمران في أحْرَزِ الحِرْزِ

يحِنُّ إلى جاراتِه بعد شِبْعِهِ — وجاراتُه غَرْثى تَحِنُّ إلى الخبزِ

[لبعض آل المهلب]

وقال آخر[١] :

قومٌ إذا أكلوا أخفَوْا كلامَهُمُ — وَاستوثقوا من رِتاجِ الباب والدارِ

لا يَقْبِسُ الجارُ منهم فَضْلَ نارِهمُ[٢] — ولا تَكُفُّ يَدٌ عن حُرْمَةِ الجارِ[٣]

[لرجل من طيء وكان قتل رجلا من بني أسد]

وقال رجلٌ من طَيِّء ، وكان رجلٌ منهم ، يقال له زيدٌ ، من وَلَدِ عُرْوَة ابن زَيْدِ الخيْلِ ، قَتَلَ رجلاً من بني أَسَدٍ يقال له زيدٌ ، ثم أُقِيدَ به بَعْدُ :

عَلاَ زَيْدُنا يوم الحِمى رأسَ زَيْدِكُمْ — بأَبْيَضَ مَصْقُولِ الغِرَارِ يَمانِ

فإنْ تَقْتُلوا زَيْدًا بزيدٍ فإنما — أَقادكُمُ السُّلْطانُ بعدَ زَمانِ

* * *

(١) نسبه أبو تمام في الحماسة ٤ : ٩٠ إلى بعض آل المهلب ، وقال التبريزي في شرحه : « هو عبد الله بن عبد الرحمن ، ولقبه أبو الأنوار » .

(٢) القبس : الشعلة من النار ، والقابس : طالب النار .

(٣) زيادات ر : أظن تمامه :

حتى إذا استنبح الأضياف كلبهُمُ — قالوا لأُمّهمُ بولِي على النارِ

قامت بأحمرها تبدي مشافرَه — كأنه رئة في كف جزار

والبيت الأول للأخطل ؛ وروايته في ديوانه : « قوم إذا استنبح ... » .

ولقد غَالني يزيدُ وكانتْ   في يَزيدٍ خِيـــانةٌ ومَغاله[٣]
عَتَــكِيٌّ كأنه ضَوءُ بَدْرٍ   يَحْمَدُ الناسُ قَوْلَهُ وَفَعالَهْ

[نبذ من أقوال الحكماء]

وقال أسماء بنُ خارجةَ الفزَاريّ : لا أُشاتِمُ رجلًا ، ولا أَرُدُّ سائلًا ، فإنما هو كريم أَسُدُّ خَلَّتَهُ ، أو لئيمٌ أَشترى عِرضى منه .

* * *

وقال سَهْلُ بن هارون : يجب على كل ذى مَقالةٍ أن يَبْدَأَ بحمدِ اللهِ قبلَ استفتاحِها ، كما بُدِئَ بالنعمة قبل استحقاقِها .

وكانَ يقولُ عند التَّعْزِيةِ : التَّهْنِئَة بآجلِ الثوابِ أَوْلَى منَ التعزيةِ على عاجلِ المصيبةِ .

* * *

وأراد رجلٌ الحجَّ ، فأتى شُعْبَةَ بن الحجاجِ يُوَدِّعُه ، فقال له شعبة : أَمَا إنك إنْ لم ترَ الحِلْمَ ذُلًّا ، والسَّفَهَ أَنَفًا ! سلِمَ لك حَجُّكَ .

وقالَ أُوَيْسٌ القرَنِيُّ : إنَّ حقوقَ اللهِ لم تَتْرُكْ عند مُسْلِمٍ دِرْهَمًا .

---

(٣) المغالة : الخيانة .

إلّا يَكُنْ وَرَقٌ يوماً أُرَاحُ به لِلْخَابِطِينَ فإنِى لَيِّنُ العُود

قوله : « إلّا يَكُنْ وَرَقٌ » يريد المالَ ، وضَرَبه مَثَلا . ويقال : أتى فلانٌ فلانا يَخْتَبِطُ ما عندَه ، والاخْتِبَاطُ : ضربٌ الشجرِ لِيَسْقُطَ الورقُ ، فجعلَ الخابِطَ الطالبَ ، والوَرَقَ المالَ ، كما قال زُهَيْرٌ :

وليس مانِعَ ذى قُرْبى ولا رَحِمٍ يوماً ولا مُعْدِمًا مِن خَابطٍ وَرَقَه

[بخل الحطيئة]

وَيُرْوَى أنّ ضيفاً نزل بالُحطَيْئةِ ، وهو يَرْعى غنماً له ، وفى يده عصاً ، فقالَ الضيفُ : يا رَاعِىَ الغَنَمَ [ما عندك ؟][1] ، فأومأ إليه الحطيئةُ بعصاهُ ، وقال : عجْرَاء من سَلِمٍ ،[2] فقال الرَّجلُ : إنى ضَيْفٌ ، فقال الحطيئةُ : للضِّيفَان أعْدَدْتُها !

[متفرقات من شعر دعبل]

وقال دِعْبِلٌ :

وابنُ عِمْرَانَ يَبْتَغِى عَرَبيًّا لَيس يَرْضَى البَنَاتِ للأكْفاء

إنْ بَدَتْ حاجةٌ له ذكر الضَّيْـفَ ويَنْسَاه عندَ وقتِ الغَدَاء

* * *

وقال أيضا :

أضيافُ سالِمَ فى خَفْضٍ وفى دَعَةٍ وفى شَرَابٍ ولحمٍ غيرِ ممنوعِ

---

(١) تكملة من س .

(٢) العجراء : التى فيها عقد ، والسلم : شجر من العضاه .

[قال أبو الحسن : وأنشدنا غيرُه :

عَلا زيدُنا يوم النّقى رأْسَ زيدكمْ ... بأبيَضَ مِن ماء الحديدِ يَمانِ]

[لشمعل التغلبي حين ضربه عبد الملك بن مروان]

قال : كلَّمَ شمْعَلٌ التغلبيُّ عبد الملكِ كلاماً لم يرْضَهُ ، فرمَاهُ عبدُ الملك بالجُرزِ (١) فَخدَشَ وَهَشَمَ ، فقال شمْعَلٌ :

أَمِنْ جذْبةٍ بالرِّجْلِ مِنّى تَباشَرَتْ ... عُدَاتِى ، فلا عَيبٌ علىَّ ولا سُخْرُ

فإنَّ أمير المؤمنين وسَيْفَهُ ... لـكالدَّهْرِ ، لاعارٌ بما فعَلَ الدَّهْرُ !

* * *

وقال الحجاجُ بن يوسف : البُخْلُ على الطعام أقْبَحُ من البَرَص على الجسد

* * *

وقال زياد : كَفَى بالبخيل عاراً أنَّ اسمه لم يَقعْ فى حَمْد قطْ ، وكفى بالجواد مَجدًا أنَّ اسمه لم يقع فى دمٍّ قطْ .

* * *

وقال آخرُ :

أَلاَ تَرَيْنَ وقد قَطَّعتِنِي عَذَلا ... ماذا من الفَضلِ بَيْنَ البُخلِ والجودِ !

لا يَعْدَمُ السائلونَ الخيرَ أفعلُهُ ... إمَّا نوالاً وإمَّا حُسنَ مَرْدودِ

---

(١) الجرز : عمود من حديد .

مُضَرٌ أبي وأبو الملوكِ وَهَلْ لكم ... يا خُزْرَ تَغلِبَ مِن أبٍ كأبينا !
هذا ابن عمى فى دِمَشْقَ خليفةٌ ... لو شِئْتُ ساقَكُمُ إلىَّ قطينا [1]
إنَّ الفرزدقَ إِذْ تَحَنَّفَ كارِها ... أَضْحى لِتغلِبَ والصَّليبِ خَدينا [2]
ولقد جَزِعْتَ إلى النصارَى بَعْدَما ... لَقِيَ الصليبُ من العذابِ مُهينا
هَلْ تَشْهَدُونَ من المَشاعِرِ مَشْعَراً ... أو تَسْمعون من الأذان أذِينا ! [3]

* * *

قال أبو العباس : حدثنى عَمارةُ بن عقيل بن بلال بن جرير ، قال : لمَّا بلغ الوليد قولُه :

هذا ابن عمى فى دمَشْقَ خَليفةٌ ... لو شئت ساقكُمُ إلىَّ قطيناً

قال الوليدَ : أمَا والله لو قال : « لو شاء ساقكم » ، لفعلتُ ذاك به ، ولكنه قال : « لو شئتُ » فجعلنى شُرَطيًّا له .

* * *

وَيُرْوَى أن بلالًا [4] قعد يوماً ينظرُ بين الخصوم ، ورجل منهم ناحِياً يتمثّلُ قولَ الأخطلِ على غير معرفة [5] :

وابن المَراغَة حابسٌ أَعْيارَهُ ... مَرْمَى القَصِيِّ ما يَذُقْنَ بِلالاَ [6]

---

(١) القطين : الخدم والمماليك .

(٢) تحنف : تنسك وتأله . (٣) الآذين : المؤذن .

(٤) هو بلال بن أبى بردة بن أبي موسى الأشعرى القاضى .

(٥) فى هجاء جرير .

(٦) المراغة فى الأصل : الموضع تتمرغ فيه الدواب ، وتقال أيضاً للأتان التى لا تمتنع من الفحول . والأعيار : جمع عير ، وهو الحمار . والقصية : الموضع المتنحى البعيد . والبلال : ما بل الحلق من ماء وغيره .

وَضَيفُ عُمْرٍو وَعَمْرٌ يَسْهَرَانِ مَعاً   عَمْرٌو لِبِطْنَتِهِ والضَيفُ للجُوعِ

* * *

وقال أيضاً :

ما يَرْحَلُ الضيفُ عَنى بعدَ تكرِمَةٍ   إلّا بِرِفْدٍ وَتَشْيِيعٍ وَمَعذِرَةٍ

* * *

وقال أيضاً :

لم يُطيقوا أن يَسمَعُوا وَسَمِعْنَا   وصَبَرْنا على رَحَى الأسْنَانِ

صوتَ مَضْغِ الضُيوفِ أحسنُ عندى   من غِناءِ القِيَانِ بِالعِيدَانِ

[لرجل من قريش]

وقال القرَشىُّ من بنى أُمَيَّةَ :

إذا ما وُتِرِنَا لم نَنَمْ عَنْ تِرَاتِنَا   ولم نَكُ أَوْغَالًا نُقيمُ البَواكيا [1]

ولكنَّنا نَمضى الجِيادَ شَوازباً   فنرمِى بِها نحو التِّرَاتِ المراميا [2]

[جرير يفتخر ويهجو الأخطل وقومه]

وقال جرير :

إنَّ الذى حرَمَ الخلافةَ تَغلِباً   جَعَلَ النُّبُوَّةَ والخلافةَ فِينا [3]

---

(١) وترنا : قتل منا قتيل ، والترات : جمع ترة ، وهى الذحل . والأوغال : جمع وغل ، وهو النذل الضعيف من الرجال .

(٢) الشواذب من الخيل : الضوامر .

(٣) الخزر : ضيقو الجفون ، يصفهم بأنهم ينظرون بمؤخر عيونهم حقدا وغيظا وعدواة .

بابٌ

مَن أخبار الخوارج

[فى بيعتهم لعبد الله بن وهب الراسبى]

قال أبو العباس : ذَكر أهلُ العلم من الصُّفْرِيَّة أنَّ الخوارجَ[1] لمَّا عزَموا على البَيْعَةِ لعبدِ الله بن وهْب الرَّاسِبيِّ مِن الأَزْدِ ، تَكرّهَ ذلك ، فأَبَوْا مَنْ سِوَاه ، ولم يُرِيدُوا غيرَه . فلمَّا رأى ذلك منهم قال : يا قومِ ، اسْتَبِيتُوا الرأى ، أىْ دَعوهُ يَغِبّ[2] .

وكانَ يقول : نعوذ بالله من الرأى الدَّبَرِىّ

قوله : « استبِيتوا الرأى » ، يقول : دَعُوا رأْيكم تَأْتِى عليه ليلةٌ ثم تَعَقَّبوه ، يقال : بَيَّتَ فلانٌ كذا كذا ، إذا فعله ليلًا ، وفى القرآن : ﴿ إِذْ يُبَيِّتُونَ مالا يَرْضَى مِن الْقوْلِ ﴾[3] ، أىْ أَدَارُوا ذلك بينهم ليلًا[4] . وأنشدَ أبو عُبيدةَ :

أَتوْنِى فلم أَرْضَ ما بَيَّتُوا وكانوا أَتوْنِى بأَمْرٍ نُكُرْ
لِأُنكِحَ أَيِّمَهُم مُنْذِرًا وهل يُنْكِحُ العَبْدَ حُرٌّ لِحُرّ !

---

(١) من خرج على الإمام الحق الذى اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً ، سواء كان الخروج فى أيام الصحابة على الأئمة الراشدين ، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان ، والأئمة فى كل زمان والصفرية : طائفة من الخوارج ؛ تابعوا زياد بن الأصفر ، ويقال لهم : الزيادية أيضاً . الملل والنحل للشهرستانى ١ : ١٢٣ .

(٢) يغب ، أى يبيت .

(٣) سورة النساء ١٠٨ .

(٤) ر : « ليلا بينهم »

فسمعه بلالٌ ، فلمَّا تقدَّمَ مع خصمهِ قال له بلالٌ : أَعِدْ عليَّ[1] إنشادَكَ ، فغَمَزَه بعضُ الجلساء ، فقال الرجلُ : إنى والله ما أدرى مَنْ قاله ، ولا فيمن قيلَ ؟ فقال بلالٌ : أَجَلْ ، هو أَسيَرُ من ذاك ، هلمَّا فاحْتَجَّا .

* * *

وقال جرير :

مَرِرْتُ عَلَى الديارِ فما رَأَيْنَا كدارٍ بين تَلْعَةَ والنَّظِيمِ
عَرَفْتُ المُنْتَأَى وعرفتُ منها مَطَايَا القِدْرِ كالحِدَأ الجُثُومِ[2]

* * *

وقال آخرُ :

لقد تبلَتْ فُؤَادَكَ إذْ تولَّتْ ولمْ تَخْشَ العُقوبةَ فى التَّولِّى[3]
عَرَفْتُ الدارَ يومَ وقفتُ فيها بريحِ المِسْكِ تَنْفَحُ فى المَحَلِّ

(١) ساقطة من ر .
(٢) جثوم : جمع جاثمة ؛ من جثم الطائر اذا لصق بالأرض فلم يبرح .
(٣) تبلت فؤادك : أسقمته وأدنفته .

مُصاحَبين ، فإنكم إخواننا ! قال : ليس ذلك لكم ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وإنْ أحدٌ مِن المشركين استجارَكَ فأجِرْهُ حتى يَسْمَعَ كلامَ الله ثم أبلِغه مأمَنَهُ ﴾[1] ، فأبلِغونا مأمَنَنا . فنظر بعضُهم إلى بعض ، ثم قالوا : ذاك لكم ، فساروا بجمعهم[2] حتى بلَّغوهم المأمَنَ .

[مناظرة عبد الله بن عباس لهم]

وذكر أهلُ العلمِ من غير وجهٍ أنَّ عليًّا رضى الله تعالى عنه لما وَجَّهَ إليهم عبد الله بن عبَّاسٍ رحمة الله عليه ، ليُناظِرَهم ، قال لهم : ما الذى نقمْتم على أمير المؤمنين ؟ قالوا : قد كان للمؤمنين أميراً ، فلمَّا حكَّم فى دين الله خرج من الإيمانِ ، فليَتُبْ بعدَ إقراره بالكفر نعُدْ له[3] فقال ابن عباس : ما ينبغى لمؤمنٍ لم يَشُبْ إيمانَهُ شكٌّ أن يُقِرَّ على نفسه بالكفرِ ! قالوا : إنه قد حكَّمَ ، قال : إن الله عزَّ وجلَّ قد أمَرَنا بالتحكيم فى قتلِ صيدٍ ، فقال عزَّ وجلَّ : ﴿ يَحْكُمُ به ذَوَا عَدْلٍ منكم ﴾[4] ، فكيفَ فى أمامةٍ قد أشكلَتْ على المسلمين ! فقالوا : إنه قد حُكِمَ عليه فلم يَرْضَ ، فقال : إنَّ الحكومةَ كالإمامةِ ، ومتى فَسَق الإمامُ وَجَبَتْ معصيتُه ، وكذلك الحكمانِ لمَّا خالفا نُبِذَت أقاويلهما فقال بعضُهم لبعض : لا تجعلوا احتجاجَ قريشٍ حُجَّةً عليكم ، فإنَّ هذا من القوم الذين قال الله عزَّ وجلَّ فيهم : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾[5] ، وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾[6]

---

(١) سورة التوبة ٦
(٢) ر : « بأجمعهم » .
(٣) ر : « لا ينبغى » .
(٤) سورة المائدة ٩٥ .
(٥) سورة الزخرف ٥٨
(٦) سورة مريم ٩٧

والرأىُ الدَّبَرِىُّ : الذى يَعْرِضُ (١) بعد وقوع الشىء ، كما قال جرير (٢) :

ولا يَعرِفونَ الشرَّ حتى يُصيبَهمْ ولا يعرفون الأمْرَ إلَّا تَدَبُّرا

وكان عبدُ الله بن وَهْب ذا رأىٍ وفَهْمٍ ، ولسانٍ وشجاعةٍ ، وإنما لجئوا إليه وخَلَعوا مَعْدَانَ الإيادى ، لقول مَعْدانَ :

سلامٌ على مَنْ بايَعَ الله شَارِياً (٣) وليس على الحِزْبِ المقيم سَلامُ

فبَرِئت منه الصُّفْرِيَّةُ ، وقالوا : خالفتَ ، لأنكَ بَرِئْتَ من القَعَد (٤) والخوارج فى جميع أصنافها تبرأ من الكاذب ، ومن ذِى المعصيةِ الظَّاهرة

[شأنهم مع واصل بن عطاء]

وحُدِّثْتَ أنَّ واصلَ بن عطاء أبا حُذَيفةَ أقبَلَ فى رُفقةٍ ، فأحَسُّوا الخوارج ، فقال واصلٌ لأهلِ الرُّفقة : إنَّ هذا ليس من شأنكم ، فاعتزِلوا ودَعُونى وإيَّاهم — وكانوا قد أَشْرَفُوا على العَطَبِ — فقالوا : شأنَكَ . فخرَجَ إليهم ، فقالوا : ما أنتَ وأصحابُكَ ؟ قال : مشركونَ مُسْتَجيرونَ ، ليَسْمَعُوا كلام الله ، ويفهموا (٥) حُدودَه . فقالوا : قد أجَرْناكم ، قال : فعلِّمونا ، فجعلوا يعلِّمونه أحكامهم . وجَعل يقول : قد قبلتُ أنا ومَن معى ، قالوا : فامْضُوا

---

(١) ر : « من بعد »

(٢) فى هجاء الفرزدق وقومه من بنى مجاشع .

(٣) شاريا ، أى بائعا نفسه فى طاعة الله

(٤) القعد : طائفة من الخوارج يرون التحكيم حقاً ؛ غير أنهم قعدوا عن الخروج على الناس.

(٥) ر : « ويعرفوا »

[قول قطرى بن الفجاءة لأبى خالد القنانى ورد أبى خالد عليه]

مِنْ طَرِيفِ أخبار الخوارج قولُ قَطَرِىّ بن الفُجاءَةِ المازِنِىّ لأبى خالد القنانِىّ — وكان مِنَ قَعَدِ الخوارجِ :

أبا خالدٍ إنْفِرْ فَلَسْتَ بخَالِدٍ[1] وَمَا جَعَلَ الرحمنُ عذْرًا لِقاعِدِ
أتزْعُمُ أنَّ الخارجىَّ على الهدَى وأنتَ مُقيمٌ بين لِصٍّ وجاحِدِ !

فكتبَ إليه أبو خالدٍ :

لقد زادَ الحياةَ إلَىَّ حُبًّا بناتِى ، إنهنَّ مِن الضِعافِ
أُحاذِرُ أنْ يرَيْنَ الفَقْرَ بعْدِى وأن يَشْرَبْنَ رَنْقًا بعد صافِ[2]
وأن يَعْرَيْنَ إنْ كُسِىَ الجوارِى فتَنْبُو العَيْنُ عن كَرَمٍ عِجَافِ[3]
ولولا ذاكَ قد سَوَّمْتُ مُهْرِى وفى الرحمنِ للضُعَفاء كافِ
[أبانَا مَنْ لنا إنْ غِبْتَ عنَّا وصارَ الحىُّ بعدكَ فى اختلافِ][4] !

[من أخبار عمران بن حطان وأشعاره]

وهذا خلافُ ما قال عِمْرانُ بن حطانَ ، أحدُ بنى عمرِو بن شَيْبان بن ذُهْلِ ، ابن ثَعْلَبَةَ بن عُكابَةَ بن صَعْب بن علىّ بن بَكْرِ بن وائلٍ ، وكان[5] رَأْسَ القَعَدِ من الصُّفْرِيةِ وخَطيبهم وشاعِرَهم ، قال : لمَّا قُتِلَ أبو بِلاَل ، وهو مِرْدَاس

(١) ر : « يا انفر » ، وما أثبته عن الأصل ، س .
(٢) الرنق : الكدر .
(٣) العجاف : جمع عجفاء ، وهى الهزيلة التى ذهب سمنها
(٤) مابين العلامتين من زيادات ر . (٥) ر : « وقد كان » .

[الفتوى فيمن أصاب صيدا وهو محرم]

وَالشئُ يذْكرُ بالشيء . وجاء فى الحديث أن رجلا أعرابيًّا[1] أتى عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فقال : إنى أَصَبْتُ ظَبْيًا وأنا مُحْرِمٌ . فالتفتَ عمرُ إلى عبد الرحمن بن عَوْفٍ ، فقال : قل ؛ فقال عبدُ الرحمن : يُهْدى شاةً ، فقال عمرُ : أَهْدِ شاةً . فقال الأعرابىُّ : والله ما دَرَى أميرُ المؤمنين ما فيها حتى استَفْتَى غيرَهُ ! فَخَفَقَهُ عمرُ رضوان الله عليه بالدرَّةِ ، وقال : أَتَقْتُلُ فى الحرَمِ وتَغْمِصُ الفُتْيا ! إنَّ الله عز وجلَّ قال : ﴿ يَحْكُمُ به ذَوَا عَدلٍ مِنكُم ﴾[2] ، فأنا عمرُ بن الخطاب ، وهذا عبدُ الرحمن بن عوفٍ .

* * *

وفى هذا الحديث ضروب من الفقه ، منها ما ذكروا أنَّ عبد الرحمن بن عوف قال أوَّلا . ليكون قولُ الإمامِ حُكْمًا قاطعاً . ومنها أنه رأى أنَّ الشاةَ مثلُ الظبيةِ ، كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ فجزاءٌ مِثْلُ ما قتَلَ مِنَ النَّعَمِ ﴾[3] ، وأنه لم يسأله : أخطأً قتلته[4] أم عمدًا ؟ وجعل الأمرين واحدًا . ومنها أنه لم يسأله : أَقتلْتَ صيداً قبله وأنتَ مُحْرِمٌ ؟ لأنَّ قومًا يقولون : إذا أصابَ ثانيةً لم يُحْكَم عليه ، ولكنَّا نقولُ له[5] : اذهبْ فاتقِ الله ، لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ عَادَ فينتَقِمُ اللهُ منه ﴾[6]

---

(١) نقل المرصفى عن ابن الأثير أنه قبيصة بن هانئ ، أحد التابعين .
(٢) سورة المائدة ٩٥ (٣) سورة المائدة ٩٥
(٤) ر : « قتله » ، وما أثبته عن الأصل
(٥) كلمة « له » ساقطة من ر . (٦) سورة المائدة ٩٥

وفى لَخمٍ وفى أَدَدِ بن عمرو ۞ وفى بَكرٍ وحَىّ بنى الهَدانِ

ثمَّ خَرج حتى نزل عند روح بن زنباعٍ الجُذامىّ، وكان رَوحٌ يَقرِى الأضيافَ. وكان مسامرًا لعبدالملك بن مروان أثيرًا عنده (١)، فانتَمَى له من الأزدِ.

— وفى غير هذا الحديث أنَّ عبد الملك ذكر رَوحا فقال: مَنْ أُعطِىَ مثلَ مَا أُعطِىَ أبو زُرعَةَ! أُعطِىَ فقهَ أهل الحجاز، ودَهاءَ أهلِ العراقِ، وطاعةَ أهل الشأمِ —

رجع الحديثُ. وكان رَوحُ بنُ زنباعٍ لا يسمع شعرًا نادرًا ولا حديثاً غريبا عند عبد الملك فيسألُ عنه عِمران بن حِطّان إلّا عَرَفه وزاد فيه، فذُكر ذلك لعبد الملك، فقال: إن لى جارًا من الأزد ما أسمعُ من أمير المؤمنين خبرًا ولا شعرًا إلا عَرَفَهُ وزاد فيه، فقال: خبِّرْنى ببعض أخباره، فخبَّرَهُ وأنشده، فقال: إن اللغةَ عَدْنانيه، وأنّى لَأَحسِبهُ عمرانَ بن حِطان، حتى تذاكروا ليلةً قول عِمرانَ بن حطان يمدحُ ابنَ مُلجَم لعنه الله:

يا ضَرْبَةً مِنْ تقىٍّ ما أرادَ بها ۞ إلا لِيَبلُغَ مِن ذِى العرش رِضوانا

إنّى لأذكُره حيناً فأَحسِبهُ ۞ أوفى البَرِيَّةِ عند الله ميزانا (٢)

---

(١) أثيرا: مكرَّما.

(٢) زيادات ر: «قلبه الفقيه الطبرى» فقال:

يا ضربةً من شَقِىٍّ ما أراد بها ۞ إلّا لِيَهدِمَ من ذى العَرش بُنيانا

إنى لأذكُرُه يومًا فألعنه ۞ إيهًا وألعَنُ عِمران بنَ حِطّانا

قال محمد بن أحمد الطيب يرد على عمران بن حطان:

يا ضَربَة مِنْ غَدُورٍ صار ضارِبُهَا ۞ أَشقَى البريةِ عِندَ الله إنسَانا

إذا تفكَّرتُ فيهِ ظِلتُ ألعنه ۞ وألعَنَ الكَلبَ عمرانَ بن حطّانا

ابن أُدَيَّة — وهى جدَّته ، وأبو حُدَيْر ، وهو أحدُ بنى رَبيعة بن حَنْظلة بن مالك بن زيد مَناة بن تميم ، قال عِمران بنُ حِطّان :

لقد زادَ الحياةَ إلىَّ بُغضاً ... وحُبّاً للخروجِ أبو بِلالِ

أُحاذِرُ أن أموت على فِرَاشى ... وأرجو الموتَ تحتَ ذُرَا العَوَالى

ولو أنّى علمتُ بأنَّ حَتْفِى ... كحَتْفِ أبى بلالٍ لم أُبالِ

فمَنْ يكُ هَمُّهُ الدنيا فإنّى ... لهَا واللهِ ربِّ البيتِ قالى

وفيه يقولُ :

يا عَيْنُ بَكّى لِمِرْدَاسٍ ومَصْرَعِهِ ... يا رَبَّ مِرْدَاسٍ اجْعَلْنى كمِرداسِ

تركْتَنى هائماً أبكى لِمرْزِئَتى ... فى منزلٍ مُوحِشٍ من بعدِ إيناسِ

أنكرتُ بَعدَكَ مَنْ قد كنتُ أعرفُه ... ما الناسُ بعدَكَ يا مِرْداسُ بالناسِ

إمَّا شربْتَ بكأسٍ دارَ أوَّلُها ... على القرونِ فذاقُوا جُرْعةَ الكاسِ

فكلُّ مَنْ لم يَذُقْها شاربٌ عَجلاً ... منها بأنفاسِ وِرْدٍ بعدَ أنفاسِ

* * *

وكان من حديث عِمرانَ بن حِطّانَ فيما حدثنى العباسُ بن الفرجِ الرِّيَاشِىُّ عن محمد بن سَلّام أنه لمَّا أطْرَدَهُ الحجاجُ كان يَنتقلُ فى القبائل ، فكان إذا نزل فى حىٍّ انْتَسَبَ نَسَباً يَقْرُب منه ، ففى ذلك يقول :

نَزَلْنَا فى بَنى سَعْدِ بن زيدٍ ... وفى عَكٍّ وعامِرِ عَوْبَثَان[1]

---

(١) فى الأصل : « عوثبان » ، وما أثبته عن ر ، وهو يوافق مافى القاموس .

من بنى عامرٍ يضحكونَ منه ، فأتاه رجلٌ يومًا ممّن رآه عند رَوْح بن زنْباعٍ فسلَّمَ عليه ، فدعاه زُفَرُ فقال : منْ هذا ؟ فقال : رجلٌ من الأزْدِ ، رأيتُه ضيفاً لرَوْحِ بن زنباعٍ ، فقال له زفَرُ : يا هذا ، أأَزدِيًّا[1] مرةً وأوزاعِيا مرةً ! إن كنتَ خائفاً أمّنّاكَ[2] ، وإن كنتَ فقيراً جبرْناكَ . فلما أمسَى هَرَبَ وخَلَّفَ فى منزله رُقعةً فيها :

إنّ التى أصبحتْ يَعْيا بها زُفَرٌ ... أعْيتْ عَياءً على رَوْحِ بنِ زِنْباعِ

قال أبو العباس : أنشدنى[3] الرِّياشِيُّ :

* أعْيَا عَيَاهَا على رَوْحِ بن زِنْباعِ *

ـ وأنكَرَه كما أنكَرناه ، لأنه قَصَرَ الممدود ، وذلك فى الشعرِ جائز ، ولا يجوز مدُّ المقصور ـ .

ما زَالَ يَسأَلُنى حَوْلًا لِأخْبِرَهُ ... والناسُ من بين مَخْدوعٍ وخَدَّاعِ

حتى إذا انقطعتْ عنى وَسَائِلُهُ ... كَفَّ السؤالَ ولم يُولعْ بإهْلاعى

فاكفُفْ كما كَفَّ عَنِّى إننى رجلٌ ... إمَّا صَمِيمٌ وإما فَقْعَةُ القاعِ

واكفُفْ لسانَكَ عن لوْمى ومسألتى ... ماذا تُريدُ إلى شَيْخٍ لأوزاعِ !

أما الصلاةُ فإنى لَستُ تارِكَها[4] ... كلُّ امْرِئٍ للذى يُعْنَى به ساعى

أكْرِمْ برَوْحِ بن زنباعٍ وأسْرتِهِ ... قومٌ دَعَا أوَّلِيهمْ للعلا داعى

جاوَرْتُهُمْ سَنة فيما أسَرَّ به ... عِرْضى صحيحٌ ونوْمى غيرُ تَهجاعِ

---

(١) ر : « أزديا ؟ » .

(٢) ر : « آمناك » .

(٣) ر : « أنشدنيه » .

(٤) ر : « غير تاركها » .

فلم يدرِ عبدُ الملك لِمَنْ هو . فرجعَ روحٌ إلى عمرانَ بن حطانَ ، فسأله عنه . فقال عمرانُ : هذا يقولُه عمرانُ بن حِطّانَ ، يَمدح به عبد الرحمن بن مُلْجَمٍ ، قاتلَ على بن أبي طالبٍ . فرجعَ روحٌ إلى عبدَ الملك فأخبره ، فقال له عبدُ الملك : ضَيْفُكَ عمرانُ بن حِطّانَ ، اذهبَ فجئنى به ، فرجَع إليه ، فقال : إن أميرَ المؤمنين قد أحبَّ أن يراكَ ، قال عمرانَ : قد أردتُ أن أسألَكَ ذلك فاستحييتُ منكَ ، فامْضِ فإنى بالأثَر ، فرجَع روحٌ إلى عبد الملك فأخبره ، فقال له[1] عبد الملك : أمَا إنّكَ سترجعُ فلا تجدُه ! فرجع وقد ارتحلَ عمرانُ ، وخَلَّفَ رُقْعَة فيهاَ :

يا رَوْحُ كم من أخِي مَثْوَى نزلتُ به ... قد ظَنَّ ظَنَّكَ من لَخْمٍ وَغَسَّانِ
حتى إذا خِفْتُهُ فارَقْتُ منزلَهُ ... مِنْ بَعْدِ ما قيلَ عمرانُ بنُ حِطّانِ
قد كنتُ جارَكَ حَوْلًا ما تُرَوِّعُني ... فيه رَوائعُ من إنْسٍ ومِنْ جان
حتى أردتَ بىَ العُظْمَى فأدركني ... ما أدْرَكَ الناسَ من خوفِ ابنِ مَرْوَانِ
فاعْذِرْ أخاكَ ابْنَ زِنْباعٍ فإنَّ له ... فى النائباتِ خُطوبًا ذاتَ ألوانِ
يومًا يمانٍ إذا لاقيتُ ذا يَمَنٍ ... وإنْ لَقِيتُ مَعَدِّيًّا فَعَدْنانِى
لو كنتُ مستغفراً يومًا لطاغيَةٍ ... كنتَ المُقدَّمَ فى سرِّى وإعْلانِى
لكنْ أبَتْ لِيَ آياتٌ مُطهَّرَةٌ ... عند الولاية فى طه وَعِمْرانِ

ثم ارتحل حتى نزلَ بزُفَرَ بن الحارثِ الكلابىِّ ، أحدِ بنى عمرو بن كلابٍ . فانتسبَ له أوْزَاعِيًّا — وكان عمرانُ يُطيلُ الصلاةَ ، وكان غِلْمانٌ

---

(١) كلمة « له » ساقطة من ر .

مِن هذا : « ثَوَى يَثْوِى ثويًّا » كقولك : مَضى يَمْضِى مُضِيًّا ، ويقال : ثَواءً ، ومَضاءً ، كما قال الشَّمَّاخُ :

طال الثَّوَاء على رَسْم بِيَمْؤُدِ   أَوْدَى وكلُّ جَديدٍ مَرَّةً مُودِى

وقوله :

* فِيه رَوَائعُ مِن إنسٍ ومِن جانٍ *

الواحدةُ رَائعة ، يقال : رَاعَنِي يروعُني رَوْعًا ، أى أفزَعَنِي . قال الله تعالى ذِكرُهُ : ﴿ فلمَّا ذَهَبَ عن إبراهيمَ الرَّوْعُ ﴾[1] . ويكونُ الرائعُ الجميل ، يقال : جمالٌ رائعٌ ، يكون ذلك فى الرجل والفرس وغيرهما ، وأحْسِبُ الأصلَ فيهما واحداً ، لأنه يفرِطُ حتى يَروع ، كما قال الله جل ثناؤه : ﴿ يَكادُ سَنَا بَرْقه يَذْهَبُ بالأبْصارِ ﴾[2] ، للإفراط فى ضيائِه . والرائع ، مهموزٌ ، وكذلك كلُّ فعل من الثلاثة تماعينه واو أو ياء ، إذا كانت معتلةً ساكنةً ، تقولُ : قالُ يقول ، وباع يبيع ، وخَافَ يخافُ ، وهاب يَهاب ، يَعْتَلُّ اسمُ الفاعل فيُهمَزُ موضع العين ، نحو قائل ، وبائع ، وخائفٍ ، وهائبٍ . فإن صَحَّت العين فى الفعل صحَّت فى اسم الفاعل ، نحو : عَورَ الرجلُ فهو عاوِرٌ . وصَيِدَ فهو صايِدٌ ، والصَّيَدُ : داء يأخذُ فى الرأس والعينين والشُّؤون . وَإنما صحت فى « عَورَ » و « حَولَ » و « صَيِدَ » لأنه منقولٌ من « أحْوَل » و « أعْوَر » . وقد أحكمنا تفسيرَ هذا فى الكتاب المُقْتَضب

---

(١) سورة هود ٧٤   (٢) سورة النور ٤٣ .

فاعْمَلْ فإنك مَنْعِيٌّ بواحدةٍ   حَسْبُ اللبيبِ بهذا الشَّيْبِ من ناعِي

ثم ارتحل حتى أتى عُمانَ ، فوجدهم يُعَظِّمُونَ أمرَ أبي بلال ويُظهرونه . فأظهرَ أمرَه فيهم ، فبلغ ذلك الحجَّاجَ ، فكتبَ إلى عامل[1] عُمان . فارتحلَ عمرانُ هارباً ، حتى أتَى قومًا من الأزدِ ، فلم يَزَلْ فيهم حتى مات ؛ وفى نزوله بهم يقولُ :

نزَلْنَا بحمدِ اللهِ فى خير مَنزِلٍ   نُسَرُّ بما فيه من الإنسِ والخَفَرْ

نزلْنَا بقومٍ يَجْمَعُ اللهُ شَمْلَهُمْ   وليس لهم عُودٌ سِوَى المَجْدِ يُعْتَصَرْ

مِن الأزْدِ إنَّ الأزْدَ أكرمُ أسْرةٍ[2]   يَمَانِيَةٍ طابوا إذا نُسِبَ البَشَرْ

فأصبحتُ فيهم آمِناً لا كَمَعْشَرٍ   أتَوْنِي فقالوا من رَبِيعةَ أَوْ مضرْ

أَم الحيِّ قَحْطانٍ ؟ فتِلْكُمْ سَفاهة   كما قال رَوْحٌ لى وصاحِبُهُ زُفَر[3]

وَمَا مِنهما إلَّا يُسَرُّ بِنِسْبَةٍ   تُقَرِّبِنِي مِنْهُ وَإنْ كانَ ذَا نَفَرْ

فَنَحْنُ بَنُو الإسْلامِ واللهُ وَاحِدٌ   وأَوْلَى عبادِ اللهِ باللهِ مَنْ شَكَرْ

قوله :

* يا رَوْحُ كم مِن أخِي مَثْوَى نَزَلْتُ به *

قد مَرَّ تفسيرُه ، يقالُ : هذا أبو مَثْوَاىَ ، وللأنثى : هذه أُمُّ مَثْواىَ ، ومنزلُ الإضافة[4] وما أشْبَهَا المَثْوَى . وكذلك قال المفسرون فى قول الله عز وجل : ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ ﴾[5] ، أىْ إضَافتَه . ويقال

---

(١) ر : « أهل » .   (٢) ر : « معشر »   (٣) ر : « لى روح »
(٤) ر : « الضيافة »   (٥) سورة يوسف ٢١

وقوله : « عنـدَ الولاية » إذا فتحتَ فهو مصدرُ « الوَلِيّ » وفي القرآنِ المجيدِ : ﴿ ما لـكمْ من وَلَايَتِهِم مِّنْ شَىْءٍ ﴾(١) . والوِلايةُ مكسورةٌ ، نحو السِّياسة والرِّياضة والإيالةِ ، وهى الولايةُ ، وأصلُه من الإصلاحِ ، يقال : آلَهُ يؤُولُه أَوْلًا ، إذا أصلَحه . قال عمرُ بن الخطابِ : قد أُلْنَا وَإِيلَ علينا ، تأويلُ ذلك : قدْ وَلِينا ووُلِيَ علينا . وهذه كلمةٌ جامعةٌ ، يقول : قد وَلِينا فعَلِمنا ما يُصْلِح الوالِيَ ، ووُلِيَ علينا فعَلِمنا ما يُصْلِحُ الرَّعِيَّةَ .

وقوله :

* حتى إذا ما انْقَضَتْ مِنِّى وَسائِلُه *

وهى الذَّرِيعةُ والسَّبَبُ ، يقال : قد تَوَسَّلْتُ إلى فلانٍ ، قال رؤْبَةُ ابنُ العجَّاج :

والناسَ إنْ فَصَّلْتَهُمْ فَصائِلا كلٌّ إلينا يَبْتَغِى الوَسائِلا

وقوله : « ولمْ يُولَعْ بإغلاَعِى » ، أى بإفزاعى وترويعى ، والهَلَعُ من الجُبْنِ عند ملاقاةِ الأقرانِ ، يقال : نعوذ بالله من الهَلَعِ ، ويقال : رجلٌ هَلُوعٌ ، إذا كان لا يَصْبِرُ على خيرٍ ولا شرّ ، حتى يفعلَ فى كل واحدٍ منهما غيرَ الحَقِّ ، قال اللهُ عز وجلّ (٢) : ﴿ إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ (٣) . وقال الشاعرُ :

وَلِى قَلْبٌ سقيمٌ ليس يَصْحُو ونفسٌ ما تُفِيقُ من الهُـلاعِ

---

(١) سورة الأنفال ٧٢

(٢) ر : « وهو أصدق القائلين » . (٣) سورة المعارج ١٩ ـ ٢١

وقوله :

بومًا يمانٍ إذا لاقيتُ ذا يَمَنٍ   وإن لقيتُ مَعَدِّيًّا فعدنانى

يريد أنا يومًا يمان ، ولولا أنَّ الشِّعر لا يصلحُ بالنصب لـكان النصبُ جائزاً ، على معنى أتنتقلُ يوماً كذا ويوما كذا ، والرفع حسنٌ جميلٌ . وهذا الشعرُ يُنْشَدُ نصباً .

أَفِى السلم أعياراً جَفاءً وغِلْظَةً   وفى الحرب أمثالَ النساءِ العوارِكِ ! (١)

العوارك ، هُنَّ الحوائضُ . وكذلك قوله :

أَفى الولائمِ أولاداً لواحدةٍ   وفى المحافل أولاداً لِعَلَّاتِ !

قال : العلاتُ ، سُمِّيتْ لأن الواحدة تُعَلُّ بعدَ صاحبتها ، وهو من العَلَلِ ، وهو الشُّربُ الثانى ، أى يختلفون ويتحوَّلون فى هذه الحالاتِ ومن كلام العرب : أتميميًّا مرةً وقيسيًّا أخرى ! وكذلك إن لم تستفهم وأخبرت قلت : تميميا مرةً عَلِمَ اللهُ وقَيْسِيًّا أخرى ، أى تنتقِلُ . ومن ثَمَّ قال له زُفَرُ بنُ الحارث : أزديًّا مرةً وأوزاعيًّا أخرى ؟ والرفع على « أنتَ » جَيِّدٌ بالغٌ .

وقولهُ :

* لو كنتُ مستغفراً يوماً لطاغية *

يكون على وجهين : لنفسِ طاغيةٍ ، والآخرُ المذكَّر ، وزاد الهاء للتوكيد والمبالغة ، كما يقالُ : رجل راويةٌ وعَلّامَةٌ ونَسّابةٌ ، وكلاهما وَجْهٌ . ويقال : جاءت طاغيةُ الرُّوم ، تريد الجماعة الطاغية ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تَقْتُلكَ الفِئَةُ الباغِيَةُ » .

(١) الأعيار : جمع عير ؛ وهو الحمار ، والبيت من شواهد الـكتاب ١ : ١٧٢ .

وقوله :

* مِنَ الْأَزْدِ إِنَّ الْأَزْدَ أَكْرَمُ أُسْرَةٍ *

يقولُ : عصابة وقبيلة ، ويقالُ للرجلِ : من أىّ أُسْرَةٍ أنتَ ؟ وأصلُ هذا من الاجتماعِ ، يقال للقَتَبِ : مأسُورٌ ، وقد مضى تفسيره .

ويُنْشَدُ :

* يَمَانِيَةٌ قَرْبُوا إذا نُسِبَ البَشرْ *

يريدُ « قَرُبُوا » ، وهذا جائزٌ فى كلِّ شىء مضمومٍ أو مكسور إذا لم يكن من حركات الإعرابِ ، تقولُ فى الأسماء فى فَخِذٍ ، فَخْذٌ ، وفى عَضُدٍ ، عَضْدٌ ، وتقولُ فى الأفعال : كَرْمَ عبدُ الله ، أى كَرُمَ ، وقد عَلْمَ اللهُ ، أى عَلِمَ اللهُ ، قال الأخْطَلُ :[1]

فإن أَهْجُهُ يَضْجَرْ كما ضَجْرَ بَازِلٌ من الإبل دَبْرَتْ صَفْحَتَاهُ وكاهِلُهْ[2]

وقال آخرُ :

عَجِبْتُ لمولودٍ وليس له أبٌ وذِى وَلَدٍ لم يلْدَهُ أبوانِ

ولا يجوز فى « ضَرَبَ » ولا فى « جَمَلٍ » أن يُسكَّنَ ، لخفة الفتحة .

وقوله :

* أَتَوْنِى فقالُوا مِن ربيعةَ أو مُضَرْ *

يقول : أَمِنْ رَبيعةَ أم من مُضَرَ ؟ ويجوزُ فى الشعر حذفُ ألف الاستفهامِ ، لأن « أم » التى جاءَتْ بعدَها تدلُّ عليها ، قال ابنُ أبى ربيعةَ :

---

(١) يهجو كعب بن جعيل .

(١) البازل من الإبل : ما دخل فى التاسعة ودبرت ، من الدبر ؛ وهو الجرح فى ظهر الدابة : والصفحتان : الجانبان .

وقوله :

* إِمَّا صَمِيمٌ وَإِمَّا فَقْعَةُ القَاعِ *

الصميم : الخالصُ من كل شىء ، يقال : فلانٌ من صميم قومه ، أى من خالصهم . وقال جريرٌ لهشام بن عبد الملك :

وتَـنْزِلُ من أُمَيَّةَ حيثُ تَلْقَى ‏ ‏ ‏ ‏ شُـؤُونُ الرأسِ مُجْتَمِعَ الصَّمِيمِ

وقوله : « وإِمَّا فَقْعَةُ القَاعِ » يقال لمن لا أصلَ له : هو فَقْعَة بقَاعٍ ، وذلك لأن الفقعةَ لا عُروقَ لها ولا أغصانَ ، والفَقْعَةُ الكَمْأَةُ البيضاء ، ويقال : حمامٌ فقِّيعٌ لبياضه ، ومن ذا قولُ الشاعر :

قومٌ إذا نُسِبُوا يكونُ أَبُوهُمُ ‏ ‏ ‏ ‏ عند المَنَاسِبِ فَقْعَةً فى قَرْقَرِ (١)

وقال بعضُ القرشيين :

إذا ما كنتَ مُتَّخِذاً خليلًا ‏ ‏ ‏ ‏ فلا تجْعَلْ خليلَكَ من تَمِيمِ

بَلَوْتُ صَمِيمَهُمْ والعبدَ منهم ‏ ‏ ‏ ‏ فما أَدْنَى العَبِيدَ من الصَّمِيمِ !

وقوله :

* نُسَرُّ بما فِيهِ مِنَ الإِنْسِ والخَفَرْ *

فأصل الخَفَر شِدَّةُ الحياءِ يقال : امرأةٌ خَفِرَةٌ ، إذا كانت مستترةً لاستحيائها ، قال ابنُ نُمَيْرٍ الثَّقَفِىُّ :

تَضَوَّعَ مِسْكاً بطْنُ نَعْمانَ أَنْ مَشَتْ ‏ ‏ ‏ ‏ به زينبٌ فى نِسْـوَةٍ خَفِرَاتِ

---

(١) القرقر : الأرض المطمئنة اللينة .

معناه وما منهما واحدٌ ، فَحَذَفَ لعلم المخاطَب ، قال الله جلَّ اسْمه : ﴿ وإن منْ أهْلِ الكتابِ إلَّا لَيُؤْمِنَنَّ به قَبْلَ موتِه ﴾ (١) ، أى وإن أحدٌ .ومعنى « إنْ » معنى « ما » ، قال الشاعر : (٢)

وما الدَّهرُ إلَّا تارَتَانِ فمنهما أموتُ وأُخرى أبْتَغي العيشَ أكْدَحُ

يريدُ فمنهما تارةٌ .

وقوله :

فنَحنُ بَنُو الإسلامِ واللهُ واحدٌ وأوْلَى عبادِ اللهِ باللهِ مَنْ شَكَرْ

يقول : انقطعت الوَلاية إلاَّ وَلايةَ الإسلامِ لأن وَلايةَ الإسلامِ قد قاربتْ بين الغُرَباء . وقال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ إنَّما المُؤْمِنُون إخْوَةٌ ﴾ (٣) . وقال عزَّ وجلَّ — فباعَدَ به بينَ القَرابةِ : ﴿ إنَّهُ لَيْسَ مِنْ أهْلِكَ ، إنَّه عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ (٤)

وقال نَهارُ بن تَوْسِعَةَ اليَشْكُرِيُّ :

دَعِيُّ القومِ يَنْصُرُ مُدَّعِيهِ لِيُلْحِقَهُ بِذِى الحَسَبِ الصَّمِيمِ

أَبِي الإسلامُ لا أَبَ لِي سِوَاهُ إذا افتخَرُوا بقيسٍ أو تَمِيمِ

[أول من حكم من الخوارج]

ويقالُ فيما يُرْوَى من الأخبارِ إنَّ أوَّلَ مَنْ حَكَّمَ عُرْوةُ بن أُدَيَّةَ — وأُدَيَّة جَدَّةٌ له فى الجاهلية (٥) — وهو عروةُ بن حُدَيرٍ ، أحدُ بنى ربيعةَ بن حنظلة . وقال قومٌ : بل أولُ مَنْ حَكَّمَ رجلٌ يقال له سَعِيدُ من بنى مُحارِب بن خَصَفَة

(١) سورة النساء ١٥٩
(٢) هو تميم بن أبى بن مقبل .
(٣) سورة الحجرات ١٥
(٤) سورة هود ٤٦
(٥) ر : « جدة له جاهلية » .

لعَمْرُكَ ما أدرِى وإن كنتُ دَارِياً   بسَبْعٍ رَمَيْنَ الجمْرَ أمْ بثمان

يريدُ : أبِسَبْعٍ ؟ وقال التَّميميُّ :

لَعَمرُكَ ما أدرِى وإنْ كنتُ دارياً   شُعَيْثُ بن سَهْمٍ أم شُعَيْثُ بن مِنْقَر !

الروايةَ على وجهين : أحدُهما : أمِن رَبيعة أم مُضَرْ ، أمِ الحيِّ قحطانِ ؟ يريدُ أذا أم ذا ؟ والأملح [١] فى الرواية : مِن ربيعةَ أو مضرْ ، أم الحىّ قحطانِ ؟ لأن ربيعةَ أخو مُضَرَ ، فأرادَ مِن أحد هذين أمِ الحيِّ قَحْطانَ ؟ لأنَّهُ إذا قال : أزيدٌ عندكَ أم عمرٌو ؟ فالجوابُ : نَعَمْ أو لا ، لأن المعنى أحد هذين [٢] عندَكَ ، ومعنى الأولِ : أيُّهما عندكَ ؟

ويُروَى — وحدَّثنيه المازنيُّ — أنّ صَفيَّةَ بنتَ عبد المُطَّلِب أتاها رجلٌ ، فقال لها : أينَ الزُّبَيْرُ ؟ قالت : وما تُرِيدُ إليه ؟ قال : أُريد أنْ أُباطِشَهُ ! فقالت : ها هو ذاكَ ، فصار إلى الزبير فباطشه . فغلبه الزبيرُ ، فمرَّ بها مَفْلُولاً [٣] فقالت صفيةُ :

كيف رأيتَ زَبْرَا   أأَقِطاً أو تَمْـــرَا

أم قُرَشِيًّا صَـــقْرَا

لم تَشُكَّ بينَ الأقِطِ والتَّمر ، فتقول : أيُّهما هو ؟ ولكنها أرادتْ : أرأيتَهُ طعاماً أم قرشيًّا صقراً ؟ أى أأَحدَ هذين رأيتَهُ أم صقْراً ؟ ولو قالت : أأقطاً أم تمرًا ؟ لكان [٤] محالا على هذا الوجه

وقوله :

* وما مِنهما إلَّا يُسَرُّ بنِسْبَةٍ *

---

(١) ر : « والأصلح » .
(٢) ر : « لأن أحد هذين عندك » .
(٣) مفلولا : مهزوما .
(٤) ر : « كان » .

وآخرُكَ لدعْوَة ، وأنتَ بعد عاصٍ لربكَ ! ثم أمرَ به فضربَتْ عنقه ، ثم دعا مولاه فقال : صِفْ لى أمورَه ؟ فقال : أأطْنِبُ أم أختَصِرُ ؟ فقال : بل اختَصِرْ . فقال : ما أتيتُه بطعامٍ بنهارٍ قطُّ ، ولا فرشتُ له فراشاً بليل قطُّ .

[مناظرة على بن أبي طالب لهم]

وكان سببُ تسميتهم الحرُوريةَ أن عليًّا رضوان الله عليه ، لمَّا ناظرهم بعد مناظرةِ ابن عباس رحمه الله إياهم ، كان فيما[1] قال لهم : ألا تعلمُون أنَّ هؤلاء القومَ لمَّا رفَعوا المصاحفَ قلتُ لكم : إن هذه مكيدةٌ ووَهْنٌ ، وأنهم لوقصدُوا إلى حُكْمِ المصاحف لم يأتونى ، ثم سألونى التحكيمَ . أفعَلِمْتم أنه كان منكم أحدٌ أكرَهَ لذلك منّى ؟ قالوا : اللهمَّ نعَمْ قال : فهل علمْتُمْ أنكم استكرهتُمونى على ذلك حتى أجبتُكم إليه ، فاشترطتُ أنَّ حُكْمَهما نافذٌ ما حَكمَا بحُكْم الله عزَّ وجلَّ ، فمتى[2] خالفاه فأَنا وأنتم من ذلك برَءاء ، وَأنتم[3] تَعلمون أنَّ حكم الله لا يعدونى ؟ قالوا : اللهم نعم — وفيهم فى ذلك الوقت ابن الكَوَّاء ، وهذا من قَبْل أن يذبحوا عبدَ الله بن خَبَّابٍ ؟ فإنما ذَبحوه بكَسْكَرَة فى الفرقةِ الثالثةِ — فقالوا : حَكَّمْتَ فى دين الله برأينا ، ونحن مُقرّون بأنّا قد كفَرنا ، ونحن تائبون ! فأقرِرْ بمثل ما أقررنا وتُبْ ننهضْ معك إلى الشأم ، فقال : أما تعلمون أن الله جلَّ ثناؤه قد أمرَ بالتحكيم

---

(١) ر : « فكان بما » .
(٢) ر : « فإن » .
(٣) ز : « أو أنتم » .

ابن قَيْس بن عَيْلان بن مُضَرَ . ولم يختلفوا فى إجماعهم على عبد الله بن وَهب الراسِبِىّ ، وأنه امتنع عليهم ، وأومأ إلى غيره ، فلم يَقْنَعُوا إلّا به ، فكان إمام القوم ، وكان يوصَف بالرَّأى .

[أول سيف سل من سيوفهم]

فأما أولُ سيف سُلَّ من سيوف الخوارج فسيفُ عُرْوَةَ بن أُدَيَّة ، وذلك أنه أقبل على الأشْعَث فقال : ما هذه الدنيّة[1] يا أشعثُ ! وما هذا التحكيمُ ؟ أَشرْطُ أَوْثقُ من شَرْطِ الله عزَّ وجلَّ ! ثم شَهَرَ عليه السيفَ ، والأشعثُ مُولٍّ ، فضربَ به عَجُزَ البغلةِ ، فشَبَّتْ البغلة فنَفَرَتِ اليمانيَةُ — وكانوا جُلَّ أصحاب علىٍّ صلوات الله عليه — فلما رأى ذلك الأحْنَفُ قَصَدَ هو وجاريةُ بن قدامة ومسعود بن فَدَكِىّ بن أَعْبَدَ ، وشَبَثُ بن رِبْعِىٍّ الرِّيَاحىُّ إلى الأشْعثِ فسألوه الصَّفْحَ ، ففعلَ .

* * *

وكان عروةُ بن أُدَيَّة نَجَا من حرب النَّهْرَوانِ ، فلم يَزَلْ باقياً مدةً من خلافة معاوية ، ثم أُتِىَ به زيادٌ ومعهُ مولًى له ، فسأله عن أبى بكرٍ وعمرَ ، فقال خيرًا ، ثم سأله فقال : ما تقولُ فى أمير المؤمنين عثمانَ بن عَفَّان وأبى تُرَابٍ علىّ بن أبى طالبٍ ؟ فتولَّى عثمان سِتَّ سنينَ من خلافتِه ، ثم شَهِد عليه بالكفر ! وفعَل فى أمر علىَّ مثلَ ذلك إلى أن حَكَّمَ ، ثم شهد عليه بالكفر ! ثم سأله عن معاويةَ ؟ فسبَّه سبًّا قبيحًا ! ثم سأله عن نفْسِه ؟ فقال : أولُكَ لِزِنْيَة

(١) ر : « الدنيئة »

ما كان فى آخره ألفُ التأنيثِ الممدودةِ ، لكنه نُسِبَ إلى البلد بحذف الزوائد ، فقيل : الحروريُّ .

[للصلتان العبدى]

وقالَ الصَّلتانُ العَبْدِيُّ فى كلمةٍ له :

أرى أمّةً شَهَرَتْ سَيْفَهَا ... وقد زِيدَ فى سَوْطِها الأصْبَحى

بنَجْدِيّةٍ وحَــرُورِيَّةٍ ... وأَزْرَقَ يَدْعُو إلى أزرَقِ

فَمِلّتنَا أننَا المسلمونَ ... على دِينِ صِدّيقنَا والنَّبى

وفى هذا الشعرِ مما يُسْتَحْسَنُ قولُه :

أشابَ الصغيرَ وأفْنى الكبيرَ ... مرّ الغداة وكَرُّ العَشى[1]

إذا ليــلةٌ هَرَّمَتْ يومَها ... أتى بعدَ ذلك يومٌ فَتِى

نَروحُ ونَغْدو لحاجاتِنَا ... وحاجةُ من عاشَ لا تَنْقَضِى

تموتُ مع المرْء حاجاتُه ... وتَبْـقى له حاجة ما بَقِى

قوله :

* وقد زيدَ فى سوطها الأصْبَحِى *

فإنه تُسمّى هذه السياط التى يُعاقِبُ بها السلطانُ الأصْبَحِيَّةَ ، وتُنْسبَ إلى ذى أَصْبَحَ الحِمْيَرى ، وكان مِلِكا من ملوك حِمْيَرَ ، وهو أوّلُ من اتخذها ، وهو جدُّ مالك بن أنسٍ الفقيه رضى الله عنه .

---

(١) ر :

* مُرُورُ الليالى وَكَرُّ العَشى *

فى شِقَقٍ بين رجلٍ وامرأته[١] ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ فابعثُوا حَكَمًا مِن أهْلِهِ وحكمًا مِن أهْلِهَا ﴾[٢] وفى صيدٍ أُصِيبَ فى الحرَم ، كأَرنب تساوى رُبْعَ درهم[٣] ، فقال عزَّ وجلَّ : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾[٤] ؟ فقالوا : إن عمرًا لمَّا أبى عليكَ أن تقولَ فى كتابك : « هذا ما كتبه عبدُ الله علىٌّ أميرُ المؤمنين » محوْتَ اسمكَ من الخلافة ، وكتبتَ « علىّ بنُ أبى طالب » . فقال لهم رضى الله عنه : لِى برسول الله صلى الله عليه وسلم أُسْوَةٌ ، حيثُ أبَى عليه سُهَيْلُ بن عمرٍو أن يكتبَ : « هذا كتابُ كتبه محمدٌ رسول الله وسهيلُ بن عمرو » فقال : لو أقررتُ[٥] بأنك رسول الله ما خالفتُك[٦] ، ولكنّى أُقدِّمك لفضلِك ، ثم قال : اكْتُبْ : « محمدُ بن عبد الله » ، فقال لى : « يا علىُّ ، امحُ رسولَ الله » . فقلتُ : يا رسول الله ، لا تَسْخو نفسى بمَحْوِ اسمِك من النبوَّة ، فقال عليه السلام : « فقفنى[٧] عليه » ، فمحاهُ بيده صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « اكْتُبْ محمد بن عبد الله » ، ثم تبسَّم إلىَّ فقال : « يا علىُّ ، أَمَا إنكَ سَتسامُ مِثلها فتُعْطِى » . فرَجَعَ معه منهم ألفانِ من حَرُورَاءَ[٨] ، وقد كانوا تجمَّعوا بها ، فقال لهم علىٌّ صلواتُ الله عليه : مَا نُسَمِّيكُمْ ؟ ثم قال : أنتم الحرورِيةُ ، لاجتماعكم بحَرُورَاءَ .

وَالنَّسَبُ إلى مثلِ « حَرُورَاءَ » « حَرَوْرَاوِىٌّ » ، فاعْلَمْ ، وكذلك كلُّ

---

(١) ر : « وامرأة » .
(٢) سورة النساء ٣٥
(٣) ر : « يساوى ربع دينار » .
(٤) سورة المائدة ٩٥
(٥) ر : « أقررنا » .
(٦) ر : « ما خلفناك » .
(٧) ر : « قفنى » .
(٨) حروراء : قرية قريبة من الكوفة .

وقوله :

* على دينِ صِدِّيقنا والنبى *

فالعرب تفعلُ هذا ، وهو فى الواو جائز ، أن تَبْدَأَ بالشىء والمُقدَّمُ غيره[1] ، قال الله عزَّ اسمُه : ﴿ هو الَّذِى خَلَقَكم فمنكم كافرٌ ومنكم مُؤمنٌ ﴾[2] ، وقال : ﴿ يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإنسِ ﴾[3] ، وقال : ﴿ واسْجُدِى وارْكَعِى مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾[4] . وقال حَسَّانُ بن ثابتٍ :

بهاليلُ منهم جعفرٌ وابنُ أُمِّهِ   علىٌّ ومنهم أحمدُ المُتَخَيَّرُ

يعنى بنى هاشم .

* * *

ومن كلام العرب : رَبيعةُ ومُضَرُ وَقيسٌ وخِنْدِفُ وسُلَيْمٌ وعامر .

وأصحابُ نافِع بن الأزرق هم ذَوُو الحَدِّ والجِدِّ[5] . وهم الذين أحاطوا بالبصرةِ حتى تَرَحَّلَ أكثَرُ أهلها منها ، وكان الباقون على الرحلة[6] ، فقلَّدَ المُهلَّبُ حَرْبَهم ، فهزَمهم إلى الفرات ، ثم هزمهم إلى الأهْوَاز ، ثم أخرجهم عنها إلى فارسَ ، ثم أخرجهم إلى كَرْمَان ، وفى ذلك يقول شاعرٌ منهم فى هذه الحرب التى صاحبُهَا صَاحِبُ الزَّنْج[7] بالبَصرَةِ ، يَرثى البلد ، ويذكر المَنْقبة التى كانتْ لهم :

---

(١) ر : « وغيرهِ المقدم » .
(٢) سورة التغابن ٢
(٣) سورة الرحمن ٣٣
(٤) سورة آل عمران ٤٣
(٥) الحد ، بفتح الحاء : البأس والنفاذ فى النجدة ، والجد ، بالكسر : الاجتهاد والسرعة فى الأمر ، قاله المرصفى .
(٦) ر : « الترحل » .
(٧) صاحب الزنج : رجل ظهر أيام المهتدى بالله ؛ زعم أنه من ولد على بن الحسين بن على ابن أبى طالب ، ودعا الناس إلى طاعته ، واستمال عدداً كبيراً من الزنوج ، يستعين بهم على العيث والفساد ، سنة ٢٥٥ [illegible]

والنَّجْدِيَّةُ تُنسَبُ إلى نَجْدَةَ بن عُوَيْمِر ، وهو عامرٌ الحنفىّ ، وكان رأساً ذا مَقالةٍ مفردةٍ[1] من مَقالات الخوارج ، وقد بَقِىَ من أهلها قومٌ كثيرٌ . وكان نَجْدَةُ يصلّى بمكّةَ بحذاء عبد الله بن الزُّبَيْر فى جَمْعِهِ فى كل جُمْعَةٍ ، وعبد الله يَطْلُبُ الخلافة ، فيُمسِكانِ عن القتالِ من أجل الحرَم .

[للراعى فى عبد الملك بن مروان]

قال الرّاعى يخاطب عبدَ الملكِ :

إنى حَلَفْتُ على يمينٍ بَرّةٍ ... لا أكْذِبُ اليومَ الخليفةَ قيلا

ما إنْ أتيتُ أبا خُبَيْبٍ وافداً ... يوماً أُريد بِبَيْعتى تبديلاَ

ولا أَتَيْتُ نُجَيْدَةَ بن عُوَيْمِرٍ ... أَبْغِى الهُدَى فيزيدنى تَضْليلاَ

من نِعْمة الرحمن لا من حيلتى ... إنى أُعُــدُّ له علىَّ فُضولاَ

وفى هذه القصيدة :

أَخَذوا العَريف فقطّعوا حَيْزومَهُ ... بالأصبَحِيَّة قائماً مَغلولاَ[2]

قوله :

* وأزْرَقَ يدعُو إلى أزرَقِى *

يريدُ من كان من أصحاب نافع بن الأزرقِ الحنفىّ ، وكان نافعٌ شجاعاً مُقَدَّماً فى فِقْهِ الخوارج ، وله ولعبد الله بن عباسٍ مسائلُ كثيرة ، وسنذكر جملةً منها فى هذا الكتاب ، إن شاء الله .

* * *

---

(١) ر : « منفردة » .

(٢) العريف : القيم بأمور القبيلة .

[من أخبارهم يوم النهروان]

وكان مقدارُ مَنْ أصابَ عليٌّ صلواتُ الله عليه منهم بالنَّهْرَوَانِ ألفين وثمانِيَ مائةٍ ، فى أصحِّ الأقاويلِ ، وكان عَدَدُهُمْ ستةَ آلاف ، وكان منهم بالكوفة زُهاء ألفين ممن يُسِرُّ أمْرَهُ ولم يَشْهَدِ الحربَ ، فخرج منهم رجلٌ بعدَ أنْ قال عليٌّ رضوان الله عليه : ارْجِعُوا وادْفَعُوا إلينا قاتِلَ عبد الله بن خَبَّابٍ ، فقالوا : كُلُّنا قَتَلَهُ وشَرِكَ فى دَمِه ! ثم حَمَلَ منهم رجلٌ على صَفّ عليٍّ ، وقد قال عليٌّ : لا تَبْدَءوهم بقتالٍ ، فقتَلَ من أصحاب عليٍّ ثلاثةً وهو يقولُ :

أُقْتُلُهُمْ ولا أَرَى عَلِيّـا ولو بَدَا أَوْجَرْتُهُ الخَطِّيّا

فخرج إليه عليٌّ صلوات الله عليه فقتله . فلما خالطه السيفُ ، قال : حَبَّذا الرَّوْحةُ إلى الجنةِ ! فقال عبد الله بنُ وَهْبٍ : ما أَدْرِى أَإلَى الجنةِ أم إلى النار ! فقال رجلٌ من سعدٍ : إِنَّما حَضَرْتُ اغتراراً بهذا ، وأراه قد شَكَّ ! فانخزَلَ بجماعةٍ من أصحابه ، ومال ألفٌ إلى ناحية أبى أيوب الأنصاريِّ ، وكان رحمه الله على مَيْمنةِ عليٍّ ، وجعل الناسُ يتسلَّلُونَ ، وقد قال عليٌّ وقيلَ له : إنهم يريدونَ الجسْرَ ؟ فقال : لن يبلغوا النُّطْفَة ، وجعل الناسُ يقولون له فى ذلك ، حتى كادوا يَشُكُّونَ ، ثم قالوا : قد رَجَعُوا يا أمير المؤمنين ، فقال : واللهِ ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ ، ثم خرج إليهم فى أصحابه ، وقد قال لهم : إنه والله ما يُقْتَلُ منكم عَشَرَةٌ ولا يفلت منكم عشرة ، فَقُتِلَ من أصحابه تسعةٌ ، وأفلَتَ منهم ثمانيةٌ

* * *

قال أبو العباس : وقيل أولُ مَنْ حَكَّمَ ولَفَظَ بالحكومة ولم يُشِد

[قال الأخفشُ : أنشدنيه يَزيدُ المُهلَّبيُّ لنفسه] :

سَقى اللهُ مِصرًا خَفَّ أهلوهُ من مصرِ ... وماذا الذى يَبْقَى على عُقَبِ الدَّهرِ! (١)

ولو كنتُ فيه إذ أُبيحَ حَريمُهُ ... لَمُتُّ كَريمًا أو صَدرتُ على عُذرِ

أُبيحَ فلم أَملِكْ له غيرَ عَبرةٍ ... تُهِيبُ بها أَنْ خارَدَتْ لوعَةُ الصَّدرِ (٢)

ونحن رَدَدْنا أهلَها إذ تَرَحَّلوا ... وقد نظمَتْ خيلُ الأزارقِ بالجسرِ

ومن يَخشَ أَطرافَ المَنايا فإنَّنا ... لَبِسنا لهنَّ السَّابغاتِ من الصَّبرِ

فإنَّ كريهَ المَوتِ عَذبٌ مَذاقُهُ ... إذا ما مَزَجْناهُ بِطيبٍ من الذِّكرِ

وما رُزِقَ الإنسانُ مثلَ مَنيَّةٍ ... أَراحتْ من الدنيا ولم تُخزِ فى القبرِ

وفى هذا الشعر :

لِيَشكُرْ بنو العباسِ نُعمى تَجدَّدَتْ ... فقد وَعَدَ اللهُ المَزيدَ على الشُّكرِ

لقد جَنَّبَتْكُمْ أُسرةٌ حَسَدَتْكُمُ ... فَسَلَّتْ على الإسلامِ سَيفًا من الكُفرِ

وقد نَغَّصَتْهُم جَوْلةٌ بعدَ جَولةٍ ... يَبيتون فيها المسلمينَ على ذُعُرِ

* * *

وقال عبدُ الله بن قَيْسِ الرُّقَيَّاتِ :

ألا طَرَقَتْ مِنْ أهلِ بَثْنَةَ طارِقَهْ (٣) ... على أنَّها مَعشوقَةُ الدَّلِّ عاشِقَهْ

تَبيتُ وأرضُ السُّوسِ بَيْني وبَينَها ... وسُولافُ رُستاقٌ حَمَتْهُ الأَزارِقَهْ (٤)

إذا نحنُ شِئْنا صادَفَتْنا عِصابَةٌ ... حَرُوريَّةٌ أَضحَتْ مِنَ الدِّينِ مارِقَهْ

---

(١) عقب الدهر : نوبه وأرزاؤه . (٢) العبرة : الدمعة .
(٣) ر : « بيبة » .
(٤) سولاف : قرية من أرض خوزستان . والرستاق : اسم للسواد والقرى .

ظننتُ أنَّ فيكم أشقاها ، الذى يَخْضِبُ هذه من هذه . وأومأ بيدِهِ إلى هامَتِهِ ولِحيتِهِ .

[من شعر علي بن أبي طالب]

ومن شعرِ عليٍّ بن أبى طالب رحمه الله الذى لا اختلافَ فيه أنه قاله ، وأنه كان يُرَدِّدُهُ ، أنَّهم لمَّا ساموهُ أن يُقِرَّ بالكفر ويتوبَ حتى يَسيرُوا معه إلى الشامِ ، فقال : أَبَعْدَ صُحبةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم والرِّفقهْ فى الدِّين أَرْجِعُ كافراً !

يا شاهِدَ اللهِ علىَّ فاشْهَدِ أنى على دِينِ النبىِّ أحْمَدِ
* مَنْ شَكَّ فى الله فإنِّى مُهْتَدِى *

ويُرْوَى :

* أنى تولَّيتُ وَلِىَّ أحمدِ *

[فى تقسيم غنائم خيبر]

ويُروى أن رجلا أسودَ شديدَ بياضِ الثيابِ ، وقفَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يَقسمُ غنائم خيبَرَ — ولم تكن إلّا لِمَنْ شهد الحُدَيْبية — فأقبلَ ذلك الأسود على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما عَدَلْتَ مُنذ اليوم ! فغضِبَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتى رُئِىَ الغضبُ فى وجهه . فقال عمرُ بن الخطاب : ألا أقتلُه يا رسولَ الله ؟ فقال رسول الله : إنه سيكونُ لهذا ولأصحابه نبأٌ .

بها رجل من بنى سَعْدِ بن زيد مَنَاةَ بن تميم بن مُرٍّ ، ثم[1] من بنى صَرِيم ، يقال له الحجَّاجُ بن عبد الله ، و يُعْرَفُ بالبُرَكِ ، وهو الذى ضَرَبَ معاوية على أَلْيَتِهِ ، فإنه لَمَّا سَمِعَ بذكر الحَكَمَيْنِ قال : أَيُحَكَّمُ فى دِينِ الله ! لا حُكْمَ إلّا لِلّهِ ! فسمعه سامعٌ فقال : طَعَنَ والله فأَنْفَذَ .

وأوَّلُ مَنْ حَكَمَ بين الصَّفَّيْنِ رجلٌ من بنى يَشْكُرَ بنِ بكرِ بنِ وائلٍ ، فإنه كان فى أصحاب علىٍّ ، فَحَمَلَ على رجلٍ منهم فقتله غِيلةً ، ثم مَرَقَ بين الصفَّين فَحَكَمَ ، وحَمَلَ على أصحاب معاوية ، فَكَثَرُوهُ ، فرجَع إلى ناحية علىٍّ صلوات الله عليه ، فَحَمَلَ على رجل منهم ، فخرج إليه رجلٌ من هَمْدَانَ فقتله ، فقال شاعرُ هَمْدانَ :

ما كان أَغْنَى اليَشْكُرِىَّ عن التى ... تَصَلَّى بها جَمْرًا من النار حامِيَا
غَداةَ يُنادِى والرِماحُ تَنوشُهُ ... خَلَعْتُ عَلِيًّا بادِيًا ومُعاوِيَا[2]

وجاء فى الحديث ، أن عليًّا رضى الله عنه تُلِىَ بحضرته : ﴿ قُلْ هل نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمالًا ، الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فى الحياة الدُّنيا وهم يَحْسَبُونَ أنهم يُحْسِنُونَ صُنْعًا[3] ﴾ ، فقال علىٌّ : أهلُ حَرُوراءَ منهم

* * *

ورُوِىَ عن علىٍّ صلوات الله عليه أنه خَرج فى غَدَاةٍ يُوقِظُ الناسَ للصلاةِ فى المسجد ، فمرَّ بجماعةٍ تتحدثُ ، فَسَلَّمَ وسَلَّموا عليه ، فقال وقَبَضَ على لحيته :

---

(١) كلمة « ثم » ساقطة من ر .
(٢) تنوشه : تناله .
(٣) سورة الكهف ١٠٣ ، ١٠٤

قوله صلى الله عليه وسلم : « مِنْ ضِئْضِئ هذا » أى من جنس هذا .

يقال : فلانٌ من ضِئْضِئ صِدْقٍ ، فى مَحْتِدِ صِدْقٍ [١] ، وفى مُرَكَّبِ صِدْقٍ .

وقال جَرِيرٌ للحَكَمِ بن أيُّوبَ بن الحكَم بن أبى عقيلٍ ، وهو ابنُ عم الحجاج ، وكان عاملَهُ على البصرةِ .

أَقْبَلْنَ مِن ثَهْلَانَ أو وَادِى خِيَمْ ... على قِلَاصٍ مثل خيطَانِ السَّلَمْ [٢]

إذا قطَعْنَ عَلَمًا بَدَا عَلَمْ ... حتى أنَخْناها إلى باب الحَكَمْ

خَليفةِ الحجَّاجِ غيرِ المتَّهَمْ ... فى ضِئْضِئ المجْدِ وبُحْبُوحِ الكَرَمْ

ويقال : مَرَقَ السهمُ من الرميَّة ، إذا نفذَ منها ، وأكثر ما يكونُ ذلك ألّا يعْلَقَ به من دَمِها شىء ، وأقطعُ ما يكون السيفُ إذا سَبَقَ الدَّمَ .

قال امرؤ القيس بن عابسٍ الكِنْدِى :

وقد أخْتَلِسُ الضَّرْبَـ ... ـةَ لا يَدْمَى لها نَصْلى

فأمّا ما وضعه الأصمعىُّ فى كتاب « الاختيار » ، فعلى غلط وُضِعَ .

[من أخبار واصل بن عطاء]

وذكر الأصمعىُّ أن الشِّعْرَ لاسحاق بن سُوَيْدٍ الفقيه ، وهو لأعرابىّ لا يَعْرِفُ المقالات التى يميلُ إليها أهلُ الأهْواء ، أنشدَ الأصمعىُّ :

برئت من الخوارجِ لَسْتُ منهم ... مِنَ الغزَّالُ منهم وابن بَاب

---

(١) ر : « ومن محتد » .

(٢) الخيطان : جمع خوط ؛ وهى الأغصان .

وفى حديثٍ آخرَ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال له : « وَيْحَكَ ! فمَنْ يَعْدِلُ إذا لم أَعْدِلْ » ؟ ثم قال لأبى بكرٍ : « اقْتُلْه » ، فمضَى ثم رجَع ، فقال : يا رسول الله ، رأيتُهُ راكعاً ، ثم قال لعمرَ : « اقْتُلْه » ، فمضَى ثم رجَع ، فقال : يا رسول الله رأيتُهُ ساجداً ، ثم قال لعليٍّ : « اقْتُلْه » ، فمضَى ثم رجَع ، فقال : يا رسول الله لم أَرَهُ ، فقال رسولُ الله : « لو قُتِلَ هذا ما اختلفَ اثنان فى دِينِ الله » .

قال أبو العباس : وحدثني إبراهيمُ بن محمد التَّيْمِيُّ قاضى البَصْرَةِ فى إسْنادٍ ذكره ، أن عليا رضى الله عنه وَجَّه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذَهَبة من اليمن ، فَقَسَّمها أرْبَاعًا ، فأَعطى رُبْعاً للأَقْرَع بن حَابِسٍ المجاشِعِيّ ، ورُبْعاً لزَيْدِ الخيلِ الطائىّ ، ورُبْعاً لعُيَيْنَة بن حِصْنٍ الفَزارىّ ، ورُبْعًا لعَلْقَمَةَ بن عُلاثَةَ الكِلابى . فقام إليه رجلٌ مُضْطَرِبُ الخلْقِ غائرُ العينين ، ناتىءُ الجبهةِ ، فقال : لقد رأيتُ قِسمةً ما أُرِيدَ بها وَجْهُ الله ! ، فغَضِبَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتى تَوَرَّدَ خَدَّاهُ ، ثم قال : « أيأمَنُني الله عز وجلَّ على أهل الأرض ولا تأمَنُونى » ! فقام إليه عمرُ فقال : ألا أقتلَه يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « إنه سيكونُ من ضِئْضِئِ هذا قومٌ يَمْرُقون من الدّين كما يَمْرُق السَّهْمُ من الرَّمِيَّة ، تَنْظُرُ فى النَّصْلِ [1] فلا تَرَى شيئاً ، وتنظرُ فى الرِّصافِ [2] فلا تَرَى شيئاً ، وتَتمارَى فى الفُوقِ [3] » .

---

(١) النصل : حديدة السهم والسيف .
(٢) الرصاف : عصب يشد على سنخ النصل (٣) الفوق : مشق رأس السهم .

وقتله المَهْدِيُّ على الإلحادِ . وقد رَوَى قومٌ أنّ كُتبَهُ فُتِّشَتْ فلم يُصَبْ فيها شيءٌ مما كان يُرْمى به وأُصيبَ له كتابٌ فيه : إنِّي أردتُ هِجاءَ آل سُلَيْمان بن عليٍّ ، فذكرتُ قرابتَهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمْسكْتُ عنهم[1] ، [إلّا أنِّي قلتُ :

دِينارُ آل سُلَيْمانٍ وَدِرْهَمُهُمْ كَبَابِلِيَّيْنِ حُفَّا بالعفاريتِ

لا يُرْجيانِ ولا يُرْجَى نوالُهما كما سَمِعْتَ بِهارُوتٍ ومَارُوت][2]

وحدثني المازِنيُّ قال : قال رجلٌ لبشّارٍ : أتأكلُ اللحْمَ وهومُبَاينٌ لدِيانَتِكَ !

— يَذهَبُ به[3] إلى أنه ثَنَوِيٌّ — قال : فقال بشّارٌ : ليسوا يَدْرُون أنَّ هذا[4] يَدْفعَ عنِّي شرَّ هذه الظُّلْمة

* * *

وكان واصلَ بنُ عطاء أحدَ الأعاجيبِ ، وذلك أنه كان ألْثَغَ قبيحَ اللثْغةِ في الراء . فكان يُخَلِّصُ كلامَه من الراء ، ولا يُفْطَنُ بذلك[5] لاقتداره وسهولةِ ألفاظه ففي ذلك يقولَ شاعرٌ من المعتزلة ، يمدحُه بإطالته الخطبَ واجتنابِهِ الراء ، على كثرة تردُّدِها في الكلام ، حتى كأنها ليستْ فيه :

عَليمٌ بإبدالِ الحروفِ وقامِعٌ لِكلّ خَطيبٍ يَغلِبُ الحَقَّ باطِلُهْ

* * *

(١) ر : « منهم » .

(٢) مابين العلامتين من زيادات ر .

(٣) كلمة « به » ساقطة من ر .

(٤) كلمة « هذا » ساقطة من ر .

(٥) ر : « بذاك » .

وَمِنْ قومٍ إذا ذكروا عَلِيًّا … يَرُدُّونَ السَّلامَ على السَّحابِ
ولكنّى أُحِبُّ بكلّ قلبى … وأَعْلَمُ أَنَّ ذاكَ من الصَّوابِ
رسولَ الله والصدّيقَ حُبًّا … به أرجو غدًا حُسْنَ الثَّوابِ

فإنّ قوله : « من الغزّال منهم » يعنى واصِلَ بن عطاء ، وكان يُكْنَى أبا حُذَيْفَة ، وكان معتزليًّا ، ولم يكن غزّالا ، ولكنه كان يُلقّب بذلك ، لأنه كان يَلزَمُ الغزّالينَ ، ليعرِفَ المُتَعَفِّفات من النساء ، فيجعل صدقته لهنّ ، وكان طويلَ العُنُق . ويُرْوَى عن عمرو بن عُبَيْدٍ ، أنه نظرَ إليه من قَبْلِ أن يكلمه ، فقال : لا يُفْلِحُ هذا ما دامتْ عليه هذه العُنُق !

* * *

وقال بَشّارُ بن بُرْدٍ يهجُو وَاصلَ بن عطاء :

ماذا مُنِيتُ بغزّالٍ له عُنُقٌ … كَنِقْنِقِ الدَّوِّ إنْ وَلّى وَإنْ مَثَلا[1]
عُنْقَ الزَّرافةِ ما بالى وبالُكُمُ … تُكَفِّرُونَ رجالاً أكفروا رَجُلا !

ويُرْوَى : لا بَلْ ما لكم[2] ، كأنه لا يَشُكُّ فيه أنّ بشّاراً كان يَتعَصَّبُ للنّار على الأرضِ ، ويصوِّبُ رأىَ إبليسَ — لعنه الله — فى امتناعِه من السجودِ لآدمَ عليه السلام ، ويُرْوَى له :

الأرضُ مُظْلِمةٌ والنارُ مُشْرِقةٌ … والنارُ مَعْبودةٌ مُذْ كانتِ النّارُ

فهذا ما يَرْويه المتكلمون .

* * *

(١) النقنق : الظليم . والدو : الفلاة الواسعة . ومثل ، اى أمام .

(٢) قال المرصفى : هذه عبارة سخيفة ، يريد أن السبب فى هجائه ليس ماذكره بشار من نسبة الكفر إلى أصحابه ، إذ نسبوه إلى واصل ، وإنما السبب ما بلغه من إنكار واصل قوله بفضل النار ويصوب رأى إبليس ، وكلمة « كأنه لا يشك فيه » معترضة » .

إذا تكلّم ، وأجاد[1] الخُطبة ، وكانت لِنكاحٍ ، فردَّ عليه زيدُ بن عليّ بن الحسين كلامًا جيِّدا ، إلا أنه فضَلَهُ بتمكين[2] الحروف وحُسْن مَخارج الكلام .

فقال عبدُ الله بن معاويةَ بن عبد الله بن جعفرٍ يَذكر ذلك :

صَحَّتْ مَخارِجُها وتمَّ حُروفُها ... فلَهُ بذاكَ مَزِيَّةٌ لا تُنكَرُ

المزِيَّة : الفضيلة

وأمَّا قوله : « وابن باب » فهو[3] عمرو بن عُبَيْد بن بَابٍ ، وهو[4] مَوْلَى بنى العدَوِيَّةِ ، مِن بنى مالك بن حَنْظلَة ، فهذان مُعْتَزِليَّانِ ، وليسا مِن الخوارج ، ولكن قصَدَ إسحاق بن سُوَيدٍ إلى أهل البِدَعِ والأهواءِ ، ألا تَراه ذَكر الرافضة معهما ، فقال :

ومِنْ قومٍ إذا ذَكَرُوا عَلِيًّا ... أشارُوا بالسَّلامِ على السَّحاب

ويُرْوى :

* يرُدُّونَ السَّلام على السَّحابِ *

[مقتل على بن أبى طالب رضى الله عنه]

ثم رجع إلى ذكر الخوارِجِ .

قال أبو العباس : فلما قتَلَ عليُّ بنُ أبى طالبٍ أهل النَّهْرَوَانِ ، وكان بالكوفة زُهاءُ ألفينِ من الخوارِجِ ؛ ممن لم يَخْرُجْ مع عبد الله بن وهبٍ . وقومٌ ممن استَأْمَنَ إلى أبى أيوبَ الأنصاريِّ ، فتجمعوا وأمّروا عليهم رجلاً من

---

(١) ر : « فأجاد » .

(٢) ر : « بتمكن »

(٣) ر : « فإنه » .

(٤) ر : « وكان » .

وقال آخر :

وَيَجْعَلُ البُرَّ قَمحاً فى تَصَرُّفِهِ وخالَفَ الراءَ حتى احتالَ للشَّعَرِ
ولم يُطِق «مَطَراً» والقولُ يُعْجِلُه فعاذَ بالغَيْثِ إشفاقاً من المَطَرِ

* * *

ومما حكى[1] عنه قولُه — وذَكَرَ بشَّاراً : أَمَا لهذا الأعمى المُكتَنى بأبى معاذٍ مَن يَقْتُلُه ! أَمَا واللهِ لولا أنَّ الغِيلةَ خُلُقٌ من أَخلاقِ الغالِيَةِ لَبَعَثْتُ إليه من يَبْعَج بطنَه على مَضْجَعِهِ ، ثم لا يكونُ إلاّ سَدُوسِيًّا أو عُقَيْلِيًّا .

فقال : « هذا الأعمى » ولم يقل بَشَّاراً ، ولا ابن بُرْدٍ ، ولا الضرير . وقال : « من أخلاقِ الغالية » ولم يقل المغيريّة ولا المنصوريّة . وقال : « لبعثت إليه » ، ولم يقل : لأرسلتُ إليه . وقال : « على مَضْجَعِه » ، ولم يقل : على فِراشِهِ ، ولا مَرْقَدِهِ ، وقال : « يَبْعَجُ » ، ولم يقل : يَبْقُرُ . وذكر « بنى عقيل » ، لأنَّ بشارا كان يَتَوَالَى إليهم . وذكر « بنى سَدُوسٍ » ، لأنه كان نازلاً فيهم .

واجْتِنابُ الحروفِ شديدٌ

* *

قال : ولما سقطت ثَنايا عبدِ الملكِ[2] بن مروانَ فى الطَّسْتِ[2] . قال : واللهِ لولا الخُطْبَةَ والنساءُ ما حَفَلْتُ بها .

* * *

قال : وخطب الجُمَحِيُّ ، وكان مَنْزوعَ إحدى الثَّنِيَّتَيْنِ ، وكان يَصْفِرُ

---

(١) ر : « يحكى »

(٢-٢) ساقط من ر .

فإنْ سَلِمتَ أرحتَ الناسَ من شَرٍّ ، وأقمتُ مع أهلِكَ ، وإنْ أُصبتَ خرجتَ[١] إلى الجنةِ ونعيمٍ لا يزولُ ، فأنعمَ لها[٢] . وفي ذلك يقولُ[٣] :

ثلاثةُ آلافٍ وعبدٌ وقَيْنَةٌ وضَرْبُ عليٍّ بالحُسامِ المُصَمِّمِ[٤]
فلا مَهرَ أغلى من عليٍّ وإن غَلاَ ولافَتْكَ إلاَّ دُونَ فَتْكِ ابنِ مُلجَمِ

وقد ذكروا أنَّ القاصدَ إلى معاويةَ يزيدُ بن مُلْجَمٍ ، والقاصدَ إلى عمرو آخرُ من بَني مُلجَمٍ ، وأنَّ أباهم نَهاهم . فلمَّا عصوهُ قال : استعِدُّوا للموتِ ، وأنَّ أمَّهُمْ حضَّتْهُمْ على ذلك . والخبرُ الصحيحُ ما ذكرتُ لك أولَ مرَّة .

فأقامَ ابنُ مُلجَمٍ ، فيقالُ إنَّ امرأتَه قَطامِ لامَتْهُ ، وقالت : ألاَ تمضِي لمَا قَصَدْتَ له[٥] ! لَشَدَّ ما أحبَبْتَ أهلكَ ! قال : إنِّي قد وَعَدْتُ صاحِبَيَّ وقتاً بعينه ـ وكان هنالك رجلٌ من أشْجَعَ ، يقال له شَبِيبٌ ، فواطأهُ عبدُ الرَّحمن

* * *

ويُرْوَى أنَّ الأشعَثَ نظرَ إلى عبد الرحمن متقلداً سيفاً في بني كِندَةَ ، فقال : يا عبدَ الرَّحمن . أرِنِي سيفك ، فأراهُ إياه[٦] ، فرَأى سيفاً حديداً ، فقال : ما تقلُّدُكَ هذا[٧] السيفَ وليس بأوانِ حَرْبٍ ! فقال : إنِّي أردتُ

---

(١) ر : « سرت » .   (٢) أي قال لها نعم .
(٣) قال المرصفي : بل قائله ابن أبي مياس المرادي .   (٤) قبله :

وَلَمْ أرَ مَهْراً سَاقَهُ ذُو سَماحةٍ كمهر قطَامٍ من فَصِيحٍ وأعْجَمِ

(٥) كلمة « له » ساقطة من ر .
(٦) كلمة « إياه » ساقطة من ر   (٧) كلمة « هذا » ساقطة من ر

عَلِيٍّ ، فوجّه إليهم عليٌّ رجلاً ، وهم بالنُّخَيْلَةِ ، فدعاهم ورَفَقَ بهم ، فأبَوْا ، فعاوَدَهم فأبَوْا ، فقتلوا جميعاً ، فخرجت طائفةٌ منهم نحوَ مكة ، ووجّه[1] معاويةُ مَنْ يُقيمُ للناسِ حَجَّهم ، فناوشَهُ هؤلاءِ الخوارجُ ، فبلغَ ذلك معاويةَ فوجّه بُسْرَ بن أَرْطاةَ ، أحدَ بني عامر بن لُؤَيّ ، فتوافقوا وتراضَوْا بعدَ الحرب بأن يصلّيَ بالناس رجلٌ من بني شَيْبَة ، لئلا يفوتَ الناسَ الحجُّ ، فلمّا انقضى نظَرَت الخوارجُ في أمرها ، فقالوا : إن عليًّا ومعاويةَ قد أفسدَا أمرَ هذه الأمةِ ، فلو قتلناهما لعادَ الأمرُ إلى حَقِّهِ ! وقال رجلٌ مِن أشْجَعَ : واللهِ ما عمرٌو دونهما ، وإنه لأَصْلُ هذا الفسادِ . فقال عبدُ الرحمن بن مُلْجَمٍ : أنا أقتلُ عليًّا ، فقالوا : وكيفَ لكَ به ؟ قال : أغتالُهُ . فقال الحجّاجُ بنُ عبد الله الصَّرِيمِيُّ — وهو البُرَكُ : وأنا أقتلُ معاويةَ ، وقال زاذَوَيْهِ مولَى بني العنبَر بن عَمرِو بن تميمٍ : وأنا أقتلُ عمراً . فأجْمَعَ رأيُهم على أن يكونَ قتلُهم في ليلةٍ واحدةٍ ، فجعلوا تلك الليلةَ ليلةَ إحدى وعشرينَ من شهر رمضانَ ، فخرج كلٌّ واحدٍ منهم إلى ناحيةٍ ، فأتى ابن مُلْجَمٍ الكوفة ، فأخفى نفسَه وتزوّجَ امرأةً يقالُ لها قطام بنتُ عَلْقَمةَ من تيمِ الرِّباب ، وكانتْ ترى رأْيَ الخوارجِ — والأحاديثُ تختلفُ وإنما يُؤثَرُ صحيحُها — ويُروَى في بعضِ الحديث[2] أنها قالتْ : لا أقْنَعُ منكَ إلاَّ بِصَدَاقٍ أُسَمّيه لكَ ، وهو ثلاثةُ آلافِ درهمٍ ، وعبدٌ وأَمَةٌ ، وأن تقْتُلَ عليًّا . فقال لها : لَكِ ما سألتِ ، وكيف[3] لِي به ؟ قالت : تَرُومُ ذلك غِيلةً ،

---

(١) ر : « نوجه » .

(٢) ر : « الأحاديث » .

(٣) ر : « فكيف » .

وكان (١) علىٌّ يَخرُجُ (١) مُغلِسًا ، ويوقِظ الناسَ للصلاةِ ، فخرج كما كان يفعلُ ، فضربه شَبيبٌ فأخطأه ، وأصابَ سيفُهُ الباب ، وضربه ابنُ مُلجَمٍ على صَلْعتِه ، فقال علىٌّ : فُزت وَرَبِّ الكَعْبة ! شأنَكم بالرَّجُلِ فيُروَى عن بعض مَن كان فى المسجد (٢) من الأنصار قال : سمعت كلمةَ علىٍّ ، ورأيتُ بريقَ السيفِ ، فأمَّا ابن مُلجَمٍ فحَمَلَ على الناسِ بسيفِه فأفرَجُوا له ، وتلقَّاهُ المُغيرةُ بن نوفل ابن الحارثِ بن عبد المطّلبِ بقطيفةٍ ، فرَمى بها عليه ، واحتمَله فضرب به الأرضَ ، وكان المغيرة أيِّدًا ، فقعَدَ على صدره . وأمَّا شبيبٌ فانتزع السيفَ منه رجلٌ من حَضرَمَوتَ ، وصَرَعَهُ وقعد على صدرِه . وكَثر الناسُ ، فجعلوا يَصيحون : عليكم صاحبَ السيفِ ، فخاف الحضْرَمِى أن يُكِبُّوا عليه ولا يَسمعوا عُذرَهُ فرَمَى بالسيف ، وانْسَلَّ شبيبٌ بينَ الناسِ فدخَلَ (٣) بابن مُلجَمٍ (٣) على علىٍّ رضوان الله عليه ، فأُومِرَ فيه ، فاختلفَ الناسُ فى جوابه . فقال علىٌّ : إن أَعِش فالأمْرُ لى (٤) ، وإن أُصَب فالأمرُ لكم ، فإن آثرتم أن تقتَصُّوا فضَرْبة بضربةٍ ، وأنْ تعفُوا أقرَبُ للتَّقوى . وقال قومٌ : بل قال : وإن (٥) أُصَبْ فاقتلوه فى مقْتَلِه (٥) فأقام علىٌّ يومين ، فسَمع ابنُ مُلجَمٍ الرَّنَّةَ من الدارِ ، فقال له مَنْ حَضَره : أىْ عَدوَّ اللهِ ! إنه لا بأسَ على أمير المؤمنين ، فقال : أعلى مَنْ تبكِى أُمُّ كلثومٍ (٦) ؟ أعَلَىَّ ؟ أمَا واللهِ لقد اشتريتُ سيفِى بألف درهمٍ ، وما زلتُ أُغرِضُهُ ، فما يَعيبُه أحدٌ إلاّ أصلحتُ ذلك العيبَ ، ولقد سقيته (٧) السَّمَّ حتى

(١ ـ ١) ساقط من ر . (٢) ر : « بالمسجد » .

(٣ ـ ٣) ساقط من ر . (٤) ر : « إلى » .

(٥ ـ ٥) « وإن أصبت فاضربوه ضربة فى مقتله » .

(٦) هى أم كلثوم بنت على بن أبي طالب ، زوج عمر بن الخطاب .

(٧) ر : « أسقينه » .

أن أنحرَ بهِ جَزُورَ القريةِ ! فركبَ الأشعثُ بغلته ، وأتى عليًّا صلوات الله عليه فخبَّرهُ ، وقال له : قد عرفتَ بسالة ابنِ مُلجمٍ وفتكه ، فقال عليٌّ : ما قتلني بعدُ .

* * *

ويُروى أنَّ عليًّا رضوان الله عليه كان يخطبُ مرَّةً ويُذكّرُ أصحابَهُ ، وابن مُلجم تلقاءَ المنبرَ ، فسُمِعَ وهو يقولُ : والله لأريحنَّهمْ منكَ ! فلمَّا انصرفَ عليٌّ صلوات الله عليه إلى بيته أُتيَ به مُلبَّباً ، فأشرفَ عليهم ، فقال : ما تريدونَ ؟ فخبَّروهُ بما سمعوا ، فقال : ما قتلني بعدُ ، فخلَّوا عنه .

ويُروَى أن عليًّا كان يتمثَّلُ إذا رآه ببيت عمرِو بن معدِي كرِب في قيس بن مكشوحٍ المُرادِيِّ — والمكشوحُ هُبَيْرةُ ، وإنما سُمِّي بذلك لأنه ضُرب على كشحِهِ — :

أُريدُ حِباءَه ويُريدُ قتْــــلى عذيرَكَ مِنْ خَليلِكَ من مُرادِ

فيَنْتَنِي من ذلك ، حتى أُكثِرَ عليه ، فقال له المُرادِيُّ : إنْ قضِيَ شيءٌ كانَ

فقيل لعليٍّ : كأنك قد عرفته وعرفتَ ما يُريدُ بك ، أفلا تقتله ؟ فقال : كيف أقتلُ قاتِلي !

فلمَّا كان ليلةَ إحدَى وعشرين من شهر رمضانَ ، خرَجَ ابنُ مُلْجَم وشبيبُ الأشجعيُّ ، فاعتورَا البابَ الذى يَدخلُ منه عليٌّ رضى الله عنه ،

اشدُدْ حَيَازِيمَكَ للموتِ فإنَّ الموتَ لاقِيكَا[1]
ولا تجْزَعْ من الموتِ إذا حَلَّ بوادِيكَا

والشعرُ إنما يصحُّ بأن تحذفَ « اشْدُدْ » فتقولَ :

حَيازِيمَك للموتِ فإن الموت لاقِيكَا

ولكنَّ الفصحاءَ من العرب يزيدون ما عليه المعنى ، ولا يَعْتَدُّونَ به في الوزنِ ، ويحذفون من الوزنِ ، عِلْماً بأنَّ المخاطَبَ يعلم ما يَريدونه ، فهو إذا قال : « حيازيمَك للموتِ » ، فقد أَضمر «اشدُدْ» فأظهرَه ، ولم يَعْتَدَّ به .

قال : وحدثنى أبو عثمان المازنيُّ قال : فصحاء العرب يُنشِدون كثيراً :

لسَعْدُ بنُ الضِّبَابِ إذا بَدَا أحبُّ إلينا منكَ فا فَرَسٍ حَمِرْ[2]

وإنما الشِّعْر :

* لعَمْرِى لَسَعْد بنُ الضِّبَاب إذا غَدَا *

* * *

وأما الحجَّاجُ بن عبد الله الصَّرِيميّ — وهو البُرَكُ — فإنه ضَرَبَ معاويةَ مُصَلِّياً ، فأصاب مَأْكَمَتَهُ[3] . وكان معاويةُ عظيمَ الأَوْراكِ ، فقطع منه عِرْقاً

---

(١) الحيزوم : ما اشتمل عليه الصدر ؛ يقال للرحل : اشدد حيازيمك ، أى وطن نفسك على الأمر .
(٢) لأمرئ القيس بن حجر ، ديوانه ١٣٩
(٣) المأكمة : واحدة المأكمتين ، وهما اللحمتان اللتان على رءوس الوركين .

لفظَهُ ، ولقد ضربتهُ ضربةً لو قُسِمَتْ على مَنْ بالمشرق لأتَتْ عليهم .

ومات عليٌّ صلواتُ الله ورضوانُه عليه ورحمتُه فى آخر اليوم الثالث . (١فدعا عبدالرحمن بالحسن(١) رضى الله عنه ، فقال : إنَّ لك عندى سِرًّا . فقال الحسنُ رضوان الله عليه : أتدرون ما يريدُ ؟ يريدُ أن يَقْرُبَ من وجهى فيَعَضّ أُذُنى فيقطعَها . فقال : أَمَا واللهِ لو أمكنتنى منها لاقتلعتُها من أصلها ! فقال الحسنُ : كلّا والله . لأضرِبَنَّكَ ضربةً تُؤَدِّيكَ إلى النار ، فقال : لو علمتُ أنّ هذا فى يدك(٢) ما اتخذتُ إلهاً غيرَكَ ، فقال عبدُ الله بن جعفر : يا أبا محمدٍ ، ادفَعْهُ إلىَّ أَشْفِ نفسِى منه . فاختلفوا فى قتله ، فقال قومٌ : أُحْمِىَ له ميلَيْن وكَحَلَهُ بهما ، فجعل يقول : إنك يا بنَ أخِى لتَكْحَلُ عمكَ بمُلْمولَيْن(٣) مَضَاضَيْن(٤) ، وقال قومٌ : بل قطعَ يديه ورجليه ، وقال قومٌ : بل قطع رجليه ، وهو فى ذلك يَذْكر الله عزَّ وجلَّ . ثم عَمَدَ إلى لسانه ، فشَقَّ ذلك عليه ، فقيل له : لم تَجْزَعْ من قطع يديك ورجليك ونَراك قد جَزِعْتَ من قطع لسانِك ! فقال : نعم ، أحببتُ أن لايزالَ فمى بذكر الله رَطْباً ، ثم قتله

* * *

ويُرْوَى أنَّ عليًّا رضى الله عنه أُتِىَ بابن مُلْجَمٍ وقيل له : إنّا قد سمعنا من هذا كلاماً ولا(٥) نأمنُ قتلَه لك ؟ فقال : ما أَصنع به ؟ ثم قال علىٌّ رضوان الله عليه :

(١–١) ر : « فدعا به الحسن » .
(٢) ر : « فى يديك »
(٣) الملمول : الحيل يكتحل به .
(٤) أى حارين .
(٥) ر : « فلا » .

وَقَطْرَة قطَرَتْ إذْ حَانَ مَوْعِدهَا ... وكُلُّ شىء له وقتٌ ومِقْدارُ

حتى تَنَصَّلها فى مسـجدٍ طُهُرٍ ... على إمامِ هُدًى إنْ مَعْشَرٌ جارُوا

حُمَّتْ لِيَدْخُلَ جَنَّات أبو حَسَنٍ ... وأُوجِبَتْ بعده للقاتلِ النارُ

قوله : « خارَهُ » يعنى[1] : اختاره ، وهو « فعَلَه » و « اختاره » « افتَعَلَه » كما تقول : قَدَرَ عليه ، واقتَدَرَ عليه

وقوله : « بَصِيرٌ بأضْغَانِ الرِّجالِ » ، فهى أسرارُها و مُخَبَّآتها . قال الله تعالى : ﴿ فيُحْفِـكُمْ تبخلُوا ويُخْرِجْ أضْغَانَـكم[2] ﴾ . والحَبْرُ العالِمُ

ويُرْوَى أن عليًّا رضوان الله عليه مَرَّ بيهوديٍّ يسأل مُسْلماً عن شىء من أمرِ الدِّين ، فقال له علىٌّ : اسألنى ودَع الرجلَ ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، أنت حَبْرٌ ، أى عالمٌ ، قال علىٌّ عليه السلام : أنْ تسألَ عالِمًا أجدَى عليك[3]

وقوله : « حتَّى تنَصَّلها » ، يريدُ استخرَجها

وقوله « حُمَّتْ » ، معناه قُدِرَتْ

[للـكميت فى رثائه أيضاً]

قال الـكُمَيْتُ :

والوَصىُّ الذى أمالَ التَّجوبِـ ... ىُّ به عَرْشَ أُمَّةٍ لِانْهِدامِ

فَقَـتَلُوا يومَ ذاكَ إذْ قتَـلوه ... حَـكَمًا لا كَغابِرِ الحـكّامِ

---

(١) ر : « إنما هو » .

(٢) سورة محمد ٣٧ .

(٣) ر : « أجدى لك » .

يقال له[1] عِرْقُ النّكاح ، فلم يُولَدْ لمعاوية بعد ذلك ولد . فلما أُخِذ قال : الأمانُ والبِشارةُ ، قتِلَ علىٌّ فى هذه الصَّبيحة . فاستَوْنَى به حتى جاء الخبرُ ، فقطع معاويةُ يَدَهُ ورجله ، فأقام بالبصرة . ثم بلغ[2] زيادًا أنه قد وُلِدَ له . فقال : أَيُولَدُ له وأميرُ المؤمنين لا يُولد له ! فقتله هذا أحدُ الخارجين .

ويُرْوَى أن معاويةَ قطع يديه ورجليه ، وأمَرَ باتِّخاذِ المقصورة ، فقيل لابنِ عباسٍ بعد ذلك : ما تأويلُ المقصورةِ ؟ فقال : يخافون أن يَبْهَظَهُمُ[3] الناسُ .

وأمّا زَاذَوَيْهِ ، فإنه أَرْصَدَ لِعَمرو ، واشتكى عَمْرو بطنَه ، فلم يخرج للصلاة ، فخرج[4] خارجةُ[5] ، وهو رجلٌ من بنى سَهْم بن عَمْرو بن هُصَيْص ، رَهْطِ عَمرو بن العاص ، فضربه زَاذَوَيْهِ فقتله . فلما دُخِلَ به على عَمرو فرآهم يخاطبونه بالإمرةِ قال : أَوَ مَا قَتَلْتُ عَمْرًا ! قيل : لا ، إنما قتلتَ خارجةَ ، فقال : أردتُ عمرًا وأراد الله خارجة[6] .

[لأبى زبيد الطائى يرثى على بن ابى طالب]

وقال أبو زُبَيْدٍ الطائىّ يَرْثى علىَّ بن أبى طالبٍ صلواتُ الله عليه :

إن الكرامَ عَلَى ما كان من خُلُقٍ   رَهْطُ امْرِئٍ خارَهُ للدِّين مُختارُ
صَبٌّ بصيرٌ بأضغَانِ الرجالِ ولم   يُعْدَلْ بحَبْرِ رسولِ الله أحْبارُ

---

(١) كلمة « له » ساقطة من ر .
(٢) : « فبلغ » .
(٣) يبهظهم : يقلبهم :
(٤) ر : « دخرج »
(٥) هو خارجة بن حذافة ؛ له صحبة .
(٦) ر : « والله أراد » .

[لأبي الأسود الدؤلي في آل البيت]

وقال أبو الأسودِ :

أُحِبُّ مُحَمَّدًا حبًّا شديدًا   وعَبَّاساً وحَمْزةَ والوَصِيَّا

أُحبُّهمُ لِحُبِّ اللهِ حتى   أجيء إذا بُعِثْتُ على هوَيَّا

هوًى أعْطِيتهُ منذ استدارَتْ   رَحَى الإسْلام لم يَعْدِلْ سَوِيَّا[1]

يقول الأرْذلون بنو قشَيْر :   طوَالَ الدَّهر ما تَنْسَى عليًّا !

بنو عَمِّ النبيِّ وأقْرَبوهَ   أحَبُّ الناسِ كلِّهمُ إليَّا

فإن يَكُ حبُّهُمْ رُشْدًا أُصِبْهُ   وليس بمُخْطِئٍ إن كان غيًّا[2]

وكان بنو قَشَيْر عُثمانيَّةً ، وكان أبو الأسودِ نازلاً فيهم ، فكانوا يَرْمُونَه بالليلِ ، فإذا أصبح شكا ذلك ، فشكاهم مرة ، فقالوا له[3] : ما نحنُ نرْميك ولكنَّ اللهَ يرميكَ ! فقال : كذبتم واللهِ ، لو كان الله يَرميني لما أخْطأني

قال : وكان نَقشُ خاتَمِهِ :

يا غالبي حَسْبُكَ مِن غالبِ   ازحَمْ عليَّ بن أبي طالبِ

وقوله : « غيرَ الكهَامِ » فالكهامُ : الكَليلُ من الرجال والسيوفِ ، يقال : سيفٌ كَهامٌ . وقوله :

راعِيًا كان مُسْجِحًا فقدنا   هُ وفقدُ المُسيمِ هُلْكُ السَّوامِ

---

(١) زيادات ر : « السوى والسواء : الذى قد سوى الله خلقه ، لازمانة به ولاداء ؛ وفى القرآن : (بشراً سوياً) ، وتقول : ساويت ذاك بهذا الأمر ، أى جعلته مثلا له »

(٢) زيادات ر : « ويروى : ولست » .

(٣) كلة « له » ساقطة من ر .

الإمامَ الزَّكِىَّ والفارِسَ المُعْلِمَ تحتَ العجاجِ غيرَ الكَهامِ
راعيًا كان مُسجِحًا ففقدْنا ه وفقدُ المُسيمِ هُلْكُ السَّوامِ (١)

***

قوله: « الوَصِىّ » فهذا شىءٌ كانوا يقولونه ويُكثرون فيه قال ابنُ قيسِ الرُّقيَّات:

نحنُ منا النبىُّ أحمدُ والصِّدِّ يقُ منّا التقىُّ والحُكَماءُ
وعلىٌّ وجعفرٌ ذو الجناحَيْنِ هُناكَ الوَصِىُّ والشُّهداءُ

وقال كُثَيِّرٌ لمَّا حَبَسَ عبدُ الله بن الزبير محمَّدَ بنَ الحنفيَّةِ فى خمسةَ عشر رجلاً من أهله فى سِجنِ عارِمٍ:

تُخبِّرُ مَن لاقيتَ أنكَ عائذٌ بَلِ العائذُ المحبوسُ فى سِجْنِ عارِمِ
وَصِىُّ النبى المصطفى وابنُ عمِّهِ وفَكَّاكُ أعناقٍ وقاضِى مَغارِمِ

أرادَ ابن وَصِىِّ النبىِّ، والعربُ تُقيمُ المضافَ إليه فى هذا الباب مقامَ المضاف. كما قال الآخرُ:

صَبَّحْنَ مِنْ كاظِمَةَ الخُصَّ الخَرِبْ يَحْمِلْنَ عَبّاسَ بنَ عبدِ المطلِبْ

يريدُ ابن عباس رضى الله عنه.

وقال الفرزدقُ لسليمانَ بن عبد الملك:

وَرِثْتُمْ ثيابَ المجدِ فهىَ لَبوسُكُمْ عن ابنَىْ مَنافٍ عبدِ شمسٍ وهاشمِ

يريد ابنَىْ عبدِ منافٍ.

---

(١) مسجحا: سهلا.

[وقف عين أبي نيزر]

حدثنا أبو مُحَلِّمٍ محمدُ بن هِشَامٍ في إسنادٍ ذكره أخوهُ أبو نَيْزَرَ ، وكان أبو نَيْزَرَ من أبناء بعضِ ملوكِ الأعاجِمِ ، قال : وصحَّ عندى بعدُ أنه مِن وَلَدِ النجاشيّ — (١يعنى أبا نيزرَ١) — فرغِبَ في الإسلامِ صغيراً ، فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأسلم ، وكان معه في بيوته ، فلما تُوُفِّيَ رسولُ الله صار مع فاطمةَ وولدِها عليهم السلام ، قال أبو نَيْزَرَ : جاءني عليُّ ابن أبى طالب وأنا أقومُ بالضَّيْعَتَيْنِ : عَيْنِ أبى نَيْزَرَ والبُغَيْبِغَةِ(٢) ، فقال لى : هل عندكَ من طعامٍ ؟ فقلتُ : طعامٌ لا أرضاه لأمير المؤمنين ، قَرْعٌ من قَرْعِ الضَّيْعَةِ صنعته بإهالةٍ سَنِخَةٍ(٣) ، فقال : عَلَيَّ به ، فقام إلى الرَّبيع — وهو جَدْوَلٌ — فغسل يده ، ثم أصاب من ذلك شيئاً ، ثم رجع إلى الرَّبيع ، فغسل يديه بالرَّمل حتى أنقاهما ، ثم ضم يديه ، كلَّ واحدةٍ منهما إلى أُختها ، وشرِب بهما حُسًا(٤) من ماء الرَّبيع ، ثم قال : يا أبا نَيْزَرَ ، إن الأَكُفَّ أنظفُ الآنيةِ ، ثم مَسَح نَدَى ذلك الماءِ على بطنِه ، وقال : مَنْ أدخله بطنُهُ النارَ فأبعده اللهُ ، ثم أخذ المِعْوَلَ(٥) وانحدرَ في العَيْنِ ، فجعل يضربُ ، وأبطأ عليه الماء ، فخرجَ وقد تَفَضَّجَ جبينُهُ عَرَقاً ، فانتكفَ العَرَقَ عن جَبينِه ، ثم أخذ المِعْوَلَ وعادَ

(١-١) ساقط من ر .

(٢) البغيبغة : عين لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم غزيرة الماء كثيرة النخل

(٣) الإهالة : ما أذيب من الشحم والسنخة : المتغيرة الريح .

(٤) حسا : جمع حسوه ؛ وهى الشربة ملء الفم .

(٥) المعول : الفأس العظيمة ينقر بها فى الصخور .

(٦) تفضج جبينه عرقا : سال .

فالمُسِيمُ الذى يُسيمُ إبله أو غنمه ترْعَى ، وكذلك كلُّ شىء من الماشيةِ ، فجعَل الراعِىَ للناس كصاحب الماشِية الذى يُسِيمها ويَسوسُها ويُصْلحها ، ومتى لم يَرْجِعْ أمرُ الناسِ إلى واحدٍ فلا نظامَ لهم ، ولا اجتماعَ لأمورهم .

قال ابنُ قيس الرُّقيَّاتِ :

أيها المشْتَهِى فَناءَ قريْشٍ بيدِ اللهِ عمْرُها والفَناءُ

إن تُوَدِّع من البلادِ قُرَيْشٌ لا يَكنْ بعْدَهم لحىٍّ بقَاءُ

لو تُقَفِّى ويُتْرَكُ الناسُ كانوا غنمَ الذِّئبِ غابَ عنها الرِّعَاءُ

وقال الحِمْيَرِىُّ يعنى عليًّا رضوانُ الله عليه :

كان المسيمَ ولم يكن إلاّ لِمنْ لزِمَ الطريقة واسْتقامَ مُسيما

ولمَّا سمع علىٌّ صلواتُ الله عليه نداءهم « لا حُكمَ إلاّ للهِ » قال : كلمة عادِلة يُرادُ بها جوْرٌ ، إنما يقولون : لا إمارة ، ولا بُدَّ مِن إمارة برَّةٍ أو فاجرةٍ .

* * *

ورَوَوْا أن عليًّا عليه السلامُ لمَّا أوصى إلى الحسن فى وَقفِ أمواله وأن يجعلَ فيها ثلاثةً مِن مواليه وَقفَ فيها عينَ أبى نيْزَرَ[1] والبُغَيْبِغةَ فهذا[2] غلطٌ ، لأن وَقفَهُ هذين[3] الموضعين لِسَنَتيْنِ من خِلافته .

---

(١) كذا ضبط فى الأصل ، بفتح النون ، وفى حاشيته عن الصحاح : « نيزر » بكسر النون.
(٢) ر : « وهذا » . (٣) ر : « لهذين » .

فوَجَّهَ مروانُ إلى عبد الله بن جعفر . فقرأ عليه كتاب معاوية[1] ، وأعلمه بما فى رَدِّ الألفةِ من صَلاحِ ذات البَيْنِ ، واجتماع الدَّعْوة ، فقال عبدُ الله : «إن خالها الحسينَ بيَنْبُعَ ، وليس ممن يُفْتَاتُ عليه بأمر» ، فأَنْظِرْنى إلى أن يَقْدم ، وكانت أمُّها زينبَ بنتَ علىٍّ بن أبى طالب صلواتُ الله عليه ، فلما قَدِمَ الحسينَ ذَكر ذلك له عبدُ الله بنُ جعفرٍ ، فقامَ من عندِه فدخَل إلى الجارية ، فقال : يا بُنَيَّة ، إنَّ ابنَ عَمِّكِ القاسمَ بنَ محمدِ بن جعفرِ ابن أبى طالب أحق بكِ ، ولعلكِ ترغبين فى كثرةِ الصَّداق وقد نَحَلْتكِ البُغَيْبغَاتِ ، فلمَّا حضرَ القومُ للإملاك[2] تكلم مروانُ بن الحكمِ ، فذكر معاويةَ وما قَصَدَه من صِلةِ الرَّحِمِ وجَمْعِ الكلمةِ ، فتكلم الحسينُ فزوَّجها من القاسمِ بن محمد . فقال له مروانُ : أغدراً يا حُسَينُ فقال : أنتَ بَدأْتَ ، خطَبَ أبو محمدٍ الحسنُ بن علىّ عليه السلام عائشةَ بنتَ عثمانَ بنِ عفَّانَ ، واجتمعنا لذلك ، فتكلمتَ أنتَ فزوَّجتها من عبد الله بن الزُّبَيْرِ ، فقال مروانُ : ما كان ذلك ، فالتفتَ الحسين إلى محمد بن حاطب فقال : أَنْشُدُكَ اللهَ ، أكان ذاك ؟ قال : اللهم نعَم فلم تزَلْ هذه الضَّيْعَةُ فى أيدى[3] بَنِى عبدِ الله بن جعفر ، من ناحية أُمِّ كلثوم ، يتوارثونها ، حتى مَلَكَ أميرُ المؤمنين المأمونُ . فذَكِرَ ذلك له ، فقال : كلا ، هذا وَقْفُ علىٍّ بن أبى طالب صلواتُ الله عليه ، فانتزَعها من أيديهم ، وعوَّضهم عنها ، وردَّها إلى ما كانتْ عليه

---

(١) فى الأصل : « أمير المؤمنين » ، وما أثبته عن ر .

(٢) الإملاك : عقد النكاح . (٣) ر : « بنى »

إلى العين ، فأقبلَ يضربُ فيها ، وجعل يُهَمْهِمُ[١] فانثالَتْ كأنها عُنُقُ[٢] بجَزُور ، فخرج مُسْرِعًا ، فقال : أُشهِدُ اللهَ أنها صَدَقةٌ ، علىَّ بدواة وصحيفةٍ ، قال : فعجَّلْتُ بهما إليه ، فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تَصَدَّقَ به عبدُ الله علىٌّ أميرُ المؤمنين ، تَصَدَّقَ بالضَّيْعَتين المعروفتين بعَيْنِ أبى نَيْزَرَ والْبُغَيْبِغة ، على فقراء أهلِ المدينةِ وابنِ السَّبيل ، لِيَقِىَ اللهُ بهما وجهَه حَرَّ النارِ يومَ القيامةِ ، لا تُباعَا ولا تُوهَبا ، حتى يَرِثَهما اللهُ وهو خيرُ الوارثين ، إلاّ أن يحتاجَ إليهما الحسنُ أو الحسينُ فهما طِلْقٌ[٣] لهما ، وليس لأحدٍ غيرهما .

قال محمدُ بن هشامٍ : فركبَ الحسينَ رضى الله عنه دَيْنٌ ، فحَمَلَ إليه معاويةُ بعَيْنِ أبى نيزَر مائتى ألفِ دينارٍ ، فأَبَى أن يَبيعَ ، وقال : إنما تَصَدَّق بها أبى لِيَقِىَ الله بها وجهه حَرَّ النار ، ولستُ بائِعَهَا بشىء .

[كتاب معاوية إلى مروان بن الحكم]

وتَحَدَّثَ الزُّبَيْرِيُّونَ أنّ معاويةَ كتب إلى مروانَ بن الحكم ، وهو وَالِى المدينةِ : أمَّا بعدُ ، فإن أميرَ المؤمنين أَحَبَّ أن يَرُدَّ الأُلْفَةَ ، ويَسُلَّ السَّخيمةَ ، وَيَصِلَ الرَّحِمَ ، فإذا ورد عليك[٤] كتابى هذا[٥] فاخْطُبْ إلى عبدِ الله بن جعفر ابْنَتَه أُمَّ كُلْثُومٍ عَلى يَزِيدَ بنِ أمير المؤمنين ، وارْغَبْ له فى الصَّدَاقِ .

---

(١) يهمهم ، من الهمهمة ، وهى ترديد الصوت فى الصدر .
(٢) يقال : انثال الرمل انثيالا ؛ إذا تبع بعضه بعضاً ؛ وهو هنا على الاستعارة .
(٣) طلق ، أى حلال . (٤) ر : « وصل إليك »
(٥) كلمة « هذا » ساقطة من ر .

ضلالا والإقامة عليها كُفْرًا . فخطَب علىٌّ الناسَ فقال : مَنْ زَعَمَ أنى رَجعْتُ عن الحكومةِ فقد كَذَبَ ، ومن رآها ضلالاً فهو أَضَلُّ ، فخرجتِ الخوارجُ من المسجد ، فَحَكَّمَتْ ، فقيلَ لعلىٍّ : إنهم خارجون عليك ، فقال : لا أُقاتلُهم حتى يقاتلونى وسيفعلون فوَجَّهَ إليهم عبدَ الله بن العباسِ ، فلما صار إليهم رَحَّبوا به وأكرموه ، فرأى منهم جباهًا قَرِحَةً[1] لطُولِ السُّجود ، وأَيْدِيًا كَثَفِنات الإبل[2] ، وعليهم[3] قُمُصٌ مُرَحَّضَةٌ[4] ، وهم مُشَمِّرونَ ، فقالوا : ما جاء بك يا أبا العباسِ ؟ فقال : جئتُكم مِن عندِ صِهرِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمه ، وأَعْلمِنا بِرَبّه وسُنَّةِ نبيه ، ومِن عندِ المهاجرين والأنصارِ ، قالوا : إنَّا أتَينا عظيماً حين حَكَّمْنا الرجالَ فى دينِ الله ، فإنْ تابَ كما تُبْنا وَنَهَضَ لمجاهدةِ عدُوِّنا رجَعنا ، فقال ابنُ عباس : نَشَدْتُكمُ اللهَ إلا ما صَدَقْتُمْ أنفسَكمْ ! أَمَا علمتُم أنَّ اللهَ أَمَرَ بتحكيمِ الرجاله فى أَرْنَبٍ تُساوى رُبْعَ درهمٍ تُصادُ فى الحَرَمِ ، وفى شِقَاقِ رجلٍ وامرأتِه ؟ فقالوا : اللهم نَعَمْ ، فقال : فأَنْشُدُكمُ اللهَ فهل[5] عَلِمْتُمْ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أَمْسَكَ عن القتال للهُدْنَةِ بينه وبين أهلِ الحُدَيْبِيَةِ ؟ قالوا : نعمْ ، ولكنَّ عليًّا محَا نفسَه مِن إمارة المسلمين ، قال ابنُ عباس : ليس ذلك بمزِيلِها عنه ، وقد محَا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم اسمَه من النُّبُوَّةِ ، وقد أَخذَ علىٌّ على

---

(١) قرحة : بها قروح .

(٢) ثفنات الإبل : ما يصيب الأرض منها إذا بركت .

(٣) ر : « عليهم » .

(٤) قمص مرحضة : مغسولة ؛ من أرحض الثوب ، غسله .

(٥) ر : « هل » .

[حديث على مع الخوارج فى أول خروجهم عليه]

قال أبو العباس : رَجَعَ الحديثُ إلى ذكرِ الخوارج وأمرِ علىّ ابن أبى طالب رحمه الله .

قال : ويُرْوَى[1] أن عليًّا فى أوّل خَروج القوم عليه دَعَا صَعْصَعَةَ بن صُوحَانَ العبدىَّ ، وقد كانَ وَجَّهَهُ إليهم ، وزيادَ بنَ النَّضْرِ الحارثىّ مع عبد الله ابن العباس ، فقال لصعصعةَ : بأىّ القومِ رَأيتهم أشَدَّ إطاقةً ؟ فقال : بيزيدَ ابنِ قيسٍ الارحَبىّ ، فركب علىٌّ إليهم إلى حَرُوراء ، فجعل يَتَخَلَّلُهُمْ ، حتى صار إلى مَضْرَب يزيدَ بن قيسٍ ، فصلّى فيه ركعتين ، ثم خرج فاتَّكأ على قوسِهِ وأقبلَ على الناس ، ثم قال : هذا مَقامُ مَنْ فَلَج[2] فيه فَلَجَ يومَ القيامة ، أَنْشُدُكُمُ اللهَ ، أَعَلِمْتُمْ أحدًا منكم كان أكرَهَ للحكومةِ مِنّى ! قالوا : اللهم لا ، قال : أفعلمتم أنكم أكرهتمونى حتى قَبِلتُها ؟ قالوا : اللهم نَعَمْ ، قال : فعلام خالفتمونى ونابذتمونى ؟ قالوا : إنّا أتينا ذَنْباً عظيماً ، فتُبْنَا إلى اللهِ ، فتب إلى الله منه واستغفره نَعُدْ لكَ ! فقال علىٌّ : إنى أستغفرُ اللهَ من كل ذَنْب ، فرجعوا معه ، وهم ستةَ آلاف . فلما استقرّوا بالكوفة أشاعوا أنّ عليًّا رجع عن التحكيم ورآه ضلالاً ، وقالوا : إنما يَنْتَظِرُ أميرُ المؤمنين أنْ يَسْمَنَ الكُرَاعُ[3] ، ويُجبَى المالُ ، فينهضَ إلى الشأمِ . فأتى الاشعثُ بن قيسٍ عليًّا عليه السلامُ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ الناسَ قد تحدّثوا أنك رأيت الحكومة

---

(١) ر : « يروى » .
(٢) فلج : انتصر .
(٣) الكراع : اسم لجماعة الخيل .

فى فِيه ، فصاحوا به ، فَلَفَظَهَا توَرُّعًا ، وَعُرَض لرجلٍ منهم خنزيرٌ فضربه الرجلُ فقتلَه ، فقالوا : هذا فَسادٌ فى الأرضِ ، فقال عبدُ الله بن خَبّابٍ : ما علىَّ منكم بأسٌ ، إنى لَمُسْلِمٌ ، قالوا له : حَدِّثْنا عن أبيك ؟ قال : سمعتُ أبى يقول : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « تكون فتنةٌ يموتُ فيها قَلبُ الرجلِ كما يَموتُ بدنُهُ ، يُمْسِى مؤمناً ويُصْبِحُ كافراً ، فكُنْ عبدَ الله المقتولَ ، ولا تكنِ القاتلَ » .

قالوا : فما تقولُ فى أبى بكرٍ وعَمر ؟ فأثنى خيراً ، فقالوا : ما[1] تقولُ فى علىٍّ أميرِ المؤمنين قبل التحْكيمِ ، وفى عثمانَ سِتَّ سنينَ ؟ فأَثنَى خيراً ، قالوا : فما تقولُ فى الحكومةِ والتَّحْكيمِ ؟ قال : أقول : إنَّ عليًّا أَعْلَمُ بالله منكم[2] ، وأَشَدُّ توَقِّياً على دِينِه ، وأبعد[3] بصيرةً ، قالوا : إنك لستَ تَتَّبِعُ الهُدَى ، إنما تَتَّبِعُ الرجالَ على أسمائها .

ثم قَرَّبوه إلى شاطىء النهر فذَبحوه ، فامْذَقَرَّ دَمُهُ ، أى جَرَى مستطيلاً على دِقةٍ .

وساموا رجلا نصرانيًّا بنخلةٍ له ، فقال : هِىَ لكم ، فقالوا : ما كنّا لنأخذها إلاَّ بثمنٍ . قال : ما أَعْجَبَ هذا ! أتقتلونَ مثلَ عبدِ الله بن خَبّاب ولا تقبَلونَ مِنّا جَنَى نَخْلةٍ ؟

---

(١) ر : « فما تقول » .
(٢) ر : « أعلم بكتاب الله » .
(٣) ر : « وأنفذ » .

الحكمين ألّا يجورا ، وإن يجورا فعلىّ أولى من معاوية وغيره ، قالوا : إن معاوية يدّعى مثل دعوى علىّ ، قال : فأيّهما رأيتموه أولى فولّوه ، قالوا : صدقت ، قال ابن عباس : ومتى[1] جار الحكمان فلا طاعة لهما ولا قبول لقولهما . قال : فاتّبعه منهم ألفان وبقى أربعة آلاف ، فصلى بهم صلواتهم ابن الكوّاء ، وقال : متى كانت حرب فرئيسكم شبث بن ربعىّ الرّياحىّ ، فلم يزالوا على ذلك يومين ، حتى أجمعوا على البيعة لعبد الله ابن وهب الرّاسبىّ ، قال : ومضى القوم إلى النّهروان[2] ، وكانوا أرادوا المضى إلى المدائن .

[خبرهم مع عبد الله بن خباب وقتلهم له]

قال أبو العباس : فمن طريف أخبارهم أنهم أصابوا مسلماً ونصرانيّاً ، فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصرانىّ ، فقالوا : احفظوا ذمّة نبيّكم[3] .

ولقيهم عبد الله بن خبّاب وفى عنقه مصحف ، ومعه امرأته وهى حامل ، فقالوا له[4] : إنّ هذا الذى فى عنقك ليأمرنا أن نقتلك ، فقال[5] : ما أحيا القرآن فأحيوه ، وما أماته فأميتوه . فوثب رجل منهم على رطبة فوضعها

---

(١) ر : « متى » .

(٢) زيادات ر : « قال الأخفش : كذا كان يقول المبرد : « النهروان » بكسر النون والراء ؛ وإنما هو النهروان » بالفتح ، وأنشد للطرماح : « قل فى شط نهروان » بفتح النون .

(٣) س : « احفظوا ذمه بينكم » .

(٤) كلمة « له » ساقطة من ر ، وهى فى الأصل ، س .

(٥) ر ، س : « قال » .

وأنتَ تزعمُ أنك تأخذ المطيعَ بالعاصِى ، ثم خرجَ فى عَقِبِ هذا اليومِ .

والشيعُ تنتحله ، وتزعمُ أنه كتبَ إلى الحسين بن علىٍّ صلواتُ الله عليه : إنِّى لَستُ أرى رَأْى الخوارج ، وما أنا إلّا عَلَى دِينِ أبيكَ .

* * *

[آراء الفقهاء فى مذهب الخوارج]

وهذا رأىٌ قد استهوَى جماعةَ من الأشراف . يُروَى أنَّ المُنْذِرَ ابنَ الجارُودِ كان يرَى رأىَ الخوارجِ . وكان يزيدُ بن أبى مسلمٍ مولى الحجّاج ابن يوسفَ يراه . وكان صالح بنُ عبد الرحمنِ صاحبُ ديوانِ العِراق يراه . وكان عِدّةٌ من الفقهاء يُنْسَبون إليه "ولعل هذا يكون باطلا" ، منهم عِكْرِمةُ مولى ابنِ عباسٍ . وكان يقالُ ذلكَ فى مالكِ بن أنسٍ .

ويَرْوى الزُّبَيْرِيونَ : أنَّ مالكَ بن أنسٍ المَدِينىَّ [٢] كان يَذْكُرُ عثمانَ وعليًّا وطَلْحَةَ والزُّبيْرَ ، فيقولُ : واللهِ ما اقْتَتَلوا إلّا على الثَّريد الأعْفرِ [٣]

فأمّا أبو سَعيد الحسن البَصْرىُّ فإنه كان يُنكِرُ الحكومةَ ، ولا يَرى

(١–١) ساقط من ر .

(٢) حاشية س : « قد يتوهم من هذا الكلام من لا معرفة له بالأخبار والتواريخ أن المذكور هنا مالك بن أنس الفقيه المدنى المشهور صاحب المذهب ، وليس الأمر كذلك ؛ وهذا تقصير أو قصور من أبى العباس ؛ حيث أبهم فى موضع البيان ؛ لأن مالكا المذكور هنا هو مالك ابن أنس بن مالك بن مسمع البكرى ، ثم البصرى ، أحد رؤساء أهل البصرة ، وأعظم فقهائها فى زمانه ، لشرف بيته وتقدمه فى معرفة كل فن ، وشهرة زهده وكثرة تهجده ؛ لكنه كان متهماً برأى الخوارج ، ولم يوقف لأمره على حقيقة ، الله أعلم أى ذلك كان . وأما الإمام مالك ابن أنس المدني الأصبحى الحميرى فهو الذهب الإبريز صفاء ، والكبريت الأحمر عزة » .

(٣) الثريد الأعفر : الأبيض ، ليس بالشديد البياض ؛ يريد الثريد المتلىء بالإدام . قاله المرصفى .

[غيلان بن خرشه ونيله منهم]

ومن طريفِ أخبارِهم أن غيْلانَ بن خَرَشَةَ الضَّبِّيَّ سَمَرَ ليلة عند زِيادٍ ومعه جماعةٌ ، فذَكَرَ أمرُ الخوارجِ ، فأَنْحى عليهم غيلانُ ، ثم انصرف بعد ليْلٍ إلى منزلِه ، فلقيه أبو بلال مِرْدَاسُ بن أُدَيَّةَ ، فقال له : يا غيْلانُ ، قد بلغنى ما كان منك الليلةَ عندَ هذا الفاسقِ ، مِن ذكر هؤلاء القومِ الذين شرَوْا أنفسَهم وابتاعوا آخرتهم بدنياهم ! ما يُؤَمِّنُكَ أن يلقاكَ رجلٌ منهم ، أَحْرَصُ والله على الموتِ منكَ على الحياة ، فيُنفِذَ حِضْنَيْكَ(١) برُمحِه ؟ فقال غيْلانُ : لن يَبْلُغَكَ أَنِّى ذكرتُهم بعدَ اللَّيْلةِ .

[مرداس بن أديّة وزياد]

ومِرْدَاسُ تنتحِلُه جماعةٌ من أهلِ الأهواء ، لِقَشَفِه وبَصِيرتِه ، وصحةِ عبادتِه ، وظهورِ ديانته وبيانِه ، تنتحله المعتزلةُ ، وتزْعُم أنه خرج منكرًا لجورِ السلطانِ ، داعياً إلى الحق ، وتحتجُّ له بقوله لزيادٍ حيثُ قال على المِنبَرِ : والله لآخذَنَّ المحسنَ منكم بالمسيءِ ، والحاضِرَ منكم بالغائب ، والصَّحيحَ بالسَّقيمِ ، (٢)والمطيع بالعاصى(٢) . فقام إليه مرداسٌ فقال : قد سمعنا ما قلتَ أيُّها الإنسانُ ، وما هكذا ذكر اللهُ عزَّ وجلَّ عن نبيه إبراهيمَ عليه السلام ، إذ يقولُ : ﴿ وإبرهيمَ الذى وَفَّى . ألاَّ تزِرَ وازرةٌ وِزْرَ أُخرَى . وأن لَيْسَ للانسانِ إلاَّ مَا سَعَى وأنَّ سَعْيَهُ سَوفَ يُرَى . ثم يُجزاهُ الجزاءَ الأَوْفَى(٣) ﴾ .

---

(١) الحضنان : ناحيتا الإنسان ، والجمع أحضان .

(٢ـ٢) ساقط من ر . (٣) سوره النجم ٣٧ـ٤١

وقال رجلٌ من طيِّئٍ، أنشده أبو زيد الأنصاريُّ:

يا قُرْطَ قُرْطَ حُيَيٍّ لا أبَالكمُ يا قُرْطُ إنِّى عليكم خائفٌ حَذِرُ
أأنْ رَوَى مِرْقَسٌ واضطافَ أَعْفُزَهُ منَ التِّلاعِ التى قد جادها المطرُ
قلتم له أُهْجُ تَيماً لا أبَالكمُ فى كَفِّ عبدِكمُ عن ذاكمُ قِصَرُ
فإنَّ بيتَ تميمٍ ذُو سَمِعْتَ به فيه تَنَمَّتْ وأرْسَتْ عِزَّها مُضَرُ

قوله: «يا قُرْطَ قُرْطَ حُيَيٍّ» نَصْبُهما معاً أكثرُ على ألسنةِ العربِ، وتأويلها: أنهم أرادوا «يا قُرْطَ حُيَيٍّ» فأقحموا «قرطاً» الثانىَ توكيداً. وكذلك لجرير[1]:

يا تَيْمَ تَيْمَ عَدِيٍّ لا أبَالكمُ لا يُلْقِيَنَّكمُ فى سَوْءَةٍ عُمَرُ

ومثله لعُمَرَ بن لَجَإٍ[2]:

يا زَيْدَ زَيْدَ اليَعْمَلاتِ الذُّبَّلِ تطاوَلَ الليلُ عليكَ فانزلِ[3]

فإن لم تُرِدِ التوكيدَ والتكريرَ لم يَجُزْ إلاّ رفعُ الأولِ: «يا زَيْدُ زَيْدَ اليعملاتِ» و «يا تَيْمُ تَيْمَ عَدِيٍّ»، كما تقولُ: «يا زيدُ أخا عمرٍو» على النعت. ومثلُ الأولِ فى التوكيد «يا بُؤْسَ للحربِ» أراد يا بؤسَ الحربِ

---

(١) قال المرصفى: «يهجو عمر بن لجأ التيمى»، وقبله كما فى الديوان ٢٨٥:

أتبتغِى التَّيْمُ عذرًا بعد ما غَدَرُوا لا يقبلَ اللهُ من تيمٍ إذا اعْتَذَرُوا
لا تمنَعُون لكُمْ عرسًا وما لكمُ إلاّ بغيرِكمُ وِرْدٌ ولا صَدَرُ

(٢) قال المرصفى: هذا غلط، صوابه: لعبد الله بن رواحة الخزرجى يقوله لزيد بن أرقم.
(٣) اليعملات: جمع يعملة؛ وهى الناقة السريعة. والذبل: الضوامر.

رأيهم ، وكان إذا جلس فتمكّن فى مجلسه ذكر عثمان فترحّم عليه ثلاثاً ، ولعن قتلته ثلاثاً ، ويقول : لو لم نلعنهم للعنّا ، ثم يذكر عليًّا فيقول : لم يزلْ أميرُ المؤمنين علىٌّ رحمه الله يتعرّفه[1] النّصرُ ، ويساعدُه الظّفرُ ، حتى حكّم ، فلِمَ تحكّمُ والحقُّ معكَ ! ألاَ تمضى قدُمًا لا أبالكَ وأنتَ على الحقّ !

* * *

قال أبو العباس : وهذه كلمة فيها جَفاء ، والعربُ تستعملها عند الحثّ على أخذِ الحقّ والإغراء ، وربما استعملتْها الجُفاةُ من الأعْرابِ عندَ المسألة والطّلب ، فيقولُ القائلُ للأميرِ والخليفةِ : انظر فى أمر رعيتك لا أبالكَ ! وسمِعَ سليمانُ بن عبد الملكِ رجلاً من الأعراب فى سَنَةٍ جدبة[2] يقولُ :

رَبَّ العِبادِ مَالَنا ومَالَكا قد كنتَ تسقينا فما بدا لكا

* أنْزِلْ علينا الغيْثَ لا أبالَكا *

فأخرجه سليمانَ أحسنَ مخرَجٍ ، فقال : أشهدُ أنه لا أبَا له ولا ولَدَ ولا صاحبة [وأشهد أنّ الخلق جميعاً عباده][3]

وقال رجلٌ من بني عامر بن صَعْصَعَةَ أبْعَدَ مِن هذه الكلمة لبعض قومه :

أَبَني عُقَيْلٍ لا أبا لأبيكمُ أيِّي وأىّ بَني كِلابٍ أكْرَمُ !

(١) س : « يتعرفه ».
(٢) ر : « جديبة ».
(٣) تكملة من ر .

وقوله « ذو سمعت به » يريد الذى ، وكذلك تفعل طيئ ، تجعل « ذو » فى معنى « الذى » ، قال زيدُ الخيلِ لبنى فزارة ، وذكر عامر ابنَ الطُّفيل فقال :

* إنى أرى فى عامرٍ ذو ترون *

وقال عارقٌ الطائىّ :

فإن لم يُغيِّرْ بعضُ ما قد فعلتُمُ ... لأنتحِيَنْ للعظمِ ذو أنا عارِقُه[1]

يريد الذى

* * *

ومن ظرفاء المحدثين اليمانيَّةِ مَنْ يَعملُ هذا اعتماداً لإيثارِ لغةِ قومِه .

قال الحسنُ بن هانئ الحكمِىُّ :

حُبُّ المُدامةِ ذو سمعتَ به ... لم يُبقِ فىَّ لغيرِها فضلا

وقال حبيبُ بن أوسٍ الطائىُّ :

أنا ذو عرفتِ فإنْ عرتْكِ جهالةٌ ... فأنا المقيمُ قيامةَ العُذّالِ

وقال الحسنُ بنُ وهبٍ الحارثىُّ :

عَلِّلانِى بذكرِها عَلِّلانى ... واسقِيانِى أوْلاَ فمَنْ تسقِيانِ

أنا ذو لم يَزلْ يَهُونُ على النَّدْ ... مانِ إن عزّ جانبُ النَّدْمانِ

ويكونُ العزيزَ فى ساعةِ الرَّوْ ... عِ بِصدْقِ الطِّعانِ يومَ الطِّعانِ

* * *

(١) لأنتحين : لأقصدن . وعارقه ، من عرق العظم يعرقه ؛ بالضم عرقا ؛ أخذ اللحم عنه بأسنانه نهشاً ؛ وبهذا البيت سمى عارقا .

فأقحَم اللامَ توكيداً ، لأنها توجب الإضافةَ . وعلى هذا جاء « لا أبالك » و « لا أبَا لزيدٍ » ولولا الإضافةُ لم تثبتِ الالف فى الأبِ ؛ لأنك تقول : رأيتُ أباك ، فإذا أفردتَ قلتَ : هذا أبٌ صالحٌ ، وإنما كانت « لا أبَاكَ » كما قال الشاعرُ :

أبِالْموْتِ الذى لا بُدَّ أنِّى ملاَقٍ لا أبَاكِ تُخَوِّفينى

وقال آخرُ :

وقد ماتَ شمَّاخٌ وماتَ مُزَرِّدٌ وأىُّ كريم لا أباكِ يُخَلَّدُ !

وقوله : « أأن رَوَى مِرْقَسٌ » « مِرْقَسٌ » رجلٌ . وروى : استَقى لأهله ، يقال : فلانٌ رَاوِيَة أهلِهِ ، إذا كان يستقى لأهله ، والتى على البعير والحمارِ مَزادَة[1] فإذا كَبُرَتْ وعَظُمَتْ وكانت من ثلاثة آدِمَةٍ[2] فهى المُثَلَّثَة ، وأصغرُ منها السَّطيحةُ[3] ، وأصغرهنَّ الطَّبْعُ[4] :

وقوله : « واصْطَافَ أعنزُهُ » يريدُ « افْتَعَلَتْ » ، من الصَّيْف ، أى أصابت البقلَ فيه

والتَّلْعةُ : ما ارتَفعَ من الارضِ فى مُسْتَقرِّ المَسِيلِ إذا تجافى السَّيلُ عن مَتْنِهِ ، وجمعُه تِلَاعٌ

---

(١) المزادة : هى التى تـكون من جلدين يزاد بينهما نصف جلد .

(٢) آدمة : جمع أديم ؛ وهو الجلد .

(٣) السطيحة : التى تـكون من جلدين ، يقابل أحدهما بالآخر .

(٤) الطبع ، قال المرصفى : لم أر أحداً من أهل اللغة ذكره الا فى الأسقية ؛ وانما هو لملء السقاء .

ففعلَ عمرُ مثلَ ذلك ، فلما كان فى الثالثة قصدَ له علىُّ بن أبى طالب عليه السلام فلم يَرَه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو قُتِلَ لكان أولَ فتْنَة وآخِرَها » .

[حديث المخدج]

ويروى عن أبى مَرْيَمَ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه ذكرَ المُخْدَجُ عندَ النبى عليه السلام ، فقال أبو مريم : واللهِ إنْ كان معنا لَفِى المسجدِ وكان فقيراً ، وكان يَحْضُرُ طعامَ علىٍّ إذا وضعه للمسلمين ، ولقد كسوته بُرْنُساً لى ، فلمّا خرجَ القومُ إلى حَروراءَ قلتُ : والله لأنظرَن إلى عسكرهم ، فجعلتُ أتخلّلهم حتى صِرْتَ إلى ابن الكَوَاءِ وشَبَثِ بن ربعىّ ، ورسولُ علىٍّ تناشدَهم ، حتى وثب رجلٌ من الخوارجِ على رسولٍ لعلىّ ، فضَرب دابَّتَه بالسيف ، فحَمَل الرجل سَرْجَه وهو يقولُ : إنّا لله وإنا إليه راجعون ! ثم انصرفَ القومُ إلى الكوفة ، فجعلتُ أنظرُ إلى كثرتهم كأنّما ينصرفون مِن عِيدٍ ، فرأيتُ المُخْدَجَ ، وكان مِنى قريباً ، فقلتُ : أكنتَ مع القومِ ؟ فقال : أخذتُ سلاحِى أريدُهم ، فإذا بجماعةٍ من الصبيانِ قد عَرَضُوا لى فأخذوا سِلاحِى ، وجعلوا يتلاعبونَ بى ! فلما كان يومُ النَّهرِ قال علىٌّ : اطلبُوا المُخدَج . فطلبوه فلم يجدوه ، حتى ساءَ ذلك عليًّا ، وحتى قال رجلٌ : لا والله يا أمير المؤمنين ، ما هوَ فيهم ، فقال علىٌّ : والله ما كَذبْتُ ولا كُذِبْتُ ، فجاء رجلٌ فقال : قد أصبناه يا أمير المؤمنينَ ، فخرَّ علىٌّ ساجداً ، وكان إذا أتاه ما يُسَرُّ به من الفتوحِ سَجَد وقال : لو أعلمُ شيئاً أفضلَ منه لفعلتُه ، ثم قال : سيماهُ أنَّ يَده كالثَّدْى ، عليها شعراتٌ كشاربِ السِّنَّوْرِ ، ايتونى بيدِه المُخدَجَة ، فأتوهُ بها ، فنصَبَها

ثم رجع إلى ذكر الخوارج[1] :

قال أبو العباس : وكان فى جملة الخوارج لدَدٌ واحتجاجٌ ، عَلَى كثرةِ خُطبائهم وشُعَرائهم ، ونفاذِ بَصيرتهم ، وتَوطينِ أنفُسِهم على الموتِ ، فمنهم الذى طُعِنَ فأنفذَهُ الرُّمْحُ فجعل يسعَى فيه إلى قاتله وهو يقول : ﴿ وعَجِلْتُ إليكَ رَبِّ لِترْضَى[2] ﴾ .

* * *

ويُروَى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه لمّا وصفَهم قال : « سِيماهم التَّحْليقُ[3] ، يقرؤونَ القرآنَ لا يُجاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ ، عَلاَمَتُهُمْ رجلٌ مُخْدَجَ اليدِ »[4]

وفى حديث عبد الله بنِ عَمرو : « رجلٌ يقاله له عَمْرٌو ذو الخُوَيْصِرةِ » ، أو « الخُنَيْصِرةِ » .

* * *

ورُوِىَ عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أنه نَظَرَ إلى رجلٍ ساجدٍ ، إلى أنْ صلّى النبىُّ عليه السلام ، فقال : « ألاَ رجلٌ يقتله » ؟ فحسَرَ أبو بكرٍ عن ذراعِه وانتضَى السيفَ وصَمَدَ نحوَه ، ثم رجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أأقتلُ رجلا يقولُ : لا إله إلاّ اللهُ ؟ فقال النبىُّ عليه السلام : « ألا رجلٌ يفعلُ » ؟

---

(١) ر : « عاد الحديث إلى ذكر الخوارج » .
(٢) سورة طه ٨٤ .
(٣) سيماهم التحليق ، أى علامتهم حلق الرءوس .
(٤) مخدج اليد : ناقصها .

ان يُحمَلَ عليها — عَلَى « فَعيلةٍ » مثلَ « حَقيقةٍ » ولذلك جَمعها على « حقائِقَ »

ويقال : « استَوْسَقَ » القومُ ، إذا اجتمعوا .

ورَوَى ابو عبيدة فى هذا الإسنادِ — ورَوَى ذلك غيرُه ، وسمعناه من غير وجه — أنه سأله عن قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ قد جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا[1] ﴾ فقال ابنُ عباس : هو الجَدْوَلُ ، فسأله عن الشاهدِ ، فأنشدَه :

سَلْمًا تَرَى الدَّالِجَ منها أَزْوَرَا إذا يَعِجُّ فى السَّرِىِّ هَرْهَرَا

السَّلْمُ : الدَّلْوُ الذى له عُرْوةٌ واحدة ، وهو دلوُ السَّقَّائين ، وهو الذى ذكره طَرَفةُ فقال :

لَهَا مِرْفَقَانِ أَفْتَلَانِ كأنَّما أُمِرَّا بِسَلْمَىْ دَالِجٍ مُتَشَدِّدِ[2]

والدَّالِجُ : الذى يمشى بالدَّلو بين البِئْر والحَوْضِ ، وأصحابُ الحديث يُنْشِدونَ : « تَرَى الدَّالِيَ منه أَزْوَرَا » ، وهذا خطأٌ لا وجهَ له .

ورَوَى أبو عُبيدةَ وغيرُه : أن نافعاً سأَلَ ابنَ عباسٍ عن قوله : ﴿ عُتُلٍّ بعدَ ذلِكَ زَنيمٍ[3] ﴾ : ما الزنيمُ ؟ قال : هو الدَّعِىُّ المُلزَق ، أَمَا سمِعتَ قولَ حسَّانَ بن ثابتٍ :

زَنيمٌ تداعَاهُ الرجالُ زِيادةً كما زِيدَ فى عَرْضِ الأديمِ الأكارِعُ

---

(١) سورة مريم ٢٤

(٢) أفتلان ، من الفتل ؛ وهو اندماج مرفق الناقة .

(٣) سورة القلم ٣

[من أخبار نافع بن الأزرق]

ويرْوَى عن أبى الجَلْدِ أنه نظَرَ إلى نافع بن الأزْرَقِ الحَنَفِىِّ وإلى نظره وتوغُلِهِ وتعمُّقِه ، فقال : إنى لأجِدُ لجهنم سبعةَ أبوابٍ ، وإنَّ أشدَّها حرًّا للخوارجِ ، فاحْذَرْ أن تكونَ منهم .

قال : وكان نافعُ بن الأزرق يَفْتَجِعُ عبدَ الله بن العباسِ فيسأله ، فله عنه مسائلُ من القرآن وغيرِه ، قد رَجَع إليه فى تفسيرِها ، فقبلَه وانْتَحَلَه ، ثم غلبتْ عليه الشِّقْوَةُ ، ونحن ذاكرون منها صَدْرًا إن شاء الله .

* * *

حَدَّثَ أبو عُبيدةَ مَعْمَرُ بن المُثَنَّى التَّيْمِىُّ النَّسَّابةُ ، عن أسامةَ بن زيدٍ ، عن عِكرِمةَ ، قال : رأيتُ عبد الله بن العباسِ وعندَه نافعُ بن الأزرَقِ وهو يسأله ، ويطلبُ منه الاحتجاجَ باللغة ، فسأله عن قول الله جلَّ ثناؤُه : ﴿ والليلِ وَمَا وَسَقَ (١) ﴾ . فقال ابنُ عباسٍ : وما جَمَعَ ، فقال : أتعرفُ ذلك العربُ ؟ قال ابن عباس : أمَا سمعتَ قول الراجزِ :

إنَّ لنا قلائِصًا حقائِقَا ... مُسْتَوْسِقاتٍ لو يَجِدْنَ سائِقَا

هذا قولُ ابن عباس ، وهو الحقُّ الذى لا يَقْدَحُ فيه قادحٌ ، ويَعْرِضُ القولُ فيحتاجُ المبتدئُ إلى أنْ يَزْدادَ فى التفسيرِ .

قوله : « حقائقا » إنما بَنِى الحِقَّةِ من الإبل — وهى التى قد استحقّتْ

---

(١) سورة الانشقاق ١٧ .

جَعلْتَ لِقَبْرٍ لِلخيَارِ ومَالِكٍ ... وقبرِ عَدِىٍّ فى المَقابرِ أقبُرَا[1]

وأَطْمَأْتَ نِيرانَ المَزُونِ وأهلِها ... وقد حاولوها فِتْنَةً أن تَسَعَّرَا[2]

فلمْ تُبْقِ منهم رايةً يَعْرِفونَها ... ولم تُبْقِ من آلِ المُهلَّبِ عَسكَرَا

ألا رُبَّ سَامِى الطَّرْفِ من آلِ مازِنٍ ... إذا شَمَّرَتْ عن ساقِها الحربُ شَمَّرَا

فهذا نظيرُ ذلك . والمَزُونُ : عُمانُ ، قال الكُمَيتُ :

فأَمَّا الأزْدُ أزدُ أبى سعيدٍ ... فأَكرهُ أن أُسَمِّيَهَا المَزُونَا

وقال آخرُ يعنى الحربَ :

فإنْ شَمَّرَتْ لكَ عن ساقِها ... فوَيْهاً حُذَيفَ ولا تَسْأَمِ[3]

* * *

ويُرْوَى عن أبى عُبيدةَ من غير وجهٍ أن نافعَ بن الأزرقِ سأل ابنَ عباسٍ فقال : أرأيتَ نبيَّ الله سليمانَ صلى الله عليه ، مع ما خوَّله اللهُ وأعطاه ، كيف عُنِيَ بالهُدْهُدِ على قِلّتِه وضُئولتِه ؟ فقال له ابنُ عباسٍ : إنه احتاجَ إلى الماء ، والهدهدُ قَنَّاءٌ[4] ، الأرضُ له كالزُّجاجةِ ، يَرَى باطِنَها من ظاهِرِها ، فسأَل عنه لذلك . قال ابنُ الأزرقِ : قِفْ يا وَقافُ ، كيف يُبْصِرُ ما تحتَ الأرضِ والفَخُّ يُغطَّى له بمقدارِ إصْبَعٍ من ترابٍ فلا يُبصرُه حتى

(١) زيادات ر عن الشيخ أبى يعقوب : « وقوله : « عدى » يعنى عدى بن أرطاة الفزارى ، قتله معاوية بن يزيد بن المهلب بواسط ، وكان عامل عمر بن عبد العزيز رحمه الله » . وفيها أيضاً « ويروى : للخيار بواسط ، الخيار : موضع نعمان فيه قبر الخيار بن سبرة المجاشعى ، وواسط بها قبر عدى بن أرطاة الفزارى » .

(٢) زيادات ر : « المزون : عمان بالفارسية » .

(٣) زيادات ر : « تقول : « ويهاً لزيد » ، إذا زجرته عن الشىء فأغريته به . وواها له ، إذا تعجبت منه ، وحذيف ، يريد « حذيفة » فرخم » .

(٤) قناء : عالم بمواضع الماء من الأرض ؛ مأخوذ من القناة ، وهى كظيمة تحفر تحت الأرض ، قاله المرصفى .

ويزعُمُ أهلُ اللغة أنّ اشتقاقَ ذلك من الزَّنَمةِ التى بحلْقِ الشاةِ ، كما يقولون لمن دَخَل فى قومٍ ليس منهم : زَعْنَفةٌ[١] ، والجمع زعانِفُ ، والزعْنفة : الجناحُ من أجنحة السَّمك .

قال أبو الحسن الأخفش : كذا قال « زَعَنفة » والناسُ كلُّهم يقولون : « زِعنفة » بكسر الزاى ، وهو الوجه

***

ويُرْوَى عن غيرِ أبى عُبيدةَ أنه سأله عن قوله جلّ اسْمُه : ﴿ والْتَفَّتِ السَّاقُ بالسَّاقِ ﴾[٢] ، قال : الشِّدَّةُ بالشِّدةِ ، فسأله عن الشاهدِ فأنشدَه :

أخو الحَرْبِ إنْ عضّتْ به الحربُ عضَّها ... وإن شمّرت عن ساقِها الحربُ شمَّرا

***

قال أبو العباس : وقرأتُ على عُمارةَ بن عقيل بن بلال بن جريرٍ قصيدة جرير التى يهجو فيها آلَ المهلَّبِ بن أبى صُفْرَة ، ويمدحُ هلالَ بن أحْوَزَ المازِنىَّ ، ويذكر الوقْعةَ التى كانت لهم عليهم بالسِّنْدِ فى سُلْطانِ يزيدَ ابن عبد الملِكِ ، بسبب خروجِ يزيدَ بن المهلَّبِ عليه :

أقولُ لها من ليلةٍ ليس طُولها ... كطُولِ الليالى لَيْتَ صُبْحَكِ نوَّرا

أخافُ على نفسِ ابن أحْوزَ[٣] إنّه ... جَلا حُمَماً فوقَ الوجوه فأسْفَرا

(١) زيادات ر : « الأم زعنفة بالكسر »

(٢) سورة القيامة ٢٩

(٣) زيادات ر : « قال الشيخ أبو يعقوب : الذى رويت فى شعر جرير :

حذاراً على نفسِ ابن أحْوزَ إنّه ... جلا كلَّ وجهٍ من معدٍّ فأسفرا

على مالكِ بن حمارٍ — وهو سيدَ بنى شمْخٍ بن فزَارَةَ — فطعنه فقال خُفافُ بن نُدْبَة :

إنْ تَكُ خَيْلى قد أُصِيبَ صَمِيمها فَعَمْدًا على عَيْنِى تيمَّمتُ مالِكَا

وَقَفْتُ له عَلْوَى وقد خامَ صُحْبتِى لِأَبنِىَ مَجْدًا أو لِأَثْأرَ هالِكا[1]

أقول له والرُّمحُ يأْطِرُ مَتْنَهُ تَأَمَّلْ خُفافًا إننى أنا ذلِكا

يريدُ : أنا ذلك الذى سمعتَ به . هذا تأويلُ هذا .

وقوله : « يأْطِرُ مَتْنَهُ » أى يَثْنِي . يقال : أطَرْتُ القوس آطِرُها أَطْراً ، وهى مأطورة . وعَلْوَى فرَسُه .

* * *

ومما سأله عنه قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ لهم أجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾[2] ، فقال ابنُ عباسٍ : غيرُ مقطوعٍ ، فقال : هل تعرفُ ذلك العربُ ؟ فقال : قد عرَفه أخو بنى يَشكُرَ حيثُ يقولُ :

وتَرَى خَلْفَهنَّ مِنْ سُرْعَة الرَّجْـ ـعِ مَنِيناً كأنَّه إِهْباءُ[3]

قال أبو العباس : مَنِينٌ ، يعنى الغُبارَ ، وذلك أنها تُقَطِّعُهُ قِطَعاً وراءَها .

والمنينُ : الضعيفُ المُؤْذِنُ بانقطاعٍ ، أنشدنى التَّوَّزىُّ عن أبى زيدٍ :

يا رِيَّهَا إنْ سَلِمَت يَمِينى وسَلِمَ الساقِى الذى يَلِينِى

* ولم تَخُنِّى عُقَدُ المَنِينِ *

---

(١) خام : جبن وضعف . (٢) سورة فصلت ٨

(٣) يصف خيلا ، والرجع : رد الدابة يديها فى السير . وأهباء : جمع هبوة ؛ يريد كأنه أهباء الزوبعة ترتفع فى الجو . قاله المرصفى .

يقع فيه ! فقال ابنُ عباسٍ : ويحكَ يا بنَ الأزرقِ ! أمَا علمتَ أنه إذا جاء القدرُ غشِيَ البصرُ !

* * *

ومما سأله عنه : ﴿ الٓمٓ . ذَٰلِكَ الكتاب ﴾[1]، فقال ابنُ عباسٍ : تأويلُه : هذا القرآنُ .

هكذا جاء ، ولا أحفظُ عليه شاهداً عن ابن عباسٍ ، وأنا أحْسبُه أنه لم يَقبلْه إلّا بشاهدٍ ، وتقديرُه عند النحويين : إذا قال : « ذلك الكتابُ » أنهم قد كانوا وُعِدُوا كتاباً ، هكذا التفسيرُ ، كما قال جلّ ثناؤه : ﴿ فلمّا جاءهم ما عَرَفُوا كَفَرُوا به ﴾[2] ، يعني بذلك اليهودَ ، وقال : ﴿ يَعْرِفُونَه كما يَعْرِفُونَ أبناءهم ﴾[3] ، فمعناه : هذا الكتابُ الذي كنتم تتوقّعونه . وبيتُ خُفَافِ بن نَدْبَةَ على ذلك يَصِحُّ معناه . وكان مِن خبره أنه غزَا مع معاوية بن عمرٍو — أخي خنساء — مُرّةَ وفزارةَ ، فعمَدَ ابنا حَرْملة : دُرَيْدٌ وهاشمٌ المُرِّيَّانِ عَمْدَ معاويةَ ، فاستطْرَدَ له أحدُهما ، فحَمَلَ عليه معاويةُ فطعنَه ، وحملَ الآخَرُ على معاويةَ فطعنه مُتَمكّناً ، وكان صَمِيمَ الخَيْلِ[4] ، فلما تنادَوْا قُتلَ معاويةُ .

قال خفافُ بنُ نَدْبَةَ — وهي أمُّه ، وكانت حبشيةً ، وأبوه عُمَيْرٌ ، وهو[5] أحدُ بني سُلَيْمِ بن منصورٍ — : قَتَلَنِي اللهُ إنْ رِمتُ[6] حتّى أُثأرَ به ، فَحَمل

---

(١) سورة البقرة ١ (٢) سورة البقرة ٨٩

(٣) سورة البقرة ١٤٦

(٤) صميم الخيل ، قال المرصفي : « يريد بالخيل الفرسان ، وصميمها : عميدها الذى تعتمد عليه ، من الصميم ، وهو العظم الذى به قوام العضو » .

(٥) لفظ « هو » ساقط من ر . (٦) رمت : برحت .

عَزِيزٌ عليه أن أُمُرَّ ببابها مُسِرٌّ لىَ الشَّحْناء والبُغْضَ مُظْهِرُ
أَلِكْنِى إليها بالسَّلام فإنه يُشَهَّرُ إلمامى بها ويُنَكَّرُ
بآيةِ ما قالتْ غداة لقيتها بمَدْفعِ أَكْنانٍ أهذا المُشَهَّرُ !
قِفِى فانظُرِى يا أسمَ هلْ تعرِفينه أهذا المُغِيرِىُّ الذى كان يُذكرُ !
أهذا الذى أطريْتِ نعتاً فلم أكُنْ وعَيْشِكِ أنساهُ إلى يومِ أُقبَرُ
فقالتْ : نعمْ ، لا شكَّ غيَّرَ لونه سُرَى الليل يُحْيِى نَصَّهُ والتَّهَجُّرُ[1]
لئنْ كان إيَّاه لقد حالَ بعدَنا عن العَهْدِ ، والإنسانُ قد يتغيَّرُ
رَأَتْ رجلًا أمَّا إذا الشمسُ عارضَتْ فيَضْحَى وأمَّا بالعَشِىِّ فيَخْصَرُ

حتى أتمها ، وهى ثمانون بيتاً ، فقال له ابنُ الأزرقِ : لله أنتَ يا بنَ عباسٍ ! أنضرِبُ إليك أكبادَ الإبلِ نَسألُكَ عن الدِّين فتُعرِض ، ويأتيك غلامٌ من قريشٍ فيُنْشِدُكَ سَفَهًا فتسمعه ! فقال : تَاللهِ ما سمعتُ سفهاً ، فقال ابنُ الأزرق : أمَا أنشدكَ :

رأتْ رجُلًا أمّا إذا الشمسُ عارضتْ فيَخزَى وأمَّا بالعشِىِّ فيَخسَرُ

فقال : ما هكذا قال ، إنما قال « فيَضْحَى وأمَّا بالعَشِىِّ فيَخْصَرُ » قال : أَوَ تحفظ الذى قال ؟ قال : واللهِ ما سمعتُها إلا ساعتى هذه ، ولو شئتُ أن أرُدَّها لرَدَدتُها ، قال : فارْدُدْها ، فأنشدهُ إياها كلَّها[2] .

* * *

---

(١) النص : ضرب من السير ؛ والتهجر : السير فى الهاجرة
(٢) ساقطة من ر

يريد الحبلَ الضعيفَ فهذا هو المعروفُ ، ويقال: مَنينٌ ومَمْنون ، كقَتيلٍ ومقتولٍ ، وجَريحٍ ومَجْروحٍ ، وذَكر التَّوَّزِيُّ في كتاب الأضدادِ أنَّ « المنينَ » يكونُ القويَّ ، فجعله[1] « فعيلًا » من « المُنَّةِ » ، والمعروفُ هو الأول .

وقال غيرُ ابن عباسٍ : ﴿ لهم أجرٌ غيرُ مَمْنونٍ ﴾ لا يُمَنُّ عليهم فيَكَدَرَ عندَهم .

* * *

ويُروى من غير وجهٍ أنَّ ابنَ الأزرق أتَى ابنَ عباسٍ يوماً[2] فجعلَ يسأله[3] حتى أَمَلَّهُ ، فجعلَ ابنُ عباس يُظْهِرُ الضَّجَرَ ، وطَلَعَ عمرُ بنُ عبد الله ابن أبي رَبيعةَ على ابن عباسٍ ، وهو يومئذ غلامٌ . فسلَّم وجلسَ ، فقال له ابنُ عباس : ألا تُنشِدُنا شيئاً من شِعْرِكَ ؟ فأنشدَه :

أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أنت غادٍ فمُبْكِرُ ... غَداةَ غَدٍ أَمْ رائحٌ فمُهَجِّرُ !

بِحاجةِ نَفْسٍ لم تَقُلْ في جَوابِها ... فتُبْلِغَ عُذْرًا والمقالةُ تُعْذِرُ

تَهيمُ إلى نُعْمٍ فلا الشَّمْلُ جامعٌ ... ولا الحبلُ موصولٌ ولا القلبُ مُقْصِرُ

ولا قُرْبُ نُعْمٍ إنْ دَنَتْ لكَ نافعٌ ... ولا نَأْيُها يُسْلِي ولا أنتَ تَصْبِرُ

وأُخْرَى أتَتْ من دُونِ نُعْمٍ ومِثْلُها ... نَهَى ذا النُّهَى لو يَرْعَوِي أو يُفَكِّرُ

إذا زُرْتُ نُعْمًا لم يَزَلْ ذُو قَرابةٍ ... لها كلَّما لاقيتُه يَتَنَمَّرُ

---

(١) ر : « يجعله »   (٢) ساقطة من ر .

(٣) ر : « يسائله » .

وإذا انبسطتِ الشمسُ فهو « الضُّحَى » مقصورٌ ، فإذا متدَّ النهارُ وبينهما مقدارُ ساعةٍ أو نحوُ ذلك فذلك « الضَّحاء » ، ممدود مفتوحُ الأولِ ».

[الحجاج وامرأة من الخوارج]

وذكرتِ الرواةُ أن الحجَّاجَ أُتِىَ بامرأةٍ من الخوارج ، وبحضرته يزيدُ بن أبى مسلمٍ مولاه ، وكان يَسْتَسِرُّ برأى الخوارج ، فكلَّمَ الحجاجُ المرأةَ فأعرضت عنه ، فقال لها يزيدُ بن أبى مسلمٍ : الأميرُ وَيْلَكِ يكلِّمُكِ ! فقالت : بل الويلُ واللهِ لك يا فاسقُ الرِّدِّيُّ .

والرِّدِّىُّ عندَ الخوارج : هو الذى يَعلمُ الحقَّ من قولهم ويكتمه

[عبد الملك بن مروان ورجل من الخوارج]

وذكروا أنَّ عبدَ الملك بن مرْوانَ أُتِىَ برجلٍ منهم فَبَحَثَهُ فرأى منه ما شاء فهماً وعلماً ثم بحثَه ، فرأى ما شاء إِرْباً ودَهْياً[1] ، فرَغِبَ فيه ، فاستدعاه[2] إلى الرجوع عن مذهبه ، فرآه مُستَبْصِرًا مُحَقِّقاً ، فزاده فى الاستدعاء ، فقال له : لِتُغْنِكَ الأُولى عن الثانيةِ ، وقد قلتَ فسمعتُ ، فاسمَعْ أَقُلْ ، قال له : قُلْ ، فجعل يَبْسُطُ له من قولِ الخوارج ويُزَيِّن له مذهبَهم بلسانٍ طَلِقٍ وألفاظٍ بَيِّنةٍ ومعانٍ قَريبةٍ ، فقال عبدُ الملك بعدَ ذلك على معرفته : لقد كان

---

(١) الأرب : البصر بالأمور ، والدهى : مصدر دهى ، كرضى ؛ إذ كان صاحبه عاقلا مجربا .
(٢) كذا فى الأصل ، س ، وفى ر : « واستدعاه » .

وروى الزُّبَيْرِيُّون أنّ نافعا قال له : ما رأيتُ أرْوَى منك قطّ .
فقال له ابنُ عباسٍ : ما رأيتُ أرْوَى من عُمرَ ، ولا أعْلَمَ من عليّ

وقوله : « فيَضْحَى » يقولُ : يَظْهَرُ للشمسِ ويَخْصَر ، يقولُ : فى البَرْدَيْن [1] ، فإذا ذكر العشىَّ فقد دلَّ على عَتِيب العشىِّ ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وأنَّكَ لا تَظْمَأُ فيها ولا تَضْحَى ﴾ [2] ، والضِّحُّ : الشمسُ ، وليس مِنْ : « ضَحِيتُ » ، يقالُ : « جاء فلانٌ بالضِّحّ والرِّيح » ، يُرادُ به الكثرة ، قال عَلْقمة :

أغَرُّ أبْرَزَهُ للضِّحِّ زَاقِبُهُ مُقَلَّدٌ قُضُبَ الرَّيْحَان مَفْغُومُ

له فَغْمةٌ ، أى رائحةٌ طيبةٌ ، يعنى إبريقاً فيه شرابٌ وفى الحديث :
« أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لمَّا توجَّهَ إلى تَبُوكَ جاء أبو خَيْثَمَةَ ، وكانت له امرأتانِ ، وقد أعَدَّتْ كلُّ واحدةٍ منهما من طيِّبِ ثَمَرِ بستانِه ، ومَهَّدَتْ له فى ظِلٍّ ، فقال : أظِلٌّ ممدود ، وثمرةٌ طيبةٌ ، وماءٌ باردٌ ، وامرأةٌ حسناء ، ورسولُ الله فى الضِّحِّ والرِّيحِ ! ما هذا بخير ! فركب ناقته ومضى فى أثرِه ، وقد قيلَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى نَفَرٍ تخلَّفوا ، أبو خَيْثَمَةَ أحدُهم ، فجعل لا يُذْكَرُ له أحدٌ منهم إلّا قال : دَعُوهُ فإن يُرِدِ اللهُ به خيراً يُلْحِقْهُ بكم ، فقيل ذاتَ يوم : يا رسول الله ، نَرَى رجلا يَرْفَعُهُ الآلُ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كنْ أبا خيثمةَ » ، فكانه .

---

(١) البردان : الغداة والعشى . (٢) سورة طه ١١٩

[وفود رجل من أهل الكتاب على معاوية]

وتَزْعُم الرواةُ أنَّ رجلًا من أهل الكتاب وفدَ على معاوية ، وكان موصوفاً بقراءة الكتُبِ ، فقال له معاويةُ : أتجِدُ نعتى فى شىء من كتبِ الله ؟ قال : إى واللهِ ، لو كنتَ فى أُمّةٍ لوضعتُ يدِى عليكَ من بينهم . قال : فكيف تجدنى ؟ قال : أجدُك أولَ مَنْ يُحَوِّلُ الخلافةَ مُلْكاً ، والخُشْنَةَ لِيناً ، ثم إن ربَّك مِن بعدها لغفورٌ رحيمٌ . قال معاوية : فَسُرِّىَ عنّى ، ثم قال : لا تَقْبَلْ هذا مِنّى ، ولكن من نفسك ، فاجْتَبِ[1] هذا الخبرَ . قال : ثم يكونُ ماذا ؟ قال : ثم يكونُ منك رجلٌ شَرّابٌ للخمرِ ، سَفّاكٌ للدماء ، يَحْتَجِن الأموال[2] ، وَيَصْطَنِعُ الرجالَ ، وَيَجْنُبُ[3] الخيولَ ، وَيُبِيحُ حُرْمَةَ الرسولِ[4] ، قال : ثم ماذا ؟ قال : ثم تكونُ فِتنةٌ[5] تَتَشَعَّبُ بأقوامٍ حتى يُفْضِىَ الأمرُ بها إلى رجلٍ[6] أعرِفُ نعتَهُ ، يبيع الآخرة الدائمةَ بحظٍّ من الدنيا مخْسُوسٍ ، فيجتمع عليه مِن آلِك وليس منك ، لا يزالُ لِعَدُوِّه قاهِراً ،

(١) ر : « فاخبر » ، ويقال : اجتبيت الخراج اجتباء ، أى جمعته .
(٢) احتجن الشئ : أخذه وحبسه
(٣) يجنب الخيل : يقودها إلى ما يركب منها اختيالا وعجبا بها .
(٤) قال المرصفى : « ذلك ما كان من قتل الحسين ومن معه من فتيان بنى هاشم وإهانة آل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » .
(٥) هى الفتنة التى وقعت بعد موت معاوية بن يزيد بن معاوية ؛ وافتراق الناس فرقتين : فريق يدعو إلى ابن الزبير ، وفريق يدعو إلى بنى أمية .
(٦) قال المرصفى : « يريد به عبد الملك بن مروان ، ولم يذكر معاوية بن يزيد ولا مروان لقصر مدتهما » .

يُوقعُ فى خاطرى أن الجنة خلِقَتْ لهم ، وأنا [١] أَوْلَى بالجهادِ منهم . ثم رَجَعْتُ إلى ما ثبّتَ الله علىّ من الحجةِ وقرّرَ فى قلبى من الحق . فقلتُ له : للهِ الآخرة والدنيا ، وقد سَلَّطنا [٢] الله فى الدنيا ، ومَكّنَ لنا فيها ، وأراكَ لستَ تجيب بالقبول [٣] . والله لأقتلَنَّكَ إن لم تطِعْ .

فأنا فى ذلك إذْ دُخِلَ علىّ بابْنِى مروانَ

قال أبو العباس : كان مروان أخا يزيدَ لِأُمّه ، أمُّهُمَا عاتكة بنت يزيدَ ابن معاوية ، وكان أبيًّا عَزِيزَ النَّفس ، فَدُخِلَ به فى هذا الوقتِ على عبد الملكِ باكياً لضربِ المؤدّبِ إياهُ . فشَقَ ذلك على عبد الملك ، فأقبلَ الخارجىُّ ، فقال له : دَعْهُ يبكى [٤] ، فإنه أرحَبُ لِشِدْقِهِ ، وأصحُّ لدماغه ، وأذهبُ لِصوتِهِ ، وأحرَى ألّا تأبَى عليه عينُه إذا حضرتْه طاعةُ الله [٥] . فاستدعَى عبرتَها . فأعجبَ ذلك من قوله عبدَ الملك ، فقال متعجباً : أمَا يَشْغَلُكَ ما أنت فيه وبعَرَضِهِ عن هذا ! فقال : ما ينبغى أن يَشْغَلَ المؤمنَ عن قول الحقِّ شىء . فأمر عبد الملك بحبسه ، وصَفَحَ عن قتله ، وقال بعدُ يعتذرُ إليه : لولا أن تُفسِدَ بألفاظِك أكثر رعيتى ما حبستُكَ

ثم قال عبدُ الملك : مَن شَكّكنى وَوَهّمنِى حتى مالتْ بى عصمةُ الله فغيرُ بعيدٍ أن يَستَهْوِىَ مَنْ بَعْدِى . وكان عبد الملك من الرأىِ والعلمِ بموضعٍ .

---

(١) ر : « وأنى » .
(٢) ر : « سلطنى » .
(٣) ر : « بالقول » .
(٤) ر : « يبك » ، وكلاهما جائز .
(٥) ر : « طاعة ربه » .

فأسْنَمَ ، فقال له عبد الملك يوماً ، وهو فى عُنفوَانِ نسُكِهِ ، وقد مضت جيوشُ يزيدَ بن معاوية مع مسلمِ بن عُقْبَةَ المُرِّىِّ ، من مُرَّةِ غَطَفَانَ ، تريدُ المدينة — ألا ترَى خَيْلَ عَدُوِّ الله قاصدةً لِحَرَمِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال له يوسفُ : جيشُكَ واللهِ إلى حَرَمِ رسول الله أعظمُ مِن جيشه . فنَفَضَ عبد الملك ثوبَه ثم قال : مَعَاذَ اللهِ ! قال له يوسفُ : ما قلتُ شاكًّا ولا مُرْتابًا ، وإنى لأجدُكَ بجميع أوصافِك ، قال له عبد الملك : ثم ماذا ؟ قال : ثمَّ يتدَاوَلها رَهْطُك ، قال : إلى متى ؟ قال : إلى أن تَخرج الراياتُ السُّود من خُراسانَ

[حديث ابن جعدبة للمنصور]

قال : وَحُدِّثتُ عن ابن جُعْدُبة ، قال : كنتُ عندَ أميرِ المؤمنين المنصور ، فى اليوم الذى أتاه فيه خروجُ محمد بنِ عبد الله بن حَسن بن حَسن ، قال : فغَمَّهُ ذلكُ ، حتى امتنع من الغَداءِ فى وقته ، وطال عليه فِكْرُهُ ، فقلتُ : يا أميرَ المؤمنين ، أُحَدِّثُكَ حديثاً : كنْتُ مع مروانَ بن محمدٍ ، وقد قصَدَه عبد الله بن علىٍّ ، [قال][1] : فإنّا لكذلك إذ نظَرَ إلى الأعلامِ السُّودِ من بعْدٍ ، فقال : ما هذه البُخْتُ المجَلَّلة[2] ؟ قلت : هذه أعلامُ القومِ ، قال : فَمَنْ تحتَها ؟ قلتُ : عبد الله بن على بن عبد الله بن عباسٍ ، قال : وَأَيُّهم عبد الله ؟ قلت[3] : الفتى المعْرُوقُ[4] الطويلُ ، الخفيفُ العارِضَيْنِ ، الذى

---

(١) تكملة من س .

(٢) البخت : جمع بختى ؛ وهى الإبل الطويلة الأعناق . والمجللة : المغطاة بما يزينها .

(٣) ر : « فقلت » .

(٤) المعروق : القليل اللحم .

وعلى مَنْ ناوَأه (١) ظاهراً ، ويكون له قَرِينٌ (٢) مبير (٣) لَعين قال : أفتعرفه إن رأيته ؟ قال : شَدَمًا ، فأَراه من بالشام مِن بنى أُمَيَّةَ ، فقال : ما أراه هاهنا ، فوَجَّه به إلى المدينة مع ثقاتٍ من رُسُلِه ، فإذا عبدُ الملك بن مروان يَسْعَى مُؤْتزِرًا فى يده طائرٌ ، فقال للرُّسُلِ : هاهوذا ! ثم صاح به : إلىَّ أبو مَنْ ؟ قال : أبو الوليد . قال : ياأبا الوليد ، إنْ بَشَّرْتكَ بِبِشارةٍ تَسُرُّكَ ما تجعلْ لِى ؟ قال : وما مقدارُها من السرورِ حتى نعْلَمَ مقدارها من الجُعْلِ ؟ قال : أَنْ تملكَ الأرضَ ، قال : مالِى من مالٍ ، ولكن أرأيت (٤) إنْ تكلّفتُ لك جُعْلاً ، أأنالُ ذلك قبلَ وقتِه ؟ قال : لا ، قال : فإن حَرَمْتُكَ ، أتؤخِّرُه عن وقته ؟ قال : لا ، قال : فحسْبُكَ ما سمعتَ

فذكروا أنَّ معاوية كان يُكْرِمُ عبد الملك ليجعلها يدًا عندَه يُجازيه بها فى مخالفته (١) فى وقتِه .

وكان عبد الملك من أكثر الناس علماً ، وأبرَعهم أدباً ، وأحسنهم فى شَبيبَتِهِ دياناً ، فقَتَلَ عمرَو بن سعيدٍ ، وتَسمَّى بالخلافةِ ، فَسُلِّمَ عليه بها أوّل تسليمةٍ ، والمُصْحَفُ فى حِجْرِه ، فأطبقَه وقال : ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ .

[صديق عبد الملك بن مروان]

قال أبو العباس : وحدثنى ابنُ عائشةَ عن حَمّادِ بن سَلَمَةَ فى إسنادٍ ذكره : أن عبدَ الملك كان له صَديقٌ ، وكان من أهل الكتاب ، يقال له يوسفُ ،

---

(١) وأه : عاداه .
(٢) يريد به الحجاج بن يوسف ؛ قاله المرصفى .
(٣) مبير : مهلك ؛ وفى س : « مبين » .
(٤) ر : « أرأيتك » .
(٥) ر : « مخلفيه » .

وها أنتم تعلمون ما حدث ، والله يقول : ﴿ وَفَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ على القَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا[1] ﴾ ، فكلٌّ أجاب وبايع .

فوجّه إليهم عليُّ بن أبى طالب عبدَ الله بن العباس داعيًا ، فأبوا ، فسار إليهم ، فقال له عفيفُ بن قيسٍ : يا أميرَ المؤمنين ، لا تخرُجْ فى هذه الساعةِ ؛ فإنها ساعة نَحْسٍ لعدوك عليك ، فقال له علىٌّ : توكلتُ على الله وحده ، وعَصَيْتُ رأىَ كلِّ مُتَكَهِّنٍ . أنتَ تزعم أنك تعرف وقتَ الظَّفَرِ من وقتِ الخذلانِ ، ﴿ إِنِّى توكلت عَلَى اللهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[2] ، ثم سار إليهم فطَحَنهم جميعًا ، لم يُفلت منهم إلَّا خَمْسَةٌ ، منهم المُسْتَوْرِدُ ، وابنُ جُوَيْنٍ الطائىُّ ، وفَرْوَةُ بن شَرِيكٍ الأَشْجَعِىُّ ، وهُمُ الذين ذكرَهُمُ الحسنِ البصرىُّ ، فقال : دعاهُمْ إلى دِينِ الله فجعلوا أصابعهم فى آذانِهم وَاسْتَغْشَوْا ثيابَهم وأصرُّوا واستكبرُوا استكبارًا ، فسار إليهم أبو حَسَنٍ فطحنهم طَحْنًا .

* * *

وفيهم يقول عِمْرَانُ بن حِطَّانَ :

إنى أُدِينُ بما دانَ الشُّرَاةُ به   يومَ النُّخَيْلةِ عندَ الجوْسَقِ الخرِبِ[3]

وقال الحِمْيَرِىُّ يعارضُ هذا المذهبَ :

إنى أَدينُ بما دانَ الوصىُّ به   يوم النُّخَيْلَةِ مِن قَتْلِ المُحِلينا

---

(١) سورة النساء ٩٥   (٢) سورة هود ٥٦

(٣) الجوسق : الحرب : بظاهر الكوفة عند النخيلة ؛ والبيت فى معجم البلدان (٣: ١٧٠) من أبيات نسبها إلى قيس بن الأصم الضبى .

رأيتَه فى وَليمةٍ كذا يأكلُ فيُجيدُ ، فسألتَني عنه فَنَسَبْتُهُ لكَ ، فقلتَ : إنّ هذا الفتى لَتِلِقّامَة (١) ، قال : قد عرفتُه ، والله لوَدِدْتُ أنّ عليَّ بن أبى طالبٍ مكانَه قال : فقال لى المنصورُ : آللهِ لسمعتَ هذا مِن مروانَ بن محمدٍ ؟ قلت : والله لقد سمعتُهُ منه ، قال : يا غلامُ ، هاتِ الغَداء .

[قتال أهل النخيلة]

قال أبو العباس : وكان أهل النُّخَيْلَةِ جماعةً بعدَ أهلِ النَّهْرَوَانِ ، ممن فارق عبدَالله بن وَهْبٍ ، وممن لَجأَ إلى رايةِ أبى أيوبَ ، وممن كانَ أقامَ بالكوفة ، فقال : لا أُقاتلُ عليًّا ، ولا أُقاتلُ معه ، فتَوَاصَوْا فيما بينَهم وتعاضدُوا ، وتأَسَّفُوا على خِذْلانِهِمْ أصحابَهُمْ ، فقام منهم قائمٌ يقال له المُسْتَوْرِدُ ، من بنى سعدِ بن زيدِ مَناة ، فحمِدَ الله وأثنى عليه وصلَّى على محمدٍ ، ثم قال : إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانا بالعدلِ تَخفِقُ راياتُهُ ، مُعْلِنًا مقالتَه ، مبلِّغاً عن ربِّهِ ، ناصحاً لأُمَّتِهِ ، حتى قبضَه الله مُخيَّراً مُختارًا ، ثم قام الصِّدِّيقُ فصَدَقَ عن نبيِّه ، وقاتَلَ من ارْتَدَّ عن دين ربِّه ، وَذَكَرَ أنَّ الله عزَّ وجلَّ قَرَنَ الصلاةَ بالزكاةِ ، فرَأَى تعطيلَ إحداهما طعناً (٢) على الأخرى ، لا بل على جميع منازلِ الدين ثم قبضه الله إليه موفوراً . ثم قام بعده (٣) الفاروقُ ، فَفَرَقَ بين الحقِّ والباطلِ ، مُسَوِّياً بينَ الناسِ فى إعطائه ، لا مُؤْثِراً لأقاربه ، ولا مُحَكِّمًا فى دين ربّه ،

---

(١) التلقامة : الكثير الأكل .

(١ـ١) ر : « فرأى أن تعطيل إحداهما طعن على الأخرى » ، وما أثبته عن الأصل، س.

(٢) ساقطة من ر .

وكان يقولُ : لا تُفشِ إلى أحدٍ سِرًّا ، وإن كان مُخلصاً ، إلّا على جهة المشاورةِ .

وكان يقولُ : كُنْ أحْرَصَ على حِفظ سرّ صاحبك منك على حَقْن دمِك .

وكان يقول : أوّلُ ما يَدُلُّ عليه عائِبُ الناس مَعْرِفتُهُ بالعُيوب ، ولا يَعيب إلّا مَعيب .

وكان يقول : المالُ غيرُ باقٍ عليك فاشْتَرِ من الحَمْدِ ما يَبْقى عليك .

وكان يقول : بَذْلُ المالِ في حَقّهِ استدعاء للمَزِيدِ من الجوَادِ .

وكان يكثِرُ أن يقولَ : لو مُلِّكْتُ الأرضَ بحذافيرِها ، ثم دُعيتُ إلى أن أستَفِيدَ بها خَطِيئةً ما فعلتُ .

[الخوارج ومعاوية]

قال : وخَرَجْتِ الخوارجُ . واتّصَلَ خرُوجُها ، وإنما نَذْكر منهم مَن كان ذا خبرٍ طَرِيفٍ ، واتّصَلَتْ به حِكَمٌ من كلامٍ وأشعار .

فأوّلُ مَنْ خرَج بعد قتل على بن أبي طالبٍ عليه السلام حَوْثَرَةُ الأسَدِيُّ ، فإنه كان مُتَنَحيًا بالبَنْدَنِيجَيْنِ[1] ، فكتب إلى حابسٍ الطائيّ يسأله أن

---

(١) البندنيجين ، بلفظ المثنى : بلد في طرف النهروان من اعمال بغداد .

وبالذى دانَ يومَ النَّهْرِدِنْتُ به   وشاركتْ كَفُّهُ كَفِّى بصِفِّينَا
تلك الدّماء معًا يارب فى عُنُقِى   ومِثْلَها فاسْقِنِى آمِين آمِينَا

[مناظرة أهل النخيلة لابن عباس]

وكان أصحابُ النُّخَيْلةِ قالوا لابن عباسٍ : إن كان [1] علىٌّ على حقٍّ لم يَشْكُكْ فيه ، وَحَكَّمَ مُضْطَرًّا ، فما بالُهُ حيث ظَفِرَ لم يَسْبِ ! فقال لهم ابن عباس : قد سمعتم الجوابَ فى التحكيم ، فأمَّا قولكم فى السّباء ، أفكنتم سابِينَ أُمَّكُم عائشةَ ! فوضعوا أصابعَهُم فى آذانهم ، وقالوا : أَمْسِكْ عنا غربَ لِسانِكَ يا بن عباسٍ ! فإنه طَلِقٌ ذَلِقٌ ، غوّاصٌ على موضعِ الحجّةِ .

ثمّ خَرَجَ المسْتَوْرِدُ بعدَ ذلك بِمُدّة على المغيرةِ بن شُعْبَةَ ، وهو والى الكوفةِ ، فوجَّهَ إليه مَعْقِلَ بن قَيْس الرِّياحِىّ ، فدعاه المستوردُ إلى المبارزةِ ، وقال له : عَلامَ يُقتلُ الناس بينى وبينكَ ؟ فقال له مَعْقِلٌ : النّصفَ سألتَ . فأقسمَ عليه أصحابُهُ ، فقال : ما كنتُ لآبَى عليه ، فخرج إليه فاختلفا ضربتَيْن ، فخرّ كلٌّ واحدٍ منهما ميتًا

[المستورد التيمى]

وكان المسْتَوْرِدُ كثيرَ الصلاةِ شديد الاجتهادِ ، وله آدابٌ يُوصِى بها ، وهى محفوظةٌ عنه .

كان يقول : إذا أفضيْتُ بسِرّى إلى صَديقى فأفشاه لم ألُمْهُ ، لأنى كنتُ أولى بحفظه

---

(١) و : « إذ كان » .

فحَمَل عليه رجلٌ من طَيِّء[1] فقتَله ، فرأى أثرَ السجود قد لوَّحَ جبهتَه ، فندِمَ على قتله ، ثم انهزمَ القومُ جميعاً .

***

وأنا أحسِبُ أنَّ قولَ القائل :

وَأَجْرأُ مَنْ رأيْتُ بظَهْرِ غَيْبٍ   على عَيْبِ الرجالِ ذوُو العُيوبِ

إنما أخذه من كلام المستوردِ ، قال رجلٌ للمستورد : أُريدُ أن أرَى رجلا عَيَّاباً ، قال : الْتَمِسْهُ بِفَضْلِ مَعايبَ فيه .

***

وقال العباسُ بن الأحْنَف يعاتبُ من اتهمه بإفشاءِ سِرِّهِ :

تَعَتَّبْتَ تَطْلُبُ ما أسْتَحِقُّ   به الهجرَ منك ولا تَقْدِرُ

وماذا يضيرُكَ مِن شُهْرَتي[2]   إذا كان سِرُّك لا يُشْهَرُ

أمِنِّي تَخَافُ انتشارَ الحديثِ   وحَظِّيَ في سَتْرِهِ أوْفَرُ

ولو لم تَكُنْ فِيَّ بُقْيَا عليك   نَظَرْتُ لنَفْسِي كما تَنظُرُ

[من أخبار مقتل الإمام على ، ووصيته لأبنائه]

ويُرْوَى من حديث محمد بن كَعْبٍ القُرَظِي قال : قال عمَّارُ بن ياسِرٍ خَرَجْنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة ذاتِ العُشَيْرَة

(١) نقل المرصفي عن ابن الأثير أنه عبد الله بن عوف قائد ذلك الجيش .
(٢) ر : « يضرك » بتشديد الراء .

يَتوَلّى أمرَ الخوارج حتى يَسيرَ إليه بجمعِهِ ، فيتعاضدَا على مجاهدةِ معاوية ، فأجابَه ، فرَجَعا إلى موضعِ أصحابِ النُّخَيْلةِ ، ومعاوية بالكوفة حيثُ دَخلها مع الحسن بن علىّ بن أبى طالب صلوات الله عليه ، بعدَ أنْ بايَعه الحسنُ والحسينُ عليهما السلام ، وَقَيْسُ بن سَعْدِ بن عُبادة .

ثم خَرج الحسنُ يريدُ المَدينةَ ، فوَجّه إليه معاويةُ وقد تجاوَزَ فى طريقِه يسأله أن يكون المتوَلّىَ لمحاربتِهم . فقال الحسنُ : والله لقد كَفَفتُ عنك لحقنِ دماء المسلمينَ ، ولاأحسِبُ ذلك يَسَعُنى ، أفأقاتِلُ عنك قوماً أنتَ والله أولى بالقتالِ منهم ! فلمّا رَجَعَ الجوابُ إليه وجّه إليهم جيشا[1] أكثرُه أهل الكوفة[1] ثم قال لأبيه ، أبى حَوثَرَةَ : قم فا كفنى[2] أمرَ ابنِك فصار إليه أبوه فدعاه إلى الرجوع ، فأبى فأدَارَه ، فصَمّمَ ، فقال له : يا بُنَىَّ أجيئك بابنِكَ فلعلك تراه فتحِنُّ إليه ؟ فقال : يا أبتِ ، أنَا والله إلى طَعْنةٍ نافذةٍ أتقلّبُ فيها على كُعوبِ الرُّمح أشوَقُ منى إلى ابنِى ! فرجَع إلى معاويةَ فأخبَرَه الخبرَ[3] ، فقال : يا أبا حَوثَرَة ، عَتَا[4] هذا جدًّا !

فلما نَظرَ حَوثَرَة إلى أهلِ الكوفة قال : يا أعداء اللهِ ، أنتم بالأمسِ تُقاتلون مُعاويةَ لتَهُدّوا سلطانَه ، واليومَ تقاتلون مع معاوية لتَشُدّوا سلطانه !

فخرجَ إليه أبوه فدعاه إلى البِرَاز ، فقال : يا أبتِ ، لك فى غيرى مَندوحةٌ ، ولى فى غيرِك عنك مَذهَبٌ ، ثم حَمَل على القوم وهو يقولُ :

أُكْرُرْ على هٰذِى الجموعِ حَوثَرَهْ   فعَنْ قليـــلٍ مَا تنَالُ المَغفِرَهْ

(١ـ١) ر : «جيشاً أكثرهم من أهل الكوفة » (٢) ر : « اكفنى أمر ابنك ».
(٣) ساقطه من ر. (٤) عتا : استكبر .

مَعْقِلِ بن قَيْسٍ فى التَّرْفِيهِ [1] عن ابن عَمِّى ، فإنه فى آخِرِ مَنْ خَرَجَ ، فقال : تَغْدُو علينا والكتابُ مختومٌ إن شاء الله تعالى . فبتُّ ليلتى ثم أصبحتُ والناسَ يقولون : قُتِلَ أميرُ المؤمنين الليلةَ ، فأتيتُ الحسنَ ، وإذا به فى دارِ علىٍّ عليه السلام ، فقال : لولا ما حَدَثَ لقَضَيْنا حاجَتَكَ ، ثم قال : حدّثنى أبى عليه السلام البارحةَ فى هذا المسجد فقال : يا بُنَىَّ ، إنى صَلَّيْتَ بما رَزَقَ الله ، ثم نمتُ نومةً ، فرأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فشَكَوْتُ إليه ما أنا فيه من مخالفةِ أصحابى وَقِلَّةِ رغبتهم فى الجهادِ ، فقال : ادْعُ الله أن يُرِيحَكَ منهم ، فدعوتُ الله . قال الحسنُ : ثم خرج إلى الصلاة فكان ما قد علمتَ .

* * *

وَحُدِّثْتُ من غير وَجْهٍ أن عليًّا لمَّا ضُرِبَ ثم دَخَلَ منزله اعترته غشْيَةٌ ثم أفاقَ ، فدعا الحسنَ والحسينَ ، فقال : أُوصِيكما بتَقْوَى اللهِ والرغبةِ فى الآخرة ، والزُّهْدِ فى الدنيا ، ولا تأسَفَا على شىءٍ فاتَكُما منها اعْمَلاَ الخيرَ ، وكونا للظالم خَصمًا ، وللمظلوم عَوْناً . ثم دَعا محمداً فقال : أما سمعتَ ما أوصيتُ به أَخَوَيْكَ ؟ قال : بَلَى ، قال : فإنى أوصيك به ، وعليك بِبِرِّ أَخَوَيْكَ وتوقيرهما ومعرفةِ فَضْلِهمَا ، ولا تَقْطَعْ أَمْرًا دُونَهُمَا . ثم أَقْبَلَ عليهما فقال : أوصيكما به خيرًا ، فإنه شَقِيقُكما وابنُ أبيكما ، وأنتما تَعْلَمَانِ أنَّ أَبَاكُما كانَ يُحِبُّهُ ، فأَحِبَّاه فلمَّا قَضَى علىٌّ كرم الله وجهه ، قالتْ أُمُّ الْعُرْيَانِ :

---

(1) الترفيه : التنفيس .

فلما قَفلْنا نزلنا مَنْزِلاً ، فخرجتُ أنا وعليٌّ بن أبى طالب صلواتُ الله عليه نَنْظُرُ إلى قوم يَعْتملُونَ ، فنعسْنا فنِمنا ، فَسَفَتْ علينا الريحُ التُّرابَ ، فما نبّهنا إلّا كلامُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لعلىٍّ : « يا أبا ترابٍ » - لِمَا عليه من التراب - أتعلمُ مَنْ أشقى الناسِ » ؟ فقال : خبِّرْنى يارسولَ الله ؟ فقال: « أشقى الناسِ اثنانِ : أحمرُ ثمودَ الذى عقرَ الناقةَ ، وأشقاها الذى يَخْضِبُ هذه » - وَوَضَعَ يدَه على لحيتِهِ - « مِنْ هذا » ، ووضع يدَه على قَرْنِه .

* * *

وَيُرْوَى عن عِياضِ بن خَليفةَ الخزاعى قال : تَلَقّانِى علىٌّ صلواتُ الله عليه فى الغَلَسِ ، فقال لى : مَنْ أنتَ ؟ قلتُ : عياضُ بن خليفةَ الخزاعىُّ ، فقال : ظننتك أشقاها الذى يَخْضِبُ هذه مِن هذا - وَوَضَعَ يده على لحيتِهِ وعلى قَرْنهِ .

* * *

وَيُرْوَى : أنه كان يقولُ كثيراً - قال أبو العباسِ : أحسِبُه عند الضَّجَرِ بأصحابه - : ما يَمْنعُ أشقاها أن يَخْضِبَ هذه مِن هذا !

* * *

ويُرْوَى عن رجلٍ من ثَقيفٍ أنه خرَجَ الناسُ يَعْلِفونَ دوابَّهم بالمدائنِ ، وأرادَ علىٌّ أمير المؤمنين المسيرَ إلى الشام ، فوجَّهَ مَعْقِلَ بن قيس الرِّياحِىّ لِيُزْعِجَهُمْ إليه - وكان ابنُ عمٍّ لى فى آخِرِ مَنْ خرَجَ - فأتيتُ الحسن بن علىٍّ عليه السلام ذاتَ عَشيَّةٍ ، فسألْتُه أن يأخُذَ لى كتابَ أمير المؤمنين إلى

يقالُ له : رُؤْبَةُ الضَّبِّيُّ ، وتنادَى الناسُ ، فخرج رجلٌ من بنى قُطَيعة من الأزدِ ، وفى يده السيفُ ، فناداه الناسُ من ظهور البيوتِ : الحَرُورِيَّةَ الحروريَّةَ ! انجُ بنفسك . فنادَوْه : لسنا حَرُورِيَّةً ، نحنُ الشُّرَطُ ، فوقف فقتلوه . وبَلغَ أبا بلال خبرُهما ، فقال : قُرَيْبٌ ، لا قرَّبَهُ اللهُ من الخير ، وزَحَّافٌ ، لا عفا اللهُ عنه ، ركباها عَشْواءَ مُظْلِمَةً - يريد اعتراضَهما الناسَ - ثم جَعَلا لا يَمُرَّانِ بقبيلةٍ إلا قتلا مَنْ وَجَدَا ، حتى مَرَّا ببنى علىٍّ بن سُودٍ من الأزدِ ، وكانوا رُماةً ، وكان فيهم مائةٌ يجيدُون الرمْيَ ، فَرَمَوْهم رَمْيًا شديدًا ، فصاحوا : يا بنى علىٍّ ! البُقْيَا ، لا رِمَاءَ بيننا ، فقال رجلٌ من بنى علىٍّ :

لا شىْءَ لِلقوْمِ سِوى السِّهامِ مَشْحوذةً فى غَلَسِ الظَّلامِ[1]

فعرَّدَ عنهم[2] الخوارجُ ، وخافُوا الطَّلبَ ، فاشْتَقُّوا مقبرةَ بنى يَشْكُرَ ، حتى نَفذُوا إلى مُزَيْنةَ ، ينتظرون مَنْ يَلْحَقُ بهم من مُضَرَ وغيرها ، فجاءهُمْ ثمانون ، وخرجتْ إليهم بنو طاحِيَةَ بن سُودٍ وقبائلُ مُزَيْنةَ وغيرها ، فاستقتلَ الخوارجُ فقتِلوا عن آخِرِهمْ .

ثم غدَا الناسُ إلى زيادٍ فقال : ألا يَنْهَى كلُّ قومٍ سُفهاءَهُمْ ! يا معشرَ الأزْدِ ، لولا أنكم أطفأتم هذه النارَ لقلتُ : إنَّكُمْ أرَّثْتُمُوها . فكانت القبائل إذا أحَسَّتْ بخارِجيَّةٍ فيهم شدَّتْهُمْ وَثَاقًا[3] ، وأَتَتْ بهم زيادًا . فكان هذا أحَدَ ما يذْكَرُ من صحة تدبيره .

* * *

---

(١) شحذ السيف : جلاؤه .

(٢) عرد الرجل تعريداً : إذا عدا فزعا .

(٣) ساقطة من ر .

وَكُنَّا قَبْلَ مَهْلَكِهِ زماناً نَرَى نَجْوَى رسول الله فِينَا
قَتَلْتُمْ خَيْرَ من رَكِبَ المطَايا وَأَكْرَمَهُمْ وَمَنْ رَكِبَ السَّفِينَا
أَلاَ أَبْلِغ مُعاويةَ بنَ حَرْبٍ فلا قَرَّتْ عُيونُ الشَّامِتِينَا

* * *

وَيُرْوَى أَنَّ عبدَ الرحمن بن مُلْجَمٍ باتَ تلك الليلة عند الأشْعَثِ بن ابن قَيْسٍ بن مَعْدِى كَرِبَ ، وأَنَّ حُجْرَ بنَ عَدِىٍّ سمع الأشعثَ يقولُ له : فَضَحَكَ الصُّبْحُ ، فلمَّا قالوا : قُتِلَ أَميرُ المؤمنين ، قال حُجْر بنُ عَدِىٍّ للأشعث : أنت قتلتَه يا أَعْوَرُ !

وَيُرْوَى أَنَّ الذى سمع ذاكَ أَخُو الأَشعثِ ، عَفِيفُ بن قيسٍ ، وأنه قال لأخيه : عَنْ أَمْرِكَ كانَ هذا يا أعورُ !

* * *

وأخبارُ الخوارجِ كثيرةٌ طويلةٌ ، وليس كتابُنا هذا[1] مفرداً لهم ، ولكِنَّا[2] نذكر من أمورهم مافيه معنى وأدبٌ ، أو شعرٌ مُسْتَطْرَفٌ ، أو كلامٌ من خُطبةٍ معروفةٍ مختارةٍ .

[الخوارج وزياد]

خَرَجَ قُرَيْبُ بن مُرَّةَ الأَزْدِىُّ وَزَحَّافٌ الطائىُّ — وكانا مجتهدَيْنِ بالبصرةِ فى أيام زيادٍ ، واختلفَ الناسُ فى أمورهما : أيُّهما كان الرئيس — فاعترضا الناسَ ، فَلَقِيَا شيخاً ناسكا من بنى ضُبَيْعَةَ بن رَبيعة بن نِزَارٍ ، فقتلاه ، وكان

(١) ساقطة من ر .   (٢) ر : « لكنا » .

الخوارجُ بالدَّفعِ والرَّدْع ، ويقولُ قائلهم : لا تَقْفُ ما ليس لك به علمٌ .

* * *

ويُرْوَى عن ابن عباس فى هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾[1] ، قال : أعيادُ المشركين . وقال ابن مسعودٍ : الزُّورُ : الغِنَاء . فقيلَ لابن عباسٍ : أوَ ما هذا فى الشهادةِ بالزُّور ! فقال : لا ، إنما آية شِهادةِ الزُّور : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا ﴾[2]

[عبد الله بن زياد والخوارج]

عاد الحديث إلى أمرِ الخوارجِ .

وكانت[3] من المجتهداتِ من الخوارج — ولو قُلتَ : من المجتهدين ، وأنت تعنى امرأةً كان أفصحَ ، لأنك تريدُ رجالًا ونساءً هى إحداهم ، كما قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾[4] وقال جَلّ ثناؤُه : ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِى الْغَابِرِينَ ﴾[5] — منهم البَلْجاء ، وهى امرأةٌ من بنى حَرامِ بن يَربوعِ بن حَنْظلةَ بن مالك بن زيدِ مناةَ بن تميمٍ ، من رهطِ سَجاحِ ، التى كانت تَنَبَّأَتْ ، وسنذكرُ خبرها فى موضعه إن شاء الله . وكان مِرْداس بن حُدَيْرٍ أبو بلال ، وهو أحدُ بنى رَبيعةَ بن حَنْظَلَةَ تُعظِمهُ الخوارجُ ، وكان مجتهدًا كثيرَ الصواب فى لفظه ، فلقيه غَيْلانُ بن خَرَشَةَ الضَّبىُّ ،

---

(١) سورة الفرقان ٧٢

(٢) سورة الإسراء ٣٦

(٣) ر : « وكان » .

(٤) سورة التحريم ١٢

(٥) سورة الشعراء ١٧١

وله أخرى فى الخوارج . أخرجوا معهم امرأة ، فظفِر بها فقتلها ، ثم عرّاها . فلم تخرج النساء بعدُ على زياد ، وكنَّ إذا دُعين إلى الخروج قلن : لولا التعرية لسارعنا .

[قتل مصعب لامرأة المختار]

وَلمَّا قتَلَ مَصعبُ بن الزُّبيرِ بنت النُّعمانِ بن بَشيرِ الأنصارية ، امرأة المختار — وليس هذا من أخبارِ الخوارج — أنكره الخوارجُ غايةَ الإنكارِ ، ورأوه قد أتى بقتلِ النساءِ أمرًا عظيما ، لأنهُ أتى ما نَهى عنه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى سائر نساءِ المشركين . ولِلخَواصِّ منهنَّ أخبارٌ ، فقال عمرُ بن عبدِ الله بن أبي رَبيعةَ :

إنَّ مِنْ أعظَمِ الكبائرِ عندى ... قتلَ حَسْناءَ غادةٍ عطبُولِ[1]

قُتِلَتْ باطلًا على غيرِ ذَنْبٍ ... إن لِلّهِ دَرَّهَا مِن قتيلِ !

كُتِبَ القتلُ والقتالُ علينا ... وعلى المحصَنَاتِ جَرُّ الذُّيولِ[2]

* * *

قال : وكان[3] الخوارجُ أيامَ ابن عامرٍ أخرجوا معهم امرأتين ، يقال لإحداهما كُحَيْلةُ ، والأخرى قطامِ ، فجعل أصحابُ ابن عامرٍ يُعيِّرونهم ويصيحون بهم : يا أصحابَ كُحَيْلةَ وقطامِ ! يُعرِّضون لهم بالفجورِ ، فتناديهم

---

(١) العطبول : المرأة التامة الخلق .

(٢) المحصنات : العفيفات .

(٣) ر : « وكانت » .

ما أدرِى ما أصنعُ بهؤلاء ! كلّما أمرتُ رجلا بقتل رجلٍ منهم فتكوا بقاتِلِه ! لأَقتُلَنّ من فى حَبْسِى منهم . فأخرجَ السجّانُ مِرْداساً إلى منزله كما كان يفعلُ ، وأَتى مرداساً الخبرُ ، فلما كان السَّحَرُ تهيّأ للرجوع ، فقال له أهلُه : اتّقِ اللهَ فى نفسك ، فإنك إن رجعتَ قُتِلْتَ . فقال : إنى ما كنتُ لِأَلْقَى الله غادِرًا . فرجَعَ إلى السجّانِ فقال : إنى قد علمتُ ما عَزَمَ عليه صاحبُك ، فقال : أعلمتَ ورَجَعْتَ !

[من أخبار مرداس أبي بلال]

ويُرْوَى أنّ مرداساً مَرّ بأعرابىٍّ يَهْنَأُ[1] بعيراً له ، فهَرِجَ[2] البعير ، فسقط مِرْداسٌ مغشيًّا عليه ، فظنّ الأعرابىُّ أنه قد صُرِعَ ، فقرأَ فى أُذُنِه ، فلمّا أفاق قال له الأعرابىُّ : قرأتُ فى أُذنِكَ ، فقال له مِرْدَاس : ليس بى ما خِفْتَهُ علىّ ، ولكنّى رأيتُ بعيرَك هَرِجَ من القَطِرَانِ ، فذكرت به قطِرَانَ جهنمَ ، فأصابنى ما رأيتَ ، فقال : لا جَرَمَ والله لا فارَقْتُك أبداً !

* * *

وكان مرداسٌ قد شَهِدَ صِفِّينَ مع علىّ بن أبى طالب صلوات الله عليه .

وأنكر التَّحكيمَ ، وشهد النَّهر ، ونجا فيمن نجا ، فلمّا خرج من حبس ابن زيادٍ ورأى جدَّ ابن زيادٍ فى طلب الشُّرَاة عَزَمَ على الخروج ، فقال لأصحابه : إنه واللهِ ما يَسَعُنا المقامُ بين هؤلاء الظالمينَ ، تجرى علينا أحكامُهم ، مُجانِبِين

---

(١) يهنأ بعيراً : يطلبه بالهناء ؛ وهو القطران . (٢) هرج : تعب وتحير .

فقال : يا أبا بلالٍ ! إنّى سَمِعْتُ الأميرَ البارحةَ عُبَيْدَ الله بن زيادٍ يُذكُر البلجاء ، وَأَحْسِبها ستُؤخذ ، فمضَى إليها أبو بلالَ ، فقال لها : إنَّ الله قد وَسَّعَ على المؤمنين فى التَّقِيَّةِ [(١)] فاسْتَتِرِى ، فإنَّ هذا المسْرِفَ على نفسِه ، الجبارَ العنيد قد ذكركِ ، قالت : إنْ يأخذْنى فهو أشقَى بى ، فأمَّا أنا فما أُحِبُّ أن يُعَنَّتَ إنْسَانٌ بسببى

فوَجَّه إليها عبيدَ الله بن زيادٍ ، فأُتِىَ بها فَقَطعَ يديها ورجليها ، ورَمَى بها فى السُّوقِ ، فمرَّ أبو بلالٍ والناسُ مجتمعون ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : البَلجاء ، فعرَّجَ إليها فنظرَ ، ثمَّ عَضّ على لحيَتِه ، وقال لنفسه : لَهذه أطيبُ نفساً عن بقية الدنيا منكَ يا مرداسُ

* * *

ثمَّ إنَّ عبيد الله تتبّع الخوارجَ فحبسهم ، وحبس مِرْدَاسًا ، فرأى صاحبُ السجن شِدَّةِ اجتهادِه وحلاوة منطِقِه فقال له : إنى أَرَى لك مذهباً حسنا ، وَإِنى لاحِبُّ أن أُولِيَكَ معروفا ، أفرَأيتَ إنْ تركْتكَ تَنصرفُ ليلًا إلى بيتِكَ ، أتدَّلِجُ [(٢)] إلىَّ ؟ قال : نعم . فكان يفعلُ ذلك به

ولجَّ عُبيدُ الله فى حبس الخوارج وقتلِهمْ ، فكُلم فى بعض الخوارج فَلَجَّ وأبى ، وقال : أَقمَعُ النفاقَ قبل أن يَنْجُمَ [(٣)] ، لَكَلَامُ هؤلاء أَسْرَعُ إلى القلوبِ من النار إلى اليرَاعِ [(٤)] .

فلما كان ذات يوم قَتَلَ رجلٌ من الخوارج رجلا من الشُّرَط ، فقال ابنُ زيادٍ :

---

(١) التقية : حفظ النفس عما يستطاع من المكروه .
(٢) الادلاج : السير من آخر الليل .
(٣) ينجم : يطلع . (٤) اليراع : القصب الفارسى .

أُحِبُّ بَقاءً أو أُرَجِّى سَلاماً وقَد قتَلوا زيدَ بن حِصْنٍ ومالكا

فيارَب سَلِّمْ نِيَّتِى وَبَصِيرتى وَهَبْ لى التُّقَى حَتَّى أُلاَقِ أولئكا

قوله: « وقد قتَلُوا » ولم يذكر أحداً ، فإنما فعل ذلك لعلمِ الناسِ أنه يَعْنى مُخالفيه ، وإنما يحتاجُ الضميرُ إلى ذكرٍ قبله لِيُعْرَفَ ، فلو قال رجلٌ: ضربتُه ، لم يَجُزْ ، لأنه لم يذكر أحداً قبل ذكره الهاء ، ولو رأيتَ قوماً يلتمسون الهلالَ فقال قائلٌ[1] : هذا هو ، لم يحتَجْ إلى تَقْدِمَةِ الذِكْرِ ، لأن المطلوبَ معلومٌ ، وعلى هذا قال عَلْقَمَةُ بن عَبْدَةَ فى افتتاحِ قصيدتِه :

هل مَا عَلِمْتَ وما اسْتُودِعْتَ مكتومُ أم حَبْلُها إذ نَأَتْكَ اليومَ مَصرومُ

لأنه قد عُلِمَ أنه يريدُ حبيبةً له

وقوله : « حَتّى أُلاَقِ » ولم يُحَرِّكِ الياءَ ، فقد مضى شرحهُ مستقصًى .

* * *

ويُروى أن رجلا من أصحاب ابن زيادٍ قال : خرجنا فى جيشٍ نُريدُ خُراسانَ ، فمررنا بآسَكَ ، فإذا نحن بهم ستةٌ وثلاثين رجلا ، فصاح بنا أبو بلال: أقاصدون لقتالنا أنتم ؟ - وكنتُ أنا وأخى قد دخلنا زَرْباً - ، فوقف أخى ببابه فقال : السلام عليكم . فقال مِرْدَاس : وعليكم السلام ، فقال لأخى : أجئتُم لقتالنا ؟ فقال له : لا ، إنما نريد خُراسانَ ، قال: فأَبْلِغوا مَن لَقِيَكُمْ أنَا لم نخرُجْ لِنُفْسِدَ فى الأرض . ولا لِنُرَوِّعَ أحدًا ، ولكن هَرَباً من

---

(١) ر : « قوم » .

للعدلِ ، مفارقين للفَصْلِ [١] واللهِ إنَّ الصبرَ على هذا لعظيمٌ ، وإن تجريدَ السيفِ وإخافةَ السبيلِ لعظيمٌ ، ولكنَّا ننتبذُ عنهم ، ولا نجرِّدُ سيفاً ، ولا نقاتلُ إلّا مَنْ قاتلنا فاجتمع إليه أصحابه زُهاء ثلاثينَ رجلا ، منهم حُرَيْثُ بن حَجْلٍ ، وكَهْمَس ابن طَلْقٍ الصَّرِيمِيُّ ، فأرادوا أن يُوَلّوا أمرَهم حُرَيْثًا ، فأَبى فوَلَّوْا أمرَهم مِرْداساً ، فلمَّا مضى بأَصحابه لَقِيه عبدُ الله بن رَبَاحٍ الأنصاريُّ — وكان له صديقا ، فقال له : يا أَخي [٢] ، أين تريد ؟ قال أريد أن أَهْرُبَ بديني وأديانِ أصحابي من أحكامِ هؤلاء الجَوَرَةِ . فقال له : أَعَلِمَ بكم أحدٌ ؟ قال : لا . قال : فارجعْ ، قال أو تخافُ عليَّ مكروهاً ؟ قال : نعم ، وأن يُؤْتَى بك ! قال : فلا تخفْ ، فإني لا أُجَرِّدُ سيفاً ، ولا أُخِيفَ أحداً ، ولا أقاتلُ إلَّا مَن قاتلني . ثم مَضَى حتى نزلَ آسكَ — وهو ما بين رامَهُرْمُزَ وأَرَّجانَ — فمرَّ به مالٌ يُحْمَلُ لابن زيادٍ ، وقد قاربَ أصحابُهُ الأربعينَ ، فحَطَّ ذلك المالَ ، فأخذَ منه عطاءَهُ وأَعطِيَاتِ أصحابِهِ ، وردَّ الباقيَ على الرُّسُلِ ، وقالَ : قولوا لصاحبكم : إنما قَبضْنا أَعْطِياتِنا فقال بعضُ أصحابه : فعلامَ تَدَعِ الباقِيَ ! فقال : إنهم يَقْسِمونَ هذا الفيءَ كما يُقيمون الصلاة فلا نقاتلهم .

* * *

ولأبي بلالٍ أشعارٌ في الخروج اخترتُ منها قوله :

أَبَعْدَ ابن وَهْبٍ ذي النَّزاهة والتُّقَى ... وَمَن خاضَ في تلك الحروب المَهَالِكا [٣]

---

(١) الفصل : قول الحق .

(٢) لفظ « يا أخي » من ر .

(٣) ابن وهب ؛ هو عبد الله بن وهب الراسبي .

وكان إذا خرج إلى السوق أو مَرَّ بصبيانٍ صاحوا به : أبو بلالٍ وراءكَ !
وربَّما صاحوا به : يا مَعْبَدُ خذْهُ ، حتى شكا ذلك إلى ابن زيادٍ ، فأمر
ابنُ زيادٍ الشُّرَطَ أن يَكُفُّوا الناسَ عنه ، ففى ذلك يقولُ عيسى بنُ فاتِكٍ
من بنى تَيْمِ اللاتِ بن ثعلبةَ ، فى كلمةٍ له :

فلمَّا أصبحوا صَلَّوْا وقاموا ... إلى الجُرْدِ العِتاقِ مُسَوَّمِينا[1]

فلما استَجْمَعُوا حملوا عليهم ... فظَلَّ ذوُوا الجعائِلِ يُقتَلونَا

بَقِيَّةَ يومهم حتى أتاهم ... سوادُ الليلِ فيه يُراوغونا

يقولُ بَصِيرُهم لمَّا أتاهُمْ ... بأَنَّ القومَ وَلَّوْا هاربينا

أأَلْفا مؤمنٍ فيما زعمتُمْ ... ويَهزِمُهُمْ بآسَكَ أربعُونا !

كَذَبْتُمْ ليسَ ذاكَ كما زعمتُمْ ... ولكنَّ الخوارج مؤمنونا

هُمُ الفِئَةُ القليلةُ غيرَ شَكٍّ ... على الفِئَةِ الكثيرةِ يُنصَرُونا

ثم نَدَبَ لهم عبيدُ الله بن زيادٍ الناسَ ، فاختارَ عَبَّادَ بن أَخْضَرَ ـ وليس
بابنِ أَخْضَرَ ـ هو عَبَّادُ بنُ عَلْقَمَةَ المازنىُّ ، وكان أَخْضَرُ زوج أُمِّهِ ،
فغَلَبَ عليه ، فوجَّهه فى أربعة آلافٍ ، فنَهَدَ لهم ويزعم أهلُ العلمِ أَنَّ
القومَ قد كانوا تَنَحَّوْا عن درابجِرْدِ من أرضِ فارسَ ، فصار إليهم عَبَّادُ
وكان التِقاؤُهُمْ فى يوم جمعةٍ ، فناداه أبو بلالٍ : اخرجْ إلَىَّ يا عَبَّادُ ، فإنِّى
أُريد أن أُحاوِرَكَ . فَخَرَجَ إليه ، فقال : ما الذى تَبْغِى ؟ قال : أن آخذ
بأقفائكم فأرُدَّكُمْ إلى الأمير عُبيدِ الله بن زيادٍ قال : أو غيرَ ذلك !
قال : وما هو ؟ قال : أن ترْجِعَ ، فإنَّا لا نُخيفُ سَبيلا ، ولا نَذْعَرُ مسلماً ،

---

[1] مسومين : معلمين بعلامات يعرفون بها فى الحرب .

الظلم ، ولسنا نقاتلُ إلاَّ مَن يُقاتلنا ، ولا نأخُذُ من الفَيْء إلا أعطياتِنا ،
ثم قال : أنُدِبَ إلينا أحدٌ ؟ قلنا : نعم ، أسْلَمَ بن زُرْعَةَ الكِلابىُّ ، قال :
فمتى تُرَوْنَهُ يَصِلِ إلينا ؟ قلنا : يومَ كذا وكذا ، فقال أبو بلال : حسبنا
اللهُ ونعم الوكيلُ !

* * *

وَجَهَّزَ عُبَيْدُ الله أسْلَمَ بنَ زُرْعَةَ فى أسرع وقتٍ ، ووجَّهه إليهم
فى ألفين ، وقد تتامَّ أصحابُ مِرْدَاسٍ أربعين رجلاً ، فلما صار إليهم أسْلَمُ
صاح به أبو بلالٍ : اتقِ اللهَ يا أسلم ، فإنَّا لا نريدُ قتالًا ، ولا نَحْتَجِن فَيْئاً ،
فما الذى تريدُ ؟ قال : أريد أن أرُدَّكُمْ إلى ابن زيادٍ ، قال مرداسٌ :
إذاً يَقْتُلنا ، قال : وَإنْ قَتَلَكُمْ ! قال : تَشْرَكُهُ فى دمائنا ، قال : أنى
أَدِينُ اللهَ[1] بأنه مُحِقٌّ وأنكم مبطلون ، فصاح به حُرَيْثُ بن حَجْلٍ : أهو
مُحِقٌّ وهو يُطيعُ الفَجَرَةَ ، وهو أحدُهم ، ويَقتُلُ بالظِّنَّةِ ، وَيخصُّ بالفَيْء ،
وَيَجُورُ فى الحكم ! أما علمتَ أنه قتلَ بابن سُعادَ أربعةَ بِرَآءٍ ، وَأنَا
أحَدُ قتلتِهِ ، ولقد وَضَعْتُ فى بَطْنِهِ دراهمَ كانت معه ! ثم حملوا عليه
حَمْلَة رجلٍ واحدٍ ، فانهزم هو وأصحابُه من غير قتالٍ . وكان مَعْبَدٌ ، أحد
الخوارجِ ، قد كادَ يَأخذُه . فلما وَرَدَ على ابن زيادٍ غضب عليه غضباً
شديداً ، وقال : وَيْلكَ ! أتمضى فى ألفين فتنهزمُ لحملةِ أربعين ! وكان
أسلم يقولُ : لأنْ يَذمَّنى ابنُ زيادٍ حَيًّا أحبُّ إلىَّ من أن يَمْدَحَنى مَيِّتاً !

(١) ر : « أدين بأنه محق » .

وَتَرْوِى الشُّرَاةُ أن مِرْداساً أبا بلالٍ لمَّا عقدَ على أصحابه وعَزَمَ على الخروج رفع يديه وقال : اللّهم إن كان ما نحن فيه حقًّا فأَرِنا آيةً ، قال⁽¹⁾ : فرَجَفَ البيتُ . وقال آخرون : فارتفع السقفُ .

فرَوَى أهلُ العلمِ أن رجلاً من الخوارجِ ذكَرَ ذلك لأبي العالية الرِّياحيّ يُعَجِّبُهُ من الآية ، وَيرَغبه فى مذهب القوم ، فقال أبو العالية : كادَ الخسفُ يَنزِلُ بهم . ثم أدركتهم نَظْرَةُ اللهِ .

فلما فرَع من أولئك الجماعةِ أَقبَلَ بهم فَصُلِبَتْ رُءوسُهُمْ ، وفيهم داود ابن شَبَثٍ . وكان ناسكا ، وفيهم حبيبةُ النّضرىُّ من قَيْسٍ ، وكان مجتهداً .

* * *

فيُرْوَى عن عِمْرانَ بن حِطَّان أنه قال لى حَبيبةُ : لما عزمْتُ على الخروج فكَّرْتُ فى بناتى ، فقلتُ ذاتَ ليلةٍ : لأَمسِكنَّ عن تفقُّدِهن حتى أَنظُرَ ، فلما كان فى جوفِ الليل استسقتْ بُنَيَّةٌ لى ، فقالت : يا أَبَةِ اسقِنى ، فلم أُجِبها ، فأَعادتْ ، فقامتْ أُخَيَّةٌ لها أَسَنُّ منها ، فَسَقَتْها ، فعلمتُ أَنَّ الله عزَّ وَجلَّ غيرُ مُضَيِّعِهِنَّ ، فأَتممتُ عزمى .

* * *

وكان فى القوم كهْمَسٌ ، وكان من أبرِّ الناسِ بأُمِّهِ ، فقال لها : يا أُمّهْ ! لولا مكانُكِ لخرجتُ ، فقالت : يا بُنىِّ ، قد وهبتُكَ لله ، ففى ذلك يقولُ عيسى بنُ فَاتِكٍ الحبَطىُّ :

---

(١) ساقطة من ر .

ولا نحاربَ إلَّا مَنْ حارَبنا ، ولا نَجْبى إلَّا ما حَمَيْنا . فقال له عَبَّادٌ : الأمرُ ما قلتُ لك ، فقال له حُرَيْثُ بن حَجْلٍ : أتحاولُ أن تَرُدَّ فِئةً من المسلمين إلى جَبَّارٍ عَنيدٍ ! قال لهم : أنتم أَوْلى بالضَّلال منه ، وما مِن ذاكَ بُدٌّ !

* * *

وقدِمَ القَعْقاعُ بن عَطِيَّةَ الباهليُّ من خُراسانَ يريد الحجّ ، فلما رأى الجمْعَيْن قال : ما هذا ؟ قالوا : الشُّراة ، فحَمَلَ عليهم ، وَنَشِبَتْ الحربُ ، فأُخِذَ القعقاعُ أسيراً ، فأُتِيَ به أبو بلال ، فقال : ما أنتَ ؟ قال : لستُ من أعدائِكَ ، وإنما قدمتُ للحجّ فَجَهِلْتُ وَغُرِرْتُ ، فأطْلَقَهُ ، فرَجَعَ إلى عبّادٍ فأصلح من شأنه ، ثم حَمَلَ عليهم ثانيةً ، وهو يقولُ :

أُقاتِلُهُمْ وليس علىَّ بَعْثٌ نَشَاطاً ليس هذا بالنَّشَاطِ
أكُرُّ على الحَرُورِيينَ مُهْرِى لأَحْمِلَهُمْ على وَضَحِ الصِّراطِ

فَحَمَلَ عليه حُرَيْثُ بنُ حَجْلٍ السَّدُوسِىُّ وَكَهْمَسُ بن طَلْقٍ الصَّرِيمِىُّ ، فأسَراهُ فَقَتَلاهُ ، ولم يأتيا به أبا بلالٍ ، فلم يزل القومُ يَجْتَلِدُونَ حتى جاء وقتُ الصلاة ، صلاة يوم الجمعةِ ، فناداهُمْ أبو بلالٍ : يا قومُ ، هذا وقتُ الصلاة ، فوادِعُونا حتى نُصَلِّيَ وَتُصَلُّوا ، قالوا : لك ذاك ، فرمَى القومُ أجمعون أسلحتهم وعَمَدُوا للصلاةِ ، فأسرع عبَّادٌ ومن معه والحرورِيةُ مُبْطِئونَ ، فهم من بين راكعٍ وقائمٍ وساجدٍ فى الصلاة وقاعدٍ ، حتى مال عليهم عَبَّادٌ ومن معه ، فقتلوهُمْ جميعاً ، وَأُتِىَ برأس أبى بلالٍ ..

* * *

وقَدْرٌ وناحيةٌ من السلطان ، أَلِوَلِيِّ ذلك المقتولِ أن يَفْتِكَ به إنْ قَدَرَ عليه ؟ قال : بل يَرْفَعُهُ إلى السلطان ، قال : إنّ السلطانَ لا يُعْدِى عليه لمكانه منه وعَظيم جاهِهِ عندَه ، قال : أخافُ عليه إنْ فتكَ به فَتَكَ به السلطانُ ، قال : دَعْ ما تخافُه من ناحية السلطان ، أَتلْحَقُهُ تَبِعَةٌ فيما بينَه وبين الله ؟ قال : لا . قال : فَحَكَّمَ هو وأصحابُه وخَبَطوه بأسيافهم ، ورَمَى عبَّادٌ ابنَهُ فَنَجَا ، وتنادَى الناسُ : قُتِلَ عبادٌ ! فاجتَمَعَ الناسُ فأَخَذَوا أفواهَ الطُرُقِ ، وكان مَقْتَلُ عبَّادٍ في سكّة بني مازِنٍ عند مسجد بني كُلَيْبٍ ـ فجاء مَعْبَدُ بن أَخْضَرَ ـ أخو عبَّادٍ ـ وهو معبدُ بن عَلْقمة ، وأخضرُ زوجُ أمهما ، في جماعةٍ من بنى مازِنٍ ، فصاحُوا بالناس : دَعُونا وثَأْرَنَا . فأحجَمَ الناسَ وتَقَدَّمَ المازنيُّون ، فحاربوا الخوارجَ حتى قتلوهم جميعاً ، لم يُفْلِتْ منهم ـ أحدٌ إلَّا عُبَيْدة بن هِلالٍ ، فإنه خَرَقَ خُصًّا ونَفَذ منه ، ففى ذلك يقول الفرزدق :

لقد أَدْرَكَ الأَوْتَارَ غيرَ ذَميمةٍ إذا ذَمَّ طَلَّابُ التِرَاتِ الأَخَاضِرُ
هُمُ جَرَّدُوا الأَسْيافَ يومَ ابنِ أَخْضَرٍ فنالوا التى ما فوقَها نَالَ ثَائِرُ
أَقَادُوا به أُسْدًا لها فى اقْتِحَامِها إذا بَرَزَتْ نحو الحروبِ بَصائرُ [1]

ثم ذَكر بنى كُلَيْبٍ ، لأنه قُتِلَ بحضرةِ مسجدهم ولم ينصروه ، فقال فى كلمته هذه :

كفِعل كُلَيب إذْ أَخَلَّتْ بجارِها ونَصْرُ اللئيمِ مُعْتِمٌ وهو حاضِر [2]

(١) أقادوا أسداً : قتلوهم به . (٢) يقال : أعتم الرجل فى الشىء ؛ إذا أبطأ فيه.

أَلاَ فى اللهِ لا فى النَّاسِ شالتْ ... بدَاودٍ وَإخوَتِهِ الجذُوع
مَضَوْا قَتْلًا وتمزيقاً وصَلْبًا ... تَحُومُ عليهمُ طَـــيرٌ وُقُوعُ
إذا ما الليلُ أظلمَ كابَدُوهُ ... فَيُسْفِرُ عنهمُ وهُمُ رُكُوعُ
أطارَ الخوفُ نومَهمُ فقاموا ... وأهلُ الأمن فى الدنيا هُجُوعُ

* * *

وقال عِمْرَانُ بن حِطَّانَ :

يا عينِ بَكِّى لِمِرْداسٍ وَمَصْرَعِهِ ... يا رَبِّ مِرداسٍ أَجْعَلْنى كمِرْداس
تَركتنى هائمـا أبكى لِمِرْزِئَتى ... فى منزلٍ مُوحِشٍ من بعد إيناسِ
أنكرتُ بعدكَ من قد كنتُ أعرفُه ... ما الناسُ بعدكَ يامِرْداسُ بالناسِ
إمَّا شَرِبْتَ بكأسٍ دارَ أَوَّلُها ... على القُرونِ فذَاقُوا جرْعةَ الكاس
فكلٌّ مَنْ لم يَذقها شاربٌ عَجِلًا ... منها بأنفاس وِرْدٍ بَعْدَ أنفاسِ

[عباد بن أخضر المازنى]

قال أبو العباسِ : ثم إنَّ عَبَّاد بن أَخْضَرَ المازنىُ لبثَ دهراً فى المصرِ ، موصوفاً بما كان منه ، فلم يَزَلْ على ذلك حتى ائْتَمَرَ به جماعة من الخوارج أن يَفتُكوا به ، فَذَمَرَ بعضُهم بعضًا على ذلك[1] ، فجلسوا له فى يومِ جمعةٍ ، وقد أقبل على بغلةٍ له ، وابنهُ رَدِيفه ، فقام إليه رجلٌ منهم ، فقال : أسألك عن مسألة ، قال : قل ، قال : أرأيتَ رجلاً قتلَ رجلًا بغير حقٍّ ، وللقاتلِ جاهٌ

(١) ذمره : لامه .

عَرَّجَ عليها . ويُرْوَى أنه قال فى عَقِبِ مقتل الحسين بن علىّ عليه السلامُ لزينبَ بنت علىّ رحمهما الله — وكانت أَسَنَّ مَنْ حُمِلَ إليه منهنّ ، وقد كلّمته فأفصحتْ وأبلغتْ ، وأخذتْ من الحجّة حاجتَها — فقال لها : إنْ تكونى بلغتِ من الحجة حاجتَكَ فقد كان أبوكِ خطيباً شاعراً ، فقالت : ما للنساء والشعر[1] ! وكان مع هذا أَلْكَنَ يرتَضِخُ[2] لغَةً فارسية . وقال لرجلٍ مَرَّةً ، واتّهمَه برأىِ الخوارج : أَهَرُورِىٌّ مُنْذُ اليومِ !

رجع الحديث :

فقال للكاتب : صَحّفتَ واللهِ ولَؤُمْتَ ، إنما هو « فى سَرَبِ العَلاء ابن سُوَيَّةَ » ، وَلَوَدِدْتُ أنه كان ممن يشرب النبيذَ .

فلمّا أُقيمَ عُرْوَة بن أُدَيَّةَ بين يديه حاوَرَه . وقد اخْتُلفَ فى خبره[3] ، وأصحُّه عندنا أنه قال له : لقد[4] جَهَزْتَ أخاكَ علىَّ ، فقال : والله لقد كنتُ به ضَنِيناً ، وكان لى عِزًّا ، ولقد أردت له ما أُرِيدُ[5] لنفسى ، فعزَمَ عَزْماً فمَضَى عليه ، وما أُحِبُّ لنفسى إلا المقامَ وتركَ الخروج ، قال له : أفأَنتَ على رأيه ؟ قال : كنّا[6] نعبدُ رَبًّا واحداً . قال : أَمَا لأمَثّلَنَّ بك ! قال له : اخترْ لنفسك من القصاص ما شئتَ . فأَمر به فقطعوا يديه ورجليه ، ثم قال له : كيف تَرَى ؟ قال : أفسدتَ علىَّ دنيايَ وأفسدتُ عليكَ آخِرتك ثم

---

(١) س : « وللشعر » . (٢) يرتضخ : يميل إليها فى نطقه .

(٣) ر : « وقد اختلف الناس فى خبره » .

(٤) كلمة «لقد» ساقطة من ر . (٥) ر : « ما أريده » .

(٦) ر : « كلنا » .

وما لِكُلَيْبٍ حين تُذْكَرُ أوّلٌ وما لِكُلَيب حين تَذكَرَ آخِرُ

وقال معبد بن أخْضَر :

سأَحْمِى دِماءَ الأخْضَرِيّينَ إنه أبى النّاسُ إلا أن يقولوا ابنُ أخْضَرا

[عروة بن أدية]

وكان مقتلَ عبّادٍ وعبيدُ الله بن زيادٍ بالكوفة ، وخليفتُهُ على البصرة عُبَيدُ الله بن أبى بَكْرَةَ ، فكتب إليه يأمره ألاّ يدَعَ أحداً يُعْرَفُ بهذا الرأى إلا حَبَسه وجَدّ فى طلبه ، ممن تَغَيَّبَ منهم . فجعل عُبيد الله بن أبى بَكْرَةَ يَتَتَبَّعُهُمْ فيأخذهم ، فإذا شُفِعَ إليه فى أحدٍ منهم كَفَلَه إلى أن يَقْدَمَ ابنُ زيادٍ ، حتى أُتِىَ بعُرْوَةَ بن أُدَيَّةَ فأطلقه ، وقال : أنا كَفيلُكَ ، فلما قَدِمَ عبيدُ الله بن زيادٍ أخذ مَنْ فى الحبس[1] منهم فقتلهم جميعاً ، وطلب الكُفلاء بمن كَفَلوا به منهم ، فكلُّ مَنْ جاءه بصاحبه أطلقه ، وقتلَ الخارجىّ ، ومن لم يأت بمن كفَلَ به منهم قتلهُ ، ثم قال لعُبَيْدِ الله بن أبى بَكْرَةَ : هات عرْوَةَ بنَ أُدَيَّةَ ، قال : لا أقدِرُ عليه ، قال : إذاً والله أقتلَكَ فإنك كفيلُه فلم يزَلْ يَطْلُبُهُ حتى دُلَّ عليه فى سَرَبٍ[2] العلاء بن سُوَيَّةَ المِنْقَرِىُّ ، فكتب بذلك إلى عُبيد الله بن زِيادٍ ، فقرأ عليه الكاتب : إنا أصَبناهُ فى شَرَب .

فتَهانَفَ به عُبيدُ الله بن زيادٍ ، وكان كثيرَ المحورةِ ، عاشقاً للكلام الجيِّد ، مستحسِناً للصواب منه ، لا يزال يبحثُ عن عُذْرِه ، فإذا سمع الكلمةَ الجَيِّدَةَ

(١) ر : « السجن » .

(٢) السرب : الطريق والمسلك .

بُحَيْنَةُ زِياداً ، فلما مَثَلَ بين يديه ذكر اللهَ زيادٌ ، ثم صلّى على نبيه ، ثم ذكرَ أبا بكر وعمرَ وعثمانَ بخير ، ثم قال : قعدتَ عنِّى فأنكرتُ ذلك ، فذكرَ الرجلُ ربَّه فَحَمِدَهُ ووَحَّدَهُ ، ثم ذكرَ النبىَّ عليه السلام ، ثم ذَكرَ أبا بكرٍ وعمرَ بخير ، ولم يذكر عثمانَ ، ثم أقبلَ على زيادٍ فقال : إنك قد قلتَ قولاً فَصَدِّقْهُ بفعلك ، وكان من قولِك : ومَنْ قعدَ عنَّا لم نَهْجِه . فقعدتُ . فأمر له بصلةٍ وكسوةٍ وحملانٍ ، فخرج الرجلُ من عند زيادٍ وتلقّاه الناسُ يسألونه ، فقال : ما كلّكم أستطيعُ أن أخبرَه ، ولكنى دخلتُ على رجلٍ لا يملك ضَرًّا ولا نفعاً لنفسه ، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ، فرزَقَ اللهُ منه ما ترَوْنَ

* * *

وكان زيادٌ يبعثُ إلى الجماعة منهم فيقول : ! أحسِبُ الذى يمنعكم من إتيانى إلا الرُّجْلةَ[1] فيقولون : أجَل ، فيحمسهم ويقول : اغْشَوْنى الآن واسْمُرُوا عندى . فبلغَ ذلك عمرَ بن عبد العزيز ، فقال : قاتل اللهُ زِياداً ! جمعَ لهم كما تَجْمَعُ الذَّرَّةُ[2] ، وحاطَهم كما تَحُوط الأمُّ البَرَّة ، وأصلحَ العِرَاقَ بأهل العراقِ ، وترَكَ أهلَ الشامِ بشأمِهم[3] ، وجَبَى العراقَ مائةَ ألفِ ألفٍ وثمانيةَ عشرَ ألف ألفٍ .

* * *

قال أبو العباس : وبلغَ زياداً عن رجل يُكْنَى أبا الخير ، من أهل

---

(١) الرجلة : المشى على الرجلين .

(٢) الذرة : واحدة الذر ؛ وهو النمل الصغار . (٣) ر : « فى شأمهم » .

أمر به فقتِلَ ، ثم صُلِبَ على باب داره ، ثم دَعَا مولاه فسأله عنه ، فأجابه جواباً قد[1] مضى ذِكرُه .

* * *

قوله : « فتهانفَ » ، حقيقته تَضاحَكَ به ضَحِكَ هُزْء . وقال ابنُ أبى رَبيعةَ المخزومىُّ :

ولقد قالتْ لجاراتٍ لها   وتَعَرَّتْ ذاتَ يومٍ تبتَرِدْ

أكَمَا يَنْعتُنِى تُبْصِرْنَنِى   عَمْرَكُنَّ اللهَ أم لا يَقتَصِدْ !

فتهانَفْنَ وقد قُلْنَ لها   حَسَنٌ فى كلِّ عينٍ مَنْ تَوَدّْ

حَسَدٌ حُمِّلْنَهُ من أجلها   وقديماً كان فى الناسِ الحسَدْ

[أمر زياد مع الخوارج]

وكان عُبيدُ الله لا يُلبِثُ الخوارج ، يحبِسهم تارةً ويَقتُلهم تارةً ، وأكثرُ ذلك يَقتُلهم ، ولا يتغافلُ عن أحدٍ منهم وسببُ ذلك أنه كان أطلقهم من حبس زيادٍ لمَّا وُلِّى بعده ، فخرجوا عليه

فأما زيادٌ فكان يقتل المُعْلِنَ ويَسْتَصْلِحُ المُسِرَّ ، ولا يُجَرِّدُ السيفَ حتى تزولَ التُّهَمَة . ووَجَّهَ يوما بُحيْنَةَ بنَ كَبْيشٍ الأعْرَجىَّ إلى رجل من بنى سعدٍ يرى رأْىَ الخوارجِ ، فجاءه بُحيْنَةَ فأخذه ، فقال : إنى أريد أن أحدِثَ وضوءاً للصلاة ، فدَعْنى أدخلْ منزلى[2] . قال : ومَنْ لى بخروجك ؟ قال : اللهُ عز وجل ، فتركه . فدخل فأحدث وُضوءاً ثم خرج ، فأتى به

(١) ساقطة من ر .

(٢) ر : « أدخل إلى منزلى » .

— [قالَ الأُخفَشُ : حرقوصٌ : ذو الثُّدَيَّةِ]

وابنَ المَنيحِ ومِرْداساً وإخْوَتَهُ إذْ فارقوا زَهْرَةَ الدنيا مَخاميصا[1]

قالَ أبو العباس : وهذه كلمة له ، وله أشعارٌ كثيرةٌ فى مذاهبهم .

* * *

وكان زيادٌ وَلّى شَيْبانَ بن عبد الله الأشعرىَّ صاحبَ مَقْبُرَةِ بنى شيبان باب عثمانَ وما يليه ، فَجَدَّ فى طلب الخوارج وأخافَهم . وكانوا قد[2] كَثُرُوا ، فلم يزَلْ كذلك حتى أتاه ليلةً — وهو متكئٌ بباب دارِه — رجلانِ من الخوارج ، فضرباه بأسيافهما فقتلاه ، وخَرج بَنُونَ له للإغاثة فقُتِلُوا ، ثم قتَلَهما الناسُ ، فأُتِيَ زيادٌ بعدَ ذلك برجلٍ من الخوارج ، فقال : اقتلوه مُتَّكِئاً كما قُتِلَ شيبانُ متكئاً ، فصاح الخارجىُّ : يا عَدْلاهُ ! يَهْزَأُ به

فأمَّا قولُ جريرٍ :

ومِنَّا فَتى الفِتْيانِ والبأسِ مَعْقِلٌ ومنَّا الذى لاقى بدِجْلَةَ مَعْقِلا

فإنه أراد مَعْقِلَ بنَ قيسٍ الرِّيَاحِىَّ ، ورِياحٌ بنُ يربوعٍ ، وجريرٌ من كُلَيْبِ بن يربوعٍ .

وقولُه :

* ومِنَّا الذى لاقى بِدِجْلَةَ مَعْقِلاً *

---

(١) المخاميص : جمع مخماص ؛ وهو الضامر البطن .

(٢) ساقطة من ر .

البأس والنَّجدةِ ، أنه يرى رأى الخوارج ، فدعاه فولاه جُنْدَىْ سابورَ وما يَلِيها ، ورزقه أربعةَ آلافِ درهمٍ فى كل شهر ، وجعل عُمالَتَه فى كل سنةٍ مائة ألفٍ ، فكان أبو الخير يقول : ما رأيتُ شيئاً خيراً من لزوم الطاعةِ والتقلُّبِ بين أظهُرِ الجماعة ! فلم يزل والياً حتى أنكر منه زيادٌ شيئاً. فتنَمَّرَ لزيادٍ فحبسه ، فلم يَخرج من حبسه حتى مات .

[الرهين المرادى وشعره]

وقال الرُّهَيْنَ – وكان رجلا من مُرادٍ ، وكان لا يرَى القعودَ عن الحرب وكان فى الدَّهاء والمعرفةِ والشعرِ والفقه بقول الخوارج ، بمنزلةِ عِمْرانَ ابن حِطَّانَ . وكان عمرانَ بن حطانَ فى وقته شاعرَ قَعَدِ الصُّفْرِيَّة ورئيسَهم ومفتيَهُمْ

وللرُّهَيْنِ المرادىّ ، ولعمرانَ بن حِطّانَ مسائلُ كثيرة من أبواب العلم فى القرآن والآثارِ ، وفى السِّيَرِ والسُّنَنِ ، وفى الغريب ، وفى[1] الشعر ، نذكر طَريفَها إن شاء الله . قال المرادىُّ :

يا نَفْس قد طال فى الدنيا مُرَاوَغَتى ... لا تأمَنِنَّ لِصَرْفِ الدَّهْرِ تنقيصا[2]

إنى لَبائعُ ما يَفْنَى لباقيةٍ ... إن لَمْ يَعُقْنِى رجاءُ العيشِ تَرْبيصَا[3]

وأسألُ اللهَ بَيْعَ النفس مُحتَسِباً ... حتى أُلاقِىَ فى الفِرْدَوْسِ حُرْقوصَا

(١) ر : « والشعر » . (٢) ر ، س : « تنغيصاً » .
(٣) التربيص : الانتظار

حاشا النَّجيبَ ظَبْيَانَ . ! فكان ظبيانُ النجيبُ يقول: لم أَزَلْ فى عُمْرِ المختار أتقلَّبُ آمِناً .

[المختار بن عبيد وبعض أخباره]

ويُروى أن المختارَ بن أبى عُبيد - حيث كان والياً لابن الزبير على الكوفة - اتَّهمه ابنُ الزبير ، فولَّى رجلًا من قريش الكوفةَ ، فلما أطَلَّ قال لجماعةٍ من أهلها : اُخرُجُوا إلى هذا المغرورِ فرُدُّوه ، فخرجوا إليه ، فقالوا : أين تُريد ؟ والله لئن دخلتَ الكوفةَ ليقتلنَّكَ المختارُ ، فرجع .

وكَتب المختارُ إلى ابن الزبير : إن صاحبَك جاءنا فلما قارَبنا رجع ، فما أدرِى ما الذى رَدَّهُ ! فغضب ابنُ الزبير على القُرشىِّ وعَجَّزهُ وردَّه إلى الكوفة ، فلما شارفها قال المختارُ : اخرجوا إلى هذا المغرور فرُدُّوه . فخرجوا إليه ، فقالوا : إنه والله قاتِلَك فرجع . وكتب المختارُ إلى ابن الزبير بمثل كتابه الأولِ ، فلامَ القرشىَّ ، فلما كان فى الثالثةِ فَطِنَ ابنُ الزبير ، وعَلمَ بذلك المختارُ ، وكان ابنُ الزبير قد حَبَسَ محمدَ بن الحنفية مع خمسةَ عشرَ رجلاً من بنى هاشمٍ ، فقال : لَتُبايِعُنَّ أو لأُحرِقَنَّكم ، فأَبَوْا بَيْعَتَه ، وكان السجنُ الذى حبسهم فيه يُدْعَى سِجْنَ عارِمٍ ، ففى ذلك يقول كُثَيِّر :

تُخَبِّرُ مَنْ لاقيتَ أنك عائذٌ ... بل العائذُ المظلومُ فى سجن عارِمِ
ومَن يَلْقَ هذا الشيخَ بالخَيْفِ من مِنى ... منَ الناس يَعْلَمْ أنه غيرُ ظالمِ
سَمِىُّ النبى المصطفَى وابنُ عمه ... وفكَّاكُ أغلال وقاضى مَغارمِ

- يريدُ المستوردَ التيميَّ ، وهو من بنى تَيمٍ[1] بن عبد مناةَ بن أُدٍّ

وتميمٌ ابنُ مُرّ بن أُدٍّ .

وأمّا قولُ ابنِ الرُّقَيّاتِ :

والذى نَغَّصَ ابنَ دَوْمَةَ ما تُو حى الشياطينُ والسيوف ظِماءُ

فأباحَ العراقَ يَضرِبُهم بالسَّــيفِ صَلْتاً وفى الضِّرابِ غِلاءُ[2]

فإنما يريدُ بابنِ دَوْمَةَ المختارَ بنَ أبى عُبيدٍ الثقفيَّ ، والذى نَغّصَهُ مصعَبُ بن الزبير ، وكان المختارُ لا يُوقَفُ له على مذهب ، كان خارجيًّا ، ثم صار زُبَيْرِيًّا ، ثم صار رافضيا فى ظاهره .

وقوله : « ما تُوحى الشَّياطينُ » ، فإنَّ المختارَ كان يدَّعى أنه يُلهَمُ ضرباً من السَّجَاعة[3] لأمورٍ تكونُ ، ثم يحتالُ فيوقعُها ، فيقولُ للناسِ : هذا من عند اللهِ عزَّ وجلَّ

فمن ذلك قوله ذات يومٍ : لَتنزِلَنَّ من السماء نارٌ دَهْماء ، فلتُحرِقَنَّ دارَ أسماءَ . فذكِرَ ذلك لأسماء بن خارجةَ ، فقال : أقد سَجَعَ بى أبو إسحاقَ ! هو والله مُحْرِقٌ دارِى ! فتركه والدارَ وهربَ من الكوفة .

وقال فى بعض سجعِهِ : أمَا والذى شَرَعَ الأديان ، وجَنَّبَ الأوثانَ ، وكَرَّهَ العِصْيان ، لأقتلنَّ أزْدَعُمانَ ، وجُلَّ قيسِ عَيْلانَ ، وتميماً أولياءَ الشيطانِ ،

---

(١) ر : « من تيم » .

(٢) الصلت : الماضى فى الشىء ، والغلاء : مجاوزة القدر فى كل شىء .

(٣) السجاعه : صناعة السجع

وكان من عجائب المختار أنه كتب إلى إبراهيمَ بن مالكٍ الأشتَرِ يسأله الخروجَ إلى الطَّلَبِ بدم الحسين بن على رضى الله عنهما ، فأبَى عليه إبراهيمُ إلَّا أن يستأذنَ محمدَ بن على بن أبى طالبٍ ، فكتب إليه يستأذنه [(1)] فى ذلك [1)] . فعلم محمدٌ أنَّ المختارَ لا عَقْدَ له ، فكتب محمدٌ إلى إبراهيمَ ابن الأشْتَرِ : إنه ما يَسُوءنى أن يأخذَ اللهُ بحقِّنا على يَدَىْ مَنْ شاء [(2)] من خلقه . فخرج معه إبراهيمُ بن الأشترِ ، فوجهه [(3)] نحوَ عُبيد الله بن زيادٍ ، وخرج يُشَيِّعهُ ماشياً ، فقال له إبراهيمُ : اركبْ يا أبا إسحقَ ! فقال : إنى أحِبُّ أن تغبَرَّ قَدَماىَ فى نُصرة آلِ محمد صلى الله عليه وسلم .

فشيَّعه فرسخين ، ودَفَعَ إلى قومٍ من خاصَّته حَمامًا بيضاً ضِخامًا ، وقال : إن رأيتم الأمرَ لنا فَدَعُوها ، وإن رأيتم الأمرَ علينا فأرْسِلُوها ، وقال للناس : إن استقمتم فَبنَصْرِ الله ، وإن حِصتُمْ حَيْصة [(4)] فإنِّى أجِدُ فى محكمِ الكتابِ ، وفى اليقينِ والصواب ، أنَّ اللهَ مُؤَيِّدُكم بملائكةٍ غِضَابٍ ، تَأتِى فى صوَرِ الحمامِ دُوَيْنَ السحاب .

فلما صار ابنُ الأشتر بخَازَرَ [(5)] وبها عُبَيْدُ الله بن زيادٍ ، قال : مَن صاحبُ الجيشِ ؟ قيل له : ابنُ الأشترِ ، قال : أليس الغلامَ الذى كان يُطِيرُ الحمامَ بالكوفة ؟ قالوا : بلى ، قال : ليس بشىء ، وعلى مَيمنةِ ابن زيادٍ ، حُصَيْنُ [(6)] ابن نُمَيْرِ السَّكُونيُّ من كِندةَ — ويقال السَّكُونىُّ والسُّكُونىُّ ، والسَّدُوسىُّ والسُّدُوسىُّ ، كذا كان أبو عبيدة يقول .

(١–١) ساقط من ر . (٢) ر : « من يشاء » . (٣) ر : « فتوجه » .

(٤) حصتم حيصة : ذهبتم تطلبون الفرار . (٥) خازر : نهر بين إربل والموصل .

(٦) ر : « حضين » ، وما أثبته عن الأصل .

وكان عبدُ الله بن الزبير يُدْعَى العائِذَ ، لأنه عاذ بالبيت ، فنى ذلك يقولُ ابنُ الرُّقيَاتِ يَذْكُرُ مُصْعَباً :

بَلَدٌ تأمَنُ الحمامةُ فيه حيثُ عاذَ الخليفةُ المظلومُ

وكان عبدُ الله يُدْعى المُحِلَّ ، لإحلاله القتالَ فى الحَرَمِ ، وفى ذلك يقولُ رجلٌ فى رَمْلَةَ بنتِ الزبير :

ألا مَنْ لقلبٍ مُعَنًّى غَزِلْ بِذِكْرِ المُحِلَّةِ أُخْتِ المُحِلّ

وكان عبدُ الله بن الزبير يُظْهِرُ البغضَ لابن الحنفيّة إلى بُغْضٍ أهله ، وكان يَحْسُدُه على أَيْدِهِ[1] ، ويقال : أن عليًّا استطال دِرْعاً فقال : لِيُنْقَصْ منها كذا وكذا حَلْقةً ، فقَبض محمدُ بن الحنفية بإحدى يديه على ذيلها ، وبالأخرى على فَضلِها ، ثم جَذَبها فقطعها من الموضع الذى حَدَّه أبوه ، فكان ابنُ الزبير إذا حُدِّثَ بهذا الحديث غضب واعتراه له أفكَلٌ[2]

فلما رأى المختارُ أنَّ ابنَ الزبير قد فَطِنَ لما أراد كَتب إليه : من المختار بن أبى عُبيدٍ الثَّقفيّ خليفةِ الوصىِّ محمد بن علىٍّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن أسماءَ . ثم ملأ الكتابَ بِسبِّه وسبِّ أبيه . وكان قَبْلَ ذلك فى وقتِ إظهاره طاعةَ ابن الزبير يَدُسُّ إلى الشِيعة ، ويُعْلِمُهم مُوالاتَه أياهم ، ويُخْبِرُهم أنه على رأيهم وحَمْدِ مذاهِبِهم ، وأنه سيُظهِر ذلك عمّا قليلٍ . ثم وَجَّهَ جماعةً تسيرُ الليلَ وتكْمُنُ النهارَ ، حتى كسروا سجنَ عارِمٍ ، واستخرجوا منه بنى هاشمٍ ، ثم ساروا بهم إلى مأمَنِهم

* * *

(١) الأيد : القوة .

(٢) الأفكل : اسم للرعدة تعلو الإنسان .

فلما الْتقوْا كانت على أصحاب إبراهيمَ فى أول النهار ، فأرسلَ أصحابُ المختارِ الطيرَ ، فتصايحَ الناسُ : الملائكة ! فتراجعوا ، ونَكَّسَ عميرُ بن الحُبَاب رايتَهُ ، ونادَى : يا لثَأَرَاتِ المَرْجِ ! وانخزلَ بالمَيْسَرَةِ كلِّها ، وفيها قَيْسٌ فلم يَعْصُوهُ ، واقتتل الناسُ حتى اختلَط الظلامُ . وأسرع القتلُ فى أصحاب عُبيد الله بن زيادٍ . ثم انكشفوا ووُضِعَ السيفُ فيهم حتى أُفْنُوا ، فقال ابنُ الأشْتَرِ : لقد ضربتُ رجلا على شاطىء هذا النهرِ فرجع إلىّ سيفى ، فيه[1] رائحةُ المسك . ورأيتُ إقْدَامًا وجُرْأَةً ، فصرعتُهُ فذهبتْ يداه قِبَلَ المشرقِ ، ورجلاه قِبَلَ المغرب ، فانظُرُوا .

فأتوْه بالنِّيران ، فإذا هو عُبيد الله بنِ زيادٍ .

***

وقد كان عند المختار كُرسىٌّ قديمُ العهد ، فَغَشَّاهُ بالدِّيباج ، وقال : هذا الكرسىُّ من ذخائر أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فضعوه فى بَرَاكاء الحربِ ، وقاتِلوا عليه ، فإنَّ مَحلَّه فيكم مَحلُّ السكينة فى بنى إسرائيل . ويقال إنه اشترى ذلك الكرسىَّ من نجّارٍ بدرهمين[2] .

وقوله : « فى بَرَاكاء القتال » ويقال : بَرَاكاء وبَرُوكاء ، وهو موضِعُ اصْطِدَامِ القومِ ، وقال الشاعرُ[3] :

وليس بُمنْقِذِك منه إلا بَرَاكاءُ القتالِ أو الفِرَارُ

(١) و : « ومنه » . (٢) و : « بدرهمين من نجار » .

(٣) حاشية الأصل : « البيت لبشر بن خازم » ويروى :

* ولا ينجى من الغَمَرَاتِ إلا *

[قال أبو الحسن : السَّكُونيُّ أكثر][1]، وعلى ميسرته عُميرُ بن الحباب فارسُ الإسلام .

فقال حُصَيْنُ بنُ نُمَيْرٍ لابن زيادٍ : إنَّ عميرَ بن الحُبابِ غيرُ ناسٍ قَتْلَى المَرْج[2] ، وإنى لا أثِقُ لك به . فقال ابنُ زياد : أنتَ لى عدوٌّ ، قال حُصَيْنٌ : ستعلمُ .

قال ابنُ الحُبَابِ : فلما كان الليلة التى نُريد أن نُوَاقِعَ ابنَ الأشْتَرِ فى صبيحتها خرجتُ إليه ، وكان لى صديقاً ، ومعى رجلٌ من قومى ، فصرتُ إلى عسكره ، فرأيته وعليه قميصٌ هَرَوِىٌّ[3] ومُلاءَةٌ ، وهو متوشح[4] السيفَ يَجُوسُ عسكرُه فيأمرُ فيه ويَنْهَى ، فالْتَزَمْتُه من ورائِهِ ، فواللهِ ما الْتَفَتَ إلىَّ ، ولكن قال : مَنْ هذا ؟ فقلتُ : عُمير بن الحُبَابِ ، فقال : مرحباً بأبى المُغَلِّسِ ، كُنْ بهذا الموضعِ حتى أعودَ إليك ، فقلت لصاحبى : أرأيتَ أشْجَعَ من هذا قط ! يحتضنه رجلٌ من عسكرِ عدوِّه ، ولا يدرى من هو ؟ فلا يلتفتُ إليه ! ثم عاد إلىَّ وهو فى أربعة آلاف ، فقال : ما الخبرُ ؟ فقلت : القومُ كثيرٌ ، والرأىُ أن تُناجِزَهم ، فإنه لاصبرَ بهذه العِصابة القليلة على مُطاولة هذا الجمع الكثير ، فقال : نُصْبِحُ إن شاء الله ثم نُحاكمهم إلى ظُبَات السيوف وأطرافِ القنا ، فقلت : أنا مُنْخَزِلٌ عنكَ بثُلُثِ الناس غداً

---

(١) مابين العلامتين من زيادات ر .

(٢) قتلى المرج ، يريد مرج راهط ؛ وقد قتلت يوم ذلك قبائل قيس مقتلة لم تر مثلها . قاله المرصفى .

(٣) هروى : منسوب إلى هراة ، إحدى مدن خراسان . (٤) ر : « متشح » .

وقال آخرُ :

تَكَنَّفنى الوُشاةُ فأزعجونى فيالَلناس لِلْواشى المُطاعِ[1] !

وفى الحديث لمّا طعَنَ العِلْجُ -أو العبدُ- عمرَ بن الخطاب رضوان الله عليه صاح : يالله يالَلمسلمينَ !

وتقولُ : يالِلعَجَبِ ، إذا كنتَ تدعو إليه ، و « يا » لِغيرِ العَجَبِ ، كأنكَ قلتَ : يالَلنَّاسِ لِلعَجَبِ . ويُنْشَدُ هذا البيتُ :

يا لَعنَةَ اللهِ والأقوامِ كلِّهِمِ والصالحينَ على سِمْعانَ من جارِ[2]

فَيا لِغيرِ اللعنةِ ، كأنه قال : ياقومِ لعنةَ اللهِ والأقوامِ كلِّهم .

وزَعَمَ سيبويهِ أنّ هذه اللامَ التى للاستغاثةِ دليل ، بمنزلةِ الألفِ التى تُبينُ بالهاءِ فى الوقفِ إذا أردتَ أن تُسمِعَ بعيداً ، فإنما هى للاستغاثةِ بمنزلةِ هذه اللامِ ، وذلك قولك : يا قَوْماهْ ! على غيرِ النُدْبةِ ، ولكن للاستغاثةِ ومَدِّ الصوت

والقولُ كما قال ، محلُّهما عند العرب محلٌّ واحدٌ ، فإن وصلتَ حذفتَ الهاءَ ، لأنها زِيدَتْ فى الوقف لخفاء الألِف ، كما تَزادُ لبيان الحركةِ ، فإذا وصلتَ أغنَى ما بعدَها عنها ، تقولُ : يا قَوْمَا تعالَوْا ، ويا زيدَا لا تَفْعلْ .

---

(١) نسبه المرصفى إلى قيس بن ذريح ؛ وقبله :

فواكبدِى وعاوَدَنى رُدَاعِى وكان فراقُ لُبنَى كالخداعِ

(٢) سمعان ، بفتح السين وكسرها ؛ وكلاهما صحيح .

وهذا باب [1] اللام التى للاستغاثة والتى للإضافة

إذا استغثتَ بواحدٍ أو بجماعةٍ فاللامُ مفتوحةٌ ، تقول : يا لَلرِّجالِ ، ويا لَلقومِ ، ولَزيدٍ ! إذا كنتَ تدعوهم .

وإنما فتحتَها لتَفصِل بين المَدْعُوِّ والمَدْعُوِّ له ، ووجب أن تَفتَحَها لأن أصلَ اللامِ الخافضَةِ إنما كان الفتحَ ، فكُسِرَتَ مع المُظْهَرِ ليُفصلَ بينها وبين لامِ التوكيدِ ، تقول : إنّ هذا لَزَيْدٌ ، إذا أردتَ : إنَّ هذا زَيْدٌ ، وتقول : إنّ هذا لزيدٍ ، إذا أرادتَ أنه في مِلْكِه ، ولو فتَحْتَ لا لتَبَسا [2] .

فإن وقعت اللامُ على مضمرٍ فتحتَها على أصلِها ، فقلتَ : إنّ هذا لَكَ ، وإن هذا لأَنْتَ ، إذا أردتَ لامَ التوكيدِ ليس هاهنا لَبْسٌ . وذاك أنَّ الأسماء المضمرةَ على غيرِ لفظِ المُظْهَرِةِ . فلهذا أجْرَيْتَها على الأصلِ ، والاستغاثةُ ترُدُّها إلى أصلها من أجلِ اللَّبْسِ .

والمدعوُّ له في بابه ، فاللامُ معه مكسورة ، تقولُ : يا لَلرِّجالِ لِلماء ! ويا لَلرِّجالِ لِلعَجَبِ ويا لَزيدٍ لِلخَطْبِ الجليلِ ! قال الشاعرُ :

يا لَلرجالِ لِيَوْمِ الأربعاء أَمَا ... يَنفَكُّ يبعثُ لى بعدَ النُّهَى طرَبَا [3]

---

(١) ر : «هذا» . (٢) ر : «لا لتبستا»

(٣) لعبد الله بن مسلم بن جندب الهذلى .

ثم نعود إلى ذكر الخوارج

[خالد بن عباد السدوسى]

قال أبو العباس : وذُكِرَ لِعُبَيْدِ الله بن زيادٍ رجلٌ من بنى سَدُوسٍ ، يقال له خالدُ بن عَبَّادٍ ـ أو ابن عُبادةَ ـ وكان من نُسّاكهم ، فوَجَّهَ إليه فأخذَه ، فأتاه رجلٌ من آل ثَوْرٍ ، فكَذَّبَ عنه ، وقال : هو صِهْرِى وهو فى ضِمْنِى . فَخَلَّى عنه ، فلم يزَلِ الرجلُ يَتفقَّدُهُ حتى تَغَيَّبَ ، فأتى ابنَ زيادٍ فأخبره ، فبَعَثَ إلى خالد بن عَبَّادٍ فأُخِذَ ، فقال عُبيد الله بن زيادٍ : أين كنتَ فى غَيْبَتِك هذه ؟ قال : كنتُ عند قومٍ يذْكرونَ اللهَ ويذكرون أئمةَ الجوْرِ فيتبرّءونَ منهم ! قال : ادللنى عليهم [1] . قال : إذَنْ يَسْعَدُوا وتَشْقَى ، ولم أَكُنْ لِأُرَوِّعَهُمْ !

قال : فما تقولُ فى أبى بكرٍ وعمرَ ؟ قال : خيراً . قال : فما تقولُ فى أمير المؤمنين عثمانَ ، أتتولّاه وأمير المؤمنين مُعاويةُ ؟ قال : إن كانا وَلِيَّيْنِ لله فلستُ أُعاديهما ، فأَرَاغَهُ مرات فلم يرجع ، فعزَم على قتله ، فأمر بإخراجه إلى رَحَبَةٍ [2] تُعرفُ برَحْبَة الزَّيْنَبِى

فجعل الشُّرَط يَتفادَوْنَ مِنْ قتله ، ويَرُوغونَ عنه تَوقّياً ، لأنه كان شاسِفاً [3] عليه أثَرُ العِبادَةِ ، حتى أتى المُثلَّمُ بنُ مَسْرُوحٍ الباهلىُّ ، وكان

---

(١) ر : « دلنى عليهم » .
(٢) الرحبه : الفجوة الواسعة بين الدور .
(٣) الشاسف : اليابس من الهزال .

ولا يجوزُ أن تقولَ : يا لَزَيْدٍ وهو مُقْبلٌ عليكَ ، وكذلك لا يجوزُ أن تقول : يا زَيْدَاهْ ، وهو معك ، إنما يقال ذلك للبعيدِ ، أو يُنَبَّهُ به النائمُ .

فإن قلتَ : يا لَزَيدٍ ولِعمرو ، كسرتَ اللامَ فى « عمرو » وهو مَدْعُوٌّ ، لأنك إنما فتحتَ اللامَ فى « زيدٍ » لتفصل بين المَدْعُوِّ والمَدْعُوِّ إليه ، فلما عطفتَ على « زيدٍ » استغنيت عن الفصل ، لأنك إذا عطفت عليه شيئاً صار فى مِثْلِ حالِه .

ونظيرُ ذلك الحكايةُ ، يقول الرجلُ : رأيتُ زيداً ، فتقولُ ، مَنْ «زيداً» ؟ وإنما حكيتَ قولَه لِيَعْلَمَ أنك إنما تستفهِمُهُ عن الذى ذَكَرَ بعينِهِ ، ولا تسأله عن زيدٍ غيره ، والموضعُ موضعُ رفعٍ ، لأنه ابتداءٌ وخبرٌ ، فإن قلتَ : ومَنْ زيدٌ ؟ أو فمنْ زيدٌ ؟ لم يكن إلا رفعاً ، لأنك عطفتَ على كلامِهِ ، فاستغنيتَ عن الحكايةِ ، لأن العطفَ لا يكونُ مستأنفاً .

وَنظيرُ هذا الذى ذكرتُ لكَ فى اللام قولُ الشاعرِ :

يَبْكِيكَ نَاءٍ بَعِيدُ الدَّارِ مُغْتَرِبٌ   يَا لَلْكُهُولِ وَلِلشُّبَّانِ لِلْعَجَبِ !

فقد أحْكَمْتُ كلَّ ما فى هذا الباب .

أهاهنا مِن باهِلَة أحدٌ ؟ قالوا : نعم ، قال : يا أعداء الله ، أخذتُم بالمُثلَّم أربع دياتٍ وأنا قتلته[1] وجعلتُ دراهمَ كانتْ معه فى بطنِه ، وهو فى موضع كذا مدفونٌ ، فلما انهزمُوا صارُوا إلى الدارِ ، فصابوا أشلاءه والدراهمَ ، ففى ذلك يقولُ أبو الأسْوَدِ الدؤلِىُّ :

آليتُ لا أغدُو إلى رَبِّ لِقحةٍ   أُساوِمُهُ حتى يَعُودَ المثلَّمُ[2]

ثم خَرَجَتْ خوارجُ لا ذِكْرَ لهم ، كلُّهم قُتِلَ ، حتى انتهى الأمرُ إلى الأزارقةِ .

[تفرق الخوارج]

ومن هاهنا افترقت الخوارجُ فصارت على أربعةِ أضْرُبٍ :

الإباضِيَّةُ ، وهم أصحابُ عبد الله بن إبَاضٍ .

والصُّفْرِيَّةُ ، واختلفوا فى تسميتهم ، فقال قومٌ : سُمُّوا بابن صَفَّارٍ[3] وقال آخَرُونَ — وأكثر المتكلمين عليه — : هم قومٌ نَهَكَتْهُمُ العِبادة فاصفرّت وجوهُهم .

---

(١) ر : « وأنا قاتله » .

(٢) بعده كما ذكره المرصفى :

وَقالَ لهُ كوماءُ حَمْراءُ جَلْدَةٌ   وَقارَبَهُ فى السَّوْمِ والقتلَ يكتمُ

فأصْبَحَ قَدْ عَمِىَ على النَّاسِ أمْرُهُ   وَقدْ باتَ يَجْرِى فوقَ أثْوابِهِ الدَّمُ

وَقد كانَ فِيما كانَ مِنْهُ بمعزلٍ   وَلكنَّ حَيْنَ المرءِ لِلمَرْءِ مُسْلِمُ

(٣) هو عبد الله بن الصفار .   (٤) هو هيصم بن جابر .

من الشُّرَطِ ، فتقدَّم فقتلَهُ ، فائْتَمَرَ به الخوارجُ ليقتلوه ، وكان مُغْرَمًا باللِّقاحِ[1] ، يَتَتَبَّعُهَا[2] فيشتريها من مَظَانِّها ، وهم فى تَفَقُّدِهِ . فَدَسُّوا إليه رجلا فى هيئة الفِتْيانِ ، عليه رَدْعُ زعفرانٍ[3] ، فلقيه بالمِرْبَدِ[4] وهو يسأل عن لِقْحةٍ صَفِىٍّ[5] ، فقال له الفتى : إنْ كنتَ تَبْلُغُ[6] فعندى ما يُغْنيكَ عن غيره ، فامضِ معى .

فمضى المثلَّمُ على فرسه والفتى أمامَهُ ، حتى أتى به بنى سَعْدٍ ، فدخل داراً ، وقال له : ادخلْ على فرسِكَ ، فلمَّا دخل وتوغَّل فى الدار أغلقَ البابَ ، وثارتْ به الخوارجُ فاعْتَوَرَهُ حُرَيْثُ بن جَحْل ، وكَهْمَسُ بن طَلْق الصَّرِيمِىُّ فقتلاه ، وجعلا دراهمَ كانت معه فى بطنه ، ودفناه فى ناحية الدارِ ، وحَكَّا آثارَ الدَّمِ ، وخلَّيا فرسَه فى الليل ، فأُصِيبَ من الغدِ فى المِرْبَدِ ، وتَجَسَّسَ[7] عنه الباهليُّون فلم يَرَوْا له أثراً ، فاتهموا به بنى سَدُوسٍ ، فاسْتَعْدَوْا عليهم السلطان ، وجعلَ السَّدُوسِيُّونَ يَحلفون ، وتحامل[8] ابنُ زيادٍ مع الباهليينَ ، فأخذ من السدوسيين أربعَ دِيات ، وقال : ما أدرى ما أصنعُ بهؤلاء الخوارجِ ! كلما أمرتُ بقتل رجلٍ منهم اغتالوا قاتِلَه فلم يُعلَمْ بمكانه ، حتى خرج مِرْدَاسٌ . فلما واقفهم ابنُ زُرْعَةَ الكلابىُّ صاح بهم حُرَيْثُ بنُ جَحْلٍ :

---

(١) اللقحة : الناقة التى لها لبن .

(٢) ر : « يقتبعها » . (٣) الردع : اللطخ بالطيب والزعفران .

(٤) المربد : المكان الذى تحبس فيه الإبل وتصان ؛ ومنه سمى مربد البصرة ؛ وكان موضع سوق الإبل .

(٥) الصفىّ : الناقة الغزيرة اللبن ؛ والجمع صفايا .

(٦) تبلغ ، يريد إن كنت تبلغ بها غنا جيداً . قاله المرصفى .

(٧) ر : « وتحسس » . (٨) ر : « فتحامل »

أَتَحُضُّ على الحقِّ وتَقْعُدُ عنه ، وتُقَبِّحُ الباطلَ وتقيمُ عليه ! فقال : إلى أن يَجْتَمع [1] من أصحابِك من تَنْكِي به عدوَّك ، فقال أبو الوازع :

لِسانُكَ لا يُنْكَى به القومُ إنما تَنالُ بِكَفَّيْكَ النَّجاةَ من الكَرْبِ

فجاهِدْ أناساً حارَبوا الله واصْطَبِرْ عسى اللهُ أن يُخْزِي غَوِيَّ بني حَرْبِ

ثم قال : والله لا ألومك ونفسي أَلُومُ ، وَلأَغْدُوَنَّ غَدوة لا أَنْثَنِي بعدها أبداً . ثم مضى فاشترى سيفاً ، وأتى صَيْقَلاً [2] كان يذمُّ الخوارج ويَدُلُّ على عوراتِهم ، فشاوره في السيف فحمِدَه ، فقال: اشْحَذْهُ ، فشَحَذَهُ ، حتى إذا رَضِيَهُ حَكَمَ وَخَبَطَ به الصقيل وحملَ على الناس فتهارَبوا منه ، حتى أتى مَقْبَرَةَ بني يَشْكُرَ ، فدَفعَ عليهِ رجلٌ حائطَ السُّتْرةِ فكرهتْ ذلك بنو يَشْكُرَ ، خوفاً أن تجعَلَ الخوارجُ قبره مُهاجَراً ، فلما رأى ذلك نافعٌ وأصحابُه جَدُّوا ، وخَرج في ذلك جماعةٌ ، فكان ممن خَرج عيسى بن فَاتِكٍ الشاعرُ الخطِّيُّ ، من تيمِ اللاَّتِ بن ثَعْلبة ، ومَقْتَلُه بعدَ خروج الأزارقة .

فمضى نافعٌ وأصحابُه من الحَرُورِيَّة قبلَ الاختلافِ إلى مكة ، لِيَمْنَعُوا الحَرَمَ مِن جيش مُسْلِم بن عُقْبَةَ ، فلما صاروا إلى ابن الزبير عرَّفوه أنفسهم ، فأظهر لهم أنه على رأيهم ، حتى أتاهم مسلم بن عُقْبَةَ وأهلُ الشامِ ، فدافعُوهم إلى أن يأتيَ رأيُ يزيدَ بن معاية ، ولم يبايعوا ابنَ الزبير .

ثم تناظروا فيما بينهم ، فقالوا : نَدْخُل إلى هذا الرجل فننظرُ ما عندَه ،

---

(١) ر : « تجمع » . (٢) الصيقل : شحاذ السيوف وجلاؤها .

ومنهم البَيْهَسِيَّةُ ، وهم أصحابُ بَيْهَس .

ومنهم الأزارِقة ، وهم أصحابُ نافع بن الأَزْرَق الحنفِيّ .

وكانوا قبلُ على رأى واحدٍ ، لا يختلفون إلَّا فى الشىء الشاذّ من الفروعِ ، كما قال صَخْرُ بن عُرْوَةَ : إنى كرهتُ قتال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه لسابقَتِهِ وقرابتِهِ ، فأمّا الآنَ فلا يَسعُنِى إلّا الخروجُ . وكان اعتزلَ عبدَ الله ابن وَهْبٍ يومَ النّهرِ ، فَضَلَّلَتْهُ[1] الخوارجُ بامتناعِه من قتال علىّ .

[الخوارج وابن الزبير]

فكان أولُ أمرهم الذى نَسْتَاقَه : أَنَّ جماعةً من الخوارجِ ، منهم نَجْدَةَ ابنُ عامرٍ الحنفىُّ ، عزَمُوا على أن يقصدوا مكّة ، لمَّا توَجَّهَ مُسْلِمُ بن عُقْبَةَ يريدُ المدينةَ لوقعة الحرَّةِ ، فقالوا : هذا ينصرفُ عن المدينة إلى مكّة ، ويجبُ علينا أن نَمْنعْ حرَمَ اللهِ منه ، ونمتحنَ ابنَ الزُّبيرِ ، فإن كان على رأينا بايَعْناهُ . فمضَوْا لذلك .

فكان أولُ أمرهم أنَّ أبا الوَازِعِ الرَّاسِبيَّ — وكان من مجتهدى الخوارجِ — كان يَذْمُرُ نَفْسَه ويلومُها على القعودِ ، وكان شاعراً ، وكان يفعلُ ذلك بأصحابه . فأتى نافعَ بن الأزرَقِ وهو فى جماعةٍ من أصحابه ، يَصِفُ لهم جوْرَ السلطان — وكان ذا لِسانٍ عَضْبٍ ، واحتجاجٍ وصَبْرٍ على المنازعة — فأتاه أبو الوَازِعِ ، فقال : يا نافعُ ، لقد أُعطِيتَ لساناً صارِماً ، وقلباً كليلاً ، فلوَدِدْتُ أن صَرَامةَ لِسانكَ كانت لقلبك ، وكلالَ قلبك كان لِلِسانِك ،

---

(١) ضللته : نسبته إلى الضلال .

أكفَرِ الكافرين وأعتى العُتاة بأرفه[1] من هذا القول ، فقالَ لموسى ولأخيه - صلى الله عليهما - فى فرعونَ : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾[2] ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تُؤذُوا الأحياءَ بِسَبِّ الموتى » فَنَهَى عن سَبِّ أبى جهلٍ من أجل عِكْرِمةَ ابنِهِ ، وأبو جهلٍ عدوُّ الله وعدوُّ الرّسولِ ، والمقيم على الشِّركِ ، والجادُّ فى المحاربة ، وَالْمُتَبَغِّضُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلَ الهجرةِ ، والمحاربُ له بعدَها ، وكَفَى بالشركِ ذنباً ! وقد كان يُغنِيكم عن هذا القولِ الذى سَمَّيتُمْ فيه طلحةَ وأَبِى أن تقولوا : أَتَبْرأُ من الظالمين ؟ فإن كانا منهم ، دخَلاَ فى غُمارِ[3] الناس ، وإن لم يكونا منهم لم تُحْفِظُونى[4] بِسَبِّ أَبى وصاحِبِه ، وأنتم تعلمون أنَّ الله جلّ وعزّ قال للمؤمن فى أَبوَيْهِ : ﴿ وإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ به عِلْمٌ فلا تُطِعْهُمَا ، وصاحِبْهُمَا فى الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ﴾[5] وقال جَلَّ ثناؤُهُ : ﴿ وقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾[6] ، وهذا الذى دَعَوْتم إليه أمرٌ له ما بعدَه ، وليس يُقْنِعُكم إلاَّ التوقيفُ والتصريحُ ، ولَعَمْرِى إنّ ذلكَ لأَحْرَى بِقَطْعِ الحُجَجِ ، وأوضحُ لِمنْهاجِ الحقِّ ، وأَوْلَى بأن يَعرِفَ كلٌّ صاحبَه من عدوِّه ، فَرُوحُوا إلَيَّ مِنْ عَشِيَّتِكم هذه أَكْشِفْ لكم ما أَنَا عليه إن شاء الله .

---

(١) ر : « أرأف » .
(٢) سورة طه ٤٤
(٣) غمار الناس : جماعتهم .
(٤) لم تحفظونى : لم تغضبونى .
(٥) سورة لقمان ١٥
(٦) سورة البقرة ٨٣

فإن قدَّمَ أبا بكر وعمرَ ، وبَرِئَ من عثمانَ وعليٍّ ، وكَفَّر أباه وطلحة ، بايعناه ، وإن تكنِ الاخرى ظهرَ لنا ما عندَه ، فتشاغلنا بما يُجدِى علينا . فدخلوا على ابنِ الزبير ، وهو مُتبَذِّلٌ ، وأصحابُه متفرقون عنه ، فقالوا : إنّا جئناك لتُخبِرنا رأيك ، فإن كنتَ على الصوابِ بايعناك ، وإن كنتَ على غيره دَعَوْناكَ إلى الحقِّ . ما تقولُ فى الشَّيخين ؟ قال : خيراً ، قالوا : فما تقولُ فى عثمان ، الذى أَحْمَى الحِمَى ، وآوى الطَّرِيدَ ، وأظهر لأهلِ مصرَ شيئاً وكَتبَ بخلافِه ، وأَوْطَأَ آل أبى مُعَيْطٍ رِقابَ الناسِ وآثَرَهُمْ بِفَىْءِ المسلمين ؟ وفى الذى بعدَه الذى حكَّم فى دِينِ الله الرجالَ ، وأقام على ذلك غيرَ تائبٍ ولا نادمٍ ؟ وفى أبيكَ وصاحِبه ، وقد بايعَا عليًّا وهو إمامٌ عادلٌ مَرْضِىٌّ ، لم يَظْهَرْ منه كفرٌ ، ثم نَكَثَا بعَرَضٍ من أعراض الدنيا ، وأخرجا عائشة تُقاتِلُ ، وقد أمرها الله وَصواحِبَها أن يَقَرْنَ[1] فى بُيُوتِهِنَّ ؟ وكان لك فى ذلك ما يَدعُوكَ إلى التوبة ! فإن أنتَ قلتَ كما نقولُ فلكَ الزُّلْفَةُ عند الله والنَّصْرُ على أيدينا ، ونسألُ اللهَ لك التوفيقَ وإن[2] أبيْتَ خَذَلَك اللهُ وانتَصَرَ منك بأيدِينا[2] .

فقال ابنُ الزبير : إنَّ الله أمر – وله العِزَّةَ والقُدْرَةُ – فى مخاطبة

---

(١) يشير إلى قوله تعالى فى سورة الأحزاب ٣٣ :

﴿ وَقَرْنَ فى بُيُوتِكُنّ ﴾

(٢–٢) كذا وردت العبارة فى الأصل ، س ، وفى ر : « وإن أبيت إلا نصر رأيك الأول ، وتصويب أبيك وصاحبه ، والتحقيق بعثمان ، والتولى على السنين الست التى أحلت دمه ونقضت ... ، وأفسدت إمامته ، خذلك الله وانتصر منك بأيدينا » .

« أوْجَبَ طلحةُ » . وكان الصِّدِّيقُ إذا ذَكَرَ يومَ أُحُدٍ ، قال : ذاك يوم كُلُّه أو جُلُّهُ لطلحةَ ، والزبيرُ حَوَارِىُّ رسولِ الله وَصِفوَتُهُ ، وقد ذَكَرَ أنهما فى الجنةِ ، وقال جلَّ وعزَّ : ﴿ لَقَدْ رَضِىَ اللهُ عَنِ المؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾[1] ، وما أخبرَنَا بعدُ أنه سَخطَ عليهم ، فإن يكنْ ما سَعَوْا فيه حقًّا فأهلُ ذلك هُمْ ، وإن يكنْ زَلَّةً ففى عَفْوِ الله تَمْحِيصُها ، وفيما وَفَّقهم له من السابقة مع نبيِّهم صلى الله عليه . ومهما ذَكَرْتموهما به فقد بَدَأْتم بأُمِّكمْ عائشةَ رضى الله عنها ، فإنْ أَبَى آبٍ أن تكونَ له أُمًّا نَبَذَ اسمَ الإيمانِ عنه ، قال اللهُ جلَّ وعزّ — وقولُهُ الحقُّ : ﴿ النَّبِىُّ أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾[2]

فنظر بعضُهم إلى بعضٍ ، ثم انصرفوا عنه

* * *

وكان سببُ وضعِ الحربِ بينَ ابنِ الزبير وبين أهلِ الشأم - بعدَ إذ كان[3] حُصَيْن بن نُمَيْرٍ قد حَصَرَ ابنَ الزبير - أنه أتاهم موتُ يزيدَ ابن معاويةَ فتوادَعَ الناسُ ، وقد كان أهلُ الشأم ضَجِرُوا من المُقامِ على ابن الزبير ، وحَنِقَتِ الخوارجُ فى قتالهم ، ففى ذلك يقول رُجلٌ من قُضاعَةَ :

---

(١) سورة الفتح ١
(٢) سورة الأحزاب ٦
(٣) ر : « أن كان » .

فلما كان العَشِيُّ رَاحُوا إليه ، فخرج إليهم وقد لَبِسَ سِلاَحَهُ ، فلما رَأَى ذلكَ نَجْدَةُ قَال : هذا خروجُ مُنَابذٍ لكم . فجلس على رَفْعٍ (٥) من الأرضِ ، فحَمِدَ اللهَ وَأثني عليه ، وصلّى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم ذَكَرَ أبا بكر وعمرَ أحسنَ ذِكْرٍ ، ثم ذَكَر عثمانَ فى السِّنِينَ الأوائلِ من خلافتِه ، ثم وَصَلَهُنَّ بالسِّنِينَ التى أنْكَرُوا سِيرتَه فيها ، فجعلها كالماضيةِ ، وخَبَّرَ أنه آوَى الحَكَمَ بنَ أبى العاص بإذنِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذَكَرَ الحِمَى وما كان فيه من الصَّلاحِ ، وأنَّ القومَ استَعْتَبُوهُ من أمور ، وكان له أن يفعلَها أوَّلاً مُصِيبًا ، ثم أعْتَبهُمْ بعدُ مُحْسِنًا ، وأنَّ أهلَ مصرَ لمَّا أتَوْه بكتابٍ ذَكَرُوا أنه منه بعدَ أنْ ضَمِنَ لهم العُتْبَى ؛ ثم كُتِبَ لهم ذلك الكتابُ بِقَتْلِهِمْ ، فدَفَعُوا الكتابَ إليه ، فحلف أنه لم يَكْتُبْهُ ولم يَأْمُرْ به ، وقد أُمِرَ بقبولِ اليمينِ مِمَّن ليس له مثلُ سابِقَتِه ، معَ ما اجْتَمَعَ له من صِهْرِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه من الإمامةِ ، وأنَّ بَيْعَةَ الرِّضْوانِ تحتَ الشَّجرةِ إنما كانت بسببه ، وعثمانُ الرجلُ الذى لَزِمَتْه يمينٌ لو حَلَفَ عليها لَحَلَفَ على حَقٍّ فافتداها بمائةِ ألفٍ ولم يَحْلِفْ ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ حَلَف بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ » .

فعثمانُ أميرُ المؤمنين كَصاحِبَيْهِ ، وأنا ولِيُّ وَلِيِّهِ ، وعَدُوُّ عَدُوِّهِ ، وأبى وصاحبُه صَاحِبَا رسولِ الله صلى اللهِ عليه وسلم ، ورسولُ الله يقولُ عن الله تعالى يومَ أُحدٍ لمَّا قُطِعَتْ إصْبَعُ طلحةَ : « سَبَقَتْه إلى الجنةِ » ، وقال :

إلى البصرة ، وطائفة إلى اليمامَةِ ، وكان رَجاء النصرى[1] وهو الذى كان جَمَعهم للمدافعة عن الحرَم ، فكان فيمن صار إلى البصرة نافعُ بن الأزرق الحنفىُّ ؛ وبَنُو الماحُوزِ السلِيطِيُّونَ ، ورئيسُهم حسَّانُ بن بحدج[2] ، فلما صاروا إلى البصرة نظروا فى أمورهم فأمَّروا عليهم نافعاً .

[خروج نافع بن الأزرق بقومه إلى الأهواز]

ويُرْوَى أن أبا الجلْدِ اليشكرىَّ قال لنافعٍ يومًا : يا نافعُ ، إنّ لجهنم سبعةَ أبوابٍ ، وإن أشدَّها حرًّا للبابُ الذى أُعِدَّ للخوارج ، فإن قدَرْتَ ألا تكونَ منهم فافعلْ ، فأجمع القومُ علَى الخروج ، فمضى بهم نافعٌ إلى الأهْواز[3] فى سنة أربع وستين ، فأقاموا بها ، لا يَهيجون أحداً ، ويُناظرُهم الناسُ .

وكان سببُ خروجهم إلى الأهواز أنه لمَّا مات يزيدُ بايعَ أهلُ البصرة عُبَيْدَ الله بنَ زيادٍ ، وكان فى السجن يومئذٍ أربعمائة رجلٍ من الخوارج ، وضَعُفَ أمرُ ابنِ زِيادٍ ، فكُلِّمَ فيهم فأطلقهم ، فأفسدوا البَيْعَة عليه ، وفَشَوْا فى الناس ، يَدْعُونَ إلى محاربة السلطانِ ويُظهرون ما هم عليه ، حتى اضطَرَبَ عَلى عُبيد الله أمرُه ، فتحوَّل عن دار الإمارة إلى الأزْد ، ونَشَأَتِ الحربُ بسببه بين الأزدِ وربيعةَ وبين بنى تميم ، فاعتزلهم الخوارجُ إلَّا نفراً منهم من بنى تميم ، معهم عَبْسُ بن طَلَقٍ الصَّرِيمىُّ أخو كَهْمَسٍ ،

---

(١) كذا فى الأصل ، س ، وفى ر : « النميرى » . (٢) ر : « بحزج »
(٣) الأهواز : سبع كور بين البصرة وفارس .

يا صاحبيَّ ارتَحِلا ثم أملِسَا لا تَحْبِسَا لدَى الحُصَيْنِ مَحْبِسَا

إنَّ لدَى الأركانِ ناساً بُؤَّسَا

– [قال الأخفشُ : حِفْظِى « بأْساً أبْؤُسَا »] –

وبارقاتٍ يَخْتَلِسْنَ الأنْفُسَا إذا الفتى حَكَّم يومًا كَلَّسَا

قوله : « ثم أملِسَا » يريد : تَخَلَّصَا تخلُّصًا سهلا . وكَلَّسَ ، أى حَمَلَ وَجَدَّ

* * *

ولما سَمَّحَ ابنَ الزبير للخوارج فى القولِ وأظهر أنه منهم قال رجل قال له فلان بن هَمَّامٍ[1] ، مِن رَهْط الفرزْدَقِ :

يابنَ الزبير أتهْوَى عُصْبَةً قتَلوا ظلماً أباك ولَمَّا تُنْزَعِ الشُّكَكُ

ضَحَّوْا بعثمانَ يومَ النحرِ ضاحيةً ماأعْظَمَ الحرمةَ العُظْمى التى انتهَكوا !

فقال ابنُ الزبير : لو شايعتْنى التُّركُ والدَّيْلَمُ على قتال أهل الشأم لشايعْتها .

الشُّكَك : جمعُ شِكَّةٍ ، وهى السلاحُ ، قال الشاعر :

ومُدَجَّجاً يَسْعَى بِشِكَّتِهِ مُحْمَرَّةً عيناهُ كالكَلْبِ

* * *

فتفرقتِ الخوارجُ عن ابن الزبير لما تَولّى عثمانَ ، فصارت طائفة

(١) ر : « قيس بن همام » .

فى النار ، ورأى قتلهم ، وقال : الدارُ دارُ كفرٍ إلا مَنْ أظهر إيمانَه ، ولا يَحِلُّ أكل ذبائحهم[1] ، ولا تَنا كُحهمْ ، ولا توارُثهمْ ، ومتى جاء منهم جاء فعلينا أن نَمْتحِنَهُ . وهم كَكُفَّارِ العرب ، لا نقبلُ منهم إلّا الإسلامَ أو السيفَ . والقعَدُ بمنزلتِهم ، والتَّقِيَّةَ لا تَحِلُّ ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ إذا فريقٌ منهم يَخْشَوْنَ الناسَ كخشيةِ اللهِ أو أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾[2] ، وقال عزّ وَجلّ فيمن كان على خلافِهم : ﴿ يُجَاهِدُونَ فى سبيلِ اللهِ ولا يَخافونَ لَوْمَةَ لائمٍ ﴾[3] . فَنَفَرَ جماعةٌ من الخوارج عنه ، منهم نَجْدَةُ ابن عامرٍ ، واحتجَّ عليه بقول الله عز وجلّ : ﴿ إلّا أن تَتَّقُوا منهم تُقاةً ﴾[4] ، وبقوله عز وجل : ﴿ وقال رجلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إيمانَهُ ﴾[5] ، فالقعَدُ مِنَّا ، والجهادُ إذا أمكنَ أفضلُ ، لقوله جلّ وعزّ : ﴿ وفَضَّلَ اللهُ المجاهِدِينَ على القاعِدِينَ أجْراً عظيما ﴾[6]

ثم مضى نَجْدَةُ بأصحابه إلى اليمامة وتفرّقوا فى البُلدان .

فلما تَتَايَعَ[7] نافعٌ فى رأيه وخالَف أصحابَهُ ، وكان أبو طالوتَ سالمُ ابن مَطَرٍ بالخضارِمِ[8] فى جماعةٍ قد بايعوه ، فلما انخزل نَجدة خلَعوا أبا طالوتَ ، وصاروا إلى نجدةَ فبايَعُوهُ ، ولَقِيَ نجدةُ وأصحابُهُ قوماً من

---

(١) س : « لاتحل » .
(٢) سورة النساء ٧٧
(٣) سورة المائدة ٥٤
(٤) سورة آل عمران ٢٨
(٥) سورة غافر ٢٨
(٦) سورة النساء ٩٥
(٧) التتابع فى الشر : وهو التهافت عليه .
(٨) الخضارم : اسم واد باليمامة .

فإنهم أعانوا قومَهم ، فكان عبسُ الطعانِ فى سعدٍ ، والرِّبَابُ فى القلب بحذاء الأزدِ ، وكان حارثةُ بن بَدْرٍ اليربوعىُّ فى حَنْظلة بحذاء بَكرِ بن وائل ، وفى ذلك يقول حارثة بن بدرٍ للأحنفِ ، وهو صَخْرُ بن قيسٍ :

سيَكفيكَ عبسٌ أخو كَهْمسٍ   مُواقفَةَ الأزْدِ بالمِرْبَدِ

وتَكفيكَ عَمْرٌو على رِسْلِها   لُكَيزَ بن أفْصَى وما عَدَّدُوا

— لُكَيزٌ هو عبدُ القَيْسِ —

وَتَكفيكَ بَكْراً إذا أقبلت   بضربٍ يَشيبُ له الأمْرَد

فلما قُتل مسعودُ بن عَمْرو المَعْنِىُّ ، وتَكافَّ الناسُ ، أقام نافعُ بن الأزرق بموضِعِه بالأهوازِ ، ولم يَعُدْ إلى البصرة ، وطردوا عُمَّالَ السلطانِ عنها ، وجَبَوُا الفىْء .

[خروج نجدة بن عامر على نافع بن الأزرق ، والرسائل التى دارت بينهما]

ولم يزالوا على رأىٍ واحدٍ ، يَتوَلَّوْنَ أهلَ النهر ومِرْداساً ومن خرج معه ، حتى جاء مَوْلًى لبنى هاشمٍ إلى نافعٍ ، فقال له : إنَّ أطفالَ المشركين فى النارِ ، وإن مَن خالَفَنا مشركٌ ، فدماء هؤلاء الأطفالِ لنا حلالٌ ، قال له نافعٌ : كفرتَ وأحللت بنفسك[1] ، قال له : إن لم آتِكَ بهذا من كتاب الله فاقْتُلنى ، ﴿ قالَ نوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ على الأرضِ من الكافرينَ دَيَّارًا . إنَّكَ إنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ ولا يَلِدُوا إلاَّ فاجِراً كَفَّارًا ﴾[2] ، فهذا أمرُ الكافرين وأمرُ أطفالهم . فشهدَ نافعٌ أنهم جميعاً

---

(١) ر ، س « وأدللت » .   (٢) سورة نوح ٢٦ ، ٢٧

ورَسُولِ ﴾[١] . ثم سَمَّاهم أحسنَ الأسماء ، فقال : ﴿ ما عَلى المحْسِنِينَ من سَبِيلٍ ﴾[٢] . ثم استَحْلَلْتَ قتلَ الأطفالِ ، وقد نَهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلهم ، وقال اللهُ عز ذكره : ﴿ ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾[٣] وقال فى القعَدِ خيراً ، وَفضَّلَ اللهُ مَنْ جاهَدَ عليهم ، ولا يَدْفَعُ مَنْزِلةُ أكثر النَّاس عملاً منزلةَ مَنْ هو دُونَه ، أَوَمَا سمعتَ قولَه عز وجل : ﴿ لَا يَسْتَوِى القَاعِدُونَ من المؤمِنِينَ غيْرُ أُولِى الضَّرَرِ ﴾[٤] . فجعلهم اللهُ من المؤمنين ، وفَضَّلَ عليهم المجاهدين بأعمالهم ، ورأيتَ ألَّا تُؤَدِّىَ الأمانةَ إلى مَنْ خالفَك ، واللهُ يأمرُ أن تُؤَدَّى الأماناتُ إلى أهلها ، فاتقِ اللهَ وانظرْ لنفسك ، واتقِ يوماً ﴿ لا يَجْزِى والدٌ عن وَلَدِه ولا مَوْلُودٌ هو جَازٍ عن وَالِدِهِ شَيْئاً ﴾[٥] ، فإن الله عزَّ ذكرُه بالمِرْصَاد ، وحُكمُه العَدْلُ ، وقوله الفصلُ ، والسلامُ .

***

فكَتَبَ إليْهِ نافعٌ :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ ، فقد أتانى كتابُكَ تعِظُنِى فيه وتذَكِّرُنى ، وتَنْصَحُ لى وتَزْجُرُنِى ، وتَصِفُ ما كنتُ عليه من الحقِّ ، وما كنتُ أوثِرُه من الصوابِ ، وأنا أسأل اللهَ جلَّ وعزَّ أن يجعلني من

(١) سورة التوبة ٩١
(٢) سورة التوبة ٩١
(٣) سورة الأنعام ١٦٤
(٤) سورة النساء ٩٥
(٥) سورة لقمان ٣٣

الخوارج بالعَرِمَةِ[١] — والعَرِمَةُ كالسِّكر[٢]، وجمعُها عرِمٌ، وفى القرآن المجيدِ: ﴿ فأَرْسَلْنَا عليهم سَيْلَ العَرِمِ ﴾[٣]، وقال النابغة الجَعْدىُّ:

مِنْ سَبَأَ الحاضرِينَ مَأْرِبَ إذْ ... يَبْنُونَ من دُونِ سَيْلِهِ العَرِمَا

— فقال لهم أصحابُ نَجْدَةَ: إن نافعاً قد أكفر[٤] القَعَدَ ورأى الاستعراضَ، وقَتْلَ الأطفالِ، فانصرَفوا مع نجدةَ، فلما صار باليمامة كَتَبَ إلى نافع:

بسم الله الرحمن الرحيم، أمَّا بعدُ: فإن عَهْدِى بك وأنتَ لليتيم كالأبِ الرحيمِ، وللضعيفِ كالأخِ البَرِّ. لا تأخذُك فى اللهِ لومةُ لائمٍ، ولا ترى مَعونة ظالمٍ، كذلك كنتَ أنتَ وأصحابُك. أمَا تذْكُرُ قولَكَ: لولا أنِّى أعلم أنّ للإمام العادلِ مثلَ أجرِ جميع رعيَّتِه ما توليتُ أمر رجلين من المسلمين؟ فلما شَرَيْتَ نَفْسَك فى طاعة ربِّك ابتغاءَ رضوانه، وأصبتَ من الْحَقِّ فصَّهُ، وركبتَ مُرَّهُ، تجرَّدَ لك الشيطانُ، ولم يكن أحدٌ أثقلَ عليه وَطْأَةً منك ومن أصحابك، فاستمالَكَ واستهواكَ واستغواكَ وأغواكَ، فغَوَيْتَ فأكفرتُ الذين عذَرهم اللهُ فى كتابه من قَعَدِ المسلمين وضَعَفَتِهِمْ، فقال جل ثناؤُهُ، وقولهُ الحقُّ ووعْدُهُ الصِّدْقُ: ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ ولا عَلَى المَرْضَى ولا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إذا نَصَحُوا لِلَّهِ

---

(١) العرمة: أرض صلبة تتاخم الدهناء.
(٢) السكر، بكسر فسكون: اسم لما سد به فم النهر.
(٣) سورة سبأ ١٦
(٤) ر: «كفر».

الزُّبُرِ ﴾(1)، وهؤلاء كمُشرِكى العربِ، لا نَقبَلُ منهم جزية، وليس بيننا وبينهم إلاّ السيفُ أو الإسلامُ .

وأما استحلالُ أمانات مَنْ خالفَنا فإن اللهَ عز وجل أحَلَّ لنا أموالَهم، كما أحلَّ لنا دِمَاءهم، فدماؤهم حلالٌ طِلْق(2)، وأموالُهم فىءٌ للمسلمين . فاتَّقِ اللهَ ورَاجِعْ نفسك، فإنه لا عُذرَ لك إلّا بالتوبة، ولن يَسَعكَ خِذْلانُنَا، والقعودُ عنَّا، وتَرْكُ مَا نَهجْنَاه لك من طريقتِنا ومقالتِنا، والسلامُ على مَنْ أقرَّ بالحقِّ وعَمِلَ به .

[كتاب نافع إلى ابن الزبير]

وكَتَبَ نافعٌ إلى عبد الله بن الزُّبير يدعوه إلى أمرِه :

أمّا بعدُ، فإنى أحذِّرُكَ مِن اللهِ ﴿ يومَ تجِدُ كلُّ نفسٍ مَا عَمِلَتْ مِن خَيْرٍ مُحضَراً، ومَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ توَدُّ لوْ أنَّ بيْنَهَا وبيْنَهُ أمَداً بَعِيداً، ويُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ﴾(3)، فاتّقِ اللهَ ربَّكَ، ولا تتولَّ الظالمين، فإن اللهَ يقولُ : ﴿ لاَ يَتخِذِ المؤمنونَ الـكافرِينَ أوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المؤْمِنِينَ، ومَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِى شَىْءٍ ﴾(4)، وقد حَضَرْتَ عثمانَ يوم قُتِلَ، فلَعَمْرِى لـئِن كان قُتِلَ مظلومًا لقد كَفَرَ قاتِلوه وخاذِلوه، ولئن كان قاتِلوه مُهتَـدِينَ — وإنهم لمُهْتَدونَ — لقد كَفَرَ مَنْ يتولّاه وينصرُه ويَعضُدُه . ولقد علمتَ أن أباك وطلحةَ وعليًّا كانوا أشدَّ النّاسِ عليه،

---

(1) سورة القمر ٤٣

(2) الطلق : الحلال .

(3) سورة آل عمران ٣٠

(4) سور آل عمران ٢٨

الذين يستمعون القولَ فيتّبِعُونَ أحْسَنَهُ . وعِبْتَ عليَّ ما دِنْتُ بِهِ من إكفارِ القَعَدِ وقَتْلِ الأطفالِ واستحلال الأمانةِ ، فسأُفَسِّرُ لك لِمَ ذلك إن شاء الله :

أمّا هؤلاء القَعَدُ فليسوا كمَنْ ذَكَرْتَ ممن كان بعَهْدِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم كانوا بمكَّ مَقْهُورِينَ محصورين ، لا يجِدُون إلى الهَرَبِ سبيلاً ، ولا إلى الاتِّصال بالمسلمين طريقاً ، وهؤلاء قد فَقُهوا في الدِّين ، وقَرَءوا القرآنَ ، والطريقُ لهم نَهْجٌ واضحٌ ، وقد عرفتَ ما قال اللهُ عز وجل فيمن كان مِثْلَهم ، إذ قالوا : ﴿ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فى الأَرْضِ ﴾[1] ، فقيل لهم : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فتهاجَرُوا فِيها ﴾[2] . وقالَ : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ ﴾[3] وقال : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾[4] ، فَخَبَّرَ بتعذيرهم ، وأنهم كَذَبُوا اللهَ ورسولَهُ ، وقال : ﴿ سَيُصِيبُ الذين كَفَرُوا منهم عذابٌ أَلِيمٌ ﴾[5] . فانظُرْ إلى أسمائِهم وسِمَاتِهِمْ .

وأمّا أمْرُ الأطفالِ فإنَّ نبيَّ اللهِ نوحاً عليه السلامُ كان أعلمَ باللهِ — يا نَجْدَةُ — مِنِّى ومنكَ ، فقال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ على الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً . إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً ﴾[6] ، فسَمّاهم بالكُفْرِ وهم أطفالٌ ، وقبلَ أنْ يُولَدوا ، فكيفَ كانَ ذلك فى قوم نوحٍ ولا نكونُ نقولُه فى قومِنا ! واللهُ يقولُ : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خيرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ ، أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فى

---

(١) سورة النساء ٩٧ — (٢) سورة النساء ٩٧
(٣) سورة التوبة ٨١ — (٤) سورة التوبة ٩٠
(٥) سوره التوبة ٩٠ — (٦) سورة نوح ٢٦،٢٧

عذراً فى حال من الحالِ ، فقال : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وثِقالًا ﴾ [١] ! وإنما عَذرَ الضُّعفاءَ والمرْضى والذين لا يجدون ما يُنفقونَ ومَنْ كانت إقامتُه لِعلّةٍ ، ثُمَّ فضَّل عليهم مع ذلك المجاهدين ، فقال : ﴿ لا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ المؤمنينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ والمجاهِدُونَ فى سبيلِ اللهِ ﴾ [٢] ، فلا تَغترُّوا ولا تطمئنُّوا إلى الدنيا ، فإنها مرَّارة مكَّارةٌ ، لذَّتُها نافِدَةٌ ، ونِعْمَتُها بائدةٌ ، حُفَّتْ بالشَّهوات اغتراراً ، وأظهَرَتْ حَبْرَةً [٣] ، وأضمرتْ عَبْرَةً ، فليس آكلٌ منها أكلةً تَسُرُّه ، ولا شاربٌ شَرْبةً تُؤْنِقُهُ [٤] ، إلّا دَنَا بها درجةً إلى أجلِه ، وتباعَدَ بها مسافةً من أمَلِه ، وإنما جعلهَا اللهُ داراً لمن تَزَوَّدَ منها إلى النعيم المقيم ، والعيش السليم ، فلن يَرْضَى بها حازمٌ داراً ، ولا حليمٌ بها قراراً ، فاتقوا الله ﴿ وتَزَوَّدُا فإنَّ خَيْرَ الزَّادِ التقْوَى ﴾ [٥] ، والسلامُ على من اتَّبعَ الهـدَى .

* * *

فورَدَ كتابُه عليهم ، وفى القوم يومَئِذٍ أبو بَيْهَسٍ هَيْصَمُ بن جابرٍ الضُّبَعِىُّ ، وعبدُ الله بنِ إباضٍ المُرِّىُّ ، من بني مُرَّة بنَ عُبيدٍ . فأقبل أبو بَيْهَسٍ على ابن إباضٍ فقال : إن نافعاً غلاَ فكفرَ ، وإنك قصَّرْتَ فكفَرْتَ . تَزْعُمُ أنَّ مَن خالفنا ليس بمشركٍ ؛ وإنماهم كُفَّارُ النِّعَمِ ؛ لتمسُّكِهم بالكتابِ ، وإقرارِهم بالرَّسول . وتَزْعُمُ أنَّ مَنا كِحَهُمْ ومَوارِيثهم

---

(١) سورة التوبة ٤١
(٢) سورة النساء ٩٥
(٣) الحبرة : النعمة وسعة العيش .
(٤) تؤنقه : تعجبه
(٥) سورة البقرة ١٩٧

وكانوا فى أمره مِنْ بَيْنِ قاتلٍ وخاذِلٍ ، وأنت تتولى أباكَ وطلحةَ وعثمانَ ، فكيف[1] وَلَايةُ قاتلٍ مُتَعَمِّدٍ ومقتولٍ فى دينٍ واحدٍ ! ولقد مَلَكَ علىٌّ بعدَه فَنَفَى الشُّبُهاتِ ، وأقامَ الحدودَ ، وأَجْرَى الأحكامَ مجارِيَها ، وَأَعطى الأمورَ حقائِقَها ، فيما عليه وله ، فبايعه أبوك وطلحةُ ، ثُمَّ خَلَعاهُ ظالِمَيْنِ له . وإنَّ القولَ فيك وفيهما لَكَما قال ابنُ عباس : إنْ يكنْ علىٌّ فى وقتِ معصيتكم ومحارَبَتِكم له كان مؤمنا ، أَمَا لقد كفرتم بقتالِ المؤمنين وأئمةِ العدلِ ، ولئن كان كافراً كما زعمتم ، وفى الحُكمِ جائراً ، لقد بُؤْتُم بغضبٍ من الله لفِرارِكم من الزَّحْف . ولقد كنتَ له عدوًّا ، ولِسيرته عائباً ، فكيف تَوَلَّيْتَهُ بعدَ موتِه ! فاتقِ اللهَ فإنه يقولُ : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾[2] .

[كتاب نافع إلى المحكمة من أهل البصرة]

وكتب نافعٌ إلى مَنْ بالبَصْرَة من المُحَكِّمةِ :

بسم الله الرحمن الرحيم . أمّا بعدُ ، فإن الله اصطفَى لكمُ الدينَ فلا تموتُنَّ إلّا وأنتم مسلمون . واللهِ إنكم لتعلمونَ أن الشريعةَ واحدةٌ ، والدينَ واحدٌ ، ففيمَ المُقامُ بين أظهُرِ الكفّارِ ، ترَوْنَ الظلم ليلا ونهاراً ، وقد ندَبكم الله إلى الجهادِ فقال : ﴿ وقاتِلُوا المشركينَ كافّةً ﴾[3] ، ولم يجعل لكم فى التخلُّف

---

(١) ر : « وكيف » .

(٢) سورة المائدة ٥١

(٣) سورة التوبة ٣٦

وتصديقُ ذلك قولُ ابنِ عاصمٍ اللَّيثيِّ ، وكان يرَى رأْيَ الخوارجِ ، فترَكه وصار مُرْجِئاً :

فارقتُ نَجْدَةَ والذين تزَرَّقُوا ... وَابْنَ الزُّبَيْرِ وَشِيعَةَ الكَذَّابِ[1]

وَالصُّفْرَ الآذانِ الذين تخيَّرُوا ... دِيناً بلا ثِقةٍ ولا بكتاب

— خَفَّفَ الهمزة من « الآذانِ » ولولا ذلك لانكسرَ الشِّعْرُ —

وَقالَ أُبو بَيْهَسٍ : الدارُ دارُ كفرٍ ، والاستعراضُ فيها جائزٌ ، وإن أُصيبَ من الأطفال فلا حَرَجٌ .

إلى هاهنا انتهتِ المقالة .

[مقتل نافع بالأهواز]

وَتفرَّقتِ الخوارجُ على الأَضْرُبِ الأربعةِ التي ذكرنا ، وأقام نافع بالأهوازِ يعترضُ الناسَ ويَقتلُ الأطفال ، فإذا أُجيبَ إلى المقالةِ جَبَا الخراجَ ، وفَشَا عُمَّالهُ في السَّوادِ[2] ، فارتاعَ لذلك أهلُ البصرة ، فاجتمعوا إلى الأَحْنَفِ بن قَيْسٍ ، فشَكَوْا ذلك إليه ، وقالوا : ليس بيننا وبين العدوِّ إلّا ليلتان ، وسيرتُهمْ ما ترَى ، فقال الأحنفُ : إنَّ فعلَهم في مصرِكم — إنْ ظَفِرُوا به — كفعلِهمْ في سَوادِكم ، فَجِدُّوا في جهادِ عدوِّكم . فاجتمع إليه عشرةُ آلافٍ ، فأَتى عبدَ الله بنَ الحارث بن نَوفلِ بن الحارث بن

---

(١) يعني بالكذاب هنا المختار بن أبي عبيد الثقفي .

(٢) يريد بالسواد أرض العراق وضياعه .

والإقامة فيهم حِلٌّ طِلْقٌ[1] ؟ وأنا أقولُ : إن أعداءنا كأعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تَحِلُّ لنا الإقامةُ فيهم ، كما فعل المسلمون فى إقامتهم بمكة ، وأحكامُ المشركين تجْرِى فيهم[2] ، وأَزْعُمُ أَنَّ منا كِحَهم ومَوارِيثَهم تجوزُ لأنهم منافقونَ يُظهرون الإسلامَ ، وأنَّ حكمَهم عندَ الله حكمُ المشركين

فصاروا فى هذا الوقتِ على ثلاثةِ أقاويلَ : قولِ نافعٍ فى البَراءةِ والاستعراضِ واستحلال الأمانةِ وقتلِ الأطفالِ . وقولِ أبى بَيْهَسٍ الذى ذكرناه . وَقولِ عبد الله بن إباضٍ . وهو أقربُ الأقاويلِ إلى السُّنَّةِ من أقاويل الضُّلّالِ . والصُّفْرِيَّةُ والنَّجْدِيَّةُ فى ذلك الوقتِ يقولون بقولِ ابن إباضٍ . وقد قال ابنُ إباضٍ ما ذكرنا من مقالتِه .

وأنا أقول : إنَّ عَدُوَّنا كعدوِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنِّى لا أُحرِّمُ منا كحتَهم ومَوارِيثَهم ، لأن معهم التوحيدَ والإقرارَ بالكتابِ والرسولِ عليه السلام ، فأَرَى معهم دَعْوَةَ المسلمين تجمَعُهُمْ ، وَأَراهُمْ كُفّارًا لِلنِّعَمِ . وَقالَتْ الصُّفْرِيَّةُ أَلْيَنَ من هذا القول فى أَمْرِ القَعَدِ ، حتى صار عامَّتَهُمْ قَعَدًا ، وَاخْتَلَفُوا فيهم ، وقد ذكرنا ذلك فقال قوم : سُمُّوا صُفْرِيَّةَ ، لأنهم أصحابُ ابن صَفَّار ، وقال قومٌ : إنما سُمُّوا بصُفْرَةِ عَلَتْهُمْ ،

---

(١) طلق : حلال .
(٢) ر : «فيها» .

وادَّعى قتلَ نافعٍ سَلامَةُ الباهليُّ ، وقال : لمَّا قتلْتُه وكنتُ على بِرْذَوْنٍ وَرْدٍ[١] ، إذا برَجُلٍ على فرسٍ — وأنا واقفٌ فى خَمْسِ قَيْسٍ — يُنادِى : يا صاحبَ الوَرْدِ ! هَلُمَّ إلى المبارزة ، فوقفتُ فى خَمْسِ بنى تميمٍ ، فإذا به يَعْرِضُها علىَّ ، وجعلتُ أتنقَّلُ من خُمْسٍ إلى خُمْسٍ ، وليس يُزايِلُنى ، فصِرْتُ إلى رَحْلِى ، ثمَّ رَجَعْتُ ، فرآنى فدعانى إلى المبارزةِ ، فلما أكْثَرَ خَرَجْتُ إليْهِ فاختلفْنا ضَرْبتَيْنِ ، فضربتُه فصرعته ، فنزَلْتُ لِسلْبِهِ وَأَخْذِ رَأْسِهِ ، فَإِذَا امْرَأَةٌ قد رَأَتْنِى حين قتلتُ نافِعاً ، فخرجتْ لِتَثْأَرَ بِهِ ، فلم يَزَلِ الرَّبيعُ الأَجْذَمُ يقاتلهم نَيِّفاً وعشرين يَوْماً ، حتى قالَ يَوْماً : أنا مَقْتولٌ لاَ مَحَالَةَ ، قَالُوا : وكيف ؟ قَالَ : لأنِى رَأَيْتُ البارحةَ كأنَّ يَدِى التى أُصِيبَتْ بكابُلَ انحطَّتْ من السماء فاسْتَشْلَتْنِى ، فلما كان الغَدُ قَاتَلَ إلى الليل ، ثم غاداهُمْ فقتِلَ . فتدافعَ أهلُ البصرة الرايَةَ حتى خافوا العَطَبَ ، إذْ لم يكن لهم رئيسٌ ، ثم أجمعوا على الحجّاج بن بابٍ الحِمْيَرِىِّ فأباها ، فقيل له : ألاَ ترَى أنَّ رؤساءَ العرب بالحَضْرة ، وقد اختاروك من بينهم ! فقال : مَشْؤُومَةٌ ، ما يأخذها أحدٌ إلا قتِلَ ، ثم أخذها ، فلم يزِل يقاتِلُ الخوارجَ بدُولابَ ، والخوارجُ أعَدُّ بالآلاتِ والدُّروع والجواشِنِ[٢] ، فالْتَقَى الحجاجُ بن بابٍ وعِمْرانُ بن الحارثِ الرَّاسِبىُّ ،

---

(١) الورد : لون أحمر يضرب إلى صفرة حسنة فى كل شىء .

(٢) الجواشن : جمع جوشن ؛ وهو الدرع .

عبد المطّلب – وهو بَبَّةُ [1] – فسأله أن يُؤَمّرَ عليهم ، فاختار لهم ابنَ عُبَيْس [2]
ابن كُرَيْز ، وكان دَيِّناً شجاعاً ، فأَمَّره عليهم وشَيَّعهُ ، فلما نَفَذَ من جسْرِ
البصرةِ أقبلَ على الناس فقال : إنى ما خرجتُ لامْتِيَارِ [3] ، ذَهَبٍ ولا فضةٍ ،
وإنى لأحاربُ قوماً إن ظفرتُ بهم فما وراءهم إلّا سيوفُهم ورماحُهم ؛
فمن كان شأنه الجهادَ فلينْهَضْ ، وَمَنْ أَحَبَّ الحياةَ فليرجعْ . فرجَع نَفَرٌ
يسيرٌ ، ومضى الباقون معه ، فلما صاروا بدُولابَ [4] خرج إليهم نافعٌ . فاقتتلوا
قتالا شديداً ، حتى تكسَّرت الرماحُ ، وعُقِرَتِ الخيل ، وَكَثُرَتِ الجِرَاحُ ،
والقتلى [5] ، وتضاربوا بالسيوف والعَمَدِ ، فقُتِلَ فى المَعْرَكة ابنُ عُبَيْسٍ
ونافعُ بن الأزرق .

وكان ابْنُ عُبَيْسٍ قد تَقَدَّمَ إلى أصحابه فقال : إنْ أُصِبْتُ فأميرُكم
الرَّبيعُ بن عمرو الأَجْذَمُ الغَدانىُّ ، فلما أُصِيبَ ابْنُ عُبَيْس أَخَذَ الربيعُ
الرايةَ ، وكان نافعٌ قد استخلفَ عُبَيْدَ الله بن بَشِيرِ بن المَاحُوزِ السَّلِيطىَّ ،
فكان الرئيسان من بنى يربوع : رئيسُ المسلمين من بنى غُدَانَة بن يربوع ،
ورئيسُ الخوارج من بنى سَلِيط بن يربوعٍ ، فاقتتلوا قتالًا شديدًا .

---

(١) الببة فى الأصل : كثرة اللحم وتراكبه ، لقب به عبد الله بن الحارث ؛ وكانت أمه ترقصه وتقول :

لأُنكِحَنَّ بَبَّهْ جاريةً كالقُبَّهْ
مكرمَةً محبَّهْ تحب أهل الكعبَهْ

(٢) هو مسلم بن عبيس . (٣) الامتيار هنا : جلب الطعام .

(٤) دولاب : قرية بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ .

(٥) ر : « والقتلى » .

والهصرُ : الذى يَهْصِرُ كلَّ شىء ، أى يَثنيهِ ، قال امرؤ القيس :

فلمّا تنازعْنا الحديثَ وأسْمحتْ هصَرتُ بغُصْنٍ ذى شَماريخَ ميَّالِ

* * *

ولذكرنا الصُّفْريةَ والأزارقةَ والبَيْهسيَّةَ والإباضيَّةَ تفسيرٌ ، لِمَ نُسبَ إلى ابن الأزرق بالأزارقة ، وإلى أبى بَيْهَسٍ بالكُنْيةِ المضافِ إليها ، ونُسبَ إلى صُفْر ولم يُنْسَبْ إلى واحِدِهم ، ونُسِبَ إلى ابن إباضٍ فجُعِلَ النسبُ إلى أبيه ؟ وهذا نذكره بعد باب « فَعَلٍ » .

[لقطرى فى يوم دولاب]

قال أبو العباس : ومما قيلَ من الشعر فى يوم دُولابَ قولُ قطرىٍّ :

لَعَمْرُكَ إنى فى الحياةِ لزَاهدٌ وفى العَيْشِ ما لم ألْقَ أمَّ حَكيمِ[1]

مِن الخَفِراتِ البيضِ لم يُرَ مثلُها شِفاءٌ لِذى بَثٍّ ولا لِسَقيمِ

لَعَمْرُكَ إنى يومَ ألْطِمُ وَجْهَها على نائباتِ الدَّهر جِدُّ لئيمِ

ولو شَهِدَتْنى يومَ دُولابَ أبصرَتْ طِعانَ فتًى فى الحربِ غيرَ ذَميمِ

غداةَ طَفَتْ عَلْماءِ بَكْرُ بنُ وائلٍ وعُجْنا صُدورَ الخيلِ نحوَ تميمِ

(١) أم حكيم امرأة من الخوارج كانت مع قطرىّ ، وكانت من أجمل النساء وجها ، وأحسنهم بدينهم تمسكا . كانت تحمل على الناس وترجز :

أحْمِلُ رأسًا قدْ سئِمتُ حَمْلَهُ وقدْ مَلِلتُ دَهْنَهُ وَغَسْلَهُ

ألاَ فتًى يَحْمِلُ عَنِّى ثِقْلَهُ !

وذلك بعد أن اقتتلوا زُهاءَ شهرٍ ، فاختلفا ضربتين ، فسقطا ميتين ، فقالت أمُّ عِمرانَ ترثيه :

اللهُ أيَّدَ عِمْرَاناً وطَهَّرَهُ   وكان عِمرانُ يدعُو اللهَ فى السَّحَرِ
يَدعوه سِرًّا وإعلاناً لِيَرزُقَهُ   شَهادةً بيدَىْ مِلْحَادَةٍ غُدَرِ
وَلَّى صَحابتُهُ عن حَرِّ مَلْحَمةٍ   وشدَّ عمرانُ كالضِّرْغامةِ الهصِرِ

* * *

قولُ الرَّبيع : « اُسْتَشْلَتْنِى » ، أى أخذَتْنى إليها واستنقذتنى . يقال : اُسْتَشْلَاه واشْتَلَاه . وفى الحديث « إن السارقَ إذا قُطعَ سبقتْهُ يدُه إلى النارْ ، فإن تاب اُسْتَشْلَاهَا » ، قال رُؤْبَة :

* إنَّ سليمانَ اُشْتَلَانَا ابنَ عَلِى *

وقولُ الناسِ : « أَشْلَيْتُ كَلْبِى » أى أغريتُهُ بالصيد ، خَطأٌ ، إنَّما يقال : آسَدتُه وأَشْلَيتُهُ : دعوتُهُ .

وقولُها : « بيَدَىْ مِلْحَادَةٍ » « مِفْعَالَةٌ » من الإلْحَادِ ، كما تقول : رجل مِعطاءٌ يا فتى ، ومِحسانٌ ، ومِكْرامٌ ، وأُدْخِلَتِ الهاءُ للمبالغة ، كما تَدْخلُ فى رَاويةٍ وعَلَّامَةٍ ونَسَّابةٍ .

« وغُدُر » « فُعَلٌ » من الغَدْرِ ، ولـ « فعل » بابٌ نذكره فى عقبِ هذه القصة ، إذا فرغنا من خبرِ هذه الوقعةِ .

والضِّرْغَامةُ : من أسماء الأسد .

واللام عليه ، لأنه معرفةٌ ، فلا معنى لتعريفٍ آخرَ فيه ، فذلك غيرُ منصرفٍ ، نحو فرْعونَ وقارُونَ ، وكذلك إسحاق وإبراهيمُ ويَعْقُوب .

وقوله :

* غَدَاةَ طَفَتْ عَلْمَاءِ بَكْرُ بنُ وائلٍ *

وهو يريدُ عَلى الماءِ ، فإن العربَ إذا الْتَقَتْ فى مثل هذا الموضع لامَانِ استجازُوا حذفَ إحداهما استثقالاً للتضعيف ، يقولون « عَلْماءِ بَنُو فلان » كما قال :

وما سُبِقَ القَيْسِيُّ مِنْ ضُعْفِ حِيلَةٍ ولكنْ طَفتْ عَلْماءِ قُلْفَةُ خالِدِ

وكذلك كلُّ اسمٍ من أسماءِ القبائل تظهرُ فيه لامُ المعرفةِ فإنهم يُجيزون معه حذفَ النونِ التى فى قولك « بَنُو » لِقرْبِ مَخرَجِ النون من اللَّامِ ، وذلك قولك : فلانٌ من « بَلْحارِثِ » و « بَلْعَنْبرِ » و « بَلْهجَيْمِ » .

وقال آخرُ من الخوارجِ :

يَرَى مَنْ جاءَ يَنْظُرُ مِن دُجَيْل شُيوخَ الأَزْدِ طافِيةً لِحاهَا(١)

وقال رجلٌ منهم :

شَمِتَ ابنُ بَدْرٍ والحوادثُ جَمَّةٌ والجائرُونَ بِنافِعِ بن الأزْرَقِ
والموتُ حَتْمٌ لا مَحالَةَ واقِعٌ مَنْ لا يُصَبِّحُهُ نَهاراً يَطْرُقِ

---

(١) دجيل : نهر بالأهواز .

وكان لِعبدِ القَيسِ أولُ جدِّها ... وأخلافُها مِن يحْصُبٍ وسَليمِ [1]

وظَلَّتْ شُيوخُ الأزْدِ في حَوْمةِ الوَغى ... تَعُومُ وظِلْنَا في الجِلادِ نَعُومُ [2]

فلم أرَ يومًا كان أكثرَ مُقْعَصًا ... يَمُجُّ دمًا من فائظٍ وكليمِ [3]

وضاربةٍ خدًّا كريمًا على فتًى ... أغرَّ نجيبِ الأُمَّهاتِ كريمِ

أُصيبَ بدُولابٍ ولم تكُ مَوْطِنًا ... له أرضُ دُولابٍ ودَيْرُ حَميمِ [4]

فلو شَهِدَتْنا يومَ ذاكَ وخَيْلُنا ... تُبيحُ من الكُفَّارِ كلَّ حَريمِ

رأتْ فِتْيَةً باعُوا الإلهَ نفوسَهم ... بجَنَّاتِ عَدْنٍ عنـــدَه ونَعيمِ

قوله : « ولو شهِدَتْنا يومَ دُولابَ » فلم يَنصرفْ « دُولابُ » فإنما ذاكَ لأنه أرادَ البَلْدَةَ ، ودُولابُ : أعجميٌّ ، مُعَرَّبٌ . وكلُّ ما كان من الأسماءِ الأعجميةِ نكرةً بغيرِ الألفِ واللامِ ، فإذا دَخلَتْه الألفُ واللامُ فقد صار مُعَربًا ، وصار على قياسِ الأسماءِ العربيةِ ، لا يمنعه من الصرفِ إلَّا ما يمنعُ العربيَّ ، فدولابُ ، « فُوعالٌ » مثلُ طُومارٍ وسولافٍ . وكلُّ شيءٍ لا يَخُصُّ واحدًا من الجنسِ من غيرِه فهو نكرةٌ ، نحوُ رجلٍ ، لأن هذا الاسمَ يَلحقُ كلَّ ما كان على بِنْيَتِه ، وكذلك جَمَلٌ وجَبَلٌ وما أشبه ذلك . فإن وقع الاسمُ في كلامِ العجمِ معرفةً فلا سبيلَ إلى إدخالِ الألفِ

---

(١) يحصب بن مالك بن حمير ؛ وسليم بن منصور ، من قيس عيلان ، وأصله مصغر وكبر للوزن . (٢) في البيت إقواء .

(٣) المقعص : المطعون . والفائظ ، من قولهم : فاظ الرجل إذا مات .

(٤) دير حميم : موضع بالأهواز .

هـذا باب « فُعَل »

اِعلم أن كلَّ أسمٍ على مثالِ « فُعَل » فهو مصروفٌ فى المعرفة والنكرةِ إذا كان أسماً أصليًّا أو نعتاً ، فالأسماء ، نحوُ ، صُرَدٍ ونُغَرٍ وجُعَلٍ ، وكذلك إن كان جَمْعاً ، نحو : ظُلَمٍ وغُرَفٍ .. وإن سَمَّيْتَ بشىء من هذا رجلا انصرفَ فى المعرفة والنكرةِ . وأما النَّعْتُ فنحوُ رجلِ حُطَمٍ ، كما قال :

* قد لَفَّهَا الَّليلُ بسَوَّاقٍ حُطَمْ *

وكذلك مالٌ لُبَدٌ ، وهو الكَثِيرُ ، من قوله جلَّ جلالُه : ﴿ أَهْلَكْتُ مَالا لُبَدًا ﴾[1] .

فإن كان الاسمُ على « فُعَلَ » مَعْدُولا عن « فَاعِلٍ » لم ينصرفْ إذا كان اسمَ رجلٍ فى المعرفة ، وينصرفُ فى النكرةِ ، وذلك نحوُ : عُمَرَ وقُثَمَ ، لأنه معدولٌ عن عامرٍ ، وهو الاسمُ الجارِى على الفعل ، فهذا ممَّا معرفتُه قبل نَكِرَته ، فإذا أُريدَ به مَذهبُ المعرفة جاز أن تَبنيَه فى النداء من كل فِعْلٍ ، لأن المنادَى مُشَارٌ إليه ، وذلك قولُك : يا فُسَقُ ، ويا خُبَثُ ، تريدُ : يا فاسقُ ويا خبيثُ .

وإنما قالت : « بِيَدَىْ مِلْحَادَةٍ غُدَرٍ » فى غير النداء للضرورةِ ، فنقلتَهْ

---

(١) سورة البلد ٦

فلَـئِن أميرَ المؤمنينَ أَصابَهُ ... رَيْبُ المنونِ فَمَن يُصِبْهُ يَغلَقِ

نَصَبَ بعدَ « إنْ » لأنَّ حرفَ الجزاء للفعلِ ، فإنما أرادَ : فلَـئن أصابَ أميرَ المؤمنين ، فلما حذَف هذا الفعلَ وأضمرَ ذَكَرَ « أصابَه » . ليَدُلَّ عليه ، ومثلُه قولُ النَّمِرِ بن تَوْلَبٍ :

لا تَجْزَعِى إنْ مُنفِساً أَهْلَكتُه ... وإذا هَلَكْتُ فعندَ ذلكِ فَاجْزَعِى

وقال ذو الرُّمَّةِ :

إذا ابنَ أَبِى مُوسَى بلالاً بَلَغْتِهِ ... فقامَ بفأسٍ بين وِصْلَيكَ جازِرُ[1]

لأنَّ « إذا » لا يليها إلّا الفعلُ ، وهى به أولَى .

---

(١) الوصل : واحد الأوصال ؛ وهى المفاصل .

هذا باب النسب إلى المضاف

[النسب إلى العلم المضاف]

اِعلمْ أنك إذا نَسبْتَ إلى عَلَمٍ مضافٍ فالوجهُ أن تَنْسُبَ إلى الاسم الأول ، وذلك قولُك فى عَبْدِ القَيْسِ : عَبْدِىٌّ ، وكذلك فى عبد الله بن دَارِمٍ ، فإن كان الاسمُ الثانى أشْهَرَ من الأول جاز النَّسَبُ إليه ، لئلا يَقَعَ فى النَّسب التباسٌ من اسمٍ باسمٍ ، وذلك قولُك فى النَّسبِ إلى عَبْدِ مَنَافٍ مَنافِىٌّ ، وإلى أبى بَكْرِ بن كلابٍ بَكْرِىٌّ .

وقد يجوزُ ، وهو قليلٌ ، أن تَبْنِىَ له من الاسمين اسماً على مثال الأربعة لِيَنْتَظِمَ النَّسَبُ ، وذلك قولك فى النسب إلى عبدِ الدار ابن قُصَىٍّ عَبْدَرِىٌّ ، وفى النسب إلى عبد القَيْسِ عَبْقَسِىٌّ .

[النسب إلى المضاف غير العلم]

فإن كان المضافُ غير عَلَمٍ فالنَّسبُ إلى الثانى على كل حالٍ ، وذلك قولُك فى النسب إلى ابن الزُّبير زُبَيْرِىٌّ ، لأن ابنَ الزبير إنما صارَ معرفةً بالزُّبير ، وكذلك النَّسبُ إلى ابن رَأْلانَ رَأْلانِىٌّ ، فلذلك قالوا فى النَّسب إلى ابن الأَزْرَقِ أَزْرَقِىٌّ ، وإلى أبى بَيْهَسٍ ، بَيْهَسِىٌّ .

معرفةً من النداءِ ، ثم جعلتَه نكرة لخروجه عن الإشارةِ ، فنعتَّ به « مِلْحادَةَ » كما قال الحُطَيْئة :

أُجَوِّلُ ما أُجَوِّلُ ثم آوِى   إلى بيتٍ قَعِيدَتُه لَكَاعِ

وهذا لا يقعُ إلّا فى النداءِ ، ولكنْ للشاعرِ نقلُه نكرةً ونقلُه معرفةً على حدِّ ما كان له فى النداء . فيُلْحَق قولُها « غُدَرٌ » بقوله : رجلٌ حُطَمٌ ، ومالٌ لُبَدٌ ، وما أشبَهه . و « فَعَالِ » فى المؤنثِ بمنزلة « فُعَل » فى المذكرِ ، ولو سميتَ رجلا « حُطَماً » لصرَفْتَهُ ، من قولِك : هذا سائقٌ حُطَمٌ ، لأنه قد وقع نكرة غيرَ معدولٍ ، فهو فى النعوت بمنزلة « صُرَدٍ » فى الأسماء .

إِلْيَاسِينَ ﴾(١) ، فإنما يريد إِلْيَاس عليه السلامُ ومَنْ كان على دِينِهِ ، كما قال :

* قَدْنِيَ من نَصْرِ الخُبَيْبِينَ قَدِ *

يريدُ أبَا خُبَيْبٍ ومن معه .

وقد يجتمعُ الرجل مع الرجل فى التثنية إذا كان مَجازهما واحداً فى أكثر الأمر على لفظ أحدِهما ، فمن ذلك قولهم : « العُمَرَانِ » لأبى بكرٍ وعمَرَ رضى الله عنهما ، ومن ذلك قولهم : « الخُبَيْبَانِ » لعبد الله ومُصْعَبٍ ، وقد مضى تفسيرُه .

(١) سورة الصافات ١٣٠

[النسب إلى الجماعة]

فأما قولهم : « صُفْرِىٌّ » فإنما أرادوا الصُّفْرَ الألوان ، فنَسَبُوا إلى الجماعةِ ، وحَقُّ الجماعةِ إذا نُسِبَ إليها أن يَقَعَ النسبُ إلى واحدِها ، كقولك : مُهَلَّبىٌّ ، ومِسْمَعِىٌّ ، ولكن جعلوا « صُفْرًا » اسماً للجماعة ، ثم نسبوا إليه ، ولم يقولوا : أَصْفَرِىّ ، فيُنْسَبُ إلى وحدِهَا ، وإنما كان ذلك لأنهم جعلوا الصُّفْرَ اسماً للجماعة ، كما تُسَمَّى القَبيلةُ بالاسمِ الواحدِ ، ألاَ ترَى أن النسبِ إلى الأنصار ، أنْصَارىٌّ لأنه كان علماً للقبيلةِ وكذلك مَدَائِنِىّ . وتقولُ فى النسبِ إلى الأبْناء من بنى سَعْدٍ أبْناوىّ ، لأنه اسمٌ للجماعة .

فأما قولهم : « الأَزَارِقَة » ، فهذا بابٌ من النَّسَبِ آخرُ ، وهو أن يُسَمَّى كلُّ واحدٍ منهم باسمِ الأبِ ، إذا كانوا إليه يُنْسَبُونَ ، ونظيرُه المهالِبَةُ ، والمَسَامِعَةُ ، والمَنَاذِرَةُ . ويقولون : جاءنى النُّمَيْرُونَ والأَشْعَرُونَ جَعَلَ كلَّ واحدٍ منهم نُمَيْرًا وأشْعَرَ ، فهذا يَتَّصِلُ فى القبائل ، على ما ذكرتُ لك .

وقد تُنْسَبُ الجماعةُ إلى الواحدِ على رأىٍ أو دينٍ ، فيكونُ له مثلُ نَسَبِ الولادةِ ، كما قالوا أَزْرَقِىٌّ ، لمن كان على رأى ابن الأَزْرَقِ ، كما تقول تميمى وقيسىٌّ لمن وَلده تَميمٌ وقَيْسٌ ، ومن قرأ : ﴿ سَلَامٌ عَلَى

فرجَعَ فأقام بالبصرة ، ووَلّى أخاه عثمانَ محاربةَ الازارِقةِ ، فخرج إليهم في اثنى عشَرَ ألفاً ، ولقيه حارثةُ فيمن كان معه ، وعبيدُ اللهِ بن الماحُوز في الخوارج بسُوق الأهْواز ، فلمَّا عبَرُوا إليهم دُجَيْلاً نهضَ إليهم الخوارجُ ، وذلك قُبَيْلَ الظُّهْر ، فقال عثمانُ بن عُبيد الله لحارثةَ بن بَدْرٍ : أمَّا الخوارجُ إلاَّ ما أَرى ! فقال له حارثةُ : حَسْبُكَ بهؤلاءِ ! فقال : لا جَرَمَ ، واللهِ لا أَتَغدَّى حتى أُناجِزَهم ! فقال له حارثةُ : إنَّ هؤلاءِ لا يُقاتَلُونَ بالتَّعَسُّفِ ، فأَبْقِ على نفسِك وجُنْدِكَ ، فقال : أَبَيْتُمْ يا[1] أهل العراق إلاَّ جُبْنًا ! وأنتَ يا حارثةُ ، ما عِلْمُكَ بالحرب ؟ أنتَ واللهِ بغيرِ هذا أَعْلَمُ ! يُعَرِّضُ له بالشرابِ . فغضِبَ حارثةُ فاعتزلَ ، وحارَبَهم عثمانُ يومَه إلى أنْ غابت الشمسُ ، فأَجْلَتِ الحربُ عنه قتيلاً ، وانهزَمَ الناسُ ، وأخذَ حارثةُ الرايةَ ، وصاحَ بالناسِ : أنا حارثةُ بن بدرٍ ، فثاب إليه قومُهُ ، فعبَرَ بهم دُجَيْلا ، وبَلَغَ قَتْلُ عثمانَ البصرةَ ، وخاف الناسُ الخوارجَ خوفاً شديداً .

وعَزَلَ ابن الزُّبير عُمَرَ بنَ عبيد الله ، ووَلّى الحارثَ بنَ عبدِ الله بن أبي رَبيعةَ ، المعروفَ بالقُباعِ ، أحدَ بنى مَخزومٍ ، وهو أخو عُمَرَ بن عبد الله بن أبي ربيعةَ المخزوميِّ الشاعر ، فقدِمَ البصرةَ ، فكتَبَ إليه حارثةُ ابن بدرٍ يسألُه الولايةَ والمَدَدَ ، فأراد توليتَه[2] ، فقال له رجلٌ من بَكْرِ

---

(١) ر : « أهل العراق » ؛ بحذف النداء .
(٢) ر : « أن يوليه » .

عادَ القولُ فى الخوارج

قال : والأزارقةُ لا تُكَفِّرُ أحداً من أهل مقالتِها فى دار الهِجْرَةِ إلاّ القاتِلَ رجلا مسلماً ، فإنهم يقولون : المسلمُ حجةُ الله ، والقاتِلُ قَصَدَ لِقَطْعِ الحجةِ .

[الأزارقة وولاة البصرة]

ويُرْوَى أن نافعاً مَرَّ بمالكِ بنِ مِسْمَعٍ فى الحرب التى كانت بين الأَزْدِ ورَبيعةَ وبنى تميمٍ ، ونافعٌ مُتَقَلِّدٌ سيفاً ، فقام إليه مالكٌ فضربَ بيدِه إلى حِمالة سيفِه وقال : أَلاَ تنصرنا فى حربنا هذه ! فقال : لا يَحِلُّ لِى ، قال : فما بالُ مُؤْمِنِى بنى تميمٍ يَنصرون كُفّارَهم فى هذه الحرب ! فأمْسَكَ عنه ، وخَرج بعدَ ذلك بأيامٍ إلى الأهوازِ ، فلمَّا قُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِمَّنْ بِنَجازَرَ من الخوارِج فى أيامِ ابن الماحُوزِ كَرِهَ بَبَّةُ القتالَ ، وأقام حارثةَ بن بَدْرٍ الغُدَانِىُّ بإزاء الخوارج ، يناوِشُهم على غير ولايةٍ ، وكان يقولُ : ما عُذْرُنا عندَ إخواننا من أهل البصرة إنْ وَصَل إليهم الخوارجُ ونحن دونهم ! فكتب أهلُ البصرة إلى ابن الزُّبير يخبرونه بقُعُود بَبَّةَ ، ويسألُونَه أن يُوَلّىَ والياً ، فكتبَ إلى أنسِ بن مالكٍ أن يُصَلِّىَ بالناس ، فصلَّى بهم أربعين يومًا ، وكَتب إلى عمرَ بن عُبَيْدِ الله بن مَعْمَرٍ فولاّه البصرةَ ، فلقيَه الكِتابُ وهو يريد الحجَّ ، وهو فى بعضِ الطريقِ ،

أَرْعِدْ وَأَبْرِقْ يا يَزِيـــد فما وَعِيدُكَ لِى بضائرْ

وزعمَ أن هـذا البيتَ الذى يُرْوَى لمُهَلْهِلٍ ، مصنوعٌ مُحْدَثٌ ، وهو قولُه :

أَنبَضُوا مَعْجِسَ القِسِى وأَبْرَقْـــنا كما تُرْعِدُ الفحُولُ الفحولا[1]

وأنه لا يُقالُ إلّا « رَعَـد وبَرَقَ » إذا أَوْعَد وَتَهَدَّدَ ، وهو « يَرْعُدُ وَيَبْرُقُ » وكذا يُقالُ : رعَدَتِ السماء وبرَقَتْ ، وأَرْعَدْنا نحن وأَبْرَقْنا ، إذا دَخَلْنا فى الرَّعْدِ والبَرْقِ ، قال الشاعرُ :

* فقلْ لأبى قابوسَ ما شِئْتَ فارْعُدِ *

ورَوَى غيرُ الأصمعى « أرْعَدَ وأَبْرَقَ » على ضُعْفٍ .

وقوله : « والبَرْقُ اليمانىُّ خوَّان » ، يريد والبرقُ اليمانىُّ يخونُ . وأجودُ النَّسَبِ إلى اليمنِ « يَمَنِىٌّ » ويجوزُ « يمَان » بتخفيف الياء ، وهو حَسَنٌ ، وهو فى أكثر الكلامِ ، تكونُ الألِفُ عِوَضاً من إحدى الياءَين ، ويجوزُ « يَمَانىٌّ » فاعلم ، تكونُ الألِفُ زائدةً وتُشدَّدُ الياء ، قال العبَّاسُ بن عبد المُطَّلِبِ :

ضَرَبْنَاهُمُ ضَرْبَ الأَحَامِسِ غُدْوَةً بكلِّ يَمَانىٍّ إذا هُزَّ صَمَّما[2]

---

(١) الإنباض : جذب الوتر ليرن ، ومعجس القوس : مقبضها ، أو موضع السهم منها .

(٢) الأحامس : جمع أحمس ؛ وهو الشديد الصلب فى الدين والقتال .

ابن وائلٍ : إن حارثةَ ليسَ بِذاكَ ، إنما هو رجلٌ شَرابٌ[1] ، وفيه يقولُ رجلٌ من قومِه[2] :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ حارثةَ بنَ بَدْرٍ يُصَلِّي وهو أَكفرُ من حِمَارِ
أَلم تَرَ أنَّ لِلفِتيانِ حظًا وحَظَّكَ فى البَغايا والقِمَارِ

فكتب إليه القُباعُ : تكفيني[3] حَرْبَهم إن شاء الله .
فأقام حارثةُ يدافِعُهم .

فقال شاعرٌ من بني تَميمٍ يَذْكر عثمانَ بن عُبيد الله بن مَعْمَرٍ ومُسْلِمَ ابن عُبَيْسٍ وحارثةَ بن بدرٍ :

مضَى ابنُ عُبَيْسٍ صابرًا غيرَ عاجزٍ وأعْقبَنَا هـذا الحجازىُّ عثمانُ
فأرْعَدَ مِنْ قبلِ اللقاءِ ابنُ مَعْمَرٍ وأبْرَقَ والبَرْقُ اليمانِىُّ خَوَّانُ
فَضَحْتَ قُرَيْشًا غَثَّها وسَمينَها وقِيلَ بنو تَيْمِ بنُ مُرَّةَ عُزْلانُ[4]
فلولا ابنُ بدرٍ للعِرَاقَيْنِ لم يَقُمْ بما قام فيه للعِرَاقَيْنِ إنسانُ
إذا قيلَ مَنْ حَامِى الحقيقةِ أوْمَأَتْ إليه مَعَدٌّ بالأُنوفِ وقَحْطانُ

* * *

قوله : « فأرْعَدَ » ، زعمَ الأصمعىُّ أنه خَطَأ ، وأن الكُمَيْتَ أخطأ فى قوله :

(١) ر : « صاحب » .
(٢) ر : « تكفى » .
(٣) نسبه المرصفى إلى علقمة بن عبد المازنى .
(٤) عزلان : جمع أعزل ؛ وهو من لا سلاح معه .

البصريون فى السُّفن ، وعلى الدوابّ ورَجّالة . فاسْوَدَّت بهم الأرضُ ، فقال الزبيرُ لمَّا رآهم : أَبَى قومُنا إلّا كُفراً ، فقطع[1] الجسرَ ، وأقام الخوارجُ بالفرات بإزائهم ، واجتمعَ الناسُ عند القُبابَع ، وخافوا الخوارجَ خوفاً شديداً ، وكانوا ثلاثَ فِرَق ، فَسَمَّى قومٌ المهلّبَ ، وسَمَّى قومٌ مالكَ بنَ مِسْمَع ، وسَمَّى قومٌ زيادَ بن عمرو بن الأشرف العَتَكىَّ ، فصرفهم ، ثم اختبَر ما عندَ مالكٍ وزيادٍ ، فوجدَهما مُتَثاقِلَيْنِ عن ذلك[2] ، وعاد إليه مَنْ أشار بهما وقالوا : قد رَجَعْنَا عن رأينا ، ما نَرَى لها إلّا المُهَلَّبَ ، فوَجَّه الحارثُ إليه فأتاه ، فقال له : يا أبا سعيدٍ ، قد تَرَى ما رَهِقَنَا[3] من هذا العدوّ ، وقد اجتمعَ أهلُ مِصْرِكَ عليك . وقال الأحنفُ : يا أبا سعيد ، إنَّا والله ما آثرناك بها ولكنَّا لم نَرَ مَنْ يقومُ مَقامَك . فقال الحارثُ — وأَوْمأَ إلى الأحنفِ — إن هذا الشيخَ لم يُسَمِّكَ إلّا إيثاراً للدِّين ، وكلُّ مَنْ فى مِصْرِكَ مادٌّ عَيْنَهُ إليك ، راجٍ أن يَكشفَ اللهُ عز وجل هذه الغُمَّةَ بك ، فقال المهلَّبُ : لا حولَ ولا قوةَ إلّا بالله ، إنِّى عندَ نفسى لَدُونَ ما وَصَفْتُمْ ، ولستُ آبياً ما دَعَوْتُمُ[4] إليه ، على شُروطٍ أَشترطُها . قال الأحنفُ : قُلْ ، قال : على أنْ أنتخبَ مَنْ أحببتُ ، قال : ذاكَ لكَ ، قال : وَلِىَ إِمْرَةُ كلِّ بلدٍ أَغْلِبُ عليه ، قال : وذاكَ لكَ ، قال : وَلِى فَىْءُ كل بلد أَظْفَرُ به .

---

(١) ر : « فقطعوا » .

(٢) ر : « عن ذاك » .

(٣) رهقنا : أتعبنا .

(٤) س : « بما دعوتم » .

[تولية المهلب لقتال الخوارج وأخباره معهم]

ثم إنّ حارثةَ لمّا تفرّق الناسُ عنه أقام بنهر تِيرَى ، فعبَرَتْ إليه الخوارجُ ، فهربَ وأصحابَه يرْكُضُ ، حتى أتى دُجَيْلاَ ، فجلس فى سفينةٍ ، واتّبعه جماعةٌ من أصحابه ، فكانوا معه ، وأتاه رجلٌ من بنى تميمٍ وعليه سلاحُه ، والخوارجُ وراءه وقد توَسَّطَ حارثةُ ، فصاح به : يا حارث ، ليس مثلى ضُيِّعَ ، فقال للملّاح : قرِّبْ . فقرَّبَ إلى جُرُفٍ ، ولا فُرْضَةَ هناك[1] .

فطَفَرَ بسلاحه فى السفينة ، فساخَتْ بالقوم جميعاً . وأقام ابنُ الماحُوز يَجْبى كُوَرَ الأهوازِ ثلاثةَ أشهرٍ ، ثم وَجَّهَ الزُّبَيْرَ بن علىٍّ نحوَ البصرة ، فضجَّ الناسُ إلى الأحنفِ ، فأتى القُباعَ فقال : أصلح اللهُ الأميرَ ! إن هذا العدوَّ قد غَلَبنا على سَوادِنا وفَيْئِنا ، فلم يَبْقَ إلّا أن يحْصُرَنا فى بلدنا حتى نموتَ هَزْلاً ، قال : فسَمُّوا رَجلاً ، فقال الأحنفُ : الرأىُ لا يُخيل[2] ، ما أرى لها إلا المُهَلَّبَ بن أبى صُفْرَةَ ، فقال : أوَ هذا رأىُ جميعِ أهلِ البصرة ! اجتمعوا إلىَّ فى غَدٍ ، وجاء الزبيرُ حتى نزل الفُراتَ ، وعَقَدَ الجسْرَ ليَعْبُرَ إلى ناحيةِ البصرةِ ، فخرج أكثرُ أهلِ البصرةِ إليه .

وقد اجتمع للخوارج أهلُ الأهوازِ وكُوَرِها ، رغبةً ورَهْبَةً ، فأتاه

(١) الجرف : ما أكله السيل من أسفل شق الوادى والنهر . والفرضة : ثلمة فى النهر يستقى منها .

(٢) طفر : وثب .

(٣) لا يخيل : لا يشتبه .

وشَغَلُوهم ، حتى عَقَدَ المهلّبُ الجِسْرَ ، وَعَبَرَ والخوارجُ منهزمون ، فَنَهَى الناسَ عن اتّباعهم . ففي ذلك يقول شاعرٌ من الأزْدِ :

إنَّ العراقَ وأهلَهُ لم يَخْبُرُوا مثلَ المُهَلّبِ فى الحروب فَسَلَّمُوا

أَمْضَى وَأَيْمَنَ فى اللقاء نَقِيبَةً وَأَقَلَّ تَهليلاً إذا ما أَحْجَمُوا

التهليلُ : التكذيبُ[1] والانهزام .

وأَبْلَى مع المغيرة يومئذٍ عَطِيَّةُ بن عَمْرٍو العَنْبَرِىُّ ، وكان من فُرْسان بنى تميمٍ وشجعانهم ، فقال عطيةُ :

يُدْعَى رجالٌ للعطاءِ وإنما يُدْعَى عَطِيَّةُ للطعانِ الأجْرَدِ

وقال الشاعرُ :

وما فارسٌ إلّا عطيةُ فوقَه إذا الحربُ أَبْدَتْ عن نَواجِذِها الفَمَا

به هَزَمَ اللهُ الأزارِقَ بعدما أباحُوا من المِصْرَيْنِ حِلًّا ومُحَرَّمَا

* * *

فأقام المهلّبُ أربعين يوماً يَجْبِي الخراجَ بِكُوَرِ دِجْلَةَ ، والخوارجُ بنهر تِيرَى ، والزبيرُ بن علىٍّ منفردٌ بعسكره عن عسكر ابنِ المَاحُوزِ ، فَقَضَى المهلّب التُّجَارَ وأعْطَى أصحابَه ، فأسرع إليه الناسُ رغبةً فى مجاهدة الخوارج ، ولما فى الغنائم ، وللتجارات . فكان فيمن أتاه محمدُ بن واسعٍ الأزدىُّ وعبدَ الله بن رِيَاحٍ ومُعاويةُ بن قُرَّةَ المزَنِىُّ — وكان يقولُ — يعني

(١) قال المرصفى : « التكذيب : مصدر كذب فى القتال إذا فرّ ونكص » .

قال الأحنفُ : ليس ذاكَ لكَ ولا لنَا ، إنما هو فىْءُ المسلمين ، فإن سلبتَهم إياه كنتَ عليهم كعدوّهم ، ولـكن لك أن تُعطىَ أصحابَك من فىْءِ كل بلدٍ تغلِبُ عليه ما شئتَ ، وتُنْفِقَ "منه ما شئتَ" على محاربةِ عدوّك ، فما فضَلَ عنـكم كان للمسلمين فقال المهلّبُ : فمَنْ لى بذلك ؟ قال الأحنفُ : نحن وأميرُك وجماعةُ أهلِ مصرك ، قال : قد قبلْتُ .

فكتبوا بذلك كتاباً ووُضِعَ على يدَى الصَّلْتِ بن حُرَيْثِ بن جابرٍ الحنفىّ ، وانتَخَبَ المهلَّبُ من جميع الأخماسِ ، فبلغت نُخْبتُهُ اثني عَشَر ألفاً ، ونظروا ما فى بيت المال ، فلم يكن إلّا مِائتَىْ ألفِ درهم ، فعجَزَت ، فبعثَ المهلَّبُ إلى التجّارِ : إنّ تجارتـكم مُذ حَوْلٍ قد كسَدَتْ ، عليـكم بانقطاع موادِّ الأهواز وفارسَ عنـكم ، فهلُمَّ فبايعونى واخرُجوا معى أُوَفـكمْ إن شاء الله حقوقـكم ، فتاجَرُوه ، فأخذ من المال ما يُصْلِحُ به عسكرَه ، واتخذ لأصحابه الخفاتِينَ والرَّاناتِ المَحْشُوَّةَ بالصُّوف .

ثم نَهَضَ وأكثرُ أصحابه رَجَّالةٌ ، حتى إذا صار بحذاء القوم أمر بسفُنٍ فأُحْضِرتْ وأُصْلِحتْ ، فما ارتفعَ النهارُ حتى فُرِغَ منها ، ثم أمَرَ الناسَ بالعُبور إلى الفُراتِ ، وأمَّر عليهم ابنَهُ المغيرةَ ، فخرج الناسُ ، فلما قاربوا الشاطئَ خاضتْ إليهم الخوارجُ ، فحاربهم المغيرةُ ونَضَحَهم[٢] بالسهام حتى تَنَحَّوْا ، فصار هو وأصحابُه على الشاطئ ، فحارَبُوهم فـكشفوهم

(١—١) ساقط من ر .

(٢) نضحهم بالسهام : رماهم بها .

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ : فإنا منذُ خرجنا نَؤُمُّ هذا العدوَّ في نعمٍ من اللهِ متصلةٍ علينا ، ونِقْمةٍ من الله متتابعةٍ عليهم ، نَقْدِمُ ويُحْجِمون ، ونَحُلُّ ويَرتحلونَ ، إلى أن حَلَلْنَا سُوقَ الأهوازِ ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين ، الذي من عنده النصرُ ، وهو العزيزُ الحكيمُ .

فكتب إليه الحارثُ : هَنِيئًا لك أخا الأزْدِ، الشَّرفُ في الدنيا ، والذخر في الآخرةِ ، إن شاء الله !

فقال المهلّبُ لأصحابه : ما أجْفَى أهلَ الحجاز ! أَمَا تَرَوْنَه عرف[1] اسمي واسمَ أبي وكُنْيَتي !

وكان المهلّبُ يَبُثُّ الأحراسَ في الأمْنِ ، كما يبُثُّهم في الخوفِ ، ويُذْكِي العُيونَ في الأمصار ، كما يُذْكيها في الصَّحارَى ، ويأمرُ أصحابه بالتَّحَرُّزِ ، ويُخوِّفهم البياتَ[2] ، وإن بَعُدَ منهم العدوُّ ، ويقولُ : احْذَرُوا أن تُكادُوا كما تَكِيدون ، ولا تقولوا : هَزَمْنَا وغَلَبْنَا ، فإنَّ القومَ خائفون وجِلُونَ ، والضرورةُ تَفتحُ بابَ الحِيلةِ ، ثم قامَ فيهم خطيبًا فقال :

يأيُّها الناس ، إنكم قد عَرفتم مذهبَ هؤلاء الخوارج ، وأنهم إنْ قَدَرُوا عليكم فَتَنوكُمْ في دينِكم وسَفَكوا دماءَكم . فقاتِلُوهم على ما قَاتَلَ عليه أولَهم عليُّ بن أبي طالبٍ صلوات الله عليه ، فقد لَقِيَهُمْ قبلَكم الصَّابرُ

(١) ر : « يعرف » .
(٢) البيات : الإيقاع بالقوم وهم غارون .

معاويةَ — : لو جاء الدَّيلَمُ مِن هاهنا والحَرُوريةُ مِن هاهنا لحاربتُ الحروريةَ — وأبو عِمرانَ الجَونِيُّ ، وكان يقول : كانَ كَعْبٌ يَقُولُ : قَتيلُ الحرورية يَفْضُلُ قتيلَ غيرهم بِعَشَرة أَنْوارٍ .

ثم نَهَضَ المهلَّبُ إليهم إلى نهر تِيرَى ، فتَنَحَّوْا عنه إلى الأهواز ، وأقام المهلَّبُ يَجْبِي ما حَوالَيْهِ من الكُوَرِ ، وقد دَسَّ الجواسيسَ إلى عسكر الخوارجِ ، فأتَوْه بأخبارهم ومَنْ فى عسكرِهم ، فإذا حُشْوَةٌ[1] : ما بين قَصَّارٍ وصَبَّاغٍ وداعِرٍ وحَدَّادٍ .

فَخَطَبَ المهلَّبُ الناسَ ، فذَكَر مَنْ هُناكَ ، وقال للناس : أَمِثْلُ هؤلاء يَغلبونَكم على فَيْئِكم ! فلم يَزَلْ مقيماً حتى فَهِمَهُمْ وأَحْكَمَ أَمْرَهُ ؛ وقَوَّى أصحابَه ، وكثرتِ الفُرْسانُ فى عسكره ، وتَتامَّ إليه زُهاءُ عشرينَ ألفاً .

ثم مَضَى يَؤُمُّ سُوقَ الأهوازِ ، فاستَخلَفَ أخاه المُعارِكَ بنَ أبى صُفْرَةَ على نهر تِيرَى ، وفى مُقَدَّمَتِهِ المغيرةُ بن المهلَّب ، حتى قارَبَهُمُ المغيرةُ ، فناوَشُوه ، فانكشفَ عنه بعضُ أصحابِه ، وثبتَ المغيرةُ بَقِيَّةَ يومِهِ وليلتِه ، يُوقِدُ النيرانَ ، ثم غاداهم القتالَ ، فإذا القومُ قد أوقدوا النِّيرانَ فى ثِقْلَةِ متاعِهم وارتَحَلُوا عن سوق الأهواز ، فدخلَها المغيرةُ ، وقد جاءت أوائلُ خيلِ المهلَّب ، فأقام بسُوق الأهواز ، وكتب بذلك إلى الحارث بن عبد الله بن أبى رَبيعة كتاباً يقول فيه :

---

(١) حشوة الناس : رذالهم .

رحمه الله ، وَحَضَرَ المهلَّب فأُخْبِر ، فقال للحَرِيش وَعَطِيَّةَ العَنْبَرِىّ : أَأَسْلَمْتُمَا سيدَ أهلِ العسكرِ ، لم تُعِيناه ولم تَسْتَنْقِذَاهُ ، حسدًا له ، لأنه رجل من الموالى ! وَوَبَّخَهُمَا . وَحَمَلَ رجلٌ من الخوارج على رجلٍ من أصحابه فقتله ، فحمل عليه المهلَّبُ فطعنه وقتَله ، ومالَ الخوارجُ بأجمعهم على العسكرِ ، فانهزمَ الناسُ ، وقتلوا سبعين رجلاً ، وثبتَ المهلَّبُ ، وَأَبْلَى المغيرةُ يومئذٍ وعُرِفَ مكانُهُ . ويقال : حاصَ المهلبُ يومئذٍ حَيْصَةً[1] وتقولُ الأزدُ : بل كان يَرُدُّ المنهزِمَةَ ويَحْمِى أدبارَهم ، فقال رجلٌ من بَنِى مِنْقَرِ بن عُبَيْدِ بن الحارثِ بن كَعْبِ بن سَعْدِ بن زيد مَنَاةَ بن تميمٍ :

بسُولافٍ أَضَعْتَ دِماءَ قومِى   وطِرْتَ على مُوَاشِكَةٍ دَرُور

قوله : « مُوَاشِكَةٍ » يريدُ سريعةً . ويقال : نحنُ على وشْكِ رحيلٍ ، ويقال : ذَمِيلٌ مُوَاشِكٌ ، إذا كان سريعاً ، قال ذُو الرُّمَّةِ :

إذا مَا رَمَيْنَا رَمْيَةً فى مَفَازَةٍ   عَرَاقِيبَهَا بالشَّيْظَمِىِّ المُوَاشِكِ[2]

وَدَرُورٌ ، « فَعُولٌ » مِنْ دَرَّ الشىء ، إذا تتَابَعَ .

* * *

وقال رجلٌ من بنى تميمٍ آخَرُ :

تَبِعْنَا الأَعْوَرَ الكَذَّابَ طَوْعاً   يُزَجِّى كُلُّ أربَعَةٍ حِمَارَا[3]

---

(١) حاص حيصة ، أى جال جولة يطلب بها الفرار .

(٢) الشيظمىّ : الطويل الجسيم .

(٣) يزجى : يسوق .

المحتسبُ مُسلِمُ بن عُبَيْسٍ ، والعَجِلُ المفرِّطُ عثمانُ بنُ عُبيدِ الله ، والمَعْصِى المخالِفُ حارثةُ بن بَدرٍ ، فقُتِلوا جميعاً وَقَتَلُوا . فالْقَوْهُمْ بِجِدٍّ وَحَدٍّ ، فإنما هُمْ مَهَنَتُكُمْ وعبيدُكم ، وعارٌ عليكم ، ونقصٌ فى أحسابكم وأديانِكم أن يغلبكم هؤلاء على فَيْئِكُمْ ، وَيَطَئُوا حَرِيمَكُمْ .

ثمَّ سار يُرِيدُهُمْ ، وَهُمْ بِمَنَاذِرَ الصُّغْرَى ، فوَجَّهَ عبيدُ الله بن بَشِير ابن المَاحُوزِ رئيسُ الخوارجِ رجلًا يقال له واقِدٌ ، مَوْلًى لآلِ أبى صُفْرَةَ من سَبْيِ الجاهلية ، فى خمسين رجلًا ، فيهم صالِحُ بن مِخْرَاقٍ ، إلى نهر تِيرَى ، وبها المعارِكُ بن أبى صُفْرَةَ ، فقتلوه وصلبوه ، فنَمَى الخبرُ إلى المهلَّب ، فوَجَّهَ ابْنَهُ المغيرةَ ، فدخل نهرَ تِيرَى وقد خرج وَاقِدٌ منها ، فاستنزله ودَفَنَه ، وَسَكَّنَ الناسَ ، وَاسْتَخْلَفَ بها ، ورجع إلى أبيه وقد حَلَّ بِسُولافَ[1] ، والخوارجُ بها ، فَوَاقَعَهُمْ ، وَجَعَلَ على بنى تَمِيمٍ الحَرِيشَ بن هِلَالٍ ، فخرج رجلٌ من أصحاب المهلَّبِ ، يقال له عبدُ الرحمن الإسْكَافُ ، فجَعَلَ يَحُضُّ الناسَ وهو على فرسٍ له صفراء ، فجَعَلَ يأتى الميمنةَ والمَيْسَرَةَ والقَلْبَ ، فيَحُضُّ الناسَ وَيُهَوِّنُ أمرَ الخوارجِ ، ويَخْتَالُ بين الصَّفَّين ، فقال رجلٌ من الخوارج لأصحابه : يا معشر المهاجرين ، هل لكم فى فَتكةٍ فيها أَرْيَحِيَّةٌ ؟

فحملَ جماعة منهم على الإسكافِ ، فقاتلهم وحدَه فارساً ، ثم كَبَا بِهِ فرسُهُ[2] ، فقاتلهم راجلًا ، قائماً وبارِكاً ، ثم كَثُرَتْ به الجِرَاحاتُ ، فَذَبَّبَ بسيفِهِ ، وَجَعَلَ يحثُو الترابَ فى وجوههم ، والمهلَّبُ غيرُ حاضرٍ ، ثم قُتِلَ

---

(١) سولاف : قرية غربيّ دجيل . (٢) كبا به الفرس ، أى عثر .

هذانِ حيَّانِ كانا فى نهاية العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرادا أنهم فى الانحراف عنه والغدر به كهاتين القبيلتين] .

* * *

قال أبو العباس : فكان المهلّبُ ربما صَنَعَ الحديثَ لِيَشُدَّ به من أمرِ المسلمين ويُضَعِّفَ من أمرِ الخوارج ، فكان حَيٌّ من الأزْدِ يقال لهم النَّدَب إذا رَأَوُا المهلَّبَ رائحاً إليهم قالوا : قد راحَ المهلّبُ ليكذِبَ ! وفيه يقولُ رجلٌ منهم :

أنتَ الفتى كلُّ الفتى   لو كُنْتَ تَصْدُقُ ما تَقولُ

* * *

نبات المهلبَ فى ألفَيْنِ ، فلما أصبح رجَع بعضُ المنهزمةِ فصارَ فى أربعة آلافٍ ، فخطب أصحابَه فقال : واللهِ ما بكم من قِلّةٍ ، وما ذَهَبَ عنكم إلّا أهلُ الجُبْنِ والضَّعْفِ والطَّمعِ والطَّبَعِ ، فإن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فقد مَسَّ القومَ قَرْحٌ مثلُهُ ، فسِيرُوا إلى عدوِّكم على بركةِ الله .

فقام إليه الحرِيش بنُ هلاَلٍ فقال : أَنْشُدُكَ اللهَ[1] أيها الأميرُ أن تقاتلهم إلّا أن يُقاتلوك ! فإن بالقوم جِرَاحًا وقد أثخنتُمْ هذه الجَوْلَةُ .

فَقَبِلَ منه ومَضى المهلّبُ فى عشَرةٍ ، فأشْرَفَ على عسكر الخوارج ، فلم يَرَ منهم أحداً يتحرّكُ ، فقال الحريشُ : ارْتَحِلْ عن هذا الموضعِ ، فارتَحَلَ ،

(١) أنشدك الله ، أى أذكرك الله .

فيا ندمى على تَرْكى عطائِى مُعَايَنَــــةً وَأَطْلُبُهُ ضِمارَا!

إذَا الرَّحْمنُ يَسَّرَ لِي قُفُولًا فَحَرَّقَ فى قُرَى سُولافَ نَارَا!

قوله : « الأعورَ الكذَّابَ » ، يعني المُهَلَّبَ ، ويقال : عارتْ عينُه بسهمٍ كان أصابها . وقال : « الكذَّابَ » لأن المهلَّبَ كان فقيهاً ، وكان يعلمُ ما جاء عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم من قوله : « كلُّ كَذِبٍ يُكتَبُ كَذِباً إلَّا ثلاثة : الكذبُ فى الصُّلح بين الرجلين ، وكذبُ الرجلِ لامرأته يَعِدُها ، وكذبُ الرجلِ فى الحربِ يَتوَعَّدُ وَيَتَهَدَّدُ » .

وجاء عنه صلى الله عليه وسلم : « إنما أنتَ رجلٌ ، فَخَذِّلْ عنَّا ، فإنما الحربُ خَدْعَةٌ » .

وقال عليه السلام فى حرب الخَنْدق لسعد بن عُبادَة وسعد بن مُعاذٍ ، وهما سَيِدَا الحَيَّيْنِ : الخزرجِ والأوسِ : « إيتِيَا بَنِي قُرَيْظَةَ ، فإن كانوا على العهد فأعْلِنا بذلك ، وإن كانوا قد نَقضُوا ما بيننا فالْحَنا لى لَحْناً أعرفه ، ولا تَفُتَّا فى أعْضَادِ المسلمين ، فرجعا بغَدْرِ القومِ فقالا : يا رسول الله ، عَضَلٌ والقَارَةَ ، قال : فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين : « أبْشِرُوا فإن الأمرَ ما تحبُّونَ » :

* * *

[قالَ الأخفشُ : سألتُ المبرِّدَ عن قولها : « عَضَـلٌ والقَارَة » ، فقال :

ويومٌ غَمٌّ وَغَيْمٌ ، وينعتُ به المفعولُ فى قولك : رجل رِضىً ، وهذا درهم ضَرْبُ الأمير ، وجاءنى الخلقُ ، تعنى المخلوقين .

***

وقال رجلٌ من الخوارج فى ذلك اليوم :

وكائنْ ترَكْنا يومَ سُولافَ منهمُ أُسارَى وقتْلَى فى الجحيم مَصيرُها

قوله : « وكائنْ » معناه « كَمْ » ، وأصلُه كافُ التشبيه دخلتْ على « أىٍّ » فصارتا بمنزلةِ « كم » ، ونظيرُ ذلك له كذا وكذا درهماً ، إنما هى « ذا » دخلتْ عليها الكاف ، والمعنى له كهذا العدد من الدراهم . فإذا قال له كذا كذا درهماً ، فهو كناية عن أحَدَ عَشَرَ درهماً إلى تسعةَ عَشَرَ ، لأنه ضَمَّ العددَيْن ، فإذا قال : كذا وكذا ، فهو كنايةٌ عن أحدٍ وعشرين إلى ما جازَ فيه العطفُ بعدهُ . ولكنْ كَثُرَتْ « كأىٍّ » فخُفِّفَتْ ، والتثقيلُ الأصلُ ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَأَىٍّ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ[1] ﴾ ، ﴿ وَكَأَىٍّ مِنْ نَبِىٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ[2] ﴾ ، وقد قُرِئَ بالتَّخْفيفِ ، كما قال الشاعرُ :

وَكائِنْ رَدَدْنا عنكُمُ مِن مُدَجَّجٍ يَجِىءُ أمامَ الألْفِ يرْدِى مُقَنَّعا[3]

---

(١) سورة الحج ٤٨ (٢) سورة آل عمران ١٤٦

(٣) يردى : يعدو ، والمقنع : المغطى بالسلاح .

فعبَرَ دُجَيْلا ، وصار إلى عاقُولٍ(١) لا يُؤتى إلّا مِن وجهٍ واحدٍ . فأقام به واستراحَ الناسُ ثلاثاً ، وقال ابنُ قَيْسٍ الرُّقَيَّاتِ :

ألا طَرَقتْ من آلِ بثنةَ طارقهْ(٢) على أنها مَعشوقةُ الدَّلِّ عاشقهْ

تبيتُ وأرضُ السُّوسِ بيْني وبينَها وسُولافُ رُستاقٌ حَمَتْهُ الأزارقهْ

إذا نحن شِئْنَا صادَفَتْنَا عِصابةٌ حَرُورِيَّةٌ أَضْحَتْ من الدِّينِ مارقهْ

أجازَتْ إلينا العَسْكَرَيْنِ كِليهما فباتتْ لنا دُونَ اللحافِ مُعَانِقهْ

وقد ذكرنا « الضِّمارُ » ومعناه الغائبُ ، وأصلهُ من قولك : « أَضْمَرْتُ الشئَ » أى أخفيتُهُ عنك ، ويقال : مالٌ عَيْنٌ ، للحاضِرِ ، ومالٌ ضِمارٌ ، للغائب ، قال الأعشى :

ومَن لا تَضِيعُ له ذِمَّةٌ فيَجعَلُها بعد عَيْنٍ ضِمارَا

وقال أيضاً :

أَبانَا فَلاَ رِمْتَ مِنْ عِنْدِنَا فإنَّا بِخَيْرٍ إذَا لَمْ تَرِمْ

أرانَا إذا أَضْمَرَتْكَ البلا دُ نُجْفَى وتُقْطَعُ مِنَّا الرَّحِمْ

والفعلُ من هذا أَضْمَرَ يُضْمِرُ ، والمفعولُ به مُضْمَرٌ ، والفاعل مُضْمِرٌ . والضِّمارُ : اسمٌ للفعل فى معنى الإضمار . وأسماء الأفعال تَشْرَكُ المصادِرَ فى معانِيها ، تقول : أعطيته عَطاءً ، فيَشْرَكُ العَطاءُ الإعْطاءَ فى معناه ، ويُسمَّى به المفعولُ . وتقول : كلَّمتُه تكليماً وكِلَّامًا ، فى معناه . والمصدرُ يُنْعَتُ به الفاعلُ فى قولك : رجلٌ عدلٌ ، ورجلٌ كَرَمٌ ، ورجلٌ نَوْمٌ ،

(١) العاقول : الأرض لايهتدى لها .
(٢) ر . « بيبة » ، س . « مية » ، وما أثبته رواية الأصل

يا أمير المؤمنين ، إنما تفرَّق عنهم أهلُ الضعفِ والجُبْن ، وَبَقِيَ أهلُ النجْدةِ والقوّةِ ، فإن أصبتهم لم يكن ظَفراً هنيئاً ، لأنى أراهم لا يُصابُون حتى يُصِيبوا ، فإن غَلَبُوا ذَهَب الدِّينُ ، فَقَالَ أصحابُه : نافَقَ وافِدُ ، فقال ابنُ الماحُوز : لا تَعْجَلُوا على أخيكم ، فإنه إنما قال هذا نَظَرًا لكم . ثم تَوَجَّهَ الزبيرُ ابن علىّ إلى عسكر المهلَّبِ لِيَنْظُرَ ما حالهم ، فأتاهم فى مِائَتَيْنِ ، فَحزَرَهُمْ ورجَع ، وَأَمَرَ المهلَّبُ أصحابَه بالتَّحارُسِ ، حتى إذا أصبح رَكِبَ إليهم على تَعْبِيَةٍ صحيحةٍ ، فالْتَقَوْا بِسِلِّىْ وَسِلَّبْرَى فتصافُّوا ، فخرج من الخوارج مائةُ فارسٍ ، فركَزُوا رِماحَهم بين الصَّفَّيْنِ واتَّكَئُوا عليها ، وأخرج إليهم المهلَّبُ عِدادَهم ، ففعلوا مثلَ ما فعلوا ، لا يَرِيمُونَ إلّا لِصلاةٍ حتى أمْسَوْا ، فرجع كلُّ قومٍ إلى مُعَسْكَرِهِمْ ، ففعلوا هذا ثلاثةَ أيامٍ .

ثم إن الخوارجَ تَطارَدُوا لهم فى اليوم الثالثِ ، فَحَمَلَ عليهم هؤلاء الفرسانَ يجولونَ ساعةً . ثم إن رجلًا من الخوارج حَمَلَ على رجل فطعنَهُ ، فحَمَل عليه المهلَّبُ فطعنه ، فَحَمَلَ الخوارجُ بأجمعهم ، كما صَنَعُوا يوم سُولافَ ، فَضَعْضعوا الناسَ ، وفَقِدَ المهلَّبُ ، وثبتَ المغيرةُ فى جمعٍ أكثرُهم أهلُ عمانَ ، ثم نَجَمَ المهلّبُ[1] فى مائةِ فارسٍ ، وقد انغمَسَتْ كَفّاهُ فى الدَّمِ ، وعلى رأسه قَلَنْسُوَةٌ مُرَبَّعَةٌ فوقَ المِغفرِ[2] مَحْشُوَّةٌ قَزًّا ، وقد تَمزَّقَتْ ، وإنّ حَشْوَها ليتطايرُ ، وهو يَلْهَثُ ، وذلك فى وقت الظُّهرِ ، فلم يزلْ يحاربُهم إلى الليل ، حتى كَثُرَ القتلُ فى الفريقين .

---

(١) نجم : ظهر

(٢) المغفر : ما يقى الرأس ؛ وهو حلق يتقنع بها المسلح .

وقال آخرُ :

وكائن تَرَى يومَ الغُمَيْصاء مِن فتًى أُصيبَ ولم يجْرَحْ وقد كان جارِحًا[1]

قال أبو العباس : وهذا أكثرُ على ألسنتهم ، لطلب التخفيف ، وذلك الأصلُ ، وبعضُ العرب يَقلِبُ فيقول : « كَيْئٍ » يا فتى ، فيؤخِّرُ الهمزةَ لكثرة الاستعمال ، قال الشاعرُ :

وَكَيْءٍ فى بنى دُودَانَ منهم غداةَ الرَّوْعِ معروفاً كَمِىٌّ

قال أبو العباسِ : فأقام المهلبُ فى ذلك العاقولِ ثلاثةَ أيامٍ ثم ارتحلَ ، والخوارج بسِلَّىٰ وَسِلَّبْرَى .

* * *

[قال الأخفش : « سَلَّىٰ » و « سَلَّبْرَى » بفتح السين فيهما : موضعانِ بالأهواز ، و « وسِلَّىٰ » بكسر السين موضعٌ بالبادية ، وهكذا يُنشَدُ هذا البيت :

كَأَنَّ غَدِيرَهمْ بجُنوبِ سِلَّىٰ نَعامٌ قاقَ فى بلدٍ قِفَارِ]

* * *

فنزلَ قريباً منهم ، فقال ابنُ الماحوزِ لأصحابه : ما تنتظرون بعدوٍّ كم وقد هزَمتموهم بالأمس وكسرتمْ حَدَّهم ؟ فقال له وافدٌ ، مَوْلَى أبى صُفْرَةَ :

---

(١) الغميصاء : موضع بالبادية قرب مكة .

المهلبُ بابنهِ المغيرةِ : تقدَّمْ ، ففعلَ ، وصاحَ بِذكوانَ مولاه : قدِّمْ رَايتكَ ، ففعل ، فقال له رجلٌ من وَلَدِهِ : إنك تُغَرِّرُ بنفسِك ، فذَمَرَهُ[1] ثم صاحَ : يا بني تميم ، أآمُرُكُمْ فتعصوننى ! فتقدَّمَ وتقدَّمَ الناسُ ، واجْتَلَدُوا أشدَّ جِلادٍ ، حتى إذا كان مع المَساء قتِلَ ابنُ الماحُوزِ ، وانصرفَ الخوارجُ ، ولم يَشْعُر المهلَّبُ بقتلِه ، فقال لأصحابه : ابغونى رجلًا جَلْدًا يَطُوفُ فى القَتْلَى ، فأشاروا عليه برجلٍ من جَرْمٍ ، وقالوا : إنَّا لم نرَ رجلًا قَطْ أَشَدَّ منه ، فطَوَّفَ ومعه النِّيرانُ ، فجَعَلَ إذا مَرَّ بجريحٍ من الخوارج قال : كافرٌ وربِّ الكعبةِ ! فأجْهَزَ عليه ، وإذا مَرَّ بجريحٍ من المسلمين أمَرَ بسَقْيِهِ وَحَمْلِهِ .

وأقام المهلَّبُ فى عسكره يأمرُهم بالاحتراسِ ، حتى إذا كان نصفُ الليلِ وَجَّهَ رجلاً من اليَحْمَدِ .

* * *

[قال الأخفشُ : اليَحْمَدُ من الأزدِ ، والخليلُ مِنْ بَطْنٍ منهم يقال لهم الفَرَاهيد ، والفُرْهُودُ فى الأصلِ الحَمَلُ ، فإن نَسَبْتَ إلى الحىِّ قلتَ : « فَرَاهِيدِى » ، وإن نسبت إلى الحُمْلَانِ قلتَ : « فُرْهُودِىٌّ » لا غيرُ] .

* * *

فى عَشَرةٍ ، فصاروا إلى عسكرِ الخوارجِ ، فإذا القومُ قد تحَمَّلوا إلى أرَّجَانَ ، فرجَعَ إلى المهلَّبِ فأعْلَمَهُ ، فقال : أنا لَهُم السَّاعةَ أشدُّ خوفاً ، فاحْذَرُوا البَيَاتَ .

---

(١) ذمره : حضه .

فلما كان الغدُ غاداهم ، وقد كان وَجَّه بالأمس رجلا من طاحيةَ بن سُودِ بن مالك بن فَهْم بن الأزدِ يَرُدُّ المنهزمين ، فمرَّ به عامرُ بن مِسْمَعٍ فردَّه ، فقال : إن الأميرَ أذنَ لى ، فبعثَ إلى المهلَّب فأعلمه . فقال : دَعْه فلا حاجةَ لى فى مثله من أهلِ الجبنِ والضَّعفِ . وقد تفرَّقَ أكثرُ الناسِ ، فغاداهم المهلَّبُ فى ثلاثةِ آلاف ، وقال لأصحابه : ما بكم مِن قِلةٍ ، أيعجزُ أحدُكم أن يَرمىَ رمحه ثم يتقدَّمَ فيأخُذَه ، ففعلَ ذاك رجلٌ من كِنْدَةَ يقال له عَيَّاشٌ ، وقال المهلَّبُ لأصحابه : أعِدُّوا مخالىَ فيها حجارةٌ ، وارمُوا بها فى وقتِ الغَفْلَةِ ، فإنها تَصُدُّ الفارسَ وتَصْرَعُ الراجلَ ، ففعلوا . ثم أمر منادياً يُنادى فى أصحابه ، يأمُرُهم بالجدِّ والصَّبرِ ، ويُطمِعُهم فى العدُوِّ ، ففعلَ ، حتى مَرَّ ببَنِى العَدَوِيَّةِ ، من بنى مالك بن حَنْظلةَ فضَرَبُوه ، فدعا المهلَّبُ بسيِّدهم ، وهو معاويةُ بن عَمْرٍو ، فجَعَلَ يَرْكُلُه[1] برِجْلِه — وهذا معروفٌ فى الأزْدِ — فقال أصلحَ الله الأميرَ ! أعْفِنِي مِنْ أمِّ كيْسانَ — والرُّكبةُ تُسمِّيها الأزْدُ « أمَّ كَيْسانَ » . ثم حَمَلَ المهلَّبُ وحَمَلُوا . فاقتتلوا قِتالًا شديداً ، فَجُهِدَ الخوارجُ ، فنادى مُنادِيهم : ألاَ إنَّ المهلَّبَ قد قُتِلَ ! فركِبَ المهلبُ بِرْذَوْناً قصيراً أشهبَ ، وأقبلَ يَرْكُضُ بين الصَّفَّيْنِ ، وإنَّ إحْدَى يديه لَفِى القَباءِ وما يَشعُرُ بها ، وهو يَصيحُ : أنَا المهلَّبُ ! فسكنَ الناسُ بعدَ أن كانوا قد ارتاعُوا ، وظَنُّوا أنَّ أميرَهم قد قُتِل ، وكَلَّ الناسُ مع العَصْرِ ، فصاحَ

(١) الركل : الرفس بالرجل .

وقال رجلٌ من أصحاب المهلَّبِ فى يومِ سِلَّى[1] وَسِلَّبْرَى وَقتل ابن الماحوزِ :

وَيومَ سِلَّى وَسِلَّبْرَى أحاط بهم مِنَّا صواعِقُ ما تبقِى وَلا تذَرُ
حتى تركْنا عُبيْدَ اللهِ مُنْجدِلا كما تجدَّلَ جِذْعٌ مَالَ مُنْقعِرُ

قال أبو العباس : تقولُ العربُ : « صاعقةٌ وَصَوَاعِقُ » ، وهو مذهبُ أهل الحجاز ، وبه نزلَ القرآنُ ، وبنو تميمٍ يقولون : « صاقِعةٌ وَصَوَاقِعُ » .

والمُنْقعِرُ : المنقلعُ من أصلِهِ ، قال الله أصدقُ القائلينَ : ﴿ كأنَّهُمْ أعْجازُ نَخْلٍ مُنْقعِر ﴾[2] .

* * *

ويُرْوَى أن رجلًا من الخوارج يوم سِلَّى حَمَلَ على رجلٍ من أصحاب المهلَّبِ فطعَنَه ، فلما خالطَه الرمحُ صاح : يا أُمَّتاهْ ! فصاح به المهلَّبُ : لا كَثَّرَ اللهُ بمثلِك المسلمينَ ! فضَحِكَ الخارجىُّ وقال :

أُمُّكَ خيرٌ لَكَ مِنى صَاحِبَا تسْقِيكَ مَحْضاً وتَعُلُّ رائِبَا

* * *

وكان المغيرة بنُ المهلَّبِ إذا نظَرَ إلى الرماحِ قد تَشَاجَرَتْ فى وجهه نَكَسَ على قَرَبُوسِ سَرْجِه ، وحَمَلَ مِن تَحتِها فبرَاهَا بسيفه ، وأثَّرَ فى أصحابها ، حتى تَخَرَّمَتِ المَيْمَنَةُ من أجْلِهِ وكان أشدَّ ما تكونُ الحربُ أشدَّ

---

(١) سورة القمر ٢٠ .

قال أبو العباس : ويُرْوَى عن شُعْبَةَ بن الحجَّاج أن المهلَّبَ قال لأصحابه يوماً : إن هؤلاء الخوارجَ قد يَئِسُوا من ناحيتِكم إلّا من جهة البَيَاتِ ، فإن كان ذلك فاجْعَلوا شعارَكُمْ « حم لا يُنْصَرُونَ » ، فإن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان يأمُرُ بها . ويُرْوَى أنه كان شعارَ أصحابِ على بن أبى طالبٍ صلواتَ الله عليه .

فلمَّا أصبحَ المهلَّب غدَا عَلَى القَتْلى ، فأصاب ابنَ الماحُوزِ فيهم .

ففى ذلك يقول رجل من الخوارج :

بِسِلَّىٰ وَسِلَّبْرَىٰ مَصَارِعُ فِتْيَةٍ كِرَامٍ وَجَرْحَى لم تُوَسَّدْ خُدُودُها

وقال آخرُ :

بِسِلَّىٰ وَسِلَّبْرَىٰ مصارِعُ فتيةٍ كِرامٍ وَعَقْرَىٰ من كُمَيْتٍ ومن وَرْدِ[1]

* * *

وقال رجلٌ من موالى المهلَّب : لقد صرعتُ يومئذٍ بحَجَرٍ واحدٍ ثلاثة ، رميتُ به رجلًا فأصبتُ أَصْلَ أُذُنِهِ فصَرَعْتُهُ ، ثم أخذتُ الحجرَ فضربتُ به آخَرَ على هامَتِه فصرعتُه ، ثم صرعتُ به ثالثاً .

وقال رجل من الخوارج :

أتانا بأحجار ليقتلَنا بهـــا وهل تُقْتَلُ الأبطالُ وَيحَكَ بالحجرْ !

* * *

---

(١) نسبه ابن برى إلى أبى المقدام بيهس بن صهيب بن عامر الجرمى ؛ وهو فارس شاعر كان مع المهلب فى هذه الحرب ، وله مواقف مشهورة وبلاء حسن . وعقرى : جمع عقير ؛ بمعنى معقور ؛ من عقر الفرس ؛ إذا قطع قوائمه . (رغبة الآمل) .

صادقةٍ ، وأبدان شدَادٍ ، وسيوف حِدَادٍ ، فأعْقبَ اللهُ خيرَ عاقبةٍ ، وجاوزَ بالنعمةِ مِقْـدارَ الأمَلِ ، فصاروا دَرِئةَ رماحِنَا ، وضَرائبَ سيوفنا[1] ، وقَتَلَ اللهُ أميرَهُمُ ابنَ الماحُوزِ ، وأرجو أن يكونَ آخرُ هذه النعمة كأوّلها ، والسلام .

* * *

فـكَتَبَ إليه القباعُ :

قد قرأتُ كتابَك يا أخا الأزْدِ ، فرأيتكَ قد وَهَبَ اللهُ لك شرفَ الدنيا وعِزَّها ، وذَخَرَ لك ثوابَ الآخرةِ – إن شاء اللهُ – وأجْرَها ، ورأيتُك أوثقَ حُصونِ المسلمين ، وهادَّ أركانِ المشركين ، وأخا السياسةِ وذا الرِّياسةِ ، فاستَدِمْ الله بشكره ، يُتمِمْ عليك نِعَمَهُ ، والسلام .

* * *

وكتب إليه أهل البصرة يُهَنِّئُونَهُ ، ولم يكتب إليه الأَحنفُ ، ولـكن قال : اقرءوا عليه السلام ، وقولوا له : أنَا لَكَ على ما فارقتُك عليه . فلم يزَلْ يقرأُ الـكتبَ ويَلْتَمِسُ فى أَضعافِها كتابَ الأحنف ، فلمَّا لم يرَهُ قال لأصحابه : أمَا كتَبَ إلينا ؟ فقال له الرسول : حمَّلني إليك رسالة ، وأبْلَغَهُ ، فقال : هذه أحبُّ إليَّ من هذه الـكتبِ .

* * *

(١) الدرئة : الحلقة يتعلم فيها الرمى والطعن . والضرائب جمع ضريبة ، وهى كل ما ضربته بسيفك

ما يكونُ تبسُّما ، فكان المهلبُ يقولُ : ما شهِدَ مَعِى حرباً قطُّ إلّا رأيتُ البِشْرَ فى وَجْهِهِ .

* * *

وقال رجلٌ من الخورجِ فى هذا اليومِ :

فإن تكُ قتْلَى يومَ سِلَّى تتابعتْ   فكم غادرتْ أسيافُنا من قُماقِمِ !(١)

غَداةَ نَكُرُّ المَشْرَفيَّةَ فيهمُ   بِسُولافَ يومَ المأزِقِ المُتَلاحِمِ

المأزِقُ : هو يومُ تضايُقِ الحربِ . والمُتَلاحِمُ : نعتٌ له . والمَشْرَفيَّةُ : السُّيوف ، نُسِبَتْ إلى المَشارِفَ مِنْ أرضِ الشَّأمِ ، وهو الموضعُ الملقّبُ « مُوتة » الذى قُتِلَ به جعفرُ بن أبى طالب وأصحابُه .

* * *

[قال الأخْفَشُ : كان المبرِّدُ لا يَهْمِزُ « مُؤْتَةَ » . ولم أسْمَعْها من علمائنا إلّا بالهمزِ]

* * *

قال أبو العباس : فكتب المهلب إلى الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة القباعِ :

بسم الله الرحمن الرحيم . أمَّا بعدُ ، فإنا لَقِينا لأزارقةَ المارقةَ بحَدٍّ وَجِدٍّ ، فكانتْ فى الناس جَوْلَةٌ ، ثم ثابَ أهلُ الحِفاظِ والصبرِ ، بِنِيَّاتٍ

---

(١) القماقم : السيد الكثير الخير ، الواسع الفضل .

أَمْنَتْ فى سَفْحِ هذا الجبل كمِيناً ، فبعثَ عَشرَةَ فوارس ، فاطّلعوا على المائة ، فلما عَلِمُوا أنهم قد علموا بهم قطعوا القَنْطَرة ونجَوْا ، وكَسَفَتِ الشمسُ ، فصاحوا بهم : يا أعداءَ الله ! لو قامتِ القيامة لجدَدْنا فى جهادكم . ثم يَئِس الزُّبير من ناحية المهلّب ، فضَرَبَ إلى ناحية أصبَهان ، ثم كَرَّ راجعاً إلى أرَّجانَ ، وقد جمع جموعًا ، وكان المهلّبُ يقول : كأنى بالزُّبير وقد جمع جموعاً ، فلا ترْهَبُوهُمْ فتخبُثَ قلوبُكم ، ولا تُغْفلوا الاحتراسَ فيطمعُوا فيكم فجاءوه من أرَّجانَ فألْفَوْهُ مُستعِدًا آخذاً بأفواه الطُّرقِ . فحاربوه فظهَرَ عليهم ظهورًا بيِّناً . ففى ذلك يقول رجلٌ من بنى تميم ، أحْسِبُهُ من بنى رِيَاح بن يَرْبُوع :

سَقى اللهُ المهلَّبَ كلَّ غَيْثٍ ... من الوَسْمِىِّ يَنْتَحِرُ انتحارًا[1]

فما وَهَنَ المهلَّبُ يومَ جاءتْ ... عَوابسُ خَيْلِهم تبْغى الغِوارَا

وقال المهلَّبُ يومَئِذٍ : ما وقعتُ فى أمرٍ ضَيِّقٍ من الحرب إلا رأيتُ أمامى رجالاً من بنى الهُجَيْمِ بن عَمْرِو بن تميمٍ يُجَالِدُونَ ، وكأنَّ لحاهُمْ أذنابُ العقاعِق[2] . وكانوا صبَرُوا معه فى غير مَوْطِنٍ .

* * *

(١) ينتحر انتحارا ؛ كذا تقول العرب للسحاب إذا انبعق بماء كثير ؛ قال الراعى :

فمرَّ عَلَى منَازِلِهَا وَألْقَى ... بهَا الأثقَالَ وَانتحَرَ انتِحَارَا

(رغبة الآمل)

(٢) العقائق : جمع عقعق ؛ وهو طائر ذو لونين أبيض وأسود طويل الذنب .

واجتمعت الخوارجُ بأَرَّجَانَ ، فبايَعوا الزُّبيرَ بن عَلِيٍّ ، وهو مِن بنى سَلِيطِ بن يَرْبُوعٍ ، مِن رَهْطِ ابنِ الماحُوز ، فرأى فيهم انكساراً شديداً وضَعْفاً بَيِّناً ، فقال لهم : اجْتَمِعُوا ، فَحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه وصلّى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أَقْبَلَ عليهم فقال : إنَّ البلاءَ للمؤمنين تَمْحيصٌ وأجرٌ ، وهو على الكافرين عُقوبةٌ وخِزْيٌ ، وَإِنْ يُصَبْ منكم أميرُ المؤمنين فما صار إليه خيرٌ مما خَلَفَ ، وقد أصبتم فيهم[1] مُسْلِمَ بن عُبَيْسٍ ورُبيعاً الأَجْذَمَ والحجَّاج بنَ بابٍ وحارِثَةَ بنَ بدرٍ . وأَشْجَيْتُمُ المهلَّبَ ، وقتلتم أَخَاهُ المُعَارِكَ ، واللهُ يقولُ لإخوانكم من المؤمنين : ﴿ إن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فقدْ مَسَّ القومَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وتلكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾[2] ، فيَوْمُ سِلَّى كان لكم بلاءً وتمحيصاً ، ويومُ سُولافَ كان لهم عُقوبةً ونَكالاً ، فلا تُغْلَبُنَّ على الشُّكرِ فى حِينِهِ ، والصَّبْرِ فى وقتِه ، وثِقُوا بأنكم المستخلَفون فى الأرضِ ، والعاقبةُ للمتّقين

ثم تَحَمَّلَ لمحاربة المهلَّبِ ، فنفحَهُم[3] المهلَّبُ نَفْحةً ، فرجَعوا ، فأَكْمَنَ للمهلَّبِ فى غَمْضٍ من غُمُوضِ الأرضِ[4] ، يَقْرُبُ من عسكره ، مائةَ فارس ليَغْتَالُوه ، فسار المهلَّبُ يومًا يطوفُ بعسكره ويتفقد سَوَادَه ، فوقَفَ على جبلٍ فقال : إن من التَّدْبير لهذه المارقة أن تكون قد

---

(١) ر : « منهم » .

(٢) سورة آل عمران ١٤٠ (٣) نفحهم : دفعهم .

(٤) غموض : جمع غمض ؛ وهو المطمئن من الأرض .

يقولُ الأحنفُ بن قيسٍ : البصرةُ بصرةُ المهلَّبِ . وَقَدِمَ رجلٌ من كِندَة يقال له فلانُ بنُ أرقمَ ، فَنَعَى ابنَ عمٍّ له ، وقال : رأيتُ رجلا من الخوارجِ وقد مكّنَ رمحَه من صُلْبِه فقَدِمَ المَنْعِيُّ ، فقيلَ له ذلك ، فقال : صَدَقَ ابنُ أرقم لما أحسستُ برمحه بين كتفيّ صحتُ : البَقِيَّةَ ! فرَفَعه عنّي ، وتَلا : ﴿ بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[1]

***

ووَجَّهَ المهلَّبُ بعَقِبِ هذه الوَقعةِ رجلا من الأزدِ، برأس عُبَيْدِ اللهِ بن بَشِيرِ بن المَاحُوزِ إلى الحارثِ بن عبد الله بن أبي ربيعة القُباع ، فلما صار بكَرْبَجِ[2] دِينارٍ لَقِيَهُ حَبيبٌ وعبدُ الملك وعليٌّ ، بنو بَشِيرِ بن الماحوزِ ، فقالوا له : ما الخبرُ ؟ ولا يَعرِفُهم ، فقال : قَتَلَ اللهُ المارقَ ابنَ الماحُوزِ ، وهذا رأسُه مَعِي . فوَثبُوا عليه فقتلوه وصَلَبوه ودَفَنُوا الرأسَ ، فلما وَلِيَ الحجَّاجُ دخل عليه عليُّ بن بَشِير ، وكان وَسِيما جَسِيما ، فقال : مَنْ هذا ؟ فَخُبِّرَ فقتَلهُ ، ووهبَ ابنَه الأزهرَ وابنَتَهُ لأهل الأزديِّ المقتولِ ، وكانت زينب بنتُ بَشِيرٍ لهم مُواصِلَةً ، فوهبوهما لها .

[تولية مصعب بن الزبير على البصرة واستقدامه للمهلب]

فلم يَزَلِ المهلَّب يقاتِلُ الخوارجَ في وِلايةِ الحارثِ القُبَاعِ ، حتى عُزِلَ الحارثُ ووُلِّيَ مُصْعَبُ بن الزُّبير ، فكَتَبَ إليه أن اقْدَمْ عليَّ ، واستخلِف

---

(١) سورة هود ٨٦

(٢) موضع قريب من الأهواز .

وقال رجلٌ من بنى تميمٍ ، من بنى عَبْشَمسِ بن سَعْدٍ :

ألاَ يا مَنْ لِصَبٍّ مُسْتَحِنٍّ(١) قَرِيحِ القلبِ قد صَحِبَ المَزُونا

لمانَ على المهلَّبِ ما لَقِينا إذا ما راحَ مَسرورًا بَطِينا

يَجُرُّ السَّابِرِيَّ ونحنُ شُعْثٌ كأَنَّ جلودَنا كُسِيَتْ طَحِينا(٢)

المَزُونُ : عُمَانَ ، وهو اسم من أسمائها . قال الكُمَيْتُ :

فأمَّا الأَزْدُ أَزْدُ أبى سعيدٍ فأَكرَهُ أن أُسَمِّيَها المَزُونا

وقال جريرٌ :

وأطْفأتَ نِيرانَ المَزُونِ وأهلِها وقد حاولوها فتنة أن تُسَعَّرا

* * *

وَحَمل يومئذٍ الحرِيشُ بن هِلالٍ على قيسِ الإكافِ ، وكان قيسٌ من أنْجَدِ فُرْسانِ الخوارج ، فطعنه فَدَقَّ صلبَهُ ، وقال :

قَيْسُ الإكافِ غَداةَ الرَّوْعِ يَعْلَمُنى ثَبْتَ المُقَام إذا لاقيتُ أقرانِى

* * *

وقد كان فَلُّ المهلَّبِ يومَ سِلَّى وَسِلَّبْرَى صاروا إلى البصرةِ ، فذكروا أنَّ المهلَّبَ أُصِيبَ ، فَهَمَّ أهلُ البصرة بالنُّقلةِ إلى البادية ، حتى وَرَدَ كتابُه بظفره ، فأقام الناسُ ، وتراجع من كان ذَهب منهم ، فعند ذلك

(١) مستحن : من الحنين . (٢) الثوب السابرى : الرقيق .

قومٌ : وَلِّ عُمَرَ بن عُبيد الله بن مَعْمر ، وقال قومٌ : ليس لهم إلاَّ المهلبُ فارْدُدْهُ إليهم .

وبَلَغتِ المَشورةُ الخوارجَ ، فأداروا الأمْرَ بينهم ، فقال قطرِىُّ بن الفَجاءَةِ المازنىُّ : إن جاءكم عُبيدُ الله بن أبى بَكْرَةَ ، أتاكم سيّدٌ سَمْحٌ جوادٌ كريمٌ مُضِيعٌ لعسكره ، وإن جاءكم عُمر بن عُبيد الله بن معْمَرٍ أتاكم شجاعٌ بَطَلٌ فارسٌ جادٌّ ، يقاتلُ لِدينِهِ ومُلْكِهِ ، وبطبيعةٍ لم أرَ مثلَها لأحدٍ ، فقد شهدتَه فى وقائعَ فما نُودىَ فى القوم لحربٍ إلاّ كان أول فارسٍ يَطلُعُ حتى يَشُدَّ على قِرْنِهِ فيَضرِبَه ، وإن رُدَّ المهلَّبُ فهو مَنْ قد عرفتموه ، إنْ أخذتم بطَرف ثوبٍ أخَذَ بطرفه الآخرِ ، يَمُدُّه إذا أرسلتموه ، ويُرْسِله إذا مددتموه ، لا يَبْدؤكم إلّا أن تَبْدءوه ، إلّا أن يَرَى فُرْصَةً فينتهزَها ، فهو الليث المُبرُّ[1] ، والثعلبُ الرَّوَّاغُ ، والبلاءُ المقيمُ .

* * *

فوَلّى عليهم عمرَ بن عُبَيْدِ الله ، وولّاه فارسَ ، والخوارجَ بأرَّجانَ ، وعليهم الزُّبيْرُ بن علىٍّ السَّلِيطِىُّ . فَشَخصَ إليهم فقاتلهم ، وألَحَّ عليهم حتى أخرجهم عنها ، فألحقهم بأصْبَهان ، فلمَّا بلغ المهلَّبَ أن مصعباً وَلَّى عُمرَ بن عُبيد الله قال : رماهمْ بفارس العربِ وفتاها .

---

(١) المبر : الغالب .

ابنَك المغيرةَ ، ففعل ، فجَمعَ الناسَ فقال لهم : إنى قد استخلفتُ عليكم المغيرة ، وهو أبو صغيركم رِقّةً ورحمة ، وابنُ كبيرِكم طاعةً و بِرًّا وتبجيلًا ، وأخو مِثلِه مُواساةً ومُناصحةً ، فلْتَحْسُنْ له طاعتُكمْ ، ولْيَلِنْ له جانِبُكم ، فوالله ما أردتُ صواباً قطُّ إلاّ سبقنى إليه . ثم مَضَى إلى مُصْعَبٍ ، وكتب مصعبٌ إلى المغيرة بولايته ، وكَتَبَ إليه : إنك لم تَكُنْ كأبيك ، فإنك كافٍ لِمَا وَلَّيْتُكَ ، فشمِّرْ واتزِرْ وجِدَّ واجتَهِدْ .

* * *

ثم شَخَصَ المصعَبُ إلى المذَار[1] فقَتَلَ أحمرَ بنَ شُمَيْط ، ثم أتى الكوفةَ فقَتلَ المختارَ بن أبى عُبَيْدٍ . وقال للمهلّبِ : أشِرْ علىَّ برجلٍ أجعَلُه بينى وبين عبد الملكِ فقال : أذكرُ لك واحداً من ثلاثةٍ : محمد ابن عميْرِ بن عُطَارِدٍ الدارِمىّ ، أو زيادَ بن عمرِو بن الأشرَف العَتَكِىّ ، أو داود بن قَحْذَمٍ ، فقال : أوَتَكْفِينِى ؟ قال : أكْفِيكَ إن شاء اللهُ ، فولّاه المَوْصلَ ، فشَخَصَ المهلّب إليها

[مشاورة مصعب الناس فيمن يكفيه أمر الخوارج]

وصار مُصْعَبٌ إلى البصرة ، فسأل : مَنْ يَسْتَكْفِى أمرَ الخوارجِ ويَفِدُ إلى أخيه ؟ فشاوَرَ الناس ، فقال قومٌ : وَلِّ عُبيدَ الله بن أبى بكْرَةَ ، وقال

---

(١) المذار : بلد فى ميسان بين واسط والبصرة ؛ وهى قصبة ميسان ؛ بينها وبين البصرة أربعة أيام .

وَإِنَّا إليه راجعون ! ثم حمل على الناس حَمْلة لم يُرَ مثلها . وحمل أصحابُه بحملته ، فقتلوا فى وجههم ذلك تسعين رجلا من الخوارج ، وحمل على قَطَرِىٍّ فضربه على جبينه ففلقه . وانهزمت الخوارجُ ، وانتهبها . فلما استقرُّوا قال لهم قطرىٌّ : أما أشرتُ عليكم بالانصراف ! فجعلوه وُجُوهَهم حتى خَرجوا من فارسَ .

وتلقّاهم فى ذلك الوقتِ الفِزْرُ بن مِهْزَمٍ العَبْدِىُّ فسألوه عن خبره ، وأرادُ قتلَه ، فأقبل على قَطَرِىٍّ فقال : إنى مؤمنٌ مهاجرٌ ، فسأله عن أقاويلهم ، فأجاب إليها ، فخلّوْا عنه ، ففى ذلك يقول فى كلمةٍ له :

وشُدُّوا وِثَاقِى ثم أَلْجوْا خُصُومَتِى[1] إلى قَطَرِىٍّ ذى الجبين المُفَلَّقِ
وحاجَجْتُهم فى دينهم وحَجَجْتُهم[2] وما دينهم غيرُ الهوَى والتخلُّقِ

ثم إنهم تراجعُوا وتكانفُوا .

[قال الأخفشُ : تكانفوا : أعانَ بعضُهم بعضاً واجتمعوا وصار بعضُهم فى كَنَفَ بعض] .

وعادُوا إلى ناحيةِ أرَّجانَ ، فسار إليهم عمر ، وكتب إلى مُصْعَبٍ : أما بعدُ ، فإنى قد لَقِيتُ الأزارقةَ ، فرَزَقَ الله عُبَيْدَ الله بن عُمر الشهادةَ ، ووَهَبَ له السعادةَ ، ورزقنا عليهم الظَّفَرَ ، فتفرَّقُوا شِذَرَ مِذَرَ ، وبلغتْنِى عنهم عوْدةٌ ، فيمَّمْتُهم ، وبالله أستعينُ وعليه أتوكلُ .

(١) ألجوا ، أصله ألجئوا . (٢) حاججتهم : نازعتهم .

فَجَمعُوا له وأَعَدُّوا واستعدُّوا ، ثم أَتوا سَابُورَ ، فسارَ إليهم حتى نزلَ منهم على أربعةِ فراسِخ ، فقال له مالكُ بن حَسَّانِ الأزدىُّ : إن المهلَّبَ كان يُذْكِى العيونَ ، ويخافُ البياتَ ، ويرْتَقِبُ الغفلةَ ، وهو على أَبْعَدَ مِن هذه المسافةِ منهم ، فقال له عمر : اسكتْ خَلَعَ الله قلبَك ! أَتُراكَ تموتُ قبلَ أجَلِكَ ! فأقامَ هناك ، فلما كان ذاتَ ليلةٍ بَيَّتَهُ الخوارجُ ، فخرج إليهم فحاربهم حتى أصبحَ ، فلم يَظْفَرُوا منه بشيء ، فأقبلَ على مالكِ بن حَسَّانٍ فقال : كيف رأيتَ ؟ قال : قد سَلَّمَ الله عزَّ وجلَّ ، ولم يكونوا يَطمعون مِنَ المهلَّبِ بمثلها ، فقال : أَمَا إنكم لو ناصحتمونى مُناصحتَكم المهلَّبَ لرَجَوْتُ أن أَنفِيَ هذا العدوَّ ، ولكنكم تقولون : قُرَشِيٌّ حجازىٌّ بَعيدُ الدار ، خيرُه لغيرنا ، فتقاتلون معى تَعذِيراً .

* * *

ثم زَحَفَ إلى الخوارجِ من غدِ ذلك اليوم ، فقاتلهم قتالا شديدا ، حتى ألجأهم إلى قنطرةٍ ، فتكاثف الناسُ عليها حتى سقطت ، فأقام حتى أصلحها ، ثم عبَرُوا ، وتقدَّم ابنُه عبيدُ الله بن عمرَ — وأمُّه من بنى سَهْمِ بن عَمرو ابن هُصَيْصِ بن كَعْب — فقاتلهم حتى قُتِلَ . فقال قَطَرِىٌّ : لا تقاتلوا عمرَ اليومَ فإنه مَوْتُور . ولم يَعلم عمر بقتل ابنه ، حتى أَفضَى إلى القوم ، وكان مع ابنه النعمانُ بن عَبَّادٍ . فصاح به : يانعمانُ ، أين ابني ؟ فقال : احْتَسِبْهُ (١) أيها الأمير (١) فقد استُشْهِدَ رحمه الله صابرًا مُقْبلا غيرَ مُدْبر ، فقال : إنَّا لله

(١ — ١) ساقط من د .

بالبصرة ، والخوارجُ بأطرافِ أصبَهانَ ، والوالى عليها عَتَّابُ بن ورقاءَ الرِّياحِىُّ ، فأقام الخوارجُ هناكَ شيئاً يجْبُونَ القُرَى ، ثم أقبلوا إلى الأهواز من ناحية فارسَ ، فكتب مُصْعَبٌ إلى عُمر بن عبيد الله : ما أنصفتنا . أقمتَ بفارسَ تجبى الخراجَ ومثلُ هذا العدوِّ يحاربُكَ ! واللهِ لو قاتلتَ ثم هربتَ لكان أعذر لك ؛ وخرج مصعبٌ من البصرة يريدهم ، وأقبلَ عمر بن عبيد الله يريدهم ، فتنحَّى الخوارجُ إلى السُّوسِ ، ثم أتوا المدائنَ ، فقتلوا أحْمرَ طَيِّءٍ ، وكان شجاعاً ، وكان من فُرْسانِ عُبيد الله بن الحُرِّ ، ففى ذلك يقولُ الشاعرُ :

تركتم فتى الفِتْيانِ أحْمرَ طَيِّءٍ بسَاباطَ لم يَعْطِفْ عليه خَليلُ

ثم خرجوا عامدين إلى الكوفة ، فلما خالطوا سوادَها ، وواليها الحارثُ بن عبد الله القُباعُ . فتثاقلَ عن الخروجِ وكان جَباناً ، فذَمَرَهُ[1] إبراهيمُ بن الأشْتَرِ ، ولامَهُ الناسُ ، فخَرَجَ متحامِلاً حتى أتى النُّخَيْلةَ ، ففى ذلك يقولُ الشاعرُ :

إنَّ القُباعَ سار سَيْرًا نُكْرَا يسيرُ يوماً ويُقيمُ شهرَا

وجعل يَعِدُ الناسَ بالخروج ولا يخرجُ ، والخوارجُ يفشون[2] ، حتى أخذوا امرأةً فقتلوا أباها بين يديها ، وكانت جميلةً ، ثم أرادوا قتلَها ، فقالتْ : أتَقتلون مَنْ يُنَشَّأُ فى الحِلْيَةِ وهو فى الخِصامِ غيرُ مُبين ! فقال قائلٌ منهم : دَعُوها ، فقالوا : قد فَتَنَتْكَ ، ثم قَدَّمُوها فقتَلُوها ، ثم قرَّبوا

---

(١) الذمر : الحض .
(٢) ر : « يعيثون » ، س : يعبثون .

فسار إليهم ومعه عطية بن عمرو ومَجّاعة بن سعيدٍ ، فالْتقوا ، فألحَّ عليهم حتى أخرجهم ، وانفردَ عمر[1] مِن أصحابه ، فعَمَدَ له أربعةَ عشَرَ رجلا منهم ، مِن مَذْكوريهم وشَجْعانهم ، وفى يده عمودٌ ، فجعل لا يضربُ رجلا منهم ضربةً إلا صرَعَهُ . فركَضَ إليه قَطَرِىٌّ على فرس طِمِرَّةٍ[2] ، وعُمر على مُهْر ، فاستعلاه قَطَرِىّ بقوة فرسه حتى كاد يَصْرَعُهُ ، فبَصُرَ به مُجّاعةَ فأسرع إليه ، فصاحت الخوارجُ بقطرىٍّ : يا أبا نَعامة ! إنّ عدوَّ الله قد رَهِقَكَ ، فانحطَّ قطرىٌّ عن قَرَبوسِهِ ، فطعنه مُجّاعةُ ، وعلى قطرىٍّ درعان فهتكهما ، وأسرعَ السِّنانُ فى رأس قطرىٍّ ، فكَشَطَ عنه جلده ونَجَا .

وارتحلَ القومُ إلى أصْبهانَ فأقاموا بها[3] بُرْهَةً ، ثم رجَعوا إلى الأهواز ، وقد ارتحل عمر بن عُبيد الله إلى إصْطَخرَ ، فأمر مُجّاعةَ فجَبَى الخراجَ أسبوعًا ، فقال له[4] : كم جَبَيْتَ ؟ قال : تِسْعَمائةِ ألفٍ ، فقال : هى لك ، فقال يزيدُ بن الحكم الثقفىُّ لِمَجّاعَةَ :

ودَعاكَ دَعْوةَ مُرْهَقٍ فأجبتَه[5] عُمَرٌ وقد نَسِيَ الحياةَ وضَاعَا
فرَدَدتَ عاديةَ الكَتيبةِ عن فتًى[6] قد كاد يُتْرَكُ لَحْمُهُ أوْزاعَا[7]

وعُزِلَ مُصْعَبُ بن الزبير ووُلِّىَ حمزةَ بن عبد الله بن الزبير ، فوَجَّه المهلَّبَ إليهم ، فحاربهم فأخرجهم عن الأهواز ، ثم رُدَّ مصعَبٌ والمهلبُ

(١) ساقط من ر .
(٢) ر : « طمر » ، والطمرة : الطويلة الخفيفة القوائم .
(٣) ساقطة من ر .
(٤) ساقطة من ر . (٥) المرهق : الذى أدرك ليقتل .
(٦) العادية : الخيل تعدو . (٧) أوزاعا : قطعا .

فغيَّرَ على الناسِ مَكاييلَهم ، فنظر إلى مكيالٍ صغيرٍ فى مَرْآةِ العَيْنِ وقد أحاط بدقيقٍ استكثره ، فقال : إن مكيالكم هذا لَقباعٌ . والقُباعُ الذى يُخْفِى أو يَخفَى ما فيه ، يقال : انْقَبَعَ الرجلُ ، إذا استَتَرَ ، ويقال للقنفذ القُبَعُ ، وذلك أنه يَخْنِسُ رأسَه .

قال أبو العباس : وأقام الخوارجُ يغادُونَ عَتَّابَ بن وَرْقاءَ القتالَ ويُرَاوِحُونَه ، حتى طال عليهم المُقامُ ، ولم يَظفَرُوا منه بكَبير ، فلما كَثُرَ ذلك عليهم انصرفُوا ، لا يمرُّون بقريةٍ بين أَصْبَهانَ والأَهْوازِ إلّا استباحوها وقتلوا من فيها

وشاوَرَ المُصْعَبُ الناس فيهم[1] ، فاجتمع[2] رأيُهم على المهلب ، فبلغ الخوارج مشاورته[3] ، فقال لهم قَطَرِىٌّ : إنْ جاءكم عَتَّابُ بن وَرْقاءَ فهو فاتِكٌ يَطْلُعُ فى أوَّلِ المِقْنَب[4] ولا يَظفَرُ بكَبيرٍ ، وإن جاءكم عُمر بن عبيد الله ففارِسٌ يُقْدِمُ ، فإمَّا له وإمَّا عليه ، وإن جاءكم المهلَّب فرجلٌ لا يُنَاجِزُكُمْ حتى تناجزوه ، ويأخذُ منكم ولا يعطيكم ، فهو البَلاءُ اللازِم ، والمكروهُ الدائمُ .

وعَزَمَ المصعَب على توجيه المهلب ، وأن يَشْخَصَ هو لحربِ عبدِ الملك ، فلما أَحَسَّ به الزُّبير بن علىٍّ خرج إلى الرَّىِّ ، وبها يزيدُ بن الحارث بن

---

(١) ساقطة من ر .
(٢) ر : « فأجمع » .
(٣) ر : « مشورته » .
(٤) المقنب : جماعة الخيل .

أُخرى ، وَهُمْ بحذاء القباع ، والجسْرُ معقودٌ بينهما ، فقطعه القباعُ ، وهو فى ستة آلافٍ ، والمرأةُ تستغيثُ به وهى تقولُ[1] : عَلامَ تقتلوننى ؟ فوالله ما فَسَقتُ ولا كَفَرْتُ ولا ارْتَدَدتُ ! والناسُ يَتفلّتونَ إلى الخوارج ، والقُبَاع يمنعهم ، فلما خاف أن يَعْصُوه أمر عند ذلك بقطع الجسْرِ ، فأقام بين دَباهَا ودَبِيرَى[2] خمسةَ أيامٍ ، والخوارجُ بقرْبه ، وهو يقول للناس فى كل يومٍ : إذا لقيتم العدوَّ غداً فأثْبتوا أقدامكم واصبِرُوا ، فإن أوّلَ الحرب التَّرامِى ، ثم إشْرَاع الرِّماح ، ثم السَّلَّةُ[3] ، فثكِلَت رجلاً أُمُّهُ فَرَّ من الزَّحْفِ ! فقال بعضُهم لمّا أكثر عليهم : أمّا الصِّفَةُ فقد سمعناها ، فمتى يَقَعُ الفعلُ ؟ وقال الراجزُ :

إن القُبَاعَ سار سَيْرًا مَلْسَا بين دَبَاها ودَبِيرَى خمسا[4]

فأخذ الخوارجُ حاجتهم ، وكان شأنُ القُبَاعِ التَّحَصُّنَ منهم ، ثم انصرفوا ورجع إلى الكوفة ، وصاروا من فورهم إلى أَصْبَهان ، فبعثَ عَتَّابُ بن وَرْقاءَ إلى الزُّبير بن عليٍّ : أنا ابنُ عمك ، ولستُ أراكَ تقصِدُ فى انصرافك من كل حرب غيرى . فبعث إليه الزُّبير : إنّ أَدْنَى الفاسقينَ وأبعدَهم فى الحق[5] سواء .

وإنما سُمِّىَ الحارثُ بنُ عبد الله بن أبى ربيعةَ القُبَاعَ ، لأنه وَلِىَ البصرةَ

---

(١) ر : « وتقول » .

(٢) دباها ودبيرى : قريتان من قرى بغداد .

(٣) السلة : استلال السيوف .

(٤) الملس : السير الشديد .

(٥) ر : « من الحق » .

فقال له بلالٌ : إنما طالَ لسانُك يا خالدُ لثلاثٍ معك هُنَّ علىَّ : الأمرُ عليك مُقْبِلٌ وهو عنى مُدْبرٌ ، وأنت مُطْلَقٌ وأنا مأسورٌ ، وأنت فى طيفَتِكَ وأنا فى هذا البلد غريبٌ . وإنما جرَى إلى هذا ، لأنهُ يقال إنَّ أصلَ آلِ الأَهْتَمِ من الحِيرةِ ، وإنهم أُشابةٌ[١] دخلتْ فى بنى مِنْقَر من الرُّومِ .

ثم انحطَّ الزُّبير بن علىٍّ على أصْبَهانَ ، فَحَصَرَ بها عَتّابَ بن وَرْقاء الرِّياحىَّ سبعةَ أشهرٍ ، وعتَّابٌ يُحارِبُه فى بعضهنَّ ، فلما طال به الحِصارُ قال لأصحابه : ما تنتظرون ؟ واللهِ ما تُؤْتَوْنَ من قِلّةٍ ، وإنكم لفُرْسانُ عَشائرِكم ، ولقد حاربتموهم مراراً فانتصفتم منهم ، وما بَقِيَ مع هذا الحصارِ إلّا أن تفْنَى ذخائرُكم ، فيموتَ أحدُكُمْ فيَدْفِنَه أخوه ، ثم يموتَ أخوه فلا يَجد مَن يدفِنُه ، فقاتِلوا القومَ وبكم قوةٌ ، مِن قَبْلِ أن يَضْعُفَ أحدُكُم عن أن يَمْشِىَ إلى قِرنِهِ . فلما أصبحَ الغدُ ، صلّى بهم الصبحَ ، ثم خرج بهم[٢] إلى الخوارج وهم غارّونَ ، وقد نَصَبَ لِواءً لجاريةٍ له يقال لها ياسِمينُ ، فقال : مَن أرادَ البقاء فليَلْحَقْ بلواءِ ياسِمينَ ، ومَن أرادَ الجهادَ فليَخرُجْ معى . فخَرج فى ألفين وسَبْعِمائةِ فارسٍ ، فلم يَشْعُرْ بهم الخوارجُ حتى غَشُوهُمْ ، فقاتَلوا بجِدٍّ لم يَرَ الخوارجُ منهم مثله ، فعَقَرُوا منهم خلقاً كثيراً وقتلوا الزُّبير بن علىٍّ ، وانهزمت الخوارج ، فلم يَتْبَعْهُمْ عتَّابٌ ، ففى ذلك يقولُ الشاعر :

وَيَوْمَ بَجِىٍّ تَلافَيْتَه ... ولولاكَ لَاصْطُلِمَ العَسْكَرُ[٣]

* * *

---

(١) الأشابة : الأخلاط من الناس ليس أصلهم واحداً ، كالأوباش والأوشاب . قاله المرصفى.
(٢) ساقط من ر .
(٣) الصلم فى الأصل : قطع الأذن .

رُوَيْمٍ ، فحارَبَه ثم حصَره ، فلما طال عليه الحصارُ خرج إليه ، فكان الظَّفَرُ للخوارج ، فقتِلَ يزيدُ بن رُوَيْمٍ ، ونادَى يومئذٍ ابنَه حَوْشَباً ففرَّ عنه وعن أُمِّه لَطيفةَ ، وكان علىُّ بن أبى طالب عليه السلام دخلَ على الحارث بن رُوَيْمٍ يعود ابنَه يزيدَ ، فقال له : عندى جاريةٌ لطيفةُ الخدمةِ أبعثُ بها إليك ، فسماها يزيدُ لطيفةَ ، فقتِلَتْ معه يومئذٍ ، فى ذلك يقول الشاعرُ :

مَوَاقِفنا فى كلِّ يومِ كريهةٍ　　أَسَرُّ وأشفَى من مَوَاقِفِ حَوْشَبِ

دعاه يزيدٌ والرِّماحُ شوَارِعٌ　　فلم يَسْتَجِبْ بل راغ تَرْوَاغَ ثَعْلَبِ

ولو كان شَهْمَ النَّفْسِ أو ذا حَفيظةٍ

رأى ما رأى فى الموتِ عيسى بن مُصْعَبِ

وقد مرَّ خبرُ عيسى بن مُصْعَبٍ مُسْتَقْصًى . وقال آخرُ :

نَجَّى حَليلَتَهُ وأسْلَمَ شَيْخَهُ　　نصْبَ الأَسِنَّةِ حَوْشَبُ بن يزيدِ

وقال ابنُ حوشبٍ لبلال بن أبى بُرْدَةَ يُعَيِّرُه بأُمِّه ، وبلالٌ مشدودٌ عند يوسف بن عمر : يا بنَ حَوْراء ، فقال بلال — وكان جلداً : إنّ الأَمَةَ تُسَمَّى حَوْرَاءَ وَجَيْداءَ ولَطيفةَ .

وزَعَمَ الكلبىُّ أن بلالاً كان جَلْدًا حين ابْتُلِىَ (١) — قال الكلبىُّ : ويُعْجِبنى أن أرى الأسيرَ جَلْدًا — قال : وقال خالدُ بن صَفْوانَ له بحضرةِ يوسفَ بن عمرَ : الحمد لله الذى أزال سُلطانَكَ وهدَّ رُكنَكَ ، وغيَّر حالَكَ ، فوالله لقد كنتَ شديدَ الحِجابِ ، مُسْتخِفًّا بالشريف ، مُظْهِرًا للعَصَبيَّةِ

---

(١) ر ، ه « حيث ابتلى » .

قال أبو العباس : نُفَسِّرُ أشياءَ من العربية تَحتاجُ إلى الشرح . من ذلك قوله : « وَلَوْلَاكَ » ، ومنه قوله : « أَلَم تَرَوْا جَيًّا » ومنه قولُه : « يَهُرُّكُم بالليل والنهارِ » .

أمّا قوله : « لَوْلَاكَ » فإن سِيبويهِ يزْعُمُ أَنَّ « لَوْلَا » تَخفِضُ المُضمَرَ ويَرْتَفِعُ بعدها الظّاهرُ بالابتداء ، فيقالُ : إذا قلتَ : لولاكَ ، فما الدليلُ على أن الكافَ مخفوضةٌ دونَ أن تكونَ منصوبةً ، وضميرُ النَّصب كضمير الخفضِ ؟ فتقولُ : إنك تقولُ لنفسك : لولاىَ ، ولو كانت منصوبةً لكانت النونُ قبل الياء ، كقولك : رمانى وأعطانى ، قال يَزيدُ بن الحكَمِ الثَّقَفِيُّ :

وكَمْ مَوْطِنٍ لولاىَ طِحْتَ كما هَوَى بأَجْرامِهِ من قُلَّةِ النِّيقِ مُنْهَوِى[1]

النيقُ : أعلَى الجَبَلِ ، وجِرْم الإنسان خَلْقُهُ

فيقالُ له : الضميرُ فى موضع ظاهرِه ، فكيف يكونُ مختلفاً ؟ وإن كان هذا جائزًا فَلِمَ لا يكونُ فى الفعل وما أشبهه ، نحو « إنَّ » وما كانَ معها فى البابِ ؟

وزَعَم الأخْفَشُ سَعيدٌ أنَّ الضميرَ مرفوعٌ ، ولكنْ وافقَ ضَميرَ الخفضِ ، كما يَستَوِى الخفضُ والنصبُ ، فيقالُ : فهل هذا فى غير هذا الموضع ؟

قال أبو العباس : والذى أقوله أنَّ هذا خطأٌ لا يَصلح ، إلّا أن تقولَ : « لولا أنتَ » ، كما قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾[1] .

---

(١) سورة سبأ ٣١ .

ـ قال أبو العباس: نفسِّرُ قولَه: «ولولاك» في آخر هذا الخبر إن شاء الله ـ

وقال رجلٌ من بني ضَبَّةَ في تلك الوقعةِ:

خَرَجْتُ من المدينةِ مُسْتَمِيتاً ولم أَكُ في كَتِيبَةِ ياسمينا
أَلَيْسَ من الفضائلِ أنّ قومي غدَوْا مُسْتَلْئِمِينَ مُجاهِدِينا

وتزعمُ الرُّواة أنهم في أيام خِصارِهم كانوا يَتَواقفُونَ، ويَحْمِلُ بعضهم على بعضٍ، وربما كانت مُواقفةٌ لِغير حرب[1]، وربما اشتدَّت الحربُ بينهم. وكان رجلٌ من أصحاب عَتَّابٍ يقال له شَرِيحٌ، ويُكنى أبا هُرَيْرَةَ، إذا تحاجزَ القومُ مع المساءِ نادى بالخوارجِ وبالزُّبير بن عليّ:

يا بنَ أبي الماحوزِ والأشْرارِ كيف تَرَوْنَ يا كِلابَ النّارِ!
شَدَّ أبي هُرَيرةَ الهَرّارِ يَهُرُّكُمْ بالليلِ والنهارِ[2]
ألم تَرَوْا جَيًّا عَلَى المِضمارِ تَمْشِي من الرحمن في جِوارِ[3]

فغاظَهُم ذلك منه، فكَمَنَ له عُبَيْدَةُ بن هلال فضربه، واحتمله أصحابه، فظنَّتِ الخوارجُ أنه قد قُتِلَ، فكانوا إذا تواقفوا نادَوْهُمْ: ما فعَلَ الهَرّارُ؟ فيقولون: مابه مِن بأْسٍ، حتى أَبَلَّ من عِلّتِهِ، فخرج إليهم فصاح: يا أعداء الله، أتَرَوْنَ بي بأساً! فصاحُوا به: قد كُنّا نَرَى أنك لَحِقتَ بأُمِّك الهاوِيَة، في النار الحاميةِ.

* * *

---

(١) ر: «بغير حرب».

(٢) أصل الهرير في الكلاب والذئب؛ إذا كشر كل منهما عن نابه؛ واستعمل في الرجل مجازا.

(٣) المضمار: الغاية.

العُطارِدِىّ : ﴿ فاتّبِعُونى يَحِبّكُمُ اللهُ ﴾ [1] ، وذلك أنّ بنى تميمٍ تدغمُ فى موضع الجزم ، وتحَرِّكُ أواخِرَه لالتقاء الساكنين .

[ولاية قطرى بن الفجاءة على الخوارج ومبايعتهم له]

رجَع الحديث .

قال أبو العباس : ثم إن الخوارجَ أدارُوا أمرَهم بينهم ، فأرادُوا توليةَ عُبَيْدَةَ بنَ هلالٍ ، فقال : أدلُّكم على من هو خيرٌ لكم منّى ! مَنْ يُطاعِنُ فى قُبُلٍ ، ويَحْمِى فى دُبُرٍ ، عليكم قَطَرِىَّ بن الفُجاءَةِ المازنىَّ . فبايَعُوه ، فوقَفَ بهم فقالوا : يا أميرَ المؤمنينَ ، امضِ بنا إلى فارِسَ ، فقال : إن بفارِسَ عُمرَ بن عُبيد الله بن مَعْمَرٍ ، ولكنْ نَصِيرُ إلى الأهواز ، فإن خرجَ مُصْعَبُ بن الزبير من البصرة دخلناها . فأَتوا الأهواز ، ثم ترَفَّعُوا عنها إلى إيذَج [2] ، وكان المصعب [3] قد عزم على الخروج إلى باجُمَيْرا [4] ، فقال لأصحابه : إنَّ قَطَرِيًّا قد أطَلَّ علينا ، وإنْ خرجنا عن البصرة دخلَها ، فبَعَثَ إلى المهلَّب فقال : اكْفِنَا هذا العدوَّ ، فخرج إليهم المهلَّب ، فلما أَحسَّ به قطرىٌّ ، يمَّم [5] نحو كِرْمانَ ، فأقام المهلَّبُ بالأهوازِ ، ثم كَرَّ قطَرِىٌّ عليه وقد استعدَّ ، فكان الخوارجُ فى جميع حالاتِهم أحسنَ

---

(١) سورة آل عمران ٣١ ، وهى قراءة شاذة ، وقرآها الأربعة عشر : « يحببكم » بفك الإرغام .

(٢) إيذج : بلد بين خوزستان وأصبهان .

(٣) ر : « مصعب » .

(٤) باجميرا : بلد دون تكرت .

(٥) ر : « تيمم » .

ومن خالفَنا "¹ فهو لابدَّ¹" يزعمُ أنَّ الذى قلناه أجْوَدُ . ويدَّعِى الوجه الآخَرَ فيُجيزه على بُعْدِهِ .

وأمّا « جَىّ » ، فالأجْوَدُ فيها أن تقولَ :

* ألم تَرَوْا جَىَّ عَلى المِضمار *

فلا تُنَوِّنَ ، لأنها مدينةٌ ، والاسمُ أعجمىٌّ ، والمؤنثُ إذا سمى باسمٍ أعجمىٍّ على ثلاثة أحرفٍ لم ينصِرف إذا كان مؤنثاً ، وإن كان أوسطه ساكناً ، نحوُ جُورَ وحِمْصَ وماهَ⁽²⁾ وما كان مثلَ ذلك . ولو كان اسماً لمذَكَرٍ لانْصَرَفَ ، فإن صرَفتَه جعلته اسماً لبلدٍ ، وإن لم تصرفه جعلتَه اسماً لبلدةٍ أو لمدينةٍ ، ألا تَرَى أنك تصرفُ نُوحاً ولوطاً ، وهما أعجميّانِ ؟ وكذلك لو كان على ثلاثة أحرف كلُّها متحركٌ ، لأنك تَصْرِف « قَدَمًا » لو سَمَّيْتَ بها⁽³⁾ رجلا ، فالأعجمىُّ بمنزلة المؤنث ، لأن امتناعَهما واحدٌ

وأمّا قولُه : « يَهِرُّكُمْ » فإن كلَّ ما كان من المضاعَف على ثلاثة أحرفٍ وكان متعدِّياً ، فإن المضارِعَ منه على « يَفْعُلُ » ، نحو شَدَّهُ يَشُدُّه ، وزَرَّه يَزُرُّه ، ورَدَّه يَرُدُّه ، وحَلَّه يَحُلُّه . وجاء منه حرفانِ على « يَفْعِل » ، و « يَفْعُلُ » ، فيهما جيد : هرَّه يَهِرُّه ، إذا كَرِهه ، ويَهُرُّه أجْوَدُ ، وعَلَّه بالحِنَّاءِ يَعِلُّه ، ويَعُلُّه أجْوَدُ . ومَن قال : حَبَبْتهُ قال : يَحِبُّهُ لا غيرُ . وقرأ أبو رَجاء

(١–١) ساقط من ر .

(٢) ساقطة من ر .

(٣) ر : « به » .

ومنصوباً ، فالرفعُ على العطفِ ، ويدخلُ فى التَّمنى ؛ والنصبُ على الشرْطِ والخروجِ من العطفِ ، وفى مصحف ابن مسعودٍ : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُوا ﴾ والقراءة ﴿ فيدْهِنُونَ ﴾[٢] على العطفِ . وفى الكلامِ : ودَّ لو تأتيه فتحدِّثُه ، وإنْ شئتَ نصبْتَ الثانى .

* * *

قال أبو العباس : وخرج مصعبُ بن الزبير إلى باجُمَيْراءَ ، ثم أتى الخوارجَ خبرُ مَقْتَلِهِ بمَسْكِنَ ، ولم يأتِ المهلّبَ وأصحابَه . فتواقفوا يوماً على الخندق ، فناداهم الخوارجُ : ما تقولون فى المُصْعَب ؟ قالوا : إمامُ هُدًى ، قالوا : فما تقولون فى عبد الملك ؟ قالوا : ضالٌّ مُضِلٌّ . فلما كان بعد يومين أتى المهلَّبَ قتلُ مُصْعَبٍ ، وأنّ أهلَ الشام اجتمعوا على عبد الملكِ ، وورَدَ عليه كتابُ عبد الملك بولايته ، فلما تواقفوا ناداهم الخوارجُ : ما تقولون فى مصعبٍ ؟ قالوا : لا نخبركم ، قالوا : فما تقولون فى عبد الملك ؟ قالوا : إمامُ هُدًى ، قالوا : يا أعداء الله ! بالأمسِ ضالٌّ مُضِلٌّ ، واليومَ إمامُ هُدًى ! يا عَبيدَ الدنيا ، عليكم لعنةُ الله !

ووَلِى خالد بن عبد الله بن أسيدٍ ، فقدِمَ فدخل البصرةَ ، فأراد عزلَ المهلّبِ ، فأُشيرَ عليه بألّا يفعلَ ، وقيل له : إنما أَمِنَ أهلُ هذا المصر ، بأنْ المهلّب بالأهواز ، وعُمَرَ بن عُبيد الله بفارسَ ، فقد تنحّى عمرُ ،

(١) سورة القلم ٩

عُدَّةً ممن يقاتلهم ، بكثرة السِّلاحِ ، وكثرة الدوابِّ ، وحَصَانَةِ الجُنَنِ ، فحارَبَهم المهلّبُ ، فنفاهم إلى رامَ هُرْمُزَ .

وكان الحارث بن عَمِيرَةَ الهَمْدانيُّ قد صارَ إلى المهلّب مُرَاغِماً لِعَتَّاب ابن وَرْقاء ، يقالُ إنه لم يُرْضِهِ عن قتلِه الزبيرَ بن عليّ ، وكان الحارثُ ابن عَمِيرَةَ هو الذى تولّى قتلَه وحاصَ إليه أصحابُه ، ففى ذلك يقولُ أعْشَى هَمْدَانَ :

إنَّ المكارِمَ أُكْمِلَتْ أسبابُها   لابنِ الليوثِ الغُرِّ من قَحْطانِ

للفارسِ الحامى الحقيقةِ مُعْلِمًا   زادِ الرِّفَاقِ إلى قُرَى نَجْرانِ [1]

الحارثِ بن عَمِيرَةَ الليثِ الذى   يَحْمِى العِرَاقَ إلى قُرَى كِرْمانِ

وَدَّ الأزارِقُ لو يُصابُ بطَعْنَةٍ   ويَموتُ من فُرْسانهم مِائتانِ

وتأويلُه : أن الرُّفْقَةَ إذا صَحِبَها أغناها عن التزوُّدِ ، كما قال جريرٌ — وأرادَ ابنٌ له سفرًا ، وفى ذلك السَّفَر يحيى بن أبى حفصةَ ، فقال لأبيه : زَوِّدْنى ، فقال جريرٌ :

أزَادًا سِوَى يَحْيَى تَرِيدُ وصاحبًا   ألاَ إنَّ يحيى نِعْمَ زَادُ المسافرِ

فما تُنْكِرُ الكَوْماءُ ضَرْبَةَ سيفِهِ   إذا أرْمَلَ أو خَفَّ ما فى الغَرائِرِ [2]

وقوله : « ويَمُوتُ من فرسانِهم » يكون على وجهين : مرفوعًا

---

(١) زيادات ر : ويروى :

* زَادَ الرِّفاقِ وفارسَ الفُرْسانِ *

(٢) أرملوا : فقد زادهم .

فاعْجَلْ إلينا ، فجاء ليلةً فقال : قد تحَرَّكَ القومُ ، فجلس المهلّبُ بباب الخندق ، وأَعَدَّ قطرىٌّ سفناً فيها حطبٌ فأشعلَها نارًا ، وأرسلَها على سُفُنِ خالدٍ ، وخَرج فى أدْبارِها حتى خالَطهُمْ ، فجعل لا يَمُرُّ برجلٍ إلّا قتلَه ، ولا بدابَّةٍ إلا عقرَها ، ولا بفسطاطٍ إلّا هتكَهُ ، فأمر المهلّبُ يزيدَ ابنَه(١) فخرج فى مائة فارس ، فقاتَلَ وأبْلَى يومئذٍ ، وخرج عبدُ الرحمن بن محمد بن الأشعث فأبْلَى بلاءً حسناً ، وخرج فَيْرُوزُ حُصَيْن فى مَواليه ، فلم يَزَلْ يرميهم بالنُّشّابِ هو ومَنْ معه ، فأثَرَ أثرًا جميلًا ، فصُرع يزيد بن المهلّبِ يومئذٍ ، وصُرِع عبدُ الرحمن ، فحامَى عنهما أصحابُهما حتى ركبا ، وسَقطَ فَيْرُوزُ حُصَينٍ فى الخندقِ ، فأخذ بيده رجلٌ من الأزدِ فاستنقذه ، فوهبَ له فيروزُ حُصَيْنٍ عشرة آلاف درهمٍ ، وأصبح عسكرُ خالدٍ كأنه حَرَّةٌ سوداء ، فجعلَ لا يَرَى إلّا قتيلًا أو صَريعًا ، فقال للمهلّبِ : يا أبا سعيدٍ ، كِدْنا نَفْتضِحُ ، فقال خَنْدِقْ على نفسِك ، فإلّا تفعلْ عادوا إليك ، فقال : اكْفِنِى أمرَ الخندقِ ، فجمَعَ له الأحْماسَ(٢) ، فلم يبقَ شريفٌ إلّا عمِلَ فيه ، فصاح بهم الخوارجُ : واللهِ لولا هذا الساحرُ المَزُونِىّ لكان اللهَ قد دمَّرَ عليكم . وكانت الخوارجُ تُسمّى المهلّبَ الساحرَ ، لأنهم كانوا يدَبِّرُونَ الأمرَ فيجدونَه قد سَبَقَ إلى نقض تدبيرهم ، فقال أعْشَى هَمْدانَ لابن الأشعثِ فى كلمةٍ طويلةٍ :

وَيوْمَ أهْوَازِكَ لا تَنْسَهُ   ليس الثَّنا والذِّكْرُ بالدَّائِرِ

---

(٢) سافطة من ر .

(٢) الأحماس : جمع حمس « بضم فسكون » ، جمع الأحمس ؛ وهم الشجعان المتشددون فى القتال .

وإن نحّيتَ المهلبَ لم تأمنْ على البصرة الأزارقةَ [١] ، فأبَى إلّا عَزْله ، فقدِم المهلَّب البصرةَ ، وخرج خالدٌ إلى الأهوازِ ، فأشْخَصَه ، فلمّا صار بِكُرْبَجَ دينار لقيَه قَطَرِىٌّ فمنعه حطَّ أثقالِه ، وحاربه ثلاثين يومًا . ثم أقام قطرىٌّ بإزائه ، وخَنْدَقَ على نفسِه ، فقال المهلَّبُ : إنَّ قطريًّا ليس بأحقَّ بالخندق منك ، فعَبَرَ دُجَيْلًا إلى شِقِّ نهر تِيرَى ، واتَّبعه قطرىٌّ ، فصار إلى مدينة نَهْرِ تِيرَى فبنَى سُورَها وخندقَ عليها ، فقال المهلَّبُ لخالد : خَنْدِقْ على نَفْسِك ، فإنِى لا آمَنُ عليك البيَاتَ ، فقال : يا أبا سعيدٍ ، الأمْرُ أعْجَلُ من ذلك ، فقال المهلّبُ لبعض ولده : إنى أرَى أمرًا ضائعًا ، ثم قال لزياد بن عَمرو : خَنْدِقْ علينا ، فخندقَ المهلَّبُ وأمَرَ بِسُفُنِه ففرّغَتْ ، وأبَى خالدٌ أن يُفرّغَ سُفُنَهُ ، فقال المهلَّبَ لفيروز حُصَين : صِرْ معنا ، فقال : يا أبا سعيدٍ ، الحَزْمُ ما تقولُ ، غيرَ أنى أكرهُ أن أفارقَ أصحابِى . قال : فكُنْ بقُرْبِنَا ، قال : أمّا هذه فنَعَم

وقد كان عبدُ الملك كتب إلى بِشْرِ بن مروان يامره ان يمد خالداً بجيشٍ كثيفٍ ، أميرُه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعَثِ ، ففعل ، فقدِمَ عليه عبدُ الرحمن ، فأقام قَطَرِىٌّ يُغادِيهم القتالَ ويَراوِحُهم أربعين يومًا ، فقال المهلَّبُ لِموْلًى لأبى عُيَيْنَةَ : انتَبِذْ إلى ذلك النّاوُوسِ [٢] فبِتْ عليه فى كل ليلةٍ ، فمتى أحْسَسْتَ خبَرًا من الخوارج أو حركةً أو صَهيلَ خيلٍ

(١) ساقطة من ر .

(٢) الناووس : مقابر النصارى .

وإنى لبَيْنَ خاصّتى . فأُتِىَ به الحجاجَ فقال له : أأنت الجاعلُ[١] فى رأس أميرك مائةَ ألفِ درهمٍ[٢] ؟ قال : قد فعلتُ ، فقال : واللهِ لأُمَهِّدَنّك[٣] ثم لأَحْمِلَنَّكَ ، أينَ المالُ ؟ قال : عندى ، فهل إلى الحياة من سبيلٍ ؟ قال : لا ، قال : فأَخْرِجْنى إلى الناسِ حتى أجمع لك المالَ فلعلّ قلبَك يَرِقُّ علىَّ ! فَفعل الحجاجُ ، فخرج فيروزُ فأَحلَّ الناسَ من ودائعه ، وأَعتقَ رقيقَه ، وتَصَدّق بماله ، ثم رُدَّ إلى الحجاج فقال : شأنَكَ الآنَ فاصْنَعْ ما شئْتَ ، فشُدَّ فى القَصبِ الفارسىّ ، ثم سُلَّ حتى شُرِّحَ ، ثم نُضِحَ بالخلّ والمِلْح ، فما تأَوَّهَ حتى ماتَ .

* * *

قال أبو العباس : ومضَى قطرىٌّ إلى كِرْمانَ ، فانصرف خالدٌ إلى البصرة ، فأَقام قطرىٌّ بكرْمانَ أشهراً ، ثم عَمد لفارسَ ، وخرج خالدٌ إلى الأهْواز ، وندَب للناس رجلًا ، فجعلوا يطلبون المهلّبَ ، فقال خالد : ذَهَب المهلبُ بحظ هذا المصرِ ، إنى قد وَلّيْتُ أخى قِتالَ الأزارقة ، فوَلّى أخاه عبدَ العزيز ، واستخلف المهلّبَ على الأهواز فى ثلثمائة ، ومضَى عبدُ العزيز فى ثلاثين ألفاً ، والخوارجُ بِدَرَابَ جَرْدَ ، فَجَعل عبدُ العزيز يقولُ فى طريقه : يَزْعُمُ أهلُ البصرة أن هذا الأمرَ لا يتِمُّ إلا بالمهلَّبِ ، فسيعلمون !

قال صَعْبُ بن زيدٍ : فلما خرج عبدُ العزيز عن الأهواز جاءنى كُرْدُوسٌ

(١) ساقطة من ر .
(٢) لأمهدنك ، من مهدت الفراش مهدا ، بسطته ووطأته ، يريد لأجعلنك طريحا كالفراش الممهود . قاله المرصفى .

وقد ذكرنا فى قصر الممدودِ ، من أن مَدَّ المقصورِ لا يجوز ، ما يغنى عن إعادته .

[فيروز حصين وبعض أخباره]

ونذكرُ فيرُوز حُصَيْنٍ لِمَا مرَّ مِن ذكره :

وكان فيروزُ حُصَيْن رجلًا جيِّدَ البيتِ فى العجم ، كريمَ المحتِدِ ، مشهورَ الآباء ، فلما أسلم والى حُصَيْنًا ، وهو حُصَيْن بن عبد الله العَنْبَرىُّ ، من بنى العَنْبَرِ بن تميم بن مُرٍّ ، ثم مِن وَلَدِ طَرِيفٍ من تميم ، وكان فيروزُ حُصَيْن شجاعاً جَوداً ، نبيلَ الصُّورة ، جهيرَ الصوتِ . وتروِى الرُّواةُ أن رجلاً من العرب كانت أمُّه فتاةً ، فقاوَلَ بنى عمٍّ له . فسَبُّوه بالعجميَّةِ ، ومرَّ فيروزُ حُصينٍ ، فقال : هذا خالِى ، فمَنْ منكم له خالٌ مثلُه ؟ وظنَّ الفتى[1] أن فيروزَ لم يسمعها ، وسَمِعَها فيروزُ ، فلما صار إلى منزله بعثَ إلى الفتى ، فاشترى له منزلًا وجاريةً ، ووهبَ له عشرةَ آلافِ دِرْهم

ومن مآثره المعروفةِ أن الحجاج بن يوسف لما وقفَ ابنَ الأشعثِ بِرُسْتَقَاباذَ نادَى منادِى الحجاجِ : مَنْ أتى برأسِ فيروز فله عشرةُ آلافِ درهمٍ . ففصَلَ فيروزُ من الصَّفِّ ، فصاحَ بالناسِ : مَنْ عرفنِى فقد اكتَفَى ، ومَنْ لم يعرفنى فأنا فيروزُ حُصَيْنٍ ، وقد عرفتم مالِى ووفائى من أتى برأس الحجاج فله مائةُ ألفٍ ، فقال الحجاج : فوالله[2] لقد تركنى أُكثِرُ التَّلفُّتَ

---

(١) ساقطة من ر .

(٢) ر : « والله » .

سعدُ الطّلائعِ ، فترَجَّلَ عَبْسُ بن طَلْقٍ فقُتِلَ ، وقُتِلَ مُقَاتِلُ بن مِسْمَعٍ ، وقُتِلَ الضبعيّ[1] صاحبُ الشرْطةِ ، وانحاز عبدُ العزيز ، واتَّبعهم الخوارج على فرسخين يقتلونَهم كيفَ شاءوا ، وكان عبد العزيز قد خرج معه بأُمِّ حَفْصٍ ابنة المنْذِرِ بن الجارُودِ امرأتِهِ ، فسَبَوُا النساء يومئذٍ ، وأَخَذُوا أَسْرَى لا تُحْصَى ، فقذَفوهم فى غارٍ بعدَ أن شَدُّوهم وَثاقاً ، ثمّ سَدُّوا عليهم بابَه حتى ماتُوا فيه .

وقال رجلٌ حَضَرَ ذلك اليومَ : رأيتُ عبدَ العزيز وإن ثلاثين رجلا ليضربونه بأَسيافهم وما تَحيكُ فى جُنته[2]

ـ يقال ما أحاكَ فيه السيفُ ، وما يُحِيكُ فيه ، وماحَكَّ ذا الأمرُ فى صَدْرِى ، وما حَكى فى صدرِى ، وما احْتَكى فى صدرى . ويقال : حاكَ الرجلُ فى مِشْيَتِهِ يَحِيكُ ، إذا تبَختَرَ

ونُودِيَ على السَّبْي يومئذٍ ، فَغولِيَ بأُمّ حفصٍ ، فبَلَغَ بها رجلٌ سبعين ألفاً ، وذلك الرجلُ من مَجُوسَ كانوا أسلموا ولحِقُوا بالخوارج ، فَفَرَضَ لكلِّ واحد منهم خَمْسَمِائَةٍ ، فكاد يأخذها ، فَشَقَّ ذلكَ على قطرىٍّ وقال : ما ينبغى لرجُلٍ مسلمٍ أن يكونَ عندَه سبعون ألفاً ، إنّ هذه لفتنة[3] ، فوَثَبَ إليها أبو الحَديدِ العبْدِيُّ فقتلَها ، فأُتِيَ به قطَرِىٌّ فقال له[4] :

---

(١) ر : « الضبيعى »
(٢) ر : « جسده »
(٣) ر . « فتنة » .
(٤) ساقطة من ر .

حاجبُ المهلبِ فقال : أجبِ الأمير ، فجئتُ إلى المهلَّب وهو فى مِطحٍ وعليه ثيابٌ هرَوِيَّةٌ ، فقال : يا صَعْبُ ، أنا ضائم ، كأنّى أنظر إلى هزيمةِ عبد العزيز ، وأخشى أن توافيَنِى الأزارقةُ ولا جُنْدَ معى ، فابعثْ رجلًا مِن قِبَلِكَ يأتينى بخبرهِم سابقاً به إلىّ ، فوجَّهتُ رجلًا يقال له عمرانُ بن فلان ، فقلتُ : اصحبْ عسكرَ عبد العزيز واكتبْ إلىّ بخبرِ يومٍ يومٍ ، فجعلتُ أورِدُه على المهلَّبِ .

فلما قارَبهم عبدُ العزيز وقفَ وَقْفة ، فقال له الناسُ : هذا يومٌ صالحٌ ، فينبغى أن تنزل[1] — أيُّها الأميرُ — حتى نطمئنَّ ثم نأخذَ أُهْبَتنا ، فقال : كلاّ ، الأمرُ قريبٌ ، فنزلَ الناسُ على غير أمرِه ، فلم يُسْتَتَمَّ النزُولُ حتى وَرَدَ عليهم سعدُ الطَّلائعِ فى خمسمائة فارسٍ ، كأنهم خيطٌ ممدود ، فناهضَهم عبدُ العزيز ، فواقفوه ساعةً ، ثم انهزموا عنه مكيدة ، فاتبعهم ، فقال له الناسُ : لا تَتْبَعْهُم فإنّا على غير تعبِيَةٍ ، فأبَى ، فلم يزَلْ فى آثارهِم حتى اقتحموا عَقَبَةً ، فاقتحمها وراءَهُم . والناسُ يَنْهَوْنَه ويأبَى ، وكان قد جَعل على بنى تميمٍ عَبْسَ بن طَلْق الصَّرِيمىَّ ، الملقَّبَ عَبْسَ الطِّعانِ ، وعلى بَكْرِ بن وائلٍ مُقاتِل بن مِسْمَعٍ القَيْسِىَّ ، وعلى شُرْطَتِهِ رجلًا من بنى ضُبَيْعةَ بن رَبيعةَ بن نِزَارٍ ، فنزلوا عن العَقَبة ونزلَ خَلْفهم ، وكان لهم فى بَطْنِ العقبة كَمينٌ ، فلما صاروا وراءَها خرج عليهم الكَمِينُ . وعطف

(١) ر : « تترك » .

وكان العلاءُ بن مُطَرِّفٍ السَّعْدِىُّ ابنَ عَمِّ عمْرٍو القَنَا ، وكان يحبُّ أنَ يلقاه فى تلك الحروب مبارزة ، فلَحِقَه عمرُو القنَا وهو منهزمٌ ، فضحك عمْرٌو وقال متمثلا :

تمَنَّانى لِيَلْقَانى لَقِيطٌ أعامِ لَكَ ابنَ صَعصَعَةَ بن سَعْدِ

ثم صاح به : انجُ أبا المُصَدَّى ! وكانَ عمرُو القنَا يُكْنَى أيضا أبا المُصَدَّى .

وهذا البيتُ الذى تمثَّلَ به عمْرٌو لِيزيدَ بن عمرِو بن الصَّعِقِ الكِلابىِّ ، يقوله ، يعنى لَقِيط بن زُرَارةَ ، وكانَ يَطْلُبُه . وقوله : « أعامِ لَكَ » يريدُ يا عامِرُ ، فرَخَّمَ ، وإنما يريدُ الحىَّ تعجباً ، أى لكمْ أعْجَبُ من تَمَنِّيه لقائى !

فَدَعَا بنى عامر بن صعصعة ، وهم بنو صعصعةَ بن معاوية بن بكرِ بن هَوَازِنَ ، ويقال إنّ عامرَ بن صعصعةَ هو ابن سعد بن زيدِ مَنَاةَ بن تميمٍ ، لاابنِ معاوية ، وإنهم ناقِلةٌ[1] فى قَيْسٍ ، ولذلك امتنعت[2] بنو سعدٍ من محاربتهم مع بنى تميمٍ يومُ جَبلة ، ولذلك أنذرهم كَرِبُ بن صَفْوَانَ .

وهذا البيتُ وضَعه سيبويه فى باب النداء الذى معناه معنى التعجُّبِ ، وشَبهه به قولُ الصَّلَتانِ العَبْدِىِّ :

فيا شاعِراً لا شاعرَ اليومَ مِثْلَهُ جَرِيرٌ ولكن فى كُلَيْبٍ تواضُعُ

على معنى قوله : فللهِ دَرُّهُ شاعِراً !

---

(١) الناقلة : القبيلة تنتمى إلى أخرى . (٢) د : « تمنعت » .

يا أبا الحديد، مَهْيَمْ! فقال: يا أميرَ المؤمنين. رأيتُ المؤمنين قد تزايَدُوا في هذه المشركة، فخشيتُ عليهم الفتنةَ. فقال قطَرِيٌّ: قد أصبتَ وأحسنتَ! فقال رجلٌ من الخوارج:

كفانا فتنةً عَظُمَتْ وجَلَّتْ ... بحمدِ الله سيفُ أبى الحديدِ

أهابَ المسلمونَ بها وقالوا ... على فَرْطِ الهوَى: هل مِن مَزيدِ؟

فزادَ أبو الحديدِ بنَصْلِ سيفٍ ... رَقيقِ الحدِّ فِعْلَ فتًى رَشيدِ

قوله: «أهابَ» يريدُ أعْلَنَ، يقال أهبْتُ به، إذا دَعَوتَهُ، مِثْلُ صَوَّتَ، قال الشاعرُ:

أهاب بأحزانِ الفؤاد مُهِيبُ ... وماتَتْ نفوس للهوَى وقلُوبُ

وقوله: «مَهْيَمْ» حرفُ استفهامٍ[1]، معناه: ما الخبرُ وما الأمرُ، فهو دالٌّ على ذلك محذوفُ الخبر، وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأَى بعبد الرحمن بن عَوْفٍ رَدْعَ خَلُوقٍ[2] فقال: مَهْيَمْ! فقال: تزوجتُ يا رسولَ، فقال: أوْلِمْ ولو بشاةٍ، وكان تزَوَّجَ على نواةٍ، وأصحابُ الحديث يَرْوُونهُ «على نواةٍ من ذَهبٍ قيمتُها خمسة دراهِمَ». وهذا خطأٌ وغلطٌ، العربُ تقولُ «نواةٌ» فتعنِي بها خمسةَ دراهمَ، كما تقول: النَّشُّ لعشرين درهماً، والأُوقِيَّةُ لأربعين درهما، فإنما هو اسمٌ لهذا المعنى.

---

(١) قال المرصفي: يريد كلمة استفهام، وهى مبتدأ محذوف الخبر.

(٢) الخلوق: الطيب.

قلتُ : ما يَسُرُّكَ ، قد هُزِمَ عبدُ العزيز[1] وفَلَّ جيشَه ، فقال : وَيْحَكَ ! وما يَسُرُّنى من هزيمةِ رجلٍ من قريشٍ وفَلِّ جيشٍ من المسلمين ! قلتُ : قد كان ذاكَ ، ساءكَ أو سَرَّكَ ، فوجَّه رجلاً إلى خالدٍ يُخبره ، قال الرجلُ : فلما أخبرتُ خالداً قال : كذبتَ ولَؤُمْتَ . ودخل رجلٌ من قريشٍ فكذَّبنى ، وقال لى خالدٌ : والله لَهَمَمْتُ أن أضربَ عنقَك ، قلتُ : أصلحَ اللهُ الأميرَ ! إنْ كنتُ كاذباً فاقتلنى ، وإن كنتُ صادقاً فأَعْطِنى مُطْرَفَ هذا المُتَكَلِّف . فقال خالدٌ : لَبِئْسَ ما أَخْطَرْتَ به دَمَك ! فما بَرِحْتُ حتى دخل بعضُ الفَلِّ

وقَدِمَ عبدُ العزيز سوقَ الأهواز ، فأكرمَه المهلَّبُ وكساه ، وقَدِمَ معه على خالدٍ ، واستخلفَ ابنَه حبيباً ، وقال له : تَحَسَّسْ عن الأخبار ، فإنْ أحسستَ بخبرِ الأزارقة قريباً منك فانصرِفْ إلى البصرة . فلم يَزَلْ حبيبٌ مقيماً والأزارقةُ تدنو منه ، حتى بَلَغُوا قنطرةَ أَرْبُكَ ، فانصرفَ إلى البصرة على نهر تِيرَى ، فلما دخلها أُعْلِمَ خالدٌ ، فغَضِبَ عليه ، واستترَ حبيبٌ فى بنى هلالِ بن عامر بن صعصعة ، فتزوَّج هناك فى استتارِه الهِلالِيَّةَ أمَّ عبَّادِ ابن حبيب .

وقال الشاعرُ لخالدٍ يُفَيِّلُ رأيَه ، أى يُخَطِّئه :

بعثتَ غلاماً من قريشٍ فَرُوقَةً[2] ... وتَتْرُكُ ذا الرأى الأصيلِ المهلَّبا

---

(١) ساقطة من ر .   (٢) الفروقة : الشديد الفزع .

وكان العلاء بن مُطَرِّف قد حملَ معه امرأتين له ، إحداهما من بني ضَبَّة يقال لها أمُّ جميل ، والأخرى بنتُ عمه ، وهي فلانةَ بنتُ عَقِيلٍ ، فطلّق الضَّبِّيَّة وتخلّص بهما يومئذٍ ، وحَمل الضَّبية أوّلاً ، ففي ذلك يقولُ :

أَلَسْتُ كريماً إذْ أقولُ لِفِتْيَتِي قِفُوا فاحملوها قبل بنتِ عَقِيلِ
ولو لم يكن عُودِي نُضَاراً لأصبحتْ تجرُّ على المَتْنَيْنِ أمُّ جميلِ [1]

* * *

قال الصَّعْبُ بن يزيدَ : بعثني المهلَّبُ لآتِيَهُ بالخبر ، فضربت [2] إلى قنطرةِ أَرْبُكَ [3] على فرسٍ اشتريتُه بثلاثةِ آلافِ درهمٍ ، فلم أُحْسِسْ خبراً ، فَسِرْتُ مُهَجِّراً إلى أن أمْسَيْتُ ، فلمّا أظْلَمْنا سمعتُ كلامَ رجلٍ عرفتُه من الجهاضم [4] ، فقلتُ : ما وراءك ؟ فقال : الشرُّ ، فقلتُ : فأين عبدُ العزيز ؟ قال : أمامك ، فلما كان مِن آخرِ الليلِ إذا أنا بزُهاء خمسين فارساً معهم لواء ، فقلتُ ، لِواءُ [5] مَن هذا ؟ فقالوا : هذا لواء عبدِ العزيز ، فتقدّمتُ إليه ، فسلّمتُ وقلتُ : أصلحَ اللهُ الأميرَ ! لا يَكْبُرَنَّ عليكَ ما كانَ ، فإنك كنتَ في شَرِّ جُنْدٍ وأَخْبَثِه . قال لي : أوَ كنتَ معنا ؟ قلتُ : لا ، ولكنْ كأنِّي شاهدٌ أمْرَكَ ، قال : كأنك كنتَ معنا ، قلتُ : أرسلني المهلّبُ لآتِيَهُ بخبرك . ثم تركتُه وأقبلتُ إلى المهلَّب ، فقال لي : ما وراءك ؟

---

(١) ر : « تجر » . (٢) ر : « فصرت » .
(٣) أربك : إحدى قرى خوزستان .
(٤) الجهاضم : يريد بني جهضم بن عوف بن مالك .
(٥) ساقطة من ر .

الحارثِ وبني العَنْبَر وما أشبه ذلك: « بَلْحارِثِ » و « بَلْعَنْبَرِ » و « بَلْهُجَيْمِ »
كما يقولون: « عَلْمَاء بَنُو فلانٍ » فيحذفون إحدى اللامَيْن .

وقوله: « ليَعُودَنّ بعدَها حُرْمِيًّا » العربُ تَنْسُبُ إلى الحَرَمِ فيقولون
« حِرْمِيٌّ » و « حُرْمِيٌّ » على قولهم حُرْمَةُ البيتِ وحِرْمَة البيتِ ، وقال
النابغة الذبيانيُّ :

من قولِ حِرْمِيَّةٍ قالتْ وقد رَحَلُوا   هل في مُخِفِّيكُمُ مَنْ يَشْتَرِي أَدَمَا[1]

والخَلُّ : هاهنا موضعٌ ، وأصلهُ الطريقُ في الرَّمْلِ .

* * *

وكَتَب خالدٌ إلى عبدِ الملك بعُذْرِ عبد العزيزِ ، وقال للمهلَّب : ما ترى
عبدَ الملك صانِعاً بي ؟ قال : يَعْزِلُكَ ، قال : أَتُرَاهُ قاطعاً رَحِمي ؟ قال :
نعم ، قد[1] أَتَتْهُ هزيمةُ أُمَيَّةَ أَخِيك من البَحْرَيْنِ . وتأتيه هَزِيمةُ أخيك
عبدِ العزيز من فارسَ !

قال أبو العباس : فكَتَب عبدُ الملك إلى خالدٍ[2] :

أما بعدُ ، فإني كنتُ حَدَدْتُ لك حَدًّا في أمرِ المهلَّب ، فلما
ملكتَ أمرَكَ نبذتَ طاعتي واستبددتُ برأيك ، فولَّيتَ المُهلَّبَ الجباية ،
ووليتَ أخاك حَرْبَ الأزارقة ، فَقَبَّحَ اللهُ هذا رأياً ! أتبعثُ غلامًا غِرًّا

---

(١) المخف : الخفيف المتاع .   (٢) ساقطة من د .
(٣) في س بعدها : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، ولم تذكر في الأصل ، د .

أَبَى الذمّ واختارَ الوَفاء وأُحْـكِمَتْ ـ قُواهُ وقد ساسَ الأمورَ وجَرَّبا

وقال الحارث بن خالدٍ المخزومىُّ :

فَرَّ عبدُ العزيزِ لمَّا رَأَى الأَبْـ طالَ بالسَّفْحِ نَازَلُوا قطَرِيَّا

ويُرْوَى :

فرَّ عبدُ العزيزِ إذ رَاءَ عِيسَى[1] وابنَ دَاودَ نَازلا قطَرِيَّا

عاهدَ اللهَ إنْ نَجَا مِلْمَنَايَا لَيَعُودَنَّ بعـــدَها حُرْمِيًّا[2]

يَسْـكُنُ الخالَّ والصِّفَاحَ فمرَّا نَ وسَلْعًا وتارةً نجْدِيًّا

حيثُ لا يَشْهَدُ القتالَ ولا يَسْـ ـمَعُ يوماً لِـكَرِّ خَيْلٍ دَوِيًّا

قولُه : « إذ رَاءَ عيسى » ، الأصلُ « رَأَى » ولـكنه قَلب فقدّم الألِفَ وأخّر الهمزةَ ، كما قال كُثَيِّرٌ :

وكلُّ خليلٍ رَاءَنِى فهو قائلٌ من أجْلِكِ هذا هامةُ اليومِ أوغَدِ

والقلب كثير فى كلام العربِ ، وسنذكر منه شيئاً فى موضعه إن شاء اللهُ .

وقولُه : « مِلْمَنَايَا » يريدُ مِنَ المنايا ، ولـكنَّه حَذَفَ النونَ لقربِ مخرجها من اللّام ، فـكانتا كالحرفين يلتقيان على لفظٍ فيُحذفُ أحدُهما ، ومن كلام العرب أن يحذفوا النونَ إذا لقِيَتْ لامَ المعرفةِ ظاهرةً ، فيقولون فى بنى

أسماء بن خارجة : إنما وَلَّاك أميرُ المؤمنين لِترَى رأيك ، فقال له عِكرِمة ابن رِبْعِيّ : اكْتُبْ إلى أميرِ المؤمنين وأعْلِمْهُ عِلّةَ المهلّبِ ، فكتب إليه يُعلِمُهُ عِلّةَ المهلَّبِ وأنّ بالبصرة من يُغنِى غَناءه ، ووَجّهَ بالكتاب مع وَفدٍ أوفدَهُمْ إليه ، رئيسُهم عبدُ الله بن حَكيمٍ المُجاشِعِىّ ، فلمَّا قرأ الكتابَ خلَا بعبد الله بن حَكيمٍ فقال : إنّ لك دِيناً ورأيا وحَزْمًا ، فمَنْ لِقتالِ هؤلاء الأزارقةِ ؟ قال : المهلَّبُ ، قال : إنه عَليلٌ ، قال : ليستْ عِلّتُه بمانعة[١] ، فقال عبدُ الملك : أرادَ بِشْرٌ أن يفعلَ ما فعلَ خالدٌ .

فكتبَ [٢] إلى بشر [٢] يَعزِمُ عليه أن يُوَلّىَ المهلّبَ ، فوجَّه إليه ، قال المهلَّبُ : أنا عَليلٌ ولا يُمكِنُنِى الاختلافُ ، فأمر بشرٌ بحمل الدواوين إليه ، فجعل يَنتَخِبُ ، فاعترض بشرٌ عليه ، فاقتطع أكثر نُخَبِته ، ثم عَزَمَ عليه[٣] ألاّ يُقيمَ بعدَ ثالثةٍ ، وقد أخَذَتِ الخوارجُ الأهوازَ وخَلَّفوها وراءَ ظهورهم وصاروا بالفُراتِ ، فخرج إليهم المهلَّبُ حتى صار إلى شَهارطَاقَ ، فأتاه شيخٌ من بنى تميمٍ ، فقال : أصلحَ اللهُ الأميرَ ! إنّ سِنّى ما ترَى ، فهَبْنِى لعيالى ، قال : على أن تقولَ للأمير إذا خَطَبَ فَحَثَّكمْ على الجهادِ ، كيفَ تَحُثُّنا على الجهادِ وأنت تحبسُ أشرافَنا وأهلَ النّجدةِ منّا ؟ ففعلَ الشيخُ ذلك ، فقال له بشرٌ : وما[٤] أنتَ وذاكَ ؟ قال : لاشىء ، وأعطَى المهلّبُ رجلا ألفَ درهمٍ على أن يأتىَ بشرًا

---

(١) ر : « بمانعته » .

(٢–٢) ساقط من ر .

(٣) ساقط من ر .

(٤) ر : « ما أنت » .

لم يُجَرِّبِ الحروبَ للحرب[1] ، وتتركُ سيداً شجاعاً مُدَبِّراً حازمًا قد مارس الحروبَ تَشْغَلُهُ بالجباية ، ! أمَا لو كافأتُك على قدرِ ذنبك لأتاكَ مِن نَكيرى مالا بَقِيَّةَ لك معه ، ولكنْ تذكَّرتُ رَحِمَك فلَفَتَتْنِى عنك ، وقد جعلتُ عقوبتَك عَزْلَكَ .

ووَلَّى بشْرَ بن مَرْوَان وهو بالكوفة وكَتب إليه :

أما بعدُ ، فإنك أخو أميرِ المؤمنين ، يجمعك وإيَّاه مَرْوانَ بن الحكَم ، وإن خالداً لا مُجْتَمَع له مع أمير المؤمنين دون أميَّةَ ، فانظرِ المهلَّبَ بنَ أبى صُفْرَةَ ، فوَلِّه حربَ الأزارقة ، فإنه سيِّدٌ بَطَلٌ مُجَرَّبٌ ، فأَمْدِدْه[2] من أهل الكوفة بثمانية آلافِ رجلٍ .

فشَقَّ عليه ما أَمَره به[3] فى المهلَّب ، وقال : واللهِ لأَقتلَنَّه ، فقال له موسى بن نُصَيْر : [4]أيُّها الأميرُ[4] ، إنَّ للمهلَّبِ حِفاظاً وبَلاءً ووفاءً .

وخَرجَ بشرُ بن مروانَ يريد البصرةَ ، فكتب موسى وعِكْرِمةُ إلى المهلَّب أن يتلقَّاه لِقاءً لا يَعْرِفُه به ، فتلقاه المهلَّبُ على بغل ، فسلَّم عليه فى خُمَارِ الناسِ ، فلما جلسَ بِشرٌ مَجْلِسَهُ قال : ما فعل أميرُكم المهلَّبُ ؟ قالوا : قد تلقَّاك أيُّها الأميرُ وهو شاكٍ

فهَمَّ بشرٌ أن يُوَلِّىَ حَربَ الأزارقة عُمرَ بن عُبيد الله ، فقال له

(١) ساقطة من ر .
(٢) أمدده : أعنه .
(٣) ساقطة من ر .
(٤–٤) ساقط من ر .

فهزمهم منها ، فدخلوا فارسَ ، وأبلى يزيدُ ابنهُ فى وقائعه هذه بلاءً شديداً[١] ، تقدَّم فيه وهو ابنُ إحدى وعشرين سنة ، فلما صارَ القومُ بفارسَ وَجَّهَ إليهم ابنَه المغيرة ، فقال له عبدُ الرحمن بن صُبْحٍ : أيها الأمير ! إنه[٢] ليس برأيٍ قتلُ هذه الأَكْلُب ، وَلَئِنْ - واللهِ - قتلْتَهم لتَقْعُدَنَّ فى بيتِكَ ، ولكنْ طَاوِلْهُمْ وكُلْ بهم ، فقال : ليس هذا من الوفاء

فلم يَلْبَثْ بِرَامَ هُرْمُزَ إلاَّ شهراً حتى أتاهم[٣] موتُ بشر ، فاضطرب الجند على ابنِ مِخْنَفٍ ، فوَجَّهَ إلى محمد بن إسحاقَ بن الأَشْعَثِ وابن زَحْر واستحلفهما ألَّا يَبْرَحَا ، فحلفا له ولم يَفِيَا ، فجعل الجندُ من أهل الكوفة يتسلَّلون حتى اجتمعوا بسوق الأَهْوازِ ، وأراد أهلُ البصرة الانسلالَ من المهلَّب ، فخطبهم فقال : إنكم لستم كأهل الكوفة ، إنما تَذُبُّونَ عن مصركم وأموالِكم وحُرَمِكمْ ، فأقام منهم قومٌ وتَسَلَّلَ منهم ناسٌ كثيرٌ

وكان خالدُ بن عبد الله خليفةَ بشرِ بن مروانَ ، فوَجَّهَ مَوْلًى له بكتاب منه إلى مَنْ بالأهواز ، يَحْلِفُ فيه بالله مجتهداً ، لئِنْ لم يَرْجِعُوا إلى مراكزهم وانصرفوا عُصاةً لا يَظْفَرُ بأحدٍ منهم إلاَّ قتله . فجاء مولاه ، فجعل يقرأُ الكتابَ عليهم ولا يَرَى فى وجوههم قبُولَه ، فقال : إنّى لأَرَى وجوهاً ما القبولُ من شأنِها فقال له ابنُ زَحْرٍ : أيُّها العبد ، اقرأْ ما فى الكتاب وانصرِفْ إلى

(١) ر : « حسنا » .
(٢) ساقطة من ر .
(٣) ر : « أتاه » .

فيقولَ له : أيُّها الأمير أعِن المهلّبَ بالشُّرْطَةِ والمُقاتِلَةِ ، ففعلَ الرجلُ ذلك ، فقال له بشرٌ : ما أنتَ وذاكَ ؟ قال نَصيحةٌ حضَرَتني[1] للأمير والمسلمينَ ، ولا أعُودُ إلى مثلها ، فأمدَّهُ بالشُّرطةِ والمُقاتِلة .

وكتب بشرٌ إلى خليفتِه بالكوفة أن يَعْقِد لعبد الرحمن بن مِخنَفٍ على ثمانيةِ آلافٍ ، من كلِّ رُبْعٍ ألفين ، وَيُوَجه به مَدَداً إلى المهلّب . فلما أتاه الكتابُ بعثَ إلى عبد الرحمن بن مِخنَفٍ الأزديِّ فعقَدَ له ، واختارَ له من كلِّ رُبْعٍ ألفين . فكان على رُبْعِ أهلِ المدينة بِشرُ بن جَريرٍ البَجَليُّ ، وعلى رُبْعِ تميمٍ وهَمْدانَ عبدُ الرحمن بن سَعيد بن قيس الهمدانيُّ ، وعلى رُبْع كِنْدةَ ورَبيعةَ محمدُ بن إسحاق بن الأشعَث الكِنْدِيُّ ، وعلى مَذْحِجٍ وأسَدٍ زَحْرُ بن قيسٍ المَذْحِجيُّ ، فقدموا على بشرٍ ، فَخَلا بعبد الرحمن بن مِخنَفٍ ، فقال له : قد عرفتَ رأيي فيك وثقتي بك ، فكُنْ عند ظَنِّي ، انْظُرْ هذا المزُونيَّ فخالِفه في أمره ، وأفسِدْ عليه رأيَه ، فخرج عبدُ الرحمن بن مِخنَفٍ وهو يقولُ : ما أعْجَبَ ما طَمِعَ منِّي فيه هذا الغلامُ ! يأمُرُني أن أصَغِّرَ شيخا من مشايخ أهلي وسيداً من ساداتهم ! فلحِقَ بالمهلب .

* * *

فلمَّا أحَسَّ الأزارقةُ بِدُنُوِّه منهم انكشفوا عن الفراتِ ، فاتبعهم المهلَّب إلى سوق الأهوازِ ، فنفاهم عنها ، ثم اتَّبعهم[2] إلى رَامَ هُرْمُزَ

---

(١) ساقطة من ر .   (٢) ر : « تبعهم » .

لَوَاضِحُ ، وإن ضعفك لبيِّنٌ ولكنِّي أكره أن يجترئ بك الناسُ عليَّ .
وبعدُ فأنت ابنُ ضابئ صاحبُ عثمانَ . ثم أمَرَ به فقُتِلَ ، فاحتملَ الناسُ ،
وإن أحدَهُم لَيُتْبَعُ بزادِه وسلاحِه ، ففي ذلك يقول ابنُ الزَّبِيرِ الأسدِيُّ :

أقولُ لعبد الله يومَ لقيتَهُ ... أرَى الامرَ أمسَى مُنْصِباً مُتَشَعِّباَ
تَخَيَّرْ فإمَّا أنْ تزورَ ابنَ ضابئٍ ... عُمَيْرًا وَإمَّا أن تزورَ المهلَّبَا
هما خطتا خَسْفٍ نَجاؤُكَ منهما ... رُكوبُكَ حَوْلِيًّا مِن الثَّلْجِ أشهبَا
فما إن أرَى الحجاجَ يَغْمِدُ سيفَه ... يَدَ الدهرِ حتى يترك الطُّفْلَ أشْيَبَا
فأضْحَى ولو كانت خُراسانُ دونَه ... رآها مكانَ السُّوقِ أو هِيَ أقْرَبَا

وهَرَبَ سَوَّارُ بن المُضَرَّبِ السَّعْدِيُّ من الحجاجِ وقال :

أقاتِلِيَ الحجاجُ إن لَم أزُرْ له ... دَرابَ وأترُكَ عندَ هندٍ فؤاديَا

وقد مرت هذه الأبياتُ .

وخرج الناسُ عن الكوفة ، وأتى الحجاجُ البصرةَ ، فكان عليهم أشدَّ إلحاحاً ، وقد كان أتاهم خبرُه بالكوفة ، فتحمَّلَ الناسُ قبلَ قدومه ، فأتاه رجلٌ من بني يَشْكُرَ ، وكان شيخاً كبيراً أعورَ ، وكان يَجْعَلُ على عينه العوراء صوفةً ، فكان يُلقَّبُ ذا الكُرْسُفَةِ ، فقال : أصلحَ اللهُ الأميرَ ! إنّ بي فتقاً ، وقد عذَرَني بشر ، وقد رَدَدْتُ العطاءَ ، فقال : إنك عندي لصادِقٌ ، ثم أمَرَ به فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ ، ففي ذلك يقول كَعْبٌ الأشقريُّ أو الفرزدق :

لقد ضَرَبَ الحجَّاجُ بالمصر ضربةً ... تَقَرْقَرَ منها بطنُ كلِّ عَرِيف

---

(١) ر : ٥ حاء ٥ :

صاحبِك ، فإنك لا تدرى مافى أنفسنا ، وجعلوا[1] يستحثونه بقرائته ، ثم قَصَدُوا قصداً الكوفة ، فنزلوا النُّخَيلةَ ، وكتبوا إلى خليفة بشر يسألونَه أن يأذنَ لهم فى الدخول فأبى ، فدخلوها بغير إذن .

[ولاية الحجاج العراق وأمره مع المهلب والخوارج]

فلم يزلِ المهلّبُ ومَن معه من قُوّادِهِ وابنُ مِخْنَفٍ فى عَدَدٍ قليلٍ، فلم يَنْشَبُوا أنْ وَلِيَ الحجَّاجُ العِراق ، فدَخَل الكوفةَ قَبْلَ البصرةِ ، وذلك فى سنة خمس وسبعين ، فخطبَهم وتهدَّدَهُمْ ، وقد ذكرنا الخطبةَ متقدِّماً . ثم نَزَلَ فقال لوجُوهِ أهلها : ما كانتِ الوُلاةُ تفعلُ بالعُصاةِ ؟ فقالوا : كانت تَضْرِبُ وتَحْبِس ، فقال الحجَّاجُ : ولكنْ ليس لهم عندى إلاَّ السيفُ ، إن المسلمين لو لم يَغْزُوا المشركين لغزاهُم المشركون ، ولو ساغتِ المعصيةُ لأهلها ما قُوتِلَ عدوٌّ ولاجُبِى فَئٌ ، ولا عَزَّ دِينٌ .

ثم جَلَسَ لتوجيهِ الناسِ ، فقال : قد أَجَّلْتُكُمْ ثلاثاً ، وأقسم بالله لا يَتَخَلَّفُ أحدٌ من أصحاب ابن مِخْنَفٍ بعدها ولا من أهل الثُّغور إلّا قَتَلْتُهُ ، ثم قال لصاحب حَرَسِهِ وصاحب شُرَطِهِ : إذا مَضَتْ ثلاثةُ أيامٍ فاتخِذا سيوفكما عِصِيًّا ، فجاءهُ عُمَيْرُ بن ضَابِئْ البُرْجُمِىُّ بابنه ، فقال : أصلح الله الأميرَ ! إنَّ هذا أنفعُ لكم مِنى ، هو أشدُّ بنى تميمٍ أَيْداً ، وأجمعُهم سلاحاً ، وأربطُهم جَأْشاً ، وأنا شَيخٌ كبيرٌ عليلٌ ، واستَشْهَدَ جُلَساءَهُ ، فقال له[2] الحجاجُ : إنَّ عُذْرَكَ

(١) ر : « يستحثونه فى قراءته » . (٢) ساقطة من ر .

فلما رأى المهلَّبُ كثرةَ الناس عليه قال: اليومَ قُوتِلَ هذا العدوُّ ولمّا رأى ذلك قَطَرِىٌّ قال: انهضوا بنا نريدُ السَّرْدَنَ[1] فنتحصَّنَ فيها، فقال عَبِيدةُ بن هلالٍ: أو نأتى سابورَ، وخرج المهلَّب فى آثارهم، فأتى أَرَّجانَ، وخاف أن يكونوا قد تحصَّنوا بالسَّرْدَنِ، وليست بمدينةٍ، ولكنْ جبالٌ مُحْدِقةٌ مَنيعةٌ، فلم يُصِبْ بها أحدا، فخرج نحوَهم فعسكَرَ بكازَرُونَ، واستعدُّوا لقتالِه، وخندَق على نفسِه، ثم وَجَّهَ إلى عبد الرحمن بن مِخْنَفٍ: خَنْدِقْ على نفسِك، فوجه إليه: خنادقُنا سيوفُنا، فوجَّه إليه المهلّب: إنى لا آمَنُ عليك البَيَاتَ، فقال ابنُه جعفرٌ: ذاك أهونُ علينا من ضَرْطَةِ جملٍ! فأقبلَ المهلَّب على ابنه المغيرةِ فقال: لم يُصيبوا الرأىَ ولم يأخذوا بالوَثيقةِ، فلما أصبحَ القومُ غادَوْه الحربَ، فبعَثَ إلى ابن مِخْنَفٍ يستمدُّه، فأمدَّه بجماعةٍ، وجعل عليهم ابنَه جعفرًا، فجاءوا وعليهم أَقْبِيَةٌ بِيضٌ جُدُدٌ، فقاتلوا يومئذٍ حتى عُرِفَ مكانُهم، وحاربهمُ المهلَّب، وأَبْلَى بنوه يومئذٍ كبلاءِ الكوفيِّين أو أشدَّ، ثم نَظَر إلى رئيسٍ منهم يقال له صالحُ بن مِخْرَاقٍ، وهو يَنْتَخِبُ قوماً من جِلَّةِ العسكرِ، حتى بلغوا أَرْبَعمائةٍ، فقال لابنه المُغيرةِ: ما يُعِدُّ هؤلاء إلاَّ لِلْبَيَاتِ. وانكشف الخوارجُ والأمرُ للمهلَّب عليهم، وقد كَثُرَ فيهم القتل والجراح.

* * *

وقد كان الحجاجُ فى كل يومٍ يتفقَّدُ العُصاةَ ويُوجِّهُ الرجالَ، فكان يَحْبِسهم نهارا، ويَفْتَحُ الحَبْسَ ليلاً، فينْسَلُ الناسُ إلى ناحيةِ المهلَّب، وكأنَّ الحجاجَ لا يعلم، فإذا رأى إسْراعَهُمْ تمثَّلَ:

---

(1) السردن: موضع ببلاد فارس بإزاء كازرون. (البكرى)، وفى ر: «السردان».

ويُروى عن ابن مَيْرَةَ قال : إنَّا لَنَتَغَدَّى معه يوماً إذ جاء رجلٌ من بَنِي سُلَيْمٍ برجل يقودُهُ ، فقال : أصلح الله الأميرَ ! إنَّ هذا عاص ، فقال : له الرجلُ : أَنْشُدُكَ الله أيُّها الأميرُ في دَمِي ، فوالله ماقبَضْتُ دِيواناً قطُّ ، ولا شهدتُ عسكراً ، وإنِّي لَحائِكٌ أُخِذْتُ من تحتِ الحفِّ[1] ، فقال : اضربوا عنقَه ، فلمَّا أحسَّ بالسيف سَجَدَ ، فلَحِقَه السيفُ وهو ساجدٌ ، فأمسكنا عن الأكل[2] ، فأقبل علينا الحجاجُ فقال : مالِي أراكم صَفِرَتْ أيديكم واصْفَرَّتْ وجوهُكم وحَدَّ نظرُكم مِن قتلِ رجل واحدٍ ! إنَّ العاصِيَ يَجْمَعُ خِلالاً : يُخِلُّ بِمَرْكَزِه ، ويَعْصِي أميرَه ، ويَغُرُّ المسلمين وهو أجيرٌ لهم ، وإنما يأخذُ الأُجرةَ لِمَا يَعملُ ، والوالِي مُخيَّرٌ فيه ، إن شاء قَتَلَ وإن شاء عَفَا .

ثم كَتب الحجاجُ إلى المهلَّب : أمَّا بعدُ ، فإنَّ بِشْراً رحمه الله استَكْرَهَ نفسَهُ عليك ، وأراك غَناءَهُ عنك ، وأنا أُرِيكَ حاجتي إليك ، فأَرِنِي الجِدَّ في قتالِ عدوِّك ، ومَنْ خِفْتَهُ على المعصيةِ مِمَّنْ قِبلَكَ فاقتُلْه ، فإني قاتلٌ مَنْ قِبلِي ، ومَنْ كان عندي مِنْ وَلِيِّ مَنْ هَرَبَ عنكَ فأعلمني مكانَه ، فإني أرى أن آخذَ الوَلِيَّ بالوَلِيِّ ، وَالسَّمِيَّ بالسَّمِيِّ .

فكَتَبَ إليه المهلَّبُ : ليس قِبَلِي إلاَّ مُطِيعٌ ، وإنَّ الناسَ إذا خافوا العقوبةَ كبَّرُوا الذَّنبَ ، وإذا أَمِنُوا العقوبةَ صَغَّروا الذنبَ ، وإذا يَئِسُوا من العفو أَكْفَرَهُم ذلك ، فهَبْ لي هؤلاء الذين سَمَّيتَهم عصاةً ، فإنما هم فريقان[3] أبطالٌ ، أرجو أن يَقتُلَ الله بهم العدوَّ ونادِمٌ على ذَنْبه .

---

(١) الحف : المنسج . (٢) ر : « الطعام » . (٣) ر : « فرسان » .

إني أخافُ البَيَاتَ على بنى تميمٍ فانْهَضْ إليهم، فَكُنْ فيهم .

فأتاهُم المغيرة ، فقال له الحَرِيشُ بنُ هلالٍ : يا أبا حاتمٍ ، أيخافُ الأميرُ أن يُؤْتَى من ناحيتنا ؟ قُلْ له فَلْيَبِتْ آمِناً ، فإنّا كافُوهُ ما قِبلنا إن شاء الله .

فلما انتصفَ الليلُ وقد رَجَعَ المغيرةَ إلى أبيه ، سَرَى صالحُ بن مِخراقٍ فى القوم الذين أعدَّهُم إلى ناحية بني تميمٍ ، ومعه عَبِيدةَ بن هلالٍ ، وهو يقولُ :

إنى لَمُذْكٍ لِلشُّرَاةِ نارَها ومانعٌ ممَّن أتاها دارَها

* وغاسِلٌ بالطَّعْنِ عنها عارَها *

فوجدَ بنى تميمٍ أيقاظا مُتَحَارِسِينَ ، فخرج إليهم الحَرِيشُ بن هلالٍ وهو يقولُ :

لقد وَجَدتمْ وُقُراً أَنْجادَا لا كُشُفا مِيلا ولا أوْغَادَا

هَيْهاتَ لا تُلْفُونَا رُقادَا لا بَلْ إذا صِيحَ بنا آسادَا

ثم حَملَ على القوم فرجَعوا عنه ، فاتبعهم وصاح بهم : إلى أينَ يا كلابَ النار ! فقالوا : إنما أُعِدَّتِ النارُ لك ولأصحابك ، فقال الحَرِيشُ : كلُّ مملوكٍ لى حُرٌّ إن لم تدْخُلوا النارَ إنْ دخلَها مجوسىٌّ فيما بين سَفَوانَ وخُراسانَ .

قوله : « وَجَدتُم وُقُرًا » جمعُ وَقُورٍ . والنَّجْدُ : ضدُّ البَليدِ ، وهو المتيقظُ الذى لا كَسَلَ عندَه ولا فُتورَ . والأمْيلُ فيه قولانِ : قالوا : الذى لا يَسْتَقِرُّ على الدابة ، وقالوا : هو الذى لا سَيْفَ معه . والأكْشفُ : الذى لا تُرْسَ معه . والأجَمُّ : الذى لا رُمْحَ معه . والحاسِرُ

إنَّ لها لسائِقاً عَشَنْزَرَا إذا وَنَيْنَ وَنْيَةً تَغَشْمَرَا

العَشَنْزَرُ : الصُّلب ، والغشمرة[1] : رُكوب الرَّأس . والمُتغشمِرُ : الجادُّ على ما خُيِّلت .

وكَتَب إلى المهلَّب مِن قَبْل الوَقْعةِ : أما بعدُ ، فإنه بلغنى أنك أقبلتَ على جبايةِ الخراجِ ، وتركتَ قتالَ العدوّ ، وإنى وَلَّيتُك وأنا أرى مكانَ عبدِ الله بن حَكيمٍ المُجاشِعي وعَبَّادِ بن حُصَيْن الحَبَطِيّ . واخترتُك وأنتَ من أهلِ عُمانَ ، ثم رجلٌ من الأزْدِ ، فالْقَهُمْ يومَ كذا فى مكانِ كذا ، وإلَّا أشرَعْتَ إليك صَدْرَ الرُّمح .

فشاوَرَ بَنِيه فقالوا : إنه أميرٌ ، فلا تَغْلُظْ عليه فى الجواب .

فكتب إليه المهلَّب : ورَدَ علىَّ كتابُك تزعم أنى أقبلتُ على جباية الخراج وتركتُ قتالَ العدوّ ، ومَنْ عَجزَ عن جباية الخراج فهو عن قتال العدوّ أعْجزُ ، وزعمتَ أنك وَلَّيتنى وأنت ترَى مكانَ عبد الله بن حكيمٍ المُجاشِعِي وعَبَّاد بن حُصَين الحبَطِيّ ، ولو وَلَّيتَهما لكانا مُسْتحِقَّيْنِ لذلك فى فَضلهما وغَنائهما وبطشهما . واخترتنى وأنا رجلٌ من الأزْدِ ، ولَعَمْرِى إنَّ شرًّا من الأزْدِ لَقبيلَةٌ تنازعُها ثلاثُ قبائلَ ، لم تَستَقِرَّ فى واحدةٍ منهنَّ . وزعمتَ أنى إن لم ألْقهم فى يوم كذا ، فى مكانِ كذا ، أشرعت إلىَّ صدرَ الرمح ، فلو فعلتَ لقَلَبْتُ إليك ظَهرَ المِجَنّ ، والسلامُ .

ثم كانت الواقعةَ . فلما انصرف الخوارجُ قال المهلَّب لابنه المُغيرةِ :

---

(١) التغشمر

لا يُدْخِلُ البوابُ إلّا مَنْ عَرَفْ عَبْداً إذا ماناءَ بالحِمْلِ خَضَفْ[1]

يقال : ناءَ بحِمْلِهِ ، إذا حَمَلَهُ فى ثِقلٍ وتَكلفٍ ، وفى القرآنِ : ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لتَنُوء بالعُصْبَةِ أولى القوَّةِ ﴾ ،[2] والمعنى أنَّ العُصْبَة تَنُوء بالمفاتيح . وقد مَضى تفسيرُ هذا[3] .

فلامَهم المهلَّب ، وقال : بِئْسَمَا قلتم ! واللهِ ما فرُّوا ولا جَبُنوا ، ولكنهم خَالفُوا أَمِيرَهم ، أفلا تذكرون فِرارَكم يوم دُولابَ ، وفرارَكم بدارِس[4] عن عثمان ، وفرارَكم عني !

* * *

ووَجَّهَ الحجاجُ البَرَاءَ بن قَبيصةَ إلى المهلّب يَسْتَحِثُّهُ فى مُناجزةِ القوم ، وكتب إليه : إنك لتُحِبّ بقاءَهم لتأكلَ بهم . فقال المهلّب لأصحابه : حَرِّكوهم ، فَخرج فرسانٌ من أصحابه إليهم ، فَخرج إليهم من الخوارج جَمعٌ ، فاقتتلوا إلى الليل ، فقال لهم الخوارجُ : وَيْلَكُمْ أَما تَمَلُّونَ ! فقالوا : لا ، حتى تَمَلُّوا ، قالوا : فمن أنتم ؟ قالوا : تميمٌ ، قالت الخوارجُ : ونحن بنو تميم ؛ فلما أمسوْا افترقوا ، فلما كان الغَدُ خرج عشَرةٌ من أصحاب المهلَّب وخرج إليهم عشرة من الخوارج ، فاحتفَر كلُّ واحدٍ منهم حَفيرَةً وأثبتَ قدَمَه فيها ،

---

(١) ر : « عبد » .

(٢) سورة القصص ٧٦ .

(٣) زيادات ر : « وتقول العرب : حبج الرجل وحبق وخضف وردم ، كل ذلك إذا ضرط » .

(٤) دارس : موضع قريب من البصرة .

الذى لا وِزع عليه . والأَعزَلُ : الذى لا يَتقَوَّمُ على ظَهر الدابَّةِ .
والوَغدُ : الضعيفُ .

ثم قال بعضهم لبعض : نأتى عسكرَ ابن مِخنَفٍ فإنه لا خَندقَ عليهم ،
وقد تَعِبَ فرسانُهم اليومَ مع المهلَّب ، وقد زَعموا أنَّا أهوَنُ عليهم من ضَرْطةِ
جَمل ، فأَتَوْهم فلم يَشعُرِ ابنُ مِخنَفٍ وأصحابُه بهم إلَّا وقد خالطوهم فى عسكرِهم .
وكان ابنُ مِخْنَفٍ شريفاً ، يقولُ رجلٌ من غامِدٍ لرجل يعاتِبُه ويَضرِب
بابن مخنفٍ المَثَل :

تَرُوحُ وتَغدُو كلَّ يومٍ معظَّماً كأنك فينا مِخنَفٌ وابنُ مِخنَفِ

فترَجَّلَ عبدُ الرحمن بنُ مِخنَفٍ بجالدهم فقُتِلَ . وقُتِلَ معه سبعون من
القُرَّاء ، فيهم نَفَرٌ من أصحاب علىٍّ بن أبى طالب صلوات الله عليه ، ونفرٌ من
أصحاب ابن مسعودٍ . وبَلغَ الخبرُ المهلّب ، وجعفرُ بن عبد الرحمن بن مِخنَفٍ
عندَ المهلَّب ، فجاءهم مُغيثاً ، فقاتَلهم حتى ارْتُثَّ[1] وصرِعَ ، ووَجَّهَ المهلّب إليهم
ابنَه حبيباً فكَشَفهم ، ثم جاء المهلَّب حتى صَلّى على ابن مِخْنَفٍ وأصحابه رحمهم
الله ، وصار جُنْدُه فى جُنْدِ المهلّب ، فضمّهم إلى ابنه حبيب ، فعيَّرهم البصريون ،
فقال رجل لجعفرِ بن عبد الرحمن :

تركتَ أصحابَنا تَدْمَى نُحورُهُمُ وجئتَ تَسعَى إلينا خَضفةَ الجَملِ[2]

قوله : « خَضفَةَ الجملِ » يريدُ ضَرْطَةَ الجَمَلِ ، يقال : خَضَفَ البعيرُ .
وأنشدنى الرِّيَاشِىُّ لأعرابىٍّ يذُمّ رجلاً اتَّخذَ وليماً :

إنَّا وَجَدْنا خلَفاً بِئْسَ الخَلَفْ أَغلَقَ عَنَّا بابَهُ ثم حَلَفْ

---

(١) ارتث : حمل من المعركة وبه بقية من الحياة . (٢) أى يا أبا خضفة .

قال : بلى والله قد سمعته ، ولكنْ قولى أحَبُّ إلىَّ منه ، وهو[1] :

فلمّا وقفتم غَدْوةً وَعَدُوُّكمْ   إلى مُهْجتى وَلَّيتُ أعداءَكم ظَهْرِى

وطِرْتُ ولم أَحْفلْ مَقالةَ عاجز   يُساقى المَنايَا بالرُّدَيْنِيَّةِ السُّمْرِ

فقال له[2] المهلّب : بئس حَشْوُ الكَتِيبَة واللهِ أنتَ ! فإن شئتَ أذِنْتُ لك فانصرفتَ إلى أهلك ، فقال : بل أُقِيمُ معك أيُّها الأميرُ . فوهبَ له المهلّبُ وأعطاه ، فقال يمدحُه :

يرَى حَتْماً عليه أبو سَعيدٍ   جِلادَ القومِ فى أولى النَّفيرِ

إذا نادَى الشُّراةُ أبا سَعيدٍ   مَشَى فى رِفْلِ مُحْكَمَةِ القَتِيرِ[3]

الرِّفلُ : الذيلَ .

* * *

وكان المهلّب يقول : ما يَسُرُّنِى أنّ فى عسكرِى ألفَ شجاعٍ بدلَ بَيْهَسِ بن صُهَيْب ، فيقال له : أيها الأميرُ ، بيهس ليس بشجاعٍ ، فيقول : أجلْ ، ولكنه سَديد الرأى مُحْكَمُ العقلِ ، وذو الرأى حَذِرٌ سؤُولٌ ، فأنا آمنُ أن يُغْتَفَل ، فلو كان مكانَه ألفُ شجاعٍ قلتُ : إنهم يَنْشامون[4] حين يُحْتاجَ إليهم[5]

ومَطَرَتِ السماء ليلةَ مطراً شديداً وهم بسابورَ ، وبين المهلّبِ وبين

---

(١) ساقطة من ر .   (٢) ر : « وقال المهلب » .

(٣) القتير : رءوس مسامير حلق الدروع .

(٤) ينشامون ؛ من انشام الشىء ، دخل فيه واختبأ ، يريد أنهم يكونون بمعزل مخافة أن يغتفلوا .   (٥) ر : « حتى يحتاج إليهم » .

فكلما قُتِلَ رجلٌ جاء رجلٌ من أصحابه فاجترّه وقام(١) مكانه ، حتى أعتموا(٢) ، فقال لهم الخوارجُ : ارجعوا ، فقالوا : بل ارجعوا أنتم ، فقالوا : ويلكم ! مَنْ أنتم ؟ فقالوا : تميم ، قالوا : ونحن تميم ، فرجع البراء بن قبيصةَ إلى الحجاج ، فقال له : مَهْ ! قال : رأيتُ قومًا لا يُعينُ عليهم إلّا اللهُ .

وكتب إليه المهلّبُ : إنى منتظرٌ بهم إحدى ثلاثٍ : موتٌ ذريعٌ ، أو جوعٌ مُضِرٌّ ، أو اختلافٌ من أهوائهم .

وكان المهلّبُ لا يتّكِلُ فى الحراسة على أحدٍ ، كان يتولّى ذلك بنفسه ، ويستعين بولده وبمن يَحُلُّ محلّهم فى الثقة عنده .

وقال أبو حَرْملةَ العَبْدِىُّ يهجو المهلّب :

عَدِمْتُكَ يا مُهلّبُ مِن أميرٍ　　أمَا تَندَى يمينُك للفقيرِ !
بِدُولابٍ أضعتَ دماءَ قومى　　وطِرْتَ على مُواشِكةٍ دَرُورِ(٣)

فقال المهلّبُ : ويحكَ ! واللهِ إنى لأَقِيكُم بنفسى ووَلَدِى ، قال : جعلنى اللهُ فداءَ الأمير ! فذاك الذى نَكرَهُ منك ، ما كلُّنا يُحِبُّ الموتَ ، قال : ويحكَ ! وهـــل عنه مَحِيصٌ ؟ قال : لا ، ولكنّا نكرَهُ التعجيلَ ، وأنت تَقدِمُ عليه إقدامًا ، قال المهلّبُ : أمَا سمعتَ قولَ هُبَيْرةَ(٤) الكَلْحَبةِ اليَرْبوعىِّ :

فقلتُ لِكأسٍ أَلجِميها فإنما　　نزَلْنا الكَثيبَ مِن زَرودَ لِنَفزَعا

---

(١) ر : « ووقف . »　(٢) أعتموا : صاروا إلى العتمة وهى ثلث الليل الأول .
(٣) ر : « دماء قوم » ، ومواشكة درور : سريعة .　(٤) ساقطة من ر .

فخرج إليه سعدُ بن نجدٍ القُرْدُوسِيُّ من الأزدِ ، ثم تجاوَلا ساعة ، فطعنه سعدٌ فقتَلَه ، والْتقى الناسُ ، فصُرِعَ يومئذٍ المغيرةُ ، فحامَى عليه سعدُ بن نجدٍ وذُبْيانُ السِّخْتِيانِيُّ وجماعةٌ من الفُرْسانِ حتى رَكِب ، وانكشفَ الناسُ عند سَقْطةِ المغيرةِ ، حتى صاروا إلى أبيه المهلّب ، فقالوا : قُتِلَ المغيرةُ ، ثم أتاه ذُبْيانُ السِّخْتِيانِيُّ ، فأخبره بسلامتِه ، فأَعْتَقَ كلَّ مملوكٍ كان بحضرتِه .

* * *

ووجَّهَ الحجاجُ الجرّاحَ بن عبد الله إلى المهلب يَسْتَبْطِئُه فى مُناجزة القومِ ، وكتب إليه : أما بعدُ ، فإنك جَبَيْتَ الخراج بالعِلَلِ ، وتحصَّنْتَ بالخنادق ، وطاوَلْتَ القومَ ، وأنت أعزُّ ناصراً ، وأكثرُ عددًا ، وما أظنُّ بك مع هذا معصيةً ولا جُبْناً ، ولكنك اتخذْتَ أُكْلاً [1] ، وكان بقاؤهم أيسرَ عليك من قتالِهم ، فناجِزْهُمْ وإلّا أنكرتَنى ، والسلام .

فقال المهلّب للجرّاحِ : يا أبا عُقْبةَ ، والله ما تركتُ حِيلةً إلّا احتَلْتُها ، ولا مكيدةَ إلّا أعْملتُها ، وما العَجَب من إبطاء النصرِ وتَراخِى الظّفرِ ، ولكنَّ العجب أن يكونَ الرأىُ لمن عِلكهُ دونَ من يُبْصِرُه ! ثم ناهضَهم ثلاثةَ أيامٍ ، يُغادِيهم القتالَ ، ولا يزالون كذلك إلى العصرِ ، وينصرفُ [2] أصحابُه وبهم قَرْحٌ ، وبالخوارج قَرْحٌ وقَتْلٌ ، فقال له [الجرّاحُ [3]] : قد أَعْذَرْتَ

(١) الأكل : الرزق .

(٢) من هنا خرم فى نسخة الأصل ينتهى فى ص ٢٨٤ من هذا الجزء .

(٣) تكملة من س .

الشراةِ عَقَبةٌ ، فقال المهلّبُ : مَنْ يكفينا هذه العقبةَ الليلةَ ؟ فلم يَقمْ أحدٌ ، فلبس المهلّبُ سِلاحَه وقام إلى العقبة واتَّبعه ابنُ المغيرةُ . فقال رجلٌ من أصحابه يقال له عبدُ الله : دعانا الأميرُ إلى ضبط العقبة ، والحظُّ فى ذلك لنا فلم نُطِعْهُ ، فلبس سلاحَه واتَّبعه جماعةٌ من أهل العسكرِ فصاروا إليه ، فإذا المهلّبُ والمغيرةُ لا ثالثَ لهما ، فقالوا : انصرفْ أيها الأميرُ ، فنحن نكفيك إن شاء الله ، فلما أصبحوا إذا بالشُّراةِ على العقبة ، فَخَرج إليهم غلامٌ من أهلِ عُمانَ على فرسٍ ، فجعل يَحْمِل وفرسُهُ يزْلَق ، وتَلَقّاه مُدْرِكُ بن المهلّب فى جماعةٍ معه حتى رَدَّهم .

فلما كان يوم النَّحْرِ والمهلّبُ على المنبر يخطبُ الناسَ ، إذا الشُّراةُ قد تألَّبُوا ، فقال المهلَّب : سبحان الله ! أَفى مثلِ هذا اليوم يا مُغيرةَ ! اكْفِنِيهِمْ ، فَخَرج إليهم المغيرةُ بن المهلّب وأمامَه سَعْدُ بن نَجْدٍ القُرْدُوسِىُّ ، وكان سعدٌ شجاعًا متقدمًا فى شجاعتِه ، وكان الحجاج[1] إذا ظَنَّ برجلٍ أنْ نفسَه قد أعْجَبَتْه قال له : لو كنتَ سعدَ بن نَجْدٍ القُرْدُوسِىَّ ما عَدَا — وقُرْدُوسٌ من الأَزْد .

فَخَرج أمامَ المغيرةِ ، وتبع المغيرةَ جماعةٌ من فرسان المهلّب ، فَالْتَقَوْا ، وأمامَ الخوارج غلامٌ جامعُ السلاحِ ، مَديدُ القامةِ ، كريهُ الوجهِ ، شديدُ الحملةِ ، صحيحُ الفُروسيّةِ ، فأقبلَ يَحْمِلُ على الناس وهو يقولُ :

نحنُ صَبَحْنَاكُمْ غَداةَ النَّحْرِ بالخيل أمثالِ الوَشيجِ تَجْرِى[2]

---

(١) ر : « وكان المهلب » ، وما أثبته عن الأصل ، س .

(٢) الوشيج : ما نبت من شجر الرماح ملتفاً دخل بعضه فى بعض .

وكتب الحجاجُ إلى عَتَّابِ بن وَرْقاءَ الرِّياحيِّ ، من بني رِياحِ بن يربوعِ بن حَنْظَلة ، وهو وَالِي إصْبهانَ ، يأمُرُه بالمسير إلى المهلَّب ، وأن يَضُمَّ إليه جُنْدَ عبدَ الرحمن بن مِخْنَف ، فكلُّ بلدٍ تدْخُلانِه من فتوح أهل البصرة فالمهلَّبُ أميرُ الجماعة فيه ، وأنتَ على أهل الكوفة ، فإذا دخلتم بلدًا فَتحهُ لأهل الكوفة فأنتَ أميرُ الجماعة [فيه](١) ، والمهلّب على أهل البصرة .

فقدِمَ عَتَّابٌ فى إحدى جُمادَيَيْنِ من سنة سِتٍّ وسبعين على المهلّب ، وهو بسابورَ ، وهى من فتوح أهل البصرة فكان المهلّب أميرَ الناسِ ، وعتابٌ على أصحاب ابن مِخْنَفٍ ، والخوارجُ فى أيديهم كَرْمانُ ، وهم بإزاء المهلّب بفارسَ يحاربونه من جميع النَّواحى .

فوَجَّهَ الحجاجُ إلى المهلّبِ رجلين يَسْتَحِثّانِه مُناجزَةَ القوم ، أحدُهما يقال له زيادُ بن عبد الرحمن ، من بني عامر بن صَعْصَعة ، والآخرُ من آل أبى عَقِيل جدِّ الحجاج ، فضمَّ زياداً إلى ابنِه حَبيبٍ ، وضمَّ الثقفىَّ إلى يزيدَ ابنه ، وقال لهما : خذَا يزيدَ وحبيباً بالمناجَزَةِ ، فَغادَوْا الخوارجَ فاقتَتَلوا أشدَّ قتالٍ ، فقتِلَ زِيادُ بن عبد الرحمن ، وفُقِدَ الثَّقفىُّ ، ثم باكَرُوهم فى اليوم الثانى وقد وُجِدَ الثقفىُّ ، فدعَا به المهلّبُ ودعَا بالغَداء ، فجعل النَّبْلُ يقع قريباً منهم ، والثقفىُّ يَعْجَبُ من أمر المهلّب ، فقال الصَّلَتانُ العبدىُّ :

أَلَا يا اصْبحانى قبلَ عَوْقِ العَوائقِ   وقبلَ اختراط القوم مثلَ العقائقِ

---

(١) من س .

فكتب المهلّب إلى الحجاج : أتانى كتابك تستبطئنى فى لقاء القوم ، على أنك لا تظنّ بى معصيةً ولا جُبْناً ، وقد عاتبتنى معاتبةَ الجبان ، وأوعدتنى وعيدَ العاصى ، فاسأل[1] الجرّاحَ ، والسلامُ .

فقال الحجّاجُ للجرّاح : كيف رأيتَ أخاك ؟ قال : والله ما رأيتُ أيها الأميرُ مثلَه قطُّ ولا ظننتُ أن أحدًا يَبْقَى على مثل ما هو عليه ، ولقد شهدت أصحابَه أياماً ثلاثةً يَغْدُون إلى الحربِ ثم ينصرفون عنها وهُم بها يتطاعنون بالرماح ، ويتجالدون بالسُّيوف ويتخابطون بالعَمَدِ ، ثم يَرُوحُونَ كأن لم يصنعوا شيئاً ، رَوَاحَ قومٍ تلك عادتُهم وتجارتُهم . فقال الحجاج : لَشَدَّ ما مَدَحْتَه أبا عُقْبَةَ ! قال : الحقُّ أَوْلَى .

وكانت رُكُب[2] الناس قديماً من الخشبِ ، فكان الرجلُ يُضْرَبُ رِكَابُه فينقطعُ ، فإذا أراد الضَّربَ أو الطَّعْن لم يكن له مُعْتَمَدٌ ، فأمر المهلّبُ فضُرِبَت الرُّكُبُ من الحديد ، وهو أولُ من أمرَ بطبعها ، ففى ذلك يقول عِمْران ابن عِصامٍ العَنَزِىُّ :

ضَرَبوا الدراهمَ فى إمارَتِهِمْ ... وضَربت للحَدَثَانِ والحربِ
حَلَقاً تُرَى منها مَرَافِقُهم ... كَمَنَاكِبِ الجَمَّالةِ الجُرْبِ[3]

* * *

(١) س : «فسل» .
(٢) الركب : جمع ركاب ؛ وهو ما يعتمد عليه راكب السرج بقدميه .
(٣) أى ضربت حلقاً ، ومرافقهم ، أى معتمدات أرجلهم . والجمالة : أصحاب الجمال .

وأبَى أن يرزقَ أهلَ الكوفة ، فقال له عتّابٌ : ما أنا ببارحٍ حتى ترزق أهل الكوفة ، فأبَى ، فجَرتْ بينهما غِلْظةٌ ، فقال عتّابٌ : قد كان يبلُغنى أنك شجاع فرأيتُك جباناً ، وكان يبلُغنى أنك جوادٌ فرأيتك بخيلاً ، فقال له المهلَّب : يا بن اللَّخْناء ! فقال له عتّابٌ : لكنَّك مُعَمٌّ مُخْوَلٌ ،[1] فغضبتْ بَكرُ بن وائلٍ للمهلّب لِلْحِلفِ ، ووَثب ابنُ نُعَيم بن هُبَيْرة بن أبى[2] مَصقلة على عتّاب فشتَمه ، وقد كان المهلّب كارهاً للحِلفِ ، فلما رأى نُصْرةَ بكر ابن وائل سرَّه الحِلف واغتبطَ به ، ولم يزل يُؤَكّدُه ، فغضبت تميمُ البصرةِ لعتّاب ، وغضبت أزدُ الكوفةِ للمهلّب

فلما رأى ذلك المغيرة بن المهلّب مَشَى بين أبيه وبين عتّابٍ ، فقال لعتّابٍ : يا أبا ورقاء ، إن الأمير يَصيرُ لك إلى كلّ ما تُحِبّ ، وسأل أباه أن يرْزقَ أهلَ الكوفة ، فأجابه ، فصَلَحَ الأمرُ ، فكانت تميمٌ قاطبةً وعتّابُ بن ورقاء يَحمَدونَ المغيرةَ بنَ المهلّب ، وقال عتّابٌ : إنى لأعرفُ فضله على أبيه . وقال رجلٌ من الأزد من بنى إيادِ بن سُودٍ :

ألاَ أبْلِغ أبا ورقاءَ عنّا[3] فلولا أنّنا كُنّا غِضابا
على الشيخ المهلّب إذْ جفانا للاَقَتْ خيلُكم منّا ضِرابا

وكان المهلب يقولُ لبنيه : لا تبدَءوهم بقتالٍ حتى يبدَءوكم فيَبْغُوا عليكم فإنهم إذا بغَوْا نُصِرتم عليهم .

---

(١) معم مخول ؛ أى كريم الأعمام والأخوال . (٢) ر : « أخى »
(٣) كذا فى س ، وفى ر : « بنى ورقاء . »

غداةُ حبيب فى الحـديد يَقُودُنا نخوضُ المنايا فى ظِلال الخوافِق

حَرُونٌ إذا ما الحربُ طار شَرَارُها[١] وهاجَ عجاجُ الحرب فوق البَوارق[١]

فمَنْ مُبْلِغٌ الحجاجِ أن أُمِينَه زياداً أطاحتْـهُ رِماحُ الأزارقِ

قوله :

* وقَبْـلَ اخترِاط القوم مثلَ العقائق *

يعنى السُّيوفَ ، والعقائقَ : جمع عَقِيقةٍ ، يقال : سيف كأنه عَقِيقةُ بَرْق ، أى كأنه لَمعَةُ برقٍ ، ويقال انعقّ البرقُ إذا تَبَسَّمَ . والعقيقةِ مواضعُ : يقال فلانٌ بعَقِيقَةِ الصَّبىّ[٢] ، أى بالشَّعْرِ الذى وُلِدَ به لم يَحْلِقه ، ويقال : عَقَقتُ الشىء أى قطعتُه ، ومِنْ ذا فلان يَعُقّ أَبوَيْهِ ، وكذا عَقَقْتُ عن الصبىّ ، إذا ذبحتَ عنه ، وقال أعرابىٌّ :

أَلم تعْلَمِى يا دارَ بَلْجَاءَ أَنَّنى إذا أَجْدَبَتْ أو كان خِصباً جَنابُها

أُحبُّ بلادِ الله ما بين مُشْرِفٍ إلىَّ وَسَلْمَى أن يَصُوبَ سَحَابُها[٣]

بلادٌ بها عَقَّ الشبابُ تميمتى وأولُ أرض مَسَّ جلْدِى ترابُها

فلم يزَلْ عَتَّابُ بن وَرْقاءَ مع المهلّب ثمانيةَ أشهر ، حتى ظَهَرَ شَبِيب ، فكتب الحجاج إلى عتّابٍ يأمره بالمصير[٤] إليه ليوجه إلى شبيب ، وكتب إلى المهلّب [يأمره][٥] بأن يرزُقَ الجندَ ، فرَزَق المهلّب أهلَ البصرة ،

---

(١) قال المرصفى : « الحرون : لقب حبيب ؛ لأنه كان يحرن فى الأرض فلا يبرح » . والبوارق : السيوف .
(٢) ر : « الصبى » بكسر الصاد وألف مقصورة .
(٣) مشرف : رمل بالدهناء .
(٤) س : « بالمسير . »
(٥) تكملة ر س .

إنما السجودُ لله ، فقال : ما سجدتُ إلاّ لك ، فقال له رجل من الخوارج : قد عَبَدَكَ من دُونِ الله ، وتلا : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾[1] .فقال قطرىّ : إنَّ هؤلاء النصارى قد عَبدوا عيسى ابن مريمَ فما ضَرَّ ذلك عيسى شيئاً ، فقام رجل من الخوارج إلى النصرانيِّ فقتله ، فأنكر ذلك عليه وقال : أقتلتَ ذِمِّيًّا ! فاختلفتِ الكلمةُ فبلغَ ذلك المهلّبَ ، فوجَّهَ إليهم رجلاً يسألهم عن شىء تقدَّمَ به إليه ، فأتاهم الرجلُ فقال : أرأيتم رجلين خرَجا مُهاجرَين إليكم ، فماتَ أحدُهما فى الطريق وبَلَغكُمْ الآخرُ فامتحنتموه فلم يُجزِ المحنةَ ، ما تقولون فيهما ؟ فقال بعضهم : أمَّا الميِّتُ فمؤمنٌ من أهل الجنة ، وأمّا الآخرَ الذى لم يُجز المحنةَ فكافرٌ حتى يُجيزَها ، وقال قومٌ آخرون : بل هما كافران حتى يجيزا المحنةَ . فكثُر الاختلافُ .

* * *

فخرج قطرىّ إلى حدود إصْطَخْرَ ، فأقام شهراً والقومُ فى اختلافهم ، ثم أقبلَ ، فقال لهم صالح بن مِخْرَاقٍ : ياقومِ ، إنكم قد أقررتم أعْينَ عدوِّكم وأطمعتوهم فيكم ، لِما ظهر من اختلافكم ، فعودوا إلى سلامة القلوب واجتماعِ الكلمة .

وخرج عَمْرُو القَنَا فنادَى : يأيها المُحِلُّونَ[2] ، هل لكم فى الطِّرَادِ ، فقد طال العهد به ! ثم قال :

ألم تَرَ أنّا مُذْ ثلاثون ليلةً ... قَريبٌ وأعداء الكتابِ على خَفْضِ

---

(١) سورة الأنبياء ٩٨ .

(٢) المحلون : الذين لا عهد لهم ولا حرمة .

فَشَخَصَ عَتّابُ بن وَرْقاءَ إلى الحجاج فى سنة سبعٍ وسبعين ، فوجَّهَه إلى شبيب ، فقتله شَبيب ، وأقام المهلّبُ على حربهم ، فلما انقضى من مُقامِه ثمانيةَ عشر شهرًا اختلفوا

وكان سببُ اختلافهم أنّ رجلاً حدّادًا من الأزارقة كان يَعْمَلُ نِصالاً مسمومة ، فيُرْمَى بها أصحابُ المهلّب ، فرُفِعَ ذلك إلى المهلّبُ فقال : أنا أكفيكُمُوه إن شاء الله فوَجَّهَ رجلاً من أصحابه بكتابٍ وألف درهمٍ إلى عسكرِ قَطَرِىّ فقال : ألْقِ هذا الكِتابَ فى عسكرِ قَطَرِىّ وَاحْذَرْ على نفسِك — وكان الحدَّادُ يقال له أبْزَى — فمضى الرسولُ ، وكان فى الكتاب : أما بعدُ ، فإنّ نِصَالك قد وَصَلَتْ إلىَّ ، وقد وجَّهْتُ إليك بألف درهمٍ ، فاقْبضْها وزِدْنا من من هذه النِّصَالِ فوَقَعَ الكتابُ والدَّراهمُ إلى قطرىّ . فدَعا بأَبزى ، فقال : ما هذا الكتابُ ؟ قال : لا أدرى ، قال : فهذه الدراهمُ ؟ قال : ما أعْلَمُ عِلْمَها ، فأَمرَ به فقُتِل ، فجاءه عبدُ رَبِّهِ الصغيرُ مَوْلَى بنى قيس بن ثَعْلَبَةَ فقال له : أَقَتَلْتَ رجلاً على غير ثقةٍ ولا تَبَيُّنٍ ! فقال له : ما حالُ هذه الدراهمِ ! قال : يجوز أن يكون أمرُها كَذِبًا ويجوزَ أن يكون حقًّا . فقال له قطرىّ : قتلُ رجلٍ فى صلاحِ الناس غيرُ مُنْكَرٍ ، وللإمام أن يحكم بما رآه صلاحًا ، وليس للرعية أن تعترض عليه ، فتَنَكَّرَ له عبدُ رَبِّهِ فى جماعةٍ [معه][1] ، ولم يفارقوه

فبلغَ ذلك المهلّبَ فدَسَّ إليه رجلاً نصرانيًّا ، فقال له : إذا رأيتَ قَطَرِيًّا فاسْجُدْ له ، فإذا نهاكَ فقل : إنما سجدت لك . ففعلَ النصرانىُّ ، فقال له قطرىّ :

---

(١) تكملة من س .

نحنُ قَمَعْنا كُمْ بِشَلِّ السَّرْح وقد نَكَأنا القَرْحَ بعدَ القَرْح[1]

الشَّلُّ : الطَّرْدُ . ويقال : نَكَأْتُ القَرْحَةَ ، مهموزٌ ، و نَكَيْتُ العَدُوَّ ، غيرُ مهموزٍ ، مِنَ النِّكايةِ ، و نَكَأْتُ القَرحةَ نَكْأً ، قال ابنُ هَرْمَةَ :

ولا أَرَاها تَزالُ ظالمـــةً[2] تُحْدِثُ لى قَرْحَةً وتَنْكَؤها

ولحِقَهُ المفضَّلُ ومُدْرِكٌ ، فصاحا برجل من طَيِّء : اكفِنا الأَسْوَدَ ، فاتْتَوَرَهُ الطائىُّ وبِشْرُ بن المغيرة فقتلاه ، وأمرَا رجلا من الأزارقة ، فقال المهلَّبُ : مِمَّن الرجلُ ؟ فقال : رجلٌ من هَمْدَان ، قال : إنك لشَيْنُ هَمْدَان ، وخَلَّى سبيله .

وكان عَيَّاشُ الكِنْدِىُّ شجاعاً بئيسا[3] ، فأَبلى يومئذ ، ثم مات على فراشه بعد ذلك ، فقال المهلَّب : لا وَأَلَتْ نفسُ الجبانِ بعد عَيَّاشٍ !

وقال المهلَّب : ما رأيتُ كهؤلاء كلّما يُنْقَصُ منهم يَزيدُ فيهم !

* * *

وَوَجَّهَ الحجاج إلى المهلّب رجلين : أحدُهما من كَلْب ، والآخَرُ من سُلَيمٍ ، يَستَحِثانه بالقتال ، فقال المهلَّب متمثلا :

ومُستَعجِبٍ مِمَّا يرَى من أناتِنا ولو زبنتْهُ الحربُ لم يترَمْرَمِ

---

(١) أقمعنا كم : قهرناكم . (٢) أى لا تزال .

(٣) البئيس : الشديد البأس .

فتهايَجَ القومُ ، وأسرعَ بعضُهم إلى بعضٍ ، فأبلَى يومئذ المغيرةُ بن المهلب ، وصار فى وسَطِ الأزارقة ، فجعلتِ الرِّماحُ تحطُه[1] وترْفعُه ، واعْتورَتْ رأسَه السُّيوفُ ، وعليه ساعدُ حديدٍ ، فوضع يَدَه على رأسِه ، فجعَلت السيوفُ لا تعملُ فيه شيئًا ، واستنقذه فرْسانٌ من الأزدِ بعدَ أنْ صُرِعَ ، وكان الذى صرَعَهُ عَبيدةُ بن هِلالٍ ، وهو ، يقولُ :

أنا ابنُ خَيْرِ قومِهِ هلالِ   شيخٌ على دِينِ أبى بِلالِ

* وذاكَ دِينى آخِرَ الليالِي *

فقال رجلٌ للمغيرة : كنَّا نَعْجَب كيفِ تصْرَعُ ، والآنَ نعجب كيف تَنْجُو !

وقال المهلَّب لبَنِيهِ : إنَّ سَرْحَكم لغارٌّ ، ولستُ آمَنُهم عليه ، أفوَكَّلتم به أحدًا ؟ قالوا : لا ، فلم يَسْتتِمَّ الكلام حتى آتاه آتٍ فقال : إنَّ صالح ابنَ مِخْراقٍ قد أغارَ على السَّرْحِ ، فشَقَّ ذلك على المهلَّب ، وقال : كلُّ أمرٍ لا أَلِيهِ بنفسى فهو ضائعٌ ، وتذَمَّرَ عليهم ، فقال له بِشْرُ بن المغيرة : أرِحْ نفسَك ، فإن كنتَ إنما تريدُ مِثلَك فوالله لا يَعْدِلُ أحدُنا شِسْعَ نَعْلِك ، فقال : خذوا عليهم الطَّريقَ ، فثار بِشْرُ بن المغيرة ، ومُدْرِكٌ والمُفَضَّلُ ابنا المهلَّبِ ، فسَبَقَ بشرٌ إلى الطريق ، فإذا رجلٌ أسودُ من الأزارقة يَشُلُّ السَّرْحَ[2] ، أى يَطْرُدُهُ ، وهو يقولُ :

---

(١) هنا آخر الخرم فى نسخة الأصل ، وأوله فى ص ٣٧٧ من هذا الجزء .

(٢) السرح : المال الذى يسام فى المرعى من الأنعام .

أخِلاَجُ إنَّكَ لن تُعانِقَ طَفْلَةً شَرِقاً بها الجَادِيُّ كالتِّمثالِ

حتى تُلاقِيَ في الكتيبةِ مُعْلِماً عَمْرو القَنَا وعَبيدةَ بنَ هلالِ

وتَرَى المُقَطَّرَ في الكتيبةِ مُقْدِماً في عُصْبةٍ قَسَطُوا مع الضُّلاَّلِ

أو أن يُعَلِّمَكَ المهلَّبُ غَزْوَةً وتَرَى جبالا قد دَنَتْ لجبالِ

قوله : « طَفْلَةٌ » يقول : ناعمة ، وإذا كسرتَ الطاء فقلت : « طِفلةٌ » فهى الصغيرة . والجادِيُّ : الزعفرانُ ، والكتيبةُ : الجيشُ ، وإنما سُمِّيَ الجيش كتيبةً لانضمام أهلِه بعضهم إلى بعضٍ ، وبهذا سُمِّيَ الكتابَ ، ومنه قولهم : كَتَبْتُ البغلةَ والناقةَ إذا خَرَزْتَ ذلك الموضعَ منها . وكَتَبْتُ القِرْبَةَ . والمُعْلِمُ : الذى قد شَهَرَ نفسَه بعلامةٍ ، إمَّا بعمامةٍ صَبيغٍ ، وإمَّا بمُشَهَّرةٍ ، وإمَّا بغير ذلك . وكان حمزةُ بن عبد المطَّلب رضوانُ الله عليه مُعْلِماً يومَ بدرٍ بريشةِ نعامةٍ فى صدره . وكان أبو دُجَانةَ — وهو سِماكُ بن خَرَشَةَ الأنصارىُّ — يومَ أُحُدٍ لمَّا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يأخُذ سيفى هذا بحقِّه ؟ قالوا : وما حقُّهُ يا رسول الله ؟ قال : « أَنْ يُضْرَبَ به فى العدوِّ حتى يَنْحَنِيَ » ، فقال أبو دُجَانَةَ : أنا ، فدفعَهُ إليه ، فلَبِسَ مُشَهَّرَةً فأَعْلَمَ بها ، وكان قومُه يَعْلمونَ ما بَلَوْا منه أنه إذا لبسَ تلك المُشَهَّرَةَ لم يُبْقِ فى نفسِهِ غايةً ، ففعل ، وخَرَجَ يمشى بين الصَّفَّيْنِ ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إنها لمِشيةٌ يُبْغِضُها الله عزَّ وَجلَّ إلاّ فى مثل هذا الموضع » . ويُرْوَى أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سَمِعَ عليًّا صلواتُ الله عليه يقولُ لفاطمةَ — ورَمَى إليها بسيفِه ، فقال : هاكِ حَميدًا فاغْسِلِي عنه الدَّمَ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

الشِّعْرُ لأَوْسِ بن حَجَر . وقوله : « زَبْنَتُهُ » يقول : دَفَعَتُه . ولم يَتَرَمْرَمْ ، أى لم يَتَحَرَّكْ ، يقال : قيلَ له كذا وكذا فما تَرَمْرَمَ .

وقال لِيزيدَ : حَرِّكْهُمْ ، فَحَرَّكَهُمْ فتهايَجُوا ، وذلك فى قريةٍ من قرى إِصْطَخْرَ ، فحَمَلَ رجلٌ من الخوارج على رجلٍ من أصحاب المهلَّبِ فطَعَنه ، فَشَكَّ فَخِذَهُ بالسَّرْجِ ، فقال المهلَّبُ للسُّلَمِيِّ والكَلْبِيِّ : كيف نقاتل قومًا هذا طَعْنُهم !

وحَمَل يزيدُ عليهم وقد جاء الرُّقادُ ، وهو من فرسانِ المهلَّبِ ، وهو أحدُ بني مالك بن ربيعةَ ، على فرسٍ له أَدْهَمَ ، وبه نَيِّفٌ وعشرون جِرَاحةً ، وقد وَضَعَ عليها القُطْنَ ، فلما حَمَلَ يزيدُ وَلَّى الجَمْعُ وحَمَاهم فارسانِ ، فقال يزيدُ لِقَيْسٍ الخُشَنِيِّ مَوْلَى العَتِيكِ : مَنْ لِهذَيْنِ ؟ قال : أنا ، فحَمَلَ عليهما ، فعَطَفَ عليه أحدُهما ، فطعنه قيسٌ الخُشَنِيُّ فصَرَعَه ، وحملَ عليه الآخرُ فعانَقَه ، فسَقَطَا جميعًا إلى الأرضِ ، فصاحَ قَيْسٌ الخُشَنِيُّ : اقتُلُونا جميعًا ، فحَمَلَتْ خيلُ هؤلاء وخيلُ هؤلاء ، فحجزوا بينهما ، فإذا مُعانِقُه امرأةٌ ، فقام قيسٌ مُسْتَحيِيًا ، فقال له يزيدُ : أمّا أنت فبارَزْتَها على أنها رجلٌ ، فقال : أرأيتَ لو قُتِلْتُ أما كان يُقالُ : قتلتْهُ امرأةٌ !

وأَبْلَى يومئذٍ ابنُ المَنْجِبِ السَّدُوسِيُّ ، فقال له غلامٌ له يقال له خِلاجٌ : والله لَوَدِدْنَا أنَّا فَضَضْنا عَسْكَرَهم حتى أصيرَ إلى مُسْتَقَرِّهِمْ فأَسْتَلِبَ مما هناك جاريتين . فقالَ مولاه : وكيف تمنَّيْتَ اثنتين ؟ قال : لِأُعْطِيَكَ إحداهما وآخذَ الأخرى ، فقال ابنُ المَنْجِبِ :

كُرْدُوسٌ : رَجُلٌ من الأزْدِ ، وكان حاجِبَ المهلَّب . وقولُهُ : « وعِلاَجُ باب الأحمرين شديدُ » ، العربُ تُسَمِّى العَجَمَ الحمراءَ ، وقد مَرَّ تفسير ذا .

وقوله : « تَوَابِـعُ » أرادَ به الرجالَ ، فجازفى الشّعْر ، وإنما رَدَّهُ إلى أصله للضّرورة ، وما كان من النعوت على « فَاعِلٍ » فَجَمعه « فاعلون » لئلاّ يلتبسَ بجمع « فاعلة » التى هى نعتٌ ، وقد قلنا فى هذا و لِمَ قالوا : فوارسُ وهَالِكُ فى الهوالكِ .

وكان بِشرُ بن المغيرة أبلَى يومئذٍ بلاءً حسناً عُرِفَ مكانُهُ فيه ، وكانت بينَه وبينَ بَنى المهلَّبِ جَفْوَة ، فقال لهم : يا بنى عَمِّ ، إنِّى قد قصَّرْتُ عن شَـكَاةِ العاتِبِ ، وجاوَزْتُ شَـكَاةَ المُستَعْتِب[1] ؛ حتى كَأَنِّى لا مَوْصُولٌ ولا مَحْرُومٌ ، فاجعلوا لى فرْجَةَ أَعِشْ بها وهَبُونِى أمْرَأً رَجَوتُم نصْرَهُ ، أو خِفْتُم لسانَه . فرَجَعوا له ووَصَلُوا ، وكلَّموا فيه المهلَّبَ فوصلَه .

ووَلَّى الحجاجُ كَرْدَمًا فارسَ ، فوجَّهه الحجاجُ إليها و الحربُ قائمةٌ ، فقال رجلٌ من أصحاب المهلَّب :

ولو رآها كَرْدَمٌ لـكَرْدَمَا كَرْدَمَة العَيْرِ أَحَسَّ الضَّيْغَمَا

الضَّيْغَمُ : الأسدُ . و الـكَرْدَمةُ : النفورُ

* * *

فـكَتَب المهلب إلى الحجاج يسأله أن يتجافى له عن إصْطَخْرَ ودَرَابَ جِرْدَ

(١) العاتب : الساخط ، والمستعتب : طالب الرضا .

«لِئِنْ كنتَ صدقتَ القتالَ اليومَ لقد صَدَقَهُ معك سِمَاكُ بنُ خَرَشَةَ وسَهلُ ابن حُنَيْفٍ والحارثُ بن الصِّمَّةِ». وفى بعض الحديث «وقَيْسُ بنُ الرَّبِيعِ» وكلُّ هؤلاء من الأنصار.

عاد الحديث إلى ذكر الخوارج:

وعَمْرُو القَنَا من بنى سعدِ بن زيد مَنَاةَ بن تميمٍ، وعَبِيدَةُ بن هلال من بنى يَشْكُرَ بن بكر بن وائلٍ، والذى طَعَنَ صاحبَ المهلَّب فى فخذه فشكَّها مع السَّرْجِ من بنى تميمٍ، قال: ولا أدرى أعَمْرُو هو أم غيرُه. والمُقعطِرُ من عَبْدِ القيس.

وقوله: «قسطوا» أى جارُوا، يقال قَسَطَ يَقْسِطُ فهو قاسِطٌ، إذا جار، قال اللهُ جلَّ ثناؤه: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[1]. ويقال: أقسطَ يُقْسِطُ فهو مُقْسِطٌ، إذا عَدَلَ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[2].

وكان بَدْرُ بن الهُذيل شجاعًا، وكان لحَّانة، فكان إذا أَحَسَّ بالخوارج نادى يا خَيْلِ[3] اللهِ ارْكَبى، وله يقولُ القائلُ:

وإذا طَلَبْتَ إلى المهلَّبِ حاجةً ... عَرَضَتْ تَوابِعُ دُونَه وعَبِيدُ
العبدُ كُرْدُوسٌ وعَبْدٌ مِثْلُه ... وعِلَاجُ بابِ الأَحْمَرِينِ شَدِيدُ

---

(١) سورة الجن ١٥.
(٢) سورة الحجرات ٩.
(٣) بكسر اللام؛ وهو موضع اللحن.

وكان سببُ ذلك أن عَبيدة بن هلالٍ اليَشكُرِيّ اتُّهِمَ بامرأة رجلٍ حدادٍ رأوه مراراً يدخل منزلَه بغير إذنٍ ، فأتوا قطريًّا فذكروا ذلك له ، فقال لهم : إن عَبيدةَ من الدينِ بحيثُ علمتم ، ومن الجهاد بحيثُ رأيتم ، فقالوا : إنّا لا نُقارُّه[1] على الفاحشة ، فقال : انصرفوا ، ثم بعَثَ إلى عَبيدة فأخبره وقال : إنا لا نُقارُّ على الفاحشة ، فقال : بَهَتونى[2] يا أمير المؤمنين ، فما ترَى ؟ قال : إنى جامعٌ بينَك وبينَهم ، فلا تخضَعْ خُضوعَ المذنِب ، ولا تتطاوَلْ تطاوُلَ البرىء ، فجَمَعَ بينهم فتكلموا ، فقام عَبيدةَ فقال : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفكِ عُصْبَةٌ منكُم ، لا تحسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ، بل هو خيرٌ لكُمْ ﴾[3] الآياتِ ، فبكَوْا وقاموا إليه فاعتنقوه ، وقالوا : استغفِرْ لنا ، ففعَلَ ، فقال لهم عبدُ رَبِّهِ الصغيرُ مولى بنى قيس بن ثَعْلَبَةَ : واللهِ لقد خدَعكم . فبايَعَ عبدَ ربّه منهم ناسٌ كثيرٌ لم يُظهِروا ولم يَجِدوا على عَبيدةَ فى إقامه الحدّ ثَبَتاً .

***

وكان قَطَرِىٌّ قد استعملَ رجلًا من الدَّهاقِينِ فظهرتْ له أموالٌ كثيرة ، فأتَوْا قَطَرِيًّا فقالوا : إن عمر بن الخطاب لم يكن يُقارُّ عُمّاله على مثل هذا ، فقال قَطَرِىٌّ : إنى استعملتُه وله ضِياعٌ وتجاراتٌ ، فأَوْغَرَ ذلك صدورَهم ، وبَلَغ ذلك المهلّب ، فقال : إن اختلافَهم أشدُّ عليهم منّى .

---

(١) من المقارة ، وهى السكون والطمأنينة .   (٢) بهتونى : قالوا على مالم أفعل .
(٣) سورة النور ١١ وما بعدها .

لأرزاقِ الجُنْدِ ، ففعل ، وقد[1] كان قطرىٌّ هَدَمَ مدينة إصْطَخْرَ ، لأنَّ أهلها كانوا يكاتبون المهلب بأخباره ، وأراد مثلَ ذلك بمدينةَ فَسَا ، فاشتراها منه آزَادْ مردُ ابنُ الهِرْبِذِ بمائة ألفِ درهمٍ فلم يهدمها ، فواقعه المهلّب فهزمه ، ونفاه إلى كِرمانَ ، واتَّبعَه ابنُه المغيرة وقد كان دفع إليه سيفاً وجَّهَ به الحجاجُ إلى المهلّب وأقسم عليه أن يتقلّده ، فدفعه إلى المغيرة بعد ما تقلّد به ، فرجع به المغيرةُ إليه وقد دَمَّاه ، فَسُرَّ المهلَّب بذلك وقال : ما يَسُرُّنى أن أكونَ كنتُ قد[1] دَفعتُه إلى غيرك من وَلدِى ، اكْفِنِى جِبايةَ خراج هاتين الكُورَتَيْنِ ، وضَمَّ إليه الرُّقَادَ ، فَجَعلا يَجْبِيَانِ ولا يُعْطِيَانِ الجُنْدَ شيئاً ، ففى ذلك يقول رجلٌ منهم ، وأَحْسِبُه من بنى تميمٍ ، فى كلمة له :

ولو عَلِم ابنُ يوسفَ ما نُلاَقِى من الآفاتِ والكُرَبِ الشِّدَادِ
لفاضتْ عينُهُ جَزَعًا علينــا وأصْلَحَ ما استطاعَ من الفسادِ
ألا قُلْ للأمير جزيتَ خيرًا أَرِحْنَا من مُغيرةَ والرُّقَادِ
فما رَزَقا الجنودَ بها قَفِيزاً وقد ساسَتْ مَطامِيرُ الحصادِ[2]

يقال : سَاسَ الطعامُ وأَسَاسَ ، إذا وقع فيه السُّوس ، ودَادَ وأَدَادَ ، من الدُّودِ ، ورَوَى أبو زيدٍ : « دِيدَ فهو مَدودٌ » فى هذا المعنى .

فحاربهم المهلّب بالسيرَجانِ حتى نفاهم عنها إلى جيرفْتَ ، واتبعهم فنزل قريباً منهم ، واختلفت كلمتهم .

---

(١) ساقطة من د .
(٢) المطامير : جمع مطمورة ؛ وهى حفرة تحت الأرض تخبأ فيها الحبوب .

وسِرْ بنا إلى عدوك ، فأبَى قطرىٌّ إلا المقَطرَ ، فحَمَلَ فتًى من العرب على صالح بن مخراقٍ ، فطعنه فأنفذه وأجَرَّهُ الرمحَ فقتَله .

ومعنى « أجَرَّهُ الرمحَ » طعنه وترك الرمحَ فيه ، قال عَنترةُ :

وآخَرَ منهمُ أجْرَرْتُ رمحى وفى البَجَلِىِّ مِعْبَلَةٌ وَقِيعُ

فنَشَبَتِ الحربُ بينهم ، فتهايجُوا ، ثم انحاز كلُّ قومٍ إلى صاحبهم ، فلما كان الغدُ اجتمعوا فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فأجْلت الحربُ عن ألفى قتيلٍ ، فلما كان الغدُ باكروهم القتالَ ، فلم ينتصف النهارُ حتى أخرجت العجمُ العربَ من المدينة . وأقام عبدُ ربه بها ، وصار قَطَرِىٌّ خارجاً من مدينة جيرُفتَ بإزائهم ، فقال له عَبيدة : يا أميرَ المؤمنين ، إنْ أقمتَ لم آمَنْ هذه العبيدَ عليك إلّا أن تُخَنْدِقَ . فخَنْدَقَ على باب المدينة ، وجعل يُناوشهم .

وارتحلَ المهلَّب فكان منهم على ليلةٍ ، ورسولُ الحجاج معه يستحثّه ، فقال له : أصلح اللهُ الأميرَ ! عاجِلْهُمْ قبلَ أن يصطلحوا ، فقال المهلّب : إنهم لن يصطلحوا ، ولكن دَعْهُمْ ، فإنهم سيصيرون إلى حالٍ لا يفلحون معها ، ثم دَسَّ رجلاً من أصحابه فقال : إيتِ عَسكرَ قطَرِىٍّ فقلْ : إنى لم أزَلْ أرَى قطريًّا يُصِيب الرأىَ حتى نزلَ منزلَه هذا فبانَ خَطَؤُه ، أتقيمُ بين المهلّب وعَبْدِ رَبِّهِ ، يغاديه هذا القتالَ ويُراوحُهُ هذا ! فنمى الكلامُ إلى قطَرِىٍّ ، فقال : صَدَقَ ، تَنَحَّوْا بنا عن هذا الموضع ، فإن اتبعَنا

وقالوا لقطرىّ : ألاَ تخْرُجُ بنا إلى عدوّنا ؟ فقال : لا ، ثم خرج ، فقالوا : قد كذبَ وارتدّ ! فاتبعوه يوماً فأحسّ بالشّرّ ، فدخل داراً مع جماعةٍ من أصحابه ، فصاحوا به : ياداَّبة اخرُجْ إلينا ، فخرج إليهم ، فقال : رجعتم بعْدِى كفّاراً ! فقالوا : أَوَلَسْتَ دابّةً ! قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾[1]، ولكنك قد كفرتَ بقولك : إنّا قد رَجَعْنا كفاراً ، فتب إلى اللهِ عزّ وجلّ ، فشاور عَبيدةَ ، فقال : إن تُبْتَ لم يَقبلُوا منك ، ولكن قُلْ : إنما استفهمتُ فقلتُ : أرجعتم بعدى كفاراً ؟ فقال ذلك لهم ، فقبلوه منه ، فرجَع إلى منزله ، وعزَمَ أن يبايعَ المقْعطَرَ العبدِىَّ ، فكرهه القومُ وأبوْهُ ، فقال له صالح بن مِخراقٍ عنه وعن القوم : ابْغِ لنا غيرَ المقعْطَرِ ، فقال لهم[2] قطرىٌّ : أرَى طول العهد قد غيّرَكُمْ ، وأنتم بصَدَدِ عَدُوّكُمْ ، فاتّقُوا الله وأقبِلُوا على شأنِكم ، واستعِدّوا للقاء القوم ، فقال صالح بن مِخرَاق : إنّ النَّاسَ قَبلَنا قد[2] سَامُوا عثمانَ ابنَ عفّانَ أن يَعزِلَ عنهم سعيدَ بنَ العاصِى ففعَل ، ويجب على الإمام أن يُعْفِىَ الرعيةَ مما كَرِهَتْ . فأبى قطرىٌّ أن يعزله ، فقال له القومُ : إنّا خلعناك وولّينا عَبدَ رَبِّهِ الصغيرَ ، فانفصل إلى عبد ربه أكثرُ من الشّطْر ، وجُلّهُمْ الموالى والعجمُ ، وكان هناك منهم ثمانية آلافٍ ، وهم القُرَّاء ، ثم ندم صالحُ بنُ مِخرَاقٍ ، فقال لقطرىٍّ : هذه نَفْخَةٌ من نفخات الشيطان ، فأعفِنَا مِنَ المُقعطَرِ

(١) سورة هود ٦ . (٢) ساقطة من ر .

فنحنُ أهلَ الجزْءِ من فُرْسانِنا[1] والضَّارِبينَ جماجِمَ الأبطالِ

* * *

ووجّه المهلّب يزيدَ إلى الحجاج يُخْبِرُهُ أنه قد نزَلَ منزلَ قطرىٍّ ، وأنه مقيمٌ على عبدِ ربِّهِ ، ويسألُه أن يُوَجّهَ فى إثرِ قطرِىٍّ رجلًا جَلْدًا فى جيشٍ ، فسرَّ ذلك الحجاجَ سرورًا أظهرَهُ ، ثم كتب إلى المهلّب يستحثُّه مع عُبَيْدِ بن مَوْهَبٍ ، وفى الكتابِ :

أمَّا بعدُ ، فإنكَ تتراخَى عن الحرب حتى تأتيكَ رُسُلِى ، فترجعَ بعُذْرِكَ ، وذلك أنكَ تُمْسِكُ حتى تَبْرَأَ الجراحُ ، وتُنْسَى القتلَى ، ويَجِمَّ النَّاسُ[2] ، ثم تلقاهم فتحتمِلُ منهم مثلَ ما يَحْتَمِلُون منك مِن وَحْشَةِ القتل ، وألَمِ الجراح ، ولو كنتَ تلقاهم بذلك الجِدِّ لكان الداء قد حُسِمَ ، والقرْنُ قد قُصِمَ[3] ، ولَعَمرِى ما أنتَ والقومُ سَواء ؛ لأنَّ مِن ورائك رجالًا وأمامَك أموالًا ، وليس للقوم إلّا ما معهم ، ولا يُدْرَكُ الوَجيفُ بالدَّبيبِ ، ولا الظّفرُ بالتَّعذيرِ .

فقال المهلّبُ لأصحابه : إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أراحكُمْ من أقرانٍ أربعةٍ : قطرىِّ بن الفَجاءَةِ ، وصالحِ بن مِخْراقٍ ، وعَبيدةَ بن هِلَالٍ ، وسعْدِ الطلائع ؛ وإنما بينَ أيديكَم عبدُ ربّهِ ، فى خُشارٍ من خُشَارِ[4] الشيطان ، تقتلونَهم إن شاء الله .

---

(١) أهل الجزء : أهل الكفاية والغناء فى الحرب . (٢) يجم الناس : يستريحون .

(٣) قصم قرن الحيوان : كسر ؛ ضرب به مثلا لهلاك القوم .

(٤) الخشار : الردىء من كل شىء .

المهلب قاتلناه ، وإن أقام على عبد ربه رأيتم فيه ما تحبون . فقال له الصَّلْتُ ابن مُرَّةَ : يا أمير المؤمنين ، إنْ كنتَ إنما[1] تريدُ الله فأَقْدِمْ على القوم ، وإن كنت إنما[1] تريد الدنيا فأعْلِمْ أصحابك حتى يَستأمِنوا ، وأنشأ الصَّلْت يقولُ :

قُل لِلمُحِلِّينَ قد قَرَّتْ عُيونُكمُ ... بفرْقةِ القومِ والبَغضاءِ والهرَبِ

كنا أُناساً على دِينٍ فغيَّرَنا ... طولُ الجِدالِ وخَلْطُ الجِدِّ باللَّعِبِ

ما كان أغنَى رجالاً ضَلَّ سَعْيُهمُ ... عن الجدالِ وأغناهم عن الخُطَبِ

إنى لأَهْوَنُكمْ فى الأرض مُضْطَرَباً ... مالِى سِوى فَرَسِى والرمْحِ مِنْ نَشَبِ

ثم قال : أصبحَ المهلّب يرجو مِنّا ما كنَّا نطمعُ فيه منه ، فارتحل قطرىٌّ ، وبلغ ذلك المهلّب ، فقال لِهُرَيْم بن عَدِىّ بن أبى طَخْمَةَ المُجاشِعِىّ : إنى لا آمَنُ أن يكونَ قطرىٌّ كادَنا بتركِ موضعه ، فاذهب فتَعَرَّفِ الخبر ، فمضى هُرَيْمٌ فى اثنى عشر فارساً ، فلم ير فى العسكر إلّا عبداً وعِلْجًا ، فسألهما عن قطرىّ وأصحابه ، فقالا : مَضَوْا يرتادون غيرَ هذا المنزلِ ، فرجعَ هُرَيْمٌ إلى المهلّب فأخبره ، فارتحلَ المهلّب حتى نزلَ خَنْدَقَ قطرىٍّ ، فجعل يقاتلهم أحياناً بالغداةِ ، وأحياناً بالعشىّ ، ففى ذلك يقولُ رجلٌ من سَدُوسَ ، يقالُ له المُعْنِق ، وكان فارساً :

ليتَ الحرائرَ بالعراقِ شَهِدْنَنا ... ورأيْنَنا بالسَّفْحِ ذى الأجْبالِ

---

(١) ساقطة من د .

ونَخوتهِ ، واختلاطِ عَبيدةَ بن هِلالٍ ، وَوَكَلَكُمْ إلى بَصائرِكم ، فالقَوا عَدُوَّكم بصبرٍ ونيةٍ ، وانتقلوا عن منزلكم هذا ؛ مَنْ قُتِلَ منكم قُتِلَ شهيداً ، ومَنْ سَلِم من القتلِ فهو المحرومُ .

وقَدِمَ فى هذا الوقتِ على المهلّب عُبَيْدُ بنُ أبى رَبيعةَ بن أبى الصَّلْتِ الثقفىُّ ، يَستَحِثُّه بالقتال ، ومعه أمِينانِ ، فقال له : خالفتَ وصيةَ الأمير ، وآثرتَ المدافعةَ والمطاولةَ ، فقال له المهلّب : ماتركتُ جُهْدًا ، فلما كان العَشِيُّ خرج الأزارقةُ وقد حملوا حُرَمَهُمْ وأموالَهم وخِفَّ مَتاعِهم لينتقلوا ، فقال المهلّب لأصحابه : الزموا مَصافَّكُمْ ، وَأَشرِعُوا رماحَكم[1] ، وذَروهم والذَّهابَ ، فقال له عُبَيْدٌ : هذا لعَمرِى أيسَرُ عليك ، فقال للناس : رُدُّوهم عن وَجْهِهم[2] ، وقال لِبَنِيهِ : تفرَّقُوا فى الناس ، وقال لعُبَيْدِ بن أبى ربيعة : كنْ مع يزيدَ فَخُذْهُ بالحزمة أشدَّ الأَخْذ ، وقال لأحدِ الأمينَيْنِ : كن مع المغيرةِ ولا تُرَخِّصْ له فى الفُتور ، فاقتتلوا قتالًا شديداً ، حتى عُقِرَتِ الدوابُّ وصُرِعَ الفُرسانُ ، وقُتِلَتِ الرجالُ فجعلتِ الخوارجُ تقاتِلُ على القَدَحِ يؤخذ منها والسَّوطِ والعِلْقِ الخسيسِ أشدّ قتالٍ ، وَسَقَطَ رمحٌ لرجلٍ من مُرادٍ من الخوارجِ ، فقاتَلوا عليه حتى كَثُرَ الجراحُ وَالقتلُ ، وَذلك مع المَغربِ ، وَالمُرادِىُّ يقولُ :

اللَّيْلُ لَيْلٌ فيه وَيْلٌ وَيلُ   وسالَ بالقومِ الشُّراةِ السَّيلُ

* إن جاز للأعداء فينا قولُ *

---

[1] أشرع الرمح : صوبه .

[2] « وجههم »

فكانوا يَتفادَوْنَ القتالَ ويَتراوَحُون ، فتصيبُهم الجراحُ ، ثم يتحاجَزُون، كأنما انصرفوا من مجلس كانوا يتحدثون فيه ، فيضحكُ بعضُهم إلى بعض ، فقال عُبَيْد بنُ مَوْهَب للمهلّب : قد بانَ عُذْرُكَ ، وأنا مخبِرٌ الأميرَ . فكتب المهلّب إليه :

أمّا بعدُ : فإنى لم أُعطِ رسلَكَ على قول الحق أجراً ، ولم أحتجْ منهم مع المشاهدة إلى تلْقِينٍ ، ذكرتَ أنى أُجِمُّ القومَ ، ولابدَّ من راحةٍ يستريحُ فيها الغالب ، ويحتالُ فيها المغلوب . وذكرتَ أنَّ فى ذلك الجمامِ ما يُنسى القتلى ، وتبرأُ منه الجراحُ ، وهيهاتَ أن يُنْسَى ما بيننا وبينهم ، تأبى ذلك قتلَى لم تجَنّ ، وقروحٌ لم تتقرّفْ[1] ، ونحنُ القوم على حالةٍ ، وهُم يرْقُبونَ منّا حالاتٍ ، إن طمِعُوا حارَبوا ، وإن ملُّوا وَقفوا ، وإن يَئِسوا انصرَفوا ، وعلينا أن نُقاتلهم إذا قاتلوا ، ونتحرَّزَ إذا وَقفُوا ، ونَطلُب إذا هرَبُوا فإن تركْتَنى والرأى كان القرنُ مَقْصُوماً ، والداءُ بإذنِ الله مَحْسُوماً ، وإن أعجلتَنى لم أُطِعْكَ ولم أعصِ ، وجعلتُ وَجْهى إلى بابِكَ ، وأنا أعوذ باللهِ من سخَطِ اللهِ ، ومَقتِ الناسِ .

* * *

ولما اشتدّ الحِصارُ على عبد ربّهِ قال لأصحابه : لا تفتقروا إلى من ذهب منكم من الرجال ، فإن المسلمَ لا يفتقر مع الإسلام إلى غيره ، والمسلمُ إذا صَحَّ توحيدُه عزّ بربه ، وقد أراحكُم الله من غِلْظَةِ قطَرِىٍّ ، وعَجَلةِ صالح بن مخراق

(١) لم تتقرف : لم تتقشر ولم تيبس .

وقالَ لمَعْن بن المغيرة بن أبي صُفْرةَ : احْمِلْ ، فقال : لا ، إلّا أن تزَوّجَني أمَّ مالكٍ بنت المهلّب ، ففعلَ ، فحَمَلَ على القوم فكَشَفَهم ، وطَعَنَ فيهم ، وقال :

ليتَ مَنْ يَشْتري الغَداةَ بمالٍ ... هُلْكَهُ اليومَ عندَنا فيَرانَا

نَصِلُ الكَرَّ عندَ ذاكَ بطَعْنٍ ... إنَّ لِلْمَوْتِ عندَنا أَلْوَانَا

ثم جالَ الناسُ جَوْلَةً عند حَمْلةٍ حَمَلَها عليهم الخوارجُ ، فالتفتَ عند ذلك المهلّب إلى المغيرة فقال : ما فَعَلَ الأمينُ الذى كان معك ؟ قال : قتِلَ ، وكان الثّقفيُّ قد هَرَبَ ، وقال ليزيدَ : ما فعلَ عُبَيْدُ بن أبي ربيعةَ ؟ قال : لم أَرَهُ منذُ كانت الجولةُ ، فقال الأمينُ الآخرُ للمغيرةِ : أنت قتلتَ صاحبي ، فلما كانَ العَشِيُّ رجَعَ الثقفيُّ ، فقال رجلٌ من بنى عامرِ بن صَعْصَعَةَ :

ما زلتَ يا ثقفِيُّ تخطب بيننَا ... وتَغُمُّنا بوصيَّةِ الحجّاجِ

حتى إذا ما الموتُ أقبلَ زَاخِرًا ... وسَمَا لنا صِرْفًا بغير مِزَاجِ

وَلّيتَ يا ثقفِيُّ غيرَ مُناظِرٍ ... تَنْسَابُ بين أَحِزَّةٍ وفِجَاجِ

ليستْ مقارعةُ الكماةِ لدَى الوغَى ... شُرْبَ المُدامَةِ فى إناءِ زُجاجِ

قوله : « بيْنَ أحِزَّةٍ » هو جمع حَزِيزٍ ، وهو مَتْنٌ يَنْقَادُ من الارض ويَغْلُظُ ، والفِجَاجُ : الطُّرُقُ ، واحدُها فَجٌّ .

وقال المهلَّبُ للأمين الآخرِ : ينبغى أن تتوجَّهَ مع ابنِ حَبيبٍ فى ألفِ رجل حتى تبيِّتُوا عسكرَهم ، فقال : ما تُريدُ أيُّها الأميرُ إلّا أن تَقْتُلَنى

فلما عظم الخطب فيه بعثَ المهلَّب إلى المغيرة[1] : خَلِّ لهم عن الرمح ، عليهم لعنة الله[1] ، فَخَلَوا لهم عنه .

ثم مَضَتِ الخوارجُ حتى نزلوا على أربعةِ فراسخَ من جيرُفْتَ ، ودخلها المهلّب ، وأمر بجمعِ ما كان لهم فيها من المَتاعِ ، وما خَلّفوه من دقيقٍ[2] وخَتَمَ عليه هو والثقفىُّ والأمينانِ ، ثم اتبعهم ، فإذا هُم قد نَزَلُوا على عينٍ لا يَشْرَب منها إلّا قوىٌّ ، يأتى الرجلُ بالدَّلْوِ قد شَدّها فى طَرَف رمحه فيستقى بها ، وهناك قرية فيها أهلها ، فغاداهُم القتالَ ، وضمَّ الثقفىَّ إلى يزيدَ ، وأحدَ الأمينَيْن إلى المغيرةِ ، واقتتلَ القومُ إلى نصف النهار ، فقال المهلّب لأبى عَلْقمةَ العَبْدِىِّ — وكان شجاعاً عاتياً : أَمْدِدْ بخَيْلِ اليَحْمَدِ ، وقُل لهم : فلْيُعِيرُونا جماجِمَهُمْ ساعة ، فقال له : إنّ جَماجِمَهُمْ ليست بفَخَّارٍ فتُعارَ ، وليستْ أعناقُهم كَرادِنَ[3] فتنبُت — قال أبو العباس[4] : تقول العربُ لأعْذَاقِ النَّخْلِ : كرادِن ، وهو فارِسىٌّ أُعْرِبَ —

وقال لحبيب بن أوْسٍ : كُرَّ على القوم ، فلم يفعلْ ، وقال :

يقولُ لِىَ الأميرُ بغير علمٍ تَقَدّمْ حين جَدّ به المِرَاسُ
فمالِى إنْ أطَعْتُكَ من حياةٍ ومالِى غَيْرَ هذا الرأسِ راسُ

نَصَب : غيرَ ، لأنه استثناءٌ مُقدّمٌ ، وقد مَضَى تفسيرُه

(١ — ١) ر «خل عن الرمح عليهم لعنهم الله» ، والأجود ما أثبته عن الأصل ، س
(٢) ر : «رقيق» ، وما أثبته من الأصل ، س . (٣) ر : «كرادى»
(٤) ر : «أبو الحسن الأخفش» ، وما أثبته من الأصل ، س .

قوله : «أطوَاءَ» يقال : رجلٌ طَوِى البَطنِ ، أى مُنْطَو ، يُخْبِرُ أنه كان يؤْثِرُ فرَسَه على وَلده ، فيُشْبِعُهُ وهم جياع ، وذلك قوله :

* أُخَادِعُهُمْ عنه ليغْبَقَ دُونَهُمْ *

والغَبُوقُ شربُ آخر النهارِ ، وهذا شىءٌ تفخر[1] به العربُ ، قال الأسْعَرُ الجُعْفِىُّ :

لَكِنْ قَعيدَةَ بيتِنا مَجْفُوَّةً ... بَادٍ جَنَاجِنُ صَدْرِها ولَها غِنَى[2]

تُقْفِى بِعِيشَةِ أهلِها وَثَّابَةً ... أو جُرْشُعاً نَهْدَ المَرَاكِلِ والشَوى[3]

* * *

قال : فَمكَثوا أيامًا على غير خَنادِقَ يتحارسون ودوابُّهم مُسْرَجَة ، فلم يزالوا على ذلك حتى ضَعُفَ الفريقانِ ، فلما كانت الليلةُ التى قُتِل فى صبحتها[4] عبدُ رَبِّهِ جَمَعَ أصحابَه وقال : يا معشرَ المهاجرين ، إنَّ قطَرِيًّا وَعَبِيدَةَ هَرَبَا طَلَبَ البقاءِ ، ولا سبيلَ إليه ، فالْقوا عدوَّكم ، فإن غلبوكم على الحياةِ ، فلا يَغْلِبُنَّكم على الموتِ ، فتلقَّوُا الرماحَ بنُحوركم ، والسيوفَ بوجوهكم ، وهَبُوا أنفسَكم لله فى الدنيا يَهَبْهَا لكم فى الآخرة .

فلما أصبحوا غَادَوُا المهلَّبَ فقاتلوه قتالا شديداً ، نُسِىَ به ما كان قبلَه ، فقال رجل من الأزْدِ من أصحاب المهلَّب : مَنْ يُبايعني على الموت ؟ فبايعه

---

(١) ر : « تفتخر » . (٢) الجناجن : عظام الصدر .

(٣) الجرشع : المنتفخ الجنبين . والمركل : موضع رجل الفارس من الفرس .

(٤) ر : « صبيحتها » .

كما ، قتلت صاحبي قال : ذاكَ إليكَ ، وضحك المهلَّبُ ، ولم تكنْ للقوم خنادق ، فكان كلٌّ حَذِرًا من صاحبه ، غير أن الطعامَ والعَدَّة مع المهلبِ ، وهم في زهاء ثلاثين ألفاً ، فلما أصبح أشرَفَ على وادٍ ، فإذا هو برجل معه رمح مكسورٌ وقد خَضَبه بالدماء ، وهو يُنشِد :

جزَاني دِوَائِي ذو الخِمارِ وصَنْعتِي إذا بات أطواءَ بَنِيَّ الأصاغِرُ
أُخادِعُهم عنهُ لِيُغبِقَ دُونَهم وأَعْلَمُ غيرَ الظَّنِّ أنِّي مُغاوِرُ
كأنِّي وأبدانَ السِّلاحِ عَشِيَّةً يَمرُّ بنا في بطنِ فيحانَ طائِرُ

فدعاه المهلب فقال : أتميميٌّ أنت ؟ قال : نعم ، قال : أحَنْظَلِيٌّ ؟ قال : نعم ، قال : أيَرْبُوعِيٌّ ؟ قال : نَعم ، قال : أثَعْلَبِيٌّ ؟ قال : نعم ، قال : أمِنْ آلِ نُوَيْرَة ؟ قال : نَعم ، أنا مِنْ وَلَدِ مالك بن نُوَيْرَةَ ، وسبحانَ اللهِ أيُّها الأميرُ ! أيكونُ مِثْلِي في عسكرك لا تعرفه ! قال : عَرَفْتُك بالشِّعْر .

قوله : « ذو الخِمار » يعني فرساً . وكان ذو الخِمارِ فَرَسَ مالك بن نُويرة ، قال جرير يهجو الفرزدقَ :

بيَرْبوعٍ فَخَرْتُ وآلِ سَعْدٍ فلا مَجدِي بلَغتَ ولا افتخاري
بيربوعٍ فوارسَ كلَّ يومٍ يُوَارِي شَمْسَهُ رَهَجُ الغبار
عُتَيْبةُ ، والأحَيْمِر وابنُ عَمْرٍو وعَتَّابٌ ، وفارسُ ذي الخِمارِ

ما أشدَّ عادة السلاح ! ناوِلونى دِرْعى . فلبسها ثم قال : خُذوا هؤلاء ، فلما صيرَ بهم إليه قال : ما أنتم ؟ قالوا : نحن قومٌ جئنا لِنطْلُب غِرَّتكَ لِنفْتُكَ بك ، فأمرَ بهم فقُتِلوا

* * *

قال أبو العباس : وَوجَّهَ المهلَّب كَعْب بن مَعْدَانَ الأشقَرِيَّ ، ومُرَّةَ ابن تَلِيدٍ الأَزْدِيَّ ، من أَزْدِ شَنوءةَ ، فوفدَا على الحجاج ، فلما طلَعا عليه تقدَّم كَعْب فأنشده :

يا حَفْصَ إنِّى عَدَانى عنكمُ السفرُ   وقد سَهِرْتَ فأَوْدَى نوْمِىَ السَّهَرُ[1]

فقال له الحجاجُ : أشاعرٌ أم خطيب ؟ قال : كلاهما ، ثم أنشده القصيدة ، ثم أقبل عليه فقال له : أخبرنى عن بَنِى المهلب . قال : المغيرةُ فارِسُهم وسَيِّدُهم ، وكَفَى بيزيدَ فارساً شجاعاً ! وجوادُهم وسَخِيُّهم قَبيصةَ ، ولا يَسْتَحْيِى الشجاعُ أن يَفِرَّ مِنْ مُدْرِكٍ ، وعبدُ الملكِ سَمٌّ ناقِعٌ ، وحبيب موتٌ زُعافٌ ، ومحمد ليثُ غابٍ ، وكفاكَ بالمفضّلِ نَجْدَةَ ! قال : فكيف خَلَّفْتَ جماعةَ الناس ؟ قال : خلّفْتُهم بخيرٍ . قد أدركوا ما أَمَّلوا ، وأَمِنوا ما خافوا ، قال : فكيف كان بَنُو المهلّب فيهم[2] ؟ قال : كانوا حماةَ السَّرْحِ نهارًا ، فإذا أَلْيَلُوا ففرسانُ البَيَاتِ ، قال : فأيُّهم كان أَنْجَدَ ؟ قال : كانوا كالْحَلْقَةِ المفرَغةِ ، لا يُدْرَى أين طَرَفَها ، قال : فكيف كنتم أنتم وعدوُّكم ؟

---

(١) وضع الشطر الثانى فى ر بين علامتى الزيادة ؛ وهو غير زائد فى الأصل ، س .
(٢) ر : « فيكم » .

أربعونَ رجلًا من الأزدِ وغيرِهم ، فصُرِعَ بعضهم وقُتِلَ بعض ، وجُرِحَ بعضٌ . وقال عبدُ الله بن رِزَامٍ الحارثىُّ لأصحابِ المهلَّب : احمِلوا ، فقال المهلب : أعرابىٌّ مجنونٌ ! وكان من أهل نجرانَ ، فحمَلَ وحدَه ، فاخترقَ القومَ حتى نَجَمَ من ناحيةٍ أخرى ثم رجع ، ثم كرَّ ثانيةً ففعلَ فَعْلَتَهُ الأولى ، وتهايجَ الناسُ ، فترَجَّلَت الخوارجُ وَعَقَرُوا دوابَّهم ، فناداهم عَمْرُو القَنَا ـ ولم يَترَجَّلْ هو وأصحابُه من العرب ، وكانوا زهاء أَرْبعِمائةٍ : مُوتُوا على ظهور دوابِّكم ولا تَعقِرُوها ، فقالوا : إنَّا إذا كُنَّا على الدواب ذَكَرْنَا الفِرَارَ .

فاقتتلوا ، ونادى المهلّب بأصحابه : الأرضَ الأرضَ ، وقال لبنيه : تفرَّقوا فى النَّاسِ لِيَرَوْا وجوهَكم ، ونادى الخوارجُ : ألَا إنّ العيالَ لمن غلب . فصبَرَ بَنو المهلَّب ، وَصَبَرَ يزيدُ بين يَدَىْ أبيه ، وقاتل قتالاً شديدًا أبلى فيه ، فقال له أبوه : يا بُنىَّ إنى أَرَى مَوْطِنًا لا يَنْجُو فيه إلَّا مَنْ صَبَرَ ، وَمَا مَرَّ بى يومٌ مثلُ هذا مُنْذُ مارَسْتُ الحروب .

وكَسَرَتِ الخوارجُ أجفانَ سيوفِها ، وتجاولوا ، فأَجلَتْ جَوْلَتهم عن عبدِ رَبِّهِ مقتولاً ، فهَرَبَ عَمْرُو القَنَا وأصحابُه ، وأستأمنَ قومٌ ، وأجلَتِ الحربُ عن أربعةِ آلاف قتيل وَجَرْحَى كثيرٍ من الخوارج ، فأَمَرَ المهلّب بأن يدْفَعَ كلّ جريحٍ إلى عشيرته ، وظَفِرَ عسكرهم فحوَى ما فيه ، ثم انصرفَ إلى جيرفتَ ، فقال : الحمد لله الذى رَدّنا إلى الخَفْضِ والدعَةِ ، فما كان عيشُنا بعيشٍ ، ثم نظَرَ إلى قومٍ فى عسكر لم يعرفْهم ، فقال :

الكتابُ أجلهُ ، ﴿ فَقطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا والحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالمِينَ ﴾[1] .

فكتب إليه الحجاج :

أمَّا بعدُ ، فإن الله عزَّ وجلَّ قد فَعَلَ بالمسلمين خيراً ، وأراحهم من حَدِّ الجهادِ ، وكنتَ أعلمَ بما قِبَلَكَ ، والحمد لله رب العالمين — فإذا وَرَدَ عليك كتابي هذا فاقسم فى المجاهدين فيئَهُمْ ، ونفلِ الناسَ على قَدْرِ بلائهمْ ، وفَضِّلْ مَنْ رَأَيْتَ تفضيله ، وإن كانتْ بقِيَتْ من القوم بَقِيَّة فخَلِّف خيلاً تقومُ بإزائهم ، واستَعْمِلْ على كِرْمَانَ مَنْ رَأَيْتَ ، وَوَلِّ الخيلَ شهْماً من وَلَدِكَ ، ولا ترَخِّصْ لأحدٍ فى اللَّحَاقِ بمنزله دون أنْ تَقْدَم بهم عليَّ ، وعَجِّل القَدوم ، إن شاء الله .

فولَّى المهلب ابنه يزيدَ كِرْمَانَ ، وقال له : يا بُنَيَّ ، إنكَ اليومَ لستَ كما كنتَ ، إنما لَكَ من مال كِرْمَانَ ما فَضَلَ عن الحجَّاج ، ولن تُحْتَمَلَ إلَّا على ما احْتُمِلَ عليه أبوكَ ، فأَحْسِنْ إلى مَنْ معك ، وإنْ أنكرتَ من إنسان شيئاً فوجِّهْهُ إليَّ ، وَتَفَضَّلْ على قوْمِكَ[2] إن شاء الله[2]

* * *

قال أبو العباس : وَقَدِمَ المهلبُ على الحجاج فأجلسه إلى جانبه ، وأظهر

---

(١) سورة الأنعام ٤٥ .   (٢ — ٢) ساقط من ر .

قال : كُنَّا إذا أخذنا عفَوْنا ، وإذا أَخَذُوا يَئِسْنا منهم ، [١] إذا اجتهدوا واجتهدنا بلغنا فيهم [١] آمالنا بإدراك الفرصة منهم ، فقال الحجاجُ : إنَّ العاقبة للمتقين ، كيف أفلتَكُمْ قطرِيٌّ ؟ قال : كِدْناه ببعض ما كادَنا به ، فصِرْنا منه إلى التي [٢] نُحِب ، قال : فهلَّا اتبعتموه ؟ قال : كان الحدُّ عندنا آثرَ من الفلِّ ، قال : فكيف كان لكم المهلب وكنتم له ؟ قال : كان لنا منه شفقةُ الوالدِ ، وله منّا برُّ الولدِ ، قال : فكيف اغتباطُ الناسِ ؟ قال : فشَا فيهم الأمنُ ، وشملَهُمُ النَّفلَ . قال : أَكنتَ أعددتَ لى هذا الجوابَ ؟ قال : لا يعلمُ الغيب إلَّا الله . قال : فقال : هكذا تكونُ والله الرجالُ ! المهلَّب كان أعلمَ بك حيثُ وَجَّهك .

وكان كتابُ المهلب إلى الحجاج :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الكافى بالإسلام فقدَما سِوَاهُ ، [٣] الذى وصل المزيد بالشكر ، والنعمة بالحمد ، وقضى ألَّا ينقطع المزيد منه [٣] حتى ينقطعَ الشكرُ من عبادِه .

أمَّا بعد ، فقد كان من أمرنا ما قد بلغَكَ ، وكنا ونحن وعدوُّنا على حالين مختلفين ، يَسُرُّنا منهم أكثرُ مما يسوءنا ، ويسوءهم منَّا أكثرُ مما يَسُرُّهم ، على اشتداد شوكتهم ، فقد كان عَلَنَ أمرُهُم حتى ارتاعتْ له الفتاةُ ، ونُوِّمَ به الرَّضيعُ ، فانتهزْتُ منهم الفُرْصةَ فى وقتِ إمكانها ، وأدنيتُ السَّوادَ من السَّوادِ ، حتى تعارفَتِ الوجوهُ ، فلم نزل كذلك حتى بلغ

(١ — ١) كذا فى الأصل ، س ، وفى ر . « وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم » .
(٢) ر . « الذى . »
(٣ — ٣) كذا فى الأصل ، س ، وفى ر . « الذى حكم بألا ينقطع المزيد —

يريد واسعَ الصدرِ متباعِدَ ما بين المَنكِبَيْن والذراعين ، وليس المعنى على تباعُدِ الخلْقِ ، ولكنْ على سهولة الأمر عليه ، قال الشاعرُ :

رَحيبُ الذراعِ بالتى لا تَشِينُهُ وإن قيلَتِ العَوْراءُ ضاقَ بها ذَرْعَا

وكذلك قوله جل وعز : ﴿ يَجْعَلُ صَدرَهُ ضَيِّقاً حَرِجًا ﴾[1]. وقوله « مضطَلِعاً » إنما هو « مُفْتَعِل » من الضَّلِيع ، وهو الشديد ، يريدُ أنه قوىٌّ على أمر الحرب ، مستقِلٌّ بها . وقوله : « يكون متَّبِعاً طورًا ومتَّبَعًا » أى قد اتَّبَعَ الناسَ فعَلِمَ ما يَصْلُحُ به أمرُ الناس ، وأُتْبِعَ فعَلِمَ ما يُصْلِحُ الرئيسَ ، كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : قد أُلْنا وإِيلَ[2] علينا . أى قد أَصْلَحْنا أُمورَ الناس ، وأُصْلِحَتْ أُمورُنا . وقوله : « على شَزْرِ مَرِيرتُه » فهذا مثَلٌ ، يقال : شَزَرْتُ الحبلَ ، إذا كَرَّرْتَ فتلَه بعد استحكامه راجعاً عليه . المَرِيرةَ : الحبلُ . والضَّرَعُ : الصَّغيرُ الضعيفُ والقحْمُ : آخرُ مِنَ الشيخ ، قال العجَّاجُ :

رأينَ قَحْمًا شابَ واقلَحَمَّا طالَ عليه الدهرُ فاسْلَهَمَّا

وَالمُقْلَحِمُّ مثلُ القَحْمِ ، وهو الجافُّ ، ويقال للصبىّ مُقْلَحِمٌّ ، إذا كان سَيِّءَ الغذاء ، أوِ ابنَ هَرِمَيْنِ ، ويقال : رجلٌ إِنْقَحْلٌ وامرأةٌ إِنْقَحْلَةٌ ، إذا أَسَنَّ حتى ييْبَسَ ، والمُسْلَهِمُّ : الضامرُ ، قال الشاعر :

* لمَّا رأتني خَلَقاً إِنْقَحْلا *

---

(١) سورة الأنعام ١٢٥ . (٢) من الإيالة ؛ وهى سياسة الحكم .

إكرامه وبرّه ، وقال : يا أهلَ العراق ، أنتم عبيدُ المهلب ، ثم قالَ : أنت والله كما قال لقيطٌ الإياديّ :

وقَــلدوا أمركم لله دَرُّكمُ رَحْبَ الذراعِ بأمرِ الحربِ مُضطلِعا

لا يَطعَمُ النومُ إلّا رَيْثَ يبعثُه هَمٌّ يكادُ حَشاهُ يَقصِمُ الضِّلَعا

لا مُتْرَفاً إنْ رَخاءُ العيش ساعَدَهُ ولا إذا عَضَّ مكروهٌ به خَشَعا

ما زال يَحلُبُ هذا الدهرَ أشطُرَهُ يكونُ مُتَّبِعاً طورًا ومُتَّبَعا

حتى استمرَّتْ على شَزْرٍ مَرِيرَتُهُ مُستَحْكِمَ الرأى لا قَحْمًا ولا ضَرَعا

فقام إليه رجل ، فقال : أصلحَ الله الأمير ! والله لكأنى أسمعُ الساعةَ قطرِيًّا وهو يقولُ : المهلَّب كما قال لَقيطٌ الإياديّ ، ثم أنشد هذا الشعرَ ، فسُرَّ الحجاجُ حتى امتلأ سرورًا .

قوله : « نَفَّل » أى اقسِمْ بينهم ، والنفَلُ : العطيةُ التى تَفضُلُ ، كذا كان الأصلُ ، وإنما تفضَّلَ الله عز وجل بالغنائم على عبادِه ، قال لَبيدٌ :

إنَّ تَقوى ربِّنا خيرُ نَفَلْ وبإذنِ الله رَيْثى وعَجَلْ[1]

وقال جل جلاله : ﴿ يسألونكَ عَنِ الأنفال ﴾ ، ويقال : نفَّلتُكَ كذا وكذا ، أى أعطيتُك ، ثم صار النَّفَلُ لازمًا واجبًا .

وقول الإياديّ : « رَحْب الذراع » ، فالرَّحْب : الواسع ، وإنما هذا مَثَلٌ ،

---

(١) الشطر الثانى ساقط من ر .

ما كنا أشدّ على عدونا ولا أحدّ ، ولكنْ دَمَغَ الحق الباطلَ ، وقهرَتِ الجماعة الفتنة ، والعاقبة للتقوى ، وكان ما كرهناه من المطاولة خيراً مما أحببناهُ من العَجلة . فقال له الحجاج : صدقتَ ، اذكُرْ لى القومَ الذين أبلوْا وصِفْ لى بلاءَهُمْ ، فأمرَ الناسَ فكتبوا ذلك للحجاج ، فقال لهم المهلّبُ : ما ذخرَ الله لكم خيرٌ لكم من عاجلِ الدنيا إن شاء الله . ثم ذكرهم للحجاج على مراتبهم فى البلاء وتفاضلِهمْ فى الغَناء ، وقدَّمَ بنيهِ : المُغيرةَ ، ويَزيدَ ، ومُدْرِكاً ، وحَبيباً ، وقَبيصَةَ ، والمُفضَّلَ وعبدَ الملك ، ومحمداً ، وقال : إنه واللهِ لو تقدَّمَهُمْ أحدٌ فى البلاء لقدَّمْتُهُ عليهم ، ولولا أنْ أظلِمَهم لأخرْتُهم قال الحجاجُ : صدقتَ ، وما أنتَ بأعلَمَ بهم مِنّى وإنْ حضرتَ وغِبْتُ إنهم لَسُيوفٌ من سُيوف الله . ثم ذكَرَ مَنْ بنِ المغيرة بنَ أبى صُفْرَةَ والرُّقَادَ وَأشباهَهُما ، فقال الحجّاجُ : أينَ الرُّقَادُ ؟ فدخَلَ رجلٌ طويلٌ أجْنَأُ[1] ، فقال المهلَّبُ هذا فارسُ العرب ، فقال الرُّقَادُ : أيها الأميرُ ، إنى كنتُ أقاتل مع غير المهلّب ، فكنت كبعض الناسِ ، فلما صِرْتُ مع مَنْ يُلزِمُنى الصَّبرَ ويجعلُنى أسْوَةَ نفسِه وولدِه ويُجازينى على البَلاء ، صرتُ أنا وأصحابى فُرْساناً ، فأمر الحجاجُ بتفضيل قومٍ على قومٍ على قَدْرِ بلائهم ، وزادَ وَلدَ المهلّبِ ألفينِ ، وفضل بالرُّقَادِ وجماعةٍ شبيهاً بذلكَ .

قال يزيد بن حَبْناءَ من الأزارقةِ :

دَعِى اللَّوْمَ إنَّ العَيْشَ ليس بِدائمِ ولا تَعْجَلى باللوم يا أمَّ عاصِمِ

---

(١) من الجنأ ، وهو ميل فى الظهر .

ويقال فى معنى : « قَحْمٍ » قَحْرٌ ، ويقال : بعيرٌ قُحَارِيَةٌ ، فى هذا المعنى .

وقوله : « لا يَطْعَمُ النَّوْمَ إلّا رَيْثَ يَبْعَثُهُ هَمٌّ » . فـ « ريث » وَعَوْضٌ مما يضاف إلى الأفعال ، وتأويله أنه لا يَطْعَمُ النومَ إلّا يسيراً حتى يَبْعَثَه الهمُّ ، فمعناه مقدارُ ذلك ، ومما يضافُ إلى الأفعال أسماء الزمانِ ، كقوله عز ذكره : ﴿ هذا يومُ يَنْفَعُ الصادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾[1] ، فأسماء الزمان كلّها تضافُ إلى الفعل ، نحو قولك : آتيكَ يومَ يخرجُ زيدٌ . وجئتُك يومَ قامَ عبدُ الله ، وما كان منها فى معنى الماضى جاز أن يضافَ إلى الابتداء والخبر ، فتقولُ : جئتكَ يومَ زيدٌ أميرٌ ، ولا يجوز ذلك فى المستقبل ، وذلك لأن الماضيَ فى معنى « إذْ » ، وأنت تقول : جئتك إذ زيدٌ أميرٌ ، والمستقبلُ فى معنى « إذا » ، فلا يجوز أن تقول : أجيئُك إذا زيدٌ أمير ، فلذلك لا يجوزُ : أجيئك يومَ زيدٌ أميرٌ . فأما الأفعال فى « إذا » و « إذ » فهى بمنزلةٍ واحدةٍ ، تقول : جئتك إذْ قام زيد ، وأجيئك إذا قام زيد ، فهذا واضحٌ بيِّنٌ . ومما يضافُ إلى الفعل « ذو » فى قولك : افعَلْ ذاكَ بذِى تَسلَمُ ، وافعلاهُ بذِى تَسلَمانِ ، معناه : بالذى يُسَلِّمُكما ، ومن ذلك « آيةَ » فى قوله :

بآيةِ تَقدِمُونَ الخيلَ شُعْثاً ... كأنَّ على سَنابكِها مُدَاما[2]

والنحوُ يتَّصِلُ وَيَكْثُرُ ، وإنما تركنا الاستقصاءَ لأنه موضعُ اختصارٍ ، [3]وقد أتينا على جميع هذا فى الكتاب المقتضب[3] . فقال المهلّب : إنّا والله

---

(١) سورة سورة المائدة ١١٩

(٢) نسبه سيبويه فى الكتاب (١ : ٤٦٠) إلى الأعشى . (٣ — ٣) ساقط من ر .

المكان جيدًا، وذلك أنه أراد من يكون نهاره يُجالِدُ جلادًا، كما تقول: إنما أنت سَيْرًا، وإنما أنتَ ضَرْبًا، تريد تَسيرُ سيْرًا، وتضرب ضربًا، فأُضْمِرَ لعلم المخاطَب أنه لا يكون هو سيرًا، ولو رَفَعَهُ على أن يجعل الجلادَ فى موضع المجالِد، على قوله: أنت سيرٌ، أى أنت سائرٌ كما قالت الخنساء:

* فإنما هِيَ إقبالٌ وإدْبارُ *

وفى القرآن: ﴿ قُل أَرَأَيْتُم إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكم غَوْرًا ﴾ [1] أى غائرًا، وقد مضى تفسير هذا بأكثرَ من هذا الشرح. ولو قال: « ويُمْسى ليلُه غيرُ نائمٍ » لجاز، يُصيرُ اسمه فى « يمسى »، ويجعل « ليلُه » ابتداء، و « غيرُ نائمٍ » خبره على السعة التى ذكرنا.

وقوله: « غَمُوص » يريدُ واسعةً محيطة. والعَنْبَرىُّ بن سالمٍ رجلٌ منهم كان يقال له الأشدَقُ. واللَّطَائمِ: واحدتها: لَطِيمة، وهى الإبلُ التى تحمِلُ البَزَّ والعِطْرَ. وقوله « توَقَّدُ فى أيديهمِ زَاعِبيَّةٌ » يعنى الرِّماحَ، والتوَقُّدُ للأسنّةِ، والزَّاعبيةَ منسوبةٌ إلى زاعِبٍ، وهو رجل من الخَزْرَجِ كان يعملُ الرماحَ وتَفْرِى: تَقدُّ، يقال فرَى، إذا قطعَ، وأفْرَى إذا أصْلَحَ.

وقال حَبيبُ بن عَوْفٍ من قُوَّادِ المهلب:

أبا سَعيدٍ جزَاكَ اللهُ صالحـــةً فقد كَفَيْتَ ولم تَعْنُفْ على أحَدِ
داوَيْتَ بالحِلْمِ أهلَ الجهلِ فانقَمَعُوا وكنتَ كالوالدِ الحانى على الولدِ

(١) سورة الملك ٣٠

فإذْ عَجلْتَ منكِ الملامة فاسْمَعِي ... مقالةَ مَعْنِيٍّ بحقبِّك عالِمِ

ولا تَعْذِلينا فى الهَدِيةِ إنما ... تكون الهدايا مِن فضولِ المغانمِ

فليس بمُهْدٍ مَنْ يكون نَهارُهُ ... جِلادًا ويُمْسِي ليلُهُ غيرَ نائمِ

يريدُ ثوابَ الله يومًا بطَعنةٍ ... غموس كشَدْقِ العَنْبَرِيِّ بن سالمِ

أبيتُ وسِربالِي دِلاصٌ حَصينةٌ ... ومِغفرُها والسيفُ فوق الحيازِمِ[1]

حلفتُ بربِ الواقفين عَشِيَّةً ... لَدَى عرفاتٍ حَلْفَةً غيرَ آثِمِ

لقد كان فى القوم الذين لقيتهمْ ... بِسَابورَ شُغْلٌ عن بُزُوز اللَّطائمِ

تَوَقَّدُ فى أيديهمُ زاعِبِيَّةٌ ... ومُرْهَفَةٌ تفْرِى شُئونَ الجَماجِمِ

قوله : « مَنْ يكون نهارُه جلادا ويُمْسِي ليلُهُ غيرَ نائمِ » ، يريد يمسى هو فى ليله ويكون هو فى نهاره ، ولكنه جعلَ الفعلَ لِلّيلِ والنهارِ على السَّعة ، وفى القرآن : ﴿ بل مَكرُ الليلِ والنهارِ ﴾[2]، والمعنى بل مكرُكم فى الليل والنهار ، وقال رجل من أهل البَحْرَيْنِ من اللصوص :

أمَّا النهارُ ففى قَيْدٍ وسِلسِلةٍ ... والليلُ فى جوفِ مَنحوتٍ من السَّاجِ

وقال آخر :

لقد لُمتِنا يا أمَّ غَيْلانَ فى السُّرى ... ونِمتِ وما ليلُ المطِيِّ بنائمِ

ولو قال : « مَنْ يكونُ نهارَه جلاداً ويُمْسى ليلَه غيرَ نائم » .

---

(٢) الدلص من كل شىء البراق ، ومنه سميت الدرع دلاصا .

(٣) سورة سبأ ٣٣

وقال القاسمُ بن عيسى :

أُحِبُّكِ يا جَنَانُ فأنْتِ مِنِّى مكانَ الرُّوحِ من بدَنِ الجبانِ
ولَوْ أنى أقول مكانَ رُوحِى لَخِفْتُ عليكِ بادِرَةَ الزمانِ (١)
لإقدامِى إذا ما الحرب جاشتْ وهاب حُماتَها حَرّ الطعانِ

وقال معاوية بن أبي سفيان فى خلاف هذا المعنى :

أكان الجبانُ يُرى أنّه يُدافِعُ عَنْهُ الفِرَارُ الأجَلْ
فَقَدْ تدركِ الحادثاتُ الجبانَ وَيَسْلَمُ مِنْهَا الشّجاعُ البَطَلْ

* * *

رجع الحديث :

وقال رجل من عبد القيس من أصحاب المهلّب :

سَائِلْ بنا عَمْرَو القَنا وَجُنودَهُ وأبَا نعامةَ سَيّدَ الكُفّارِ

أبو نعامة : قطرى —

* * *

وقال المغيرة بن حَبَنَاء الحنظلِيّ من أصحاب المهلّب :

إنّى امرُؤٌ كفَّنى رَبِّى وأكرمَنى عن الأمور التى فى رَعْيِها وَخَمُ
وإنما أنا إنسانٌ أعيشُ كما عاشتْ رجال وعاشَتْ قَبْلَها أُمَمُ
ما عاقنِى عن قُفُولِ الجُنْدِ إذ قفلوا غنى بما صنعوا عَجْزٌ وَلاَ بَكَمُ

---

(١) بادرة الرجل : ما بدر منه من قول أو فعل .

وقال عَبِيدَة بن هلال فى هَرَبِهم مع قَطَرِىّ :

مازالتِ الأقدارُ حتى قذَفْنَنِى　　بقُومِسَ بين الفُرْخانِ وصُول

ويُرْوَى أنّ قاصِىَ قطَرِىّ ، وهو رجلٌ من بنى عبد القيس ، سمع قول عَبيدَة بن هلال :

عَلاَ فوقَ عَرْشٍ فوقَ سبعٍ ودُونَهُ　　سَماءٌ ترَى الأرْوَاحَ مِنْ دُونِها تجرِى

فقال له العبدىُّ : كَفرْتَ إلّا أنْ تأتِىَ بمَخرَجٍ ، قال : نعم ، رُوحُ المؤمنِ تعرُجُ إلى السماء ، قال : صدقتَ . وقال يذكُر رجلا منهم :

يَهْوِى وترفعُه الرِّماحُ كأنّه　　شِلْوٌ تَنَشَّبَ فى مَخالِبِ ضَارِ[1]

فثوى صَرِيعاً والرماحُ تنُوشُه　　إنَّ الشُّرَاةَ قَصِيرةُ الأعْمَارِ

تَنُوشُهُ : تأخذه وتتناوله ، قال الله عز وجل : ﴿ وأنّى لَهُمُ التّناوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾[2] أى التناولُ . ومثلُ بيتِه هذا قولُ حَبيبٍ الطائىّ :

فِيمَ الشَّماتةَ إعْلاناً بأُسْدِ وَغًى　　أفْنَاهُمُ الصَّبْرُ إذْ أبْقَاكُمُ الجزَعُ

وقال أيضاً فى شبيهٍ بهذا المعنى :

إنْ يَنْتَحِلْ حَدَثَانُ الموت أنفسَكمْ　　وَيَسْلَمِ الناسُ بَيْنَ الحوْضِ والعَطَنِ

فالماءُ ليس عَجيباً أنَّ أعْذَبَهُ　　يَفْنَى وَيَمْتَدُّ عُمْرُ الآجِنِ الأسِنِ

وقال أيضاً :

عليكَ سلامُ الله وَقفاً فإنّنِى　　رأيتُ الكريمَ الحُرَّ ليس له عُمْرُ

---

(١) الشلو : العضو .　　(٢) سورة سبأ ٥٢

فهرس الموضوعات

ولو أردتُ قُفولًا ما تجهّمني إذْنُ الأمير ولا الكتّابُ إذْ رقموا
إنّ المهلّب إن أشْتَقْ لرؤيته أو أمتدِحْهُ فإنّ النّاس قدْ علموا
إن الأريب الذى ترجى نوافلُهُ والمستعانَ الّذى تَجْلَى به الظُّلَمُ
القائلُ الفاعلُ الميمونُ طائرهُ أبو سعيدٍ إذا ماعُدّتِ النِّعَمُ
أزْمانَ أزْمانَ إذ عضّ الحديدُ بهم وإذْ تَمَنّى رجالٌ أنّهمْ هُزِموا

* * *

قال أبو العباس : وهذا الكتاب لم نبتدئه لنتصل فيه أخبار الخوارج ولكن ربّما اتصل الشئ بالشئ ، والحديثُ ذو شجون ، ويقترح المقترح ما يفسَخُ به عزمَ صاحب الكتاب ، ويصده عن سننه ، ويزيله عن طريقه .

ونحن راجعون إن شاء الله إلى ما ابتدأ له هذا الكتاب ، فإن مرّ من أخبار الخوارج شئ مرّ كامرّ غيره ولو نسقناه على ماجرى من ذكرهم لكان الذى يلى هذا خَبَرُ نَجْدَة ، وأبى فديك ، وعُمارة الرجل الطويل ، وشبيب ؛ ولكان يكون الكتاب للخوارج مخلصا .

تم الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع

وأوله :

باب فى اختصار الخطب والتحميد والمواعظ

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحه

الكامل

لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد

عارضه بأصوله وعلق عليه

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الرابع

ملتزم الطبع والنشر

دار نهضة مصر
للطبع والنشر

مطبعة نهضة مصر بالفجالة

مطبعة نهضة مصر
الفجالة . القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

بابٌ

فى اختصار الخُطبِ والتحميدِ والمَواعظِ

[نبذ من كلام الحكماء فى الموعظة]

قال أبو العباس : كان الحسنُ يقول : الحمد لله الذى كلَّفنا ما لو كلَّفنا غيرَه ؛ لصِرْنا فيه إلى معصيته ، وآجَرَنا على ما لا بُدَّ لنا منه .

يقول : كلَّفنا الصبرَ ، ولو كلَّفنا الجزَعَ لم يمكنّا أن نُقيمَ عليه ، وآجَرَنا على الصبر ، ولا بدَّ لنا من الرجوع إليه .

وكان علىّ بن أبى طالب عليه السلام[1] يقول عندَ التعزية : عليكم بالصبر ، فإنَّ بهِ يأخُذُ الحازمُ ، وإليه يَلجأُ[2] الجازعُ

وقال للأشعثِ بن قيسٍ : إنْ صبرْتَ جرَى عليكَ القَدَرُ وأنت مأجورٌ ، وإنْ جزِعْتَ جرَى عليك القَدَرُ وأنت مَوْزورٌ .

وقال الخُرَيمىُّ :

ولو شئتُ أن أبكِي دَمًا لبكيتُهُ ‏ ‏ ‏ عليه ، ولكِنْ ساحَةُ الصَّبرِ أوسَعُ[3]

---

(١) ر : « صلوات الله عليه » . (٢) ر ، س : « يعود » . (٣) قبله :

وإنّى وإن أظهرتُ فىّ جَلادَةً ‏ ‏ ‏ وصانَعْتُ أعدائى عليهِ لَمُوجَعُ

ملكتُ دُمُوعَ العَيْنِ حتّى رَدَدْتُها ‏ ‏ ‏ إلى ناظِرِى وَالعَيْنُ القَلْبِ تَدْمَعُ

أتاكَ أبو لَيْلَى يَشُقُّ بهِ الدُّجى ... دُجى الليلِ جَوّابُ الفلاةِ عَثَمْثَمُ
لِتَرْفَعَ منه جانبًا ذَعْذَعَتْ به ... صُرُوفُ الليالى والزمانُ المُصَمِّمُ

فقال له ابنُ الزُّبير: هوِّنْ عليكَ أبَا لَيْلَى، فأيْسَرُ وسائِلكَ عندنا الشِّعْرُ، أمّا صِفْوةُ أموالِنا فلِبَنى أسَدٍ، وأمّا عِفْوتُها فلآلِ الصِّدِّيق، ولكَ فى بيت المالِ حَقَّان: حقٌّ لصحبتِكَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، وحقٌّ بحقك فى المسلمين. ثم أمر له بسبعِ قلائِصَ وراحلةٍ رَحِيلٍ. ثم أمر بأن تُوقَر له حَبًّا وتمرًا. فجعل أبو ليلى يأخذ التمر فيَسْتَجْمِعُ به الحبَّ فيأكُلُه، فقال له ابنُ الزبير: لَشَدَّ ما بلغَ منكَ الجَهْدُ يا أبا ليلى! فقال النابغة: أمَا علَى ذاكَ لَسَمِعْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما اسْتُرْحِمَتْ قريشٌ فرَحِمَتْ وسُئِلَتْ فأعطتْ، وحَدَّثَتْ فصدَقَتْ، ووَعَدَتْ فأنجزتْ، فأنا والنبيُّون على الحوض فُرّاطٌ لقَادِمِينَ».

قوله: «أقحمتِ السَّنَةُ» يكونُ على وجهين: يقال: اقتحمَ، إذا دخل قاصداً، وأكثرُ ما يقال من غير أن يدخَل، ويكون من القُحْمَةِ، وهى السَّنَةُ الشديدة، وهو أشبه الوجهين، والآخرُ حَسَنٌ.

والسَّنَة: الجَدْبُ، يقال: أصابتهم سَنَةٌ إذا أصابهم[1] جَدْبٌ، ومن ذا قوله جلّ وعز: ﴿ولقد أخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بالسِّنِينَ﴾[2]، أى بالجَدْبِ.

وقوله: صِفْوَة، فهى فى معنى الصَّفْوِ، وأكثرُ ما يُستعملُ الكَسْرُ، والباب

(١) كذا الأصل، س، وفى ر: «أى جدب». (٢) سورة الأعراف ١٣٠.

وفى هذا الشعر وإن لم يكن من هذا الباب :

وأَعْدَدْتُهُ ذخْرًا لكلِّ مُلِمَّةٍ وسَهْمُ المنايا بالذخائر مُولَعُ

[خطبة لأبى طالب]

وخَطب أبو طالب بنُ عبد المطَّلب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى تزوجه خَديجة بنتَ خُوَيْلِدٍ رحمة الله عليها ، فقال : الحمدُ لله الذى جَعَلَنا من ذرية إبراهيمَ وزَرْعِ إسماعيلَ ، وجعلَ لنا بلدًا حراماً ، وبيتاً مَحْجُوجًا ، وجعلنا الحُكَّامَ على الناس ؛ ثم إن محمدَ بن عبد الله ، ابنَ أخى ، مَنْ لا يُوَازَنُ به فتًى من قريشٍ إلاّ رَجَحَ عليه بِرًّا وفضلاً ، وكرماً وعقلاً ، ومَجْدًا ونُبْلاً ، وإن كانَ فى المالِ قُلٌّ[1] ، فإنما المال ظلٌّ زائلٌ وعاريةٌ مسترجَعةٌ ، وله فى خديجةَ بنتِ خُوَيْلِدٍ رغبةٌ ، ولها فيه مثلُ ذلك ، وما أحببتم من الصَّداقِ فعلَىَّ .

وهذه الخطبةَ من أَقصَدِ خُطَبِ الجاهلية .

[وفود النابغة الجعدى على ابن الزبير]

ومن جميلِ محاوراتِ العربِ ما رُوِىَ لنا عن يحيى بن محمد بن عُرْوَةَ ، عن أبيه عن جَدّه ، قال : أَقْحَمَتِ السَّنَةُ علينا النابغةَ الجَعْدِىَّ ، فلم يَشْعُرْ به ابنُ الزُّبَيْرِ حينَ صلَّى الفجر حتى مَثَلَ بين يديه يقول :

حكَيْتَ لنا الصِّدِّيقَ حين وَلِيتَنا وعثمانَ والفاروقَ فارْتاحَ مُعْدِمُ

وسَوَّيْتَ بين الناسِ فى العَدْلِ فاستَوَوْا فعادَ صَباحًا حالكُ الليلِ مُظْلِمُ

---

(١) قل : قليل .

صباحًا ، وتَنِيءُ على الكعبة عَشِيًّا ، وإن كانَ الرجلُ من وَلَدِ أَسَدٍ ليطُوفُ بالبيت فينقطعُ شِسْعُ نعلِهِ فيَرْمِي بنعله فى منزله فتُصْلَحُ له ، فإذا عاد فى الطواف رُمِى بها إليه . وفي ذلك يقولُ القائلُ :

لِهاشِمٍ وزُهَيْرٍ فَضْلُ مَكْرُمَةٍ بحيثُ حَلَّتْ نُجومُ الكَبْشِ والأَسَدِ [1]

مُجاوِرُ البيتِ ذى الأركانِ بيتُهما ما دُونَهُمْ فى جِوارِ البيتِ من أَحَدِ

وقال آخرُ :

سَمِينُ قُرَيْشٍ مانعٌ منكَ لَحْمَهُ وغَثُّ قريش حيثُ كانَ سَمِينُ

وقال آخرُ :

وإذا ما أَصَبْتَهُ من قريشٍ هاشِمِيًّا أَصَبْتَ قَصْدَ الطريقِ

وقال حَرْبُ بنُ أُمَيَّةَ لأبى مَطَر الحَضْرَمِيِّ يدعوه إلى حِلْفِهِ ونزول مكة :

أَبَا مَطَرٍ هَلُمَّ إلى صَلاحٍ فَتَكْنُفَكَ النَّدامَى من قُرَيْشِ

وتَأْمَنَ وَسْطَهُمْ وَتَعِيشَ فيهم أَبَا مَطَرٍ هُدِيتَ لِخَيْرِ عَيْشِ

وتَسْكُنَ بلدةً عَزَّتْ قديمًا وتَأْمَنَ أن يَزُورَكَ رَبُّ جَيْشِ

صَلاحِ : اسمٌ من أسماءِ مكة وكانت مكة بلدًا لَقَاحًا ، واللقاحُ : الذى ليس فى سلطانِ مَلِكٍ ، وكانت لا تُغْزَى تعظيمًا لها ، حتى كان أَمْرُ الفِجارِ ، وإنما سُمِّىَ الفِجارَ لفُجُورهم إذ قاتلوا فى الحَرَمِ وكانت قريشٌ تُعِزُّ الحليفَ وتُكْرِمُ المَوْلَى وتكادُ تُلْحِقُهُ بالصَّمِيمِ ، وكانت العربُ تفعلُ ذلك ، ولقريش فيه تَقَدُّمٌ .

---

(١) حاشية الأصل : « هما هاشم وزهير ، ابنا الحارث بن أسد » .

فى المصادر للحالِ الدائمةِ [الكثير[1]] كقولك : حَسَنُ الجِلْسَةِ والرِّكْبَةِ [والمِشْفَيَةِ[1]] والنِّيمَةِ ، كأنها خِلْقَةٌ .

والعِفوَة إنما هو ما عَفا ، أى ما فضَلَ ، و ﴿ خُذِ العَفْوَ ﴾[2] ، قالوا : الفضل ، وكذلك قوله جل اسمه : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ ماذا يُنْفِقونَ قُلِ العَفْوَ ﴾[3] .

وقوله : « عَثَمْثَمٌ » ، يريدُ الموثَّقَ الخَلْقِ الشديدَ .

وذَعْذَعَتْ ، أى أذهبت مالَهُ وفرّقَتْ حالَه .

وقوله : « راحلةٍ رَحيلٍ » ، أى قويةٍ على الرِّحْلةِ مُعَوَّدَةٍ لها . ويقالُ : فَحلٌ فَحيلٌ ، أى مستحكِمٌ فى الفِحْلَةِ . وفى الحديث أنَّ ابن عمر قال لرجلٍ : « اشترِ لِي كبشاً لأضحِّيَ به ، أمْلَحَ ، واجْعَلْه أقرَنَ فَحيلاً » .

وقوله : « فأنا والنبيون على الحوْضِ فُرّاطٌ لِقادِمِينَ » ، الفارط : الذى يتقدمُ القومَ فيُصْلِحُ لهم الدلاءَ والأرْشِيَةَ وما أشبه ذلك من أمرِهم حتى يَرِدُوا ، ومن ذلك قولُ المسلمين فى الصلاة على الطفل : « اللهم اجْعَلْهُ لنا سَلَفاً وفَرَطاً » . وجاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أنا فَرَطُكم عَلَى الحوْضِ » . وكان يقال : يَكْفِيكَ من قريش أنها أقربُ الناسِ من رسول الله صلى الله عليه وسلم نَسَباً ، ومن بيتِ الله بيتاً . ويقال : إنَّ دارَ أسَدِ بن عبد العُزَّى كان يقال لها : رَضيعُ الكَعْبَةِ ، وذلك أنها كانت تَفِيءُ عليها الكعبةُ

(١) تكملة من ر .
(٢) سورة الأعراف ١٩٩ .
(٣) سورة البقرة ٢١٩ .

والقتيل الذى بِحَرَّانَ أضحى ثاوِياً بين غُرْبَةٍ وتَنَاسِى

نِعْمَ شِبْلُ الهِرَاش مولاكَ شِبْلٌ لو نجا من حبائلِ الإفلاسِ !

وأَمَرَ بهم عبدُ الله فشُدِخُوا بالعَمَدِ ، وبُسِطَتْ عليهم البُسُطُ ، وجَلَسَ عليها ، ودعا بالطعام ، وإنه لَيَسْمَعُ أنينَ بعضهم حتى ماتوا جميعاً وقال لشِبْلٍ : لولا أنكَ خَلَطْتَ كلامكَ بالمسألة لأَغنَمْتُكَ جميعَ أموالِهِم ، ولَعَقَدْتُ لك على جميعِ موالى بنى هاشمٍ .

قوله : « الآساسِ » واحدها أُسٌّ ، وتقديرها « فُعْلٌ وأفعالٌ » وقد يقال للواحد : أَسَاسٌ ، وجمعه أُسُسٌ .

والبُهْلُولُ : الضَّحَّاكُ

وقوله :

* بعدَ مَيْلٍ منَ الزمانِ ويأسِ *

يقال : فيك مَيْلٌ علينا ، وفى الحائط مَيْلٌ ، وكذلك كلُّ مُنْتَصِبٍ .

وقوله : « واقْطَعَنْ كلَّ رَقْلَةٍ » ، الرَّقْلَةُ : النخلةُ الطويلةُ ، ويقال إذا وُصِفَ الرجلُ بالطُّولِ : كأنه رَقْلَةٌ .

والأَوَاسِيُّ ، ياؤه مشدَدَةٌ فى الأصل وتخفيفها يجوزُ ، ولو لم يَجُزْ فى الكلام لجاز فى الشعر ، لأن القافية تقتطِعُه ، وكلُّ مُثَقَّلٍ فتخفيفُه فى القوافى جائزٌ ، كقوله :

أَصَحَوْتَ اليومَ أَمْ شاقَتْكَ هِرْ ومنَ الحُبِّ جُنونٌ مُسْتَعِرْ[1]

---

(١) مطلع قصيدة لطرفة ، ديوانه ٣٦ .

[تحريض سديف على بنى أمية]

ودخل سُدَيْفٌ مولى أبى العباس السّفاحِ على أبى العباس أميرِ المؤمنينَ ، وعنده سليمانُ بن هشامِ بن عبد الملك ، وقد أدناه وأعطاه يَدَهُ فقبّلها ، فلمّا رأى ذلك سُدَيفٌ أقبلَ على أبى العباس ، وقال :

أَلا يَغُرَّنْكَ ما تَرَى من أُناسٍ　　إنَّ تحتَ الضلوعِ داءً دَوِيًّا

فَضَعِ السَّيفَ وارْفَعِ السَّوطَ حتى　　لا تَرَى فَوقَ ظهرها أُمَوِيًّا

فأقبلَ عليه سليمانُ فقال : قتلتَنى أيها الشيخُ قتلكَ اللهُ ! وقام أبو العباس فدخلَ ، فإذا المنديلُ قد أُلقِيَ فى عُنُقِ سليمانَ ثم جُرَّ فقُتِلَ .

[تحريض شبل بن عبد الله على بنى أمية]

ودخل شِبْلُ بن عبد الله مولى بنى هاشمٍ على عبد الله بن علىٍّ ، وقد أجلسَ ثمانين رجلاً من بنى أُمية على سُمُط الطعامِ ، فمَثَلَ بين يديه ، فقال :

أَصْبَحَ المُلْكُ ثابتَ الآساسِ　　بالبَهاليلِ من بنى العبَّاسِ

طلبوا وِترَ هاشمٍ فشفَوْها　　بعد مَيْلٍ من الزمانِ ويأسِ

لا تُقيلَنَّ عبدَ شمسٍ عِثارًا　　واقْطَعَنْ كلَّ رَقْلةٍ وأَوَاسِى

ذُلُّها أَظْهَرَ التَّوَدُّدَ منها　　وبها منكمُ كحَزِّ المَوَاسِى

ولقد غاظنى وغاظَ سَوائِى　　قُرْبُهُمْ من نمارقٍ وكَرَاسِى

أَنْزِلُوها بحيثُ أنزلَها اللّـــهُ بدارِ الهَوانِ والإتْعاسِ

واذْكُرُوا مَصْرَعَ الحُسَيْنِ وزيدًا　　وقتيلاً بجانبِ المِهْرَاسِ

وقالَ نُصَيْبٌ :

إذا مَا بِسَاطُ اللَّهوِ مُدَّ وقُرِّبَتْ   لِلَذَّاتِهِ   أنْمَاطُهُ   ونمَارِقُهْ

وقوله : « مَصْرَعَ الحُسَيْنِ وزَيْدٍ » يعنى زَيدَ بن علىّ بن الحسين ، كان قد خَرَجَ على هشام بن عبدالملك، وقَتَلَه يوسفُ بن عُمَرَ الثَّقَفِيُّ وصَلَبَهُ بالكُنَاسة[1] عُرْيَانًا ، هو وجماعةٌ من أصحابه .

ويَرْوِى الزُّبَيْرِيُّونَ أنه كان بين يوسفَ بن عُمَرَ وبين رجلٍ إحْنَةٌ ، فكان يطلب عليه عِلَّةً ، فلما ظَفِرَ بزيدِ بن علىّ وأصحابِه أحَسُّوا بالصَّلب ، فأَصْلَحُوا مِنْ أبدانِهم واستَحَدُّوا[2] ، فصُلِبوا عُراةً ، وأخذ يوسفُ عدوَّه ذلك ، فَنَحَلَهُ أنه كان من أصحاب زيدٍ فقتلَه وصَلَبه ، ولم يَكُنِ استَحَدَّ[3] ، لأنه كان عندَ نفسه آمِنًا ، وكان بالكوفة رجلٌ معتوهٌ عَقْدُه[4] التَّشَيُّعُ ، فكان يجيء فيقفُ على زيدٍ وأصحابه فيقولُ : صلى الله عليكَ يا بنَ رسول الله ، فقد جاهدتَ فى الله حقَّ جهادِه ، وأنكرتَ الجَوْرَ ودَافعتَ الظالمينَ . ثم يُقْبِلُ عليهم رجلًا رجلًا فيقولُ : وأنتَ يا فلانُ ، فجزاكَ الله خيرًا ، فقد جاهدتَ فى الله حقَّ جهادِه ، وأنكرتَ الجَوْرَ ونصرتَ ابنَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حتى يَقِفَ على عَدُوِّ يوسفَ فيقولُ : فأما أنت يا فلانُ ، فَوُفورُ عانَتِكَ يَدُلُّ على أنكَ برىءٌ مما قُرِفْتَ[5] به ا .

قال أبو العباس : وقال حَبيبُ بنُ جَدَرَةَ — ويقال : ابن جُدْرَةَ ، وهى السِّلْعَةُ[6] — الهِلَالِيُّ .

---

(١) الكناسة : محلة بالكوفة .
(٢) الاستحداد : الحلق .
(٣) ر : « استعد » .
(٤) عقده : اعتقاده .
(٥) قرفت : اتهمت .
(٦) السلعة : خلقة فى البدن من ضرب أو جراحة .

وواحدُها « آسِيَّةٌ » وهى أصلُ البناء بمنزلة الأساسِ .

وقوله : « وغَاظَ سَوَائِي » تقول : ما عندى رجلٌ سِوَى زيد ، فَتَقْصُرُ إذا كسرتَ أولَه ، فإذا فتحتَ أولَه على هذا المعنى مددتَ ، قال الأعشى :

تَجانفُ عن جوِّ اليمامة ناقتِى   وما قَصَدَتْ من أهلِها لِسَوَائِكا[1]

والسَّواءُ ممدود فى كلِّ موضعٍ وإن اختلفت معانيه ، فهذا واحدٌ منه ، والسَّواء : الوَسَط ، ومنه قوله عز وجل : ﴿ فَرَآهُ فى سَوَاءِ الجحيمِ ﴾[2] ، وقال حسَّانُ :

يا وَيْحَ أنصارِ النَّبىِّ ورَهْطِهِ   بعدَ المغيَّبِ فى سَوَاءِ المَلْحَدِ

والسَّواءُ : العدلُ والاستواء ، ومنه قوله عز وجل : ﴿ إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾[3] ، ومن ذلك : عمرو وزيدٌ سَواءٌ ، والسَّواءُ : التَّمامُ ، يقال : هذا درهمٌ سَوَاءٌ ، وأصله من الأول ، وقوله عز وجل : ﴿ فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴾[4] ، معناه تمامًا ، ومن قرأ ﴿ سَواءٍ ﴾ فإنما وَضَعَه فى موضع « مُسْتَوِياتٍ » .

والنَّمارِقُ ، واحدتُها نُمْرُقَةٌ ، وهى الوسائد ، قال الفرزدقُ :

وإنَّا لَتَجْرِى الكأْسُ بين شَرُوبِنا   وبينَ أبى قَابُوسَ فوقَ النَّمارِقِ

---

(١) تجانف : تميل وتعدل
(٢) سورة الصافات ٥٥
(٣) سورة آل عمران ٦٤
(٤) سورة فصلت ١٠

وقال ابنُ الزِّبَعْرَى في يوم أُحُدٍ :

لَيتَ أشياخي ببَدْرٍ شَهِدُوا جَزَعَ الخَزْرَجِ مِن وَقْعِ الأَسَلْ

فاسأَلِ المِهْرَاسَ مَنْ ساكِنُهُ بعدَ أَبْدانٍ وهامٍ كالحَجَلْ

وإنما نَسَبَ شِبْلٌ قتلَ حمزةَ إلى بنى أميةَ ، لأن أبا سفيانَ بنَ حَرْبٍ كان قائدَ الناسِ يومَ أُحُدٍ .

والقتيل الذى بِحَرَّانَ هو إبراهيمُ بن محمد بن علىّ ، وهو الذى يقال له الإمامُ .

وكان يُقال : ضَحَّى بنو حَرْبٍ بالدِّينِ يوم كَرْبَلَاءَ ، وضَحَّى بنو مروانَ بالمُرُوءَةِ يوم العَقْرِ ؛ فيومُ كَرْبلاءَ يومُ الحسين بن على بن أبى طالب وأصحابِهِ ، ويومُ العَقْرِ يومُ قُتِلَ يزيدُ بن المهلّب وأصحابُهُ .

وإنما ذكرنا هذا لِتَقَدُّمِ قريشٍ فى إكرامِ مواليها .

[من أخبار الموالى]

ولّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جيشَ مُوتَةَ زيداً مولاه ، وقال : إن قُتِلَ فأميرُكم جعفرٌ .

وأمَّرَ رسولُ الله أُسامةَ بن زيدٍ ، فبلغه أن قومًا طعَنُوا فى إمارته ، وكان أمَّرَهُ على جيشٍ فيه جِلَّةُ المهاجرينَ والأنصار ، فقال عليه السلامُ : « إنْ طَعَنْتم فى إمارته لقد طعَنْتُمْ فى إمارةِ أبيه قبله ، ولقد كان لها أهلا وإنَّ أُسامةَ لها لأَهْلٌ » . وقالت عائشةُ : لو كان زيدٌ حيًّا ما استخلفَ رسولُ الله غيرَهُ . وقال عبد الله بنُ عمر لأبيه : لِمَ فَضَّلْتَ أسامةَ علىَّ وأنا وهو سِيَّانِ ؟ فقال : كان أبوه أحبَّ إلى رسول الله من أبيكَ ، وكان أحبَّ إلى

[قال الأخفشُ : الصحيحُ عندنا « ابنُ خِذْرةَ » بالخاء وكسرها ، وقال المبرِّدُ : لم أسمعه إلاَّ « جَدَرةَ » ويقال : « جُدَرةَ »][1]

وهو من الخوارج ، يعنى زيدَ بن علىٍّ :

يَاَبا حُسَيْنٍ لو شُرَاةُ عِصابةٍ صَحِبُوكَ كانَ لِوِرْدِهِمْ إصْدارُ[2]

يَاَبا حُسَيْنٍ والجديدُ إلى بِلًى أولادُ دَرْزَةَ أسلموكَ وطَارُوا

تقول العربُ للسَّفِلَةِ والسُّقَّاطِ : أولادُ درْزَةَ ، وتقول لمن تَسُبُّهُ : ابن فَرْتنى ، وأولادُ فرْتَنَى . وتقول للصوصِ : بنو غَبْرَاءَ ، وفى هذا بابٌ .

ويُروىٰ أنَّ شاعراً لبنى أُمَيَّةَ قال معارضاً للشِّيَعِ فى تسميتهم زيداً المهدىَّ [والشاعرُ هو الأَعْوَرُ الكَلْبِىُّ][1] :

صَلَبْنا لكم زيداً على جِذْعِ نخلةٍ ولم نَرَ مَهْدِيًّا على الجِذْعِ يُصْلَبُ

ونُظِرَ بعد زَمَنٍ إلى رأس زيدٍ مُلْقًى فى دارِ يوسفَ وديكٌ يَنْقُرُه ، فقال قائلٌ من الشِّيعةِ :

اطْرُدُوا الديكَ عن ذُؤابةِ زيدٍ طَالمَا كانَ لا تطأهُ الدَّجاجُ

وقولُه :

* وقتيلاً بجانبِ المِهْرَاسِ *

يعنى حمزةَ بنَ عبد المطَّلب ، والمِهْرَاسُ ماءٌ بأُحُدٍ ، ويُروى فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عَطِشَ يومَ أُحُدٍ ، فجاءه علىٌّ فى دَرَقةٍ بماءٍ من المِهْرَاس ، فعافه فغَسَلَ به الدمَ عن وجهه .

---

(١) مابين المعلاقين من زيادات ر .

(٢) ر : « صحبوك » والبيت لم يذكر فى س .

ـ وأومأ إلى مولاه ـ " مولًى مثل هذا ، عاضا لما يكره "، فعَجِبَ أهلُ المجلس من وضعه مولاه الذى تَبْهَى بمثله العربُ .

وقد قيلَ : الرجلُ من أبيه ، والمولَى من مواليه . وفى بعض الحديث[٢] أنَّ المُعْتَقَ من فَضْلِ طِينَةِ المعْتِقِ .

ويُرْوَى أَنَّ سَلْمَانَ أَخَذَ من بين يَدَىْ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم تمرةً من تمْرِ الصدقة فوضعها فى فيه ، فانتزعها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يا أبا عبد الله ، إنما يَحِلُّ لك من هذا ما يَحِلُّ لَنَا » .

ويُرْوَى أن رجلاً من موالى بنى مازنٍ ، يُقال له عبدُ الله بن سليمانَ ، وكان من رِجلَةِ الرجالِ ، نازَعَ عَمْرَو بن هدَّابٍ المازنىَّ ، وهو فى ذلك الوقتِ سَيِّدُ بنى تميمٍ قاطبة[٣] ، فظَهَرَ عليه المولَى حتى أُذِنَ له فى هدم داره ، فأَدْخَلَ الفَعَلَةَ دارَ عَمْرٍو ، فلما قَلَعَ من سَطْحِه سافاً[٤] كَفَّ عنه ، ثم قال : يا عَمْرُو ! قد أَرَيْتُكَ القُدْرة وسأُريكَ العفوَ .

وقد كان فى قريشٍ مَنْ فيه جَفْوَةٌ ونَبْوَةٌ . كان نافعُ بن جُبَيْرٍ ، أحد بنى نوفَلِ بن عبد مَنافٍ ، إذا مُرَّ عليه بالجنازةِ سأل عنها ، فإن قيل : قرشىٌّ قال : واقوماهُ ! وإن قيلَ : عربىٌّ قال : وامادَّتاهُ ! وإن قيل : مَوْلًى أو عَجَمِىٌّ قال : اللهم هُمْ عبادكَ تأخذ منهم من شِئْتَ وتدَع مَنْ شِئْتَ !

(١ — ١) ساقط من ر .
(٢) ر : « الأحاديث »
(٣) قاطبة ، أى جميعهم .
(٤) الساف : كل سطر من الطين واللبن .

رسول الله منكَ . وأوصى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعضَ أزواجه لِتميط عن أسامة أذًى من مُخَاطٍ أو لعابٍ ، فكأنها تكرّهته ، فتولّى منه ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده . وقال له يومًا ، ولم يَكُنْ أسامةُ من أجملِ الناسِ : « لو كنتَ جاريةً لنحلّيناكَ وحلّيناكَ حتى يرغبَ الرجالُ فيكَ » . وفى بعض الحديث أنه قال : « أسامةُ مِنْ أحبِّ الناسِ إليَّ » .

وكان صلى الله عليه وسلم أدَّى إلى بنى قُرَيْظَة مكاتبةَ سلمانَ ، فكان سلمانُ مَوْلَى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال علىّ بن أبى طالب عليه السلام : سلمانُ مِنّا أهلَ البيتِ .

* * *

وَيُرْوَى أنَّ أميرالمؤمنين المهدىَّ نظرَ إليه ويَدُ عُمَارةَ بنِ حمزةَ فى يده ، فقال له رجلٌ : مَنْ هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أخى وابنُ عمّى عُمارةُ بن حمزةَ ، فلما وَلَّى الرجلُ ذَكرَ ذلك المهدىُّ كالمازحِ لعُمارةَ ، فقال له عُمارةُ : انتظرتُ والله أن تقولَ : « ومولاى » فأنفضَ والله يدَكَ من يدى . فتبسمَ أميرُالمؤمنين المهدىُّ .

لم يَكنِ الإكرامُ للموالى فى جُفاة العربِ ، زَعَمَ اللَّيْثىُّ أنه كانتْ بين جعفرِ بن سليمانَ وبين مِسْمَعِ بنِ كِرْدِينَ منازعة ، وبين يَدَىْ مِسْمَعٍ مَوْلًى له ، له بَهاءٌ ورُوَاءٌ ولَسَنٌ ، فوَجَّهَ جعفرٌ إلى مِسْمَعٍ مَوْلًى له لِيُنازعه ، ومجلسُ مِسْمَعٍ حافلٌ ، فقال : إن أنصفنِى واللهِ جعفرٌ أنصفتُهُ ، وإن حَضَرَ حضرتُ معه ، وإنْ عَنَدَ عنِ الحق عَنَدْتُ عنه ، وإنْ وَجَّهَ إلىَّ مولًى مثلَ هذا — وأومأ إلى مولَى جعفر فقال : مَوْلًى مثلُ هذا ! عاضًا لما يَكْرَهُ — وَجَّهْتُ إليه ،

ثم نعودُ إلى ما ابتدأناه إن شاء الله ، وهو ما نختارُه من مختصراتِ الخُطَبِ وجميلِ المواعظِ ، والزُّهدِ فى الدنيا المتصل بذلك ، وبالله التوفيقُ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو العباس: قد ذكرنا فى صدر كتابنا هذا ، أنَّا نذكرُ فيه خُطَباً ومواعظَ ؛ فممَّا نذكُره فى[1] ذلك أمرُ التعازى والمَراثِى ؛ فإنَّهُ بابٌ جامعٌ ، وقد قيل إنه لم يُقَلْ فى شىء قَطُّ كما قيل فى هذا الباب ؛ لأن الناسَ لا يَنفكُّون من المَصائبِ ، ومن لم يَثْكَلْ أخاه ثَكِلهُ أخوه ، ومن لم يَعْدَمْ نفيساً كان هو المعدومَ دونَ النفيسِ ، وحقُّ الإنسانِ الصبرُ على النوائب ، واستشعارُ ما صدَّرناه ، إذ كانت الدنيا دار فِراقٍ ودار بَوارٍ ، لا دار استواء . وعلى فِراقِ المألوفِ حُرْقَةٌ لا تُدفَعُ ، ولَوْعَةٌ لا تُرَدُّ ، وإنما يتفاضَل الناسُ بصحة الفكر ، وحسنِ العَزاء ، والرغبةِ فى الآخرةِ ، وجميلِ الذِّكر .

[من مراثى الآباء والإخوة والأبناء]

فقد قال أبو خِراشٍ الهُذَلِىّ ، وهو أحدُ حُكماء العربِ ، يَذْكُر أخاه عُروَةَ بن مُرَّةَ :

تَقولُ أراهُ بعدَ عروةَ لاهِيًا ... وذلكِ رُزءٌ لو عَلِمتِ جَليلُ

فلا تَحْسَبِى أنى تناسَيْتُ عهدَه ... ولكنَّ صَبرِى يا أُمَيْمَ جَمِيلُ

* * *

وقال عَمْرُو بن مَعْدِى كَرِبَ :

كم من أخٍ لِىَ حازمٍ ... بوَّأتُهُ بيَدَىَّ لحدَا

أغْمَضْتُ عن تذكارهِ ... وحُلِقتُ يومَ حَلَقتُ جَلْدَا

(١) ر ه من ٤ .

ويُرْوَى أنَّ ناسكاً من بنى الهُجَيْم بن عَمْرِو بن تميم كان يقولُ فى قَصَصِهِ : اللهم اغْفِرْ للعربِ خاصّةً وللموالِي عامةً ، فأمّا العَجَمُ فهم عَبيدُكَ والأمرُ إليكَ .

وزَعَمَ الأصمعىّ قال : سمعتُ أعرابيًّا يقول لآخر : أتُرَى هذه العَجَم تَنْكِحُ نساءَنَا فى الجنة ؟ قال : أرى ذلك واللهِ بالأعمالِ الصالحةِ ، قال : تُوطَأُ واللهِ رقابُنا قبلَ ذلك .

وهذا بابٌ لم نكنِ ابتدأنا ذكرَه ، ولكنَّ الحديثَ يَجُرُّ بعضُه بعضاً ، ويحمِلُ بعضُه على لفظِ بعضٍ .

* * *

وحُدِّثتُ أنَّ عُمرَ بن عبد العزيز لمَّا مات ابنُه عبدُ الملك خطَبَ الناسَ فقال : الحمدُ لله الذى جعَلَ الموتَ حَتْماً واجباً على عباده ، فسوَّى فيه بين ضعيفِهم وقويِّهم ، ورَفيعِهم ودَنيِّهم ، فقال عزّ وجلّ : ﴿ كلُّ نفْسٍ ذائِقةُ الموْتِ ﴾[1] ، فلْيَعْلَمْ ذَوُو النُّهى منهم أنهم صائرون إلى قبورهم ، مُفْردون بأعمالهم . واعلموا أنّ لِله مسألةً فاحصةً . قال عزّ وجل : ﴿ فوَربِّكَ لَنَسألَنَّهُمْ أجْمَعِينَ عَمّا كانوا يَعْمَلُونَ ﴾[2] ، وله يقولُ القائلُ :

تعزَّ أميرَ المؤمنين فإنَّهُ لِمَا قدْ ترَى يُغْذَى الصَّغيرُ ويُولَدُ
هَلِ ابْنُكَ إلاّ مِنْ سُلالةِ آدمٍ لِكُلٍّ على حَوْضِ المَنيَّةِ مَوْرِدُ

* * *

وقال رجلٌ من قريشٍ يرثى ابنه [قال أبو الحسن : هو العُتْبىُّ] :

بأبِى وأُمِّى مَنْ عَبأْتُ حَنُوطَهُ بِيدِى ووَدَّعَنِى بماءِ شَبابِهِ[3]
كيف السُّلُوُّ وكيفَ صَبْرِى بعدَه وإذا دُعِيتُ فإنما أُكْنَى بِهِ !

* * *

وقال ابنٌ لعمرَ بن عبد العزيز يرثى عاصِمَ بن عُمرَ :

فإنْ يكُ حُزنٌ أوْ تجرُّعُ غُصَّةٍ أمارا نَجيعاً مِنْ دمِ الجوْفِ مُنْقعَا
تجرَّعتُهُ فى عاصِمٍ واحْتسَيْتُهُ لَأعْظَمُ منه ما احْتَسىْ وتَجرَّعا

* * *

(١) سورة آل عمران ١٨٥ .
(٢) سورة الحجر ٩٢ .
(٣) يقال : عبأت الطيب عبأً ؛ إذا صنعته وخلطته .

وكان يقال : من حدث نفسه بالبقاء ، ولم يُوطِّنها على المصائب فعاجزُ الرَّأْيِ .

* * *

عزَّى رجلٌ رجلاً عن ابنه فقال : أكانَ يَغيبُ عنك ؟ قال : كانت غَيْبَتُهُ أكثرَ من حضوره ، قال : فأَنْزِلْهُ غائباً عنك ، فإنه إن لم يَتقدمْ عليك قَدِمتَ عليه .

* * *

وقال إبراهيمُ بنُ المَهْدِيِّ يذكر ابنَهُ :

وإنِّى وإنْ قُدِّمْتَ قَبْلِي لعالِمٌ　　بأنِّى وإن أبطأتُ عنكَ قريبُ[1]

وإنَّ صباحًا نَلْتقى فى مَسَائِهِ　　صباحٌ إلى قَلْبِى الغَدَاةَ حَبيبُ

وكفى باليأسِ مُعَزِّيًا ، وبانقطاعِ الطَّمَعِ زاجِرًا ! كما قال الشاعر :

أيا عمرُو لم أَصْبِرْ ولِى فيك حِيلةٌ　　ولكن دعانِى اليأسُ منكَ إلى الصَّبْرِ

تَصَبَّرْتُ مغلوباً وإنى لموجَعٌ　　كما صَبَرَ العطشانُ فى البلَدِ القفرِ

* * *

وقال بعضُ المُحْدَثِين وليس بناقِصِهِ حَظَّهُ من الصوابِ أنه مُحْدَثٌ ، يقولُ لرجلٍ رثاه [قال أبو الحسن : وهو أبو تمام] :

عَجِبْتُ لِصَبْرِى بعدَه وهْوَ مَيِّتٌ　　وقد كنتُ أبكيه دمًا وهو غائبُ

على أنها الأيامُ قد صِرْنَ كلُّها　　عجائبَ حتى ليسَ فيها عجائبُ

* * *

(١) ر : « منك » .

فهذا يَحْسُن من قائله أنَّ الرُّزْءَ كان جليلاً بإجماع . وللقائل أن يتفسّح في القول فيه .

* * *

وهذا يقوله عبد العزيز بنُ عبد الرحيم بن جعفر بن سليمانَ بن عليّ ابن عبد اللهِ بن عباس . وكان عبدُ الرحيم من جِلَّة أهله لَسَناً ونعمةً وسِنّاً وولايةً ، ومات معزولا عن اليمن في حبس الخليفةِ . وأمُّ جعفر بن سليمانَ أمُّ حسنٍ بنتُ جعفر بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب ، صلوات الله عليهم ، فلذلك يقولُ عبد العزيز في هذه القصيدة :

بموتِكَ يا عبدَ الرحيم بنَ جعفرٍ ... تَنَاحَشَ صَدْعُ الدين عن ألَمِ الكَسْرِ

فيابْنَ النَّبيِّ المصطفى وابنَ بنته ... ويابْنَ عليٍّ والفواطمِ والحَبْرِ (١)

ويابنَ اختيارِ اللهِ من آلِ آدمٍ ... أباً فأباً طُهْراً يؤدِّي إلى طُهْرْ

ويابْنَ سليمانَ الذي كان مَلْجَأً ... لِمَنْ ضاقتِ الدنيا به من بَنِي فِهْرِ

ومنْ مَلا الدنيا سَماحًا ونائلاً ... ورَوَّى حَجِيجًا بالمُلَمَّعَةِ القَفْرِ (٢)

لعَزَّ بما قد نالَنا من رَزِيئَةٍ ... بموتكَ محبوساً على صاحب القَبْرْ

فإن تُضحِ في حبس الخليفة ثاوِياً ... أبيًّا لِمَا يُعْطِي الذَّليلُ على القَسْرِ

لكمْ من عدوٍّ للخليفة قد هَوَى ... بكفِّكَ أوْ أعْطَى المَقادَةَ عن صُغْرِ

فوا حَزَنَا ! لوْ فِي الوَغَى كان مَوْتُهُ ... بَكَيْنَاهُ عليه بالرُّدَيْنِيَّةِ السُّمْرِ

وكُنَّا وَقَيْنَاه القَنَا بنُحُورِنَا ... وفاتَ كذا في غيرِ هَيْجٍ ولا نَفْرِ

* * *

(١) الحبر : هو عبد الله بن العباس . (٢) الملمعة : الأرض يلمع فيها السراب .

وقال أبو سعيد إسحاق بن خلف يرثى ابنة أخته، وكان تبنّاها، وكان معذبًا عليها كلفًا بها:

أمست أميمة معمورًا بها الرَّجَمُ لَقىً صعيد عليها التُّرب مرتكِم[1]
يا شقة النفس إنّ النفس والهة حرّى عليك ودمع العين منسجم[2]
قد كنتُ أخشى عليها أن تقدمنى إلى الحِمام فيبدِى وجهَها العدم
فالآن نمتُ فلا همٌّ يؤرّقنى يهدا الغيورُ إذا ما أودت الحُرَم[3]
للموتِ عندى أيادٍ لستُ أنكرها أحيا سرورًا وبى ممّا أتى ألمُ

وهذه المرثية ليست مما تقع مع الجزع القَرَاحِ والحزن المفرط، ولكنه باب للمراثى يجمع إفراطَ الجزع، وحسنَ الاقتصاد، والميلَ إلى التشكى، والركونَ إلى التعزّى، وقولَ من كان له واعظٌ من نفسه، أو مذكّرٌ من ربه، ومن علبت عليه الجساوة[4]، وكان طبعه إلى القساوة، فقد اختلط ل بكلّ.

* * *

وقال رجل من المحدّثين يرثى أباه[5]:

تجلّ رزيّاتٌ وتعرو مصائبٌ[6] ولا مثلَ ما أنحتْ علينا يدُ الدهرِ
لقد عركتنا للزمان ملمّةٌ أذمّتْ بمحمود الجلادة والصبرِ[7]

---

(١) الرجم: القبر، واللقى: الشىء الملقى لهوانه. (٢) الشقة: نصف الشىء.
(٣) ألهت: هلكت. (٤) الجساوة: الغلظ. (٥) ر: «أخاه».
(٦) حاشية الأصل: «ش: تحل». (٧) أذمت: تركته مذموماً.

والمراثى كثيرة كما وصفنا ، وإنما نكتب منها المختارَ والنادرَ والمتمثَّل به السائرَ .

* * *

فمن مليح ما قيلَ قولُ رجلٍ يرثى أباه :

[قال أبو الحسن : يقال إنه[1] لأبى العتاهيةِ]

قلبِ ياقلبِ أوجعكْ ما تعدَّى فضعضعكْ
يا أبِى ضمَّكَ الثرى وطوَى الموتُ أجمعكْ
ليتنى يومَ متَّ صرْ تُ إلى حفرة معكْ[2]
رحِمَ اللهُ مصرعكْ بَرَّدَ اللهُ مضجعكْ

* * *

وقال إبراهيم بنُ المهدىِّ يرثى ابنَه ، وكان مات بالبصرة :

نأى آخرَ الأيامِ عنكَ حبيبُ فلِلعينِ سحٌّ دائمٌ وغروبُ[3]
دعتْهُ نوًى لا يُرتجى أوْبةٌ لها فقلبُكَ مسلوبٌ وأنتَ كئيبُ
يئوبُ إلى أوطانِهِ كلُّ غائبٍ وأحمدُ فى الغُيَّابِ ليسَ يئوبُ
تبدَّل دارًا غيرَ دارى وجيرةً سِوَاىَ ، وأحداث الزمانِ تنوبُ
أقامَ بها مُستوطِنًا غيرَ أنَّه على طولِ أيَّامِ المُقامِ غريبُ
كأنْ لم يكن كالغُصن فى ميعةِ الضحى سقاهُ النَّدى فاهتزَّ وهو رطيبُ[4]

(١) ر : « يقال إنه ابن لأبى العتاهية » .
(٢) ر : « تربة معك » .
(٣) السح : الصب . وغروب : جمع غرب ؛ وهو الدمع حين يجرى .
(٤) ميعة كل شىء : أوله ؛ أى فى أول شبابه .

وحُدِّثْتُ أنَّ عمرَ بن الخطاب لمّا وَلّى كَعبَ بن سُورٍ الأزدِيَّ قضاء البصرةِ ، أقام عاملاً له عليها إلى أن استُشْهِدَ ، على أنه كان قد عزله ثم ردّه ، فلما قام عثمانُ بن عفّانَ أقرَّه ، فلما كان يومُ الجَمَلِ خرج مع إخوة له — قالوا ثلاثةٌ ، وقالوا أربعةٌ — وفى عنقه مُصْحَفٌ ، فقُتلوا جميعاً ، فجاءت أُمُّهم حتى وقفتْ عليهم ، فقالت :

يا عينُ جُودِى بدمعٍ سَرِبْ   على فِتيَةٍ من خِيار العَرَبْ
وما لهمُ غـيرَ حَيْنِ النُّفو   سِ أىُّ أَميرَىْ قريش غَلَبْ !

هذه الرواية « سَرِب » وقالوا معناه : جارٍ فى طريقه ، من قولهم : انسَرَبَ فى حاجته . وبيت ذى الرُّمَّةِ يُختارُ فيه الفتحَ :

* كأنَّه من كُلَى مَفْرِيَّةٍ سَرَبُ *

لأنه اسمٌ ، والأول المكسورُ نعتٌ ، ويقبح وضعُ النعتِ موضع[1] المنعوتِ غيرِ المخصوص .

* * *

[قال أبو الحسن : حقُّ النعتِ أن يأتِىَ بعدَ المنعوت ، ولا يقعَ فى موقعه حتى يَدُلَّ عليه فيكونَ خاصًّا له دون غيره ، تقول : جاءنى إنسانٌ طويلٌ ، فإن قلتَ : جاءنى طويلٌ لم يَجُزْ ، لأن « طويلا » أعمُّ من قولكَ : إنسانٌ ، فلا يدلّ عليه . فإن قلت : جاءنى إنسانٌ متكلّمٌ ، ثم قلت بَعْدُ : جاءنى متكلّمٌ جازَ ؛ لأنك تَدُلُّ به على الإنسان ، فهذا شرحُ قوله : « المخصوص »] .

* * *

وقولها : « غَيْرَ حَيْنِ النُّفوسِ » نصبٌ على الاستثناء الخارج من أول الكلام ، وقد ذكرناه مشروحاً .

---

(١) ر : « فى موضع » .

وإنى وإنْ قُدِّمتَ قبلى لَعالِمٌ بأنِّى وإنْ أبطأتُ منك قريبُ
وإنَّ صباحاً نلتقى فى مسائِهِ صباحٌ إلى قلبى الغداةَ حبيبُ

* * *

وقال أبو عبد الرحمن العُتْبِىّ وتتابعَ له بنونَ :

كَلَّ لسانى عن وصفِ ما أجد وذقتُ ثُكْلاً ما ذاقه أحَدُ
وأوطنَتْ حُرْقَةٌ حشاىَ فقد ذاب عليها الفؤادُ والكبد
ما عالجَ الحزنَ والحرارةَ فى الـأحشاء من لم يمُتْ له وَلَدُ
فُجِعْتُ باثنين ليس بينهما إلاّ ليالٍ ليستْ لها عَدَد
فكلُّ حُزنٍ يَبلَى على قِدَمِ الدّهْرِ وحزنى يُجِدُّه الأبدُ

* * *

وذكر بعضُ الرواة أن عُبَيْدَ الله بن العباس بن عبد المطلب ــ وكان عاملاً لعلىّ بن أبى طالب على اليمن ، فشَخَص إلى علىّ ، واستخلفَ على اليمن عمرو بن أراكةَ الثقفِىّ ، فوجَّه معاوية إلى اليمن ونواحيها بُسْرَ بن أرْطاةَ ، أحدَ بنى عامر ابن لؤىّ ، فقتلَ عمرو بن أراكةَ ، فجزِعَ عليه عبد الله أخوه جزعاً شديداً ، فقال أبوه :

لَعَمْرى لئن أتبعتَ عينيكَ ما مضى به الدهرُ أو ساق الحِمامُ إلى القبر
لَتَسْتَنْفِدَنْ ماءَ الشؤونِ بأسْرِهِ ولو كنتَ تَمْريهنَّ من ثَبَجِ البحرِ
لعمرى لقد أرْدى ابنُ أرطاةَ فارساً بصَنْعاءَ كالليث الهِزَبْرِ أبى أجْرِ
وقلتُ لعبد الله إذ حَنَّ باكياً تَعَزَّ ، وماءُ العين منْهَمِرٌ يجرى

كأنْ لمْ يكنْ كالدُّرّ يلمعُ نورُهُ بأصْدافِهِ لمّا تشِنْهُ ثقوبُ
كأنْ لم يكن زَيْنَ الفناء ومَعْقِلَ النّساءِ إذا يومٌ يكونُ عَصِيبُ
ورَيْحانَ صدْرى كانَ حين أشُمُّهُ ومُؤْنِسَ قَصْرِى كان حينَ أغِيب
وكانتْ يَدِى مَلْأىْ به ثم أصبحتْ بحمدِ إلهى وهْىَ منه سَلِيبُ
قليلاً من الأيّام لم يَرْوَ ناظِرِى بها منه حتى أعْلَقتْهُ شَعوبُ[1]
كظِلِّ سَحَابٍ لم يُقِمْ غيرَ ساعةٍ إلى أن أطاحَتْهُ فطاحَ جَنُوبُ
أوِ الشمسِ لَمّا مِنْ غمامٍ تحَسّرَتْ مَساءً وقد وَلتْ وحانَ غُروبُ
سأبكيكَ ما أبقتْ دموعىَ والبكا بعينىَ ماءً يا بُنَىَّ يُجيبُ
وما غارَ نجْمٌ أوْ تَغَنَّتْ حمامةٌ أوِ اخضرَّ فى فرْعِ الأراكِ قضيبُ
حياتِىَ ما دامتْ حياتِى فإنْ أمُتْ ثوَيْتَ وفى قلبى عليكَ نُدوبُ
وأُضْمِرُ إنْ أنفذتُ دمْعِىَ لوْعةً عليكَ لها تحتَ الضلوعِ وَجيبُ
دعوتُ أطِبّاءَ العراقِ فلم يُصِبْ دَوَاءَكَ منهم فى البلادِ طَبيبُ
ولمْ يَملكِ الآسُونَ دفعاً لِمُهْجَةٍ عليها لإشْراكِ المَنُونِ رَقيبُ
تَقَصّتْ جَناحِى بعدَ ماهدَّ مَنْكِبِى أخُوكَ ، فرأسِى قد علاه مَشِيبُ
فأصْبحتُ فى الهُلّاكِ إلّا حُشاشَةً تُذابُ بنارِ الحزْنِ فهْىَ تذوبُ
تولَّيتُما فى حِقْبَةٍ فتركْتُما صَدًى يَتَوَلّى تارةً ويَثُوبُ
فلا مَيْتَ إلّا دونَ رُزْئِكَ رُزْؤُه ولو فتّتَتْ حُزْناً عليه قلوبُ

---

(١) شعوب : اسم للموت

يا من أحسّ بُنَيَّيَّ اللذَيْنِ هما سمعي وطرفي فطرفي اليومَ مُختطَفُ
يا من أحسّ بُنَيَّيَّ اللذَيْنِ هما مُخُّ العظامِ فمُخّي اليومَ مُزدَهَفُ[1]
نُبِّئتُ بُسْرًا، وما صدّقتُ ما زعموا من قولهم ومن الإفكِ الذى اقترفوا
أنحى على وَدَجَيْ طِفلَيَّ مُرْهَفةً مشحوذة، وعظيمُ الإفكِ يُقترَفُ
من دلّ والهة حرّى مُفَجّعةً على صَبِيَّينِ غابا إذْ مَضَى السَّلَفُ

* * *

ويُروى أن معاويةَ لمّا أتاه موتُ عُتْبَةَ تمثّلَ :

إذا سار مَنْ خلفَ امرِئٍ وأمامَهُ وأُوحِشَ من أصحابه فهو سائرُ

فلما أتاه موتُ زيادٍ تمثّلَ :

وأُفرِدْتُ سَهْماً فى الكِنانة واحداً سيُرْمَى به أو يَكسِرُ السَّهمَ كاسِرُ

* * *

وماتت امرأةٌ للفرزدقِ بِجُمْعٍ — ومعنى « جُمْعٍ » وَلَدُها فى بطنها وإن شئت قلتَ : « جِمْعٌ » يا فتى ، فقال الفرزدق :

وجَفْنِ سِلاحٍ قد رُزِئتُ فلم أَنُحْ عليه ولم أَبْعَثْ عليه البواكيا
وفى جوفِه من دارمٍ ذو حَفيظةٍ لوَ انَّ المنايا أَنسأَتْهُ لياليا !

وهذا من البَغْىِ فى الحُكمِ والتقدُّمِ .

* * *

وقال رجلٌ من المُحْدَثِينَ فى ابنينِ لعبد الله بن طاهر أُصيبا فى يومٍ واحدٍ وهما طفلانِ شبيهاً بهذا ، ولكنه اعتذر فحَسُنَ قولُهُ وصحّ معناه باعتذاره ، وهو الطائىُّ :

---

(١) مزدهف : مذهوب به .

تَبيَّنْ فإنْ كانَ البُكا رَدَّ هالِكًا على أهلِه فاشْدُدْ بكاكَ على عَمْرِو

ولا تَبْكِ مَيْتاً بعد مَيْتٍ أَجَنَّهُ عليٌّ وعباسٌ وآلُ أبي بَكر

قوله: «من ثَبَج البحرِ» فثَبَجُ كلِّ شيء وَسَطُهُ، ويروى في الحديث[1]: «كنتُ إذا فاتحتُ الزُّهْرِيَّ فَتحْتَ منه ثَبَجَ البحرِ». وقوله: «تَمْرِيهِنَّ» هو مَثَلٌ، يقال: «مَرَيتُ الناقةَ» إذا مسحتَ ضَرْعَها لِتَدُرَّ، فإنما هو استخراج اللبن، ويقال: «مَرَيتُ برجلي الأرضَ»، إذا مسحتَها، والأصل ذلك، فإنما أراد: ولو كنتَ تستخرجُ الدموعَ من ثَبَجِ البحر.

***

وكان بُسْرُ بن أَرْطَاةَ في تلك الحروب أُرْشِدَ على ابنينِ لعبيد الله بن العباس ابن عبد المطلب، وهما، طفلانِ وأُمُّهما من بني الحارث بن كعب، فورَاتهما الحارثية، فيقال إنه أخذهما من تحتِ ذَيْلِها فقتلهما، ففي ذلك تقول الحارثيَّةَ:

ألاَ مَنْ بَيَّنَ الأخَوَيْـــنِ أُمُّهما هِيَ الثَّكْلَى

تُسائِلُ مَنْ رَأَى ابْنَيْهاَ وتَسْتَبْغِي فَما تُبْغَى

***

وفي ذلك تقول أيضاً:

يا مَنْ أَحَسَّ بُنَيَّيَّ اللذَيْنِ هما كالدُّرَّتينِ تَشَظَّى عنهما الصَّدَفُ[2]

---

(١) قال المرصفي: «الصواب ماذكره ابن الأثير في نهايته، قال: «وفي حديث أم حرام: قوم يركبون ثبج هذا البحر، أي معظمه ووسطه، ومنه حديث الزهري: كنت إذا فاتحت عروة ابن الزبير فتقت به ثبج بحر، يريد غزارة علمه وفهمه».

(٢) تشظى: تنشق وتفرق شظايا.

[(١ قال أبو الحسنِ : الشعرَ لِقُطْرُبٍ النحوىّ ، وهو الذى صَحَّ عنه ١)]

أَمّا القبورُ فإنهنَّ أَوانِسٌ ... بِجوارِ قبرِكَ والديارُ قُبورُ

جَلّتْ رَزِيئَتُهُ فَعَمَّ مُصابُهُ ... فالناسُ فيه كُلُّهمْ مأجورُ

والناسُ مَأْتَمُهُمْ عليه واحدٌ ... فى كلِّ دارٍ رَنّةٌ وزَفيرُ

رَدَّتْ صَنائِعُهُ إليه حَياتَهُ ... فكأنّه من نَشْرِها مَنْشُورُ

يُثْنِى عليكَ لِسانُ مَنْ لم تُولِهِ ... خيرًا لأَنّكَ بالثّناءِ جديرُ

* * *

ومثلُه قولُ عُمارةَ يمدح خالد بن يَزِيدَ بن مَزْيَدٍ :

أَرَى الناسَ طُرًّا حامِدِينَ لخالدٍ ... وما كُلُّهم أَفْضَتْ إليه صَنائِعُهْ

ولن يَتْرُكَ الأقوامُ أن يَمدحوا الفتى ... إذا كَرُمَتْ أخلاقُه وطَبائِعُهْ

فَتًى أَمْعَنَتْ ضَرّاؤُهُ فى عدوِّهِ ... وخَصَّتْ وعَمَّتْ فى الصديقِ منافِعُهْ

ومن قوله :

* والناسُ مَأْتَمُهم عليه واحدٌ *

أخذَ الطائىُّ فى مَرْثِيَتِهِ :

لَئِنْ أُبْغِضَ الدهرُ الخَؤُونُ لِفَقْدِهِ ... لَعَهْدِى به حَيًّا يُحَبُّ به الدَّهرُ

لئن عَظُمَتْ فيهِ مُصيبةُ طَيِّءٍ ... لَمَا عُزِّيَتْ منها تَميمٌ ولا بَكْرُ

وقال القرشىُّ :

قد كنتُ أُبكى على مَنْ كان (٢) من سَلَفِى ... وأهلُ وُدِّى جَميعٌ غيرُ أَشْتاتِ

(١ — ١) ر : « قال أبو الحسن : الذى صح عندنا أن هذا الشعر لقطرب النحوى »

(٢) و : « من فات » .

لَهْفِي على تلك الشواهدِ فيهما　　لو أُمْهِلَتْ حتى تكونَ شمائلا
إن الهلالَ إذا رأيتَ نُمُوَّهُ　　أيقنتَ أنْ سيكونُ بَدْرًا ، كاملاَ

[للفرزدق يرثي حدراء الشيبانية]

وقال الفرزدقُ يرثي حَدْراءَ الشَّيْبانِيَّةَ :

يقولُ ابنُ صَفْوانٍ بكيتَ ولم تَكُنْ　　على امرأةٍ عَيْنِي إخالُ لِتَدْمَعَا
يقولون زرْ حَدْرَاءَ ، والتربُ دُونَهَا　　وكيفَ بشيء عَهْدُهُ قد تَقَطَّعَا
ولَسْتُ وإنْ عَزَّتْ عَلَيَّ بزائرٍ　　ترابًا على مَرْمُوسةٍ قد تَضَعْضَعا
وأهونُ مَفْقودٍ إذا الموتُ نالَهُ　　على المرءِ من أصحابه مَنْ تَقَنَّعا
وما ماتَ عندَ ابن المراغةِ مثْلُها　　ولاَ تَبِعَتْهُ ظاعِنًا يوم وَدَّعا

[لجرير يرثي امرأته]

وقال جرير يرثي امرأتَه :

لولا الحياءُ لَهَاجَنِي اسْتِعْبَارُ　　ولزُرْتُ قبرَكِ والحبيبُ يُزارُ
نِعْمَ الخليلُ وكنتِ عِلْقَ مَضِنَّةٍ　　ولَدَىَّ منكِ سَكينةٌ ووَقارُ
لن يُلْبِثَ القُرناءَ أن يَتفرَّقوا　　ليلٌ يَكُرُّ عليهمُ ونهارُ
صلى الملائكةُ الذين تُخُيِّرُوا　　والصالحونَ عليكِ والأبْرارُ
أَفَأُمَّ حزْرَةَ يا فرزدقُ عِبْتُمُ　　غَضِبَ المليكُ عليكمُ الجبَّارُ

[لرجل من خزاعة يرثي عمر بن عبد العزيز]

وقال رجلٌ من خُزاعة ـ ويَنْحَلُهُ كُثَيِّرٌ ـ يرثي عمرَ بن عبد العزيز ابن مَرْوان :

---

(١) مرموسة ، من رمس الميت يرمسه إذا دفنه .　　(٢) حزرة ، هو ابن جرير .

وعِشْنا بخيرٍ فى الحياةِ وقبلَنا أصابَ المنايا رَهْطَ كِسْرى وتُبَّعا
فلمَّا تفرَّقنا كأنّى ومالكاً لطُولِ اجتماعٍ لم نَبِتْ ليلةً معَا

***

ومات صَدِيقٌ لسليمانَ بن عبد الملك ، يقال له شَراحِيلُ ، فتمثَّلَ عندَ قبرِه :

وهَوَّنَ وجْدِى عن شَراحِيلَ أنّنِى إذا شئتُ لاقيتُ امرَأً مات صاحبُه

[لأعرابى]

وقال أعرابىٌّ :

أَلاَ لَهفَ الأَرامِلِ واليَتامَى ولَهفَ الباكِياتِ على قُصَىٍّ !
لَعَمرُكَ ما خَشِيتُ على قُصَىٍّ مَتالِفَ بين حِجْرٍ والسُّلىّ (١)
ولكِنّى خَشِيتُ على قُصَىٍّ جَرِيرَةَ رُمْحِهِ فى كلِّ حَىّ
فَتَى الفِتْيانِ مُحْلَوْلٍ مُمِرٌّ وأَمّارٍ بإِرْشـادٍ وَغَىّ (٢)

فهذا من أجْفى أشعار العربِ ، ينبئ صاحبُه أنَّ تقديرَه فى المَرْثِىّ أن تكونَ منيَّتُه قتلاً ، ويتأسَّفُ من موته حَتْفَ أنفِه ، ويقول فى مدحه :

* وأَمّارٍ بإِرْشادٍ وغىّ *

[خبر عامر بن الطفيل وأربد أخى لبيد]

وشبيهٌ بهذا قول لبيدٍ فى أخيه أَرْبَدَ ، لمَّا أصابته الصاعقةُ وأصابتْ عامرًا الغُدَّةُ (٣) بدعوةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان عامرٌ قد قدِم إلى

(١) حجرة : موضع باليمامة . والسلى : واد بها أيضاً .
(٢) مجر من أمر الشئ : ضد حلا. (٣) الغدة : طاعون الإبل .

فاليومَ إذْ فرّقتْ بيني وبينَهمُ   نَوًى بكيتُ على أهل المروءاتِ

وما بقاء امرئٍ كانت مَدامعُهُ   مقسومةً بين أحيــاء وأمواتِ!

[ما تمثل به على بن أبى طالب عند قبر فاطمة]

ويُروى أنَّ علىَّ بن أبى طالبٍ رضوانُ الله عليه تمثَّل عند قبرِ فاطمةَ رحمها الله .

[لِكُلِّ اجتماعٍ من خليلَيْنِ فُرقةٌ   وإنَّ الذى دُونَ الفِراقِ قليلُ][1]

وإنَّ افتقادِى واحداً بعدَ واحدٍ   دليــلٌ على ألّا يدومَ خليلُ

[لعقيل بن علفة يرثى ابنه]

وقال عُقيلُ بن عُلَفةَ المرّىُّ ، من غَطَفانَ :

لَعَمرِى لقد جاءتْ قوافلُ خَبَّرتْ   بأمرٍ من الدنيا علىَّ ثقيلِ

وقالوا ألَا تَبْكِى لِمَصْرَعِ هالكٍ   أصابَ سبيلَ الله خيرَ سَبيلِ !

كأنَّ المَنايا تبْتَغِى فى خِيارِنا   لَهَا تِرَةً أو تهتدِى بدليل

لتأتِ المنايا حيثُ شاءتْ فإنها   مُحَلَّلةٌ بعدَ الفتى ابنِ عَقِيلِ

فتًى كان مولاه يَحُلُّ بِنَجْوةٍ   فَحَلَّ المَوالِى بعدَه بمَسِيلِ

[ما تمثلت به عائشة على قبر أخيها]

وتَمثَّلتْ عائشةَ رحمها الله عندَ قبرعبدالرحمن بن أبى بكرٍ بقولِ مُتَمِّمِ بن نُوَيْرَةَ :

وكُنّا كَنَدْمَانَىْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً   من الدهرِ حتى قيلَ لن يَتَصدَّعا

---

(١) البيت من زيادات ر .

ما إنْ تُعَرِّى المَنُونُ من أحدٍ لا والدٍ مُشفِقٍ ولا وَلدِ
فَجَّعَنى الرَّعْدُ والصواعقُ بالفــارسِ يومَ الكريهةِ النَّجُدِ[1]
يا عَيْنُ هلاَّ بَكَيْتِ أَرْبَدَ إذ قُمْنا وقامَ العَدُوُّ فى كَبَدِ[2]

وقال أيضاً :

ذهبَ الذين يُعاشُ فى أكنافِهِمْ وبَقِيتُ فى خَلفٍ كجِلْدِ الأجرَبِ
يتحدَّثون مَخانَةً ومَلاذةً ويُعابُ قائلُهم وإن لم يَشْغَبِ
يا أَرْبَدَ الخيرِ الكريمَ جُدُودُهُ غادَرْتَنِى أَمْشِى بقَرْنٍ أَعْضَبِ
إنَّ الرَّزِيئةَ لا رَزِيئةَ مثلُها فِقْدانُ كلِّ أخٍ كَضَوْءِ الكوكبِ

قوله : « فى خلفٍ » يقال : هو خَلَفُ فلانٍ لمن يَخْلُفُهُ من رهطه ، وهؤلاء خَلْفُ فلانٍ ، إذا قاموا مقامَه من غير أهله ، وقلما يستعمل « خَلْفٌ » إلاَّ فى الشرّ ، وأصلُه ما ذكرنا . والمخانة : مصدرٌ من الخيانة . والمَلوذ : الذى لا يَصْدُقُ فى مودَّتِه ، يقال : رجل مَلوذٌ ومَلَذانٌ ، ومَلاذةٌ مصدرُه . والأَعْضَبُ : المقطوعُ . وفى الحديث : « لا يُضَحَّى بعَضْباء » .

ويُروى أن رجلاً قال لِمَعْنِ بن زائدة فى مرضِه : لولا ما مَنَّ اللهُ به من بقائك ، لكنَّا كما قال لَبيد :

ذهَبَ الذين يُعاشُ فى أكنافِهِم وبقيتُ فى خَلْفٍ كجِلْدِ الأجْربِ

فقال له مَعْنٌ : إنما تَذْكُر أنى سُدْتُ حين ذهبَ الناسُ ، هلاَّ قلتَ كما قال بهارُ بن توسعةَ :

قَلَّدَتْه عُرَى الأمورِ نِزارٌ قبلَ أن تَهلِكَ السَّراةُ البُحورُ

---

(١) النجد : البطل الشجاع . (٢) الكبد : الجهد والمشقة .

رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] ومعه أَرْبَدُ ، فقال لِأَرْبَدَ : أنا أُشْغِلُهُ لكَ واضْرِبْهُ أنت بالسيفِ من ورائه ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام على أن يجعل له أَعِنَّةَ الخيلِ ، فقال عامر : ومن يمنعُها منِّى اليومَ ! ولكنْ إن شئتَ فَلَكَ المدَرُ ولِي الوَبَرُ ، أوْ لىَ المدَرُ ولك الوَبَرُ . فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : فاجعلْ لِي هذا الأمرَ بعدكَ ، فأعلمه النبيُّ أنَّ ذلك ليس بكائنٍ ، قال : فأَبْشِرْ بخيلٍ أَوَّلُها عندك وآخرُها عندِى ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « يَأْبَى اللهُ ذلكَ وابنا قَيْلة » — يعنى الأوْسَ والخَزْرَج

ويُرْوَى أنَّ سعدَ بن عُبَادَةَ قال : يا رسول الله ، عَلامَ يَسْحَبُ هذا الأعرابىُّ لسانَه عليكَ ! دَعْنِي أَقْتُلْهُ

ويُرْوَى أن عامرًا قال للنبى عليه السلام : لأَغْزُوَنَّكَ على أَلْفِ أشْقرَ وألفِ شَقْراءَ فلما قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهمَّ اكْفِنِيهِمَا » . وتَرْوِى قيسٌ أنه قال : « اللهمَّ إن لم تَهْدِ عامرًا فا كفِنيه » . وقال عامر لأَرْبَد : قد شغلته عنك مرارًا فَأَلاَّ ضربتَهُ ! قال أَرْبَدُ : أردتُ ذلك مرتين فاعترضَ لى فى إحداهما حائطٌ من حديدٍ ، ثم رأيتكَ الثانيةَ بيني وبينَه ، أفأقتلُكَ ! فلم يَصِلْ واحد منهما إلى منزله . أمّا عامرٌ فغُدَّ فى ديارِ بني سَلُولِ ابن صَعْصَعَةَ ، فجعلَ يقول : أَغدّةَ كغُدّةِ البعيرِ ، وموتًا فى بيتِ سَلُولِيَّةٍ ! وأمّا أرْبَد فارتفعتْ له سحابةٌ فَرَمَتْهُ بصاعقةٍ فأحرقَتْه ، وكان أخا لبيدٍ لأمه ، فقال يرثيه :

أَخْشَى على أَرْبَدَ الحُتُوفَ ولا أَرْهَبُ نَوْءَ السِّماكِ والأَسَدِ

---

(١) ر : « وكان عامر بن الطفيل صار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

فلما كان فى الثالثة أو الرابعة، قالت له امرأةٌ : إن هذا المال مُتلفٌ ، فامْنَحْها شِرارَها ، فقال صخرٌ :

والله لا أمْنَحُها شِرارَها ولو هَلَكتُ خَرَّقَتْ خِمارَها

* واتَّخَذَتْ من شَعَرٍ صِدارَها *

فلما هلكَ اتخذتُ هذا الصِّدارَ وكان صخرٌ أخاً الخنساء لأبيها فقط .

ويُروى عن بعض نساء بني سُلَيْمٍ أنها نظرتْ إليها فى صِدار وهى تَصنع طيباً لابنتها لتنقلَها إلى زوجها ، فتَناوَلَتْها فى شيء كرهَتْه الخنساء ، فقالت لها : اسكتِي ، فوالله لقد كنتُ أبسطَ منكِ عَرْفاً[1] ، وأطيبَ منكِ وَرْساً ، وأحسنَ منك عُرْساً ، وأرَقَّ منكِ نَعْلاً ، وأكرمَ منك بَعْلاً .

وكان بَشَّارٌ يقول : لم تقُلِ امرأةٌ شعرًا قَطُّ إلا تبيّنَ الضعفُ فيه ، فقيل له : أَوَ كذلكَ الخنساء ! فقال : تلك كان لها أربعُ خصًى .

[لبعض القرشيين يرثى أخاه]

وقال القُرشِيُّ — وتتابع لهُ بنونَ :

أَسُكّانَ بطنِ الأرضِ لو يُقْبَلُ الفِدا فُدِيتُمْ وأعْطينا بكم ساكِنِي الظّهْرِ

فياليتَ مَنْ فيها عليها ولَيتَ مَنْ عليها ثَوَى فيها مقيما إلى الحشرِ

فماتوا كأنْ لم يَعرِفِ الموتُ غيرَهم فَثُكْلٌ على ثُكلٍ وقبرٌ على قبرِ

لقد شَمِتَ الأعداءُ بى وتَغيَّرَتْ عُيونٌ أراها بعد موتِ أبى عَمْرِو

---

(١) العرف : الرائحة .

ثم نَرجِع إلى ذكر المراثى :

[لأعرابى]

وقال أعرابيٌّ :

لَعَمْرِى لقد نادَى بأرفعِ صوتِه ... نَعِيُّ حُيَيٍّ أن سيِّدَكُمْ هَوَى

أجَلْ صادقاً والقائلُ الفاعلُ الذى ... إذا قال قولاً أَنْبَطَ الماءَ فى الثَّرَى[(١)]

فتًى قَبَلٌ لم تُعْنِسِ السِّنُّ وَجْهَهُ ... سِوَى وَضَحٍ فى الرأسِ كالبرقِ فى الدُّجَى[(٢)]

أشلتْ له الحربُ العَوانُ فجاءها ... يُقَعْقِعُ بالأقرابِ أوَّلَ مَنْ أَتَى[(٣)]

ولم يَجْنِها لكنْ جَناها وَلِيُّهُ ... فآسَى وآداهُ فكانَ كَمَنْ جَنَى[(٤)]

[صدار الخنساء]

ويُروَى أنَّ عائشةَ رضى الله عنها نظرتْ إلى الخَنْساءِ وعليها صِدَارٌ[(٥)] من شَعَرٍ ، فقالت : يا خنساء ، أتَلبَسِيْن الصِّدارَ وقد نَهَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عنه ! فقالت : لم أعلمْ بِنَهْيِهِ ، ولكنْ لهذا الصِّدار سببٌ ، فقالت : وما هو ؟ قالت لها : كان زوجِى رجلاً مِتْلافاً فأخْفَقَ[(٦)] ، فأراد أن يسافرَ ، فقلتُ له : أَقِمْ وأنا آتى أخى صَخْرًا فأسألُه . فأتيته فشاطرَنى مالهُ ، فأتلفه زوجى ، فعُدْتُ له فعادَ لِى بمثلِ ذلك ، فأتلفه زوجى ، فعدتُ له .

---

(١) أنبط الماء فى الثرى، قال المرصفى : «مثل لإنجاز ذلك الوعد ،وإنباط الماء استخراجه، كاستنباطه ، واسم ذلك الماء النبط ، بالتحريك .

(٢) قبل ، قال المرصفى : « هو فى الأصل أن يرى الهلال ساعة يطلع من غير أن يتطلب لوضوحه » ؛ يريد أنه حين يبدو واضح الوجه ظاهره . ولم تعنس السن وجهه ؛ أى لم تحوله إلى الكبر . والوضح : بياض الشيب .

(٣) القعقعة : اضطراب السلاح بعضه ببعض . والأقراب : جمع قرب ؛ (بسكون الراء وضمها) ؛ يريد أقراب الخيل .

(٤) آداه : أعانه . (٥) الصدار : ثوب تلبسه المرأة الثكلى يغشى الصدر والمنكبين .

(٦) أخفق : ذهب ماله .

إنّ الزّيّاتِ وأمثالَها ما بقىَ الحارثُ فى الدّارِ
دَعَا بَنِى مَعْنٍ وإخوانَهُمْ فكلُّهم يغدُو بِمِحْفارِ

* * *

قال أبو العباس : والمصائبُ ما عَظُمَ منها وما صَغُرَ تقع على ضربين ؛ فالحَزْمُ التّسَلّى عمّا لا يُغْنِى الغمّ فيه ، والاحتيالُ لدفعِ ما يُدْفَعُ بالحيلة .

ومِنْ أحْسَنِ القولِ فى هذا المعَنى فى الإسلام ، قولُ علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالبٍ عليهم السلام ، حينَ مات ابنُه فلم يُرَ منه جزعٌ ، فَسُئِلَ عن ذلك ، فقال : أَمْرٌ كُنَّا نتوقّعُه ، فلما وَقع لم نُنْكِرْهُ . وفى هذا زيادةٌ تُنْتَظَرُ ، وفضْلُ تسليمٍ لقضاء الله عز وجل .

والعربُ تقولُ : الحذرُ أشدّ من الوَقِيعة . وقال رجلٌ من الحكماء : إنما الجزَعُ والإشْفاقُ قبلَ وقوعِ الأمر ، فإذا وقع فالرضا والتسليمُ .

ومن هذا قولُ عمرَ بن عبد العزيز رحمه الله : إذا استأثر اللهُ بشىء فالْهَ عنه .

يقال : لَهِيتُ عن الأمر ألْهَى ؛ إذا أضربتَ عنه ، ولَهَوْتُ ألْهو ، من اللّعِبِ .

[الأوس بن حجر يرثى فضالة بن شريك]

ومن أَقْدَمِ ما قيلَ فى هـذا المعنى قولُ أوسِ بن حَجَرٍ الأسَيْدِىّ ، من بنى أُسَيِّدِ بن عمرو بن تميم ، يرْثى فضَالَةَ بن كَلَدَة ، أحدَ بنى أسدِ ابن خزَيْمة :

أيتُها النفسُ أجْمِلى جزَعا إنّ الذى تحْذرينَ قد وَقَعا

تَجَرَّى علىَّ الدَّهر لمّا فَقَدْتُهُ ولو كان حَيًّا لاجْتَرَأْتُ على الدهرِ
وقاسَمَ دهرِى بَنِىَّ مُشاطِرًا فلمّا تَوَفَّى شَطْرَهُ مالَ فى شَطْرِى[1]

[لآخر يرثى بناءه أيضاً]

وحدثني العباسُ بن الفَرَجِ الرِّيَاشِىُّ قال: قَدِمَ رجلٌ من البادية، فلما صارَ بِجَبَلِ سَنَامٍ مات له بنونَ، فدفنَهم هناك، وقال:

دَفَنْتَ الدافعين الضَّيمَ عَنِّى بِرابيةٍ مُجاورةٍ سَناما
أقولُ إذا ذكرتُ العَهْدَ منهمْ بنفسِى تلك أَصْدَاءٌ وهامَا
فلم أَرَ مثلَهم ماتوا جميعًا ولم أَرَ مِثْلَ هذا العامِ عامَا

* * *

[قال أبو الحسن الأخفشُ: وفيها عن غيرِ أبى العباسِ:
فلَيْتَ حِمامَهُمْ إذْ فارقونِى تَلَقَّانَا فكانَ لنا حِمامَا]

[للحارث بن عبد الله الباهلى يرثى أبناءه]

قال أبو العباس: ويُروىَ أنَّ رجلاً كان له بنونَ سبعةٌ - يَرْوِى ذلك أبو الحسن المَدائِنِىُّ - قال أبو العباس: فاخْتُلِفَ علىَّ فيهم، فقال قوم: كانوا تحتَ حائطٍ، وقال قومٌ آخرون: بل حُلِبَ لهم فى عُلْبَةٍ فَمَجَّ فيها أَفْعَى فبُعِثَ بها إليهم فشربوها فماتوا جميعاً.

والرجلُ يقالُ له الحارثُ بن عبد الله الباهلىُّ، وهلَكتْ لجارٍ له شاةٌ فجعلَ يُعْلِنُ بالبكاء عليها، فقال قائلٌ:

يأيُّها الباكِى على شاتِهِ يَبْكِى جِهارًا غيرَ إِسْرَارِ

---

(١) توف، أى استوفى، وشطر الشىء: نصفه.

وقال آخر :

* فأتلف ذاكَ مِتلافٌ كَسُوبُ *

والمُرَزَّأ : الذى تناله الرَّزيئاتُ فى ماله لما يُعْطِى ويُسْأَلُ . والإمتاعُ : الإقامة ، فيقول : لم يُقِمْ وهو ضعيفٌ

والطَّبَع : أسوأُ الطَمَع ، وأصلهُ أن القلبَ يعتادُ الخَلةَ الدنيئةَ فتركبه كالحائل بينَه وبين الفهم لِقُبْحِ ما يَظهر منه ، وهـذا مثلٌ وأصلهُ فى السيفِ وما أشبهه ، يقال : طَبِـعَ السيفُ ، إذا ركبه صَدًا يَسْتُرُ حَديدَهُ و ﴿ طَبَعَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ ﴾[1] مِنْ ذَا .

وتَحُوط وقَحُوطٌ : اسمانِ للسَّنَةِ الجَدْبَةِ ، كما يقال : جَحْرَةٌ وكَحْلٌ .

وقوله :

* لم يُرْسِلُوا خلفَ عائذٍ رُبَعَا *

فالعائذَ الحديثةُ النتاجُ ، والرُّبَع : الذى يُنْتَجُ فى الربيعِ ، ومن شأْنِهم فى سَنَةِ الجدْبِ أن ينحَرُوا الفِصَالَ ، لِئلاَّ تَرْضَعَ فتضُرَّ بالأُمَّهاتِ .

وقوله : « وعَزَّتِ الشمْأَلُ الرِّيَاحَ » يقول : غَلَبَتْهَا ، وتلك علامة الجدْبِ وذَهاب الأمطارِ ، ومن ذلك قولُهم : « مَنْ عَزَّبَزَّ » أى مَنْ غلبَ اسْتلَبَ ، وفى القرآن : ﴿ وَعَزَّنِى فى الخِطابِ ﴾[2] ،أى غَلَبَنِي فى المخاطبة .

وقوله : « وقد أمْسَى كَمِيعُ الفَتَاةِ » ، فالكَمِيعُ الضجيعُ ، وهو الكِمْعُ ، قال الشاعر[3] :

* ومَشْحُودَ الغِرَارِ يَبِيتُ كِمْعِى *

---

(١) سورة القتال ١٦ . (٢) سورة ص ٢٣ .

(٣) فى ر : « الراجز » ، والصواب ما أثبته من الأصل ، والبيت من البحر الوافر .

إنَّ الذى جَمعَ السَّماحةَ والـــنَّجْدَةَ والحزْمَ والقُوَى جُمَعَا

[أوْدَى فمَا تنفعُ الإشاحةُ مِن شَىْءٍ لِمَنْ قد يُحاوِلُ البِدَعَا] (١)

الألْمعِىُّ الذى يظنُّ بكَ الظَّـــنَّ كأنْ قد رأَى وقد سَمِعَا

المُخْلِفُ المُتْلِفُ المُرَزَّأُ لَمْ يُمْتَعْ بضَعْفٍ ولم يمُتْ طَبِعَا

والحافظ الناسَ فى تَحُوطَ إذَا لم يُرْسِلوا خَلْفَ عائذٍ رُبَعَا

وعَزَّت الشَّمْألُ الرِّياحَ وقد أمْسَى كَميعُ الفَتاةِ مُلْتَفِعَا

وشُبِّهَ الهَيْدَبُ العبَامُ مِنَ الـــأقْوامِ سَقْباً مُلَبَّسًا فَرَعَا

وكانتِ الكاعبُ المُمَنَّعةُ الـــحَسْنَاء فى زَادِ أهلِها سبُعَا

لِيبْكِكَ الشَّرْبُ والمُدامَةُ والـــفِتْيانُ طرًّا وطامعٌ طَمِعَا

وذاتُ هِدْمٍ عارٍ نَوَاشِرُهَا تُصْمِتُ بالماء تَوْلَباً جَدِعَا

وفيها زيادةٌ لـكنَّا اخترْنَا .

قولَه : « الألمعىُّ » : الحديدُ اللسانِ والقلبِ ، وقد أبانَه بقوله : « الذى يَظُنّ بك الظَّنَّ كأنْ قدْ رَأى وقد سَمِعَا » .

وقـوله : « المخلفَ المتلِفُ » أراد أنه يُتْلِفُ ما كرَمًا ويُخْلِفهُ نَجْدةً ، كما قال (٢) :

ناقتهُ تُرْقِلُ فى النِّقالِ (٣) مُتْلِفُ مَال ومُفِيدُ مالِ

(١) البيت من زيادات ر .

(٢) للفتال ، وانظر رغبة الآمل .

(٣) الإرقال : ضرب من المشى . والنقال : الحجارة .

وكان سببُ هذا الشعر أنَّ توْبَةَ بن حُمَيْرٍ العقيليَّ ثم ، الخفاجيَّ ، غزا فغنِمَ ، ثم انصرفَ فعرَّسَ[1] في طريقه فأمِنَ فقال[2] ، فندَّتْ فرسه ، فأحاط به عدوُّه ، ومعه عبيدُ الله أخوه وقابض مولاه ، فدعاهما ، فذبَّبَ عُبيدُ الله شيئا وانهزما وقُتِلَ توبةُ ، ففي ذلك تقولُ ليلى الأخيليَّةَ :

أَعَيْنِيَ أَلاَ فابْكِي على ابْنِ حُمَيِّرٍ بدمعٍ كفَيْضِ الجدْوَلِ المُتَفَجِّرِ
لِتَبْكِ عليه من خَفاجةَ نِسْوَةٌ بماءِ شُؤونِ العَبْرَةِ المُتَحَدِّرِ
سَمِعْنَ بهَيْجَا أَزْحفَتْ فذكَرْنَهُ وقد يَبْعَثُ الأحزانَ طولُ التَّذَكُّرِ
كأنَّ فتى الفِتْيانِ توْبَةَ لم يُنِخْ بِنَجْدٍ ولم يَطْلُعْ مع المتغَوِّرِ
ولم يَرِدِ الماءَ السُّدَامَ إذا بدَا سَنَا الصُّبحِ في أعقابِ أخضرَ مُدْبِرِ
ولم يَقْدَعِ الخصمَ الألدَّ ويملأِ الـ ـجفانَ سَدِيفًا يومَ نكْباءَ صَرْصَرِ
ألا رُبَّ مكروبٍ أَجَبْتَ وخائفٍ أَجَرْتَ ومعروفٍ لديكَ ومُنْكَرِ
فيا توْبَ لِلْمَوْلَى ويا توْبَ لِلنَّدَى ويا توْبَ للمُسْتَنْبَحِ المُتَنَوِّرِ

قولها :

* لِتَبْكِ عليه من خفاجةَ نسوةٌ *

تعني ، خفاجةَ بن عُقَيْلِ بن كعبِ بن ربيعةَ بن عامرِ بن صَعْصَعَةَ . والهيجاء تُمد وتُقصر ، وقد مرَّ هذا . وقولها :

* بنجْدٍ ولم يَطلعْ مع المتغوِّرِ *

(١) التعريس : نزول المسافر أي حين .

(٢) فقال ، من القيلولة ؛ وهي النوم نصف النهار .

يعنى السيفَ ، أى يبيتُ مُضاجِعى .

مُلْتَفِعاً ، يقال : تَلَفَّعَ فى مُطرَفِهِ وفى كسائه ، إذ تلَفَّفَ وتزَمَّلَ فيه ، فيقول : من شدَّةِ الضُّرِّ يلتفعُ به دون ضَجيعه .

والكاعِبُ : التى كَعَبَ ثَدْيُها ، يقول : تصيرُ كالسَّبُعِ فى زادِ أهلِها بعد أن كانت تعافُ طَيِّبَ الطعامِ .

وقوله : « وذاتُ هِدْمٍ » ، يعني امرأةً ضعيفةً ، والهِدْمُ : الكساء الخَلَقُ الرَّثّ . وقوله : « عارٍ نَواشِرُها » ، النواشِرُ : عروقُ الساعد . والتَّوْلَبُ : الصغيرُ . والجدعُ : السَّيِّئُ الغِذاء ، وهو الجحِنُ والقَتِنُ

[لأعـرابى]

وقال أعرابىٌّ[1] :

خَليلَيَّ عُوجا باركَ اللهُ فيكما   على قبرِ أهْبانٍ سقتْهُ الرَّوَاعِدُ

فذاكَ الفتَى كلُّ الفتَى كانَ بينَه   وبينَ المُزَجَّى نَفْنَفٌ مُتَباعِدُ[2]

إذا نازعَ القومَ الأحاديثَ لم يكنْ   عَيِيًّا ولا عِبْأً على مَنْ يُقاعِدُ

[لليلى الأخيلية فى رثاء توبة]

وقالت لَيْلى الأَخْيَلِيَّةَ :

دَعَا قابضاً والمُرْهَفاتُ يَنُشْنَهُ   فَقُبِّحْتَ مَدْعُوًّا ولَبَّيْكَ داعِيا !

فليْتَ عُبَيْدَ اللهِ كانَ مكانَه   صَريعًا ولم أَسمعْ لِتَوْبةَ ناعيا

(١) نسبه أبو تمام فى (الحماسة ٢ : ٩٧٧ ـ بشرح المرزوقى) الى امرأة بن بنى أسد ، ونقل المرصفى عن الأغانى أن الأبيات لهفان بن همام .

(٢) النفنف : المهواة بين الجبلين .

وإنّ امتلاءَ البطنِ فى حَسَبِ الفتَى قليلُ الغَناءِ وهو فى الجسمِ صالحُ[1]

***

وقالت لَيْلَى الأخيليّة :

نَظَرْتُ ورُكْنٌ من بوانَةَ دونَنا وأركانُ حِسْمَى أىَّ نَظْرَةِ ناظِرِ ![2]

إلى الخيل أجْلَى شَأْوُها عن عَقِيرةٍ لعاقِرِها فيها عَقِيرَةَ عاقِرِ

كأنَّ فتى الفِتْيانِ تَوْبَةَ لم يُنِخْ قَلائِصَ يَفْحَصْنَ الحصَى بالكَراكِرِ

ولم يَبْنِ أبْرادًا رِقاقًا لِفِتْيَةٍ كِرامٍ ويَرْحَلْ قَبْلَ فَىْءِ الهَواجِرِ

فَتًى لا تَخَطَّاهُ الرِّفاقُ ولا يَرَى لِقِدْرٍ لِيالاً دونَ جارٍ مُجاوِرِ

وكنتَ إذا مَوْلاكَ خافَ ظُلامةً دعاكَ ولم يَقْنَعْ سِواكَ بناصِرِ

قولها : « أىَّ نَظْرَةِ ناظِرِ » ، يصلح فيه الرفعُ ، والنصبُ على قوله : نظرتُ أىَّ نظرةٍ ، وأيَّةَ نظرة ، وأيَّتَما نظرةٍ ، وأيَّما نظرةٍ ، كما تقول : مررتُ برجلٍ أيِّما رجلٍ ، وتأويله مررتُ برجلٍ كاملٍ . فأيّما فى موضع « كاملٍ » ، وتقول : مررتُ بزيدٍ أيَّما رجلٍ ، على الحال ، ومن قال : « أىُّ نظرةِ ناظرٍ » فعلى القطعِ والابتداء ، والمَخرَجُ مَخْرَجُ استفهامٍ ، وتقديرُه : أىُّ نظرةٍ هى ! كما تقول : سبحانَ اللهِ ، أىُّ رجلٍ زيدٌ ! وهذا البيتُ يُنْشَدُ على وجهين :

فَأَوْمَأْتُ إيماءً خَفيًّا لِحَبْتَرٍ وللهِ عَيْنَا حَبْتَرٍ أيَّما فَتَى

و « أيُّما » إنْ شئتَ على ما فسرنا .

(١) الغناء : الإجزاء .

(٢) بوانة وحسمى : موضعان .

فالنَّجْدُ كلُّ ما أشْرَفَ من الأرضِ ، والغورُ كلُّ ما انخفضَ ، ويقال : ماءٌ سِدَامٌ ومياهٌ سُدُمٌ ، وهى القديمة المُنْدَفِنَةُ ، قال الشاعرُ :

وعِلْمِى بأسْدامِ المياهِ فلم تزَلْ قَلائِصُ تَخْدَى فى طريق طَلائحُ

وسَنَا الصُّبحِ : ضَوْءه ، وهو مقصورٌ ، فإذا أردتَ الحسَبَ مددتَ .
والأخْضَرُ : الذى ذَكَرتْ الليل ، والعربُ تَسَمِّى الأسودَ أخضرَ ، وقولها : « ولم يَقْدَعِ الخَصْمَ الألَدَّ » ، فالألَدُّ الشديد الخصامِ . والسَّدِيف : شُقَقُ السَّنامِ .

والنَّكباء : الريحُ بين الرِّيحَيْنِ الشديدة الهُبوبِ .

والصَّرْصَرُ : الشديدة الصوتِ . والمُسْتَنْبِحُ : الذى يَسْرِى فلا يَعْرِفُ مقصِداً فَيَنْبحُ لتُجيبَه الكِلابُ فيَقْصِدُها .

والمُتَنَوِّرُ : الذى يلتمسُ ما يَلوحُ له من النارِ فيقصِدُه . قال الأخطلُ يعيِّرُ جريراً :

قومٌ إذا استَنْبَحَ الأضْيافُ كَلْبَهُمُ قالوا لِأُمِّهِمِ بُولِى على النّارِ

فيقال إن جريراً توجَّع من هذا البيتِ ، وقال : جَمَعَ بهذه الكلمة ضروباً من الهجاء والشتم ، منها البخلُ الفاحشُ ، ومنها عقوقُ الأُم فى ابتذالها دونَ غيرها ، ومنها تقذيرُ الفِنَاءِ ، ومنها السَّوْءَة التى ذكرها من الوالدة .
وقال آخرُ :

وإنّى لَأَطْوِى البَطْنَ من دُونِ مِلْئِهِ لِمُخْتَبِطٍ فى آخرِ الليلِ نَابِحِ

كسر الياءَ على الأصل ، كما قال ابنُ قَيْس الرُّقَيَّاتِ :

لا بارَكَ اللهُ فى الغَوانِى هَلْ ... يُصْبِحنَ إلاّ لَهُنَّ مُطَّلَب

ومَنْ أَخذه مِن نبأتُ على القوم ، أى طلعتَ عليهم ، فلا عِلَّة فيه ولا ضرورةَ .

[قال الأخفشُ : المعروفُ فيه الهمزُ ، والمبرِّدُ لم يَهمِزْهُ ، فإنما أخذه من نَبا يَنْبُو ، فصارَ مثلَ رامٍ وقاضٍ وما أشبههما] .

* * *

وقال أبو الأسَدِ مَوْلَى خالد بن عبد الله القَسْرِىِّ ، لمَّا قَتلوا الوَليدَ بنَ يزيد بنِ عبد الملك بخالدِ بن عبد الله :

فإنْ تَقْتُلوا مِنَّا كَرِيماً فإنَّنا ... قَتلْنا أميرَ المؤمنينَ بخالِدِ

وإن تَشْغَلونا عن نَدَانَا فإننا ... شَغَلْنا وَليداً عن بِناء الوَلائِدِ

تَرَكْنا أميرَ المؤمنينَ بخالدٍ ... مُكِبًّا على خَيْشُومِهِ غيرَ ساجِد

وقال الخُزاعىُّ[1] بعد :

قَتلْنا بالفتى القَسْرِىِّ منهمْ ... وَلِيدَهُمُ أمــــيرَ المؤمنينا

ومَرْوانا قَتلْنا عن يزيدٍ ... كذاكَ قِصاصُنا فى المعتدينا

وبِابْنِ السِّمْطِ منَّا قد قتَلْنا ... مُحمَّدًا بنَ هارونَ الأمينا

فمن يَكُ قَتْلُهُ سُوَقًا فإنَّا ... جَعَلْنا مَقْتَلَ الخُلَفاء دِينا

---

(١) هو دعبل .

وقولها :

* إلى الخَيْلِ أَجْلى شَأْوُها عن عَقيرةٍ *

شأْوُها : طَلَقُها(١)

وقولها :

* لِعَاقِرِها فيها عَقيرةُ عاقِرِ *

أي قد أصابوا عقيرةً نَنِيسةً ، كقول القائل : نِعْمَ غَنيمةَ المُغتَنِمِ ، وكقولهم : عَقيرةٌ وكما تَكونُ . وهذا نظيرُ قولِهِ :

ولمَّا أصابوا نَفْسَ عمرِو بن عامرٍ أصابوا به وتْرًا ينيمُ ذَوِي الوتْرِ

يقال : ثأرٌ مُنِيمٌ ، إذا أصابه المُثْئِرُ هَدَأَ واستقرَّ ، لأنه أصاب كفئًا ، وهذا خلافُ قولِ الآخرِ :

قومٌ إذا جرَّ جاني قومِهِمْ أَمِنُوا لِلُؤْمِ أحسابِهِمْ أن يُقتَلوا قَوَدَا

وخلاف قول الحارث بن عباد :

لا بُجَيْرٌ أَغْنَى قتيلاً ولا رَهْطُ كُلَيْبٍ تزاجَرُوا عن ضلالِ

ولكنْ كما قال دُرَيْدُ بنُ الصِّمَّةِ :

قَتَلْتُ بعبدِ اللهِ خيرَ لِدَاتِهِ ذؤابًا فلم أُفْخَرْ بذاكَ وأُجْزَعا

وكما قال عُبيد الله بن زياد بن ظبيانَ التَّيْميُّ ، من بني تَيْمِ اللاتِ بن ثَعْلَبَةَ ، حيث قَتَلَ مصعَبَ بن الزُّبَيْرِ بأخيه النَّابي بنِ زِيادٍ :

إن عُبَيْدَ اللهِ ما دامَ سالمًا لَسَارٍ على رَغْمِ العدوِّ وغادِي

ونحن قتلْنا ابنَ الزُّبيرِ ورأسُهُ حَزَزْنا برأسِ النابِي بنِ زيادِ

---

(١) الطلق : الشوط والغاية

وأُمّ الدَّرْداءِ(١) ، ورابعة القَيْسِيَّةُ(٢) ومُعاذَةُ العَدَوِيَّةُ(٣) ، فإِنّ هؤلاء النسوةَ تقدَّمْنَ فى الفضل والصلاح ، على تَقَدُّمِ بعضِهِنَّ بعضاً .

حدثنى الجاحظ عن إبراهيم بن السِّنْدِيِّ ، قال : وكانت تصيرُ إلىَّ هاشِمِيَّةُ جارية حَمْدونةَ فى حاجاتِ صاحبتِها ، فَأَجْمَعُ نفسى لها ، وأطرُدُ الخواطرَ عن فكرى ، وأُحضِرُ ذِهْنِي جُهْدى ، خوفاً من أن تُورِد علىّ ما لا أفهمهُ ، لبُعْدِ غَوْرِها ، واقتدارِها على أن تُجْرِىَ على لسانِها ما فى قلبها .

وكذلك ما يُؤْثَرُ عن خالِصَةَ وعُتْبَةَ جارِيَتَىْ رَيْطَةَ بنتِ أبِي العباس .

فأمَّا النساء الأشرافُ فإنَّ القولَ فيهنّ كثيرٌ مُتَّسِعٌ .

[من مراثى الخنساء]

فما ندَرَ من شعر الخنساء قولها ترثى صخراً :

يا صخرُ وَرَّاد ماء قد تَناذَرَهُ(٤)   أهلُ المياهِ وما فى وِرْدِهِ عارُ

مَشْىَ السَّبَنْتَى إلى هَيْجاءَ مُعْضِلَةٍ   له سِلاحانِ : أنيابٌ وأظفارُ(٥)

وما عَجُولٌ على بَوٍّ تَحِنُّ له   لها حَنينانِ : إعْلانٌ وإسْرارُ

تَرْتَعُ ما غَفَلَتْ حتّى إذا ادَّكَرَتْ   فإنما هى إقبالٌ وإدْبارُ

يومًا بِأَوْجَعَ مِنّى يومَ فارَقَنِى   صَخْرٌ ، ولِلْعيش إحْلاءٌ وإمْرارُ

وإنَّ صخراً لوالِينا وسيِّدُنا   وإنَّ صخراً إذا نَشْتُو لَنَحّارُ

---

(١) ام الدرداء : زوج أم الدرداء الخزرجى الصحابه

(٢) رابعة بن اسماعيل المدوية من ولد سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس .

(٣) معاذة بنت عبد الله المدوية .

(٤) تناذره أى أنذر بعضهم بعضاً وأخافه . (٥) الهيجاء : الحرب .

وقولها : « ويَرْحَلْ قَبْلَ فَىْءِ الهَوَاجِرِ » تريد أنه متيقظ ظَعّانٌ

و « المولَى » فى قولها : « إذا مولاكَ خاف ظُلامَةً » يحتمل ضروباً ، فالمولى ابنُ العمّ ، وقوله عز وجل : ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ المَوَالِىَ مِنْ وَرَائِى ﴾[1] ؛ يريدُ بني العمّ ؛ قال الفضْلُ بن العباسِ :

مَهْلاً بَنِى عَمِّنا مهلاً مَوالِينا لا تَنْبُشُوا بينَنا ما كانَ مَدْفُونا

ويكونُ المولى المُعْتَقُ ؛ ويكون المَوْلَى من قوله جَلَّ ثناؤه : ﴿ وَأَنَّ الكافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُم ﴾[2] . ويكون المَوْلَى الذى هو أحقُّ وأَوْلَى . منه قوله : ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِىَ مَوْلاَكُمْ ﴾[3] ، أى أَوْلَى بكم . والمَوْلَى : المالكُ .

وقولها : « ولم يَبْنِ أَبْرَادًا » تريدُ الخِيَام .

* * *

قال أبو العباس : وكانت الخَنساء وليْلى بائِنَتَيْنِ فى أشعارِها ، متقدِّمَتَيْنِ لأكثرِ الفحول ، ورُبَّ امرأةٍ تتقدم فى صناعةٍ ، وقلّما يكونُ ذلك ، والجملة ما قال الله عزوجل : ﴿ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِى الحِلْيهِ وهو فِى الخِصامِ غيرُ مُبِينٍ ﴾[4]

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ المرأةَ خُلِقَتْ من ضِلَعٍ عَوْجاء ، وإنك إنْ تُرِدْ إقامَتَها ، تَكْسِرْها ، فدَارِها تَعِشْ بها »

فمِمَّن نَدَرَ[5] من النساء فى باب من الأبواب : أُمُّ أيوبَ الأنصاريةُ[6] ،

---

(١) سورة مريم ٥ (٢) سورة القتال ١١ (٣) سورة الحديد ١٥
(٤) سورة الزخرف ١٨ (٥) ندر : ظهر وبرز
(٦) أم أيوب بنت قيس الخزرجية ، زوج أبي أيوب الأنصاري الصحابي .

ألَا تبْكِيانِ الجرِىءَ الجميلَ ... ألَا تبكيانِ الفتَى السَّيِّدَا
طويلَ النِّجَـــادِ رفيعَ العِمَا ... دِ سادَ عشـــيرَتَهُ أمرَدَا
إذَا القومُ مَدُّوا بأيديهمُ ... إلى المَجْدِ مَدَّ إليـــهِ يدَا
فنالَ الذى فوقَ أيديهمُ ... منَ المجدِ ثم مَضَى مُصْعِدَا
يُكَلِّفهُ القومُ ما عالَهُمْ ... وإن كانَ أصغرَهم مَوْلِدَا
ترَى الحمدَ يَهوِى إلى بيتِه ... يرَى أفضلَ الكسْبِ أن يُحمَدَا

قولها: « طويل النِّجاد »، النِّجاد: حمائِلُ السَّيْفِ، تريدُ بطولِ نجادِه طولَ قامتِه، وهذا مما يُمْدَحُ به الشريفُ، قال جريرٌ:

فإنى لأرْضَى عبدَ شَمْسٍ وما قَضَتْ ... وأرْضَى الطِّوالَ البِيضَ من آلِ هاشِمِ

وقال مَرْوَانُ لأمير المؤمنين المهدىّ[1]:

قَصُرَتْ حمائلُهُ عليه فَقَلَّصَتْ ... ولقد تأَنّقَ قَيْنُها فأطالَهَا

وقال رجلٌ من طَيِّئٍ:

جَديرٌ أن يُقِلَّ السيفَ حتى ... يَنوصَ إذا تَمطَّى فى النِّجادِ[2]

وقال الحكَمِىُّ [أبو نُوَاسٍ][3]:

سَبِطُ البَنانِ إذا احْتبَى بنِجادِهِ ... غَمَرَ الجَماجِمَ والسِّماطُ قِيامُ

وقال عَنترة:

بطَلٌ كأنَّ ثيابَه فى سَرْحَةٍ ... يُحْذَى نِعالَ السِّبْتِ ليس بتوءَمِ[4]

(١) كذا فى الأصل، س، وفى ر: « المهدي ».
(٢) أقل الشىء: رفعه، وينوص: يتحرك.
(٣) تكملة من ر.
(٤) السرحة: الشجرة العظيمة.

وإنَّ صخراً لَتَأْتَمُّ الهُداةُ به كأنّه عَلَمٌ فى رأسه نارُ
لم تَرَهُ جارةٌ يَمْشِى بساحتِها لرِيبةٍ حين يُخْلِى بيتَهُ الجارُ

قولها :

يا صَخرُ وَرَّادَ ماءٍ قَدْ تَناذَرَهُ أَهْلُ الحِياهِ وَما فِى وِرْدِهِ عارُ

تعنى الموتَ ، أى لإقْدامِهِ على الحرب .

والسَّبَنْتَى والسَّبَنْدَى واحدٌ ، وهو الجرىءُ الصَّدْرِ ، وأصلُه فى النَّمِرِ .

والعَجُولُ : التى فارقها ولدُها .

والبَوُّ ، قد مضى تفسيره ، وكذلك «فإنما هى إقبالٌ وإدْبارُ» ، وقد شرَحْنا كيف مَذْهَبُه فى النحو .

وقولها : « إلى هيجاءَ مُعْضِلَةٍ » تعنى الحربَ .

وقولها : « كأنَّهُ عَلَمٌ فى رأسه نارُ » فالعَلَمُ الجبلُ ، قال الله جل وعز : ﴿ وله الجَوارِ المُنْشَآتُ فى البَحْرِ كالأعْلامِ[1] ﴾ ، وقال جريرٌ[2] :

* إذا قطعْنَ عَلَماً بدَا عَلَمْ *

* * *

ومن حَسَنِ شعرِها قولها :

أَعَيْنَيَّ جُــودَا ولا تَجْمُدا أَلَا تَبْكِيَانِ لِصَخْرِ النَّدَى

---

(١) سورة الرحمن ٢٤

(٢) من أرجوزة له فى ديوان ٥٢٠ ، وبعده :

* فَهُنَّ بَحْثاً كمضِلَّاتِ الخَدَمْ *

وقولها : «لَنِعْمَ الفَتَى إذَا النفسُ أعجبها مالَها» ؛ تقول : يَجودُ بما هُوَ له في الوقتِ الذى يُؤْثِرُه أهلُهُ على الحمدِ .

والشوامخُ : الجبالُ ، والشامخُ : العالِي ، ويقال للمتكبِّرِ : شَمَخَ بأنفه .

وقولها : « على آلةٍ » أى على حالةٍ وعلى خُطّةٍ ، هى الفَيْصَلُ ، فإمَّا ظَفِرَتْ وإمَّا هلكتْ .

وقولها : « فأَوْلَى لِنفسِىَ أولَى لها » ، يقولُ الرجلُ إذا حاول شيئاً فأفلتَهُ من بعدِ ما كادَ يصيبُهُ : أَوْلَى له ! وإذا أَفلَتَ من عظيمةٍ قال : أَوْلَى لِي ! ويروى عن ابنِ الحَنَفِيَّةِ أنه كان يقول إذا مات ميِّتٌ فى جِوارِهِ أوفى داره : أَوْلَى لِي ! كِدْتُ واللهِ أَكونُ السَّوادَ المُخْتَرَمَ ، وقد مضَى هذا مُفَسَّراً .

وأَنْشَدَ لرجلٍ يَقْتَنِص ، فإذا أفلتَهُ الصيدُ ، قال : أَوْلَى لكَ ! فكثُر ذلك منه فقال :

فلو كان«أَوْلَى» يُطْعِمُ القومَ صِدْتَهُمْ (١) ولكنَّ « أَوْلَى » يَتْرُكُ القومَ جُوَّعَا

* * *

وقالت الخَنْساء ترثى أخاها معاويةَ بنَ عَمْرٍو — وكان معاويةُ أخاها لأبيها وأُمِّها ، وكان صخرٌ أخاها لأبيها ، وكان أحبَّهما إليها بعيداً (٢) ،وكان صخرٌ يستحقّ ذلك منها بأمورٍ ، منها أنه كان موصوفاً بالحلم ، ومشهورا بالجُود ، ومعروفاً بالتقدّمِ فى الشجاعَة ، ومَحظوظاً فى العشيرةِ — :

أَرِيقِي من دُموعِكِ وَاستَفِيقِي وَصَبْرًا إنْ أَطَقْتِ ، وَلن تُطِيقِي

(١) قال المرصفي : « تريد صدت لهم » . (٢) ساقطة من ر .

وقولها: « رَفيع العِمادِ » إنما تريدَ ذاك ، يقال : رجل مُعَمَّدٌ ، أى طويل ، ومنه قوله عزّ وجلّ : ﴿ إرَمَ ذاتِ العِمادِ ﴾[١] ، أى الطِّوالِ .

وقولها : « مَا عَالَهُمْ » أى مانَابَهُمْ ونَزَلَ بهم ، تقول العربُ : ما عالك فهو عَائِلى ، أى ما نَابكَ فهو نائبى ، ومِنْ ذا قولُ كُثَيِّرٍ :

يا عَيْنُ بَكِّى لِلَّذِى عالَنِى ... منكِ بدمعٍ مُسْبِلٍ هامِلِ

***

ومِن جَيِّدِ قولِها :

أَبَعْدَ ابنَ عَمْرو مِنَ آلِ الشَّرِيـــدِ ... حَلَّتْ به الأرضُ أثقالَها

لعمرُ أبيـــهِ لنِعْمَ الفَتَى ... إذا النفسُ أعجبَها مالَهَا

فإن تَكُ مُرَّةُ أوْدَتْ به ... فقد كانَ يُكْثِرُ تقتالَها

فَخَرَّ الشوامِخُ من فقدِه ... وزُلْزِلَتِ الأرضُ زِلزالَها

هَمَمْتُ بِنَفْسِىَ كلَّ الهُمومِ ... فَأَوْلَى لنَفْسِىَ أَوْلَى لَهـــا !

لِأَحْمِلَ نفسِى على آلةٍ ... فَإِمَّا عليهـــا وإمَّا لَهَا

قولها : « حَلَّتْ به الأرضُ أثقالها » حلَّتْ من الحَلِى[٢] ، تقولُ : زَيَّنت به الأرضُ المَوتَى وقال المفسرون فى قول الله عز وجل : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأرْضُ أَثقالها ﴾[٣] ، قالوا : المَوتَى

---

(١) سورة الفجر ٧ .

(٢) الحلى : اسم لكل مايتزين به .

(٣) سورة الزلزلة ٢ .

لَمَحْزُونُونَ » . فأرسلَ سليمانُ عينَه فبكى حتى قضى أَرَبًا ، ثم أقبل عليهما فقال : لو لم أُنْزِفْ هذه العَبْرَةَ لَانْصَدَعَتْ كَبِدِى . ثم لم يَبْكِ بعدَها ، ولكنَّه تمثَّلَ عند قبره لَمَّا دَفَنَه وحثا على قبره الترابَ ، وقال : ياغلامُ ، دابَّتِى ؛ ثم التفت[1] إلى قبره فقال :

وَقَفْتُ على قبرٍ مُقيمٍ بِقَفْرَةٍ مَتاعٌ قليلٌ من حَبيبٍ مُفارقِ

رجعنا إلى تفسير قولها . وقولها :

* وصَبْرًا إن أطَقْتِ ولن تُطِيقِى *

كقول القائل : إن قدَرْتَ على هذا فافعلْ ، ثم أبانَتْ عن نفسِها فقالت : « ولن تُطِيقى » .

وقولها :

* فلا والله لا تَسْلاكَ نفسِى *

تريد : لا تَسْلو عنك ، كقوله عز وجل : ﴿ وإذا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾[2] ، أى كَالُوا لهم أو وَزَنوا لهم

وقولها :

* لفاحشةٍ أتيتَ ولا عُقُوقِ *

معناه : لا أجِدُ فيكَ ما تسلو نفسِى عنكَ له ، ثم اعتذرَتْ من إقصارها بفضلِ الصَّبْرِ ، فقالت :

ولكنِّي رأيتُ الصَّبْرَ خيراً من النعلينِ والرأسِ الحليقِ

---

(١) كذا فى الأصل ، س ، وفى ر : « ثم وقف ملتفتاً » .

(٢) سورة المطففين ٣ .

وقولِى إنَّ خيرَ بنى سُليمٍ وفارِسَها بصحراءِ العقيقِ
ألاَ هلْ ترجِعَنَّ لنا الليالِى وأيامٌ لنا بِلِوَى الشقيقِ[1]
وإذْ نحنُ الفوارسُ كلَّ يومٍ إذا حَضَرُوا وفتيانُ الحقوقِ
وإذْ فِينا معاويةَ بن عمرو على أدماءَ كالجملِ الفنيقِ[2]
فبكيهِ فقد أودَى حَميدًا أَمينَ الرأىِ محمودَ الصديق
فلا واللهِ لا تَسْلاكَ نفسِى لِفاحشةٍ أتيتَ ولا عُقوقِ
ولكنِّى رأيتَ الصبرَ خيرًا من النَّعْلَينِ والرأسِ الحليقِ

قولها :

* أريقِى من دموعكِ واستفيقى *

معناه أنَّ الدمْعَةَ تُذْهِبُ اللوْعَةَ .

ويُروىْ عن سليمانَ بن عبد الملك أنه قال عند موت ابنه أيوبَ ، لعمرَ بن عبد العزيز ورَجاء بن حَيْوَةَ : إنى لأَجِدُ فى كبِدِى جمرةً لا تطفئها إلّا عَبْرةٌ ، فقال عمرُ : اذْكُرِ اللهَ يا أمير المؤمنين وعليك الصبر . فنظر إلى رجاء بن حَيوةَ كالمستريح إلى مَشورَتهِ ، فقال له رجاء : أفِضْها يا أميرَ المؤمنين ، فما بذاك من بأسٍ ؛ فقد دَمَعَتْ عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنه إبراهيم ، وقال : « العينُ تَدْمَعُ ، والقلبُ يُوجَعُ ، ولا نقولُ ما يُسخِطُ الربَّ ، وإنَّا بِكَ يا إبراهيمُ

---

(١) الشقيق : ماء لبنى أسيد بن عمرو بن تميم .

(٢) أدماء ؛ أى ناقة أدماء ، والأدمة فى الإبل : البياض مع سواد المقلتين . والجمل الفنيق : الكريم على أهله لا يهان .

ومُقْنَعَة ، أرادَ : وصوتَ مُقْنَعَةٍ ، يعنى ناقة ، ثم حذَف الصوتَ وأقام « مقْنعَة » مَقامَه .

* * *

وقال عَنْتَرَةُ :

بَرَكَتْ على ماءِ الرِّداعِ كأنما بَرَكَتْ على قَصَبٍ أجَشَّ مُهَضَّمِ

قال الأصمعىُّ : نَرْمَنَاىْ[1] .

وقوله : « لا رَطْبًا ولا نَقِدا » يقول : ليس برطْبٍ لا يَبِينُ فيه الصوتُ ولا بِمؤتَكِل ، يقال : نَقِدَتِ السِّنُّ ، إذا مَسَّهَا ائتكال ، وكذلك القرنُ ، قال الشاعر[2] :

* يا ألَمُ قرْنًا أرُومُهُ نَقِدُ *

وقوله : « بسِبْتٍ » يعنى النعلَ المُنجَرِدَة

ويَلْمجُ : يُؤَثِّرُ ، واحتاج إلى تحريك « الجلِد » فأتبَعَ آخرَه أولَه ، وكذلك يجوزُ فى الضرورةِ فى كلِّ [شىء][3] ساكنٍ

وأمّا قول الفرزدقِ :

خَلَعْنَ حُلِيَّهنَّ فهنَّ عُطْلٌ وبِعْنَ المُقابَلَةَ التِّوامَا[4]

---

(١) نرمناى : هو الناى.

(٢) حاشية الأصل :

* تَيْسُ تيُوسٍ إذا يناطِحُها *

وهو لصخر الغى .

(٣) من ر .

(٤) عطل : جمع عاطل بدون هاء ؛ وهن اللوائي لم يكن عليهن حلى ، وخلت أجيادهن من القلائد . والمقابلة : النعال ؛ التى جعل لها قبالان .

تأويلُ « النسلين » أنَّ المرأة كانت إذا أُصيبتْ بحميمٍ جعلت في يديها نعلينِ تصفّق[1] بهما وجهَها وصدرَها .

قال عبدُ منافِ بن رِبْعٍ الهُذَليُّ :

ماذا يَغِيرُ ابْنَتَيْ رِبْعٍ عَوِيلُهُما   لا تَرْقُدانِ ولا يُؤْسَى لِمَنْ رَقَدَا

كلتاهما أُبطِنَتْ أحشاؤُها قَصَبًا   من بَطْنِ حَلْيَةَ لا رَطْبًا ولا نَقِدَا

إذا تَأَوَّبَ نَوْحٌ قامتــا معَهُ   ضَرْبًا أَليمًا بسِبْتٍ يَلْعَجُ الجِلِدَا

قوله :

* ماذا يَغِيرُ ابْنَتَيْ رِبْعٍ عَوِيلُهُما *

يعني أُختَيْهِ ، يقولُ : ماذا يَرُدُّ عليهما العويلُ والسهرُ !

وقولُه :

* كِلتاهُما أُبطِنَتْ أحشاؤُها قَصَبًا *

أراد لترديدِ النائحةِ صوتًا كأنه زَميرٌ ، وإنما يَعني بالقَصَبِ المَزاميرَ ، كما قال الراعي

زَجِلُ الحُداء كأنَّ في حَيْزُومِهِ   قَصَبًا وَمُقْنِعَةَ الحَنينِ عَجُولا

* * *

[قال الأخفشُ : الزَّجَلُ : اختلاطُ الصوتِ الذي لصوتِهِ تطريبٌ ، والحَيزوم : الصَّدرُ ، و « قَصَبًا » ،يعني زِمَارًا[2] ، شَبَّهَ صوتَ الحادي بالمِزْمارِ ،

(١) تصفق : تضرب ؛ « من صفق الطائر بجناحيه » ؛ أي، ضرب بهما .
(٢) قال المرصفي : « صوابه مزماراً ، فأما الزمار ، فهو صوت النعامة » .

أقولُ له والرُّمحُ يأطِرُ مَتنَهُ[1] تأمَّلْ خُفافًا إنَّنى أنا ذلِكا

فلمَّا دخلتِ الأشهرُ الحُرُمُ وَرَدَ عليهم صَخْرٌ ، فقال : أيُّكم قاتلُ أخِى ؟ فقال أحدُ ابنَىْ حَرْمَلةَ للآخَرِ : خَبِّرْه ، فقال : استَطرَدْتُ له فطعَنَنى هذه الطعنةَ وحَمَلَ عليه أخِى فقتَله ، فأيُّنا قَتلْتَ فهو ثأرُكَ ، أَمَا إنَّا لم نَسْلُبْ أخاكَ . قال : فما فعلت فرسهُ السَّمى ؟ قالوا : ها هىَ تلكَ فَخُذْها ، فانصرَفَ بهما ، فقيل لصخرٍ : ألاَ تهجُوهُمْ ؟ قال : ما بينى وبينَهم أقذَعُ من الهِجاء ، ولو لم أُمسِكْ عن سَبِّهم إلَّا صيانةَ لِلِسانى عن الخنا لفعلتُ ، ثم خاف أن يُظَنَّ به عِىٌّ فقال :

وعاذِلةٍ هَبَّتْ بليل تَلومُنِى ألا لاَ تَلومِينى كَفَى اللَّومَ ما بِيا

تقولُ ألاَ تَهجُو فوارسَ هاشمٍ وَمَالِيَ إذْ أهجوهُمُ ثم مالِيا !

أبى الشَّتْمَ أنّى قد أصابوا كَرِيمَتِى وأنْ ليس إهْداء الخنا من شِمالِيا

إذا ما امْرُؤٌ أهْدَى لِمَيْتٍ تَحِيَّةً فَحَيَّاكَ رَبُّ الناس عنى مُعاوِيَا[2]

وهَوَّنَ وَجْدِى أنَّنِى لم أقلْ له كَذَبْتَ ، ولم أبْخَلْ عليه بمالِيا

قال أبو عُبيدةَ : فلما أصاب دُرَيْدًا زاد فيها :

وذِى رَحِمٍ قطَّعتُ أرحامَ بَيْنِهِمْ كما تَرَكُونِى وَاحِدًا لا أخا لِيا[3]

* * *

(١) يأطر رمحه : يثنيه .

(٢) ر : « رب العرش » .

(٣) « وذى إخوة » .

يعنى اشترينَ النعالَ ، فليس [هذا][1] من هذا الباب ، وإنما سُبِين فاشْتَرَيْنَ نعالًا للخدمة .

وكذلك قوله :

أَخذْنَ حَرِيراتٍ وأبْدَيْنَ مِجْلَداً . ودَارَتْ عليهِنَّ المُنَقَّشَةُ الصُّفْرُ[2]

يعنى القِداح ، يقول : سُبِينَ فاقْتَسِمْنَ بالقِداحِ .

وإنما قالتِ الخنساء هذا الشعرَ فى معاويةَ أَخِيها قبلَ أن يُصابَ صَخْر أخوها ، فلمَّا أُصِيبَ صخرٌ نسيت به مَنْ كان قبله .

وكان معاويةُ فارساً شجاعاً ، فأغار فى جَمْعٍ من بنى سُلَيمٍ على غَطَفَانَ ، وكان صَمِيمَ خيلِهم ، فنَذِرَ به[3] القومُ فاحتَرَبوا ، فلم يزَلْ يَطعنُ فيهم ويضرب ، فلما رأوا ذلك تهيَّأ له ابنا حَرْملة : دُرَيْدٌ ، وهاشمٌ ، فاستطردَ له أحدُهما ، فحمل عليه معاويةَ فطعَنَه ، وخرجَ عليه الآخرُ وهو لايَشْعُر فقتلَه ، فتنادَى القومُ : قُتِلَ معاويةُ ! فقال خُفَافُ بنُ نَدْبَة : قَتَلَنِى الله إن رِمْتُ حتى أُثْأَرَ به ! فَحَمَلَ على مالك بن حِمَار ، وهو سيِّدُ بنى شَمْخٍ بن فَزَارَة ، فطعنه فقتله ، وقال :

فإنْ تَكُ خَيْلِى قد أُصِيبَ صَمِيمُها فَعَمْدًا على عَيْنِى تَيَمَّمْتُ مالِكَا
وَقَفْتُ له عَلْوَى وقد خَامَ صُحْبَتِى لأَبْنِىَ مَجْدًا أو لِأَثْأَرَ هالِكَا[4]

(١) من ر .
(٢) حريرات : حزينات ؛ جمع حريرة ، وهى التى تجد حر الحزن فى صدرها .
(٣) نزر به القوم : علموا .
(٤) علوى : اسم فرسه . وخام القوم : جبنوا وخافوا .

بكينكَ في نِساءٍ مُعْوِلاتٍ ... وكنتُ أحقَّ مَنْ أبدَى العَويلا
دَفعتُ بكَ الجليلَ وأنتَ حيٌّ ... فمَن ذا يدفعُ الخطبَ الجليلا!
إذا قَبُحَ البكاءُ على قتيلٍ ... رأيتُ بكاءكَ الحسنَ الجميلا

* * *

وقالَتْ أيضا :

تَعَرَّقَنِي الدهرُ نَهْسًا وحَزّا ... وأوجعني الدهرُ قرْعًا وغَمزًا[1]
وأفنَى رجالِي فبادوا مَعًا ... فأصْبَحَ قَلْبِي بهِمْ مُسْتَفَزّا
كأنْ لم يكونوا حِمًى يُتَّقَى ... إذِ الناسُ إذْ ذاكَ مَنْ عَزَّ بَزّا
وكانوا سَراةَ بني مالكٍ ... وفخرَ العشيرةِ مجْدًا وعِزّا[2]
وهُمْ في القديمِ سَراةُ الأديـ ... ـمِ والكائنونَ مِنَ الخوفِ حِرْزَا[3]
وهمْ مَنَعوا جارَهُمْ والنسا ... ءَ يُحْفِزُ أحشاءَها الخوفُ حَفْزا
غَداةَ لقُوهُمْ بمَلْمُومَةٍ ... رَدَاحٍ تغادِرُ للأرضِ رِكْزَا[4]
وخَيْلٍ تَكَدَّسَ بالدارعيـ ... ـنَ تحتَ العَجاجةِ يَجْمزْنَ جَمزَا[5]
ببِيضِ الصِّفاحِ وسُمْرِ الرِّماحِ ... فبالبِيضِ ضَرْبًا وبالسُّمْرِ وَخْزَا[6]
جزَزْنَا نواصِيَ فُرْسانِهِمْ ... وكانوا يَظُنُّونَ ألَّا تُجَزّا

(١) النهس : أخذ الشيء بمقدم الأسنان ، وتعرقني الدهر : نالني، من قولهم : تعرق العظم ، إذا أخذ ماعليه من اللحم .

(٢) ر « زين العشيرة » .

(٣) الأديم الجلد ، قال المرصفي : تكني بذلك عن أنهم أشراف ، لم تدنس أعراضهم .

(٤) الململومة : الكتيبة مجتمعة . رداح : ضخمة .

(٥) تكدس : يركب بعضاً بعضاً . والجمز : نوع من العدو .

(٦) الوخز : الطعن .

[قال أبو الحسن الأخفشُ : وزادنى الأحْوَلُ بعد قوله : « معاويا » :

لنِعمَ الفتى أدْنى ابنُ صِرْمَةَ بَزَّهُ   إذا راحَ فَحْلُ الشَّوْلِ أجْدَبَ عاريَا][1]

* * *

قال أبو العباس : فلمّا انقضَتِ الأشهرُ الحُرُمُ جَمَعَ لهم ليُغيرَ عليهم ، فنظرتْ غَطَفَانُ إلى خيله بمَوْضِعها . فقال بعضهم لبعضٍ : هذا صخرٌ بن الشَّريدِ على فرسه السُّمَّى ، فقيلَ : كلاَّ ! السُّمَّى غرَّاء ، [2] وهذه بهيمة [2] ، وكان قد حَمَّم غرَّتها ، فأصاب فيهم ، وقَتَلَ دُرَيْدَ بنَ حَرْمَلة . وأما هاشمٌ ، فإنَّ قَيسَ ابنَ الأسْوار الجُشَميَّ — من بنى جُشَمَ بن بكرِ بن هَوازنَ بن خَصَفة بن منصورٍ ، والخنساء من بنى سُلَيم بن منصورٍ — لقِيَهم منصرفينَ ؛ كلٌّ واحدٍ منهم من وجهه ، فرآهُ وقد انفردَ لحاجتِهِ ، فقال : لا أطْلُبُ بمعاويةَ بعدَ اليوم ، فأرسل عليه سهماً ففلق قُحْقُحَهُ [3] فقتله ، فقالت الخنساء :

فِدًى للفارس الجُشَمِيِّ نفسِى   وأفديهِ بمَنْ لىَ من حَميم

فِداكَ الحىُّ حَىُّ بنى سُلَيمٍ   بظاعِنِهمْ وبالأنَسِ المقيم

كما مِنْ هاشمٍ أقرَرْتَ عَيْنِى   وكانتْ لا تَنَام ولا تُنيمُ[4]

* * *

فأمّا صخرٌ فسنذكر مَقْتَلَهُ مع انقضاء ما نذكر من مراثى الخنساء إياه ، قالت الخنساء :

ألَا يا صخرُ إنْ أبكيتَ عَيْنِى   لقد أضْحَكْتَنى دهراً طويلا

---

(١) ما بين العلامتين لم يذكر فى الأصل ، وهو فى ر ، س .

(٢—٢) لم يرد فى ر ، س .

(٣) القحقح : العظم الناتئ من الظهر بين الأليتين .   (٤) فى البيت إقواء .

ثم عزمَ على قطع ذلك الموضع ، فلما قطعَه يَئِسَ مِن نفسه ، فبكاها ، فقال :

أيا جارَتا إنّ الخطوبَ قريبُ   منَ الناس ، كلّ المُخطئِينَ تصيبُ

أيا جارَتا إنّا غريبان هاهنا   وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ

كأنّى وقد أدنَوْا إلىّ شِفارَهُمْ   منَ الأدمِ مَصْقُولَ السَّراةِ نكيبُ

[مرثية ابن مناذر لعبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفى]

قال أبو العباس : ومن حُلوِ المراثى وحَسَنِ التأبين شِعْرُ ابن مُناذرٍ ، فإنه كان رجلاً عالماً مُقَدَّمًا وشاعراً مُفْلِقاً ، وخطيباً مِصقعًا ، وفى دهرٍ قريبٍ ، فله فى شعره شِدَّةُ كلام العرب بروايته وأدبِه ، وحلاوةُ كلام المُحْدَثينَ بعَصْره ومشاهدتِه ، ولا يزالُ قد رَمَى فى شعره بالمَثَلِ السائر ، والمعنى اللطيف ، واللفظِ الفَخْم الجليلِ ، والقولِ المُتَّسِقِ النَّبيلِ ؛ وقصيدتُه لها امتدادٌ وطولٌ ، وإنما نُمْلى منها ما اخترنا مِنْ نحو ما وصفنا .

قال يرثى عبد المجيد بن عبدِ الوهاب الثَّقَفِىَّ - وكان به صبًّا ، واعتَبِطَ عبدُ المجيد لعشرينَ سنة من غير ما عِلّةٍ ، وكان من أجمل الفِتْيان وآدَبِهِمْ وأظرفهم ، فذلك حيث يقولُ ابن مُناذرٍ :

حين تمّتْ آدابُه وتَرَدّى   بِرداءٍ منَ الشَّبابِ جديدِ

وسَقاهُ ماءُ الشبيبةِ فاهتـ   ـزَّ اهتزازَ الغصْنِ النَّدى الأملودِ

وَسمتْ نَحْوَهُ العيونُ وما كا   نَ عليه لزائدٍ من مَزيدِ

وَمَنْ ظنَّ ممن يُلاَقِى الحروبَ   بألاَّ يُصابَ فقد ظنَّ عَجْزَا

نَعِفُّ ونَعْرِفُ حق القِرَىٰ   ونَتَّخِذُ الحمدَ ذُخْرًا وكَنْزَا

وَنَلْبَسُ طَوْرًا ثيابَ الوَغَىٰ   وطوراً بياضاً وعَصْباً وخزًّا [1]

* * *

وكان سببُ قتلِ صخرِ بن عمرِو بن الشَّرِيدِ ، أنه جَمَعَ جمعاً وأغار على بنى أَسدِ بن خُزَيْمَةَ ، فنَذِرُوا به فالتَقَوْا ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، فارْفَضَّ أصحاب صخرٍ عنه . وطُعن طعنة [2] فى جنبه اسْتَقَلَّ بها ، فلمّا صار إلى أهله تعالج منها ، فنَتَأَ من الجرْحِ كمثل اليَدِ ، فأضناه ذلك حَوْلا ، فسمع سائلًا يسألُ امرأتَه وهو يقول : كيف صَخْرٌ اليومَ ؟ فقالت : لا مَيِّتٌ فيُنْعَى ، ولا صحيحٌ فيُرْجى ! فعلمَ أنها قد بَرِمَتْ به ، ورأَى تَحَرُّقَ أُمِّه عليه ، فقال :

أَرَىٰ أمّ صخرٍ ما تَجِفُّ دُموعُها   ومَلَّتْ سُلَيْمَىٰ مَضْجَعِى ومكانى

وما كنتُ أخشى أن أكون جنازةً   عليكِ ، ومَنْ يَغترُّ بالحدثانِ !

أَهُمُّ بأمرِ الحزْمِ لو أستطيعُه   وقد حِيلَ بين العَيْرِ والنَّزَوَانِ

لعَمْرِى لقد أنبهْتِ مَنْ كان نائماً   وأسمعتِ مَنْ كانتْ له أُذُنانِ

فأىُّ امرِىءٍ ساوَىٰ بأمٍّ حَليلةً   فلا عاشَ إلّا فى شَقًى وهَوانِ

---

(١) هذا البيت لم يرد فى ر ، وهو فى الأصل ، س .

(٢) ر : « وطعنه أبو ثور » .

يَقدَحُ الدهرُ فى شَماريخِ رَضْوَى ويَحُطُّ الصُّخورَ من هَبُّودِ[1]

ولقد تَترُكُ الحوادثُ والأ يامُ وَهياً فى الصخرةِ الصَّيْخُودِ[2]

***

وفى هذا الشعرِ مما استحسنتُه :

أينَ ربُّ الحِصْنِ الحَصينِ بِسُورَا ءَ وربُّ القَصْرِ المُنيفِ المَشِيدِ[3]

شـــادَ أركانَهُ وبَوَّبَهُ بَا بَىْ حـديدٍ وحَفَّهُ بجُنُودِ

كان يُجْبى إليه ما بين صَنْعا ءَ فمِصْرٍ إلى قُرَى بَيْرُودِ[4]

وتَرَى خَلْفَه زَرافاتِ خيلٍ جافلاتٍ تَعْدُو بمِثْلِ الأسودِ

فرَمَى شخصَهُ فأَقصدَهُ الدّهـــرُ بسهمٍ من المنايا سديدِ

ثم لم يُنْجِهِ من الموتِ حِصْنٌ دونَه خَنْدقٌ وبَابَا حَديدِ

ومُلوكٌ من قبلِه عَمَرُوا الأر ضَ أُعينوا بالنَّصْر والتأْييدِ

فلَوَ انَّ الأيامَ أخلدْنَ حَيًّا لِعَلاءٍ أخلدْنَ عبدَ المجيدِ

ما تَرَى نَعشَه ولا حامِلوهُ ما على النعشِ من عَفافٍ وجُودِ !

وَيْحَ أيْدٍ حَثَتْ عليه وأيْدٍ دَفَنَتْهُ ، ماغَيّبَتْ فى الصَّعيدِ !

إنَّ عبدَ المجيــــد يوم توَلَّى هَدَّ رُكْناً ما كان بالمَهْدودِ

[وأرانا كالزّرعِ يَحصُدُه الدّهـــرُ فَمِنْ بين قائمٍ وحَصيدِ

(١) يقدح : يؤثر . شماريخ : جمع شمراخ ، وهو رأس مستدير طويل دقيق فى الجبل من أعلاه ، ورضوى : جبل بالمدينة . وهبود : جبل أيضاً .

(٢) صيخود : الصخرة الملساء .

(٣) سوراء : موضع قريب من بغداد .

(٤) بيرود : ناحية بين الأهواز ومدينة الطيب .

وكأنى أدعوهُ وهو قريبٌ حين أدعوهُ من مكانٍ بعيدِ

فلئنْ صار لا يُجيبُ لقد كا ن سميعاً هَشًّا إذا هُوَ نُودِى

يا فتى كان للمُقامات زَيْناً لا أراه فى المحفلِ المشهودِ

لَهْفَ نفسِى أمَا أراكَ ، وما عنـ ـدكَ لِى إن دعوتُ من مردودِ !

كان عبدُ المجيد سَمَّ الأعادى مِلءَ عَيْنِ الصديقِ رَغْمَ الحسودِ

عادَ عبدُ المجيدِ رُزْءًا وقد كا نَ رَجاءً لِرَيْبِ دَهْرٍ كَنُودِ[1]

خنْتُكَ الوُدَّ لم أَمُتْ كمَدًا بعـ ـدَكَ إنّى عليكَ حقٌّ جليدِ[2]

لو فَدَى الحىُّ ميّتاً لَفدَتْ نفـ ـسَكَ نفسى بطارفى وتليدى

ولئن كنتُ لم أمُتْ من جوى الحزْ نِ عليه لأبلُغَنْ مَجْهُودِى

لأقيمنَّ مأتماً كنجومِ الليـ ـلِ زُهْرًا يَلْطِمْنَ حُرَّ الخدودِ

مُوجعاتٍ يَبْكِينَ لِلكَبِدِ الحَرَّى عليه وللفؤادِ العَميدِ

ولِعَيْنٍ مَطْـروفةٍ أبداً قا لَ لها الدَّهرُ : لا تَفرّى وجُودِى

كلما عَزَّكِ البكاءُ فأنفدْ تِ لعبد المجيد سَجْلاً فعُودِى

لِفتى يَحْسُنُ البكاءُ عليه وفتًى كان لامتداحِ القصيدْ

وأولُ هذا الشعرِ :

كلُّ حىٍّ لاقِى الحِمامِ فَمُودِى ما لِحَىٍّ مُؤمَّلٍ من خُلودِ

لا تَهابُ المَنونُ شيئاً ولا تَرْ عى على والدٍ ولا مَولودِ

---

(١) كنود : معاند .

(٢) قال المرصفى : « يريد جليد حق جليد » .

أنه بالعَبَلات ، وأنه مسجدُ جامِعِها ، فَدَلّتْ عليه بنو نُفَيْلِ بن عمرِو بن كلاب الحارِثيِّينَ ، فقبضوا عليه ، فقالوا : لنفعلنَّ بك كما فعلتَ بصَلاءَةَ ، ففعلوا ذلك به ، فلقىَ راكبُ أعْشَى باهلةَ ، فقال له أعشى باهلةَ : هل من جائبة خَبَرٍ ؟ قال : نعم ، أَسَرَتْ بنو الحارثِ المنتَشِرَ ، وكانت بنو الحارثِ تُسمّى المنتشرَ مُجَدِّعًا ، فلمّا صار في أيديهم قالوا : لَنُقَطِّعَنَّكَ كما فعلتَ بصلاءةَ ، فقال أعشى باهلةَ يرثى المنتشرَ :

إنى أتتني لِسانٌ لا أُسَرُّ بها … مِنْ عَلُ لا عَجَبٌ منها ولا سَخَرُ

فبِتُّ مُرْتَفِقًا لِلنَّجْمِ أرْقُبُهُ … حَيْرانَ ذا حَذَرٍ لو ينفعُ الحَذَرُ !

فجاشَتِ النفسُ لَمّا جاء جَمْعُهُمُ … وراكبٌ جاء مِنْ تَثْليثَ مُعْتَمِرُ

يأتى على الناسِ لا يَلْوِى على أحدٍ … حتى التَقَيْنا وكانتْ دونَنا مُضَرُ

يَنْعَى امْرَأً لا تُغِبُّ الحىَّ جَفْنَتُهُ … إذا الكواكبُ أخطا نَوْءَها المطرُ

مَنْ ليس فى خيرِه شَرٌّ يُكَدِّرُهُ … على الصَّديقِ ولا فى صَفْوِهِ كَدَرُ

طاوِى المَصيرِ على العَزّاء مُنْصَلِتٌ … بالقومِ ليلةَ لا ماءٌ ولا شَجَرُ

لا تُنْكِرُ البازِلُ الكَوْماءُ ضَرْبَتَهُ … بالمَشْرَفىِّ إذا ما اجْلَوَّذَ السَّفَرُ

وتَفْزَعُ الشَّوْلُ منه حينَ تُبْصِرُهُ … حتى تَقَطَّعَ فى أعناقِها الجِرَرُ

لا يُصْعِبُ الأمرَ إلّا رَيْثَ يَرْكَبُهُ … وكلَّ أمرٍ سِوَى الفحشاء يأتَمِرُ

تكفيه فِلْذَةُ كِبْدٍ إنْ ألَمَّ بها … من الشِّواء ويكفى شُرْبَهُ الغُمَرُ

لا يتأَرَّى لِما فى القِدْرِ يَرْقُبُهُ … ولا تَراهُ أمامَ القومِ يَقْتَفِرُ

لا يَغْمِزُ السّاقَ مِنْ أَيْنٍ ولا وَصَبٍ … ولا يَعَضُّ على شُرْسُوفِهِ الصَّفَرُ

وكأنَّا للموتِ رَكْبٌ مُخِبُّو نَ سِراعًا لِمنْهلٍ مَوْرُودِ[1]

هَدَّ رُكْنِى عبدُ المجيدِ وقد كُنْـــتُ بِرُكنٍ أَنُوءُ منهُ شَدِيدِ

فبعبدِ المَجيدِ تأمُورُ نفْسى عَثَرَتْ بى بَعْدَ انتعاشٍ جُدودِى[2]

وبعبدِ المجيدِ شلَّتْ يدى اليُمْــنى وشَلَّتْ به يمينُ الجودِ

وفى هذا الشعر :

فبِرَغْمِى كنتَ المُقدَّمَ قَبْلِى وبكُرْهى دُلِّيتَ فى المَلْحودِ

كنتَ لى عِصْمةً وكنتَ سَماءً بكَ تَحْيا أرضِى ويَخْضَرُّ عُودِى

[مرثية أعشى باهلة للمنتشر بن وهب]

قال أبو العباس : وكانت العربُ تُقَدِّمُ مراثِىَ وتُفضِّلُها ، وترَى قائلَها بها فوقَ كلِّ مؤبِّن ، وكأنهم يَرَوْنَ ما بعدَها من المراثى منها أُخِذَتْ ، وفى كَنَفها تَصَلَّحُ . فمنها قصيدةُ أَعْشَى باهِلةَ ، ويُكْنَى أبا قُحافةَ ، التى يَرْثِى بها المُنْتَشِرَ بنَ وَهْبٍ الباهلِىَّ ، وكان أحدَ رِجْلِيِّى العرب[3] . [قال الأخفشُ : هو منسوبٌ إلى الرَّجْلِ] ، وهم السُّعاةُ السابقون فى سعيهم .

وكان من خبرِهِ أنّه أَسَرَ صلاءَةَ بن العَنْبَرِ الحارثىَّ ، فقال : افتدِ[4] نفسَك . فأَبَى ، فقال : لأُقطِّعَنَّكَ أُنْمُلَةً أُنْمُلةً ، وعُضْوًا عُضوًا ما لم تَفْتَدِ نفسَك ، فجعلَ يفعلُ ذلكَ به حتى قتله ، ثم حَجَّ من بعدِ ذلك المُنْتَشِرُ ذَا الخُلَصةِ ـ وهو بيتٌ كانت خَثْعَمُ تَحُجُّه ، زعم أبو عبيدة

---

(١) من زيادات ر (٢) التأمور : دم القلب .
(٣) الرجلى : الشديد العدو . (٤) ر : « افد » .

وقال آخرُ ، أنشدنيه المازنيُّ :

فظلّتْ تكوسُ على أكْرُعٍ   ثلاثٍ وكانَ لهـا أرْبَعُ[1]

وأرادَ باللسان هاهنا الرسالةَ .

وقوله : « مِنْ عَلُ » يقولُ : مِنْ فوقُ ، فإذا كان معرفةً مفرداً بُنِيَ على الضمِّ ، كقبلُ وبعدُ . وإذا جعلته نكرة نوَّنتَه وصرفته ، كما قال جريرٌ :

إنِّى انصَبَبْتُ من السماء عليكمُ   حتى اختطفتُكَ يا فرزدقُ مِنْ عَلِ

والقوافى مجرورةٌ ، وإن شئتَ رددتَ ما ذهبَ منه ، وهى ألِفٌ منقلبة من واو ، لأنَّ بناءه « فَعَلٌ » من « عَلاَ » يا فتى ، قال الراجزُ :

وهى تَنوشُ الحوْضَ نَوْشاً مِنْ عَلاَ   نَوْشاً بِهِ تَقْطَعُ أجْوازَ الفَلاَ[2]

وقوله : « فَبِتُّ مُرْتَفِقاً » وهو المتَّكِئُ على مِرْفقهِ ، وإنما أرادَ السَّهرَ ، كما قال أبو ذؤيبٍ :

إنِّى أرِقْتُ فَبِتُّ الليلَ مُرْتفِقاً   كأنَّ عَيْنِيَ فيها الصَّابُ مَذْبُوحُ[3]

وقوله : « جاشتِ النَّفسُ » يقولُ : « خَبُثَتْ ، يكونُ ذلكَ من تذكُّرِها للتَّهوُّعِ[4] ومن جزَعها منه .

---

(١) قال المرصفى : « يريد عقرت إحدى قوائمها الأربع ، وتكوس كوساً : تمشى على ثلاث قوائم » .

(٢) نسبه صاحب اللسان (٨ : ٢٥٥) إلى غيلان بن حريث ، وقال فى شرحه : « الضمير فى قوله : « فهى » للإبل ، وتنوش الحوض : تتناول ملأه . وقوله : « من علا » أى من فوق ؛ يريد أنها عالية الأجسام طوال الأعناق ، وذلك النوش الذى تناله هو الذى يعينها على قطع الفلوات . والأجواز : جمع جوز ؛ وهو الوسط ، أى تتناول ماء الحوض من فوق ، وتشرب شربا كثيرا ، وتقطع بذلك الشرب فلوات فلا تحتاج إلى ماء آخر » .

(٣) ديوان الهذليين ١ : ١٠٤ ، وروايته هناك :

نامَ الخَلِيُّ وَبِتُّ اللَّيْلَ مُشْتَجِرًا   كأنَّ عَيْنِيَ فيهَا الصَّابُ مذبوح

والصاب : شجرة مرة ؛ لها لبن يمض العين إذا أصابها . ومذبوح : مشقوق .

(٤) التهوع : التقيؤ .

مُهَفْهَفٌ أَهْضَمُ الكَشْحَيْنِ مُنْخَرِقٌ ... عنه القميصُ ، لِسَيْرِ الليلِ مُحْتَقِرُ

عِشْنَا بذلك دَهْرًا ثم فَارَقَنَا ... كذلك الرُّمْحُ ذُو النَّصْلَيْنِ يَنْكَسِرُ

[فإنْ جَزِعْنا فقد هَدَّتْ مُصيبتُنا ... وإن صَبَرْنَا فإنّا مَعْشَرٌ صُبُرُ

إنى أَشُدُّ حَزِيمِى ثم يُدْرِكنى ... منكَ البَلاءُ ومن آلائِكَ الذِّكَرُ]

لا يَأْمَنُ الناسَ مُمْسَاهُ ومُصْبَحَهُ ... مِنْ كلِّ أَوْبٍ وإنْ لم يَأْتِ يُنْتَظَرُ

إمّا يُصِبْكَ عَدُوٌّ فى مُنَاوَأَةٍ ... يوماً فقد كنتَ تَسْتَعْلِى وتَنْتَصِرُ

لو لم تَخُنْهُ نُفَيْلٌ وهىَ خائِنَةٌ ... أَلَمَّ بالقومِ وِرْدٌ منه أو صَدَرُ

ورَّادُ حَرْبٍ شِهابٌ يُسْتَضَاءُ به ... كما يُضِىءُ سَوادَ الطَّخْيَةِ القَمَرُ

إمّا سلكتَ سبيلاً كنتَ سالكَها ... فاذهبْ فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ مُنْتَشِرُ

مَنْ ليس فيه إذا قاوَلْتَهُ رَهَقٌ ... وليس فيه إذا عاسَرْتَهُ عَسَرُ

قوله : « إنّى أَتَتْنِى لسانٌ » يقال : هو اللسانُ وهى اللسانُ . فمن ذَكَّرَ فجمعُهُ أَلْسِنَةٌ . ونظيره حِمارٌ وأَحْمِرَةٌ ، وفِراشٌ وأَفْرِشَةٌ ، وإزارٌ وآزِرَةٌ . ومن أَنَّثَ قال : لسانٌ وأَلْسُنٌ ، كما تقولُ : ذِراعٌ وأَذْرُعٌ ، وكُرَاعٌ وأَكْرُعٌ ؛ لا تُبالِى أَمَضْمُومَ الأوَّلِ كان أو مفتوحاً أو مكسورًا إذا كان مؤنثاً . ألا ترى أنك تقول : شِمالٌ وأَشْمُلٌ[1] قال أبو النَّجْم :

* يَأْتِى لها مِنْ أَيْمُنٍ وأَشْمُلِ *

---

(١) فى وصف الإبل ، وبعده :

* ذُو خِرَقٍ طُلْسٍ وَشَخْصٍ مِذْأَلِ *

ومؤمناً بالكواكب . فأما المؤمنُ بى الكافرُ بالكواكب فهو الذى يقول : مُطِرْنا بنوءِ الرَّحمةِ ، والمؤمنُ بالكواكب الكافر بى الذى يقول : مُطِرْنا بنوءِ كذا » .

والنَّوْء ، مهموزٌ ، وهو من قولك : ناء بِحِمْلِهِ ، أى استَقلَّ به فى ثِقَلٍ ، فالنوء مهموزٌ ، وهو فى الحقيقة الطالعُ من الكواكبِ لا الغائرُ ، وكان الأصمعىُّ لا يُفَسِّرُ من الشِّعرِ ما فيه ذكرُ الأنواء ، بل كان لا يسمعُ ما كان فيه هِجاء أو كان فيه ذِكرُ النجومِ ، ولا يفسرُ ما وافق تفسيرُه بعضَ ما فى القرآن إلاّ ساهيًا ، فيما يذكر أصحابه عنه . ويُروى أنه سُئل عن غير شىء من ذلك فأباه وزَجَرَ السائلَ .

وقوله : « طَاوِى المَصيرِ » يقال لواحد المُصْرانِ مَصيرٌ ، وتقديره : صارٌ ، قَضيبٌ وقُضْبانٌ ، وكَثيبٌ وكُثْبانٌ .

والعَزَّاء : الأمرُ الشديد ، يقال : فلانٌ صابرٌ على العَزَّاء وكذلك اللأْوَاء ، وكذلك الجُلَّى مقصورٌ ، فأما العزَّاء واللأْوَاء فممدودان .

وقوله : مُنْصَلِتٌ ، يقال : سيفٌ مُنْصَلِتٌ وصَلْتٌ : إذا جُرِّدَ من غِمْده .

وقوله : « ليلة لا ماء ولا شَجَرُ » يريد : القَفْرَ ، ووقت الصُّعوبة

وقوله : « لا تُنْكِرُ البازِلُ الكَوْماء ضَرْبَتَه بالمشرفىّ » .

يقول : قد عوَّدَ الإبلَ أن ينحرها ، ومِنْ شأْنِهم أن يُعَرْقِبُوها قبل النَّحر والمَشْرَفِىُّ : السيفُ ، وهو منسوبٌ إلى المشارِف[1]

---

(١) المشارف : قرى من أرض العرب تدنو من الريف .

ويُرْوَى عن معاوية أنه قال : اجعَلوا الشِّعْرَ أكثرَ هَمِّكُمْ وأكثرَ آدابكم ، فإنّ فيه مآثِرَ أسْلافكم ومواضعَ إرشادكم ، فلقد رأيتُنِي يوم الهَرِير وقد عَزَمْتُ على الفِرار ، فما يَرُدُّنِي إلا قولُ ابن الإطنابةِ الأنصاريِّ :

أبَتْ لى عِفّتِى وأَبَىْ بَلاَئِى · وأَخْذِى الحمْدَ بالثَّمَنِ الرَّبِيحِ

وإجْشامِى على المكروه نَفْسِى · وضَرْبِى هامةَ البَطَلِ المَشِيحِ[1]

وقَوْلِى كُلَّمَا جَشَأَتْ وجاشَتْ · مكانَكِ تُحْمَدِى أو تَسْتَرِيحِى[2]

يقال : « جشَأَتْ » مهموزٌ ، و « جاشَتْ » غيرُ مهموز . و « تَثْلِيثُ » موضعٌ بعينه[3] .

وقوله : « لا يَلْوِى على أحدٍ » يقال : استقام فلانٌ فما لَوَى على أحدٍ ، ويقال : ألْوَى بالشىء إذا ذَهَبَ به .

وقوله :

* إذا الكواكبُ أخطا نوءَهَا المطرُ *

فالنَّوْء عندهم طلوعُ نجمٍ وسقوطُ آخرَ ، وليس كلُّ الكواكبِ لها نوءٌ ، وإنما كانوا يتقوّلون هذا فى أشياءَ بعينها ، ويُرْوَى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا ذُكِرَتِ النجومُ فأمْسِكُوا » يعنِى أمْرَ الأنْوَاء ، لم يختلفْ فى ذلك المفسرون . وعنه عليه السلام فى غِبِّ سَماء : « أتدرون ما قال ربُّكم تبارك وتعالى ؟ قال : أصْبَحَ عبادِى مؤمناً بى وكافراً بالكواكب ، وكافراً بى

---

(١) المشيح : الجد .

(٢) جشأت : نهضت .

(٣) تثليث : موضع بالحجاز قرب مكة .

وقوله :

* لا يَتأرّى لِمَا فى القِدْرِ يرْقُبُه *

يقول : لا يَتحبّسُ له ، ومن ذا سُمِّىَ الآرِىّ[١] ، لأنه تَحْبِسُ الدابة

وقوله :

* ولا تراه أَمامَ القومِ يَقْتَفِرُ *

يقول : لا يسبقهم إلى شىء من الزادِ

وقوله :

* ولا يَعَضُّ على شُرْسُوفِهِ الصَّفَرُ *

الشَّراسِيفَ : أطرافُ الضلوع ، والصّفَر هاهنا : حَيَّةُ البطن ، وله مواضع .

وقوله : « مُهَفْهَفٌ » يعني ضامِراً ، وأَهْضَمُ الكَشْحَيْنِ توكيد له .

وقوله :

* إمّا يَصِبْكَ عدوٌّ فى مُباوَأةٍ *

يقول : فى وِتْرٍ . يقال : باءَ فلان بكذا ، كما قال مُهَلْهِلٌ : « بُؤْ بِشِسْعِ كُلَيْبٍ » ،
أى هو ثأرٌ بالشِّسْعِ .

والطَّخْيَة ، والطُّخْيَةُ ، والطِّخْيَةُ ، ثلاثُ لغاتٍ : شِدَّةَ الظُّلْمَةِ ، وكان الذى
أصابَهُ هندَ بن أسماء الحارثىَّ ، ففى ذلك يقولُ :

أَصَبْتَ فى حَرَمٍ مِنَّا أخا ثِقَةٍ هندَ بن أسماء لا يَهْنِئْ لك الظَّفَرُ

---

(٢) الأرى : الآخية .

وقوله : اجلَوَّذ ، امتدَّ ، وأنشدنى الزِّيادِيُّ لرجل من أهل الحجاز ، أحْسِبُهُ ابنَ أبى رَبيعةَ :

ألاَ حَبَّذَا حبذَا حبذَا حَبيبٌ تَحمَّلتُ منه الأذَى

ويا حبذا بَرْدُ أنيابه إذا أظلَمَ الليلُ واجْلَوَّذَا

وقوله :

* حتى تَقَطَّعَ فى أعناقها الجِرَرُ[1] *

يقول : حتى اعتادتْ أن ينحرَها ، فهى تَفْزَعُ منه حتى تَقَطَّعَ جرَّتُها ، ومثلُ هذا قولُ الخَنَوْتِ[2] :

مأبكِى خليلِ عَنْتَراً بعد هَجعَةٍ وسَيْفِى مِرْداساً قَتيلَ قنانِ[3]

قَتيلانِ لاتبكى اللِّقاحُ عليهما إذا شَبِعَتْ من قَرْمَلٍ وأفانِ

يقول : كانا يَنْحَرانِ الإبلَ ، فهى لاتجزعُ لفقدهما ، وقَرْمَلٌ وأفانٍ : ضربانِ من النَّبْتِ . وشبيهٌ بهذا قولُه حيث يقول :

فلو كانَ سَيْفِى باليمينِ تَباشَرَتْ ضِبابُ المَلاَ من جمعِهم بقتيلِ

يقول : هؤلاء قومٌ كانوا يحترشون الضِّبابَ ، فكلَّما قُتِلَ منهم واحدٌ سُرَّتْ بذلك الضِّبابُ واستبشرت .

---

(١) الجرر : جمع جرة ، وهى ما يفيض من البعير من كرشه ، فيقرضه .

(٢) الخنوت : لقب وديعة بن مضرس ، شاعر جاهلى .

(٣) قنان : جبل لبنى أسد .

وفيها :

وكنّا كندمانَىْ جذيمةَ حقبةً … منَ الدّهرِ حتى قيلَ لن يتصدّعا

فلما تفرّقنا كأنّى ومالكاً … لطولِ اجتماعٍ لم نبتْ ليلةً معا

وعشنا بخيرٍ فى الحياةِ وقبلنا … أصابَ المنايا رهطَ كسرى وتُبّعا

فإنْ تكنِ الأيامُ فرّقْنَ بيننا … فقد بانَ محموداً أخى يومَ ودّعا

تقول ابنةُ العَمْرِىِّ مالكَ بعدَما … أراكَ حديثًا ناعمَ البالِ أفرعا

فقلتُ لها طولُ الأسَى إذْ سألْتِنى … ولوعةُ حزْنٍ تتركُ الوجهَ أسْفعا

وفقدُ بنى أمٍّ تفانَوْا فلم أكنْ … خِلافَهُمُ أن أستكينَ وأضرَعا

ولستُ إذا ما الدّهرُ أحدثَ نكبةً … ورُزْءًا بزوّارِ القرائبِ أخضعا

ولا فرِحٍ إنْ كنتُ يوماً بغبطةٍ … ولا جزِعٍ إنْ نابَ دهرٌ فأوجعا

ولكنّنى أمضى على ذاكَ مُقدِمًا … إذا بعضُ مَنْ لاقى الخطوبَ تكعكعا

فعَمْرَكِ ألاّ تُسمِعينى ملامةً … ولا تنكئِى قرحَ الفؤادِ فييجعا

وقصرَكِ إنّى قد شهدتُ فلم أجدْ … بكفَّىَّ عنه للمنيّةِ مدفعا

فلو أنّ ما ألقَى أصاب متالعاً … أوِ الرُّكنَ من سلمَى إذاً لتضعضعا

وفى هذه القصيدة :

لقد كفّنَ المنهالُ تحتَ ردائِهِ … فتًى غيرَ مبطانِ العشيّاتِ أروعا

ولا برَمٍ تُهدِى النساءُ لعِرسِهِ … إذا القشعُ من بردِ الشتاءِ تقعقعا

لبيباً أعانَ اللّبَّ منه سماحةٌ … خصيباً إذا ما رائدُ الجدبِ أوضعا

تراهُ كنصلِ السيفِ يهتزُّ للندى … إذا لم تجدْ عندَ امرِئِ السّوءِ مطمعا

يقال: هَنَأَهُ ذلك وهَنَأَ له، كما تقولُ «هَنِيأً له»، قال الأخطلُ:

إلى إمامٍ تُغَادِينا فَواضِلُهُ   أظفرَهُ اللهُ فَلْيَهْنِئْ له الظَّفَرُ

وقوله:

* وليسَ فيه إذا عاسَرْتَهُ عَسَرُ *

مَدْحٌ شريفٌ، مثلُ قولهم: «إذا عَزَّ أخوكَ فهُنْ»، وإنما هذا فيمن لا يخافُ استذلالَه، بأنْ يخرُجَ صاحبُه عند مُساهَلَتِه إلى باب الذُّلِّ، فأما مَنْ كان كذلك فمُعاسَرَتُهُ أحْمَدُ، ومُدَافعتُهُ أمْدَحُ، كما قال جريرٌ:

بِشْرٌ أبو مَرْوَانَ إنْ عاسَرْتَهُ   عَسِرٌ، وعندَ يَسَارِهِ مَيْسُورُ

[مرثية متمم بن نويرة في أخيه مالك]

قال أبو العباس: ومن أشعارِ العربِ المشهورةِ المُتَخَيَّرَةِ في المراثي قصيدةُ مُتَمِّمُ بن نُوَيْرَةَ في أخيه مالكٍ، وسنذكرُ منها أبياتاً نختارُها، من ذلك قولُه:

أقولُ وقد طارَ السَّنَا في رَبابِهِ   وغَيْثٌ يَسُحُّ الماءَ حتى تَرَيَّعا

سَقَى اللهُ أرضاً حلَّها قبرُ مالكٍ   ذِهابَ الغَوادِي المُدْجِناتِ فأمْرَعا

وآثَرَ سيلَ الوادِيَيْنِ بِدِيمَةٍ   تُرَشِّحُ وَسْمِيًّا من النَّبْتِ خِرْوَعا

تَحِيَّتَهُ مِنِّي وإن كانَ نائياً   وأضحَى تُراباً فوقَه الأرضُ بَلْقَعا

فما وَجْدُ أظْآرٍ ثلاثٍ رَوَائِمٍ   رأَيْنَ مَجَرًّا مِنْ حُوارٍ ومَصْرَعا

يُذَكِّرْنَ ذا البَثِّ الحزينَ بِبَثِّهِ   إذا حَنَّتِ الأُولَى سَجَعْنَ لها مَعَا

بأوْجَعَ مِنِّي يومَ فارقتُ مالكاً   ونادَى به النَّاعِي الرَّفيعُ فأسْمَعا

وتقصيرُ يومِ الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعْجِبٌ ببَهْكَنةٍ تحتَ الطِّرَافِ المُمَدَّدِ[1]

ويقال: أَمْرَعَ الوادِى، إذا أخصبَ، من ذلك قولُ مولاةِ بنِ الأَجْيَدِ عن أَوْفَى بنِ دَلْهَمٍ. قال أبو العباس: حدثنى به ابنُ المهدىِّ أحمدُ بن محمدٍ النحوىُّ، يُحدِّثُ به عن الأصمعىّ عن أبيه، عن مولاة بن الأجيدِ عن أَوْفَى، قال: فى النساء أربعٌ، فمنهنَّ الصَّدَعُ[2]، تُفرِّقُ ولا تجْمَعُ. ومنهنَّ مَنْ لها شَيْئُها أَجْمَعُ. ومنهنَّ غَيْثٌ وقعَ فى بلدٍ فأَمْرَعَ. ومنهنَّ التَّبَعُ[3]، ترى ولا تَسْمَعُ. قال: فذكرتُ ذلك لرجلٍ فقال: ومنهنَّ القَرْثَعُ، قلتُ: وما هى؟ قال: التى تَكْحَلُ عيناً وتدَعُ الأخرى، وتلبسُ ثوبَها مقلوباً.

* * *

[قال الأخفشُ: حدثنى بذلك أبو العَيْناء عن الأصمعىّ، وذكرَ نحوَ ذلك]

* * *

وقوله:

* وآثرَ سَيْلَ الوادِيَيْنِ بديمةٍ *

زعمَ الأصمعىُّ وغيرُه من أهل العلم أن الدِّيمَةَ المطرُ الدائمُ أياماً برِفقٍ.

وقوله: «تُرَشِّح وَسْمِيًّا» أى تُهيِّئه لذلك، يقال: فلانٌ يُرَشَّحُ للخلافة.

والوَسْمىُّ: أوَّلُ مطرٍ يَسِمُ الأرض، والوَلِىُّ: كلُّ مَطْرَةٍ بعد مطرةٍ، فالثانية وَلِىٌّ للأخرى، لأنها تليها.

---

(١) البهكنة: الجارية المليحة. والطراف: البيت من الجلد.

(٢) قال المرصفى: «يريد ذات الصدع (بسكون الدال) وحركها للسجع؛ وهو مصدر صدع الشىء فتصدع، فرقه فتفرق»

(٣) التبع: العجوز.

إذا ابتدرَ القومُ القِداحَ وأُوقِدَتْ لهمْ نارُ أيسارٍ كَفَى مَنْ تَضَجَّعَا
بَثَنَى الأيادِى ثم لَمْ تُلْفِ مالَكاً على الفَرْثِ يَحْمِى اللحمَ أنْ يَتَمَزَّعَا

قوله : « وقد طارَ السَّنا فى ربابِهِ » ، السَّنا : الضوء ، وهو مقصور ، قال الله جل وعز : ﴿ يَكادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بالأَبْصار ﴾[١] ، والسَّناء ، من الحسب ممدودٌ . والرَّبابُ : سحابٌ دُونَ السحابِ كالمتعلِّق بما فوقه ، قال المازنىُّ :

كأنَّ الرَّبابَ دُوَيْنَ السحابِ نَعام تَعَلَّقُ بالأرْجُلِ[٢]

وقوله : « يَسُحُّ » معناه يَصُبُّ ، فإذا قلتَ : يَسْحُو ، أو يَسْحَى ، فمعناه يَقْشِرُ ، ومن ذا سُمِّيت سِحاءَةُ القِرْطاسِ وسِحايَتُهُ ، ومنه قيل للحديدةِ التى يُقْشَرُ بها وجهُ الأرض مِسحاةٌ ، قال عَنْترةُ :

سَحًّا وسَاحِيَةً فكلُّ قَرارَةٍ يَجْرِى عليها الماءُ لم يَتَصَرَّمِ[٣]

وقوله : « تَرَيَّعَ » أى كَثُر حتى جاء وذهبَ ، يقال : رَاعَ يَرِيعُ إذا رجعَ ، ومنه سُمِّىَ رَيْعَ الطعام ؛ لأنه يرجع بفَضْلٍ ، قال مُزَرِّدٌ :

خَلَطْتُ بِصاعَىْ عَجْوةٍ صاعَ حنطةٍ إلى صاعِ سَمْنٍ فوقَه يَتَرَيَّعُ

والذِّهابُ : الأمطارُ اللينة . والمُدْجِنَاتُ من السحاب : السُّودُ ، وهو مأخوذٌ من الدَّجْنِ والدُّجُنَّةِ ، ومعناه إلباس الغيم وظلمته ، قال طَرَفة :

---

(١) سورة النور ٤٣ .

(٢) نسبه المرصفى إلى زهير بن عروة بن جلهمة المازني .

(٣) الساحية : المطرة الشديدة الوقع تقشر وجه الأرض .

وقوله :

* أَرَاكَ حديثاً ناعِمَ البالِ أَفْرَعَا *

الأفرعُ : التامُّ شَعَرِ الرأس . وقيل لعمرَ بن الخطاب رضى الله عنه : الفَرْعان خيرٌ أم الصُّلْعان ؟ فقال : بلِ الفرعان ، وكان أبو بكرٍ أفرعَ ، وكان عمرُ أَصْلَعَ ، فوقع فى نفسِه أنه يسأل عنه وعن أبى بكر . والأسفع : الأسودُ ، يقال : سَفَعَتْهُ النارُ ، أى غيّرتْ وجهَه إلى السَّواد .

وقوله : « فعمرُكِ » يُقسِمُ عليها ، ويقال : « عمرَكَ اللهَ » أى أُذَكِّرُكَ اللهَ ، قال :

عَمَّرْتُكِ اللهَ إلاّ ما ذَكَرْتِ لنا ... هل كنت جارتَنا أيّامَ ذِي سَلَمِ !

وقوله : « غيرَ مِبْطَانِ العشيّاتِ » ، يقول : كان لا يأكلُ فى آخرِ نهارِه انتظاراً للضيفِ . ويروى أن عمر بن الخطاب سأله فقال : أكذَبتَ فى شىء مما قلتَه فى أخيكَ ؟ فقال : نعم ، فى قولى : « غيرَ مِبْطَانٍ » ، وكان ذا بَطْنٍ ؛ ويقال فى غير هذا الحديثِ : إنّ مِنْ سِيما الرئيسِ السيّدِ أن يكونَ عظيمَ البطنِ ضَخْمَ الرأس ، فيه طَرَشٌ .

وقال رجلٌ لفتى : واللهِ ما أنتَ بعظيمِ الرأسِ فتكونَ سيداً ، ولا بأرسحَ [1] فتكونَ فارساً .

وقال رجلٌ لرجلٍ : واللهِ ما فَتِقتَ فتقَ [2] السّادَةِ ، ولا مُطِلْتَ [3] مَطْلَ الفُرْسانِ

(١) الرسح : قلة لحم العجز والفخذين ؛ وذلك لملازمته الركوب .

(٢) ما فتقت ، قال المرصفى : من الفتق ؛ وهو شق العصا وتصدع الكلمة ووقوع الحرب تسيل منها الدماء وتكثر الجراحات » .

(٣) مطلت ، بالبناء للمجهول ، قال المرصفى : وهو فى الأصل ضرب الحداد الحديدة لتطول ، يريد : ليس بذى رأى يرتق ما فتق بين القوم ، ولا بفارس يناله قرع السيوف .

والخِرْوَعُ : كلُّ عودٍ ضعيفٍ .

وقوله :

* فما وَجْدُ أظْـآرٍ ثلاثٍ روائمٍ *

أظْـآرٌ : جمعُ ظِئْرٍ ، وهىَ النوقُ تَعْطِفُ على الحُوارِ فتأْلفُهُ وروائمُ ، واحدتها رَءُومٌ ، ومعنى ترْأمُهُ : تشمه .

والحُوَارُ : وَلَدُ الناقةِ ، ويقال له حيثُ يَسْقُطُ من أمِّهِ سَلِيلٌ ، قبلَ أن تقعَ عليه الأسماء ، فإن كان ذكراً فهو سَقْبٌ ، وإن كانت أنثى فهى حائلٌ ، وهو فى ذلك كله حُوارٌ سَنَةً

وقوله : « نَدْمَانَىْ جَذِيمَةَ » يعنى جَذِيمَةَ الأبْرَشَ الأزدِىَّ ، وكان مَلِكاً ، وهو الذى قتلته الزَّبَّاء ، وهو أولُ من أوْقَدَ بالشَّمْعِ ونَصَبَ المَجَانِيقَ للحربِ ، وله قِصَصٌ تطولُ ، وقد شرحنا ذلك فى كتاب «الاختيار» ونديماه يقالُ لهما مالكٌ وعقيلٌ ، ففى ذلك يقولُ أبو خِرَاشٍ الهُذَلِىُّ :

أَلَمْ تعْلَمِى أنْ قد تفرَّقَ قبلَنا خليلاَ صَفَاءٍ مالكٌ وعَقِيلُ

والمَثَل يُضْرَبُ بهما لِطُولِ ماتَادَمَاه ، كما يُضْرَبُ باجتماع الفَرْقَدَيْن قال عَمْرُو بن مَعْدِى كَرِبَ :

وكُلُّ أَخٍ مُفارِقُهُ أخـــوه لَعَمْرُ أبيكَ ! إلاَّ الفَرْقَدانِ

قال هذا من قبل أن يُسْلِمَ . وَقال إسمعيلُ بن القاسم :

ولم أَرَ ما يَدُومُ له اجتماعٌ سَيَفْتَرِقُ اجتماعُ الفَرْقَدَيْنِ

ثم بكى وانحطّ على سِيَةِ قوسِه - وكان أعورَ دَمِيمًا - فما زال يَبْكى حتى دَمَعَتْ عينُه العَوْراء ، فقال إليه عمر بن الخطاب فقال : لوَدِدْتُ أَنّى رَثَيْتُ أخِى زيداً بمثلِ ما رَثَيْتَ به مالكاً أخاكَ ! فقال له : يا أبا حفصٍ ! واللهِ لو علمتُ أنَّ أخِى صارَ بحيثُ صارَ أخوكَ ما رَثَيْتُهُ ، فقال عمر : ما عَزَّانِى أحدٌ بمثلِ تعزيتِكَ وكان زيدُ بنُ الخطابِ قُتِلَ شهيداً يومَ اليمامةِ ، وكان عمرُ يقول : إنِّى لأَهَشُّ للصَّبَا ، لأنها تأتِينا من ناحيةِ زيد .

ويُروى عن عمرَ أنه قال : لو كنتُ أقولُ الشعرَ كما تقولُ ، لرَثَيْتُ أخِى كما رثيتَ أخاك . ويُروى أنَّ مُتَمِّماً رثى زيداً فلم يجد ، فقال له عمر : لم ترْثِ زيداً كما رثيتَ أخاكَ مالكاً ! فقال : لأنه واللهِ يُحَرِّكُنِي لمالكٍ ما لا يُحرِّكُنِي لزيدٍ

* * *

ومن طَريفِ شعرِهِ :

لَعَمْرِى وما دَهْرِى بتَأْبِين هَالكٍ ... ولا جَزَعٍ والموتُ يَذهبُ بالفَتَى[1]

لَئِنْ مَالكٌ خَلَّى علَيَّ مكانَهُ ... لَفِى إسْوةٍ إنْ كُنْتِ باغيةَ الأَسَا

كُهولٌ ومُرْدٌ من بنى عمِّ مالكٍ ... وأَيْفاعُ صِدْقٍ قد تَمَلَّيْتُهُمْ رِضا[2]

سُقُوا بالعُقَارِ الصِّرْفِ حتى تَتَابَعُوا ... كَدَأْبِ ثَمُودٍ إذْ رَغَا سَقْبُهم ضُحَى[3]

إذَا القومُ قالوا : مَنْ فَتًى لِمُلِمَّةٍ ... فما كُلُّهُمْ يُدْعَى ، ولكِنَّهُ الفَتَى

---

(١) ما دهرى : ما همى وغايتى .

(٢) أيفاع : جمع يفع ؛ وهو الشاب الذى شارف البلوغ . وتمليتهم : عشت معهم وتمتعت بهم ملاوة من الدهر .

(٣) العقار : الخمر . والصرف : التى لم تمزج ؛ ويريد به الموت ، على الاستعارة .

والأروعُ : ذو الرَّوْعَةِ والهيئةِ .

والبَرَمُ : الذى لا يَنزِلُ مع الناسِ ولا يأخذ فى المَيْسِرِ ، ولا يَنزِعُ إلا نكدًا ، قال النابغةُ :

هلا سألتِ بنى ذُبيانَ ما حَسَبِى ... إذا الدُّخانُ تَغَشَّى الأشمطَ البَرَمَا(١)

وقوله : « إذا القَشعُ » وهو الجِلدُ اليابسُ ، ويقال لكُناسةِ الحمَّامِ القِشعُ ، قال أبو هريرة : « وكُذِّبتُ حتى رُميتُ بالقِشعِ » .

* * *

وحدثنى العباسُ بن الفَرَجِ الرِّياشِىّ ، عن محمد بن عبد الله الأنصارىّ القاضى ، فى إسنادٍ ذَكَرَه ، قال : صلَّى مُتمِّمٌ مع أبى بكر الصديقِ الفَجْرَ فى عَقِبِ قتل أخيه ، وكان أخوه خَرَجَ مع خالدٍ مَرْجِعَهُ من اليَمامةِ ، يُظهِرُ الإسلامَ ، فظنَّ به خالدٌ غيرَ ذلك ، فأمر ضِرارَ بن الأزوَرِ الأسَدِىَّ فقتله ، وكان مالكٌ من أرْدافِ الملوكِ ، ومن مُتقدِّمى فُرسانِ بنى يَرْبوعٍ ، قال : فلمَّا صلَّى أبو بكرٍ قامَ مُتمِّمٌ بحِذائِه ، واتكأ على سِيَةِ(٢) قوسِهِ ، ثم قال :

نِعْمَ القتيلُ إذا الرِّياحُ تناوحَتْ ... خلفَ البُيوتِ ، قَتلتَ يابنَ الأزوَرِ

ولَنِعْمَ حَشْوُ الدِّرعِ كنتَ وحاسِرًا ... ولَنِعْمَ مأوَى الطارِقِ المُتنوِّرِ

أدعَوْتَه باللهِ ثم غَدَرْتَه ... لو هو دَعاكَ بذِمَّةٍ لم يَغدِرِ

وأومأ إلى أبى بكر . فقال : واللهِ ما دَعَوْتُه ولا غَرَرْتُه ، ثم أتمَّ شِعْرَه ، فقال :

لا يُمسِكُ الفحشاءَ تحتَ ثيابِه ... حُلْوٌ شمائلُهُ عفيفُ المِئزَرِ

---

(١) تغشى : تلبس . والأشمط الذى خالطه الشيب .

(٢) سية القوس : ما عطف من طرفيها .

والفرسُ الجَرُور: الذى لا يكادُ ينقادُ مع مَنْ يَجنبُه، إنما يَجُرُّ الحبْلَ . والشَّمْلَةُ الفَلُوت: التى لا تكادُ تثبُتُ على لابِسِها .

وذَكَر لنا أنَّ مالكاً كان من أرْدَافِ الملوك ، وفى تَصْدَاقِ ذلك يقولُ جَرِيرٌ يَفخَرُ ببنى يَرْبُوعٍ :

منهم عُتَيْبَةُ والمُحِلُّ وقَعْنَبٌ والحَنْتَفانِ ومنهمُ الرِّدْفانِ[1]

فأَحَدُ الرِّدْفَيْنِ مالكُ بن نُوَيْرَة اليربوعىُّ ، والرِّدْفُ الآخر من بنى رِياح ابن يَرْبُوعٍ . وللرِّدَافةِ موضعان : أحدهما أن يُرْدِفَهُ المَلِكُ على دابّته فى صَيْدٍ أو تَرَيُّفٍ أو ما أشبه ذلك من مواضعِ الأُنسِ ، والوجه الآخرُ أنْبَلُ ، وهو أن يَخْلُفَ المَلِكَ إذا قَامَ عن مجلسِ الحُكْمِ فينظرَ بَيْنَ الناسِ بَعْدَهُ .

---

(١) عتيبة بن الحارث بن شهاب . والمحل وقعنب : رجلان من بنى حنظلة بن يربوع ، والحنتفان : الحنتف وأخوه ابنا أوس بن حميرى بن يربوع (رغبة الآمل) .

ومثلُ هذا الشعرِ قولُ النَّهْشَلِيّ :

لو كانَ فى الألفِ منّا واحدٌ فدَعَوْا　　مَنْ فارسٌ خالَهُمْ إيّاهُ يَعْنونا

وأوّلُ هذا المعنى لِطَرَفَةَ :

إذا القومُ قالوا من فتًى خِلْتُ أنّنِي　　عُنِيتُ فلم أَكْسَلْ ولم أَتبلَّدِ

* * *

وقال متممٌ أيضاً فى كلمةٍ له يرثى بها مالكاً :

جَميلُ المحَيَّا ضاحكٌ عند ضَيْفِهِ　　أغرُّ جميعُ الرَّأْيِ مُشْتَرَكُ الرَّحْلِ

وَقُورٌ إذا القومُ الكِرامُ تقاوَلُوا　　فَحُلَّتْ حُباهُم واسْتُطِيرُوا من الجَهْلِ (١)

وكنتَ إلى نفسِي أشدَّ حلاوةً　　من الماء بالمَاذِيِّ من عَسَلِ النَّحْلِ (٢)

وكلُّ فتًى فى الناسِ بعدَ ابنِ أُمِّهِ　　كساقِطةٍ إحدَى يدَيْهِ من الخَبْلِ

وبَعْضُ الرجالِ نَخْلةٌ لا جَنَى لها　　ولا ظلَّ إلاّ أنْ تُعَدَّ من النَّخْلِ

وقال له عمرُ بن الخطاب : إنك لَجَزْلٌ ، فأينَ كان أخُوكَ منكَ ؟ فقال : كان واللهِ أخِى فى الليلةِ المُظلمةِ ذاتِ الأزيزِ والصُّرّادِ (٣) ، يركبُ الجملَ الثَّفَالَ ، ويَجْنُبُ (٤) الفرَسَ الجرورَ ، وفى يدِهِ الرُّمحُ الثقيلُ ، وعليه الشَّمْلةُ الفلوتُ ، وهو بَيْنَ المَزادَتَيْنِ حتى يُصْبِح ، فيصبِّحَ أهلَه مُتَبَسِّماً .

الجملُ الثفالُ : البَطِيء الذى لا يكاد يَنْبَعِثُ

---

(١) حباهم : جمع حبوة ؛ وهى الثوب الذى يحتبى به الرجل يجمع به ظهره وساقيه .
(٢) الماذى : العسل الأبيض .
(٣) الأزيز : البرد ، والصراد : سحاب بارد ندى ليس فيه ماء .
(٤) يجنب الفرس : يقوده إلى جنبه .

ثم قال لابنِ الأسودِ الكَلْبيّ : أَجِدِ الضَّرْبَة ، فإنى واللهِ ضربت أباكَ ضربةً أسْلَحَتْهُ ، فعدوتُ النُّجومَ فى سَلحَتِه ثم قال عبدُ الملك لسعيدِ بن أبانَ : صبرًا سعيدُ ! فقال : إى واللهِ !

أَصْبَرُ مِنْ عَوْدٍ بِجَنْبَيْهِ الْجَلَبْ قد أَثَّرَ البِطَانُ فيه والحَقَبْ[1]

* * *

ومنهم وكيعُ بنُ أَبِي سُودٍ ، أحدُ بنى غُدَانَةَ بنْ يَرْبُوعٍ ، فإنه لما يُئِسَ منه خرجَ الطبيبُ من عنده ، فقال له محمَّدٌ ابنُه : ما تقولُ ؟ قال : لا يُصلِّى الظُّهْرَ ، وكان محمَّدٌ ناسكاً ، فدخلَ إلى أبيه ، فقال له أبوه وكيع : ما قال لك المَعْلُوجُ ؟ قال : وَعَدَ أنكَ تبْرأُ ، قال : أسألُكَ بحقِّى عليكَ ! قال : ذَكَرَ أنكَ لا تصلِّى الظهرَ ، قال : وَيْلِى على ابنِ الخَبيثةِ ! واللهِ لو كانتْ فى شِدْقِى لَلُكْتُها إلى العَصْرِ .

* * *

ويُرْوَى أنَّ إبراهيمَ النَّخَعِيَّ قال فى الحديثِ الذى ذكرناه : واللهِ وَدِدْتُ أنها تَلَجْلَجُ فى حَلْقِى إلى يومِ القيامة . وفى وَكيعِ بن أبى سُودٍ يقولُ الفرَزْدَق :

لقد رُزِئَتْ بأسًا وحزمًا وسُودَدًا تَميمُ بن مُرٍّ يومَ ماتَ وَكِيعُ

وما كان وقَّافًا وَكِيعٌ إذا دَنَتْ سحائبُ مَوْتٍ وَبْلُهنَّ نَجِيعُ

---

(١) العود : الجمل المسن . والجلب : جمع جلبة ؛ وهى القرحة تعلوها قشرة البرء . والبطان : حزام الرحل . والحقب : الحزام الذى يلى حقو البعير .

بابٌ

[من أخبار من جزعوا عند الموت]

قال أبو العباس : لمَّا احتُضِرَ إبراهيمُ النَّخَعِيُّ رحمه الله ، جَزِعَ جزعًا شديداً ، فقيل له في ذلك ، فقال : وأيُّ خطرٍ أعظمُ من هذا ! إنَّما أتوقَّعُ رسولاً يَرِدُ عليَّ من ربِّي ، إما بالجنةِ وإما بالنارِ .

ولما احتُضِرَ ابنُ سيرين ، جعلَ يقولُ : نفسِي واللهِ أعزُّ الأنفسِ عليَّ .

ولما احتُضِرَ حُجْرُ بنُ عدِيٍّ ليُقْتَلَ ، سأَلَ أن يُمْهَلَ حتى يصلِّيَ ركعتين ، وظهرَ منه جزعٌ شديدٌ ، فقال له قائلٌ : أتجْزَعُ ! فقال : وكيف لا أجْزَعُ ! سيفٌ مشهورٌ ، وكفنٌ منشورٌ ، وقبرٌ محفورٌ ، ولستُ أدرِي أيُؤدينِي إلى جنةٍ ، أم إلى نارٍ .

[قال أبو الحسن : ما يقومُ بقتلِ حُجْرِ بنِ عدِيٍّ شيءٌ ! وإني لأعجبُ من قوله هذا : « ولستُ أدرِي أيُدْنيني إلى جنةٍ أو إلى نارٍ » ، وهو شهيدُ الشهداء ، رحمه الله !] .

وقد ذكرنا موتَ عَمْرِو بنَ العاصِي وكلامَه عند الموت .

[ممن ظهرت عليهم القسوة عند الموت]

وممن ظَهرَتْ منه عند الموت قَسْوةٌ حَلْحَلةُ الفزارِيُّ ، وسعيدُ بنُ أبانَ ابنِ عُيَيْنَةَ بنِ حِصْنٍ الفزارِيُّ ، فإن عبدَ الملك لمَّا أحضرَهما ليُقِيدَ منهما قال لحلحلةَ : صَبْرًا حَلْحَلَ ! فقال إي واللهِ !

أَصْبَرُ مِنْ ذِي ضَاغِطٍ عَرَكْرَكِ ... أَلْقَى بَوَانِي زَوْرِهِ لِلْمَبْرَكِ[1]

(١) قال المرصفي : يريد : من بعير ذي ضاغط ، والضاغط : أن يتحرك مرفق البعير حتى يقع في جنبه فيخرقه وعركرك : به أثر من العرك ؛ وهو أن يعرك البعير جنبه بمرفقه فيؤثر فيه . وبواني زوره : أضلاعه ، الواحدة بانية . وزوره : صدره .

وأنت أميرُ المؤمنين فما لَنا ... وراءكَ من مَعْدًى ولاعنكَ مِن قَصْرِ [1]

فإن تكُ فى أموالِنا لا نَضِقْ بها ... ذِراعًا ، وإن صَبْرٌ فنصبرُ للصَّبْرِ [2]

فقال له معاويةُ : أَرَاكَ قد أقْرَرْت يا هدبةُ ! قال : هو ذاكَ ، فقال عبدُ الرحمن : أَقِدْنِى ، فكَرِهَ ذاكَ معاويةُ وضَنَّ بهُدْبَةَ عنِ القَتْلِ - وكان ابنُ زيادةَ صغيراً - فقال له معاويةُ : أَوَمَا عليكَ أَنْ تَشْفِىَ صَدْرَكَ وتَحْرِمَ غيرَكَ ! ثم وَجَّهَ به إلى المدينة فقال : يُحْبَسُ إلى أن يَبْلُغَ ابنُ زِيادَةَ ، فبلَغَ .

وكان والِى المدينةِ سعيدَ بنَ العاصِى ، فممَّا وُقِفَ عليه من قسوتِه قولُه :

ولمَّا دخلتُ السجنَ يا أُمَّ مالكٍ ... ذكرتُكِ والأطرافُ فى حَلَقٍ سُمْرِ

وعندَ سَعيدٍ غيرَ أَنْ لم أُبِحْ به ... ذكرتُكِ إن الأمرَ يُذْكَرُ بالأمْرِ

فسُئِلَ عن هذا القول ، فقال : لمَّا رأيتُ ثَغْرَ سعيدٍ - وكان سعيدٌ حسنَ الثغرِ جداً - ذَكَرْتُ به ثَغْرَها .

ويقال إنه عُرِضَ على ابنِ زيادةَ عَشْرَ دِياتٍ فأبَى إلاَّ القَوَدَ ، وكان ممن عَرَضَ الدياتِ عليه ممن ذُكِرَ لنا ، الحسينُ بن علىّ وعبدُ الله بنُ جعفرٍ ، عليهما السلام ، وسعيدُ بن العاصِى ، ومَرْوَانُ بن الحكَمِ ، وسائرُ القوم من قريشٍ والأنصارِ ، فلما خُرِجَ به ليُقادَ بالحَرَّةِ جَعَلَ يُنْشِدُ الأشعار ، فقالتْ له حُبَّى المَدِينيَّةُ : ما رأيت أقسَى قلباً منك ! أتُنْشِدُ الأشعارَ وأنتَ

---

(١) من معدى : من متجاوز إلى غيرك . ولا عنك من قصر ؛ يريد ولا منع فى أمرى عنك (رغبة الأمل) .

(٢) فإن تك ؛ يريد الدية . والصبر : الحبس .

إذا التقت الأبطالُ أبصرتَ لونَه مُضيئاً وأعناقُ الكُماةِ خُضوعُ
فصبرًا تميمُ إنَّما الموتُ مَنْهَلٌ يَصيرُ إليه صابرٌ وجَزوعُ

* * *

وقال أيضاً :

لِتبكِ وَكيعاً خَيلُ ليلٍ مُغيرةٌ تَساقَى المنايا بالرُّدَيْنيَّةِ السُّمْرِ [1]
لَقوا مِثْلَهم فاستَهْزَموهم بدَعْوَةٍ دَعَوْها وكيعاً والجِيادُ بهم تجْرِي [2]

* * *

ومن الجُفَاةِ عندَ الموتِ هُدْبَةُ بن خَشْرَمٍ العُذْرِيُّ ، وكان قَتلَ زِيادَةَ بنَ زيدٍ العُذْرِيَّ ، فلما حُمِلَ إلى معاوية ، تقدم معه عبدُ الرحمنِ أخو زيادةَ بنِ زيدٍ ، فادَّعَى عليه ، فقال له معاويةُ : ما تقولُ ؟ قال : أتحبُّ أن يكونَ الجوابُ شعراً أم نثراً ؟ قال : بل شعراً فإنه أمتعُ ، فقال هُدْبَةُ :

فلمَّا رأيتُ أنَّما هِيَ ضَرْبَةٌ منَ السيفِ أو إغْضاءُ عَيْنٍ على وِترْ
عَمَدْتُ لِأمْرٍ لا تُعَيَّرُ والدِي خَزَايَتَهُ ولا يُسَبُّ به قبرِي [3]
رُمِينا فَرَامَيْنَا فصادَفَ سَهْمُنا مَنيَّةَ نَفْسٍ في كتابٍ وفي قَدْرِ

---

(١) الوبل : غزارة المطر ، والنجيع : الدم .

(٢) نقل المرصفي أنه لما مات منم والى البصرة عدى بن أرطاة الفزارى أن يناح عليه ، فوضعوا نعشه وقالوا : لا يحمل حتى يجئ الفرزدق ؛ فجاء وعليه قميص أسود مشقوق ، والناس يترحمون ويذكرون الله ، فأخذ بقاعة السرير فنهض به ، ثم أنشأ يقول : لتبك وكيعا . . . البيتين

(٣) الخزاية : الاستحياء .

فقالت : أهذا فِعْلُ مَنْ له فى الرجالِ حاجةٌ ! فقال : الآنَ طابَ الموتُ ، ثم أقبل على أَبَوَيْهِ فقال :

أَبلِيَانِى اليومَ صَبْرًا منكما ... إنَّ حُزْنًا منكما اليومَ لَشَرْ

ما أظنُّ الموتَ إلاَّ هيِّنًا ... إنَّ بعدَ الموتِ دارَ المُسْتَقَرْ

ثم قال :

أذا العَرْشِ إنِّى عائذٌ بكَ مؤمنٌ ... مُقِرٌّ بزلَّاتِى إليكَ فَقِيرُ

وإنِّى وإنْ قالوا أميرٌ مُسَلَّطٌ ... وحُجَّابُ أبوابٍ لَهُنَّ صَرِيرُ

لأَعْلمُ أنَّ الأمرَ أمْرُكَ إن تَدِنْ ... فربٌّ وإنْ تَغفِرْ فأنت غفورُ

ثم قال لابنِ زِيادَةَ : أثْبِتْ قدَمَيْكَ ، وأجِدِ الضربةَ ، فإنِّى أيتمْتُكَ صغيراً ، وأرْمَلتُ أمَّكَ شابَّةً .

ويزعُم بعضُ أصحاب الأخبار أنه قال : ما أجزَعُ من الموتِ ، وآيةُ ذلك أنِّى أَضْرِبُ برجلى اليُسْرَى بعدَ القتل ثلاثاً ؛ وهو باطلٌ موضوعٌ ، ولكنْ سأل فكَّ قيودِهِ ، ففُكَّتْ ، فذلك حيث يقولُ :

فإن تَقْتُلونى فى الحديدِ فإنَّنى ... قتَلْتُ أخاكم مُطْلقا لم يُقَيَّدِ

[من أخبار من وقفوا على القبور]

قال أبو العباس : ووقفَ جَبَّارُ بنُ سَلْمى على قبرِ عامرِ بن الطُّفَيْل ، ولم يكن حَضَرَهُ ، فقال : أَنْعِمْ صباحاً أبا علىٍّ ! فواللهِ لقد كنتَ سريعاً إلى المولى بوَعْدِكَ ، بَطيئاً عنه بإيعادِكَ ، ولقد كنتَ أَهْدَى من النَّجْمِ ، وأجرَى

يمضى بك لتُقتَلَ ، وهذه خلفك كأنها ظبى عطشان تولول ! تعنى امرأته فوقفَ ووقفَ الناسُ معه ، فأقبلَ على حُبَّى فقال :

ما وَجَدَتْ وَجْدِى بها أُمُّ واحدٍ ولا وَجْدَ حُبَّى بابنِ أُمِّ كِلابِ

رأته طويلَ الساعدَين شَمَرْدَلاً كما انعتَتْ من قُوَّةٍ وشَبابِ[1]

فأغلقتْ حُبَّى البابَ فى وجهه وسَبَّتْهُ .

وعَرَضَ له عبدُ الرحمن بن حَسَّانٍ ، فقال . أنشِدْنى ، فقال له : أَعَلَى هذه الحال ! قال : نعم ، فأنشدَه :

ولَسْتُ بمِفْراحٍ إذَا الدهرُ سَرَّنِى ولا جازعٍ من صرفِهِ المتقَلِّبِ

ولا أَتبَغَّى الشَرَّ والشَّرُّ تارِكى ولـكنْ متى أُحملْ على الشَّرِّ أَرْكَبِ

وحَرَّبَنِى مولاىَ حتى غَشِيتُهُ متى ما يُحَرِّبْكَ ابنُ عَمِّكَ تَحْرَبِ[2]

* * *

فلما قُدِّمَ نَظَرَ إلى امرأتِهِ ، فدخلته غَيْرةٌ ، وقد كان جُدِعَ فى حَرْبِهِمْ ، فقال :

فإنْ يَكُ أَنفِى بانَ منه جَمَالُه فما حَسَبِى فى الصالحينَ بأَجدَعَا

فلا تَنكِحِى إنْ فَرَّقَ الدهرُ بيننا أَغَمَّ القَفَا والوجهِ ليس بأَنزَعا

فقالت : قِفُوا عنه ساعةً ، ثم مَضَتْ ورَجَعَتْ وقد اصْطَلَمَتْ أنفها

---

(١) الشمردل : الفتى القوى الجلد . وانعتت : وصفت .

(٢) حربنى : حملنى على الغضب .

ورَوَى ابنُ دأْبٍ أنَّ حسّانَ بن ثابتٍ الأنصاريّ اجتازَ بقبرِ رَبيعةَ بن مُكَدَّمٍ فأنشدَ :

لا يُبْعَدَنَّ رَبيعةُ بن مُكَدَّمٍ وسَقَى الغوادِي قبرَهُ بِذَنوبِ
نفَرَتْ قلوصِي من حِجارة حَرَّةٍ نصِبَتْ على طلقِ اليدين وَهُوبِ
لا تنفُرِي يا ناقَ منــه فإنه شِرّيبُ خَمْرٍ مِسْعَرٌ لِحُروبِ[1]
لولاَ السِّفارُ وطولُ قفرٍ مَهْمَهٍ لتركتُها تحبُو على العُرْقُوبِ[2]
نِعْمَ الفتَى أدَّى نُبَيْشَةُ رَحْلَهُ يومَ الكَديدِ نُبَيْشَةُ بنُ حَبيبِ

ورَبيعةُ بن مُكَدَّمٍ - رجلٌ من بني كِنانةَ ، وكان قتَلهُ أُهْبانُ ابن غادِيةَ الخُزاعِيّ ، وقيسٌ تقول : قتله نُبَيْشَةُ بن حَبيب السُّلميُّ ، وكان أهبانُ أخا نُبَيْشَةَ لأمِّه ، وكان أتاه زائراً . وأغارَ ربيعةُ بن مُكَدَّم على بني سُليم ، فخرج أُهبانُ مع أخيه ، فحَمَلَ عليه فقتله ، وحملَ أخو رَبيعة على أُهبانَ فقاتَه ، فلأنَّه في بنى سُليمٍ ، قال حسانُ :

* نفَرَتْ قلوصِي من حِجارةِ حَرَّةٍ *

لأنَّ الحرَّةَ هناكَ لبنى سُليمٍ ، وفى تَصْداقِ ما تَدَّعِيهِ خُزاعةُ يقولُ أُهبانُ :

ولقد طَعنتُ رَبيعةَ بنَ مُكَدَّمٍ يومَ الكَديدِ فخرَّ غيرَ مُوَسَّدِ

(١) مسعر للحروب ، أي يسعرها ويشبها .
(٢) المهمه : القفر من الأرض .

من السَّيل . ثم التفت إليهم فقال : كان ينبغي أن تجعلوا قبر أبي عليّ ميلا في ميلٍ !

* * *

وذكر الخِرَمازيّ أن الأحنف بن قيس لما مات ، وكان موته بالكوفة ، مشَى المُصْعبُ بن الزُّبير في جنازته بغير رداء ، وقال : اليومَ ماتَ سيدُ العربِ ، فلمّا دُفِنَ قامت امرأةٌ على قبره — أحْسِبُها من بني مِنْقَر — فقالت : لله دَرُّك من مُجَنٍّ في جَنَنٍ [1] ، ومُدْرَجٍ في كَفَن ! فنسألُ الذي فجعنا بموتِكَ ، وابتلانا بفقدِكَ ، أن يجعلَ سبيلَ الخيرِ سبيلَك ، ودليلَ الخيرِ دليلَكَ ، وأن يُوسِّعَ لك في قبرِكَ ، ويغفرَ لك يومَ حَشْرِكَ ، فوالله لقد كنتَ في المحافِلِ شريفاً ، وعلى الأرامِلِ عطوفاً ، ولقد كنتَ في الحيِّ مُسَوَّدًا ، وإلى الخليفةِ مُوفَدًا ، ولقد كانوا لقولِكَ مستمعين ، ولرأيِك متَّبِعِين . قال : فقال الناسُ : ما سمعنا كلامَ امرأةٍ أبلغ ولا أصْدَقَ معنًى منها .

* * *

ووقفَ رجلٌ على قبر النجاشيّ فترحَّمَ وقال : لولا أنَّ القولَ لا يُحيطُ بما فيكَ ، والوصفَ يَقْصُرُ دونَك لأطْنَبْتُ ، بل لأسْهَبْتُ . ثم عقر ناقته على قبره ، وقال :

عقرتُ على قبرِ النَّجاشيِّ ناقتي ... بأبيضَ عضْبٍ أخلَصَتْهُ صَيَاقِلُهْ
على قبرِ مَنْ لو أنَّني مِتُّ قبْلَه ... لهانَتْ عليه عندَ قبري رَوَاحِلُهْ

* * *

(١) مجن : اسم مفعول ، من أجنة إذا ستره . والجنن : القبر .

وذَكَرَ المدائِنِيُّ أنَّ رجلاً عَزَّى رجلاً أفرَط عليه الجزَعُ على ابنه فقال : يا هذا ، سُرِرْتَ به وهو حُزْنٌ وفتْنَةٌ ، وجَزِعتَ عليه وهو صَلَاةٌ ورحمةٌ ، فَسُرِّيَ عنه . ويُرْوَى أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « تَعَزَّوْا عن مصائِبِكم بى » . وقال رجلٌ لابنَ عمرَ : أعْظَمَ اللهُ أجْرَكَ ، فقال : نَسْأَلُ اللهَ العافيةَ ! معناه : أنه لما قال له : « أعظم اللهُ أجركَ » ، إنما دَعَا بأن يَكْثُرَ ما يُؤْجَرُ عليه ، ودلَّ على أنه من باب المصائب تعْزِيَتُهُ إيَّاه .

في عارِض شَرِقٍ بنَاتُ فؤادِهِ　　منه بأحْمرَ كالنَّقيعِ المُجْسَدِ[1]
ولقد وَهَبْت سِلاحَهُ وجَوادَهُ　　لأخي نُبَيْشَةَ قبلَ لوْمِ الحُسَّدِ

وقال أخو ربيعة يجيبه :

فابنُ ابنُ غادِيَةَ المَنيَّة بعدَ ما　　رَفَعَتْ أسفلَ ذيلِهِ بالمطْرَدِ[2]
قلْ لابْنِ غادِيَةَ المُتاحِ لقتلِنَا　　ما كان يَقْتُلنا الوَحيدُ المُفْرَدُ

يريدُ أنَّ أهْبانَ مُفْرَدٌ من قومه في أخوالِه .

وقال أيضاً :

فإِنْ تذْهَبْ سُلَيمُ بِوتْرِ قوْمِي　　فأَسْلُمُ مِنْ مَنَازِلِنَا قريبُ

[ليلى الأخيلية ترثي توبة]

وقالت ليْلَى الأَخْيَلِيَّةُ :

آلَيْتُ أبْكِي بعد تَوْبَةَ هالِكاً　　وأحْفِلُ مَنْ دارَتْ عليه الدَّوائِرُ
لَعَمْرُكَ ما بالموت عار على الفتَى　　إذا لم تُصِبْهُ في الحياةِ المَعايِرُ
فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ يا تَوْبَ إنما　　لِقاءُ المَنَايَا دارِعًا مثلُ حاسِرِ

ويُرْوَى :

فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ يا تَوْبَ هالِكا　　أَخا الحربِ إنْ دارتْ عليه الدَّوائِرُ
فكلُّ جديدٍ أو شَبابٍ إلى بِلًى　　وكلُّ امرِئٍ يومًا إلى اللهِ صائِرُ

* * *

(١) المطرد : الرمح القصير يطارد به الفارس .

فلم أُلْمْ يَحْيَى على حادِثٍ ولم أَقُلْ خانَ ولا ضَيَّعا

[لأبي عبد الرحمن العتبي يرثي علي بن سهل]

وقال أبو عبد الرحمن العُتْبيُّ يَرْثِى عليَّ بن سَهْلِ بن الصَّبَّاح – وكان له صديقاً :

يا خَيْرَ إخوانِه وأعطَفَهُمْ عليهمُ راضياً وغَضْبانَا
أمْسَيْتَ حُزْناً وصار قُرْبُكَ لى بُعْداً وصارَ اللِّقاءُ هِجْرانَا
إنَّا إلى الله راجعون لقد أصبحَ حزنى عليكَ أَلْوانَا
حُزْنُ اشتياقٍ وحزنُ مَرْزِئةٍ إذا انْقَضَى عادَ كالذى كانَا

* * *

قوله : « يا خَيْرَ إخوانِه » محالٌ وباطلٌ ، وذلك أنه لا يضافُ « أفْعَلُ » إلى شيء إلاّ وهو جزء منه وقال أيضاً :

دَعوتُكَ يا أُخَيَّ فلم تُجِبْنِى فرُدَّتْ دَعْوَتِى حُزْناً عَلَيَّا
بموتكَ ماتَتِ اللَّذاتُ مِنِّى وكانتْ حَيَّةً إذْ كنتَ حَيَّا
فيا أَسَفِى عليكَ وطولَ شَوْقِى إليكَ لوَ انَّ ذاكَ يَرُدُّ شَيَّا

[وقوف رجل على قبر عدوه]

وحدثنى رجلٌ من أصحابنا ، قال : شهدتُ رجلاً فى طريق مكة معتكفاً على قبرٍ ، وهو يُرَدِّدُ شيئاً ودموعُهُ تَسكِفُ من لحيتِه ، فدَنَوْتُ إليه لأسمع ما يقولُ ، فجعلتِ العَبْرَةُ تَحُولُ بينَه وبينَ الإبانةِ ، فقلتُ له : يا هذا ! فرفعَ رأسَه إلَيَّ ، وكأنما هَبَّ من رَقْدةٍ ، فقال : ما تشاء ؟ فقلت : أعلى

وهذا بابٌ طريفٌ من أشعارِ المُحْدَثِين

[لمطيع بن إياس فى يحيى بن زياد]

قال مُطيعُ بنُ إياسٍ اللَّيْثِيُّ يَرْثى يحيىٰ بنَ زِيادٍ الحارثيَّ - وكان صديقَهُ ، وكانا مَرْمِيَّيْنِ جميعاً بالخروج عن الملة :

يا أهْلُ بَكُّوا لِقَلْبِيَ القَرِحِ ... ولِلدُّموعِ الهَوامِلِ السُّفُحِ[1]

رَاحُوا بِيَحْيَىٰ إلى مُغَيَّبِهِ ... فى القبرِ بينَ التُّرابِ والصُّفُحِ[2]

رَاحُوا بيحيىٰ ولو تُطاوِعُنِى الـأقدارُ لم يَبْتَكِرْ ولم يَرُحِ

يا خيرَ مَنْ يَحْسُنُ البُكاءُ له الـيَوْمَ ومَنْ كانَ أمْسِ لِلمِدَحِ[3]

* * *

وفى يحيى يقولُ مطيعٌ لنَبْوةٍ كانتْ بينهما :

كُنتُ ويَحْيَىٰ كيَدَىْ واحِدٍ ... نَرْمِى جميعاً ونُرامِى مَعَا

إنْ سَرَّهُ الدَّهْرُ فقد سَرَّنِى ... أو حادِثٌ نابَ فقد أفْظَعَا

أو نامَ نامتْ أعْيُنٌ أرْبَعٌ ... مِنَّا ، وإن هَبَّ فلنْ أهْجَعَا

حتى إذا ما الشَّيْبُ فى عارِضِى ... لاحَ وفى مَفْرِقِهِ أسْرَعا

سَعَى وُشاةٌ طُبُنٌ بَيْننا ... فكادَ حَبْلُ الوَصْلِ أن يُقْطَعا[4]

---

(١) الهوامل : الذوارف .

(٢) الصفح : جمع صفيحة ، وهى القطعة العريضة من الصخر .

(٣) ذكر المرصفى بعده :

قد ظَفِرَ الحُزْنُ بالسُّرُورِ وَقَدْ ... أُديلَ مَكْرٌ وهُنا مِنَ الفَرَحِ

(٤) طبن : جمع طابن ؛ وهو الفطن .

عنده ستةَ أشهرٍ ثم ماتت؛ فقال فيها أشعاراً كثيرة ، اخترنا منها بعضها ؛ من ذلك قوله :

لِلّهِ آنِســـةٌ فُجِعْتُ بها ما كان أبعدَها من الدَّنَس !
أتتِ البشارةَ والنَّعِيُّ معًا يا قُرْبَ ما أتيها من العُرُس !
يا مُلْكُ نالَ الدهرُ فُرْصَتَه فرمَى فؤاداً غيرَ مُحترِس
كم من دُموعٍ لا تجفُّ ومن نَفَسٍ عليكِ طويلةِ النَّفَس
أبكيكِ ما ناحتْ مُطوَّقةٌ تحت الظَّلام تنوحُ في الغَلَس
يا مُلْكُ فيَّ وفيكِ مُعتبَرٌ ومواعِظٌ يُوحِشْنَ ذا الأُنُس
ما بعدَ فُرقةِ بينِنا أبدًا في لَذَّةٍ دَرَكٌ لِمُلتمِس

وأخَذَ ما في صدرِ هذا الكلامِ من قولِ القائلِ :

رُبَّ مَغْروسٍ يُعاشُ به فقدَتْهُ كفُّ مُغترِسِهْ
وكذاكَ الدهرُ مأتمُهُ أقربُ الأشياء من عُرُسِهْ

وقريبٌ من هذا قولُ امرأةٍ شريفةٍ ترثِي زوجَها – ولم يكن دخل بها(1) :

أبكيكَ لا للنَّعيمِ والأنسِ بل للمَعالِي والرُّمحِ والفرسِ
أبكي على فارسٍ فُجِعْتُ به أرمَلَني قبلَ ليلةِ العُرُسِ
يا فارسًا بالعـــراء مُطَّرَحًا خانَتْهُ قُوَّادُهُ مع الحرسِ

---

(1) نسبه بعضهم إلى لبانة بنت موسى الهادى فى محمد الأمين .

ابنِك تبكِي ؟ قال : لا ، قلتُ : فعلَى أبيك ؟ قال : لا ، ولا على نَسيبٍ ولا صَديق ، ولكنْ علَى مَن هو أخَصُّ منهما ، قلتُ : أوَ يكونُ أحدٌ أخَصَّ ممن ذكرتَ ؟ قال : نعم ، مَنْ أُخْبِرُكَ عنه ، إنَّ هذا المَدْفونَ كان عدوًّا لِي من كل بابٍ ، يَسْعَى عليَّ فى نفسِي وفى مالِي وفى ولدِي ، فخرجَ إلى الصَّيْدِ أيْأسَ ما كنتُ من عطَبِهِ ، وأكملَ ما كان من صحتِهِ ، فرمَى ظَبياً فأقصدَه[1] ، فذهبَ ليأخذَه ، فإذا هو قد أنفذَه حتى نَجَمَ[2] سهمهُ من صَفْحةِ الظَّبْي[3] ، فعثَرَ فتلقَّى بفؤادِه ظُبَةَ[4] السَّهْمِ ، فلحِقَه أولياؤه فانتزعُوا السهمَ وهو والظَّبيُ مَيِّتانِ ، فنمى إليَّ خبرُه ، فأسرعتُ إلى قبره مُغْتَبِطاً بفقدِه ، فإنِي لَضاحِكُ السِّنِّ ، إذْ وقعتْ عينِي على صخرةٍ ، فرأيتُ عليها كتاباً ، فهلُمَّ فاقرأْه ، وأوْمأَ إلى الصخرة ، فإذا عليها :

وما نَحْنُ إلاَّ مِثْلُهُمْ غيرَ أننا أقمْنا قليلاً بعدَهمْ وتقدَّمُوا

قلتُ : أشهدُ أنكَ تبكِي علَى مَنْ بُكاؤكَ عليه أحقُّ من النَّسيبِ .

[مراثى يعقوب بن الربيع فى جارية له]

ومما استطرفنَا من شعر المُحْدَثِينَ قولُ يعقوبَ بنِ الرَّبيعِ فى جاريةٍ طالبَها سبعَ سنينَ ، يَبْذُلُ فيها جاهَه ومالَه وإخوانَه حتى مَلكَها ، فأقامت

---

(١) أقصده : لم يخطئه .
(٢) نجم سهمه : ظهر وبرز .
(٣) صفحة الظبى : جانبه .
(٤) ظبة السهم : حده .

ومن مليح شعره أيضاً قوله :

فُجِعْتُ بمِلْكٍ وقد أَيْنَعَتْ ... وتمَّتْ فأَعْظِمْ بها من مُصِيبَهْ !

فأصبحتُ مُغْــتَرِبًا بعدَها ... وأمستْ بحُلْوانَ مِلْكُ غريبَهْ [1]

أراني غريبًا وإن أصبحَتْ ... منازلُ أهلي مِــنّى قريبَهْ

خلفتُ على أختِها بعدَها ... فصادفتُها ذاتَ عقلٍ أديبَهْ

فأقبلتُ أبكي وتبكي معي ... بُكاءَ كئيبٍ بحزنٍ كئيبَهْ

وقلتُ لها مَرْحبًا مرحبًا ... بوجهِ الحبيبةِ أُختِ الحبيبَهْ

سأُصْفيكِ وُدِّي حِفاظًا لها ... فذاكِ الوفاءُ بظهرِ المَغيبَهْ

أراكِ كمِلْكٍ وإن لم تكنْ ... لمِلْكٍ من الناسِ عندي ضَرِيبَهْ

[مرثية يزيد المهلبي في المتوكل]

ومما اخترنا من مَرْثِيَةِ يزيدَ المُهَلَّبِيِّ للمتوكِّل على الله قوله :

لا حُزْنَ إلّا أراهُ دونَ ما أجدُ ... وهل كمَنْ فقدَتْ عيناىَ مُفْتَقَدُ !

لا يَبْعَدَنْ هالكٌ كانتْ مَنِيَّتُهُ ... كما هَوَى عن غِطاءِ الزُّبْيةِ الأسَدُ [2]

لا يَدْفَعُ الناسُ ضَيْمًا بعدَ ليلتِهِمْ ... إذْ لا تَمُدُّ إلى الجانِي عليكَ يَدُ

لو أنَّ سيفِي وعقلِي حاضِرانِ له ... أبليتُهُ الجُهْدَ إذْ لم يُبْلِهِ أحَدُ

جاءتْ مَنِيَّتُهُ والعينُ هاجِعةٌ ... هلّا أتتْهُ المنايا والقَنا قِصَدُ ! [3]

---

(١) حلوان : مدينة في آخر حدود العراق .

(٢) الزبية : حفيرة تحفر للأسد في عال من الأرض تغطى ، فيمر بها الأسد فيهوى ويصاد .

(٣) قصد : جمع قصدة ؛ وهي ما تكسر من الرماح .

مَنْ لليتامَى إذا هُمُ سَغِبُوا ... وكلِّ عانٍ وكُلِّ مُحتَبَسِ!
أم مَنْ لِبِرٍّ أم مَنْ لفائدةٍ ... أم مَنْ لِذِكرِ الإلهِ والغَلَسِ!

* * *

ومما أستطرفه من شعر يعقوب قوله :

ليتَ شِعْرِي بأيِّ ذنبٍ لِمُلْكٍ ... كانَ هَجْرِي لِقبرِها واجْتِنابي!
ألِذَنْبٍ حَقَدْتُهُ كانَ منها ... أم لِعِلْمِي بشُغْلها عن عِقابي!
أمْ لأمْنِي لِسُخْطِها ورِضاها ... حينَ واريتُ وَجْهَها في الترابِ!
ما وَفَى في العبادِ حيٌّ لِمَيْتٍ ... بعدَ يأسٍ منه له في الإيابِ.

وفي هذا الشعر :

إنما حَسْرَتي إذا ما تَذَكَّرْ ... تُ عَنائي بها وطولَ طِلابي.
لم أزَلْ في الطِّلابِ سبعَ سنينٍ ... أتأتّى لِذاكَ من كلِّ بابِ (١)
فاجتمعنا على اتفاقٍ وقَدْرٍ ... وغَنِينا عن فُرْقةٍ باصطحابِ
أشهُرًا ستّةً صَحِبْتُكِ فيها ... كُنَّ كالحُلْمِ أو كلَمعِ السَّرابِ
وأتاني النَّعِيُّ منكِ مع البُشْـــرَى فيا قُرْبَ أوْبةٍ من ذهابِ!

* * *

ومن مَليحِ شعرِه قوله يرثيها :

حتى إذا فَتَرَ اللسانُ وأصبحتْ ... للموتِ قد ذَبَلَتْ ذُبولَ النَّرْجِسِ،
وتَسَهَّلَتْ منها محاسنُ وجهِها ... وعَلا الأنينُ تَحُثُّهُ بتنفُّسِ،
رَجَعَ اليقينُ مَطامِعِي يأسًا كما ... رَجَعَ اليقينُ مَطامِعَ المُتَلمِّسِ، (٢)

---

(١) أتأتّى : أتعرض له .   (٢) المتلمس : المتطلب .

إذا قريشٌ أرادوا شدَّ مُلْكِهِمُ بغيرِ قحطانَ لم يَبرحْ به أوَدُ

قد وُتِرَ الناسُ طرًّا ثمَّ قد صمتوا حتى كأنَّ الذى نِيلُوا به رَشَدُ

مِنَ الأُلى وَهَبُوا للمجدِ أنفسَهم فما يُبالونَ ما نالُوا إذا حُمِدُوا

* * *

[قال أبو الحسن قوله : « قارِتٌ » ، يقال : « قَرِتَ الدمُ يقْرُتُ قُرُوتاً » ودَمٌ قارِتٌ » قد يَبِسَ بين الجِلْدِ واللحم ، ومِسْكٌ قارتٌ ، وهو أخفُّه وأجودُهُ ، قال :

* يَعُلُّ بقرَّاتٍ من المِسْكِ قاتِنِ *

و قرَّاتٌ ، « فعَّالٌ » ، و قاتِنٌ ، مِسْكٌ قاتِنٌ قد قَتَنَ قُتُوناً أي يابسٌ لا نُدوَّة فيه].

هلّا أتتهُ أعاديهِ مُجاهرةً — والحربُ تستعرُ والأبطالُ تجتلِدُ

فخرّ فوقَ سريرِ المُلكِ مُنجدِلاً — لم يَحمِهِ مُلكُهُ لمّا انقضى الأمَدُ

قد كان أنصارُه يحمونَ حوزتَهُ — وللرّدى دونَ أرصادِ الفتى رَصَدُ (١)

وأصبحَ الناسُ فوضى يَعجَبونَ له — ليثاً صريعاً تنزّى حولَهُ النَّقَدُ (٢)

علتكَ أسيافُ مَنْ لا دونَه أحَدٌ — وليسَ فوقكَ إلّا الواحدُ الصمَدُ

جاءوا عظيماً لِدُنيا يسعَدون بها — فقد شقوا بالذى جاءوا وما سعِدوا

ضجّتْ نساؤُكَ بعدَ العِزِّ حينَ رأتْ — خدّاً كريماً عليه قارتٌ جسِدُ

أضحى شهيدُ بنى العباسِ موعظةً — لكلِّ ذى عِزّةٍ فى رأسِهِ صَيَدُ (٣)

خليفةٌ لم يَنلْ ما نالَهُ أحدٌ — ولم يضعْ مثلَهُ رُوحٌ ولا جسَدُ

كم فى أديمِكَ مِنْ فوهاءَ هادرةٍ — من الجوائفِ يَغلِى فوقَها الزَّبَدُ (٤)

إذا بُكيتَ فإنّ الدمعَ مُنهمِلٌ — وإنْ رُثيتَ فإنّ القولَ مُطّرِدُ

قد كنتُ أُسرفُ فى مالى وتُخلِفُ لى — فعلّمتنِى الليالى كيفَ أقتصِدُ

لمّا اعتقدْتُمْ أناساً لا حُلومَ لهمْ — ضِعتُمْ وضيّعتُمُ مَنْ كانَ يُعتقَدُ

ولو جعلتُم على الأحرارِ نعمتَكمْ — حمتكُمُ السادةُ المذكورةُ الحُشُدُ

قومٌ همُ الجِذمُ والأنسابُ تجمعُهمْ — والمجدُ والدينُ والأرحامُ والبلَدُ (٥)

---

(١) الرصد: القوم الراصدون.

(٢) تنزى: تثب؛ والنقد: جنس من الغنم قصار الأرجل.

(٣) الصيد: مصدر صيد يصيد، فهو أصيد. والأصيد: الذى يرفع رأسه كبراً

(٤) فوهاء: يريد طعنة واسعة. وهادرة، من هدر الشراب: إذا غلا وقذف بالزبد. والجوائف: جمع جائفة؛ وهى التى تبلغ الجوف.

(٥) الجذم: الأصل.

ومن اليمن من غيرهم عبد الله بن الطُفَيْل الأزدِيُّ ثم الدَّوْسِيُّ ذو النُّور ، أعطاه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم نورًا فى جبينه لِيَدْعُوَ به قومَه ، فقال : يا رسول الله ، هذه مُثْلَة [١] ، فجعله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى سَوْطِه ، فلما وَرَدَ على قومه بالسَّرَاةِ [٢] جعلوا يقولون : إنَّ الجبلَ لَيَلْتَهِبُ ، وكان أبو هريرة ممن اهتدَى بتلك العلامة .

ومنهم ، ثُمَّ من خُزاعة ، ذو اليَدَيْن ، سماه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ذا اليدين ، وكان قبلُ يُدْعَى ذا الشمالين ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلَّى بهم الظُّهْرَ فسلَّم فى الركعةِ الثانية ، فقال ذُو اليدين : يا رسولَ الله ، أَقَصُرَتِ الصلاةَ أم نَسِيتَ ؟ فقال : ما كان ذاكَ ، فقال : بَلَى يا رسول الله ، فالتفتَ إلى أصحابه فقال : ما يقولُ ذو اليدين ؟ فقالوا : صَدَقَ يا رسولَ الله ، فنهض فأتمَّ ، ثم قال : إنِّى لأَنْسَى أو أُنَسَّى لِأَسْتَن [٣] .

(١) مثلة ، أى تنكيل .
(٢) السراة : الجبل المشرف على عرفة ، ويمتد إلى صنعاء .
(٣) لأستن ؛ من السنن وهو المذهب .

بابٌ

ذكرِ الأذواءِ من اليمنِ في الإسلام

فأمّا في الجاهلية فيكثُرونَ ، نحو ذِي يزَنٍ ، وذي كَلاعٍ ، وذي نوَاس ، وذي رُعَيْنٍ ، وذي أصْبَحَ ، وذي المَنارِ ، وذي القرْنَيْنِ .

فأمّا في الإسلام ، فمنهم خُزَيْمة بن ثابتٍ ذو الشهادتين ، سمَّاهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أنصاريّ .

ومنهم قتَادةُ بن النّعمانِ الأنصاريُّ ذو العَيْنِ ، كانت عَيْنُه أُصِيبتْ فرَدَّها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت أحسنَ عينيه ، وكانت تعتَلُّ عينهُ الصحيحةُ فلا تعتَلُّ المردودةُ معها .

ومنهم أبو الهَيْثَمِ بنُ التَّيِّهانِ الأنصاريُّ ذو السَّيفينِ ، كان يتقلَّدُ سيفينِ في الحربِ .

ومنهم حُبَابُ بن المُنذِرِ بن الجَمُوحِ ذو الرأيِ ، وهو صاحب المَشُورةِ يومَ بدرٍ ، أخذ برأيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وكانتْ له آراء في الجاهلية مشهورة .

ومنهم سَعْدُ بنُ صُفَيْحٍ ذو السِّبالِ .

ومنهم ذو المُشَهَّرَة ، وهو أبو دُجانَةَ سِماكُ بنُ خَرَشَةَ ، وكانت له مُشَهَّرة إذا لبسها وخرجَ يختالُ بين الصَّفَّيْنِ لم يُبْقِ ولم يَذَرْ .

وكلُّ هؤلاء من الأنصارِ .

فخوج فأصيب ، ففي ذلك يقولُ الأحوص بن محمد بن عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح حَمِيِّ الدَّبْرِ[1] ، وكان خالَ أبيه :

غَسَلَتْ خالِيَ الملائكةُ الأبـ ـرارُ مَيْتاً أكرِمْ به من صريعِ !

وأنا ابنُ الذي حَمتْ ظهرَه الدَّبْـ ـرُ قتيلِ اللِّحيانِ يومَ الرَّجيعِ !

ومنهم حارثةُ بن النُّعمانِ ، رأى جبريلَ صلى الله عليه وسلم مرّتين وأقرأه جبريلُ السلامَ

ومنهم ، ثمَّ من خُزاعةَ عِمْرانُ بن حُصَينِ ، كانت تصافحه الملائكةَ وتَعودُهُ ، ثم افتقدَها ، فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، إن رجالاً كانوا يأتونني لم أرَ أحسَنَ منهم وُجوهاً ، ولا أطيبَ أرواحاً ، ثم قد انقطعوا عني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصابكَ جُرْحٌ فكنتَ تكتُمه ؟ فقال : أجَلْ ، قال : ثم أظهرتَهُ ؟ قال : قد كان ذلك ، قال : أمَا لو أقمْتَ على كتمانِهِ لزارتكَ الملائكةُ إلى أن تموتَ .

ومنهم جَرِيرُ بن عبد الله البَجَليُّ ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَطْلُعُ عليكم من هذا الفجِّ خيرُ ذي يَمَنٍ ، عليه مَسْحَةُ مَلَكٍ »

ومنهم دِحْيَةُ بن خليفةَ الكَلْبيُّ ، كان جبريلُ صلى الله عليه وسلم يَهْبِطُ في صورته ، فمن ذلك يوم بني قُرَيْظَةَ ، لمّا انصرفَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من الخَنْدَقِ وهبَطَ عليه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد

---

(١) الدبر : النحل .

وهذه تسمية من كانَ بينَه وبين الملائكةِ

سَبَبٌ من اليمَانية

منهم سعدُ بن مُعاذٍ الأنصاريُّ ، وهبط لموته سبعون ألفَ ملكٍ لم يهبطوا إلى الأرض قبلها ، وقبَضَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من رجليه فى المشى لئلاّ يَطأَ على جَنَاحِ مَلكٍ ، واهتزَّ لموته عرشُ الله جلّ وعزّ . وفى ذلك يقولُ حسانُ :

وما اهتزَّ عرشُ الله مِنْ مَوْتِ هالكٍ سَمِعْنا به إلاّ لِسَعْدٍ أبى عَمْرِو

وكبَّرَ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعًا ، كما كبَّر على حمزة بن عبد المطّلب ، وشَمّ من تُراب قبرِه رائحةَ المسكِ

ومنهم حسانُ بن ثابتٍ الأنصاريُّ ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اهْجُهُمْ ورُوحُ القُدُس معك » وقال فى حديثٍ آخر : « إن الله مُؤيِّدٌ حسَّانًا بروح القُدُس ما نافح عن نبيه » . وقالت عائشةُ : كان يوضع لحسانَ مِنبرٌ فى مُؤخّرِ المسجد فيُنافحُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنهم حَنْظلةُ بن أبى عامر الأنصاريُّ ، غسَّلته الملائكةُ ، وذاك أنه خرج يوم أُحُدٍ فأُصِيبَ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صاحبُكم هذا قد غسَّلَتْهُ الملائكةُ » ، فسُئِلَ عن ذاك ، فقالت امرأتُه : كانَ معى على ما يكونُ الرجلُ مع امرأتِه ، فأعجلَتْهُ حطَمَةٌ بأخته فى المسلمين ،

وهذا باب قد تقدَّم ذِكْرُنا إيَّاه ووَعَدْنا استقصاءَه

[الفرق بين تعريف الحيوان وتنكيره وبين تذكيره وتأنيثه]

قال أبو العباس : اِعْلَمْ أَنَّ كلَّ شيء من الحيوانِ ، كان مما يُخْبِرُ الناسُ عنه كما يخبرون عن أنفسهم ومما يَقْتَنُونَه ويتَّخذونه ، فهم حاجة إلى الفَصْلِ بين معرفتِه ونكرتِه ومُذَكَّره ومؤَنَّثه ، تقول : جاءني رجلٌ إذا لم تَدْرِ مَنْ هو بعينه ، أو دَرَيْتَ فلم تُرِدْ أن تُبَيِّنَ . ثم تُعَرِّفُهُ لصاحبك إذا أردتَ ذلك إمَّا بألفٍ ولامٍ ، وإمَّا باسمٍ معروفٍ ، أو إضافةٍ أو غير ذلك .

وكذلك يَنْفصِلُ الناسُ بين الخيل بأسماء أو نعوتٍ يَعْرِفُون بها بعضَها من بعضٍ ، وكذلك الشاء والكلابُ والإبلُ ، ولولا تمييزُ بعضِها من بعضٍ لم يَسْتَقِمِ الإخبارُ عنها والاختصاصُ بما أُرِيدَ منها ، فإذا كان الشيء ليس مما يتَّخذونه لم يحتاجوا إلى التمييز بين بعضِه وبعض ، يقولُ الرجلُ : « رأيتُ الأسدَ » ، فليس يَعْنِي أَسَدًا بعينه ، ولكن يريدُ الواحدَ من الجنس الذى قد عَرَفتَ ، وكذلك الذئْبُ والعقربُ والحيةُ وما أشبه ذلك ، ألا ترى أنَّ ابنَ عِرْسٍ وسامَّ أَبْرَصَ وأُمَّ حُبَيْنٍ وأبا الحارثِ وأبا الحُصَيْنِ معارف لا على أن تمييزَ بعضها من بعضٍ ولكن تعريفَ الجنس وقولك : ابنُ مَخاضٍ وابنُ لَبونٍ ، وابنُ ماءٍ نكراتٌ ، لأنَّ هذا مما يتَّخِذه الناس ، و « ابنُ ماء » إنما هو مضاف إلى الماء الذى يُعرف .

أقد وَضعتم سِلاحكم ! ما وَضعتِ الملائكةُ أسلحتَها بَعْدُ ، إنّ الله يأمرُك أن تَسير إلى بني قُرَيْظَة ، وها أنذا سائرٌ إليهم فمزَلزِلٌ بهم . فأمرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الناسَ ألاّ يُصَلّوا العصر إلاّ فى بني قُرَيظة ، فجعل يَمرُّ بالناسِ فيقول : أمَرَّ بكم أحَد ؟ فيقولون : مرَّ بنا دِحْيةُ بن خليفة على بغلةٍ عليها قَطيفةٌ خَزٌّ نحو بني قُرَيظَة ، فيقول : ذاك جَبْرَئيلُ ، ثم مَرَّ دِحيةُ بعدَ ذلك ، وكان لا يزال عليه السلام فى غير هذا اليوم ينزلُ فى صورتِه ، كما ظهرَ إبليسُ فى صورة الشيخ النَّجْدِيّ .

[قال الأخفش : الحفافيثُ : ضربٌ من الحيَّاتِ يكونُ صغيرَ الجِرْمِ يَنْتَفِخُ ويَعْظُمُ وَيَنْفُخ نفخاً شديداً ، لا غائلة له][(١)]

* * *

وتقول : هذا بَطَّةٌ للذَّكر ، وهذه بَطَّةٌ للأنثى ، وهذا دَجاجةٌ ، وهذه دَجاجةٌ . قال جريرٌ :

لمَّا تذَكَّرْتُ بالدَّيْرَيْنِ أرَّقَنى صوتُ الدَّجاجِ وقرْعٌ بالنواقيسِ

يريد زُقاءَ الدُّيوكِ . فالاسم الذى يجمعهما دَجاجة للذكر والأُنثى ، ثم يَخُصُّ الذَّكر بأن يقال : ديكٌ . وكذلك تقول : هذا بقرةٌ[(٢)] وهذه بقرة[(٢)] لهما جميعاً ، وهذا حُبارَى ، ثم يُخَصُّ الذَّكر فتقول : ثَوْرٌ ، وتقولُ للذكرِ من الحُبارى : خَرَبٌ ، فعلى هذا يجرِى هذا البابُ ، وكلُّ ما لم نذكره فهذا سبيله .

* * *

---

(١) هذه الزيادة ليست فى الأصل .

(٢ — ٢) ما بين الرقمين مما لم يرد ق ر .

فإذا أردت التعريف من هذا لهذه النكرات أدخلت فيما أضيفت إليه الألفَ واللامَ ، أو لقَّبْتَها ألقاباً تُعرف بها ، كزيدٍ وعمرو .

واعلم أنَّ كلَّ جَمْعٍ مؤنثٌ ؛ لأنك تُرِيدُ معنى جماعةٍ . ولا تُذَكِّرُ من ذلك إلّا ما كان فِعْله يَجْرِى بالواو والنون فى الجمع ، وذلك كلُّ ما يَعْقِلُ ، تقولُ : مسلمٌ ومسلمون ؛ كما تقول : قومٌ يُسْلِمونَ ، وتقول للجِمَال : هِىَ تَسِيرُ وهُنَّ يَسِرْن ، كما تقول للمؤنّث ، لأن أفعالَها على ذلك ، وكذلك المَوَاتَ ، قال الله عز وجل فى الأصنام : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كثيراً من الناس ﴾(١) ، والواحدُ مذكر . وقال المفسرون فى قوله : ﴿ إِنْ يَدْعُونَ من دُونِهِ إِلّا إِناثاً ﴾(٢) قالوا : المَوَاتَ ، فكلُّ ما خَرَجَ عمَّا يَعْقِلُ فجَمْعُه بالتأنيث وفِعْلُهُ عليه ، لا يكونُ إلّا ذلك ، إلّا ما كان من باب المنقوص ، نحو « سِنِينَ وعِزِينَ » وليس هذا موضعه . وجملته أنه لا يكونُ إلا مؤنثا ، فلهذا كان يَقَعُ على بعض هذا الضرب الاسمُ المؤنّثُ ، فيَجْمَعُ الذَّكَرَ والأنثى ؛ فمن ذلك قولهم : عَقْرَب ، فهو اسمٌ مؤنث ، إلّا أنك إن عَرَّفْتَ الذَّكَرَ قلتَ : هذا عقربٌ ، وكذلك الحيةُ ، تقولُ للأنثى : هذه حيةٌ ، وللذَّكرِ هذا حَيَّةٌ ، قال جرير :

إن الحفَافِيثَ منكم يا بَنِى لَجَإٍ   يُطْرِقْنَ حيثُ يَصُولُ الحيَّةُ الذَّكَرُ

* * *

---

(١) سورة النساء ١١٧ .   (٢) سورة إبراهيم ٣٦ .

ويُرْوَى أنّ رجلا معروفا ، ذَهَبَ اسمُه عَنِّى ، قال : أتيتُ ابنَ عُمرَ فقلتُ : أتَجِبُ الجنةُ لعاملٍ بكلِّ الخيراتِ وهو مشْرِكٌ ؟ فقال : لا ، فقلتُ له : أتَجِبُ النارُ لعاملٍ بالشّرّ كلِّه وهو مُوَحِّدٌ ؟ قال : عِشْ ولا تَغْتَرَّ قال : وأتيتُ ابنَ عباس ، فسألتُه فأجابنى بمثلِ جوابه سَواءً ، وقال: عِشْ ولا تَغْتَرَّ[1]

قال : وحدثني بهذا الحديثِ القاضِي [يعني إسماعيل بن إسحاق]

[خطبة لعتبة بن أبي سفيان بالموسم]

وذكر العُتْبِىُّ - أحسَبُه عن أبيه عن هشامِ بن صالحٍ عن سَعْدِ القَصِير قال : خَطَبَ الناسَ بالمَوْسِم عُتْبَةُ فى سنة إحدَى وأربعين ، وعَهْدُ الناس حديثٌ بالفتنة[2] ، فاستفتَحَ ثم قال :

أيها الناسُ ، إنَّا قد وَلِينا هذا الموضع الذى يُضاعِفُ الله فيه للمحسنِ الأجرَ وعلى المسيء الوِزْرَ ، فلا تَمُدُّوا الأعناقَ إلى غيرنا ، فإنها تَنْقَطِعُ دونَنا ، ورُبَّ مُتَمَنٍّ حَتْفُهُ فى أُمنيَّتِه ، اقْبَلُوا العافيةَ ما قَبِلْناها منكم وفيكم ، وإياكم و « لَوْ » فقد أتْعَبَتْ مَنْ كان قبلكم ، ولن تُرِيحَ مَنْ بعدَكم ، فأسألُ الله أن يُعِينَ كُلًّا على كلٍّ . فنَعَقَ به أعرابىٌّ من مُؤَخرِ المسجدِ فقال : أيُّها الخليفةُ ! فقال : لَسْتُ به ولم تَبْعُدْ ، قال : فيا أخاهُ ! قال : قد أسمعتَ فقلْ ، فقال : واللهِ لأنْ تُحْسِنُوا وقد أسَأنا خيرٌ لكم من أن تسيئوا وقد أحْسَنَّا ، فإن كان الإحسانُ لكم فما أحقَّكم باستتمامه ، وإن كان لَنا فما أحقَّكم

(١) عش ولا تغتر : مثل يضرب فى التوصية والأخذ بالأحوط .
(٢) يريد فتنة على ومعاوية.

قال أبو العباس : وقد كُنّا أرْجأنا أشياء ذكرنا أنّا سَنَذْكرها فى آخر هذا الكتاب ، منها خُطَبٌ ومواعِظ ورسائلُ ، ونحن ذاكرونَ ما تَهيَّأ من ذلك إن شاء الله .

[خطبة لأعرابي بالبادية]

قال الأصمعيُّ فيما بلغني : خَطَبنَا أعرابىٌّ بالبادية ، فحَمِدَ الله واستغفرَه ووَحَّدَهُ وصلَّى على نبيه ، فبَلَغَ فى إيجازٍ ، ثم قال : أيُّها النَّاسُ ، إنَّ الدنيا دارُ بَلاغٍ ، وإنَّ[1] الآخرةَ دارُ قَرَارٍ ، فخُذُوا من مَمَرِّكم لِمَقَرِّكم ، ولا تهتِكُوا أستارَكم عندَ مَنْ لا تَخْفَى عليه أسرارُكم ، فى الدنيا كُنْتُمْ ، ولِغَيرِها خُلِقتُمْ ، أقولُ قولى هذا وأستغفِرُ الله لى ولكم ، والمُصَلَّى عليه رسولُ الله ، والمَدْعُوُّ له[2] الخليفةُ ، والأميرُ جعفرُ بن سليمان

[خطبة لعمر بن عبد العزيز]

وحُدِّثت فى بعض الأسانيدِ أنَّ عمرَ بن عبد العزيز قال فى خطبة له : أيُّها الناسُ ، إنما الدنيا أمَلٌ مُخْتَرَمٌ ، وأجَلٌ مُنْتَقَصٌ ، وبَلاغٌ إلى دارٍ غيرِها ، وسيرٌ إلى الموتِ ليس فيه تعريجٌ ، فرَحِمَ الله امْرَءًا فكَّرَ فى أمرِه ، ونَصَحَ لنفسِه ، وراقبَ ربَّه ، واستقالَ ذَنْبَه ، ونَوَّرَ قَلْبَه ! أيُّها الناسُ ، قد علمتم أنَّ أباكم قد أُخرِجَ من الجنة بذنب واحدٍ ، وأنَّ ربَّكم وَعَدَ على التوبة ، فليَكُنْ أحدُكم من ذنبه على وَجَلٍ ، ومن ربه على أمَلٍ

* * *

(١) ساقطة من ر .

(٢) قال المرصفى : « المدعو له الخليفة يريد به أبا جعفر المنصور وقد ولى ابن عمه جعفر ابن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس المدينة سنة ست وأربعين ومائة .

إلى النَّزْعَةِ ، ورجَعَ المُلْكُ فى نِصَابِه فى أهل بيت النبوة والرحمةِ ، والله لقد كنَّا نتوجَّعُ لكم ونحن فى فُرُشِنا . أَمِنَ الأَسْوَدُ والأَحمرُ ، لكم ذِمَّةُ الله ، لكم ذمةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكم ذمةُ العباس . لا وَرَبِّ هذه البَنِيَّة ـ وأومأ بيده إلى الكعبة ـ لا نَهِيجُ منكم أحداً .

[خطبة لمعاوية بن أبي سفيان]

قال : وخطب الناسَ معاويةُ بن أبى سفيان ، فحمِدَ الله وصلَّى على نبيه ثم قال :

أيها الناسُ ! إنِّى مِنْ زرْعٍ قد استَحْصَدَ ، ولن يأتِيَكم بعْدِى إلاَّ مَنْ أنا خيرٌ منه ، كما لم يكن قبلى إلاَّ مَن هو خيرٌ مِنِّى

[ما قاله معاوية عند موته وتعزية الناس ليزيد من بعده]

وفى غير هذا الخبر أنه قال لبناته عند وفاته : قلِّبْنَنِى ، ففعَلْنَ . فقال : إنكنَّ لتقلِّبْنَهُ حُوَّلاً قُلَّبًا إن وُقِىَ كَبَّةَ النارِ ، ثم قال متمثلاً :

لا يَبْعَدَنَّ رَبيعةُ بنُ مُكَدَّمٍ وسَقَى الغَوَادِى قَبْرَه بِذَنوب

وقال لابنةِ قَرَظَةَ[1] : ابكِيِى ، فقالت :

أَلاَ أُبكِيه أَلاَ أُبْكِيهِ أَلاَ كلُّ الفَتَى فِيهِ

فلما مات دخل الناسُ على يزيدَ يعزُّونه بأبيه ويهنِّئونه بالخلافة ، فجعلوا يقولون ، حتى دخل رجلٌ من ثقيف فقال : السلامُ عليكَ أميرَ المؤمنين

---

(١) قرظة ، هى إحدى زوجاته ؛ واسمها فاختة بنت قرظة .

بمكافأتنا ! رجلٌ من بنى عامرٍ يمتُّ إليكم بالعُمومة ، ويختصُّ إليكم بالخُؤُولة ، وقد وَطِئَهُ زمانٌ وكثرة عيال ، وفيه أجرٌ ، وعنده شُكرٌ . فقال عُتْبَةُ : أستَعِيذُ باللهِ منكَ ، وأستعينُه عليك ، قد أمَرْتُ لك بغناك ، فليتَ إسراعنا إليك ، يقومُ بإبطائنا عنكَ !

[خطبة لعتبة أيضا بمصر]

وذكر العُتبِىُّ أنَّ عُتْبَةَ خطَبَ الناسَ بمصر عن مَوْجدَةٍ ، فقال :

يا حاملِى ألأَمِ آنفٍ رُكِّبَتْ بين أعيُنٍ ، إنى إنما قَلَّمْتُ أظفارى عنكم لِيَلِينَ مَسِّى لكم ، وسألتُكم صَلاَحَكم إذْ كان فسادُكم باقياً عليكم . فأمَّا إذ أبيتم إلاَّ الطَّعْنَ على السلطان والتَّنَقُّصَ للسَّلَفِ ، فوالله لأُقَطِّعَنَّ بطونَ السِّياطِ على ظهوركم ، فإن حَسَمَتْ أدواءكم ، وإلاَّ فإن السيفَ مِن ورائكم فكم من حكمةٍ منَّا لم تَعِهَا قلوبُكم ، ومِن موعظةٍ منَّا صَمَّتْ عنها آذانُكم ، ولستُ أبخَلُ عليكم بالعقوبة إذْ جُدْتم بالمعصية ، ولا أويِسُكُمْ من مراجعة الحُسْنَى إن صرتُم إلى التى هى أبَرُّ وأتقَى .

ثم نزل .

[خطبة لداود بن على العباسى]

وذكر العُتبِىُّ أو غيرُه أن داودَ بن علىّ بن عبد الله بن العباس خطبَ الناسَ فى أول موسمٍ ملَكَهُ بنو العباس بمكة ، فقال :

شُكرًا شُكرًا ، إنَّا واللهِ ما خَرجنا لِنَحفِرَ فيكم نَهَرًا ، ولا لِنَبْنِيَ فيكم قَصْرًا ، أظَنَّ عدوُّ الله أنْ لن نَقْدِرَ عليه أن رُوخِيَ له من خِطامِهِ ، حتى عَثَرَ فى فَضْلِ زِمامِهِ ! فالآنَ حيثُ أُخذ القوسَ باريها ، وعادت النَّبْلُ

وأوَانِ العِيارة ، فَجُلْتُ فيها جَوْلة ، حتى إذا صَخَدتِ[١] الشمسُ وأَزْمَعْت[٢] بالرُّكودِ ، مِلتُ إلى غُرْفةٍ لى هفّافةٍ[٣] ، فى حَديقةٍ قد فُتِحتْ أبوابُها ، ونُضِحَ بالماءِ جوانبُها ، وفُرِشَتْ أرضُها بألوانِ الرَّياحِينِ ، من بين ضَيْمَرانٍ[٤] نافِحٍ ، وسَمْسَقٍ[٥] فائحٍ ، وأُقحُوانٍ زاهرٍ ، ووَرْدٍ ناضرٍ ، ثم أُتيتُ بخُبزِ أُرْزٍ كأنه قِطَعُ العَقيقِ ، وسَمَكٍ بُنَانِىٍّ[٦] بيضِ البُطُونِ ، زُرْقِ العُيونِ ، سُودِ المُتُون ، عِرَاضِ السُّرَرِ ، غِلاظِ القَصَرِ ، ودُقّةٍ وخُلُول ، ومُرّى وبُقول ، ثم أُتيتُ بِرُطَب أصفرَ ، صافٍ غير أكْدَرَ ، لم تَبْتَذِلْه الأيدى ، ولم يَهْشِمْهُ كَيْلُ المَكَايِيلِ ، فأكلتُ هذا ثم هذا ، فقال يزيد : يا بن صفوان ، لألفُ جريب من كلامك مزروع خير من ألف جريب مزروع .

[الرسائل التى دارت بين المنصور وبين محمد بن عبد الله بن الحسن]

ونحن ذاكرونَ الرسائلَ بين أميرِ المؤمنينَ المنصورِ ، وبين محمد بن عبد الله بن حسن العَلوىِّ ، كما وَعدْنا فى أول الكتابِ ، ونختصرُ ما يجوزُ ذكره منه ، ونُمْسِكُ عن الباقى ، فقد قيلَ : الراوية أحدُ الشّاتِمَيْنِ . قال :

لمّا خرجَ محمدُ بن عبد الله على المنصور كَتَبَ إليه المنصورُ :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبدِ الله عبد الله أمير المؤمنين ، إلى محمد بن عبد الله ، أمّا بعد :

---

(١) صخدت الشمس : اشتد حرها .
(٢) أزمعت بالركود : عزمت على السكون ؛ يريد : قامت وقت الظهيرة .
(٣) هفافة : تهف فيها الريح (٤) الضيمران : نوع من الرياحين .
(٥) السمسق : الياسمين . (٦) بنانى ؛ قال المرصفى : منسوب إلى بنانة محلة بالبصرة .

ورحمةُ الله وبركاته ، إنك قد فُجعتَ بخيرِ الآباء ، وأُعطيتَ جميعَ الأشياء ، فاصبرْ على الرزيّة ، واحمدِ الله على حُسنِ العطيَّة ، فلا أُعطِيَ أحدٌ كما أُعطيتَ ، ولا رُزِئَ كما رُزِيتَ ، فقام ابنُ همّامٍ السَّلوليُّ فأنشده شعراً كأنما قاوضه الثقفيَّ فقال :

اصبرْ يزيدُ فقد فارقتَ ذا ثقةٍ واشكرْ بلاءَ الذى بالمُلكِ أصفاكا

أصبحتَ تملكُ هذا الخلقَ كلَّهمُ فأنتَ ترعاهمُ والله يرعاكا

ما إنْ رُزِى أحد فى الناس نعلمهُ كما رُزِئْتَ ولا عُقْبَى كعقباكا

وفى معاويةَ الباقى لنا خَلَفٌ إذا نُعيتَ ولا نسمعْ بمنعاكا

الحُوَّلُ ، معناه ذو الحيلة والقُلَّب : الذى يُقلِّبُ الأمورَ ظهراً لبطن

وقوله : « إن وُقِيَ كَبَّةَ النار » فكَبَّةُ النار مُعظمُها ، وكذلك كبّة الحرب ، ويقال : لقيتُه فى كَبَّةِ القوم ، ويُرْوَى عن بعض الفرسان أنه طعنَ رجلاً فى حربٍ فقال: طعنتُه فى الكَبَّةِ ، فوضعتُ رمحى فى اللبّةِ ، وأخرجتُه من السَّبَّة . والسَّبَّةِ : الدُّبُرُ .

[حديث خالد بن صفوان عن الطعام]

ويروَى أن خالد بن صفوانَ دخل على يزيدَ بن المهلّبِ وهو يتغدَّى ، فقال : ادْنُ فكُلْ يا أبا صفوانَ . فقال : أصلح الله الأميرَ ! لقد أكلتُ أكلة لستُ ناسيها ، قال : وما أكلتَ ؟ قال : أتيتُ ضيعتى لإبّانِ الغِراس

شيعًا يَستضعِفُ طائفة منهم يُذَبِّحُ أبناءهم ويَستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نَمُنَّ على الذين استُضعِفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكّن لهم فى الأرض ونُرِىَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون »[١] ، وأنا أعرِضُ عليك من الأمان مثلَ الذى أعطيتني ، وقد تعلَمُ أنَّ الحقَّ حقُّنا ، وأنكم إنما طلبتموه بنا ، ونهضتم فيه بشيعتنا ، وخبطتموه[٢] بفضلنا ، وأنَّ أبانا عليًّا عليه السلام كان الوصىَّ والإمامَ ، فكيفَ ورِثتموهُ دوننا ونحن أحياء ! وقد علمتَ أنه ليس أحدٌ من بنى هاشم يَمُتُّ بمثل فضلِنا ، ولا يَفخرُ بمثل قديمِنا وحديثنا ونَسَبِنا وسَبَبِنا ! وأنا بَنو أمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمةَ بنتَ عمرو فى الجاهلية دونكم ، وبنو ابنتِه فاطمةَ فى الإسلام مِنْ بينكم .

فأنا أوسَطُ بنى هاشمٍ نَسَبًا ، وخيرُهم أُمًّا وأبًا ، لم تَلِدْنِي العجَمُ ، ولم تُعرِقْ فِيَّ أمهاتُ الأولادِ ، وأنَّ الله تبارك وتعالى لم يزَلْ يختارُ لنا ، فولَدَنِي من النبيين أفضلُهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن أصحابه أقدمُهم إسلامًا ، وأوسعهُم علمًا ، وأكثرُهم جهادًا ، علىُّ بن أبى طالب ، ومن نسائِه أفضلُهنَّ خديجةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ ، أولُ من آمن بالله وصَلَّى القبلةَ ، ومن بناتِه أفضلُهنَّ وسيدةُ نساء أهلِ الجنة ، ومن المولودِين فى الإسلام الحسنُ والحسينُ سيِّدَا شبابِ أهلِ الجنة . ثم قد علمت أنَّ هاشمًا وَلَدَ عليًّا مرَّتَيْنِ ، وأن عبد المطلب وَلَدَ الحسنَ مرتين ، وأنَّ رسولَ

---

(١) سورة القصص ١ — ٥

(٢) خبطتموه ، قال المرصفى : « من الخبط ، وهو فى الأصل ضرب الشجر بعصا لتتناثر ورقه فتطعمه الدواب ؛ يريد : جاهدوا فيه حتى جنوا ثماره » .

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ. ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[1]. ولكَ عهدُ اللهِ وذمّتُهُ وميثاقُهُ وحقُّ نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ؛ إنْ تُبْتَ من قبْلِ أنْ أَقْدِرَ عليك أن أؤمِّنَكَ على نفسِكَ وولَدِكَ وإخوتِكَ ومَن بايَعَكَ وتابَعَك وجميعَ شيعَتِكَ ، وأن أُعطيَك ألفَ ألفِ درهمٍ ، وأُنْزِلَكَ من البلادِ حيثُ شئْتَ ، وأقْضِيَ لكَ ما شئْتَ من الحاجاتِ . وأن أُطْلِقَ مَنْ في سجني من أهلِ بيتِكَ وشيعتِكَ وأنصارِكَ ، ثم لا أَتَتَبَّعَ أحداً منكم بمكروهٍ . فإن شئْتَ أن تتَوَثّقَ لنفسِكَ ، فوَجِّهْ إلَيَّ مَنْ يأخذُ لكَ من الميثاقِ والعهدِ والأمانِ ما أحببتَ ، والسلامُ :

***

فكتب إليه محمدُ بن عبد الله .

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله محمد المهديِّ أميرِ المؤمنين إلى عبد الله ابن محمد :

أما بعدُ : ﴿ طسم . تلكَ آياتُ الكتابِ المبينِ . نَتْلُو عليكَ من نبإِ موسى وفرعونَ بالحقِّ لقومٍ يؤمنونَ . إنّ فرعونَ عَلاَ في الأرضِ وجعَلَ أهلَها

(١) سورة المائدة ٣٣ ، ٣٤ .

السلام : ﴿ واتَّبعْتُ مِلّةَ آبائي إبراهيم وإسماعيلَ وإسْحاقَ ويَعْقُوبَ ﴾،[١] ولقد علمتَ أنّ الله تبارك وتعالى بعثَ محمداً صلى الله عليه وسلم وعُمومته أربعة ، فأجابه اثنانِ : أحدُهما أبي[٢] . وكفرَ اثنانِ[٣] أحدُهما أبوكَ .

فأمّا ما ذكرتَ من النساء وقراباتِهنّ فلو أُعطِينَ على قُرْبِ الأنسابِ وحقِّ الأحْسابِ لكانَ الخيرُ كلّه لآمِنةَ بنتِ وَهْبٍ ، ولكنّ الله يختارُ لدينه مَنْ يشاء مِن خَلْقِه .

فأمّا ما ذكرتَ من فاطمةَ أمّ أبي طالب ، فإن الله لم يهْدِ أحداً من ولدها للإسلامِ ، ولو فعَلَ لكانَ عبدُ الله بن عبد المطّلِبِ أَوْلاَهُمْ بكلِّ خيرٍ في الآخرةِ والأولى ، وأسعدَهم بدخول الجنة غداً ، ولكنّ الله أبَى ذلك فقال : ﴿ إنّك لا تَهْدِي مَنْ أحببتَ ولكنّ الله يَهْدِي من يشاء ﴾[٤].

فأمّا ما ذكرتَ من فاطمةَ بنتِ أسَدٍ أمّ عليّ بن أبي طالب وفاطمةَ أم الحسنِ وأنّ هاشماً وَلد عليّاً مرتين ، وأنّ عبدَ المطلب وَلَد الحسن مرتين ، فخيرُ الأوّلين والآخِرينَ محمّدٌ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لم يَلِدْهُ هاشمٌ إلاّ مَرّةً واحدةً ، ولم يَلِدْهُ عبد المطلب إلاّ مرةً واحدةً .

وأما ما ذكرتَ من أنك ابنُ رسولِ الله ، فإن الله عزّ وجل أبَى ذلك فقال: ﴿ ما كانَ محمّدٌ أبا أحَدٍ من رِجالِكم ولكنْ رسولَ الله وخاتمَ النبيّينَ ﴾[٥] ،

---

(١) سورة يوسف ٣٨

(٢) هما الحمزة والعباس

(٣) هما أبو طالب وأبو لهب .

(٤) سورة القصص ٥٦

(٥) سورة الأحزاب ٤٠

الله صلى الله عليه وسلم ولدني مرتين ، من قِبَلِ جَدَّيَّ الحسنِ والحسين ، فما زال الله يختار لى حتى اختارَ لى فى النار ، فولدني أرفعَ الناس درجة فى الجنة ، وأهونُ أهلِ النار عذاباً ، فأنا ابنُ خيرِ الأخيار وابنُ خير الأشرارِ ، وابنُ خيرِ أهلِ الجنة وابنُ خيرِ أهل النارِ .

ولك عهدُ الله إنْ دخلتَ فى بَيْعَتِى أن أُؤَمِّنَكَ على نفسِك وولدِك وكل ما أصبتَهُ ، إلا حَدًّا من حدودِ الله ، أو حقًّا لمسلمٍ أو مُعاهِدٍ ، فقد علمتَ ما يَلْزَمُكَ فى ذلك ، فأنا أوْفى بالعهد منكَ ، وأحْرَى لِقبُول الأمان .

فأمَّا أمَانُكَ الذى عرضتَ علىَّ فأىُّ الأمانات هو ! أأمانُ ابنِ هُبَيْرَةَ؟[1] أم أمانُ عمِّكَ عبدِ الله بن علىّ[2] ؟ أم أمانُ أبى مُسْلِمٍ[3] ! والسلامُ .

* * *

فكتب إليه المنصور : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله ، أما بعدُ :

فقد أتانى كتابُك ، وبلغنى كلامُك ، فإذا جُلُّ فخرِكَ بالنساء ، لِتُضِلَّ به الجُفاةَ والغَوْغاءَ ، ولم يجعلِ الله النساءَ كالعُمومةِ ، ولا الآباءَ كالعَصَبَةِ والأولياء ، ولقد جَعَلَ العَمّ أباً ، وبدأ به على الوالِدِ الأدْنَى ، فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه

---

(١) هو عمرو بن هبيرة الفزارى عامل العراق لمروان بن محمد آخر ملوك بنى أمية ؛ بذل له السفاح الأمان ؛ ثم غدر به وامر أخاه المنصور بقتله سنة ١٣٢ .

(٢) هو عبد الله بن على عم المنصور ؛ كان دعا لنفسه بعد موت السفاح ؛ فحاربه المنصور ثم بعث له بأمان إن قدم عليه ؛ فلما قدم أمر بقتله هو وأصحابه سنة ١٤٠ .

(٣) أبو مسلم الخراساني ، وشى به عند المنصور ؛ فاحتال لمقدمه حتى استمكن منه ، وقتله سنة ١٣٧

طرًّا ، وقدَّمتَ نفسَكَ على مَنْ هو خيرٌ منكَ أولاً وآخِرًا ، وأصلاً وفصلا ، فخرْتَ على إبراهيمَ بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى والدِ وَلَدِه . فانظرْ ويحكَ أن تكونَ من اللهِ غداً ! وما وُلِدَ فيكم مولودٌ بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضلُ من عليّ بن الحُسَيْن ، وهو لِأُمِّ وَلَدٍ ، ولقد كان خيرًا من جَدِّكَ حسنِ بنِ حسنٍ ، ثم ابنُهُ محمدُ بن عليّ خيرٌ من أبيكَ ، وجدتُهُ أُمُّ ولدٍ ، ثم ابنُهُ جعفرٌ ، وهو خيرٌ منكَ ، ولقد علمتَ أن جدَّكَ عليًّا حكّمَ حَكَمَيْنِ وأعطاهما عهدَه وميثاقَهُ على الرِّضا بما حَكَمَا به ، فاجتمعا على خَلْعِه ، ثم خَرَجَ عمُّكَ الحسينُ بن عليّ على ابنِ مَرْجَانَة[1] ، فكان الناسُ الذين معه عليه حتى قتلوه ، ثم أتوا بكم على الأقتاب[2] بغير أوطِيَةٍ ، كالسَّبْيِ المجلوبِ ، إلى الشأم .

ثم خرج منكم غيرُ واحدٍ فقتَلَتْكم بنو أُمَيَّةَ ، وحَرَّقوكم بالنار ، وصَلَبُوكم على جُذُوعِ النخل ، حتى خرجنا عليهم ، فأدركنا بثأرِكم إذْ لم تُدرِكوه ، ورفعنا أقدارَكم ، وأورثناكم أرضَهم وديارَهم ، بعدَ أن كانوا يلعنون أباكَ فى أدبارِ الصلاةِ المكتوبة كما تُلْعَنُ الكَفَرَةُ ، فعَنَّفْناهم وكَفَّرْناهم ، وَبَيَّنَّا فضلَه ، وأَشَدْنا بذِكرِه ، فاتّخذتَ ذلك علينا حجةً ، وظننتَ أنَّا لِمَا ذكرنا من فضلِ عليٍّ أنَّا قدَّمْناه على حمزةَ والعباس وجعفر ، كلٌّ أولئكَ مَضَوْا سالمينَ مُسَلَّماً منهم ، وابتُلِيَ أبوكَ بالدماء ، ولقد علمتَ

---

(١) ابن مرجانة : هو عبيد الله بن زياد .

(٢) الأقتاب : جمع قتب ؛ وهو الرحل على قدر سنام البعير .

ولكنكم بَنو ابْنَتِهِ ، وإنها لقَرَابة قريبة ، غيرَ أنها امرأة لا تحوزُ الميراث ، ولا يجوزُ أن تؤمَّ ، فكيفَ تورَثُ الإمامَةُ من قِبَلِها ؟ ولقد طلبَ بها أبوك بكل وجهٍ ، فأخرجها تخاصِمُ ، ومرَّضها سِرّاً ، ودفنها ليلاً ، فأبى الناسُ إلاّ تقديمَ الشيخين[1] . ولقد حضر أبوك وفاةَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فأمَرَ بالصلاة غيرَهُ ، ثم أخذَ الناسَ رجلاً رجلا ، فلم يأخذوا أباكَ فيهم ، ثم كان في أصحابِ الشورَى فكلٌّ دفعَهُ عنها ، بايع عبدُ الرحمنِ عثمانَ وقبلها عثمانُ ، وحارب أباكَ طلحةُ والزُّبَيْرُ ، ودعا سعداً[2] إلى بيعتِه فأغلق بابه دونه ، ثم بايَعَ معاويةَ بعدَه ، وأفضَى أمرُ جدِّكَ إلى أبيكَ الحسنِ ، فسلّمه إلى معاويةَ بخِرَقٍ ودراهمَ ، وأسْلَمَ في يديه شيعَتَهُ ، وخرج إلى المدينة ، فدفعَ الأمرَ إلى غير أهله ، وأخذ مالاً من غير حِلِّهِ ، فإن كان لكم فيها شيءٌ فقد بعتموه .

فأما قولُكَ : إنَّ الله اختار لكَ في الكفر ، فجعل أباك أهونَ أهل النار عذاباً ، فليس في الشرِّ خيارٌ ، ولا مِنْ عذابِ الله هيِّنٌ ، ولا ينبغى لمسلمٍ يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ أن يفخرَ بالنارِ ، وسَتَرِدُ فتعلَمُ . ﴿ وسيعلمُ الذينَ ظلموا أيَّ مُنقلَبٍ ينقلِبونَ ﴾[3]

وأما قولُكَ : إنكَ لم تَلِدْكَ العجمُ ولم تَعرِقْ فيك أمهاتُ الأولادِ وأنك أوسطُ بني هاشمٍ نسبًا وخيرُهم أمًّا وأبًا ، فقد رأيتك فخرتَ على بني هاشم

---

(١) هما أبو بكر وعمر .

(٢) هو سعد بن أبي وقاص .

(٣) سورة الشعراء ٢٢٧ .

وكان سببُ هذه الرسالةِ إفراطَ خالدٍ فى الدالّةِ على هشامٍ ، وأنه أخذ ابن حسّانَ النَّبَطِيَّ فضربه بالسِّياط ، وكان يقال له سُهَيْلٌ ، قال : فبعث بقميصه إلى أبيه وفيه آثارُ الدم ، فأدخله أبوه إلى هشامٍ ، مع ما قد أَوْغَرَ صدرَ هشامٍ عليه من إفراط الدالَّة ، واحتجانِ الأموال ، وكُفْرِ ما أَسْداه إليه من توليته إياه العِراقَ ، فكتبَ هشامٌ إلى خالدٍ :

بسم الله الرحمن الرحيم

أمّا بعدُ ، فقد بلغ أميرَ المؤمنين عنك أمرٌ لم يَحْتَمِلْه لكَ ، إلاّ لِمَا أَحَبَّ من رَبِّ[1] الصَّنيعةِ قِبلَكَ ، واستِتمامِ معروفِه عندكَ . وكان أميرُ المؤمنين أحقَّ مَنِ استَصْلَحَ ما فَسَدَ عليه منك ، فإن تَعُدْ لمثلِ مقالَتِك وما بلغَ أميرَ المؤمنين عنكَ ، رأَىَ فى معاجلتك بالعقوبة رَأْيَه .

إنَّ النعمةَ إذا طالتْ بالعبد مُمْتَدَّةً أَبطَرَتْهُ ، فأساءَ حَمْلَ الكرامة ، واستَقَلَّ العافيةَ ، ونَسَبَ ما فى يديه إلى حيلتِه وحَسَبِه وبيتِه ورَهْطِه وعَشيرتِه ، فإذا نَزَلَتْ به الغِيَرُ ، وانكشطتْ عنه عَمايةُ الغَىِّ والسلطانِ ، ذَلَّ مُنقادًا ، ونَدِمَ حَسيراً ، وتَمَكَّنَ منه عدوُّه قادرًا عليه قاهراً له ، ولو أرادَ أميرُ المؤمنين إفسادَكَ لَجَمَعَ بينَكَ وبين من شَهِد فَلَتاتِ خَطَلِكَ . وعظيمَ زَلَلِكَ ، حيثُ تقول لجلسائكَ : « واللهِ ما زادتني وِلايةُ العراق شَرَفًا ، ولا ولّاني أميرُ المؤمنين شيئاً لم يكن مَنْ قَبْلِي ممن هو دُوني يَلِي مثلَه » !

---

(١) ربّ الصنيعة : إصلاحها وتنميتها .

أنَّ مآثِرَنا فى الجاهلية سِقايةُ الحجيجِ الأعظمِ ، وولايةُ زمزم ، وكانتْ للعباس دونَ إخوته ، فنازَعَنا فيها أبوكَ إلى عمر ، فقضَى لنا عمرُ عليه ، وتُوُفِّىَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وليس من عُمومتِه أحدٌ حيًّا إلاَّ العباسُ ، فكان وارِثَه دونَ بنى عبد المُطَّلِبِ ، وطَلَبَ الخلافةَ غيرُ واحدٍ من بنى هاشمٍ ، فلم يَنَلْها إلاَّ وَلَدُه ، فاجتمع للعباسِ أنه أبو رسولِ الله صلى الله عليه وسلم خاتِم الأنبياءِ ، وبَنُوهُ القادة الخلفاء ، فقد ذهب بفضلِ القديمِ والحديثِ ، ولولا أنَّ العباسَ أخْرِجَ إلى بدرٍ كَرْهًا لماتَ عمَّاكَ طالبٌ وعقيلٌ جُوعًا أو يَلْحَسا جِفَانَ عُتْبَةَ وشَيْبَةَ[1] ، فأَذْهَبَ عنهما العارَ والشَّنارَ ، ولقد جاء الإسلامُ والعباسُ يَمُونُ أبا طالبٍ لِلأزْمَةِ التى أصابتْهم ، ثم فَدَىٰ عقيلًا يومَ بدرٍ . فقد مُنَّاكُمْ فى الكفرِ ، وفَدَيْناكم من الأسْرِ ، ووَرِثْنا دونَكم خاتِمَ الأنبياء ، وحُزْنا شَرَفَ الآباء ، وأدرَكْنا مِن ثأرِكم ما عَجَزْتم عنه ، ووضعناكم بِحَيْثُ لم تَضَعُوا أنفسَكم . والسلامُ .

[رسالة هشام إلى خالد بن عبد الله القسرى]

قال أبو العباس : وقد ذكرنا[2] رسالةَ هشامٍ إلى خالد بن عبد الله ، وإنَّا سنذكرها بتمامها فى غير الموضع[3] الذى ابتدأْنا ذِكْرَها أوَّلًا فيه ،

---

(١) عتبة وشيبة ابنا ربيعة من عبد شمس ؛ كانا من المطعمين لقريش يوم بدر .

(٢) قال المرصفى : « نسى أبو العباس أنه لم يذكر شيئاً منها فيما سلف ، وإنما أشار إليها بقوله هناك : « ومما يشاكل هذا المعنى ويجانس هذا المذهب ما كان من خالد بن عبد الله القسرى فإنه كان متقدما فى الخطابة ، متناهياً فى البلاغة ؛ فخرج عليه المغيرة بن سعيد بالكوفة فى عشرين رجلا فطَعطعوا ، فقال خالد : أطعمونى ماء ، وهو على المنبر ، فعير بذلك ، فكتب به هشام إليه فى رسالة يوبخه فيها ، وسنذكرها فى موضعها إن شاء الله » .

(٣) ر : « فى غير هذا الموضع » .

بِنِعَمِهِ بِكَ ، فيما ضَيَّعْتَ وارتكبتَ بالعراقِ ، من استعانتك بالمجوسِ والنصارى ، وتوليتِهِم رقابَ المسلمين وجِبْوةِ[1] خراجِهِم ، وتسليطِهِم عليهم . نَزَعَ بكَ إلى ذلكَ عِرْقُ سوءٍ فيهم من التي قامت[2] عنك ، فبئس الجنينُ أنتَ يا عُدَيَّ نفسِهِ !

وإن الله عز وجل لمَّا رأى إحسانَ أميرِ المؤمنين إليك ، وسوء قيامك بشكره ، قَلَبَ قلبَهُ فأسخطه عليك ، حتى قَبُحَتْ أمورُكَ عنده ، وآيسَهُ من شكرِكَ ما ظهر من كفرِكَ النعمةَ عندك . فأصبحتَ تنتظرُ سقوطَ النعمة ، وزوالَ الكرامة ، وحلولَ الخزي ، فتأهَّبْ لنوازلِ عقوبةِ الله بك ، فإن الله عليكَ أوجدُ ، ولِمَا عَمِلتَ أكرَهُ ، فقد أصبحتَ وذنوبُكَ عند أمير المؤمنين أعظمُ من أن يُبكِّتَكَ ، إلا راتِباً[3] بين يديه ، وعنده من يُقرِّرُكَ بها ذنباً ذنباً ، ويُبكِّتُكَ بما أتيتَ أمراً أمراً ، فقد نسيتَه وأحصاه الله عليكَ ، ولقد كان لأمير المؤمنين زاجرٌ عنك فيما عَرَّفَكَ به من التَّسَرُّعِ إلى حماقتك في غيرِ واحدة .

منها القُرَشيُّ[4] الذي تناولتَه بالحجاز ظالماً ، فضربك الله بالسَّوْطِ الذي ضربتَه به مفتضحاً على رؤوسِ رعيتك . ولعلَّ أميرَ المؤمنين يعودُ لكَ بمثل ذلك ، فإنْ يفعلْ فأهلُهُ أنتَ ، وإنْ يَصْفَحْ فأهله هو !

---

(١) الجبوة : مصدر جبا الخراج يجباه .

(٢) قال المرصفي : « كنى بذلك عن أمه ، وكانت رومية نصرانية ؛ وهبها عبد الملك لأبيه »

(٣) راتباً : واقفاً .

(٤) هو رجل من بنى عبد الدار بن قصى ؛ وكان قد وفد على سليمان بن عبد الملك ، فسأله عن خالد ، فذكره بشر ؛ فلما سمع خالد بذلك أخذ ابنا له ومولى ، فضربهما بالسياط ضربا مبرحا ، فشكا القرشى إلى سليمان ؛ فأمر رجلا من كلب فسار إلى خالد ، فضربه خالدا وأمره أن يشهر ، ويلبس مدرعة ويمشى إلى الشام ؛ ورآه الفرزدق فنال منه ، فى أبيات مشهورة .

ولعَمْرِى لو ابتُليت ببعض مَقاوِمِ الحجَّاج فى أهلِ العراقِ ، فى تلك المَضايِق التى لَقِىَ ، لعلمتَ أنك رجلٌ من بَجيلةَ ، فقد خرج عليك أربعون رجلا فغلبوك على بيتِ مالِكَ وخزائنِكَ ، حتى قلتَ : « أطعمونى ماءً » ؛ دهَشًا وبَعَلا[1] وجُبْنًا ، فما استطعتهم إلا بأمانٍ . ثم أخفرْتَ ذِمَّتَكَ منهم رَزِينٌ وأصحابُهُ .

ولعَمْرِى أن لو حاول أميرُ المؤمنين مكافأتَكَ بخَطَلِكَ فى مجلسك ، وجحودِكَ فضلَهُ إليكَ ، وتصغيرِ ما أنعم به عليكَ ، فحلَّ العُقْدةَ ، ونَقَضَ الصَّنيعةَ ، وردَّكَ إلى منزلةٍ أنت أهلُها ، كنتَ لذلك مستحِقًّا ؛ فهذا جَدُّكَ يزيدُ بن أسَدٍ قد حَشَدَ مع معاويةَ فى يوم صِفِّينَ ، وعرَّضَ له دينَهُ ودمَهُ ، فما اصطنعَ إلاّ عندَهُ ، ولا ولاَّهُ ما اصطنعَ إليكَ أميرُ المؤمنين ووَلاَّكَ ، وقِبَلَهُ من أهل اليمنِ وبيوتاتهم منْ قَبيلهُ أكرمُ مِنْ قبيلتك ، من كِنْدةَ وغسَّانَ وآلِ ذى يَزَن وذى كَلاَعٍ وذى رُعَيْنٍ ، فى نظَرائهمْ من بُيوتاتِ قومِهم ، كلُّهم أكرمُ أوَّليَّةً ، وأشرفُ أسلافًا ، من آل عبد الله بن يزيد .

ثم آثرَكَ أميرُ المؤمنين بولاية العراق ، بلا بيتٍ رَفيعٍ ، ولا شرفٍ قديمٍ ، وهذه البيوتاتُ تعْلُوكَ وتَغمُرُكَ وتَسكِتُكَ ، وتتقدَّمُكَ فى المحافل والمَجامِعِ عندَ بذاذةِ الأمورِ وأبوابِ الخلفاءِ ، ولولا ما أحبَّ أميرُ المؤمنين مِنْ رَدِّ غَرْبكَ ، لعاجَلكَ بالتى كنتَ أهلَها ، وإنها منكَ لقريبٌ مأخذُها ، سريعٌ مكروهُها . فيها إن أبقَى الله أميرَ المؤمنين زوالُ نِعمهِ عنكَ ، وحلولُ

---

(١) البعل : الدهش عند الروع .

بتصغيره بهم واحتقاره لهم وركوبه إيّاهم الثّقاتُ ، ناسيًا لحديثِ زرنبٍ (١) وقِصصِ الهجريين كيفَ كانتْ فى أسَدِ بن كُرْزٍ ، فإذا خلوتَ أو توسّطتْ ملئًا فاعْرِفْ نفسَك ، وخفْ رَوَاجِعَ البَغى عليك وعاجلاتِ النّقمِ فيكَ .

واعلم أنَّ ما بعدَ كتابِ أميرِ المؤمنين هذا أشدُّ عليك ، وأفْسدُ لك ، وقِبل أميرِ المؤمنين خَلَفٌ منك كثيرٌ ، فى أحسابِهم وبيوتاتِهم وأديانِهم ، وفيهم عِوَضٌ منك ، والله من وراء ذلك .

وكَتَبَ عبدُ الله بن سالم سَنةَ تِسْعَ عشْرَةَ ومائة .



(٢ وهذا بابٌ من مُتَخَلِ طَرِيفِ الشِّعرِ وذِكْرِ آياتٍ من القرآنِ ربّما غلطَ فى مَجازِها النحويّونَ ٢) .

قال أبو العباس : هذا الكتابُ قد وَفّيناهُ جميعَ حقوقِه ، وَوَفَيْنا بجميعِ شُرُوطِه ، إلا ما أذْهَلَ عنه النسيانُ ، فإنه قَلّما يُخْلَى من ذلك ، ونحنُ خاتِموهُ بأشعارٍ طَرِيفةٍ ، وآخِرُ ذلك الذى نَخْتِمُ به آياتٌ من كتابِ الله عز وجل ، بالتوقيف على معانيها إن شاء الله .

[مختارات متفرقة من الشعر]

قال الشاعرُ :

أُذَكَّرُ مَجالِسَ من بنى أسَدٍ ... بَعُدُوا وحَنَّ إليهمُ القَلْبُ

---

(١) زرنب : مولاة تزوجها أحد أجداد خالد فى الجاهلية ؛ وكانت بغياً يعير بها .
(٢ — ٢) ما بين الرقمين مما لم يذكر فى ر .

ومن ذلك ذِكْرُكَ زمزمَ ، وهي سُقيا الله وكرامتُه لعبدِ المطلب وهذا الحيِّ من قريش تسمِّيها أمَّ جعار(١) ، فلا سقاك الله من حوض رسوله ، وجعل شرَّ ما لخير كما الفداء ، ووالله أن لو لم يستدلل أميرُ المؤمنين على ضعف نحائزك وسوء تدبيرك إلاّ بفسالة دخائلك وبطانتك وعُمّالك ، والغالبة عليك جاريتك الرائقة(٢) ، بائعة الفُهودِ ومُستعمِلة الرجالِ ، مع ما أتلفت من مال الله في المُبارَكِ(٣) ، فإنك ادَّعيت أنك أنفقت عليه اثنى عشر ألف ألف درهم . والله لو كنت من ولد عبد الملك بن مروان ما احتمل لك أميرُ المؤمنين ما أفسدت من مال الله ، وضيَّعت من أمور المسلمين ، وسلَّطت من وُلاة السوء على جميع أهل كُوَر عمَلك ، تجمع إليك الدَّهاقينُ(٤) هدايا النَّيْرُوز والمِهْرجان ، حابسًا لأكثره ، رافعاً لأقلِّه ، مع مخابث مساويك التي قد أخَّر أميرُ المؤمنين تقريرك بها ، ومُناصبتك أميرَ المؤمنين في مولاه حسَّان ، ووكيله في ضياعه وأحوازه في العراق ، وإقدامك على ابنه بما أقدمت به ، وسيكونُ لأمير المؤمنين في ذلك نبأ إن لم يَعْفُ عنك ، ولكنه يظنُّ أنَّ الله طالبك بأمور أتيتها ، غيرَ تاركك لتكشيفك عنها ، وحملك الأموالَ ناقصةً عن وظائفها التي جباها عُمَرُ بنُ هُبَيْرة ، وتوجيهك أخاك أسدًا إلى خُراسانَ ، مُظهرًا العصبيَّة بها ، متحاملاً على هذا الحيِّ من مُضر ، قد أتت أميرَ المؤمنين

---

(١) أم جعار : اسم للضبع .

(٢) الرائقة : النازلة الريف .

(٣) المبارك : نهر بالبصرة ، احتفره خالد القسري لهشام بن عبد الملك .

(٤) الدهاقين : التجار .

وقال العَتَّابِيُّ :

لا ترجُ رَجْعةَ مُذنِبٍ خَلَطَ احتجاجاً باعْتذارْ

* * *

وقال أيضاً :

وَفيتُ كلَّ خليلٍ وَدَّني ثمناً إلاَّ المُؤمِّلَ دُولاتي وأيّامي

* * *

وقيل للعَتَّابي : ما أقربُ البلاغةِ ؟ قال : ألاَّ يُؤْتَى السامعُ من سُوء إفهامِ القائلِ ، ولا يُؤتَى القائلُ من سُوء فهمِ السامع . وقال ابنُ يَسيرٍ :

اقْدِرْ بِرِجلكَ قبلَ الخطوِ منزلَها فمن عَلاَ زَلَقاً عن غِرَّةٍ زَلِقَا

وكان يقالُ : اصْمُتْ لِتَفْهَمَ ، واذْكُرْ لِتَعلمَ ، وقُلْ لتَذلُق .

[آيات من القرآن الكريم وبيان ما فيها من المجاز]

وَنذْكُرُ آياتٍ من القرآن ربما غَلِطَ في مجازِها النحويُّون . قال الله عز وجلّ : ﴿ إنما ذلكمُ الشيطانُ يُخَوِّفُ أولياءه ﴾[1] ، مجازُ الآية أنَّ المفعول الأوَّل محذوفٌ ، ومعناه : يُخَوِّفُكم مِنْ أوليائِهِ .

وفي القرآن : ﴿ فَمَنْ شهدَ منكمُ الشَّهرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾[2] ، والشَّهرُ لا يَغيبُ عنه أحدٌ ، ومجازُ الآية : فمن كان منكم شاهداً بَلَدَه في الشهر

---

(١) سورة آل عمران ١٧٥

(٢) سورة البقرة ١٨٥

الشرقُ منزلُنــــا ، ومنزلُهمْ غَرْبٌ ، وأنى الشرقُ والغربُ !

مِنْ كلِّ أبيضَ جُلُّ زينتِهِ مِسْكٌ أحمُّ وصارِمٌ عَضْبُ

* * *

وقال آخرُ :

حياةُ أبى العوّامِ زَيْنٌ لقومِهِ لِكلِّ امرئٍ قاسَ الأمورَ وجرَّبَا

ونعتِبُ أحياناً عليه ولو مضَى لكُنَّا على الباقى من الناسِ أعْتَبَا

* * *

وقال مُسْلِم :

حَيَاتُكَ يا ابْنَ سَعْدَانَ بنِ يَحْيَى حياةٌ لِلمَكارِمِ والمعـــالى

جَلَبْتُ لكَ الثناءَ نجــــاءً عَفْوًا ونفسُ الشُّكرِ مُطْلَقَةُ العِقالِ

وتَرْجِعُنى إليكَ ، وإنْ نأتْ بى دِيَارِى عنكَ ، تجرِبَةُ الرِّجالِ

وقيلَ فى المثلِ : المبالغةُ فى النصيحة تَقَعُ بكَ على عظيمِ الظِّنَّة

* * *

وأنشدنى العباسُ بن الفرجِ الرِّيَاشِيُّ :

وكم سُقتُ فى آثارِكمْ مِن نصيحةٍ وقد يَسْــــتَفِيدُ الظِّنَّةَ المُتَنَصِّحُ

* * *

وأنشدنى الرِّياشىُّ :

إذا الأمرُ أغنَى عنكَ حِنْوَيْهِ فاجْتَنِبْ مَعَرَّةَ أمرٍ أنتَ عنــــه بِمَعْزِلِ

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	صفحة

باب في اختصار الخطب والتحميد والمواعظ

فليَصُمْه ، والتقديرُ « فمن شهد منكم » أى فمن كان شاهداً فى شهر رمضانَ فليَصُمْهُ نَصبَ الظُّروفِ لا نَصْبَ المفعولِ به

وفى القرآن فى مخاطبة فرعونَ : ﴿ فاليومَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَن خَلفكَ آيةً ﴾[1] . فليس معنى « نُنَجِّيكَ » نُخَلِّصُكَ ، لكن نُلقيكَ على نَجْوةٍ من الأرضِ . بِبَدَنِكَ : بِدِرْعِكَ ، يَدُلُّ على ذلك « لتكونَ لمن خلفكَ آيةً » .

وفى القرآن : ﴿ يُخرِجُون الرَّسُولَ وإيَّاكم أنْ تُؤمِنُوا باللهِ ربِّكم ﴾[2] فالوقف ﴿ يخرجون الرسولَ وإيّاكم ﴾ أىْ ويُخرِجُونكم لأنْ تُؤمِنوا باللهِ رَبِّكُمْ .

* * *

هذا آخِرُ الكتابِ الكاملِ . والشُّكرُ للهِ والحمدُ لهُ ، وصلى الله على رسول الله ، ونستغفرُ اللهَ مما قُلْناه من عَمْدٍ وقَصْدٍ وزلل .

---

(١) سورة يونس ٩٢ .
(٢) سورة الممتحنة ١ .

الموضوع	صفحة

باب

وهذا باب قد ذكرنا إياه ووعدنا استقصاءه

الموضوع	صفحة

الفهارس العامة

١ – فهرس الآيات القرآنية

١ – سورة الفاتحة

٢ – سورة البقرة

رقم الآية	الآية	الجزء والصفحة
٢٠٧	إِنَّ اللهَ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ	٢ : ١٤٠
٢١١	سَلْ بَنِى إِسْرَائِيلَ	٢ : ٢٢٨
٢١٧	يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ	٣ : ١٩
٢١٩	وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ	٤ : ٦
٢٣٥	أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِى أَنْفُسِكُمْ	١ : ٢٩٦ / ٢ : ٣٠٧، ١٥
٢٣٥	وَلَـٰكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ	٣ : ٥٥
	تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا	٢ : ٣١٥
٢٤٥	مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا	
	فَيُضَاعِفَهُ لَهُ	١ : ٣٥٢
٢٤٩	كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً	
	بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ	١ : ٣٩١ / ٢ : ٨٩
٢٤٩	فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ	٢ : ٨٩
٢٥٥	لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ	١ : ١٤٨
٢٥٩	لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ	٣ : ٦٧
٢٦٦	فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ	١ : ٣١٩
٢٧٤	الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ	
	سِرًّا وَعَلَانِيَةً	٢ : ٢٦٥
٢٨٢	مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ	٢ : ٤٥

سورة المائدة

٤ — سورة النساء

٦ — سورة الأنعام

رقم الآية	الآية	الجزء والصفحة

٧ — سورة الأعراف

١١ — سورة هود

١٥ — سورة الحجر

١٦ — سورة النحل

١٧ — سورة الإسراء

رقم الآية	الآية	الجزء والصفحة

١٢ — سورة يوسف

٢٠	وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ	١ : ١١٣
٢١	أَكْرِمِي مَثْوَاه	٣ : ١٠٢
٣٦	إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا	٣ : ٩٢
٤٣	إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُون	١ : ٣١١/٣ : ٩٧
٨٠	فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا	١ : ٢٨٢
٨٢	وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ	١ : ١٥١/٢ : ١٤٠
١٠٧	وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ	١ : ٢٧٧

١٣ — سورة الرعد

١١	لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ	٣ : ٩٨
٢٣	وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ	١ : ٣٧٨
٢٤	سلام عليكم	١ : ٣٨٨

١٤ — سورة إبراهيم

٣٤	إِنْ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا	٤ : ١٠٦

رقم الآية	الآية	بالجزء والصفحة

١٩ — سورة مريم

رقم الآية	الآية	بالجزء والصفحة
٥	وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي	٢ : ١٠٢ / ٤ : ٤٦
١٣	وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا	٢ : ١٩٩
٢٤	قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا	٣ : ٢٢٣
٢٦	فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا	١ : ٢٨٩
٥٢	وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا	١ : ٢٨٢
٦٩	أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا	٢ : ٢٥٥
٧٤	هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا	٥ : ٢٣٩
٧٥	إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ	١ : ٢٨٨
٩٧	وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا	١ : ٣٨ / ٣ : ٥٦ ، ١٦٥

٢٠ — سورة طه

رقم الآية	الآية	بالجزء والصفحة
٧	يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى	٢ : ٣٠٦
٤٤	فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى	٣ : ٢٧٠
٤٤	لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى	١ : ١٩٦
٧١	وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ	٣ : ٩٧
٨٤	وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى	٣ : ٢٢٠

٢٣ — سورة المؤمنين

٢٤ — سورة النور

رقم الآية	الآية	الجزء والصفحة
٨٤	وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ	١ : ٣٧٨
١٢٨	أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ	١ : ١٥٧
١٧١	إِلَّا عَجُوزاً فِي الغَابِرِينَ	٣ : ٢٤٧
٢٢٧	وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون	٤ : ١١٨

٢٧ — سورة النمل

رقم الآية	الآية	الجزء والصفحة
٨	نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا	٢ : ١٩٩
٢٥	الَّذِي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ	١ : ٢٥٣ / ٢ : ٢٢٨
٣٤	إِنَّ المُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا	١ ٣٣٥
٧١	قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ	١ : ٣١١/٣ : ٩٧
٨٠	إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ المَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ	٢ : ١٥٤
٨٨	وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ	٣ : ٥٤

رقم الآية	الآية	الجزء والصفحة
٤٣	فترى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ	٢ : ٣٧٩/٣ : ٩١
٤٣	يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بالأَبْصَارِ	١ : ١٩٥ ، ٢٢٠/٣ : ١٢٧ ، ١٧٣/٤ : ٧٤
٤٥	وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاء .	٢ : ٢٧٦
٦٣	قَد يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا	٢ . ٢٧٨

٢٥ — سورة الفرقان

رقم الآية	الآية	الجزء والصفحة
٢١	وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا	٢ : ٢٥٥
٦٦	إنها سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا	١ : ٢٠١
٦٨، ٦٩	وَمَن يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فيه مُهَانًا	٣ : ٣١
٧١	فإنه يَتُوبُ إلى اللهِ مَتَابًا	٢ : ٢٤٣
٧٢	وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإذا مَرُّوا باللغْوِ مَرُّوا كِرَامًا	٣ : ٢٤٧

٢٦ — سورة الشعراء

رقم الآية	الآية	الجزء والصفحة
٤	فظلت أعناقهم لها خاضعين	٢ : ١٤١

٤٢ — سورة الشورى

٤٣ — سورة الزخرف

٤٨ — سورة الفتح

٤٩ — سورة الحجرات

٦٣ — سورة التغابن

٦٥ — سورة الطلاق

٦٦ — سورة التحريم

٦٧ — سورة الملك

رقم الآية	الآية	الجزء والصفحة
	٧١ — سورة نوح	
٢٥	مِمَّا خطيئاتِهِم أُغرِقُوا	١ : ٣٤٢/٢ : ٦٧ ،
٢٦	قَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا	٣ : ٢٨٤ ، ٢٨٨
٢٧	إنّك إن تذرهم يضِلّوا عبادَك	٣ : ٢٨٤ ، ٢٨٨
	٧٢ — سورة الجن	
٣	وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا	٣ : ١٣٦
	٧٣ — سورة المزمل	
١ ، ٢	يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّل قُم اللَّيلَ إِلاَّ قَلِيلا	٣ : ٩١
٢٠	عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى	١ : ٨٣
	٧٤ — سورة المدثر	
٦	وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ	١ : ٢٨٦
٣٠	عليها تسعةَ عشرَ	١ : ١٨٦
	٧٥ — سورة القيامة	
٢٩	وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ	٣ : ٢٢٤

٩٠ — سورة البلد

٩٢ — سورة الليل

٩٣ — سورة الضحى

٩٦ — سورة العلق

رقم الآية	الآية	الجزء والصفحة
٣	وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ	١ : ٣٢ ، ٣٤ ، ٣/٣٧٦ : ٤/٧٠ : ٥٣
١٤	كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ	٣ : ٨٤
١٨	كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ	٢ : ١٠٩
١٩	وما أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ	٢ : ١٠٩

٨٤ — سورة الانشقاق

رقم الآية	الآية	الجزء والصفحة
١٧	وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ	٣ : ٢٢٢

٨٧ — سورة الأعلى

رقم الآية	الآية	الجزء والصفحة
٥	فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى	١ : ٨٤ ، ٢٣٤

٨٨ — سورة الغاشية

رقم الآية	الآية	الجزء والصفحة
٢٥	إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ	٢ : ٥١

٨٩ — سورة الفجر

رقم الآية	الآية	الجزء والصفحة
١	وَالْفَجْرِ	٢ : ١٤٣

رقم الآية	الآية	الجزء والصفحة

١١١ — سورة المسد

٣	سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ	٣ : ٣٩
٤	وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ	١ : ١١٢/٣ : ٣٩
٥	فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ	١ : ١١٢

١١٢ — سورة الإخلاص

١	قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ	١ : ٢٥٢
٢	اللَّهُ الصَّمَدُ	١ : ٢٥٢
٤	وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ	١ : ٩٣/٢ : ٩٨

الحـديث	الجزء والصفحة
افصلوا بين حديثكم بالاستغفار	١ : ٣٠٢
اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً	٣ : ٧١
اللهم إن لم تهد عامراً فاكفنيه	٤ : ٣٢
ألا أخبركم بأحبكم إلىّ وأقربكم منى مجالسَ يومَ القيامة ؟ أحاسنكم أخلاقاً ، الموطئون أكنافاً ...	١ : ٤
ألا أخبركم بشراركم ؟ مَنْ أكلَ وحدَه ، ومَنَعَ رفدَهُ ، وضَرَبَ عبدَهُ ...	١ : ٦٣
أمرنى ربى بتسع ؛ الإخلاصُ فى السرّ والعلانية والعدْلُ فى الغضبِ ...	١ : ٢٠٩
إن سرك أن تعتق الصميم من ولد إسماعيل فاعتق من هؤلاء (لعائشة) .	٢ : ٦٣
إن طَعَنتُم فى إمارته لقد طَعَنتم فى إمارةِ أبيه قَبْلَهُ ، وَلقد كانَ لها أهلاً ، وإنَّ أسامةَ لها لأهلٌ	٤ : ١٣
أنا أَوْلَى مَنْ أوْفَى بذمّتهِ	٢ : ١٨٨
أنا الجفنةُ الغرّاء	٣ : ٦٠
أنا فرطكم على الحوضِ	٤ : ٦
أنا من نِكاحٍ لا من سفاحٍ	٢ : ١٣٠

٢ — فهرس الأحاديث النبوية

. دعوه فإن يرد الله به خيرا فيلحقه بكم (من كلامه عليه السلام عن أحد الثلاثة الذين خلفوا) — ٣ : ٩٣٠

* * *

(ر)

رُدُّوا عليَّ أبي ، أمَا لَئِنْ فعلتْ به قريشٌ ما فعلتْ ثقيفٌ بعروةَ بن مسعودٍ لأضرمَنَّها عليهم نارًا (من كلام له عن العباس) — ٢ : ٩٠٦

* * *

(س)

سِيماهم التَّحليقُ ، يقرءونَ القرآن لا يُجاوزُ تَرَاقِيَهُمْ ، عَلامَتُهُمْ رَجُلٌ مخدجُ اليد — ٣ : ٢٢٠

* * *

(ص)

صَاحِبُكُمْ هَذَا قَدْ غَسَلَتْهُ الملائكةُ (لحنظلة بن أبي عامر الأنصاري) — ٤ : ١٠٢

صُهَيْبٌ سابقُ الرُّوم ، وسَلْمَانُ سابقُ الفرس ، وبلال سابق الحبشة — ٢ : ٢٢٥

* * *

الحديث	الجزء والصفحة

***

(م)

الحديث	الجزء والصفحة
لا نذر فى معصية ، ولا نذر للإنسان فى غير ملكه .	١ : ١٢٩
لا تزالُ أمتى صالحاً أمرُها مالم ترَ الفيْء مَغنَمًا ،	
والصدقةَ مَغْرَمًا .	١ : ٣٠٣ ،
لا تقومُ الساعة حتى يلى أمر الناس لكع ابن لكع	١ : ٢٦١
لا تُؤْذُوا الأحياء بِسَبِّ الموتى	٣ : ٢٧٩
لا يَرَاحُ القَتَّاتُ رائحةَ الجنّةِ .	٢ : ٣١٤
لا ينفع كذلك لأنك لم تبغ به وجه الله . . .	
(لصعصعة بن ناجية)	٢ : ٨٥
لست من دَدٍ ولا دَدٌ منى .	١ : ٣٦٦
لعل الله ينقلكموها « فى غير قريش » .	١ : ٣٣٦
لعَنَ اللهُ المثلِّثَ . فقيل : يا رسولَ اللهِ ، ومن المثلِّثُ ؟	
فقال : الذى يَسْعَى بصاحِبه إلى سُلْطانِه.	٢ : ٣١٤
لقد أبكيت بما ذكرت ملائكة السماء .	
(لقبيصة بن المخارق)	٢ : ٢٩
لقدْ هممتُ ألا أقبلَ هديَّة	٢ : ٢٥
لله من عِبادِهِ خيرَتانِ ، فخيرتُهُ من العربِ قُرَيْشٌ ،	
ومن العَجَمِ فارِسُ	٢ : ١٢١
لو تكاشَفْتُمْ ما تدافنتم	١ : ٣٠١

الجزء والصفحة

٣ — فهرس الخطب والعهود

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

٤ — فهرس الرسائل

	الجزء والصفحة
أنكحنا الفرى فسترى	١ : ٣٢٠
إنه ليسر حسوا فى ارتغاء	١ : ٩١
أينما أذهب ألق سعدا	١ : ١٧٤
بلغ الحزام الطبيين	١ : ١٨
تحسبها حمقاء وهى باخس	١ : ٣٥٢
جرى المذكيات غلاب	١ : ٣٨٦
الحق أبلج والباطل لجلج	١ : ١٥
خرط القتاد	١ : ٣٢٩
خرقاء وجدت صوفا	١ : ٢٤٣
خير الأمور أوساطها	١ : ٢٤٣
خير العلم ما حوضر به	١ : ٣٠٣
خير من دب ودرج	٢ : ٥٥
رب عجلة تهب ريثا	١ : ٢٠٥
رجل ولا كمالك	٢ : ١٤٩
رمتنى بدائها وانسلت	١ : ١١٨
رو تحزم، فإذا استوضحت فاعزم	١ : ٨٧
رئم بوضيم	١ : ١٠٦
زمن الفطحل	٢ : ١٩٩
سألتنى الأبلق العقوق	٢ : ٢٧١
سألتنى بيض الأنوق	٢ : ٢٧١
سمنهم فى أديمهم	١ : ١٧٢

٥ — فهرس الأمثال

٦ — فهرس اللغة(*)

(*) للكلمات التي شرحها المؤلف

(الحاء)

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

(الدال)

(الخاء)

(الذال)

«السين»

«الزاى»

«الشين»

«الفاء»

(الغين)

«القاف»

الجزء والصفحة

(النون)

الجزء والصفحة

(الباء)

٧ — فهرس الأشعار

صدر البيت	القافية	البحر	القائل	الجزء والصفحة
على ذاك	وأحلبوا	طويل	الكميت بن زيد	١ : ٣٢٩
أهاب	وقلوب	»	. . .	١ : ٣٤٥
كذبتم	وتحلب	»	. . .	١ : ٣٨٣
فلله	جانب	»	. . .	٢ : ٨
فمالى	مشعب	»	الكميت بن زيد	٢ : ٩٠
إذا خلة	قلب	»	عباد بن عباد	٢ : ١٣٦
لكل أخى	وهب	»		٢ : ١٤٤
بزينب	القلب	»	نصيب	٢ : ١٥٦
كأنى	رطاب	»	عبيد بن أيوب	٢ : ٢٠٠
يكذبنى	أكذب	»	السليك	٢ : ٢٠٣
أبا دلف	أكذب	»	بكر بن النطاح	٢ : ٢٠٨
إنى امتدحتك	الكاذب	كامل	. . .	٢ : ٢٠٨
حلفت	رقيب	طويل	قيس بن ذريح	٢ : ٢٤٢
بزينب	القلب	»	نصيب	٢ : ٢٥٦
إن عيالى	وزبيب	»	جرير	٢ : ٢٧٢
وما غائب	غائب	»	أبو حية النميرى	٢ : ٢٩٧
لكل أخى	ثواب	»	. . .	٣ : ٧
فلا تحرمنى	عريب	»	علقمة الفحل	٣ : ١٦
فإنك	كوكب	»	النابغة	٣ : ٣٣
إذا وردت	وصبيب	»	علقمة الفحل	٣ : ٣٤

صدر البيت	القافية	البحر	القائل	الجزء والصفحة
لعمرى	العذب	طويل	إسحاق بن إبراهيم الموصلى	٢٨٢:٢
لا أكتم	قلبى	»	. . .	٣١٤:٢
عرضت	بكوكب	»	بكر بن النطاح	٣:٣
كأن عيون	مثقب	»	امرؤ القيس	٣٣:٣
بكت	غالب	»	إسماعيل بن عمار بن عيينة	٨٢:٣
ألم تر	تطيب	»	امرؤ القيس	١١٦:٣
حديث	المتقارب	»	. . .	١٦٣:٣
لسانك	الكرب	»	أبو الوازع	٢٧٧:٣
مواقفنا	حوشب	»	. . .	٣٤٢:٣
ولست بمفراح	المتقلب	»	هدبة	٨٦:٤
ماوجدت	أم كلاب	»	»	٨٦ ٤
كنا	الظنابيب	بسيط	سلامة بن جندل	٣:١
بل	الهرب	»	يحى بن نوفل	٣٢:١
أمرتك	نشب	»	إياس بن عامر أو أعشى طرود	٣٣:١
ولا تلاقى	بشؤبوب	»	النابغة	٤٣:٢
أما رأيت	وكتاب	»	. . .	١٠٥:٢
يا مالك	والحسب	»	جرير	٥٩:٢
سألت	تصب	»	حسان بن ثابت	١٠٠:٢
إن النموم	الكذب	»	أبو العباس المبرد	٢١٢:٢
فاليوم	عجب	»	. . .	٣٩:٣

صدر البيت	القافية	البحر	القائل	الجزء والصفحة
وركب	بالعصائب	طويل	الفرزدق	١ : ١٨٣
يمرون	الحقائب	»	. . .	١ : ١٨٤
عسى الله	سكوب	»	سماعة بن أشول	١ : ١٩٦
أعشى	كاربى	»	. . .	١ : ١٩٦
وقيل	هبى	»	طفيل الغنوى	١ : ٢٧٥
شكوت	حبى	»	. . .	١ : ٢٨٥
ولم أر	المحصب	»	المجنون	١ : ٢٩٣
هل الجود	قضيب	»	الفضل بن المهلب	١ : ٣١٠
لعمرى	مركب	»	. . .	١ : ٣١٥
ولا عيب	الكتائب	»	النابغة	١ : ٣٤٦
أعادل	وقريبى	»	النمر بن تولب	١ : ٣٧٣
ألاقل	المهلب	»	ابن أبى عيينة	٢ : ٢٧
جحدت	العواقب	»	. . .	٢ : ٩٤
فلو كان	مصعب	»	. . .	٢ : ١٣٤
غشن	مضهب	»	امرؤ القيس	٢ : ١٤٧
ألاحى	بقريب	»	نصيب	٢ : ١٥٨
وقد تعتريه	قريب	»	. . .	٢ : ٢٢٢
ديار	الركائب	»	قيس بن الخطيم	٢ : ٢٥٩
ليس بعد	مصعب	»	الأحوص	٢ : ٢٦٣
تخيرن	التجارب	»	النابغة	٢ : ٢٧٣

(الدال)

صدر البيت	القافية	البحر	القائل	الجزء والصفحة
سأطلب	لتجمدا	طويل	.	١ : ٢٠٢
يرى	واحدا	»	الأعشى	١ : ٢٦٤
أتانا	ولا نقدا	»	. .	١ : ٣٩٢
يؤدبنى	ماعدا	»	أبو العسوس	٢ : ٦٥
وفيها	أصيدا	»	الأعشى	٢ : ٢٨٨
قال	سعيدا	»	أبو الشمقمق	٣ : ٧
أتيت	جامدا	»	الأعشى	٣ : ١٥
عليك	خالدا	»	الفرزدق	٣ : ٨٧
أجدك	وأشهدا	»	الأعشى	٣ : ١٣٦
فلو أن	عودها	»	. .	١ : ٢٩٤
شريد	أبدا	بسيط	ابن مفرغ	١ : ١١٣
راحت	ولا السددا	»	أبو وجزة السعدى	١ : ١٨٧
راحت	أحدا	»	»	١ : ١٨٨
أوفى	وردا	»	أبو داؤاد الإيادى	١ : ٢٣١
إذا تجاوب	الجلدا	»	عبد مناف بن ربع الهذلى	٢ : ١٦١
قل للسرى	صددا	»	أبو الهندى	٣ : ٤٤
اللؤم	وما ولدا	»	. . . .	٣ : ٧٦
قوم	قودا	»	. . .	٤ : ٤٤
ماذا يغير	رقدا	»	عبد مناف بن ربع	٤ : ٥٤
يعود	الشدادا	وافر	جرير	١ : ٢٣١

صدر البيت	القافية	البحر	القائل	الجزء والصفحة
وأنى	يهتدى	طويل	الحطيئة	١:٣٨٦
يرى	غد	»	» » »	٢:٨
وإن آنست	الغد	»	الحطيئة	٢:٢٢
يسمونا	المزاود	»	» » »	٢:٦١
أعريان	إياد	»	ابن نوفل	٢:٦٤
لاتحمدن	لوالد	»	» » »	٢:٧٢
إن تنصفونا	ببعاد	»	مالك بن الريب	٢:١٠٤
ألا هل	المهند	»	» » »	٢:١٤٩
وفى السر	المحاتد	»	» » »	٢:١٥٣
أهيم	بعدى	»	نصيب	٢:١٥٧
أسائل	الرفد	»	أبو تمام	٢:١٦٩
أيا ابنة	الورد	»	قيس بن عاصم	٢:١٧٩
إذا كنت	سعد	»	النمر بن تولب	٢:١٨١
وإن أدع	فاجهد	»	طرفة	٢:١٨٩
أ أن	الرند	»	ابن الدمينة	٢:٢٤٠
فإن تسل	لا بالتجلد	»	كثير	٢:٢٥٤
كتمت	خدى	»	» »	٢:٣١٢
أقول	خدى	»	الحسين بن الضحاك	٣:٣
ألا قل	بلاد	»	» » »	٣:٧

(الذال)

(الراء)

صدر البيت	القافية	البحر	القائل	الجزء والصفحة
وكأن تحت	سحرا	مجزوء الكامل	بشار بن برد	٣:١٤٨
فاقتل	زراره	»	عمرو بن ملقط	١:١٧٠
وتكون	زرارة	»	الأعشى	١:١٧٠
بيضاء	كالعرارة	»	»	٣:١١٦
رأيت	عبارا	سريع	. . .	٢:٤٨
أيها الرائح	الأوطارا	خفيف	ابن أبي ربيعة	٢:٢٣٠
وزيدك	عفارا	متقارب	الأعشى	١:٢١٢
أكل	نارا	»	عدى بن زيد	١:٢٨٧
إذا كان	الأميرا	»	الأعشى	١:٣٣١
أياذا	صدورا	»	ابن أبي عيينه	٢:٣٢
فكيف أنا	عارا	»	الأعشى	٢:٣٧
كأن الغطاط	غفارا	»	ذو الرمة	٢:١٦٠
لها زجل	دبورا	»	الأعشى	٣:٥٨،٦٠
أكل	نارا	»	عدى بن يزيد	٣:٩٩
لها حافر	مغارا	»	ابن الخرع	٢:١١١
ومن لا تضيع	ضمارا	»	الأعشى	٣:٣٢٠
وقد علم	وفر	طويل	حاتم الطائى	١:٢٤
وقرن	الخطر	»	ذو الرمة	١:٤٣
ليسوا	المقابر	»	. . .	١:٤٩
رأت	فيحضر	»	ابن أبي ربيعة	١:٧٠،٢٩٣

صدر البيت	القافية	البحر	القائل	الجزء والصفحة
وكائن	مقنعا	طويل	. . .	٣٢١:٣
رحيب	ذرعا	»	. . .	٤٠٧:٣
فإن يك	منقعا	»	. . .	١٩:٤
يقول	لتدمعا	»	الفرزدق	٢٨:٤
وكنا	يتصدعا	»	متمم بن نويرة	٣٠:٤
قتلت	وأجزعا	»	دريد بن الصمة	٤٤:٤
فلو كان	جوعا	»	. . .	٥١:٤
أقول	تريعا	»	متمم من نويرة	٧٢:٤
فإن يك	بأجدعا	»	هدبة	٧٦:٤
ولها	جمعا	مديد	يزيد بن معاوية	٣٨٤:١
قد عشت	والفظعا	بسيط	. . .	١٩٢:١
أبا المنازل	فجعا	»	إبراهيم بن عبد الله	٢٥٩:١
من ير	أو وضعا	»	الأعشى	٢٣:٣/٢٤:٢
وقلدوا	مضطلعا	»	لقيط الأيادى	٤٠٦:٣/١٥٢:٢
ما نظرت	سجعا	»	»	٢٤:٣
ولا تعليت	الطلعة	»	. : :	٢١٠:١

صدر البيت	القافية	البحر	القائل	الجزء والصفحة
أخى	حقا	وافر	أبو نواس	١٦:٢
لمن ربع	خلقا	مجزوء الوافر	. . .	٢٦٤:٢
مد الزبير	العيوقا	كامل	بلال بن جرير	١٣٤:٢
إن أولى	حقيقا	خفيف	عقبة بن شماس	٢٧١:٢
أعاذل	مشفقا	متقارب	أبو عيينة	٣٦:٢
سقى	ريقا	»	. . .	٣٧:٢
فكنا	أورقا	»	. . .	٣٨:٢
كفى	تفهق	طويل	الاعشى	٦:١/٨٦:٣
كأن	وصديق	»	عدى بن زيد العبادى	٤١:١
ماصائب	وثيق	»	جميل	٦٨:١
طراق	يترقرق	»	ذو الرمة	١٥٧:١
وإن عتاق	معلق	»	الأعشى	١٨٧:١
تشب	والمحلق	»	»	٢٥٧:١
أحار	وتسرق	»	أنس بن أبى أنيس	٣١٦:١
وأقسم	ومشرق	»	. . .	٣٣٩:١
أباهل	وأولق	»	عيينة بن حصن	٢٠٦:٢

(الكاف)

صدر البيت	القافية	البحر	القائل	الجزء والصفحة
ألا من	الشكلى	مجزوء الوافر	أم ابى عبيد الله بن عباس	٣٦:٤
ألا ياصخر	طويلا	وافر	الخنساء	٥٨:٤
أخذوا	مغلولا	كامل	الراعى	١٩٨:١
وزجا	لينالا	»	جرير	٢٢٢:١
قالوا الرحيل	رحيلا	»	أبو تمام	٤٢:٢
لا تطلبن	أخوالا	»	جرير	٢٩٥،١٥٧:٢
كذبتك	خيالا	»	الأخطل	٢٤٥:٢
ودع	تسالا	»	عمر بن أبى ربيعة	٢٦٦:٢
والزنج	أبطالا	»	رباح بن سنيح الزنجى	٢٩٥:٢
إن الغوانى	قتيلا	»	مروان بن ابى حفصة	٢٩٥:٢
فتلوا	مخذولا	»	الراعى	٢٩:٣
ورجا	لينالا	»	جرير	٣٩:٣
وكأنما	وعولا	»	الراعى	٤١:٣
انى تذكرنى	هديلا	»	جرير	٦١:٣
لو كنت	صليلا	»	الفرزدق	١٠٠:٣
زجل	عجولا	»	الراعى	٥٤:٤/١٢٣:٣

صدر البيت	القافية	البحر	القائل	الجزء والصفحة
إنى	رحم	بسيط	المغيرة بن حنباء الحنظلى	٣:٤١٣
أمست	مرتـكم	«	إسحاق بن خلف	٤:٢٠
تمرون	حرام	وافر	جرير	١:٣٤
عوى	انتقام	«	«	١:١١٠
ولست	طعام	«	النابغة أو أوس	١:١٥٨
وترفع	اليم	«	ذو الرمة	١:٢٠١
فبات	الظلام	«	. . .	١:٢٣٣
فأصبح	هشام	«	. . .	٢:١٤٢
اتنسى	البشام	«	جرير	٢:٢٦١
ألبان	حرام	كامل	. . .	١:٥٩
وقفوا	ماهم	«	ابن أذينة	١:٢٩٥
اضحت	كلوم	«	العتبى	٢:٤١
كالبيض	نعيم	«	. . .	٣:٥٢
لحقت	المعتم	«	. . .	٣:٧٠
وعلى عدوك	والإظلام	«	أشجع السلمى	٢:٩٨
سبط	قيام	«	أبو نواس	٣:١٣٨
إن الذين	المحرم	«	. . .	٢:٢٧٦
ابن عقيل	اكرم	«	. . .	٣:٢١٦

صدر البيت	القافية	البحر	القائل	الجزء والصفحة
ألاقل	محرم	طويل	. . .	٣:٢٩
وصافية	وعام	»	إسحاق الموصلى	٣:٥٢
فياظبية	أم سالم	»	ذو الرمة	٣:٥٥
كأن	لم يحطم	»	زهير	٣:٩٢
من مبلغ	وحنتم	»	النعمان بن عدى	٣:٩٢
فلما وردنا	المتخيم	»	زهير	٣:١٠٢
ومما شجا	بالتنسم	»	نصيب	٣:١٢٥
تعالوا	الأكارم	»	جرير	٣:١٣٨
بيننا	بنجوم	»	أبو نواس	٣:١٤٤
ثلاثة	المصمم	»	عبد الرحمن بن ملجم أو ابن أبى مياس	٣:١٩٧
ورثتم	وهاشم	»	الفرزدق	٣:٢٠٤
تخبر	عارم	»	كثير	٣:٢٠٤/٣:٢٦٥
لعمرك	حكيم	»	قطرى بن الفجاءة	٣:٢٩٧
فإن تك	قماقم	»	. . .	٣:٣٢٨
ومستعجب	لم يترمرم	»	المهلب	٣:٣٨٥
دعى اللوم	عاصم	»	يزيد بن حبناء	٣:٤٠٩
لقد لمتنا	بنائم	»	. . .	٣:٤١٠
فإنى لأرضى	آل هاشم	»	جرير	٤:٤٩

(الهاء)

٨ – فهرس الأرجاز

٩ — فهرس أنصاف الأبيات

الألف

الباء

التاء

الراء

الكاف

اللام

الميم

الزاى

السين

العين

الفاء

القاف

١٠ — فهرس الأعلام

الواو

النون

الياء

(ت)

(ب)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(ر)

(س)

(ز)

* انظر التصويبات

(ط)

(ظ)

(ع)

(ق)

(ل)

(م)

(ق)

(ق)

(غ)

(ف)

(ل)

(م)

(و)

١١ — فهرس الأمم والأرهاط والفرق والقبائل

(ا)

* * *

(ب)

١٢ — فهرست أسماء البلاد والأماكن

(ا)

* * *

(ت)

* * *

* * *

(ح)

(ث)

* * *

(ج)

* * *

* * *

(خ)

* * *

(ز)

* * *

(س)

* * *

(ش)

* * *

(غ)

* * *

(ض)

* * *

(ط)

* * *

(ظ)

* * *

(ع)

(ك)

(ف)

* * *

(ق)

(ل)

* * *

(م)

* * *

(هـ)

* * *

(ن)

١٣ – فهرس الأيام

تصويب واستدراك وتعليق

الجزء الأول

ص	س	الصــواب
٧	١٧	ورَفَعَتْهُ
١٠	١٣	(٢) (٣)
١٠	١٩	(٢) (٣)
١٠	٢٠	(٤)
١٠	٢١	(٥)
٢٥	١٢	هؤلاء
٥٧	٨	من الكَرِيم
٦٦	١٧	نحو المهالبة والمسامعة والمناذرة والأحامرة
٨٨	٩	مُشيح
٩٩	٣	مشيَّدَةٍ
١٠٩	١٩	توجّس
١١١	١٦	« . . النهشلِيّ عن أبي رياش »
١١٢	٢١	تحذف كلمة ، « وانظر » .
١١٦	٩	عمر بن ذر
١٢٥	١٨	البلوية
١٢٧	١٥	« عن مسألة » كذا ورد فى الأصل ، وفى س « عن شىء »
١٤٨	٢٠	إذا ضربته الريحُ
١٦٢	٣	قال أبو العباس

١٤ – فهرس الكتب الواردة فى الكتاب وزياداته

الجزء الثانى

ص	س	الصـــواب
٧	١	ابن أبى عيينة
٤٤	٥	يزيد بن مَفرّغ
٦٤	١	عابر
٦٤	٧ ، ٨	تحذف هذه العلامة « »
٧٧	١١، ١٦	رءوس
٧٨	١٢	رءوس
٧٩	٢١	غليظة القوائم
٨٠	٩	لُجَيْم
٩٤	٧	مولى لتمام بن عباس بن عبد المطلب
١١٠	١٣	كتاب الحجاج إلى عبد الملك
١٨٨	١٤	لأستحيى
١٩٩	٣	« فقالت حنان ما أتى بك هاهنا »
٢٠١	١	الدوابر
٢٢٤	٨	« إن تقبلوا اليوم »

ص	س	الصواب
١٨٢	٢	لنصيب فى المدح
١٨٢	١٥	نقد لشعر نصيب
١٩٤	١٢	شِمر
٢١٨	١٧	عمرو بن قميئة
٢٢٩	١٦	مصعب بن الزبير
٢٣١	٣	أبو دواد
٢٣٢	٣٠	من بنى العنبر
٢٤٢	٣	عن ابن أبى مليكة
٢٥٠	١٢	قال الحطيئة
٢٦٨	١٢	سلامُ بن أبى الحقيق
٢٧٥	٧	وَهًا وهلاَ
٢٨٧	٢١	أبو دواد
٢٩٢	١١	حَرِجًا
٢٩٦	٩	لعبد الرحمن بن حسان
٣١٣	٨	يزيد بن مَزْيَد
٣١٤	١٠	مِئْزَرِها
٣٢٨	١٩	يزيد بن الصّعَق
٣٧٥	٣	حُمّ

الجزء الثالث

ص	س	الصـــواب
٢٥	٤	واللُّجُم
٦٦	٧	حَجْرة
١٢٢	٧	« كأنّ في فيه »
١٣٦	٩	وأشهدا
١٤٤	١	« إذا عبّ فيها »
١٤٥	١	« تدّريها »
١٤٦	٢	لِحَجْل بن نضلة
١٥٤	٢	ساعدا ذيب
٢٢٠	٧	يقرءون
٢٦٢	١٣	قال الراهبين المرادى
٢٧٦	٦	عبد الله بن وهب
٢٨٣	٢	وما تعبدون
٢٨٧	١٨	صلوات

الجزء الرابع

ص	س	الصـــواب
٥٥	١٤	« وبعن به المقابلة . . . »
٦٧	١٦	« إنّى انصبيت »
٧٠	١٧	« الخنوت لقب توبة بن مضرس »
٧٢	٩	مراثى متمم . . .
١٢٠	١٧	وشيبة